

الفيلد مارشال / إريتش فون مانشتاين
إنتصارات ضائعة
المذكرات الحربية لأبرع قادة هتلر

الفيلد مارشال / إريتش فون مانشتاين

إنتصارات ضائعة

المذكرات الحربية لأبرع قادة هتلر

مقدمة الكاتب

هذا الكتاب عبارة عن رواية شخصية لجندي ، حيث إمتنعت فيه عن الخوض في مناقشة أي مسائل سياسية لم يكن لها أي تأثير مباشر على سير الأمور في الشأن العسكري ، و في نفس السياق أورد مقولة النقيب " بي إتش ليديل هارت "[1] :

" لقد كان الجنرالات الألمان في هذه الحرب أفضل ما أنتجته هذه المهنة في أي مكان ، و كان بإمكانهم أن يكونوا أفضل لو كان أفُقهم أوسع نطاقاً و فهمهم أعمق ، و لو صاروا فلاسفة لتوقفوا عن مجرد كونهم جنود ".

و قد بذلت جهداً كي لا أعرض الأمر بشكل إسترجاعي و لكن لإبراز تجاربي و أفكاري و قراراتي كما تجلت لي وقتها ، بمعنى آخر لم أكتب هذا الكتاب كمحقق تاريخي و لكن كشخص لعب دوراً هاماً فيما يتعلق بموضوع هذا الكتاب ، و برغم محاولاتي لإظهار الموضوعية تجاه كل ما حدث و الأضخاص الذين تضمنتهم الأحداث و القرارات التي أصدروها ما يزال رأيي حول كل ذلك شخصياً ، و ما أزلت أتمنى أن يكون ما أكتبه مفيداً للمؤرخين الذين الذين لم يستطيعوا الوصول للحقيقة عبر الملفات و الوثائق ، و الشيء الأساسي الواجب معرفته كيف كانت الشخصيات الرئيسية تفكر و تتصرف إزاء الأحداث و من النادر أن تجد إجابات لهذا في الملفات أو الوثائق الحربية.

و في سبيل وصف الحملة الهجومية الألمانية على الغرب في ١٩٤٠ كان علي أن أخالف وصية العميد " فون سيكت "[2] التي تنص على عدم ذكر أسماء ضباط هيئة الأركان فأنا أشعر بحرية الآن تسمح لي أن أفعل ذلك خاصة و أن هذا الموضوع كان النقاش حوله غير مسموح لفترة طويلة ، و قد كان في الواقع قائدي السابق الفيلد مارشال " فون رندستيدت "[3] و قائد العمليات الجنرال " بلومنتريت "[4] هما من أخبرا "ليديل هارت " بقصة هذه العملية في وقت لم أكن أنا أود مقابلته فيه.

[1] بي إتش ليديل هارت : هو السير البريطاني باسيل هنري ليديل هارت و هو مؤرخ عسكري عاش بين ١٨٩٥ - ١٩٧٠.
[2] هانز فون سكيت : قائد عسكري ألماني قاتل في الحرب العالمية الأولى و عاش بين ١٨٦٦ – ١٩٣٦ .
[3] جيرد فون رندستيدت : فيلد مارشال ألماني خلال الحرب العالمية الثانية عاش بين ١٨٧٥ – ١٩٣٥.
[4] جونثر بلومنتريت : جنرال ألماني عاش بين ١٨٩٢ – ١٩٦٧.

و قد ضمنت هذا العرض للأحداث و المسائل العسكرية أحياناً بعض الأمور ذات الطبيعة الشخصية إيماناً بوجوب تواجد العنصر الإنساني حتى في الحرب ، و يرجع السبب في غياب مثل هذا العنصر في الفصول الأخيرة من الكتاب إلى القلق و عبء المسئوليات التي تحملتها في تلك الفترة و التي حجبت كل شيء آخر.

و قد جعلتني المهام التي مارستها خلال الحرب العالمية الثانية أعالج الأمور بمنظور القيادة العليا ، و أتمنى أن يكون واضحاً أن العامل الحاسم فيها هو سمات التضحية بالنفس و الإيثار و الإخلاص للواجب التي يتمتع بها الجندي الألماني المقاتل مرتبطة مع مهارات القادة و إستعدادهم لتحمل المسئولية ، و تلك كانت الصفات التي أهلتنا لتحقيق إنتصاراتنا ، و هي فقط ما أهلنا لمواجهة التفوق الساحق لأعدائنا.

و بمناسبة هذا الكتاب يتوجب علي توجيه العرفان إلى قائدي في المرحلة الأولى من الحرب : الفيلد مارشال " فون رندستيدت " للثقة التي كان دوماً يضعها فيّ ، و لكل القادة و الجنود أياً كانت رتبتهم و الذين عملوا تحت قيادتي ، و لكل الرجال الذين عملوا في مراكز القيادة التي شغلتها على تنوعها ، و على الخصوص لكل ضباط هيئة الأركان و القيادة العامة الذين دوماً كانوا يدعمونني بالنصائح.

و في النهاية أود أن أشكر كل من عاونني في إعداد هذه المذكرات: قائدي السابق الجنرال " بوس "[١] ، و ضباط هيئة الأركان " فون بلومريودر " و " أيزمان "[٢] و "آنوس " و الذين شجعوني على كتابة مذكراتي ، و لـ " هير فريد هيلدنبراندت " الذي ساعدني على تنظيمها ، و لـ " هير ديبلنج ماترن " الذي ساعدني على تزويدها بالخرائط.

.... إريتش فون مانشتاين

[١] ثيودو بوس :جنرال ألماني عاش بين ١٨٩٧ – ١٩٨٦ .
[٢] هانز جورج أيزمان : من القادة الألمان على الجبهة الشرقية في الحرب العالمية الثانية .

الفهرس

الباب الأول

الحملة على بولندا

١

قبل العاصفة

لقد رصدت تطورات الموقف منذ تحقيق الأنشلوس[١] مع النمسا بوجهة نظر بعيدة عن المنظور العسكري ، و بعد أن رُقيت في أول فبراير ١٩٣٨ إلى ثاني أهم مركز قيادة في ألمانيا ألا و هي منصب نائب رئيس الأركان إنتهت مهنتي في القيادة العامة حتى تمت الإطاحة بالعميد " بارون فون فريتزتش " من منصبه كرئيس هيئة الأركان على يد مكيدة حزبية شيطانية ، و بالتالي تمت الإطاحة بكل رجاله – و من بينهم أنا – من قيادة الجيش العليا ، و منذ ذلك الحين توليت قيادة الفرقة الثامنة عشر و لم أكن قادراً على معرفة ما يدور داخل *القيادة العليا للجيوش الألمانية*[٢].

و منذ أبريل ١٩٣٨ بدأت تكريس نفسي لصالح عملي كقائد فرقة ، و كان أمراً يشعرني بالرضا أكثر من أي منصب آخر ذلك الوقت ،لكنه تطلب بذل جهد إستحوذ على كل أونصة من طاقتي خاصة أن عملية تطوير الجيش كانت في أول خطواتها ، فقد تطلب الإنشاء المستمر لوحدات جديدة إعادة تنظيم تلك الموجودة بالفعل بإستمرار ، كما أن سرعة التسليح - و خاصة زيادة عدد الضباط و ضباط الصف – كانت تعني إيقاع أكثر المهام قسوة على عاتق كل القادة في شتى الرتب و المستويات ذلك إن أردنا الإعداد الحقيقي لقوات على مستوى عالٍ من التدريب تكفل حماية الرايخ، و النجاح في هذه

[١] الأنشلوس : مصطلح ألماني يشير إلى الوحدة مع النمسا في مارس ١٩٣٨.
[٢] القيادة العليا للجيوش الألمانية: هي المؤسسة القيادية الأعلى للجيش الألماني ، تأسست عام ١٩٣٥ كجزء من خطة إعادة التسليح التي شرع "هتلر" في تنفيذها .

المهمة كان أمراً ساراً خاصة بالنسبة لي ، فبعد أن قضيت سنوات في " برلين " ها هي الفرصة تتاح لي مجدداً لأكون على تواصل بوحدات الجيش، و أكثر ما أتذكره في ذلك العام و النصف من السلام هو آولئك الجنود السليزيون[١] الذين يشكلون الفرقة الثامنة عشر ، و لقد كانت " سيليزيا " تنجب جنوداً جيدين منذ قديم الزمن ، لذا وجدت في إعداد و تدريب الوحدات الجديدة مهمة مجزية .

صحيح أن الفصل الإضافي الموجز المتمثل في عملية غزو "أرض السوديت" [٢] قد وضعني في هيئة رئاسة أركان الجيش يرأسني العميد " ريتر فون ليب " ، و قد عرفت أن النزاع تفجر بين الجنرال " بيك " رئيس هيئة الأركان و " هتلر " حول المسألة التشيكية و الذي أدى بكل أسف لإقالة هيئة الأركان و هو الأمر الذي قطع الخيط بيني و بين *القيادة العليا للجيوش الألمانية* .

و لم أعلم بأمر العملية " الأمر أبيض " التي شملت أول تموضع للقوات في وضع هجومي ضد بولندا إلا في صيف ١٩٣٩ للتجهيز إنتظاراً لأوامر " هتلر " ، و على النقيض كانت كل الإستعدادات العسكرية على الجبهة الشرقية دفاعية.

و ضمن العملية السابقة تم تعييني كرئيس هيئة أركان مجموعة الجيوش الجنوبية بدلاً عن العميد " فون رندستيدت " الذي أحيل للتقاعد ، و كان مخططاً لهذه المجموعة أن تتموضع في "سيليزيا" و "مورافيا الشرقية" و "سلوفاكيا" وفقاً للترتيبات التي كنا نعمل وفقاً لها.

و لما كانت قيادة مجموعة الجيوش لا تنعقد إلا في حالات التعبئة العامة تم عقد مجموعة عمل صغيرة للتصرف مع العملية الجديدة، و قد إجتمعت في ١٢ أغسطس ١٩٣٩ في "سيليزيا" بمنطقة التدريب في "نيوهامر" ، و كان عليها العمل تحت إمرة العقيد "فون بلومنتريت" – ضابط القيادة العامة الذي كان قدره قيادة العملية (آي إيه) عند إعلان التعبئة ، و كان هذا ضربة حظ غير عادية بالنسبة لرجل أعتبره أحد أكثر الشخصيات الإستثنائية ثقة فيه ، و قد نمت العلاقة بيننا عندما كنا نعمل سوياً في قيادة جيش الجنرال "فون ليب" إبان أزمة "السوديت" ، و قد إعتبرت أنه من القيم جداً أن يكون لي زميل يمكن الإعتماد عليه في مثل تلك الأوقات ، و كانت الأشياء التي جذبت

---

[١] من مقاطعة سيليزيا الألمانية ذلك الوقت و البولندية حالياً.

[٢] أرض السوديت : أراض حصلت عليها جمهورية تشيكوسلوفاكيا من ألمانيا عقب الحرب العالمية الأولى و قد ضمها هتلر لألمانيا في ١٩٣٩ بإعتبار أنها أرض ألمانية .

كلانا إلى الآخر عادية لكن أشد ما جذبني في "بلومنتريت" هو إرتباطه الشديد بالهاتف ، و لقد كان صوت حديثه عالياً بشكل لا يصدق لكن عندما يمسك سماعة الهاتف تجده يتعامل مع كل أنواع الأسئلة بنفس النبرة الهادئة الحسنة.

و في منتصف أغسطس وصل القائد المستقبلي لمجموعة الجيوش الجنوبية العميد "فون رندستيدت" إلى "نيوهامر" ، وكلنا يعرفه جيداً فهو محلل بارع للتكتيكات الصعبة و هو جندي موهوب بالقدرة على تحليل أي مشكلة بسرعة، لقد كان رجلاً كبير السن و لطيفاً أضاف بهجة متنوعة للحياة و كنت أخشى أن يحتضر، و كان للجنرال سحر خاص به تأثر به "هتلر" حتى إنه كان معجباً به بصدق و بشكل مفاجئ و غامض قام بفصله مرتين ، و ربما يكون ما جذب "هتلر" بشأن الجنرال هو الطابع الذي يظهر الجنرال و كأنه رجل من الماضي لا يمكن فهمه .

و مما يثير العجب أنه عندما إجتمعت مجموعة العمل في "نيوهامر" صادف ذلك موعد التدريبات السنوية للفرقة الثامنة عشر.

لقد كان كلمنا متوتراً بسبب كثرة الحالات الطارئة التي مرت بها أرض الأسلاف[١] منذ ١٩٣٣ و متسائلاً ما الذي سيقودنا كل هذا إليه؟ و أستطيع أن أقول أن كل محادثاتنا و حواراتنا في تلك الآونة تتمحور حول دلالات تجمع عاصفة على الأفق ، و كنا ندرك أن "هتلر" كان مهتماً بشدة بحسم كل المشكلات الإقليمية التي ورثتها ألمانيا عن معاهدة فرساي[٢] ، و علمنا أنه دخل في مفاوضات مع بولندا لما إقترب موعد الهجوم غي خريف ١٩٣٩ و حسم كل ما يتعلق بالنزاع الألماني-البولندي ، و لم يتم إخبارنا ذلك الوقت بشأن تلك المفاوضات ، و في نفس الوقت كنا نعلم إعلان بريطانيا ضمان إستقلال بولندا، و يمكنني القول أنه لا يوجد شخص في الجيش كان مغروراً لدرجة الإقلال من شأن و جدية ذلك الإعلان، و قد أقنعنا ذلك – يقصد المجموعة المنعقدة في "نيوهامر" – أنه لن تكون هناك أية حرب، و حتى لو دخلت خطة التموضع التي ننفذها الآن حيز التنفيذ فإنها لم تكن تعني – في رأينا – الحرب ، و ظللنا نشاهد الطريق الوعر الذي تسلكه ألمانيا بإهتمام بالغ و كنا نشعر بدهشة متزايدة حول حظ "هتلر" في تحقيق كل أهدافه السياسية، لقد كان يمتلك موهبة فطرية تتضمن عدم الفشل، فكان

---

[١] مصطلح يشير إلى ألمانيا.
[٢] معاهدة فرساي : معاهدة فرضها الحلفاء المنتصرون على ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى إقتطعت بمقتضاها أراض من ألمانيا .

النجاح يتبعه نجاح في تقدم غير منقطع - إن أشار المرء بداية لسلسلة الأحداث التي أدت في النهاية لسقوطنا بإعتبارها نجاحاً، كل ما سبق تحقق بدون حرب، و تساءلنا : لماذا يكون هذا مختلفاً هذه المرة؟ إنظر إلى تشيكوسلوفاكيا فبالرغم من تحريك "هتلر" للجيوش ضدها إلا أنه لم تقع أية حرب، و الموقف الآن أكثر تعقيداً و يبدو أن نية "هتلر" على الدخول في اللعبة تمتلك نظرة أكثر خطورة، لقد كان هناك إعلان الضمان البريطاني أيضاً، لكننا تذكرنا أن "هتلر" لن يكون بذلك الجنون الذي يدفعه للدخول في حرب على جبهتين كما فعل القادة الألمان في حرب ١٩١٤-١٩١٨ ، و قد أظهره ذلك كرجل منطق حتى لو لم يتبقى لديه أي حس إنساني، و إعلاء لصوت المنطق أخبر "هتلر" قادته أنه ليس غبياً كي يشعل حرباً عالمية من أجل "دانتزج"[١] أو الممر البولندي.

القيادة العامة و المسألة البولندية:

لقد أصبحت بولندا سبباً للمرارة اللاذعة التي كنا نشعر بها بسبب إستغلالها السئ لمعاهدة "فرساي" في ضم أراضي ألمانية لا يمنحها إياها حق تقرير المصير أو أي أساس تاريخي، بالنسبة لنا نحن الجنود لقد كانت سبباً للضيق في أيام ضعف ألمانيا، و كل مرة ننظر فيها للخريطة نتذكر موقفنا البشع، ذلك الرسم غير المنطقي للحدود و ذلك التشويه لأرض الأسلاف، ذلك الممر الذي يفصل "بروسيا الشرقية" عن الرايخ منحنا سبباً للقلق على هذا الإقليم الغالي، و رغم ذلك لم يحلم الجيش أبداً بالقيام بأي عمل عدواني ضد بولندا لإنهاء ذلك الوضع القائم بالقوة، و يستند ذلك على سبب عسكري بسيط و هو أن أي هجوم على بولندا سيورط الرايخ في حرب على أكثر من جبهة، و هذا أمر لا يمكن تحمله، خلال أيام ضعف ألمانيا الناتج عن معاهدة "فرساي" كنا نعاني من كوابيس تروادنا تتضمن أن أي طموح في إسترداد الأراضي الألمانية ستعيقها حالة الوهن الحالية ، و كذلك لم تكن لدينا أية رغبة في الدخول في أي حرب عدوانية، و كانت أقصى أمانينا تتمحور حول الجلوس في سلام مع البولنديين على طاولة المفاوضات و مناقشة تلك الحدود ، و كان بادياً أنه من غير المستحيلات الفائقة لأي

[١] دانتزج : مدينة على الساحل الشمالي البولندي كانت تابعة لألمانيا قبل معاهدة فرساي التي ضمتها لبولندا و سببت نزاعاً بين الدولتين أشعل الحرب العالمية الثانية.

تصور أن تأخذ بولندا المبادرة و تقوم بحل مشكلة الحدود بالقوة ، لقد خضنا تجارب متعلقة بذلك منذ ١٩١٨، و خلال أيام ضعف ألمانيا كان من الصعب الإستعداد لمثل ذلك الإحتمال، ذات مرة صمت المارشال "بيلسودسكي" و حظت دوائر معينة بقوة التأثير داخل بولندا و صار أي هجوم على "بروسيا الشرقية" أو "سيليزيا العليا" محتملاً تماماً كالهجوم البولندي على "فيلنا" من قبل، و إزاء هذا الإحتمال تمخضت المشاورات العسكرية عن حل سياسي تمثل في أنه لو قامت بولندا بعمل عدواني و نجحنا في صد العدوان فستكون فرصة سانحة أمام الرايخ لطرح مسألة الحدود على طاولة المفاوضات.

و في كل الحالات لم يكن لدى أي من قادة الجيش تفكير عميق حول هذا الموضوع، و رغم أن الجنرال "فون رابينو" يقول في كتابه على لسان الكولونيل جنرال "فون سكيت" : "إن الوجود البولندي غير متساهل و غير متلائم مع الحاجات الألمانية الأساسية و يجب أن تختفي بولندا عبر إستغلال ضعفها الداخلي أو عبر روسيا بمساعدتنا " ، و هذا الإتجاه ناشيء عن تطورات الموقف العسكري و السياسي، فقد كانت لدينا فكرة بسيطة عن تنامي القوة العسكرية للإتحاد السوفييتي و فرنسا التي مازالت تبدي لنا العداء و ستظل ستبحث عن حلفاء لها بعيداً عن ألمانيا، لكن في حالة إختفاء الدولة البولندية فسيظهر الإتحاد السوفييتي كحليف لفرنسا بشكل أكثر خطورة مما يكون عليه في حال وجود بولندا كدولة حاجزة، و محو وجود الدولة الحاجزة – بولندا و ليتوانيا – بين ألمانيا و الإتحاد السوفييتي قد يقود في نزاعات بين القوتين الكبيرتين بينما تظل المصلحة المشتركةمتمثلة في القيام بمراجعة الحدود مع بولندا، فإزالة هذه الدولة تماماً لن يكون ميزة لألمانيا وفقاً للتغير الكبير في الموقف الذي أوردناه.

لذا كان من الأفضل لنا – سواء أحببنا ذلك أم لا – أن نبقي على بولندا بيننا و بين الإتحاد السوفييتي، و رغم الحزن السائد بيننا لكوننا جنوداً نعمل على الحدود الشرقية سيئة الترسيم إلا أن بولندا تظل جارة أقل خطورة من الإتحاد السوفييتي، و كسائر الألمان بالطبع تمنينا في حدوث مراجعة الحدود يوماً ما و إعادة الأراضي التي يقطنها الألمان إلى حضن الوطن تماشياً مع الحق الطبيعي لسكانها، و ذات الوق كانت الزيادة السكانية للبولنديين أمراً غير مرغوب فيه من وجهة نظر العسكريين، و كان يجب أن تتناغم الرغبة الألمانية في توحيد "بروسيا الشرقية" مع الوطن و الرغبة البولندية في الحصول على ميناء على البحر، و كان هذا هو الإتجاه العام لأغلبية الجنود الألماني

حول حل المشكلة البولندية أواخر عشرينيات القرن العشرين عندما كان الحسم العسكري أمراً مستحيلاً .

و هنا دارت عجلة التاريخ مجدداً، فقد ظهر على الساحة "أدولف هتلر" و تغير كل شيء بما فيها أسس علاقاتنا مع بولندا، و كان الرايخ قد عقد إتفاقية عدم إعتداء و معاهدة صداقة مع الجارة الشرقية، لقد كنا محررين من كابوس إحتمالية قيام بولندا بغزونا، و أصبحت في نفس الوقت علاقاتنا مع الإتحاد السوفييتي باردة فقد كان لقائدنا الجديد تصريحات واضحة في خطاباته للجماهير عن كراهية البلشفية، و أحست بولندا بقيود سياسية أقل كنتيجة للموقف الجديد و لم يكن ذلك بالخطورة التي كنا نتصورها، و قد جعلت إعادة تسليح ألمانيا و نجاحات "هتلر" المتواصلة في مجال السياسة الخارجية قيام بولندا بإتخاذ أي عمل عدواني ضد ألمانيا أمراً غير محتمل، و حتى عندما تدخلت في المسألة التشيكوسلوفاكية لم يكن من الممكن أن نحدثها في مسألة الحدود.

حتى ربيع ١٩٣٩ لم يكن لدى *القيادة العليا للجيوش الألمانية*الألماني أي خطة للتموضع الهجومي ضد بولندا و كانت كل إجراءاتنا العسكرية في الشرق دفاعية بحتة.

حرب أم خدعة؟

ما الشيء الذي كان حقيقياً في خريف ١٩٣٩ ؟ هل كان "هتلر" يريد الحرب حقاً؟ أم سيكون الأمر على غرار ما حدث في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٨ عندما إشتعل الموقف عسكرياً لكن دون الوصول للحرب؟ هل سيحدث ذلك لحل مشكلة "دانتزج" و الممر؟

حرب أم خدعة؟ كان هذا هو التساؤل الدائر في عقول الجميع دون معرفة تطورات الوضع السياسي و نوايا "هتلر" الخاصة، و من هذا الذي لديه القدرة على كشف النوايا؟!

و كان مقتنعاً تماماً أن الإجراءات العسكرية التي يتم إتخاذها في أغسطس ١٩٣٩ بالإضافة للعملية " الأمر أبيض " كانت تهدف لزيادة الضغط السياسي على بولندا، و منذ صيف ١٩٣٩ بدأ العمل بأوامر من "هتلر" على إنشاء جدار "أوست وول" كتحصينات للجبهة الشرقية، و تم تحريك فرق بأكملها – من بينها الفرقة الثامنة عشر-

للتموضع على الحدود البولندية و دعم هذا الجدار الدفاعي، و السؤال هنا : ما الغرض من بذل تلك الجهود في بناء الجدار طالما أن "هتلر" ينوي مهاجمة بولندا؟ و حتى لو كان يفكر – عكس تأكيداته – في حرب على جبهتين سيظل جدار "أوست وول" غير ذي فائدة لألمانيا التي لن يكون أمامها في تلك الظروف سوى مهاجة بولندا و إخضاعها أولاً مع الإعتماد على الموقف الدفاعي في الغرب، أما بالنسبة للحل العكسي المتمثل في الهجوم غرباً و الدفاع شرقاً فلم يكن ضمن دائرة النقاش بالنظر إلى التوزيع الحالي للقوات خاصة أنه لم يتم وضع أي خطط للهجوم على الغرب، لذا فلو كان هناك سبب لتشييد جدار "أوست وول" في الشرق وفقاً لمعطيات الموقف الراهن فسوف يكمن السبب في زيادة الضغط على بولندا عبر تموضع تجمعات كبيرة من القوات على حدودها، و حتى تموضع فرق مشاة على الضفة الشرقية لنهر "أودر" في آخر عشرة أيام من شهر أغسطس و الحركة الدؤوبة للفرق المدرعة و الميكانيكية و حشدها غرب نهر لا يعد من قبيل الإستعدادات للهجوم بل مجرد صورة لممارسة الضغط السياسي.

حسناً، لم يكن الأمر أكثر من التدريب المعتاد في وقت السلم ، وفي ١٢ و ١٣ أغسطس أتممت آخر تدريب لفرقتي في "نيوهامر" و ختمتها بإستعراض الجنود أمام العميد "رندستيدت" ، و في ١٥ أغسطس وقع قصف مدفعي عنيف بالإشتراك مع اللوفتافا[١] و كان هذا حادثاً مأساوياً فقد فشلت سرية كاملة من القاذفات المنقضة في الإقلاع بسبب معلومات خاطئة أبلغت بها حول إرتفاع السحب و إندفعت مسرعة نحو الغابة، و كان هناك مخطط إلزامي في اليوم التالي يشمل عودة وحدات الفرقة إلى مواقعها الأصلية لكنها توجهت نحو حدود "سيليزيا" بعد عدة أيام.

و في ١٩ أغسطس تلقيت أوامر مع "رندستيدت" بحضور مؤتمر في البرجستادين[٢] يوم ٢١ أغسطس، و في ٢٠ أغسطس قدنا السيارة من "ليجنتز" إلى الولاية التي يقيم فيها أخو زوجتي و قضينا الليلة عنده ثم وصلنا البرجستادين في اليوم التالي، و وصل كل قادة الأركان و مجموعات الجيوش لمقابلة "هتلر" بالإضافة لقادة اللوفتافا و البحرية.

و حدث المؤتمر – كان "هتلر" يسميه هكذا بإعتبار أنه هو المتحدث الوحيد فيه كي لا يتكرر ما حدث في الإجتماع المنعقد العام السابق مع هيئة الأركان - في الغرفة الكبيرة

---

[١] لوفتافا : سلاح الطيران الألماني .
[٢] البرجستادين : مقر إستراحة هتلر في جبال الألب البافارية جنوب ألمانيا.

في البرجستادين المطلة على مدينة "سالزبرج"[1]، و قبل ظهور "هتلر" بقليل حضر "جورينج"[2] و كان منظره إستثنائياً،و قد إعتقدت في البداية أن الإجتماع لغرض خطير، لكنه بدا و كأنه في حفلة تنكرية، فكان يرتدي قميصاً أبيض ذي ياقة لينة فوقه سترة خضراء مزينة بزرارين من الجلد و لونهما أصفر بالإضافة لسروال رمادي قصير و جوربين طويلين رماديين، و هذا الزي الأنيق توازن مع زوج الحذاء طويل الرقبة الضخم، و لتغطية كل ذلك كان كرشه محزماً بحزام حامل للسيف من الجلد الأحمر المرصع بالذهب كان به خنجر مزخرف في غمد واسع مصنوع من نفس المادة.

لم أستطع منع نفسي من مهامسة الجنرال "فون سالموث" الذي كان واقفاً بجواري قائلاً : " أفترض أن وجود الفتى البدين هنا ليظهر كالرجل القوي".

و كان خطاب "هتلر" في تلك المناسبة موضوعاً لوثائق الإدعاء المتنوعة في محاكمات نورمبرج[3] و قد أكدت إحداها أنه إنهمك في الحديث بلغة رديئة مما دفع "جورينج" للقفز على الطاولة منادياً "سيج هايل" بهدف التشجيع على الحرب، و كل هذا غير حقيقي، و أيضاً ليس حقيقياً أن "هتلر" قال أي شيء حول خوفه من عدم جدوى مفاوضات اللحظة الأخيرة، لكن الحقيقة أن نبرة حديثه كانت راسخة و واضحة بشكل يدل على تيقظ ذهنه مما يجعل أي كلام حول كونه تحدث بلغة سيئة غير صحيح على الإطلاق.

تم النص على محتوى حديثه بشكل صحيح في كتاب لـ"جرينير"، و كان تقريره مستنداً على ما أخبره به العقيد "وورليمونت"[4] مما نص عليه في مذكراته و على الملاحظات التي دونها الأدميرال "كناريس"[5]، كما يمكن جمع قدر كبير من المعلومات حول حديث "هتلر" في ذلك المؤتمر من مذكرات العقيد "هايدر"، و عندما أتصفحها أجد تصريحات موجودة فيها قالها "هتلر" في مناسبات أخرى.

و الإنطباع الذي ساد لدى كل الضباط الذين ليست لهم صلة بأعلى دوائر القيادة العسكرية هو التالي :

---

[1] سالزبرج : مدينة نمساوية.
[2] هيرمان جورينج : قائد سلاح الطيران الألماني و الرجل الثاني في الرايخ.
[3] محاكمات نورمبرج : هي محاكمات أقامها الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية لقادة ألمانيا النازية .
[4] والتر وورليمونت : عقيد في الجيش الألماني عاش بيم ١٨٩٤ – ١٩٧٦ .
[5] ويليام فرانز كناريس : أدميرال من البحرية الألمانية و شغل منصب رئيس الإستخبارات العسكرية الألمانية و عاش بين ١٨٨٧ – ١٩٤٥ .

إن "هتلر" عازم على حسم النزاع الألماني-البولندي و لو وصل الأمر إلى حد الحرب،و حتى لو خضع البولنديون للضغط الألماني – و الذي بلغ أوجه ذلك الوقت بالنسبة للجيوش الألمانية – فإن الحل السلمي لم يصير مستبعداً بعد، و قد كان "هتلر" مقتنعاً أنه عندما يتعلق الأمر بتلك النقطة الهامة – يقصد الحل السلمي – لن تلجأ الدول الغربية لحمل السلاح، و كان متألماً بشدة بسبب تطور الأمور على هذا النحو، و كمنت مشكلته الرئيسية في إبطاء أي تدخل للقوات المسلحة الفرنسية و البريطانية بالنظر إلى قوة سلاحها الجوي و دفاعاتها الجوية، و قد إفترض عدم قدرة الدولتين على تقديم أي دعم لبولندا إلا بواسطة إقتحام خط سيجفريد و هي الخطوة التي لن تفكر فيها أية دولة نظراً للتكلفة الكبيرة لها من حيث خسائر الدماء، كما أن التوترات في منطقة البحر المتوسط قد ساهمت في تقليص حرية بريطانيا في الحركة ،بالإضافة إلى المشاكل الداخلية التي تمر بها فرنسا، و أخيراً وليس آخراً الطبيعة الشخصية للقادة متولي المسئولية في تلك الدول، فلا " شامبريان"[١] و لا "دلادير"[٢] – في نظر "هتلر – سيقومان بتوريط أنفسهما باإخاذ قرار دخول الحرب.

و رغم أن تقديره للموقف بدا منطقياً و حاسماً من عدة وجوه إلا أنني أعتقد أن الحضور لم يقتنع بالكامل بما يعرضه "هتلر"، لقد كان إعلان الضمان البريطاني بالفعل العقبة الوحيدة أمام رؤيته لكنها لم تكن ذات شأن كبير.

لا يمكن تقديم ما قاله "هتلر" عن الحرب الشاملة مع بولندا على أنه سياسة إبادة كما حدث في نورمبرج من قبل الإدعاء، و عندما دعى "هتلر" إلى محو و تدمير الجيش البولندي عنى هذا من المنظور العسكري مجرد الهدف المنشود من العملية الهجومية الكبيرة، و في جميع الحالات لا يعطى ما قاله أبداً أية إشارة حول سياسته تجاه البولنديين في وقت لاحق.

و كانت المفاجأة الكبرى ذات أعمق إنطباع في نفوسنا هي إعلان "هتلر" عزمه عقد إتفاق مع الإتحاد السوفييتي، فأثناء طريقنا إلى البرجستادين قرأنا في الصحف ما تُوصل إليه من إتفاقيات إقتصادية، و كان ذلك مثيراً لمشاعرنا قليلاً، و تم إخبارنا بعدها أن "روبنتروب" وزير الخارجية و الذي كان حاضراً للمؤتمر سيطير إلى موسكو لتوقيع معاهدة عدم إعتداء مع "ستالين"، بتلك الحركة قام "هتلر" بتجريد القوى الغربية من

---

[١] نيفل شامبريان : رئيس الوزراء البريطاني حتى ١٩٤٠ و عاش بين ١٨٦٩ – ١٩٤٠.

[٢] إدوارد دلادير : رئيس الوزراء الفرنسي في بداية الحرب العالمية الثانية و عاش بين ١٨٨٤ – ١٩٧٠.

ورقتهم الرابحة و أي حصار قد يفرضونه على ألمانيا صار بلا تأثير منذ الآن، و أشار "هتلر" أنه في سبيل تسهيل إتمام الإتفاق قام بتقديم تنازلات للإتحاد السوفييتي في منطقة بحر البلطيق مع النص على وجوب إحترام الحدود الشرقية لبولندا، لكن تصريحاته لم تشر إلى إحتمالية حدوث عملية تقاسم لبولندا مع الإتحاد السوفييتي فقد كان وقتها يطمح إلى الإبقاء على وجود دولة بولندية تبعية حتى بعد إنطلاق الحملة عليها.

بعد حديث "هتلر" ذلك لم يتصور "فون رندستيدت" و لا أنا و لا حتى سائر الضباط الموجودين أن الحرب صارت أمراً لا مفر منه، و قد أقنعنا عاملان أنه ستتم تسوية – كما حدث في ميونيخ – خلال غحدى عشر ساعة :

الأول تمثل في أن الإتفاق مع السوفييت جعل الموقف البولندي فاقداً للأمل منذ البداية فلو قامت بريطانيا – التي حرمت من سلاح الحصار – بسلوك المسلك الدموي و الهجوم من الغرب لدعم بولندا سيكون من الأفضل لها – و بضغط من فرنسا – أن تنصح "وارسو"[1] بالخضوع، كما أنه يجب أن واضحاً حينها لبولندا أن إعلان الضمان البريطاني صار غير عملي، و لو قررت دخول الحرب – يقصد بولندا – فسيقوم السوفييت بمهاجمتها من الخلف آملين في تحقيق مطالبهم القديمة بضم الأراضي الشرقية، وما على "وارسو" أن تفعله في هذه الحال سوى الخضوع و الإستسلام؟!

و دار تساؤل آخر بشأن المؤتمر الذي حضرناه : ماذا كان هدفه؟ فحتى اللحظة تم تمويه الهجوم على بولندا بكل وسيلة ممكنة و تم تفسير تواجد القوات على الجبهة الشرقية بالمساهمة في إنشاء التحصينات و لتسهيل وصول القوات إلى "بروسيا الشرقية" للمشاركة في إحتفالية "تاننبرج"[2]، و كانت مناورات الوحدات الميكانيكية تُجرى حتى اللحظة الأخيرة، و لم يكن هناك أي إعلان للتعبئة العامة، و رغم أن هذه الإجراءات يُحتمل ألا تفلت من ملاحظات البولنديين بإعتبارها وسائل للضغط السياسي ألا إنها كانت محاطة بقدر عال من السرية و الخداع، و في ذروة الأزمة قام "هتلر" بإستدعاء كل القادة للبرجستادين في خطوة لا يمكن مواراتها عن الأنظار أبداً،و بالنسبة لنا كان ذلك قمة سياسة الخداع، بمعنى آخر : هل كان "هتلر" بعد كل ذلك لا يريد التسوية رغم التصريحات العدائية؟ ألم يكن هذا المؤتمر يهدف إلى وضع اللمسات النهائية؟

---

[1] وارسو : عاصمة بولندا .

[2] كانت تقام هذه الإحتفالية في ذكرى معركة تاننبرج بين ألمانيا و روسيا في الحرب العالمية الأولى و قد إنتصرت فيها ألمانيا.

كانت تلك التساؤلات تجول بألبابنا أنا و "فون رندستيدت" منذ غادرنا البرجستادين و حتى وصولنا لمقر القيادة في " نيس"[1]،و توقفت في " ليجنتز" لقضاء يوم مع أسرتي و هذا التصرف يعد غريباً في وقت تبدو الحرب فيه على وشك الإندلاع.

في ظهيرة يوم ٢٤ أغسطس تولى الكولونيل جنرال "فون رندستيدت" قيادة مجموعة الجيوش و في ٢٥ أغسطس الساعة الثالثة و خمس و عشرين دقيقة عصراً إستلمنا رسالة مشفرة من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* فحواها :

" خطة العملية أبيض : ي (يوم)=٨/٢٦ س(ساعة)=٠٤.٣٠"

و ذلك يفيد أن قرار دخول الحرب الذي لم نكن نريد تصديقه قد إتخذ بالفعل ، و عندما كنت مع الكولونيل جنرال "فون رندستيدت" في دير الصليب المقدس في "نيس" و صلنا الأمر التالي عبر الهاتف:

" لا تبادروا بأي أعمال عدائية، أوقفوا تحرك كل القوات، التعبئة مستمرة،التموضع لتنفيذ خطة أبيض و غرب مستمر كما هو مخطط".

و أي جندي يستطيع فهم مضمون ذلك الأمر المتناقض مع أمر الإحدى عشر ساعة، و في خلال ساعات قليلة يجب وقف الثلاثة جيوش المتحركة تجاه الحدود عبر مسافة ممتدة من "سيليزيا السفلى" و حتى شرق سلوفاكيا مع الأخذ في الإعتبار وجود قادة الفرق مع تلك القوات أثناء تحركها فضلاً عن السياج الأمني المفروض على الإتصالات اللاسلكية، و رغم كل الصعوبات عمدنا إلى إخبار كل شخص في الوقت المناسب و بدأنا بإخبار مسئولي الإشارة الذين تولوا إبلاغ باقي الوحدات، و مع ذلك لم نتمكن من إيصال الأمر إلى فوج ميكانيكي واحد فقام أحد الطيارين بواسطة طائرة من طراز "فيسلر ستورتش" بالتحليق و الهبوط أمام الرتل المتحرك في الظلام لإيقافه.

لم يتم إخبارنا بأسباب مراجعة الإحدى عشر ساعة لقرار "هتلر" بالقتال، و كلنا سمعنا أن هناك مفاوضات كانت تجري.

من المناسب أن نُصاب نحن الجنود بالصدمة إزاء ذلك النوع من قيادة فقرار دخول الحرب هو أخطر قرار يمكن أن تتخذه قيادة أي دولة على الإطلاق.

[1] نيس : منطقة حدودية بين بولندا و ألمانيا.

كيف يمكن لأي شخص أن يصل إلى مرحلة إتخاذ ذلك القرار ثم يلغيه في غضون ساعات خاصة عندما يضعه ذلك الإلغاء – من الوجهة العسكرية – في وضع سئ؟ و كما أشرت بخصوص حديثي عن المؤتمر كان الجو العسكري مشحوناً بهدف معين و هو أخذ العدو على حين غفلة فلم يكن هناك أي إعلان للتعبئة العامة و أول إستدعاء تم يوم ٢٦ أغسطس و هو اليوم الذي تم فيه إلغاء الغزو، و هذا عنى أننا سنزحف نحو بولندا بتشكيلات مدرعة و ميكانيكية و معها عدد قليل من فرق المشاة المتمركزة على الحدود أو في وضع التأهب العسكري،لذا لا محل الآن للحديث عن أخذ العدو على حين غفلة، و حتى مع تحريك القوات نحو أماكن تموضعها في جنح الليل و تحت ساتر من الظلام لن يفلت ذلك من إنتباه العدو، خاصة أن الوحدات الميكانيكية كانت تتجمع غرب نهر "أودر" في النهار إستعداداً لعبوره، و طالما أن هناك حرب فيجب أن يتم الغزو بكل القوات التي تمت تعبئتها فلقد فقدنا عنصر المباغتة في كل الأحوال.

و لما لم يمكننا إعتبار الأمر الأصلي المتعلق ببدء الأعمال العدائية عملاً أرعن و غير مدروس من جانب "هتلر" يمكننا الجزم فقط بأن الأمر برمته عبارة عن تكتيكات دبلوماسية متواصلة لزيادة حدة الضغط على البولنديين، لذا تسلمنا أمراً جديداً يوم ٣١ أغسطس الساعة ١٧٠٠ نصه:

" ي=٩/١، س=٠٤٤٥ "

و لقد وقعت أنا و الكولونيل جنرال "فون رندستيدت" في الشك بسبب أن الأمر لم يتضمن أية إشارة لفشل المفاوضات، و كنا في إطار مجموعة الجيوش التابعة لنا متأهبين تلك الليلة إستعداداً لتكرار ما حدث يوم ٢٥ أغسطس و يتم إلغاء القرار في اللحظة الأخيرة، و ظللنا مستيقظين حتى منتصف الليل مترقبين وصول الإلغاء الذي كنا نظن حينها أنه سيحدث.

و فقط لما تجاوزنا منتصف الليل دون وصول أي أمر إلغاء و إنتهاء أية إحتمالية وقف للقوات أصبح ليس هناك مجالاً للشك : من الآن فصاعداً سيكون الحديث للأسلحة فقط.

٢

الموقف الإستراتيجي

كانت العوامل الآتية حاسمة في تقرير الوضع الإستراتيجي في الحملة البولندية :

١. تفوق القوات الألمانية خاصة و أن القيادة الألمانية كانت مستعدة لتقبل المخاطر القادمة من الغرب كرد على هجومها على بولندا.
٢. الموقف الجغرافي الذي مكن الألمان من القيام بحركة كماشة من جهتي "بروسيا الشرقية" و "سليزيا" و سلوفاكيا
٣. التهديد المتزايد شرق بولندا لوجود الإتحاد السوفييتي.

خطة المعركة الألمانية و سير العمليات:

كان المخططون الألمان متقبلين للخطر من جهة الغرب إلى أقصى درجة.

أطلقت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* الهجوم على بولندا مكوناً من ٤٢ فرقة من القوات الأساسية – كانت تتضمن وحدة جديدة هي الفرقة العاشرة بانزر[١] و تتضمن أيضاً فرقة مشاة جديدة هي الفرقة الخمسون – و تكونت القوات من ٢٤ فرقة مشاة و ثلاث فرق مشاة جبلي و ست فرق مدرعات و أربع فرق مشاة ميكانيكي خفيفة و أربع فرق مشاة ميكانيكي وفرقة خيالة واحدة،و كان هناك ستة عشر فرقة جديدة تشكلت عقب إعلان التعبئة العامة و وصلت لمسرح العمليات لإستخدامها بين موجة الهجوم الثانية و الرابعة، و لا يمكن إعتبار ذلك وتيرة الهجوم الرئيسية، كما شاركت في الهجوم من سرايا الدفاع فرقة "الليبستاندرت LSSAH " وفوج أو فوجان أخريتان من سرايا الدفاع على سبيل التعزيزات .

[١] بانزر : دبابة بالألمانية و هو الإسم الذي يطلق على التشكيلات المدرعة الألمانية.

أما بالنسبة للجبهة الغربية فتركت أحد عشر فرقة من القوات الأساسية لحمايتها و بعض قوات العاملة كحراسة للحصون هناك و التي صارت فيما بعد الفرقة ٧٢ مشاة و ٣٥ فرقة مشكلة حديثاً كخط دفاع ثاني خلف القوات الرئيسية، و لم توج أية قوات مدرعة أو ميكانيكية، و بلغ مجموعها ٤٦ فرقة ثلاثة أرباعها فقط كانت جاهزة للعمل.

تمت إعادة الفرقة ٢٢ مشاة – كانت قد أعدت لتكون مظليين – لتعمل تحت القيادة المباشرة للقيادة العليا للجيش.

تم تقسيم القوات الجوية لثلاثة أساطيل : إثنان عملا في مسرح عمليات بولندا و الثالث الأصغر عمل على الحدود الغربية.

لقد كانت المخاطر التي تسبب فيها ذلك التوزيع للقوات كبيرة جداً بدون أدنى شك، بسبب القصر غير المتوقع لمدة الحملة على بولندا – بسبب سرعة إنهيارها أمام الجيش الألماني – فضلاً عن تراخي حلفاء بولندا الغربيين عن إتخاذ أي إجراء لما وقعت هزيمتها، لم تقدر هذه المخاطر أبداً.

و قد كان على القيادة الألمانية في ذلك الظرف الحرج التعامل مع الجيش الفرنسي المكون من قرابة التسعين فرقة، و في خريف ١٩٣٩ شكلت فرنسا ١٠٨ فرقة في غضون ثلاثة أسابيع فقط! و إشتملت على ٥٧ فرقة مشاة و خمس فرق خيالة و فرقة مدرعة واحدة و ٤٥ فرقة إحتياط مدعومة بعدد هائل من قطع المدفعية و الدبابات.

و يجب ملاحظة أن هذه الفرق في أغلبها تمركزت في شمال أفريقيا و جبهة جبال الألب في المراحل الأولى.

و التقسيم السابق كانت له ميزة التشكل من فرق مدربة جيداً في حين أن التشكيلات الألمانية تضمنت بشكل كبير وحدات مشكلة حديثاً أو إحتياط من أيام الحرب العالمية الأولى.

و من ثم لا يكون هناك محل للشك في أن الجيش الفرنسي كان متفوقاً على الألماني في الجبهة الغربية منذ اليوم الأول للحرب.

و كانت المساهمة البريطانية بقوات برية متواضعة إلى حد ما فإقتصرت على أربع فرق لم تصل حتى منتصف أكتوبر.

كان أساس خطة العمليات الألمانية ضد بولندا هو تحقيق أقصى إستغلال لمجرى الحدود بهدف الإحاطة بالعدو منذ البداية، لذا تموضعت القوات الألمانية منقسمة إلى مجموعتين تاركة المنطقة المركزية بينهما – و هي حوض "أودر-وارتا" – مفتوحة أمام العدو بشكل كبير.

تشكلت مجموعة الجيوش الشمالية بقيادة الجنرال "فون بوك" و رئاسة أركان الجنرال "فون سالموث" من جيشين يتألفان من خمسة فيالق مشاة و فيلق مدرع، و تحتهما تندرج تسعة فرق مشاة من القوات الأساسية – منها الفرقة ٥٠ مشاة المشكلة حديثاً – و ثماني فرق مشاة تشكلت بموجب إعلان التعبئة و فرقتان مدرعتان و فرقتا مشاة ميكانيكي و لواء خيالة بما مجموعه ٢١ فرقة، و تتمركز في "بروسيا الشرقية" قوات حصن "كونجسبرج" و لواء "نيتز".

و كان ضمن مجموعة الجيوش تلك الجيش الثالث بقيادة الجنرال "فون كوشلر" و المتموضع في "بروسيا الشرقية"، و الجيش الرابع بقيادة الجنرال "فون كلوج" في "بوميرانيا الشرقية".

و كانت مهمة مجموعة الجيوش تلك هي الإندفاع نحو الممر البولندي و إجبار القوات البولندية المتمركزة هناك على التقهقر جنوباً ثم لإقتحام خط "نارو" الدفاعي و بعد ذلك مهاجمة بقية الدفاعات البولندية من الخلف.

و كانت مجموعة الجيوش الجنوبية - بقيادة الكولونيل جنرال "فون رندستيدت" و رئاسة أركان الجنرال "فون مانشتاين" - أكثر قوة حيث تكونت من ثلاثة جيوش و هي : الرابع عشر بقيادة الكولونيل جنرال "ليست" و العاشر بقيادة الكولونيل جنرال "فون رايخناو" و الثامن بقيادة الكولونيل جنرال "بلاسكوفيتز"، و في المجموع كان لدى مجموعة الجيوش تلك ثمان فيالق مشاة و أربع فيالق مدرعة و يندرج تحتها خمسة عشر فرقة مشاة من القوات الأساسية و ثلاث فرق مشاة جبلي و ثمان فرق ميكانيكية نُقلت إليها حديثاً و أربع فرق مدرعة و أربع مركبات خفيفة و فرقتا مشاة ميكانيكي، بما مجموعه ٣٦ فرقة.

و قامت مجموعة الجيوش بنشر الجيش الرابع عشر في المنطقة الصناعية في "سيليزيا العليا" و شرق "مورافيا " و غرب سلوفاكيا ، أما الجيش العاشر فنشرته في "سيليزيا العليا" إلى الجنوب من "كروزبرج" ، و نشرت الجيش الثامن في وسط "سيليزيا" إلى

الشرق من "أويلس"، و كانت مهمتها هزيمة العدو في منطقتي نهر "فيستولا" و "جاليسيا" ثم الزحف إلى "وارسو" بقوات ميكانيكية قوية بأسرع ما يمكن، ثم القيام بالتعاون مع مجموعة الجيوش الشمالية لتدمير ما تبقى من الجيش البولندي.

خطة المعركة البولندية و سير العمليات:

خلال وقت السلم كان لبولندا ثلاثين فرقة مشاة و سبعة ألوية خيالة و لواء مشاة جبلي و لوائين ميكيانيكي بالإضافة لبعض الأفواج الحدودية و عدد كبير من قوات الحرس الوطني و القوات البحرية متمركزة في منطقة "دانتزج".

بمعنى آخر كانت قوتها محل إعتبار و لكن أسلحتها تعود للحرب العالمية الأولى حتى طائراتها الألف لم تكن مطابقة للمعايير الحديثة.

توقعت ألمانيا أن تقوم بولندا بمضاعفة عدد فرقها عند إندلاع الحرب رغم أنه بدا مثيراً للشك مدى توفر الأسلحة الضرورية، فطبقاً لكتاب "تاريخ الحرب العالمية الثانية" لـ"فون تيبركريخ" قامت بولندا بنقل عدد كاف من الأفواج لعشر فرق من الإحتياط قبيل إندلاع العداء بين الدولتين و لم يكن لديها وقت كاف لدمج كل تلك الأفواج في قواتها الأساسية، و قد تمكنت الإستخبارات الألمانية من كشف عدد من وحدات الإحتياط البولندية قبل الحرب.

و قامت القيادة العليا للجيش البولندي بنشر قواتها على النحو التالي: قامت بتوزيع الوحدات التالية في منطقة الحدود مع "بروسيا الشرقية" و الجبهة على إمتداد خط "بوبر- نارو – فيستولا" :

١. مجموعة قتالية مكونة من فرقتين و لوائي خيالة بين "سوالكي" و "تومزا"
٢. جيش مودلين المكون من أربع فرق و لوائي خيالة على جانبي منطقة "ملاوا"

و في منطقة الممر تموضع جيش بوموزر المكون من خمسة فرق و لواء خيالة، و في مواجهة الحدود الألمانية من "وارتا" و حتى الحدود السلوفاكية تموضعت ثلاثة جيوش و هي :

١. جيش بوزنان قوامه أربع فرق و لوائي خيالة في الجزء الشرقي من إقليم "بوزنان"
٢. جيش لودز حول "فيلين" و قوامه أربع فرق و لوائي خيالة
٣. جيش كراكوف قوامه ست فرق و لواء خيالة و لواء ميكانيكي في المنطقة الممتدة بين "تشيستوتشوا" و "نوي تارج" ، و خلف الجيشين الأخيرين إنتشر جيش بروسيا و قوامه ست فرق و لواء خيالة في منطقة "تومازو-كيلس".

و أخيراً نجد جيش كارباثيا المكون من كتائب الإحتياط و كتائب الحرس الوطني قد إنتشر على طول حدود منطقة "كارباثيا" على هيئة صفوف.

و ظل جيش الجنرال "بيسكور" المكون من ثلاثة فرق و لواء ميكانيكي في منطقة نهر "فيستولا" بين "مودلين" و "وارسو" و "لوبلن"، و لما لاحت الحرب في الأفق تم تشكيل مجموعة بوليز شرق مدينة "بج" بهدف الحماية ضد روسيا.

و قد كانت عملية الإنتشار و التموضع البولندية ما تزال جارية لما بدأ الهجوم الألماني، و لهذا السبب لم تكتمل وفقاً للوصف الذي أوردناه آنفاً.

بعض إنعكاسات عملية الإنتشار و التموضع البولندية:

من الصعب تحديد الهدف الإستراتيجي من عملية الإنتشار البولندية إلا إذا كانت قائمة على فكرة تغطية كل شبر و عدم الإستسلام طواعية، و طالما أدت هذه السياسة لهزيمة الطرف الأضعف، و سيتعرض "هتلر" لاحقاً لنفس التجربة دون التعلم من اخطاء الماضي.

لقد كان الموقف الإستراتيجي البولندي حرجاً إلى حد ما و أدى لضعف القوات البولندية إزاء الحقيقة المتجلية في أن شكل الحدود بين الدولتين قد مكن ألمانيا من الهجوم على

جبهتين – أصبح الهجوم من ثلاث جهات لاحقاً- في وقت واحد، لذا عندما عجزت *القيادة العليا للجيوش الألمانية*البولندي عن مقاومة محاولة "التمسك بكل شبر" ظهرت أمامها مشكلة صعوبة تنفيذ تلك السياسة بالقوة العسكرية البحتة.

و بعيداً عن المارشال "بيلسدوسكي" و بعض السياسيين المعتدلين في بولندا نجد أنه لا يوجد شخص في بولندا أدرك مدى خطورة الوضع التي أقحمت الدولة نفسها فيه بسبب إستيلائها غير المبرر على أراضٍ روسية و ألمانية، و بولندا هذه بلغ تعداد سكانها ٣٥ مليون نسمة منهم ٢٢ مليون بولندي فقط و البقية تنتمي للأقليات الألمانية و الأوكرانية و اليهودية و الروس البيض.

و بجانب إعتماد بولندا على حليفتها فرنسا نجد البولنديين قضوا سنوات عديدة مستغلين حالة الضعف العسكري لألمانيا و الإتحاد السوفييتي و يحلمون بالفرصة السانحة للهجوم على الرايخ، و البعض تمنى – وفقاً للدعاية البولندية – الهجوم على "بروسيا الشرقية" المنعزلة أو على "سيليزيا العليا" الألمانية، بينما فكر البعض الآخر في الزحف على "برلين" سواء بإتخاذ الطريق القصيرة عبر "بوزناري" مروراً بـ"فرانكفورت" أو اللجوء إلى غزو "سيليزيا العليا" أولاً ثم التقدم لغزو العاصمة عبر نهر "أودر".

لكن هذه الأحلام تبخرت بسبب التحصينات الألمانية المنشأة في "بروسيا الشرقية" و حوض "أودر-وارتا" و لاحقاً إعادة تسليح ألمانيا نفسها، و لكن من المؤسف أن يضع الساسة البولنديون المعتمدون على هجوم فرنسي متزامن من الغرب مثل هذه الأفكار العدوانية في أذهانهم، فوفقاً لتلك الأفكار يقتصر البولنديون على الأعمال الدفاعية في بداية الحرب ثم يقومون بالهجوم لاحقاً عندما يبدأ الهجوم الفرنسي.

و كذلك نجد القيادة العليا البولندية لم تضع الخبرات التي إكتسبتها من تجاربها الطويلة محل التنفيذ، فمن ناحية كان الرأي العام البولندي يميل تجاه الهجوم أكثر من الدفاع، و من المنطق أن نقرر أن عقلية الجندي البولندي كانت مشوشة لاشعورياً ذلك الوقت بسبب تأثير الأفكار العاطفية الحالمة و المتوارثة من الأيام الغابرة، و أذكر بمناسبة هذا الكلام أنني رأيت صورة ذات مرة للمارشال "ريدز-سميجلي"[١] مرسومة على خلفية تظهر فيها سرية خيالة بولندية، و من ناحية أخرى كان الجيش البولندي المشكل حديثاً فرنسي التعليم، و كان الفكر العسكري الفرنسي يستند منذ ١٩١٨ على الصراع التقليدي

[١] إدوارد ريدز-سميجلي : قائد القوات البولندية في بداية الحرب العالمية الثانية و عاش بين ١٨٨٦ – ١٩٤١.

البطئ – مثل حرب الخنادق – و بالتالي لم يتعلم البولنديون كيفية التجاوب مع سرعة سير العمليات و قابليتها الشديدة للتحرك.

و من ثم يكون مقنعاً أن خطة الإنتشار البولندية لم يكن له أي هدف عملياتي بإستثناء الرغبة في عدم ترك أي شبر للعدو أو الجمع بين طموحات الماضي العدوانية و الحاجة لتجهيز الدفاعات ضد عدو متفوق، كما أن البولنديون أخطأوا عندما إفترضوا أن الألمان سيهاجمون وفق الفكرة الفرنسية و سيكون الصراع موضعياً مثل حرب الخنادق، و مما يثير الإهتمام في هذا السياق أننا تسلمنا تقريراً موثوقاً فيه يتضمن بيان النوايا العدائية لبولندا و مصدر كان إما الدائرة المحيطة بالرئيس البولندي أو المارشال "ريدز-سميجلي" كما تضمن أن خطة التموضع البولندية هجومية الغرض و أن هناك حشود قوية للقوات البولندية في إقليم "بوزنان"، و من أكثر ما يشد الإنتباه أن التقرير زعم أن خطة الإنتشار هذه قدمها البريطانيون، و في تلك الظروف وجدنا ذلك غير محتمل، لكن تكشف لنا بمرور الوقت أن بولندا حشدت بالفعل قوات لها في إقليم "بوزنان" بإعتبار أن ذلك من وجهة نظرهم هو الإتجاه الذي سيأتي منه الهجوم الألماني، و قد لاقى جيش بوزنان مصيره في معركة نهر "بزورا".

في الواقع لم يكن هناك أي نقص في الإقتراحات المنطقية لدى الجانب البولندي، فقد ذكر العقيد "هيرمان شنايدر" عام ١٩٤٢ أن الجنرال "فيجاند" إقترح وضع الدفاعات خلف أنهار "نيمين" و "بوبر" و "نارو" و "فيستولا" و "سان"ن و على المستوى العملياتي كان ذلك أنسب إقتراح يمكن تقديمه خاصة أنه لا يمكن تطويق الألمان مع إمكانية إستغلال الأنهار كعوائق أمام تقدم تشكيلات الدبابات الألمانية، كما أن خط الدفاع سيكون طوله ٣٧٥ ميلاً فقط و ليس ١١٢٥ ميل كما في الخط الممتد من "سوالكي" و حتى ممرات "كارباثيا"، و قبول ذلك الإقتراح كان يعني بالضرورة إخلاء غرب بولندا بالكامل و الذي يتضمن أهم المناطق الزراعية و الصناعية للدولة البولندية و من غير المعقول أن تقبل أية حكومة بولندية التخلي عن شبرواحد منه، و ما يجب أخذه في الحسبان أيضاً أن أي إنسحاب في بداية المعركة قد يثبط عزيمة فرنسا و يحجمها عن القيام بهجوم في الغرب ضد ألمانيا، كما ثار التساؤل في الأذهان حول أن حالة الإنسحاب من غرب بولندا لصالح ألمانيا قد يشجع روسيا على التقدم في الشرق لمشاركة الغنائم مع الألمان.

و أخبرنا العقيد "شنايدر" أن هناك حلاً آخر إقترحه الجنرال "كوترزيبا" مدير الأكاديمية العسكرية في بولندا في مذكرة سلمها للمارشال "ريدز-سميجلي" في بداية العام ١٩٣٨، و قد أصر على أنه لن يكون هناك أي تخلي عن المناطق الحيوية لبولندا و التي تشمل المناطق الصناعية في "لودز" و "سيليزيا العليا" و المناطق الزراعية الخصبة في "بوزنان" و "كونتو" و "كيلس" و لإقترح خطة تشمل إتمام تنفيذ خطة الإنتشار و التموضع في عام ١٩٣٩ مع الإحتفاظ بمنطقة الممر و إقليم "بوزنان" و حمايتهما من أي عدوان، و لدعم النظام الدفاعي البولندي يتعين بناء منظومة من التحصينات جنوب الحدود مع "بروسيا الشرقية" تتمثل في قوس ممتد من "جرودزياز" حتى "بوزنان" و بطول الحدود السيليزية ممتداً من "أوسترو" ماراً عبر "تشيستوتشوا" حتى "سيسزين"، كما أكد الجنرال "كوترزيبا" وجوب تشييد موانئ تكون بمثابة نقطة إنطلاق لهجمات لاحقة ضد "بروسيا الشرقية" و "بروسيا الغربية" و "سيليزيا"، و على الرغم من إيقان الجنرال "كوترزيبا" ضعف قدرة الجيش البولندي أمام جيش الرايخ إلا أنه رغبته في الإعتماد على الدعم الفرنسي كانت واضحة، كما أنه وضع في إعتباره وجوب إعتماد بولندا على مواردها المحلية خلال أول ستة أسابيع من الحرب حتى لو قدمت فرنسا أقصى دعم ممكن لها، كما أقر خطة دفاعية في المنطقة الواقعة شمال المنطقة الحيوية غرب بولندا كي تتجمع فيها قوات الإحتياط تمهيداً للقيام بهجمات فيما بعد.

و كما أوضحت نجد خطة الإنتشار التي نفذها الجيش البولندي في ١٩٣٩ شبيهة للخطة التي إقترحها الجنرال "كوترزيبا"، مع إختلاف أن الأخير سعى إلى تركيز الجهد على المنطقة الواقعة بين "تورون" و "بيدجوسزسز" و "جنينزنو"، بينما الخطة المنفذة عام ١٩٣٩ ركزت على منطقتين هما ما حول "بروسيا الشرقية" و المنطقة المحاذية لـ "سيليزيا".

إن خطة الإنتشار البولندية عام ١٩٣٩ الهادفة لتغطية كل شبر بما في ذلك إقليم "بوزنان" أدت للهزيمة بسبب التفوق الألماني و قدرة الألمان على تطويق العدو، و من ثم كيف يمكن لبولندا أن تتصرف كي تتفادى مثل تلك الهزيمة؟

أول مسألة توجب تسويتها هي هل تتم خسارة المناطق الحيوية التي أشار إليها الجنرا "كوترزيبا" تلقائياً بناء على تقدم الألمان ودخولهم من جهة "بروسيا الشرقية" و "سيليزيا" و سلوفاكيا أم يتركها الجيش البولندي و ينسحب منها؟ ذات السؤال كنت

أوجهه لـ "هتلر" في أعوام ١٩٤٤/١٩٤٣ في كل مرة طلب من التمسك بحوض "دونتز" و مناطق أخرى في روسيا.

بالنسبة لي كانت الإجابة واضحة فيما يتعلق بالحالة البولندية، فقد كانت القيادة العليا تربط كل شيء بقدرة الجيش البولندي على الثبات مهما كانت الخسائر حتى تقوم القوى الغربية بالهجوم على ألمانيا بما يجبر الألمان على الإنسحاب من المسرح البولندي، حتى بالرغم من أن خسارة المناطق الحيوية قد يظهر بولندا في صورة العاجز عن القتال لأي مدة كانت إلا أن إستمرار تواجد الجيش كقوة قتالية قد يفيد في تحقيق الهدف المتمثل في دحرهم و إجبارهم على التراجع، فمهما حدث على الجيش البولندي ألا يسمح بتطويقه من ناحية الغرب أو من الناحيتين عند نهر "فيستولا".

كان صلب مشكلة بولندا هو كيفية كسب مزيد من الوقت، و بالقطع لا يمكن التفكير في أي دفاع حاسم في أي مكان أمام خط "بوبر-نارو-فيستولا"، رغم أنه ممكن في الجنوب تحريك خط الجبهة إلى أبعد ما يمكن بحيث يستطيع الجيش البولندي التمسك بالمنطقة الصناعية وسط بولندا بين نهري "فيستولا" و "سان".

و أهم شيء على الإطلاق هو منع قيام أية إحتمالية لقيام الألمان بعملية تطويق من جهة "بروسيا الشرقية" و سلوفاكيا، و قد وفر خط "بوبر-نارو-فيستولا" وسائل ضمان ذلك في الشمال بالإضافة لحصن "مودلن" و قد مثل هذا – بأي حال من الأحوال – مانعاً طبيعياً قوياً فضلاً عن الحماية التي توفرها الحصون الروسية القديمة الموجودة في تلك المنطقة، فالمشكلة كانت أنه في حال ظهور أية مدرعات ألمانية من جهة "بروسيا الشرقية" فستكون في أفضل حالاتها للهجوم.

و كانت المشكلة في الجنوب تكمن في منع أي مناورة تطويقية يقوم بها الألمان من جهة ممرات "كارباثيا" و الدفاع عن تلك الممرات، و يمكن تحقيق المهمتين بعدد محدود من القوات، لقد كان إنتشار القوات البولندية على خط "بوبر- نارو – فيستولا" خطأً فادحاً لا يقل عن الدفع بتلك القوات داخل الممر و ثغرة إقليم "بوزنان".

و بمجرد إتخاذ تلك الضمانات الضرورية في الشمال و الجنوب سيكون من الممكن القتال لتأخير القوات المهاجمة غرب بولندا، مع الأخذ دوماً في الإعتبار أن الهجوم الألماني الرئيسي سيأتي من جهة "سيليزيا"، و من أسباب ذلك أن شبكة الطرق و السكك الحديدية في هذه المنطقة جيدة و توفر حركة أسرع لحشود القوات القوية التي

ستكون فعالة في "بوميرانا" أو في "بروسيا الشرقية"، و سبب آخر هو أن بلوغ "وارسو" عبر "بوزنان" سيكون أمراً فعالاً على المستوى العملياتي لكنه كان غير محتمل.

كان يجب ألا يتم تجميع القوات البولندية عند الحدود كام حدث عام ١٩٣٩ بل يتم في مكان أبعد بشكل كاف يتيح للمدافعين كشف إتجاه الهجوم الألماني، و يعني ذلك نشر قوات محدودة في منطقة الممر و "بوزنان" بهدف ردع الهجوم القادم من جهة "سيليزيا" بفاعلية أكبر و كذلك الإحتفاظ بقدر مناسب من الإحتياط تحت يد قيادة الجيش، و لو كانت بولندا إهتمت بترميم التحصينات الألمانية الموجودة على أراضيها في منطقة نهر "فيستولا" بين "تورون" و "جرودزيادز" بدلاً عن الإستغراق في أوهام الزحف غرباً و العدوان على ألمانيا لكانت إستطاعت على الأقل وقف الزحف الألماني المتواصل من جهة "بوميرانيا" و "بروسيا الشرقية" و كذلك بتحصين "بوزنان" كانت لتتمكن من تقييد حرية الحركة الألمانية في تلك المنطقة.

و هناك أمر آخر يتمثل في أن فكرة تجهيز خط الدفاع الداخلي بهدف القيام بهجمات مضادة في جنوب و شمال غرب بولندا – وفقاً لمجرى سير الأمور- كانت بالكاد ستنجح على أرض الواقع بسبب عدم وجود مساحات كافية للقيام بعمليات من هذا النوع كما أن خطوط السكك الحديدية البولندية لم تواصل عملها، فضلاً عن وجوب أخذ في الإعتبار إحتمالية أن تعرض قدر كبير من القوات لغارات الطيرن الألماني و ضربات تشكيلات الدبابات الألمانية، و كنتيجة لذلك لم يكن أمامها سوى وضع خطة دفاعية تتمركز القوات فيها عند خط "بوبر – نارو – سان" و تقاتل أمام هذا الخط لمدة ما مع تذكر دائماً وجوب تركيز المجهود الحربي في المنطقة المحاذية لـ"سيليزيا" منذ البداية مع ضمان توافر حماية الجناح الشمالي و الجنوبي للجيش.

لا يستطيع أحد أن يجادل في أن مثل هذه الإجراءات كانت لتحمي بولندا من الهزيمة الساحقة إذا أخذت قرارها بالبعد عن المصير الذي تسبب فيه الغرب كما ثبت لاحقاً، و كان يمكنها أن تحمي القوات البولندية من الهزيمة و الإنسحاب من المناطق الحدودية بسهولة و بالتالي صارت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* غير قادرة على إتخاذ قرار القتال في معركة عند نهر "فيستولا" و لا سحب قواتها خلف خط الأنهار و إتخاذ وضع دفاعي.

و ظهر منذ اليوم الأول أن بولندا بإمكانها القتال لفترة زمنية وجيزة، وكل ما كانت تقدر عليه هو التماسك أمام الهجوم الألماني – و هي متمركزة خلف خط الأنهار – حتى يجبر هجوم الحلفاء الغربيين من جهة الغرب ألمانيا على سحب قواتها، و كان يجب أن يوجد قادة بولنديين حكماء يواجهوا القيادة البولندية و يخبرونها بعدم القدرة على الدخول في حرب ضد الرايخ بدون ضمان صريح من القوى الغربية بأنها ستتدخل و تقوم بالهجوم من جهة الغرب في اللحظة التي تندلع فيها الأعمال العدائية بين البلدين مع تخصيص كل مواردهم من أجل هذا الغرض.

و لا تستطيع أية حكومة أن تتجاهل ذلك التحذير بالنظر للنفوذ القوي الذي يتمتع به رئيس الأركان البولندي المارشال "ريدز-سميجلي"، و كان حرياً بالحكومة أن تجلس على مائدة التفاوض حول مسألة "داننزج" و الممر البولندي لو كانت تريد فعلاً تأحيل الحرب مع ألمانيا.

في ١٩٤٠ وقع في يد قواتنا في فرنسا خطاب مؤرخ بالعاشر من سبتمبر ١٩٣٩ من الجنرال "جاملين"[١] إلى الملحق العسكري الدبلوماسي في "باريس"، و تضمن رداً على إستفسار بولندي بشأن موعد وصول المساعدة العسكرية الفعالة، و كان الرد من الجنرال "جاملين" على المارشال "ريدز-سميجلي" هو :

" لقد تحرك أكثر من نصف قواتنا الأساسية في الشمال الشرقي، و منذ عبرنا الحدود و الألمان يقاومون بنشاط و لكننا تمكنا من التقدم قليلاً، و مع ذلك نحن مقيدون هنا بحرب بطيئة ساكنة مع عدو مستعد جيداً للدفاع و ليس لدي كامل المدفعية الضرورية.. لقد كان هناك صراع في الجو بالتزامن مع العمليات البرية و نحن ندرك وجود جزء كبير من اللوفتافا لمواجهتنا .. و قد نفذت وعدي ببدء الهجوم بقواتي الأساسية في الليلة التالية لإعلان التعبئة العامة في فرنسا و لا أقدر على فعل أكثر من ذلك"

و يتبين مما سبق أن بولندا كانت تتمتع بضمان حقيقي من فرنسا، و السؤال هل القيادة العليا للجيوش الألمانيةالبولندي لم تشعر بالرضا بسبب إنقضاء ليلة كاملة عقب إعلان التعبئة في فرنسا دون بدء الهجوم ؟ في كل الأحوال فإن الأحداث أظهرت أن هذا الوعد كان يتضمن عرضاً بتقديم مساعدة فعالة لبولندا.

[١] موريس جاملين : جنرال فرنسي عاش بين ١٨٧٢ – ١٩٥٨ .

لقد كانت هزيمة بولندا ناتجة عن الخداع الذي وقعت فيه الحكومة البولندية حول التدابير التي سيتخذها حلفاؤها، بالإضافة إلى تقديرها المبالغ فيه لقدرة الجيش البولندي على المقاومة لفترة طويلة.

٣

عمليات مجموعة الجيوش الجنوبية

عندما عبرت قواتنا الحدود البولندية في مطلع يوم الأول من سبتمبر ١٩٣٩ كنا – قيادة مجموعة الجيوش الجنوبية – في مواقعنا عند دير الصليب المقدس في "نيس" و هو بالأساس منشأة تهدف لتدريب المبعوثين الكاثوليك و أثناء الحرب تحول لمقر قيادة القوات بالنظر إلى حجمه و عزلته و نظام ترتيب الغرف فيه، و قد إنعكس إنضباط نزلاء الدير على طريقة معيشتنا فيه، و لما وصل قائد المعسكر من "ميونيخ" أبدى أسلوباً لطيفاً في التعامل معنا، و حصلنا على التعيين الخاص بنا كسائر القوات و وجبات منتصف اليوم التي حصلنا عليها من مطبخ مقر المعسكر أغنتنا عن الشكوى، و من ناحية أخرى لا أستطيع تصديق أن وجبة الليل قد تقلصت بمرور الأيام لتصبح مجرد خبز و بعض شطائر اللحم المشوية التي لم يستطع قائدنا كبير السن أن يمضغها بأسنانه، و لحسن الحظ ساعدنا الرهبان فأمدونا ببعض الخضروات من حديقة مطبخهم في بعض المناسبات، و في عدد من الليالي شاركت قيادة مجموعة الجيوش و رئاسة الأركان كبير أساقفة الدير في سماع عظاته الرائعة حول التضحية بالنفس و العمل المضني الذي يبذله المبعوثون حول العالم، و كان ذلك بمثابة ترحيب قلق بالمشكلات العاصفة التي يحملها المستقبل القريب.

و قد وضع الأول من سبتمبر نهاية لتلك الأحاديث فقد تطلبت المعركة كل لحظة من وقتنا، و كان سبب تواجدنا المبكر في مكاتبنا هو إحساسنا بضرورة الإستعداد التام منذ اللحظة الأولى التي تشتبك فيها قواتنا مع العدو، و كان حقيقة مرور ساعات قبل أن نسمع أي خبر مفيد من الجيوش التي تحت إمرتنا، هذه الساعات كانت مألوفة بالنسبة

لكل شخص عمل في أعلى المراكز القيادية و هي المرحلة التي لا يملك فيها سوى الجلوس و الإنتظار بمجرد بدء الأحداث.

الجندي على الجبهة يعلم التوتر الهائل الذي يخيم على الأجواء قبل بدء أي هجوم في حين يراقب القادة العسكريون دقات الساعة البطيئة حتى تحل لحظة بدء الهجوم، و منذ ذلك الحين ينشغل الجندي على الجبهة بالمعركة الدائرة حوله و لا يعير شيئاً آخر أي إنتباه، و الفرق مع قيادة التشكيل – و مستويات القيادة الأعلى – أن لحظة بدء الهجوم تعني بدء فترة الإنتظار و الترقب المشحونة بالقلق و الشك، و تنشغل التشكيلات الفرعية في تلقي المعلومات و البيانات من أرض المعركة و قد تقوم بتقديمها للقيادة بطريقة مليئة بالتوتر، فيكون من الأفضل بالتالي الإنتظار و الترقب، و يعد أمراً لا قيمة له أن نقول أن الأخبار السيئة تصل بسرعة في المجال العسكري فمن ناحية عندما تكون الأخبار سارة تشق طريقها مسرعة نحو القيادة، و من ناحية أخرى لو تعطل الهجوم تخيم حالة من الصمت على الجبهة إما بسبب إنقطاع الإتصالات أو لأن مسئولي الإشارة قرروا الإنتظار حتى حدوث شيء مشجع لإرساله.

و يتصاعد التوتر لدى وصول أول تقرير سواء كان حسناً أم سيئاً خلال وصول التقارير لا نملك سوى الجلوس و الإنتظار، هل ستنجح القوات التي أنفقنا الوقت و الجهد في تدريبها في تحقيق توقعاتنا ؟ أو على الأخص هل ستنجح تشكيلات المدرعات الضخمة التي تعتمد على التنظيم في تحقيق آمال مخترعها الجنرال "جيودريان" و نحن معه ؟ هل سيكون قادة الجيوش الألمانية بما فيها نحن على مقدرة في إدارة الموقف و إحراز النصر الكامل الذي يضمن تدمير العدو و هو لا يزال غرب نهر "فيستولا" و يمح أي تخوف من الحرب على جبهتين؟ مثل تلك الأسئلة كانت تجول بأذهاننا في تلك الساعات من القلق و الضبابية.

<u>الموقف الأولي:</u>

لقد كان مقرراً في الخطة التي وضعتها *القيادة العليا للجيوش الألمانية* القيام بعملية تطويق واسعة النطاق ضد الجيش البولندي من جهة "بروسيا الشرقية" و "سليزيا"

بإعتبار أن مجموعة الجيوش الشمالية ستكون – عقب طرد القوات البولندية من الممر و توصيل "بروسيا الشرقية " بـ "بوميرانيا" – قادرة على الوصول لما وراء نهر "فيستولا" بحيث تهاجم القوة الرئيسية للعدو المتركزة هناك من الخلف.

و كانت المهمة الواجب إلقائها على عاتق مجموعة الجيوش الجنوبية هي الإشتباك مع قوات العدو بعيداً تجاه نهر "فيستولا" و منع أي محاولة لإنسحابها خلف خط "فيستولا-سان"،و هذا يعني أنه يتوجب على تشكيلات الدبابات التابعة للجيش العاشر و ما يرافقها من فرق مشاة العمل على دحر تجمعات قوات العدو التي قد تسعى للوصول للحدود، ثم التحرك إن أمكن و عبور نهر "فيستولا" بإتجاه "دمبلين" ثم "وارسو"، و كان مفترضاً أن يصل الجيش الرابع عشر – المتجه إلى "جاليسيا" – إلى نهر "سان" و يعبره بأقصى سرعة ممكنة، و في حال ما إنتوى العدو تموضع قواته المقاومة خلف نهري "سان" و "فيستولا" فسيقوم ذلك الجيش – الرابع عشر – بتدمير الدفاعات و التحصينات المتواجدة عند النهر من جهة الجنوب ثم يتوجه شمالاً و ينضم مع الجناح الشرقي لمجموعة الجيوش الشمالية وراء خطوط العدو، و مما سيدعم الجيش الرابع عشر أن الجناح اليميني له سيشكل عبر إمتداده عميقاً تجاه الشرق ناحية سلوفاكيا تهديداً حالاً للقوات المعادية المتجمعة في "كراكوف" و سيجعل من المستحيلات أن يدوم الدفاع عن "جاليسيا" لمدة طويلة.

و هكذا كان الأساس الذي إستندت عليه مجموعة الجيوش الجنوبية في عملياتها في بولندا، فقد زحفت داخل أراضيها للإشتباك مع القوة المعادية الرئيسية و تدميرها عند نهر "فيستولا"، و ظلت مستعدة في ذات الوقت للتعامل مع أي محاولة من جانب العدو للهروب من المعركة المحسومة لصالحها.

و بدلاً من تقديم تقارير يومية عن سير العمليات كان من الأفضل بلا شك تقديم تقرير شامل و مفصل عن هذه الحملة الخاطفة، و قد قيدت نفسي بفحص الخطوط العريضة لمراحلها الأساسية التي كان بعضها بترتيب زمني و بعضها الآخر متزامناً، و تمثلت في:

١. المعارك الحدودية الكثيفة التي دخل فيها الجيش الرابع عشر في "جاليسيا" و ملاحقة العدو المنهزم حتى "لفيف" و عبر نهر "سان".
٢. إختراق الجيش العاشر و توغله حتى نهر "فيستولا" و معركة "جيب رادوم".

٣. معركة "بزورا" التي أدارتها قيادة مجموعة الجيوش الجنوبية مباشرة و أدت لتدمير أقوى حشد لقوات العدو على يد الجيشين الثامن و العاشر.
٤. الهجوم على "وارسو" و المعارك الختامية و التي نتجت عن عدد من التغيرات الطارئة على الإتفاقيات مع الإتحاد السوفييتي الذي يزحف الآن تجاه شرق بولندا و عبر الحدود في ١٧ سبتمبر ١٩٣٩.

<u>هجوم الجيش الرابع عشر و الزحف عبر "جاليسيا":</u>

الهدف الأول للجيش الرابع عشر تمثل في تطويق القوة الرئيسية للعدو المتوقع تمركزها في "كراكوف" ، و تم التطويق بشكل طبيعي بسبب تموضع الجيش على نطاق واسع يمتد من "سيليزيا" مروراً بمنطقة "مورافسكا أوسترافا" وصولاً إلى ممرات "كارباثيا".

و بينما توجب على الفيلق الثامن يقودها الجنرال "بوتش" و يتضمن : ٣٦ فرقة مشاة و خمس فرق بانزر أن تقتحم تحصينات العدو القوية على الحدود في منطقة شرق "سيليزيا العليا" ثم التقدم نحو "كراكوف" شمال نهر "فيستولا" تحرك الفيلق السابع عشر بقيادة الجنرال "كينتز" و يتضمن : ٥١ فرقة مشاة إلى "كراكوف" من جهة الجنوب عبر "مورافيا".

و أوكلت مهمة تطويق قوات العدو المتوقع وجودها حول "كراكوف" لفيلقين آخرين من الجيش و هما :

١. الفيلق ٢٢ بانزر بقيادة الجنرال "فون كليست" و يتضمن الفرقة الثانية و الفرقة الرابعة مركبات خفيفة، و كان عليه التوجه إلى "كراكوف" من جهة الجنوب عبر وادي "أورافا" غرب ممرات "كارباثيا" .
٢. الفيلق ١٨ مشاة جبلي بقيادة الجنرال "باير" و يتضمن : الفرقتين الثانية و الثالثة مشاة جبلي، و عليه أن يعبر وادي "بوبراد" و يصل إلى "نيوساندیز" ثم يهاجم مدينة "كراكوف" من الخلف.

و في الشرق كان على القوات السلوفاكية أن تهاجم عبر ممر "دوكلا" – المعروف منذ الحرب العالمية الأولى- في وقت لاحق و تشكلت من فرقة مشاة جبلي و تشكيل بافاري موسمي و فرقتين من الإحتياط.

و كانت معارك الجيش الرابع عشر – خاصة تلك التي خاضها الفيلق الثامن على تحصينات الحدود البولندية – تسير بصعوبة، و كان سبب الإهتمام بتلك المناطق الحدودية على المستوى العملياتي هو المساهمة في تنفيذ خطة التطويق عبر ممرات "كارباثيا"، و أعترف أن خطة تطويق قوات العدو في "كراكوف" لم تتم على الوجه الأكمل حسب الخطة الموضوعة بسبب تفتق ذهن العدو للخطر المحيط به و قيامه بالإنسحاب و إخلاء منطقة غرب "جاليسيا"، لكن الكتلة الرئيسية لهذه القوات تحطمت في المعارك الأولى و المطاردة التي تبعتها، و قد شكل الفيلق ٢٢ بانزر شكل الفيلق ١٧ و فيلق مشاة جبلي – اللذان إستوليا على "لفيف" و "برزيم" - الجناح الأيمن للجيش، و تمكن الجناح الأيسر المشكل من الفيلق الثامن و فيلق بانزر و الفيلق السابع من عبور نهر "سان" و "فيستولا" و رغم أن العدو قاتل بشجاعة في معارك متلاحقة كانت صعبة بالفعل تم تدمير مجموعات أخرى من قوات العدو قادمة من "وارسو" أو جبهة مجموعة الجيوش الشمالية، و في وقت لاحق إلتحمت قواتنا من الجيش الرابع عشر مع الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش الشمالية.

و بحلول ١٥ سبتمبر كانت المسيرة قد شارفت على نهايتها بعد سقوط "لفيف" و "برزيم"، و قد إستمرت عملية تدمير بقية قوات العدو في هذه المنطقة و شرقي نهر "سان" لمعارك لاحقة.

تقدم الجيش العاشر و معركة جيب "رادوم":

بينما كان الهدف من عمليات الجيش الرابع عشر – بصرف النظرعن تدمير قوات العدو غرب "جاليسا" – هو التقدم و الإمساك بقوات العدو المنسحبة و بالتالي منعه مهما كانت التكلفة من إي وقفة تعبوية وراء نهر "فيستولا" نجد أن مهمة الجيشين المهاجمين من جهة "سيليزيا" هي إجباره على خوض معركة فاصلة أمام النهر، و كان

الدور الأكبر في عملية الإندفاع نحو نهر "فيستولا" من نصيب الجيش العاشر القوي بما يتضمنه من فرق مدرعة قوية بينما كانت مهمة الجيش الثامن الأضعف هي تأمين الجناح الشمالي من العملية الدائرة ضد قوات العدو المعتقد وجودها في "لوتزيه" و إقليم "بوزنان".

بدأ الجيش العاشر هجومه من "سيليزيا العليا" بأربع فيالق تشكلت من : الفيلق ١٥ مشاة ميكانيكي من الفرقتين الثانية و الثالثة مركبات خفيفة يقودها الجنرال "هوث"، و الفيلق الرابع يقوداه الجنرال "فون شيدلر" و تتكون من الفرقتين ٤ و ٤٦ مشاة، و الفيلق السادس عشر بانزر بقيادة الجنرال "هويبنر" تألفت من الفرقتين الأولى و الرابعة بانزر و الفرقتين ١٤ و ٣١ مشاة، و الفيلق الحادي عشر بقيادة الجنرال "ليب" و تشكل من الفرقتين ١٨ و ١٩ ، و تبعها الفيلق الرابع عشر مشاة ميكانيكي بقيادة الجنرال "فون ويترشيم" و تشكل من الفرقتين ١٩ و ٢٩ مشاة ميكانيكي و فرقة مركبات خفيفة واحدة.

و كانت هناك وراء الجيش قوات إحتياط تكونت من الفيلق السابع بقيادة الجنرال "شوبرت" - و تكونت من الفرقتين ٢٧ و ٦٨ مشاة - بالإضافة إلى الفرقة ٦٢ مشاة.

و كان على الجيش الثامن و المكون من الفيلق الثالث عشر الذي يقوده الجنرال "فون ويتش" و قوامه الفرقتين ١٠ و ١٧ مشاة و فرقة "الليبستاندرت" من سرايا الدفاع، و الفيلق العاشر بقيادة الجنرال "يوليكس" المكون من الفرقتين ٢٤ و ٣٠ أن يتقدم بعمق تجاه "لوتزيه"، و تبعته فرقتان من الإحتياط هما الفرقة ٢١٣ و الفرقة ٢٢١ .

و فوراً بمجرد إقتحام الجيوش الألمانية الحدود فجر يوم ١ سبتمبر ١٩٣٩ إندلع قتال عنيف خلال الفترة التي كان العدو يُجبر على التقهقر فيها، و كانت قضيتنا خلال الأيام القليلة اللاحقة هل سيواصل العدو التقدم و يدخل في معارك فاصلة أمام نهر "فيستولا" أم أنه يهدف من القتال كسب الوقت اللازم لإنسحاب قواته وراء النهر، و بداية – في كل الأحوال – كانت هناك إشارات لوجود مجموعات قوية من قوات العدو تتشكل في البراري الجبلية حول مدينة "كيلس" بمنطقة "رادوم" و حول "لوتزيه".

و تدخل عاملان ظهرا لأول مرة في هذه الحملة في تحديد المعارك التي دارت في الأسابيع القليلة الأولى و هما :

١. الإقتحام الشامل لجبهة العدو بواسطة تشكيلات الدبابات التي توغلت بعمق خلف خطوطه، أما فرق المشاة فكانت تؤدي مهامها بصعوبة شديدة.
٢. التدمير الكامل للقوات الجوية للعدو و شبكة إتصالاته و مواصلاته بواسطة الهجمات الفعالة للوفتافا و هو ما حرم البولنديين من السيطرة المحكمة على قواتهم.

بسبب الموقف السائد في جانب العدو إضطرت قيادة مجموعة الجيوش لتقسيم الجيش العاشر لمجموعتين : الأولى على اليمين و تتشكل من الفيلق الرابع عشر ميكانيكي و الفيلق الرابع و يتبعها الفيلق السابع – والذي لم ينتقل بعد للجيش الرابع عشر – و على هذه المجموعة الهجوم على قوات العدو و تدميرها أثناء إنتشارها في "رادوم"، و المجموعة الأخرى على اليسار و تتألف من الفيلق السادس عشر بانزر و الفيلق الرابع عشر ميكانيكي و الفيلق الحادي عشر و كانت مهمتها قطع خطوط العدو و منعه من الإنسحاب من "لوتزيه" إلى "وارسو" بينما يقوم الجيش الثامن بمهاجمته من الغرب.

و في تنفيذ تلك الأوامر نجح الجيش العاشر في الإشتباك مع قوات العدو عند "رادوم" إثناء تجمعها في المنطقة الجبلية هناك بينما قام الفيلق الخامس عشر ميكانيكي بدوريات بين هذه المنطقة و نهر "فيستولا" عند مدينتي "أوبتاو" و "دمبلين"، كما قام الفيلق الرابع عشر ميكانيكي – و العامل ضمن مجموعة اليسار – بتمشيط الطريق إلى "وارسو" و في التاسع من سبتمبر تم غلق أول جيب على قوات العدو، و رغم أن القتال في منطقة "رادوم" إستمر حتى ١٢ سبتمبر لمحاولات العدو المستمرة كسر الحصار و الخروج من الحلقة التي أغلقت عليه إلا أن مصيره قد تحدد بالفعل، و بنهاية المعركة غنمنا ١٣٠ مدفع و ٦٠ ألف أسير و خسر العدو ٧ فرق، و حتى لو نجح في الإنسحاب إلى نهر "فيستولا" فلن يكون هذا ذا جدوى بالنسبة له، و بنهاية المعركة وصلت الفرقة الأولى مشاة جبلي التابعة للجيش الرابع عشر لمشارف مدينة "إيفوف" و كان الجناح الأيسر للجيش في وضع يمكنه من تدمير أي دفاعات حول نهر "فيستولا".

و قد إتخذ الفيلق السادس عشر بانزر – التابع للجناح الأيسر للجيش العاشر - طريقه بالقتال إلى نهر "فيستولا" عند "جورا كالفاريا" جنوب "وارسو" و وصلت فرقة مدرعة لضواحي المدينة، و قد كانت هذه القوات أضعف بكثير من أن تستولي على مدينة محصنة مثل "وارسو" لذا تم سحب الفرقة المدرعة، لكن الأمر الواقع الذي تم فرضه هو أنه تم وقف توجه العدو إلى "وارسو" من جهة الغرب.

معركة "بزورا":

و بينما كان القتال مستعراً في "رادوم" و رغم بزوغ أمارات النصر تحول إنتباهنا للجناح الشمالي من مجموعة الجيوش التي نقودها نتيجة لمبادرة العدو بالهجوم عليه.

خلال التسعة أيام الأولى من الحملة سار كل شيء وفق المخطط بشكل سلس مما أغرى المرء بإعتقاد أنه لا يمكن أن يحدث سوى القليل لإحداث أي تغيير حقيقي في سير العمليات، و مع ذلك كان يساورني شعور داخلي بأن هناك شيئاً ما يحدث على الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش، و عرفنا لاحقاً بوجود تجمعات كبيرة لقوات العدو في إقليم "بوزنان" لكنها لم تظهرللعيان بعد، و لهذا السبب طلبت مراراً يومي الثامن و التاسع من سبتمبر من رئاسة أركان الجيش الثامن إبداء الإهتمام بإرسال دوريات إستطلاعية عند الجناح الشمالي، و إنتهت مناقشاتنا مع *القيادة العليا للجيوش الألمانية* حول القوات المحتشدة في "بوزنان" بتسلمنا برقية منهم في التاسع من سبتمبر مفادها أن قوات العدو تتحرك شرقاً و لم تعد تشكل تهديداً للجيش الثامن، و رغم ذلك إفترضنا وجود عشر فرق جنوب نهر "فيستولا" بين "لوتزيه" و "وارسو".

و مما أتذكره أن مجموعة الجيوش كانت قد إنتوت توجيه الجيش العاشر إلى قطع الطريق الواصل إلى "وارسو" على مجموعات قوات العدو – حوالي ٥ أو ٦ فرق – المتواجدة حول "لوتزيه" بينما وجه الأمر للجيش الثامن بمهاجمة العدو من ناحية الغرب، و قد كانت المهمة الرئيسية للجيش الثامن – و هي توفير الحماية اللازمة لقوات مجموعة الجيوش العمالة على الجناح الشمالي – تسير بشكل جيد.

و مع ذلك بدا أن قيادة الجيش الثامن مهتمة أكثر بالمهمة السالف ذكرها أكثر من متابعة التطورات في الشمال، ففي ١٠ سبتمبر تم إبلاغنا بوقوع هجوم مفاجئ ضد الفرقة الثلاثين التابعة لهذا الجيش بواسطة قوات معادية أقوى، و قد بدا الموقف سيئاً بسبب توالي فشل الهجمات المضادة التي قام بها الجيش الثامن ساعياً لإسترداد الموقف، و مع ذلك ظل الجيش الثامن مهتماً بوقف قوات العدو – المكونة من القوات التي تجمعت في إقليم "بوزنان" – و فيسبيل هذا الغرض نشر قواته لتكوين جبهة دفاعية جهة الشمال، كما طلبت في ذات الوقت تعزيزها بفيلق بانزر لمنع أي إختراق لقوات العدو من الجنوب إلى "لوتزيه" التي سقطت بدون مقاومة في التاسع من سبتمبر.

لم تكن قيادة مجموعة الجيوش راغبة في جعل الجيش الثامن يسترد الموقف بواسطة الإمدادات التي ترسلها له، فحتى لو حصلت أزمة محدودة هناك فهي لن تؤثر على سير العمليات بأكملها، بل على النقيض منح لنا ذلك فرصة إحراز نصر ضخم بإعتبار أن قوات العدو تورطت في معركة عند نهر "فيستولا" و هذا يعني – لو إتخذت الإجراءات السليمة في جانبنا – تدميرها.

و بدلاً من تلبية طلب الجيش الثامن بإرسال فيلق بانزر كتعزيزات بدأت قيادة مجموعة الجيوش بإتخذا الخطوات اللازمة لتطويق العدو، و تقدمت الفرقتان اللتان عملتا كقوات إحتياط للجيش الثامن نجو الغرب، و هي ستهاجم الجناح الغربي لقوات العدو المشتبكة مع الجيش الثامن من جهة الشمال، لتحقيق ذلك الغرض تم توجيه الأمر لفرقة مركبات خفيفة بالإنسحاب من المعركة و التوجه لمنطقة "رادوم"، و ما أرادته قيادة مجموعة الجيوش هو إجبار العدو على الدخول في معركة على الجبهة المقابلة، كما تم توجيه الأوامر للجيش العاشر بالإلتفاف حول الفيلق ١٦ بانزر المتواجد في الجهة الجنوبية من "وارسو" و الفيلق الحادي عشر الذي كان يتبع السادس عشر بانزر و ذلك بهدف الدخول في معركة الجيش الثامن من جهة الشرق، و كانت مهمة الجيش الثامن الوحيدة هي وقف تقدم العدو لأطول فترة ممكنة حتى إكتمال عملية التطويق و بعد إكتمالها ينتقل الجيش الثامن لحالة الهجوم.

و بناء على الإنطباع المتولد لدى الجنرال "فون روندستيدت" و لدي أيضاً من زيارة القيادة للجيش الثامن ذلك الوقت قررت قيادة مجموعة الجيوش تولي القيادة الكاملة على سير العمليات، و تم إسناد قيادة الهجوم بواسطة فيلقين من الجيش العاشر من جهتي الجنوب و الجنوب الشرقي للجنرال "فون ريشناو"، بينما تم تكليف قيادة الجيش الثامن بإدارة العمليات الهادفة لتطويق العدو من جهة الغرب بواسطة فيلقيه، و أخيراً تمت الإستجابة لمطلبنا بجلب الفيلق الثالث العامل ضمن مجموعة الجيوش الشمالية - و الذي عبر نهر "فيستولا" شمالاً خلف خطوط العدو- قريباً منا لغلق الحلقة على العدو، و بينما وضح من سير العمليات محاولات عناصر كبيرة من قوات العدو الهرب عبر نهر "فيستولا" إلى حصن "مودلين" قامت قيادة مجموعة الجيوش بسحب الفيلق ١٥ ميكانيكي من "رادوم" لغلق طريق الهروب.

و بعد قتال عنيف سعى العدو فيه أولاً للتقدم جنوباً ثم للجنوب الشرقي و أخيراً للشرق إنهارت مقاومته يوم ١٨ سبتمبر، و في ٢٠ سبتمبر أورد الجيش العاشر تقريراً عن

أسر ٨٠ ألف جندي و مغنم ٣٢٠ مدفع و ١٣٠ طائرة و ٤٠ دبابة، و تضمن تقرير الجيش الثامن أنه أسر ٩٠ ألف جندي و عدد غير محدود من المعدات، لقد كان عدد قوات العدو المتمثل في تسع فرق مشاة و ثلاثة ألوية خيالة و عشر فرق أخرى أكبر بكثير مما توقعنا.

لقد كانت معركة "بزورا" أضخم إشتباك في الحملة البولندية بل إنها مثلت قمة هذه الحملة رغم أنها لم تكن معركة فاصلة.

بل تجسد العامل الحاسم في عملية التطويق الضخمة لكامل القوات البولندية من جهة الشمال بواسطة مجموعة الجيوش الشمالية و من جهة الجنوب بواسطة الجيش الرابع عشر، و سواء كان التحرك المضاد من قبل بولندا كان مدفوعاً بأمل إحداث أي تغيير في مصير المعركة بمنطقة نهر "فيستولا" أو كان الهدف منه إخلاء الطريق إلى "وارسو" لصالح قواتهم المتواجدة جنوب نهر "فيستولا" فلن يكون لذلك أي تأثير على مصير الجيش البولندي.

و رغم أن معركة "بزورا" لم تتخمض عنها نتائج قوية كتلك الناتجة عن المعارك التطويقية التي حدثت في روسيا لاحقاً فقد كانت الأكبر من نوعها إلى ذلك التاريخ، فتخطيطها لم يتضمن إقتحام خطوط جبهة العدو بتشكيلات دبابات قوية بل تولد بحركتين مضادتين من الجانب الألماني لإقتناص فرصة غير متوقعة سنحت لنا على يد تحركات العدو.

السيطرة على "وارسو":

بعد معركة "بزورا" و سلسلة من المعارك الواقعة في غابات جنوبي "مودلين" مع قوات العدو التي حاولت الهرب من الحصن إلى "وارسو" تم تكليف مجموعة الجيوش التابعة لنا بمهمة السيطرة على "وارسو" عاصمة بولندا، و بينما كانت تشكيلاتنا تتحرك بشكل حقيقي تجاه الغرب إكتفت الحكومتان البريطانية و الفرنسية بمشاهدة حليفتهما بولندا و هي تسقط.

و قد أرسلنا للقيادة العليا أن الإستعدادات لأخذ "وارسو" لن تتم قبل الخامس و العشرين من سبتمبر، و كان أملنا الإستفادة من كل المدفعية المتاحة للجيش بما فيها العالمة ضمن الجيش الرابع عشر.

و مع ذلك عقب التدخل السوفييتي يوم ١٧ سبتمبر بما عناه من تحديد نهر "فيستولا" كخط فاصل صار "هتلر" في عجالة من أمره للسيطرة على المدينة، فأصدر أمراً يقضي بوجوب أن تكون المدينة بأيدينا قبل نهاية الشهر، و بينما كان عادياً أن يتوقع رجال السياسة إحراز الجنرالات النصر من وجهة نظري كان تحديد ذلك التاريخ مبالغة بلا شك.

و بصرف النظر عن ذلك كان على مجموعة الجيوش أن تنفذ الهجوم بأسلوب يقلص الخسائر إلى أقل حد ممكن، و يكمن السبب في وجوب السيطرة على المدينة في أن الجيش البولندي بأكمله قد تحصن فيها و زاد من تحصيناتها كما أن القائد الأعلى للجيش البولندي أعلن التمسك بالمدينة حتى الرمق الأخير.

و كانت مجموعة الجيوش تدرك عدم إمكانية توقع الهجوم المفاجئ على المدينة في تلك الظروف، و لم تود أبداً أن تتورط في معركة داخل "وارسو" مهما كانت الأسباب الداعية إلى ذلك، فهذا سوف يؤدي إلى خسائر مهولة غير مبررة لكل من القوات المهاجمة و المدنيين.

تم تكليف الجيش الثامن بمهمة السيطرة على المدينة على أن يقوم بتركيز هجومه على منطقة الحصن لإستثمارها لصالحه بمعاونة عدد من القوات تشكل حلقة تنتشر على الخطوط السكك الحديدية للمدينة دائرة الشكل، و هذا سيجبر المدينة بالإستسلام سواء تحت ضغط القصف المدفعي و الغارات الجوية أو – إن لم يحدث القصف النتيجة المنشودة – بسبب نقص الطعام و الماء، و أود أن أشير هنا إلى نجاح قيادة مجموعة الجيوش في إثناء "هتلر" عن فكرته المبكرة بقصف المدينة باللوفتافا، و كانت فكرتنا تنحصر في عدم جدوى الغارات الجوية المتواصلة على المدينة على سير العمليات العسكرية، أما في الوقت الحالي فنفس تلك الفكرة هي ما بررت قصف المدينة المحاصرة.

في ٢٥ سبتمبر تم فتح النيران على الحصون و نقاط التمركز الخارجية للمدينة فضلاً عن مراكز التموين و الإمداد، و بدأت في الوقت نفسه هجمات محددة للوصول إلى

أماكن تطبيق خطة الحصار، و في ٢٦ سبتمبر أسقطنا منشورات على المدينة تهدد بأنها على وشك أن تُقصف إن لم تستلم، و لما أبدت القوات البولندية مقاومة عنيدة بدأت عملية القصف مساء ذلك اليوم.

و قد علمت و الكولونيل جنرال "فون رندستيدت" ظهر يوم ٢٧ سبتمبر خلال زيارة للفرقة الثامنة عشر التي سيطرت على حصنين أن العدو عرض الإستسلام فتوقف القصف فوراً.

تم توقيع وثيقة الإستسلام في اليوم التالي بواسطة قائد الجيش البولندي و الجنرال "بلاسكوفيتز" قائد الجيش الثامن الألماني، و تضمنت توفير دعم فوري للمدنيين و مصابي العدو بكل الطرق المناسبة للشرف العسكري في التعامل مع عدو منهزم بعد نضال شديد، و تضمنت رد السلاح إلى الضباط و أن يقتصر الأسر على صف الضباط و الجنود و بالقدر الذي تقتضيه الضرورة العسكرية.

وفقاً للسلطات البولندية إستسلم في "وارسو" ١٢٠ ألف ضابط و مجند.

و أثناء توقيع وثيقة الإستسلام قال الجنرال البولندي : " العجلة دائماً تدور"، و قد أثبت أنه محق في النهاية رغم أن كلامه لم يكن له معنى وقتها بالنظر لما حدث لأرض وطنه.

المعارك النهائية عند نهري "سان" و "فيستولا":

رغم أن الكتلة الرئيسية لقوات العدو تعرضت للتدمير في معركة "بزورا" و بعد سقوط "وارسو" خاض الجيش الرابع عشر عدة معارك ضارية شرق "جاليسيا" و على الجانب البعيد من نهر "سان" مع عدد من قوات العدو التي نجت من الدمار، و في نفس الوقت أرسل الجيش العاشر فيلقاً لعبور نهر "فيستولا" بمنطقة "دمبلين" للوصول إلى "لوبلين"، و في وسط ذلك القتال وصلتنا أوامر مفاجئة من القيادة العليا بتسليم "لفيف" – التي إستسلمت حاميتها تواً للجيش الرابع عشر – للسوفييت و بإنسحاب مجموعة الجيوش كلها إلى ما وراء الخط الفاصل التي إتفق عليه "روبنتروب" في "موسكو"، و قد إمتد هذا الخط من ممر "يوزوك" إلى "بريزميل" ثم على طول نهري "فيستولا" و

"سان" وصولاً لشمال "وارسو"، و من ثم صارت المعارك التي خاضتها مجموعة الجيوش الجنوبية على الجانب الآخر من نهري "فيستولا" و "سان" هباء منثوراً و إستفاد منها السوفييت فقط!!

و للتراجع و عبور نهر "سان" كان علينا أن نفض الإشتباك مع قوات العدو التي قدرناها بفرقتين أو ثلاث فرق و لواء أو إثنين خيالة، و قد أبدت قوات العدو شجاعة مشهودة – رغم أنها أساءت فهم الموقف تماماً – و قامت بالهجوم علينا لمنع الفيلق السابع و الثامن من الوصول للنهر، و هنا دار قتال شرس ناتج عن الشد و الجذب الدائر بين الحكومتين الألمانية و السوفييتية، و تجلى ذلك في التغيير الذي تم إدخاله على الخط الفاصل يوم الأول من أكتوبر، و هذه المرة أُمرنا بإعادة إحتلال إقليم "لوبلين"، و هناك إستسلمت آخر مجموعة من القوات المعادية – التي إنسحبت تجاه النهر هرباً من السوفييت - للفيلق ١٤ ميكانيكي.

إنتهت الحملة البولندية و خلالها أسرت مجموعة الجيوش الجنوبية ٥٢٣٢٣٦ أسير و غنمت ١٤٠١ قطعة مدفعية و ٧٦٠٠ مدفع رشاش و ٢٧٤ طائرة و ٩٦ مركبة قتالية و عدد آخر من المعدات، و كانت خسائر العدو البشرية عالية بلا شك، و هو قد قاتل ببسالة شديدة و أظهر تصميماً على التماسك حتى في أحلك اللحظات.

و كانت خسائر مجموعة الجيوش التابعة لنا هي :

١. من الضباط ٥٠٥ قتيل و ٧٥٩ مصاب و ٤٢ مفقود.
٢. من ضباط الصف و الرتب الأخرى : ٦٠٤٩ قتيل و ١٩٧١٩ مصاب و ٤٠٢٢ مفقود.

في ٥ أكتوبر أقام "هتلر" إستعراضاً عسكرياً في "وارسو" إحتفالاً بالنصر شاركت فيه كل الفرق المتواجدة داخل و حول المدينة، و كانت تلقي التحية و تمر عبر الطريق الواصل بين "بيلفدير" و القلعة، و للأسف إنتهت هذه المناسبة بموقف غير ظريف يظهر بوضوح نظرته لقادة الجيش.

فقد كان مخططاً قبل أن يطير عائداً لألمانيا أن يلتقي "هتلر" مع القادة و الضباط الذين شاركوا في العرض، و لأجل هذا الغرض تم إعداد طاولة في عنبر كان يجب وضع أطباق الحساء عليها لهم من مطبخ ميداني، لكن لما وصل "هتلر" للعنبر و نظر للقماش

الأبيض و الزهور على المائدة قام بالإلتفاف و الإنضمام للقوات المتواجدة في المطبخ في الخارج، و بعد أن تناول بعض الحساء و تحدث مع الجنود من حوله توجه تلقاء الطائرة التي كانت تنتظره، لد كانت محاولة واضحة لإظهار تواصله مع حشود العامة، و لكنني أشك بشدة في أنه حظى برضا آولئك الجنود بمثل هذا التصرف، و كانوا سيرضون لو أن رئيس الدولة عقب كل هذه الإنتصارات قام بتكريم كافة القوات في مجملها بزيارة إلى قادتها، لقد كان تعامله مع آولئك القادة شيئاً أثر في تفكير المرء.

منذ فترة طويلة يتم وصف الحملة البولندية بالـ "بلتزكريج" – الحرب الخاطفة – فبالنظر إلى سرعة تنفيذها نجدها شكلت أيضاً نموذجاً فريداً حتى أنتجت الحملة الألمانية على الغرب نموذجاً مماثلاً على نطاق أوسع.

و لتقييمها بعدالة على المرء أن ينظر لما أوردناه في الفصل السابق عن فرص بولندا في هذه الحرب.

و أمر حقيقي أن الألمان إنتصروا في هذه الحملة بسبب تفوق و أفضلية الظروف التي بدأوا فيها الحرب، و بتوفر العاملين الآتيين:

١. تقبل القيادة الألمانية درجة عالية من المخاطرة في الغرب بهدف كسب التفوق الضروري في الشرق.
٢. عدم تقبل الحلفاء الغربيين المخاطرة و إرسال دعم لبولندا.

و لا يوجد أي شك في الأمور كانت ستتغير جذرياً لو تدخلت القوى الغربية و قامت بالهجوم من جهة الغرب في أبكر لحظة ممكنة، و يتطلب هذا بالطبع وجود قيادة بولندية تتمتع بدرجة أكبر من الواقعية، قيادة تقوم بدلاًعن بعثرة مواردها على مهام خارجية لا يمكن تحقيقها بتركيز قواتها في النقاط الهامة و القتال بشكل ممنهج لكسب مزيد من الوقت حتى يتم الإيقاع بألمانيا بين شقي رحى حرب على جبهتين، و كانت الشجاعة التي أبدتها القوات البولندية المقاتلة حتى النهاية ضمانة قوية لقدرتها على التماسك لحين وصول الحلفاء لنهر "راين" و يجبروا القيادة الألمانية على سحب الحملة من بولندا.

و في هذه الحالة أيضاً قام الطرف الأضعف بالمساهمة في النصر عبر الأخطاء التي وقع فيها كما قرر الكونت "شيفلين" من قبل، و يجب الأخذ في الإعتبار من زاوية أخرى أن سرعة و إتمام نجاحاتنا في بولندا ترجع – و بصرف النظر عن الوضع

العملياتي المميز الذي تمتعنا به بداية الحملة من حيث التفوق العددي على العدو الذي حققناه بتقبل المخاطرة في الغرب – للقيادة الأفضل و التأهيل العالي للقوات الألمانية.

و تدخل عامل حيوي آخر في سرعة نجاحنا و هو الإستخدام الإستثنائي لتشكيلات الدبابات الضخمة مدعومة بقوات جوية كبيرة، لكن العامل الذي كان حاسماً حقاً – غير شجاعة و إخلاص الجندي الألماني – كان الروح السائدة لدى القيادة و القوات الألمانية، فرغم أن الإنجاز المادي المتمثل في إعادة التسليح يرجع إلى جهود "هتلر" الذاتية إلا أن هذا الإنجاز المادي غير كافٍ لوحده ليضمن النصر السلس الشامل.

أهم شي على الإطلاق هو أن "الرايخسفير" – نظام الحكم في نهاية عشرينيات القرن العشرين – أعاد إحياء الأسلوب الألماني العظيم في التدريب و القيادة عقب طمسه بواسطة هزيمة ١٩١٨، فتم تأسيس "الفيرماخت"[١] الألماني – كولد شرعي للرايخسفير – بهدف منع أي حرب قادمة من التحول لصراع بطئ[٢] - أي حرب خنادق، و بمساعدة "الفيرماخت" أمكن التوصل للصورة الحقيقية لفن القيادة في العمليات سريعة الوتيرة، و تم تشجيع مهارة القيادة الفردية في مستويات ضباط الصف و الجنود بشكل لا مثيل له في أي جيش آخر، و هنا يكمن سر النجاح الذي حققناه، و أثبت "الفيرماخت" جدارتهم في أول إختبار، و صار بالإمكان القتال بضراوة بسبب إسترجاع القادة سلطتهم الميدانية الكاملة فضلاً عن دخول القوات في معارك حربية حقيقية.

في ١٥ أكتوبر حضر العقيد "هيسنجر" من فرع العمليات بـ*القيادة العليا للجيوش الألمانية*و أخبرنا بأنه تم نقل مقر قيادتنا للعمل على الجبهة الغربية في نهاية هذا الشهر، و سيحل محلنا الجنرال "بلاسكوفتز" قائد الجيش الثامن، و بعد ذلك بفترة قصيرة طُلب مني الحضور لمقر *القيادة العليا للجيوش الألمانية*في "زوسن" في ٢١ أكتوبر بغرض تسلم أوامر العمليات في الغرب.

و غادرت "لوتزيه" في ١٨ أكتوبر و عرجت بأسرتي و أخو زوجتي الذي كان مصاباً يرقد في مستشفة "بريسلو".

ثم كان علي مواجهة المهمة الجديدة......

---

[١] فيرماخت : الإسم الجديد للقوات المسلحة الألمانية.

[٢] صراع بطئ : إسم اطلقه الجنرال الألماني "فولر" على المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الأولى.

الباب الثاني

الحملة على الغرب

مقدمة

" و الآن يصنع شتاؤنا الحزين صيفنا المجيد"

(ريتشارد الثالث)[١]

كنت سعيداً لإفلاتي من التكليف بمهام سلطة الإحتلال في بولندا، و وصلت قيادتنا للجبهة الغربية في ٢٤ أكتوبر ١٩٣٩ لتتولى قيادة مجموعة الجيوش "أ" المشكلة حديثاً، و حركت الجيوش الخاضعة لنا – الثاني عشر و السادس عشر – فرقها للتموضع و الإنتشار على طول الحدود الجنوبية لبلجيكا و لكسمبورج، و تموضعت خطوطهم الخلفية في منطقة نهر "راين"، و قُرر أن تتخذ قيادة مجموعة الجيوش من مدينة "كوبلنز" مقراً لها.

و إنتقلنا لاحقاً لفندق "ريسن-فورستنهوف" بجوار نهر "راين"، و هو المكان الذي إعتبرته مثالاً للجمال عندما كنت صغيراً في المدرسة، و نزل ضباطنا في مبنى قديم قرب "داتشس إيك"[٢] الذي تمركزت فيه فرقة "كوبلنز" حتى إندلاع الحرب، غرف الأمس روكوكية الطراز[٣] صارت اليوم خاوية و كئيبة، و قريباً من هذا المبنى يوجد نصب هرمي في ميدان تحيطه أشجار قديمة تحمل معنى مهماً، و تم تشييد هذا النصب

[١] ريتشارد الثالث: ملك إنجلترا منذ ١٤٥٣ -١٤٨٥.
[٢] داتشس إيك : هو رأس ممتد من الأرض يلتقي عنده نهرا "راين" و "موسل" و يقع في "كوبلنز".
[٣] روكوكي : هو طراز ظهر في القرن الثامن عشر الميلادي يتسم بكثرة الديكورات.

بواسطة القيادة الفرنسية في ١٨١٢ في "كوبلنز" لتحديد مكان عبور جيش "نابليون" لنهر "راين" أثناء توجهه لروسيا، و تحت النصب نقش مدون عليه توقيع القائد الروسي الذي صار قائد "كوبلنز" في ١٨١٤ .

كم أشعر بالشفقة تجاه "هتلر" الذي لم ير هذا!

و بناء على إقتراح مني تمت إضافة ضابط لهيئة الأركان فرع العمليات و هو العميد "فون تريسكو" الذي وضع نهاية لحياته في يوليه ١٩٤٤ لمشاركته في المؤامرة ضد "هتلر"، وكان قد خدم تحت قيادتي في وقت السلم في القسم الأول من هيئة أركان الجيش.

و كان "فون تريسكو" ضابطاً موهوباً و وطنياً متحمساً، و كان له سحر خاص نابع عن عقله النشط و أسلوبه الراقي و نجاحاته يتجسد في مظهره الأرستقراطي الذي كان يكتمل بوجود زوجته الجميلة بجواره وهي إبنة وزير الحربية و رئيس هئية الأركان السابق "فون فالكنهاين"، و من النادر تلك الأيام أن تجد زوجين مبهرين داخل الدوائر العسكرية في "برلين" مثل الزوجان "تريسكو".

و كان بيني و بين "تريسكو" علاقة زمالة قوية وصلت إلى حد الصداقة و ترجع إلى أيام عملنا سوياً في فرع العمليات، و هنا في "كوبلنز" سيقدم لي المساعدة في تجهيز الخطط اللازمة لمجموعة الجيوش التابعة لنا للهجوم على الغرب، و عندما صرت لاحقاً قائداً لفيلق بانزر و بعدها قائداً لجيش طلبت في كل مرة أن يكون "تريسكو" هو رئيس الأركان الذي يعمل معي، و كان يتم رفض طلبي بحجة أي لست في حاجة لرجل في مثل مهارته، و لما عُرض علي أن يكون رئيس الأركان في ربيع عام ١٩٤٣ لم أستطع أن أقدمه على على رئيس العمليات الذي يعمل معي و هو الجنرال "بوس" و الذي كان رجلاً ماهراً و من نفس عمر "تريسكو" و كان قد أثبت جدارته في عدة معارك خضناها سوياً، و أذكر هذا هنا لأنني وصل إلى علمي أن شخص ما على صلة بـ"تريسكو" قال إنني رفضت "تريسكو " لأنه لم يكن "إشتراكياً قومياً" معتمداً عليه، و أي شخص قريب مني يعلم جيداً أني لا أختار معاوني على هذا الأساس.

لقد كانت تلك الأشهر التي قضيناها في "كوبلنز" بمثابة الشتاء الحزين لنا بسبب الشك الغريب المحيط بما يعرف "الحرب الضبابية" في ١٩٣٩-١٩٤٠ كما أسماها الفرنسيون، و كان علينا أن نركز إهتمامنا على تجهيز القوات التابعة لنا للهجوم في

الربيع القادم، لكن لسوء الحظ علمنا أن "هتلر" خطط للهجوم في أواخر خريف ١٩٣٩ و قد تبين إستحالة ذلك – على الأقل خلال الشتاء – لأن خبراء الأرصاد التابعين للوفتافا كانوا قد توقعوا عدة مرات أن الجو سيكون متحسناً في فترة ما من السنة، فيستجيب "هتلر" لذلك و يقرر تحديد كلمة سر تبدأ القوات في الهجوم عند سماعها، ثم يحدث أن تخفق توقعات خبراء الأرصاد إما بسبب هطول غزير للمطر يتلف أرضية الغابة أو هطول الثلج المعيق لأي تحرك للدبابات، و نتج عن ذلك فترة من التذبذب بين لإصدار الأوامر التنبيهية و أوامر الإلغاء و هي أسوأ حالة يمكن أن تمر بها أي قيادة و أي قوات، و خلال هذه الفترة لم يثق "هتلر" في التقارير العسكرية الصادمة و التي تتعارض مع رغباته الخاصة، فذات مرة أخبرته قيادة مجموعة الجيوش أن الهطول المستمر للمطر يجعل بدء الهجوم مستحيلاً فقام بإرسال مساعده للشيءون العسكرية "شمندت" للتأكد من حالة الأرضية بنفسه، و تعامل "تريسكو" بمثالية مع ذلك فقضى يوماً كاملاً يتجول مع "شمندت" في الطرقات الغير قابلة للمرور عليها فجعله يمر على الأراضي الطينية الوحلة و التلال المنزلقة لدرجة أن "شمندت" لما عاد للقيادة كان مستنزف القوى تماماً، و منذ ذلك الحين توقف "هتلر" عن طريقته تلك في التأكد من تقاريرنا عن حالة الجو.

و كان الكولونيل جنرال "فون رندستيدت" قائد مجموعة الجيوش هو أكثر من عانى من الغموض المتولد عن ذلك التذبذب و إهدار المجهود العسكري و هو لم يكن صبره قوياً، و قريباً غرقت قيادتنا في طوفان من الأوراق المتدفقة على قيادات الموحدات و التشكيلات خلال هذه الفترة الهادئة من الحرب، و يرجع ذلك إلى القانون العرفي السائد في الجيش الألماني بأن قائد التشكيل لا يهتم بصغائر الأمور، و مع ذلك كان الكولونيل جنرال "فون رندستيدت" يتجول صباح كل يوم على ضفاف "راين" لفترة طويلة، و نظراً لقيامي ببعض التمرينات كنت أقابله أوقاتاً كثيرة، و حتى أيام الشتاء القارس الذي إكتسى فيه "راين" بالجليد كان "فون رندستيدت" يرتدي معطفاً خفيفاً، و عندما إعترضت على ذلك بحجة أنه قد يموت بسبب البرد الشديد رد بأنه لم يرتدِ طوال حياته معطفاً ثقيلاً و لن يقوم بشرائه في ذلك السن، و هناك عادة أخرى لـ"فون رندستيدت" ذكرتني بأيام المدرسة و هي أنه عند عودته لمكتبه لتلقي التقارير الشفهية مني و من ضباط هيئة الأركان كان يقرأ رواية بوليسية، و كان يهتم بذلك النوع من الأدب مثل سائر الأشخاص المشهورين، لكنه كان يشعر بخجل عند قراءة أي رواية فكان يقرأ في

مكان منعزل و يقوم بإغلاق الباب عند رؤية شخص قادم، و هو نفس الشيء الذي كنا نفعله كطلبة عند رؤية المدرس قادم إلى فصلنا.

و كان حزننا ذلك الشتاء راجع إلى الإجراءات المتذبذبة التي إتخذها "هتلر" و أثرت على قواتنا التي شعرت بالشك تجاه مصداقية القيادة لتكرار إلغاء الأوامر، مما يسمح لنا بالقول أن الفرق المشكلة حديثاً بدأت تشعر بالتململ.

و السبب الحقيقي لحالة الحزن هذه يتكون من شطرين :

١. أنه نشأ من سير للأمور يمكنني أن أصفه بأنه تدني لقدرة للقيادة العليا للجيش، فقدت وجدت مجرى الأمور مثيراً للقلق خاصة أنني عملت من قبل في شتاء ١٩٣٧-١٩٣٨ ضمن رئاسة أركان *القيادة العليا للجيوش الألمانية* بجانب "بيك" و "فريتش" و صرت الآن غير قادر على الإطمئنان من مناسبة تصرفات *القيادة العليا للجيوش الألمانية* مع الإطار العام لسياسة الحرب.
٢. إن قيادة مجموعة الجيوش سعت بلا جدوى خلال الشتاء لحمل *القيادة العليا للجيوش الألمانية* على قبول خطة رأينا أنها تقدم النصر الساحق في الغرب، و لم يتم قبولها كأساس للهجوم حتى تدخل "هتلر" و أقالني من رئاسة أركان مجموعة الجيوش.

هاذان العاملان – تدني قدرة *القيادة العليا للجيوش الألمانية* و النزاع حول خطط العمليات – شكلا خلفية الحملة الغربية التي خصصنا لها جزء من هذا الكتاب، و هي شأن لاحق لا حاجة لي أن أتحدث عنه تفصيلاً هنا، لكنني سأروي ما رأيته بنفسي كقائد لفيلق.

و رغم ما سبق كان شتاء حزننا متبوعاً بنصرنا المجيد.....

٤

خسوف *القيادة العليا للجيوش الألمانية*

بدأت عملية خسوف *القيادة العليا للجيوش الألمانية* رغم كونها الجهة المسئولة عن السياسة العسكرية منذ أقدم "هتلر" على عزل الفيلد مارشال "فون براوخيتش" و تولى هو بنفسه قيادة الجيش و الفيرماخت، و تم عزل قيادة الجيش و منعها من ممارسة أية مهام منذ الأسابيع التي أعقبت الحملة البولندية.

و بعد زيارتي لمدينة "زوسن" في ٢١ أكتوبر ١٩٣٩ لإستلام أوراق العملية "الأمر أصفر" بإعتباري على رأس مجموعة الجيوش الجنوبية كتبت في يومياتي :" كانت رفقة هالدر و شتانباجل و جريفنبرج بمثابة موسيقى محبطة"، و كان الجنرال "فون شتانباجل" بمثابة الذراع اليمنى لـ"هالدر" رئيس هيئة الأركان، بينما كان العقيد "جريفنبرج" رئيس فرع العمليات بـ*القيادة العليا للجيش*.

و كان واضحاً من تعابير وجوه هؤلاء الرجال الثلاثة أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية* إعتمدت الخطة التي فرضها عليها "هتلر"، و هم قد نظروا بشكل سلبي إلى فكرة الهجوم على الغرب كحل ينهي الحرب، و مما قالوه إتضح إعتقادهم الجازم أن الجيش الألماني غير قادر على تحقيق نصر حاسم في الغرب، و هذا الإنطباع سيتم تدعيمه بواسطة سير مجرى العمليات و زيارات رئيس هيئة الأركان و طاقمه لمقر قيادة مجموعة الجيوش.

و هنا بدا واضحاً إختلاف الآراء – في فترة أواخر خريف و شتاء عام ١٩٣٩ – حول الهجوم على الغرب من حيث فاعليته و أغراضه، و ما قض مضجعي معرفتي مدى التدهور الذي أصاب قيادة الجيش العليا من منظور القيادة العليا للدولة، و هذا حدث عقيب أحد أبرع الحملات العسكرية في التاريخ الألماني.

و قبل ذلك نجد "هتلر" – و للأسف – قد تجاهل وجهات نظر *القيادة العليا للجيش*، و حدث ذلك إبان أزمة "السوديت" و لكن حينها تغير الأمر بسبب تدخل عامل القرار السياسي و ليس أي عامل عسكري، و تمحور خلاف "هتلر" مع *القيادة العليا للجيوش*

الألمانية- متمثلة بشكل رئيسي في "بيك" رئيس هيئة الأركان – حول ما إذا كان أي تصرف يُتخذ ضد تشيكوسلوفاكيا سيؤدي لتدخل الدول الغربية و سيخلق حرباً لا تتحملها ألمانيا على جبهتين من عدمه، و كان تقييم هذه المشكلة شأناً خاصاً بالقيادة السياسية و التي لجأت للوسائل السياسية لمنع تورطها في حرب على جبهتين، و رغم أن رئيس هيئة الأركان إرتكب مجازفة بمنح الأولوية للسياسة في تلك المناسبة إلا أنه لم ينكر أبداً تفوق العامل العسكري وفقاً لمعتقده الخاص.

و خلال تلك الفترة من الأزمة البولندية لم تصل أخبار الخلافات بين "هتلر" و *القيادة العليا للجيوش الألمانية* إلى مسامعنا، و أنا مقتنع بالفعل بفكرة أن صواب تقييم "هتلر" السياسي للدول الغربية في أزمة تشيكوسلوفاكيا منح *القيادة العليا للجيوش الألمانية* أملاً في أن تسير الأمور هكذا في خريف ١٩٣٩، و على أي حال فأنا – و معي مجموعة الجيوش الجنوبية - أؤمن بأن *القيادة العليا للجيوش الألمانية* في تلك الأيام الحاسمة الأخيرة من شهر أغسطس كانت تعتقد أن الأمر برمته سينتهي مجدداً بتسوية سياسية كتلك التي حدثت في "ميونيخ" ، و في كل الأحوال لا يمكن القول أن "هتلر" تدخل في سير العمليات في بولندا بصرف النظر عما إعتقده المرء وفقاً لتموضع و إنتشار القوات في "بروسيا الشرقية".

و الموقف الآن جد مختلف، يصح القول أن مسألة كيف تسير الحرب عقب هزيمة بولندا كانت سياسة حربية شاملة و هي من صميم إختصاص رئيس الدولة "هتلر" و رئيس هيئة أركان الفيرماخت، و طالما أن الأمر يتعلق بهجوم بري على الغرب فيجب أن يعتمد ذلك كلياً على كيف و متى و هل يمكن للجيش تنفيذ الهجوم؟ و هنا لا يمكن مصادرة أولوية قيادة الجيش أبداً.

و فيما يتعلق بالأسئلة الثلاثة السابقة تعامل "هتلر" مع *القيادة العليا للجيوش الألمانية* بسياسة الأمر الواقع عندما أخبرها في ٢٧ سبتمبر – و بدون إستشارة رئيس هيئة الأركان – نيته مهاجمة الغرب في خريف ١٩٣٩ و ذلك بهدف تحييد بلجيكا و هولندا و لوكسمبرج، و هو ما صدر توجيهه من القيادة العليا بشكل رسمي للجيش في ٩ أكتوبر ١٩٣٩.

و توصلت لإستنتاج مما بدا على وجوه الضباط الثلاثة السالف ذكرهم و عندما تسلمت أوراق العملية "الأمر أصفر" مفاده أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية* قامت بتحجيم

وضعها، و أصدرت توجيهاً بالهجوم أثبت فقدانها الثقة بنفسها بشكل جذري، و من وجهة نظر القوات الرابضة على الجبهة الغربية فإن هذه الشكوك لها ما يبررها.

و يمكنني فقط إفتراض أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية* تخلت عن كونها السلطة المسئولة عن الخطط الحربية على الأرض و تصرفت كما لو كانت مجرد جهاز فني أوتنفيذي، و هو الأمر الذي سعيت و معي الجنرال "بيك" لمنعه عبر توصياتنا بتوزيع منطقي للمسئولية في المستويات العليا أيام الحرب، و ما طالبنا به هو تأسيس جهة واحدة تكون مختصة بمنح المشورة حول شيءون السياسة الحربية لقيادة الدولة و تكون لها السيطرة التامة على عمليات الجيش و الحرب بأكملها، و ما كان يتوجب تجنبه بشتى الطرق هو الخلاف بين هئيتي الأركان : هيئة أركان الفيرماخت و هيئة أركان الجيش، و هو ما ستنجم عنه آثار لاحقاً.

هذا ما يتضح الآن حدوثه، فلم يقتصر "هتلر" و *القيادة العليا للجيوش الألمانية* على تقرير ما العمليات التي سينفذها الجيش بل إمتد إلى تقرير متى و كيف ستُنفذ، و صارت مسئولية *القيادة العليا للجيوش الألمانية* تنحصر في تفاصيل تنفيذ العمليات سواء توافقت مع تعليمات تنفيذها أم لا، و تم نقل رئيس هيئة أركان الجيش من صفته كمستشار عسكري لرئيس الدولة إلى مجرد منفذ مطيع للأوامر، و حدث هذا من قبل لما تم إنشاء مسرح عمليات خاص بـ*القيادة العليا للجيوش الألمانية* في النرويج.

و تفسير كيف تمت إزاحة *القيادة العليا للجيوش الألمانية* جانباً هكذا يرجع إلى سبب شخصي و آخر يتعلق بمسألة كيف ستسير الحرب بعد هزيمة بولندا.

هتلر – فون براوخيتش – هالدر:

السبب لمناقشة ما سبق ذكره يكمن في شخصية "هتلر" و في تعطشه الشديد للسلطة و ثقته الزائدة في نفسه، و هو ما تم تدعيمه بواسطة نجاحه الباهر و تملق قيادات و أعضاء حزبه له، كما أن منافسيه العسكريين واجهتهم مشكلة كونه رئيس الدولة و رئيس هيئة أركان الفيرماخت، كما أنه كانت لديه مهارة مفاجئة خصومه العسكريين

بمشاكل سياسية و إقتصادية لم يكونوا على مقدرة لحلها بعكس رجال الدولة الذين يتفوقون عليهم في ذلك.

و في التحليل السابق نرى أن شهوة "هتلر" للسلطة هي ما دفعته لمنح نفسه دور القائد العسكري الأعلى إلى جانب كونه رئيس الدولة و زعيم سياسي، و كشفت محادثة لي معه عام ١٩٤٣ أكثر بشأن ذلك، و كانت واحدة من المرات العديدة التي حاولت فيها حمل "هتلر" على قبول صورة منطقية أكثر للقيادة- بجعل إدارة العمليات من نصيب رئيس هيئة الأركان و قد أنكر "هتلر" بشدة أي رغبة له في لعب دور أمير الحرب - رغم إنبهاره الشديد بالمجد العسكري الذي حظي به، بل على النقيض كان يرى أن أهم شيء يجب الإستحواذ عليه هو السلطة و القوة الحصرية لتنفيذ رغباته، فكانت السلطة هي كل ما أراد و قد إعتبر إرادته تجسيداً لهذه السلطة، و يمكننا القول أن "هتلر" خشي بعد الحملة البولندية أن تؤثر إنجازات القادة العسكريين على مظهره و وضعه في عيون الشعب، و هذا هو سبب معاملته الديكتاتورية للقيادة العليا للجيش منذ بداية الحملة على الغرب.

و كان على الكولونيل جنرال "فون براوخيتش" و "هالدر" التعامل مع رجل منعدم الضمير و تحركه إرادة صلبة و ذكاء شديد، فهو لم يعرفه الناس كرئيس دولة فقط بل كقائد أعلى لطبقة الجنرالات.

و كانت المعركة لتصبح غير عادلة و لو كان منافسي "هتلر" رجال آخرون.

و كان الفيلد مارشال المستقبلي "فون براوخيتش" ضابطاً بارعاً رغم كونه لا ينتمي للطبقة التي ينتمي لها "بارون فون فريتش" و "بيك" و "فون رندستيدت" و "فون بوك" و "ريتر فون ليب"، و قد إعتبر نفسه تالياً لهم رغم كونه مستوفياً لمؤهلات رئيس هيئة الأركان.

و لما يتعلق الأمر بشخصية "فون براوخيتش" فإننا نجد أن سلوكه مسالم إلى حد كبير، و لم أشك أبداً في قوة إرادته رغم أنها كانت تظهر امامي بمظهر سلبي أحياناً، و كان يفضل أن تُقدم له القرارات في صورة إقتراحات بدلاً عن قيامه هو بإقتراحها و فرضها، و كان يتهرب من إصدار القرارات أحياناً كي لا يجد نفسه يناضل مدافعاً عنها وحيداً، و لكن مرات عديدة وجدناه يدخل في قتال عنيف لصالح الجيش و كمثال أذكر أنه قام بإجبار "هتلر" على رد الإعتبار للكولونيل جنرال "فون فريتش" أمام الكل و هو

ما جعله مكروهاً من جانب "هتلر"، و كان المقال اليومي الذي نشره عقب وفاة "فون فريتش" رثاءً له دليلاً على الشجاعة، لكنه لم يكن رجلاً مقاتلاً فهو لم يكن تلك الشخصية التي تستخدم القوة لفرض نفسها على الغير، و قد إشتكى له بمرارة شديدة الجنرال "بيك" من الطريقة التي عرض بها "فون براوخيتش" وجهة نظر *القيادة العليا للجيوش الألمانية* بشأن الأزمة التشيكية و هو الأمر الذي وضع الجنرال "بيك" في موقف حرج، و حدث أن وبخه "هير فون هاسل" - السفير السابق لدى روما – بسبب تردده حول إستخدام العنف ضد "هتلر" متناسياً الفرق الأساسي بين التآمر من وراء ستار عندما لا يكون الشخص في منصب رسمي – كما في حالة "هير فون هاسل" – و التآمر بواسطة قائد الجيش الذي سيؤدي لإنقلاب تنجم عنه حرب أهلية في وقت السلم و تحقيق النصر للأعداء الخارجيين وقت الحرب.

كان الفيلد مارشال "فون براوخيتش" رجلاً مبجلاً ذا مظهر أرستقراطي أنيق، و كان جذاباً و مهذباً و ساحراً رغم أن سحره لم يكن يترك إحساساً من الدفء الداخلي، لكنه كان يفتقد للعدوانية التي تمنحه إحترام خصومه أو على الأقل يجعله يتعامل بحذر معهم، لذا نجده أخفق في ترك الإنطباع لدى الغير عن كون شخصيته قوية و منتجة،و التأثير العام له تمثل في الهدوء و البرود، و غالباً ما بدا أنه مثبط، كما أنه كان حساساً بشكل كبير، و مثل تلك الصفات قد تمنحه تعاطف مؤيديه كرجل لطيف و لكنها غير كافية لضمان ولاء كافة القوات له و هو ما تمتع به "فون فريتش" على النقيض، و أقر أن الكولونيل جنرال "فون سكيت" كان أكثر بروداً منه بشكل لا نظير له، و لكن في هذه الحالة شعر الجميع بالنار التي تحركه من الداخل و التي تلهمه ليكون قائداً للقوات، و "فون براوخيتش" لم يكن في مثل المهارة و التضامن اللذين أكسبا "فون فريتش" قلوب قواته.

و بالنظر إلى علاقات "فون براوخيتش" مع "هتلر" أكاد أجزم أنه قد إستنزف عقله في صراع مع رجل عديم الرحمة، و كانت نقاشاته مع رئيس الدولة خالية من التردد، و كان يكظم غيظه خاصة عندما لا يستطيع مجاراة لكنة "هتلر"، و جرت الأمور هكذا حتى تقاعد في النهاية لمشاكل قلبية في أكثر الأوقات مناسبة لـ"هتلر".

و من العدالة أن نذكر أن "فون براوخيتش" زجد نفسه في وضع أسوأ من سابقه إزاء "هتلر"، و منذ البداية – منذ تنحى "فون بلومبرج" عن منصبه كرئيس هيئة الأركان لصالح الفيرماخت - لم يكن "هتلر" مجرد رئيس للدولة بل القائد العسكري الأعلى، و

كانت الضربة الأخيرة لما أخبر وزير الحربية "فون بلومبرج" "هتلر" وجوب تولي قيادة الفيرماخت و رغم أنه من الجائز الجدال حول أن "هتلر" كان سيصل لذلك الرأي بدون نصيحة "فون بلومبرج" أم لا.

و الأهم من ذلك أنه عند وصول "فون براوخيتش" لمنصبه بدأ يظهر إتجاه لدى "هتلر" تجاه الجيش و بالأخص تجاه *القيادة العليا للجيوش الألمانية* يختلف عن إتجاهه السابق، و لا يشك أحد في أنه لما وصل للسلطة أظهر إحتراماً للقادة العسكريين و لمهاراتهم، و هو إتجاه ظل مختفظاً به حتى النهاية مع الفيلد مارشال "فون رندستيدت" رغم أنه أبعده عن الخدمة مرتين أثناء الحرب.

و هناك أمران قادا "هتلر" لتغيير نظرته للجيش في الأعوام الأخيرة للسلام:

١. إدراكه أن الجيش تحت قيادة "بارون فون فريتش" و تحت قيادة "فون براوخيتش" كان مقتصراً على الأساليب التقليدية المتسمة بالبساطة و الفروسية و مفهوم الشرف، و لم يكن "هتلر" ليقوم بتأنيب جيش لا يشعر بالولاء للدولة، جيش لا يمكنه بالقطع ان يتخلى عن مبادئه المترسخة في سبيل الولاء للمذهبية المعروفة بإسم "الإشتراكية القومية"،و من الواضح بشكل جلي أن تمتع الجيش بتلك السمة جعلته محبوباً وسط دوائر واسعة من الشعب، و رغم أن "هتلر" رفض الإنصات لأي وشاية أو إفتراء صادرة عن أحد رجال حزبه ضد أحد قادة الجيش إلا أن الحملة الدعائية المتزايدة ضد الجيش من جانب أشخاص مثل "جورينج" و "جوبلز" و "هيملر"[١] أتت بثمارها في آخر الأمر،و حتى وزير الحربية "فون بلومبرج" ساهم في زيادة شعور "هتلر" بعدم الثقة بسبب إعتراضه على فكرة مزاوجة الجيش و مذهبية الإشتراكية القومية، و تجلت نتيجة التحريض عندما جمع "جورينج" كبار قادة الجيش في ربيع ١٩٣٩ و قام بتوجيه التوبيخ بشكل وقح للجيش بسبب تمسكه بالأساليب التقليدية و عدم تماشيه مع الإشتراكية القومية و هو ما سمعه الكولونيل جنرال "فون براوخيتش" و لم يتسامح معه أبداً.

٢. إستخدام "هتلر" مصطلح "التردد الأبدي للجنرالات" لإهانة قادة الجيش، و هو ما تضمن جانبين : أولهما قصد "هتلر" محاولات *القيادة العليا للجيوش الألمانية* لمراجعة الوتيرة المتسارعة لإعادة التسليح بإعتبار أن تلك المسارعة ستؤثر سلباً على جودة و كفاءة القوات، ثانيهما إعتقاد "هتلر" أن نجاحه على مستوى السياسة الخارجية سيدعم

[١] هاينرتش هيملر : قائد سلاح سرايا الدفاع عاش بين ١٩٠٠ – ١٩٤٥ .

مركزه ضد قادة الجيش اللذين كانوا يتصرفون بحذر تام، و السبب في ذلك أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية*و على رأسها الكولونيل جنرال "فون فريتش" لم تقدم أية إعتراضات على خطة "هتلر" بشأن نظام التجنيد الإلزامي أو إعادة إحتلال منطقة نهر "راين"، و لم يعترض الجنرال "بيك" على قيام "هتلر" بغزو النمسا، و الوحيد الذي إعترض على نظام التجنيد الإلزامي هو وزير الحربية "فون بلومبرج" و إستند على أسباب تتعلق بالسياسة الخارجية، و "فون بلومبرج" أيضاً هو من نصح "هتلر" وقت زحف القوات على نهر "راين" بسحب القوات من غرب النهر لما أعلنت فرنسا التعبئة الجزئية،و كاد "هتلر" يستجيب للنصيحة لولا أن وزير الخارجية "فون نيوراث" أخبره بعد ملائمة الوقت لأي تردد مما زاد غضب "هتلر" على الجنرالات،و عندما كانت *القيادة العليا للجيوش الألمانية*تقول وقت إعادة التسليح أن الجيش غير مستعد لدخول حرب كانت فقط تؤدي واجبها بإصدار مثل هذا التحذير، صحيح أن "هتلر" كان يوافقهم بشكل رسمي إلا أن غضبه عليهم تزايد مع الوقت.

أول مرة عارض وزير الخارجية الألماني فيها "هتلر" كانت في مؤتمر له مع وزير الخارجية و ثلاثة من رؤساء الأجهزة في ٥ نوفمبر ١٩٣٧ حينما كشف "هتلر" نواياه حول تشيكوسلوفاكيا، و كان خرفه مع وزير الخارجية "فون نيوراث" و وزير الحربية "فون بلومبرج" و القائد العام للقوات المسلحة "فون فريتش" هو ما جعله يقرر التخلص منهم في أقرب فرصة.

و مما يُصدق الآن أن صمت الجنرالات إزاء قيام "هتلر" بعزل "فون فريتش" هو ما جعله يشعر بقدرته على معاملة *القيادة العليا للجيوش الألمانية*بأي طريقة شاء، و في نظري "هتلر" مخطئ لظنه هذا بسبب عدم معرفته بنوايا الجنرالات، و بعيداً عن كونها علامة على الضعف كان توجههم ذلك يرجع إلى تجاهل الحقائق المتعلقة بالأمر و عدم قدرتهم لعى مواجهة أي مكيدة بإعتبارهم جنود تابعين لقيادة الدولة فضلاً عن إستحالة القيام بإنقلاب عسكري في مثل تلك الظروف.

كما أن أعضاء الحزب المشار إليهم آنفاً كانوا يرددون نغمة "الإعتراضات الدائمة للجنرالات" في محادثاتهم مع "هتلر".

من المؤكد أن "فون براوخيتش" وجد نفسه في موقف صعب للغاية منذ البداية في مواجهة "هتلر"، و في منصبه تم إساءة النصح له جعلته يتقبل تنازلات أثرت على

شخصيته منها قبول الإقالة غير المبررة لعدد من الجنرالات ذوي السجل المشرف و تعيين أخو الجنرال "كايتل" في منصب مهم بالجيش.

كانت هذه أول خطوة مصيرية لـ"فون براوخيتش".

و الضربة القاضية التي أصابت *القيادة العليا للجيوش الألمانية*من "هتلر" كانت في أزمة أرض "السوديت" فبفضل قابلية الغرب للإستطراق تمكن "هتلر" من إثبات صواب رأيه إزاء أي إعتراض من قادة الجيش، و قيام "فون براوخيتش" بالتضحية برئيس هيئة الأركان أضعف موقفه بشكل أكبر إزاء "هتلر".

و الشخصية التالية من *القيادة العليا للجيوش الألمانية*التي صارت في مواجهة "هتلر" عقب إقالة "بيك" للكولونيل جنرال "فون هالدر" كانت الفيلد مارشال "فون براوخيتش" صاحبة المؤهلات العسكرية البارزة، و بشكل عام عمل الرجلان معاً بناء على الثقة المتبادلة و أنا مصر على أنه حتى لما كان "فون براوخيتش" يأخذ بنصائح "هالدر" إنما كان ذلك بإقتناع منه، و مثل أي ضابط بدأ حياته العملية في الأركان العامة البافارية كانت لـ"هالدر" قبضة قوية على كل فروع هئية الأركان و كان جاداً في أدائه لعمله، و كان شعاره هو مقولة "هيلمث فون مولتكه"[١] : **"العبقرية هي الإجتهاد"**، و هذا الرجل كان بمثابة شعلة النار المقدسة التي تلهم الجنود الأبطال، و عندما نتحدث عن حسه العالي للمسئولية نذكر قيامه بإعداد خطة الحملة على روسيا التي وضع أسسها الجنرال "باولوس" – رئيس هيئة أركان مجموعة الجيوش - و هي الخطة التي تصدر عن رجل عليه قيادة هذه الحملة.

لم يكن "هالدر" في نفس أناقة "فون براوخيتش" في مظهره الخارجي، و كان موضوعياً في كلامه لدرجة إنتقاد "هتلر" شخصياً بأقسى العبارات، كما أنه كان يقف دوماً بجانب مصلحة القوات المقاتلة و يشهر بأسى شديد بسبب القرارات الخاطئة التي تُفرض عليه،و لسوء الحظ فإن الموضوعية و الوسطية لم تكونا من المؤهلات التي تثير إعجاب "هتلر"، و أي شعور بالتعاطف مع القوات لا يحركه أبداً.

في وجهة نظري ما أدى لسقوط "هالدر" هو ولاءه المزدوج، و حتى لما تولى منصبه خلفاً لـ"بيك" نجده مازال عدواً معلناً لـ"هتلر"، و ورد في كتاب "والتر جيورلتز" المعنون "هيئة الأركان العامة الألمانية" أن "هالدر" أخبر "فون براوخيتش" لما تولى

[١] هيلمث فون مولتكه : عسكري ألماني عاش بين ١٨٠٠ – ١٨٩١.

المنصب أن السبب الوحيد لقبوله إياه هو محاربة "هتلر"، و كانت لديه خطط عديدة للإطاحة بـ"هتلر" رغم أن إحتماليات نجاح إحداها في الواقع كانت ضئيلة.

و من جهة مقابلة صار "هالدر" رئيس هيئة الأركان العامة الألمانية بعد تنصيب "هتلر" نفسه القائد الأعلى للجيش، و يجب التنويه إلى أن الجنود غير ملائمين للقيام بأي عمل تآمري بعكس السياسيين القادرين على القيام بدور مزدوج كمستشارين و متآمرين، كما أنه من غير المعقول وفقاً للتقاليد العسكرية الألمانية لا يمكن تصور إنعدام الثقة بين رئيس هيئة الأركان و القائد العام للقوات المسلحة، حتى و لو كان متقبلاً إعتبار إقالة رئيس هيئة الأركان سبباً مبرراً للقيام بالإطاحة برئيس الدولة و القائد العام للجيش في وقت السلم إلا أن لعب رئيس الأركان دور المتآمر وقت الحرب قد يخلق مأزقاً مستعصياً على الحل، و بإعتباره رئيساً لهيئة الأركان كان واجب "هالدر" الرئيسي التأكد من سير العمليات العسكرية في درب النصر و ذلك تحت قيادته، و مع ذلك لم يكن يود تحقيق مثل هذا النصر، إلا أنه لم يدخر جهداً في القيام بواجبه العسكري في توجيه الجيش الألماني في نضاله الشاق رغم مواجهته لخيارات صعبة أحياناً، و وفقاً لدوره الآخر – التآمري – كان عليه أن يتمسك بمنصبه الذي أمل أنه يوماً ما سيمكنه من الإطاحة بـ"هتلر"، و وصولاً لغايته تلك توجب عله الإنحناء أمام قرارات "هتلر" العسكرية حتى و لو كان رافضاً لها،و السبب الرئيسي بالطبع لإستمراره في هذا المنصب هو السعي نحو حماية الجيش الألماني من نتائج الأخطاء العسكرية لـ"هتلر"، و في سبيل القيام بذلك كان عليه دفع ثمن تنفيذ أوامر لم تكن قناعاته العسكرية متقبلة لها، هذا الصراع كان يدفعه للهاوية حتى وصل أخيراً للحظة السقوط، الشيء الوحيد المؤكد هو أن وجود الكولونيل جنرال "هالدر" في منصب رئاسة الأركان أطول فترة ممكنة كان يصب في مصلحة غرضه المتمثل في الإطاحة بـ"هتلر".

لقد سعيت لمنح صورة مبسطة لشخصيتين وصلت عملية "خسوف" *القيادة العليا للجيوش الألمانية*في ظل وجودهما إلى ذروتها في خريف ١٩٣٩، و مما قلته يتضح لماذا لم يكن أي من آولئك الضباط – بمن فيهم من حملة الرتب العليا – نداً لشخص مثل "هتلر"، و في الوقت نفسه نجده أمراً حقيقياً أن إنحدار دور *القيادة العليا للجيوش الألمانية*إلى مستوى مجرد جهاز تنفيذي تم عقب الإنتصارات الباهرة التي تم تحقيقها في بولندا و كان أيضاً بسبب الطريقة التي عالج بها كلٌ من "هتلر" و *القيادة العليا للجيوش الألمانية*مسألة كيف تسير الحرب بعد ذلك.

و حتى إندلاع الحرب و عُقيبه كانت ألمانيا قد إستعدت دفاعياً فقط على الجبهة الغربية، و من كان يخمن أصلاً ترك القوى الغربية بولندا تسقط بعد إعلان ضمان إستقلالها؟! و لا يمكن إعتبار زحفهم البسيط على خط "سيجفريد" في منطقة "السار" - و الذي تبعه إنسحاب إلى داخل الأراضي الفرنسية - من قبيل الخطوة التمهيدية لهجوم ضخم لاحقاً.

و لما كنا نتوقع وقوع مثل هذا الهجوم كان بإمكاننا فقط الإنتظار و الترقب لنرى ما إذا كنا سننجح في وقفه على خط "سيجفريد" – في حال توجه الهجوم إلى منطقة "الروهر" عبر لوكسمبرج و بلجيكا – أو سنتمكن من القيام بهجوم مضاد بمجرد عودة القوات اللازمة لذلك من بولندا، و هنا تشكل موقف جديد تماماً بسبب تراخي الدول الغربية، و حتى عندما تم السماح لفرنسا بالتحرك و حان وقت بريطانيا لم يمكننا توقع قيام الدول الغربية بالهجوم في القريب العاجل خاصة أنه بعد سقوط بولندا أصبح الجيش الألماني جاهزاً للغرب، و كان مصير بولندا قد تقرر يوم ١٨ سبتمبر عقب معركة "بزورا" و عبور السوفييت الحدود الشرقية لها يوم ١٧ سبتمبر، و هنا حان الوقت للقيام بتبادل وجهات النظر بين "هتلر" و هيئة الأركان العامة للجيش حول التصرف الواجب إتباعه على الجبهة الغربية، و لكن الكتب الصادرة حتى الآن – نذكر منها ما صدر عن الجنرال "فون لوسبرج" من مكتب العمليات بـ*القيادة العليا للجيوش الألمانية*و ما صدر عن "مينسترياليات جرينر" المؤرخ الحربي التابع للقيادة العليا للجيش – لم تحدث أية مناقشات.

ربما يُفترض إختلاف رد فعل "هتلر" و *القيادة العليا للجيوش الألمانية*على النجاح الباهر في بولندا و تراخي القوى الغربية، حيث رأى "هتلر" أن إخفاق القوات الأنجلو-فرنسية في الهجوم على الغرب يعد علامة على الضعف تتيح له المبادرة بالهجوم، و ما حدث آنفاً في بولندا أقنعه بعدم وجود معضلة كبيرة أمام الجيش الألماني فيما يتعلق بالهجوم على الغرب.

لم تشاركه القيادة العليا وجهة النظر تلك، و من جهة مقابلة يمكن القول بأن الدول الغربية لم تدخل الحرب إلا لحفظ ماء وجهها و كان واجباً علينا التوصل لتفاهمات معها، و ربما يكون الكولونيل جنرال "هالدر" قد ألمح لفكرة تمهيد الطريق لمثل هذه التفاهمات عبر الإطاحة بـ"هتلر" و بالتالي لا يكون للهجوم على الغرب أي معنى في ذلك الوقت.

و أيما كان الأمر كانت *القيادة العليا للجيوش الألمانية*متأكدة من عدم تبني "هتلر" لفكرة الهجوم على الغرب حتى بعد سقوط بولندا، و وجدت شخصياً ما يثبت ذلك في شتاء ١٩٤٠/١٩٣٩ ، و قام الجنرال "سبيرل" رئيس هيئة أركان الأسطول الجوي التابع لمجموعة الجيوش "أ" بزيارتي في إحدى المرات التي كان "هتلر" يطلق فيها الشفرة السرية لتحميل القوات المنتشرة في مناطق التموضع في قطارات و أخبرني عدم إستطاعة تشكيلاته الإقلاع من المطارات التي غمرتها المياه، و عندما عارضته متحججاً بأن اللوفتافا قضت شهوراً في إنشاء ممرات صلبة رد "سبيرل" بأن "هتلر" أوقف عمليات الإنشاء المتعلقة بأي هجوم مستقبلي في وقت سابق، و في نفس السياق نذكر أن إنتاج الذخيرة لم يصل بعد حينها للمستوى الضروري لبدء هجوم على الغرب.

بالقطع أساءت *القيادة العليا للجيوش الألمانية*تقدير قوى "هتلر" العقلية لما إعتبرت أن وجهة نظره غير قابلة للتعديل، و يخبرنا "جرينر" أنه لما إقتربت النهاية في بولندا خلال النصف الثاني من سبتمبر قامت *القيادة العليا للجيوش الألمانية*بإصدار تقرير يتضمن سير الحرب في الغرب أعدها الجنرال "هاينرتش فون شتبناجل"، و خلص إلى أن الجيش الألماني غير مُعد بشكل مناسب لإختراق خط "ماجينو" قبل عام ١٩٤٢، و لم يضع في حسبانه إمكانية الإلتفاف حول بلجيكا و هولندا لأن حكومة الرايخ أعلنت مؤخراً إحترام حيادية هاتين الدولتين،وبالنظر إلى هذا التقرير و توجهات "هتلر" إعتقدت *القيادة العليا للجيوش الألمانية*أن الموقف على الغرب سيظل دفاعياً، و أمرت بنهاية الحملة البولندية بتعزيز دفاعات الجيش على الجبهة الغربية بدون الحصول على موافقة "هتلر".

و بشكل كلي تكون موقف جديد بسبب الإنهيار التام لبولندا كان بمثابة منح المبادرة لـ"هتلر" لوضع أي خطط مستقبلية، و هذا بالتأكيد ليس الطريق الصحيح الذي يسلكه قادة الجيش لحماية تأثيرهم على سير الحرب مستقبلاً، و بعيداً عن ذلك لم يتم أخذ ما خلص إليه "فون شتبناجل" كإجابة على السؤال المتعلق بسير السياسية الحربية مستقبلاً، و إذا إنتظرنا حتى عام ١٩٤٢ لإختراق خط "ماجينو" فإننا سنجد الدول الغربية قد لحقت بنا في مجال إنتاج السلاح، كما أنه من المستحيل وضع أي خطة تضمن إختراقاً ناجحاً لخط "ماجينو".

و بالنظر إلى وجود ١٠٠ فرقة متاحة على حدود العدو فإنه من غير الممكن تحقيق أي نتائج حاسمة،فحتى لو نشر العدو قوات ضخمة على خط "ماجينو" للدفاع عنه فإنه

سيحتفظ بقدر كبير منها كإحتياط إستراتيجي يترواح بين ٤٠ و ٦٠ فرقة لتقوم بالتدخل الفوري لدرء أي إختراق لخط "ماجينو"، و هو ما سيؤدي بالصراع في النهاية لحرب خنادق و هو ما لم يكن هدفاً للإستراتيجية الألمانية أبداً.

و لا يمكن للمرء أن يفترض أن الكولونيل جنرال "فون براوخيتش" و هيئة الأركان التابعة له إعتقدوا أنه بوسعهم تحقيق أي شيء على المدى الطويل إستناداً لخطة دفاعية ، و تمنوا لو توصلت ألمانيا و القوى الغربية إلى تفاهمات أو أن تبادر ألمانيا بالهجوم، و لسوء الحظ لم يكونوا مختصين بإتخاذ القرار في الحادثة السابقة، و كان توقعهم بهجوم الحلفاء من الغرب غير واقعي كما سيظهر لاحقاً،و الحقيقة هي أن ربيع ١٩٤٠ هو آخر فرصة أملت ألمانيا فيها القيام بهجوم ناجح على الغرب.

و فقاً لما أورده "جرينر" لم يتم إخبار "هتلر" بتقرير "فون شتبناجل" لكنه كان على وعي بأن *القيادة العليا للجيوش الألمانية*ستنتهج سياسة دفاعية على الغرب، و بدلاً من عقد مناقشات وقتية حول سير الحرب مستقبلاً في أواسط سبتمبر نجده يواجه القائد العام للجيش و يتبع سياسة الأمر الواقع و يصدر قرار ٢٧ سبتمبر الذي تبعه التوجيه الصادر من *القيادة العليا للجيوش الألمانية*في ٩ أكتوبر، و هو لم يأمر فقط بإتخاذ إجراءات هجومية على الغرب بدون أخذ المشورة المسبقة من القائد العام للجيش بل إنه حدد توقيتها و كيفيتها، و كل هذه الأمور من غير الممكن تسويتها دون موافقة القائد العام للجيش، و طلب "هتلر" بدء الهجوم في أقرب وقت ممكن قبل إنتهاء الخريف،و طبقاً لما ذكره الجنرال "فون لوسبرج" وضع "هتلر" ١٥ أكتوبر كحد أقصى لبدء الهجوم، و هو ما عنى سحب المدرعات و الطائرات من بولندا قبل أن تنتهي من معركة "بزورا"، و أكثر من ذلك قام "هتلر" بتحديد كيف تسير خطة الهجوم عبر الإلتفاف حول خط "ماجينو" من خلال بلجيكا و هولندا.

فقط الجوانب الفنية من خطة الهجوم – الذي لم يُستشار بشأنه - هي ما تُرك للقائد العام للجيش و هو ما جعله لا يضمن تحقيق نجاحاً حاسماً فيها.

و لمن يتساءل كيف يتقبل القائد العام للجيش مثل هذا التقليل من شأنه بالخضوع لرغبات "هتلر" أعطى "جرينر" رداً شافياً في كتابه "القيادة العليا للفيرماخت"، و إقترح أن "فون براوخيتش" كان يشعر بعدم إمكانية تحقيق أي شيء بالمعارضة الفورية لـ"هتلر" و أمل في إمكانية جعل "هتلر" يتخلى عن خططه عبر إظهار حسن النية له

منذ البداية بحيث يكون قادراً في النهاية على تحقيق غرضه، و نفس الإجابة يذكرها "فون لوسبرج" بناء على معرفته الشخصية بـ"هتلر" و توجهاته، و كان "براوخيتش" يضع أمله في الطقس بحيث يمنع أي هجوم في أواخر الخريف أو الشتاء و بحيث يتأجل الهجوم إلى فصل الربيع مما يتيح فرص حل الأزمة بطرق سياسية.

و قد أثبتت إعتقادات القائد العام للجيش و رئيس هيئة الأركان صحتها وفقاً لما صار عليه الطقس.

أما بالنسبة لفكرة إثناء "هتلر" عن ذلك القرار الرئيسي - و حتى بالإعتماد على الجنرال "فون ريتشنو" الذي وضعت فيه *القيادة العليا للجيوش الألمانية* ثقتها للقيام بتلك المهمة – فتظل في رأيي غير مجدية، و الأمل الوحيد كان لو تمكنت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* من تقديم حل أفضل يثير إعجاب "هتلر".

و رغم وجود إمكانية لإنهاء الحرب ذلك الوقت عبر المفاوضات السلمية إلا أن هذا لم يحدث حيث قوبل عرض السلام المقدم من "هتلر" إلى الدول الغربية عقب الحملة البولندية برفض قاطع، كما أن "هتلر" لم يكن ليتقبل أي تسوية للمسألة البولندية تمهد لتسوية نهائية مع الغرب،و في كل الأحوال أصبح من غير الممكن تقبل أي تسوية بعد غزو الإتحاد السوفييتي للنصف الشرقي من بولندا، و النقطة التي تثير الشكل هنا هي كيف يمكن لألمانيا تحقيق السلام بدون "هتلر" في ذلك الوقت؟ و يمكنني القول أنه لو كانت لدى "هالدر" خطة للتحرك العسكري ضد "برلين" في أكتوبر ١٩٣٩ فإنها ستجد تجاوباً أضعف من جانب القوات مما لو كانت في خريف ١٩٣٨.

و منذ البداية سقط الكولونيل جنرال "فون براوخيتش" في بئر نوايا "هتلر" و وضعت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* خطة العملية "الأمر أصفر" بما يتوافق مع السياسة التي أقرها "هتلر"، و بحلول٢٧ أكتوبر كان القائد العام للجيش – بتحريض من رئيس هيئة الأركان – يواصل جهوده لإقناع "هتلر"بناء على معطيات عسكرية بتأجيل الهجوم حتى وقت أفضل من السنة و هو ربيع عام ١٩٤٠،و وفقاً لـ"جرينر" تم تقديم نفس التوصية لـ"هتلر" قبل ذلك ببضعة أيام بواسطة الجنرال "فون ريتشنو" بناء على طلب من الكولونيل جنرال "فون براوخيتش"، و رغم أن "هتلر" لم يرفض أي نقاش حول تاريخ الهجوم إلا أن التاريخ الذي قرره من قبل – ٢٢ أكتوبر ثم تم تعديله لـ ١٢ نوفمبر – ظل جيداً بالنسبة إليه.

و في ٥ نوفمبر قام "فون براوخيتش" بمحاولة جديدة لإثناء "هتلر" و هو اليوم الذي يتوجب فيه إصدار شفرة بدء التموضع للقوات تأهباً للهجوم المزمع إنطلاقه يوم ١٢ من الشهر نفسه.

و رغم أن المحادثة بينهما دارت في على إنفراد و لم يحضر "كايتل" إلا قرب نهايتها إلا أن تفاصيلها تسربت و تجسدت نتيجتها في شرح عميق بين "هتلر" و القادة، و طبقاً لما ذكره "جرينر" عن "كايتل" فإنه يروي أن "فون براوخيتش" قرأ على "هتلر" مذكرة تشرح كل الأسباب التي يراها مانعة للهجوم على الغرب هذا الخريف، بالإضافة لتوضيح بعض الحقائق غير القابلة للجدال حول حالة الطقس و عدم إستعداد التشكيلات الجديدة، و خاض نقاشاً أثار غضب "هتلر" حين أقدم على إنتقاد أداء القوات في الحملة البولندية، و قال "فون براوخيتش" أن المشاة لم يقاتلوا بنفس الروح القتالية التي سادت في ١٩١٤ كما أن الإنضباط و الكفاءة القتالية للقوات المنخرطة في القتال لم يرقيا للمعايير المطلوبة بسبب وتيرة إعادة التسليح.

و لو كان "فون براوخيتش" تحدث للقادة الكبار لكانوا تفهموا كلامه، و أُقر أنه أخطأ حين قال أن فرق المشاة لم تتمتع بذات الروح القتالية التي تمتعت بها عام ١٩١٤، و يرجع ذلك لعدم تفهمه للتحولات التي مر بها هجوم فرق المشاة في سنوات ما بين الحربين، و لم تعد طرق الهجوم السائدة عام ١٩١٤ متقبلة، كما أنه مما لا يُنكر أن – و هذا يحدث بالنسبة لفرق المشاة غير المنهكة عند بداية أي حرب – تبدو على وحدات الأفراد أمارات التوتر و خاصة عندما يكون القتال في المناطق المأهولة، فضلاً عن لجوء عدة قيادات عليا للأساليب القمعية لفرض الإنضباط، و هذه الحقائق لا تثير العجب عندما يعلم المرء أن جيش "الرايخشوير"[١] ذي المئة ألف مقاتل صار في سنوات قليلة جيشاً قوامه بضعة ملايين، و نسبة كبيرة منهم لم تدخل الخدمة فعلياً إلا عقب إعلان التعبئة العامة، و لكن لا يؤيد أي سبب مما سلف ذكره فكرة أن الجيش غير قادر على شن الهجوم على الغرب عقب الإنتصارات التي تحققت في بولندا.

و لو إقتصر "فون براوخيتش" على ذكر أن الفرق المشكلة حديثاً و التي تفتقر للتدريب و الإستقرار الداخلي غير قادرة على المشاركة في أي عمليات قتالية و أن الفرق ذات الخبرة التي قاتلت في بولندا غير قادرة على القتال بمفردها لكان هذا سبباً قوياً يجعله يقف على أرضية قوية تماماً كالسبب المتعلق بالفصل من السنة، و التعميم الذي قدمه

[١] الرايخشوير: إسم الجيش الألماني منذ ١٩١٩ حتى ١٩٣٥ عندما سمي بالفيرماخت.

حول فرق المشاة كان آخر ما يجب تقديمه إلى "هتلر" و خوض النقاش حوله خاصة أن "هتلر" يرى نفسه مؤسس الفيرماخت التي تطفو على المشهد مؤهلاتهم القتالية العالية، صحيح أن "هتلر" إستخدم جرأته السياسية للمضي قدماً في طريق إعادة التسليح و لعبت "الإشتراكية القومية" دوراً هاماً في إحياء الروح القتالية حتى بين الطبقات الإجتماعية التي نبذتها في عهد جمهورية "فايمر"[1] ،و لذا هؤلاء الفيرماخت لم يكونوا ليمتلكوا أبداً القوة التي أبدوها عام ١٩٣٩، و قرر "هتلر" إغفال كون إنجازات "الرايخشوير" في صالحه، و لو لم يكرس الضباط و ضباط الصف الذين خدموا في "الرايخشوير" أنفسهم بإخلاص للتخطيط التمهيدي و الإستعدادات المادية لكان "هتلر" عجز عن تأسيس الفيرماخت – الذين إعتبرهم من صنعه الخاص – و لكانت الإنتصارات في بولندا لم تتحقق أبداً.

و بعرض تلك الإعتراضات في حضور "هتلر" – و هو طاغية تجاوز حبه لذاته المدى – حصل "فون براوخيتش" على عكس ما يريد فتم صرف النظر عن كل إدعاءاته و إمتعض "هتلر" من النقد الذي إعتقد أنه موجه لإنجازاته الشخصية للتقليل منها و قطع الإجتماع مصراً على تحديد يوم ١٢ نوفمبر كموعد لبدء العملية.

و لحسن الحظ تدخل رب الطقس في اللحظة الحاسمة و أجبره على التأجيل و هو الأمر الذي سيتكرر حوالي خمس عشرة مرة قبل نهاية شهر يناير.

و رغم أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية* نجحت في إثبات وجهة نظرها أمام "هتلر" حول الموعد المحتمل للهجوم إلا أن النتيجة كانت أزمة لدى القيادة أثرت نتائجها بشكل واضح على سير الحرب فيما بعد، و الأثر الفوري لها كان وقف أي إجتماع بين "هتلر" و "فون براوخيتش"، و قد أخبرني الجنرال "هيسنجر" في ١٨ يناير ١٩٤٠ أن "فون براوخيتش" لم يلتق بـ"هتلر" منذ ٥ نوفمبر ١٩٣٩ و هو موقف شبه مستحيل وفقاً للمجرى العادي للأمور، و الأثر البعيد لشرخ ٥ نوفمبر هو الخطاب الذي وجهه "هتلر" في ٢٣ نوفمبر في مقر المستشارية للقادة و رؤساء أركان مجموعات الجيوش و الجيوش و الفيالق، و أنا لا أحتاج للخوض في تفاصيل لأنها تم إعلانها بوسائل نشر أخرى، و موضوع الخطاب الرئيسي كان قرار "هتلر" الغير قابل للمناقشة حول الهجوم على الغرب في أقرب وقت ممكن و الشكوك التي أثارها حول المدة التي يظل الرايخ فيها في مأمن من التعرض للهجوم من الخلف من جهة الشرق.

[1] جمهورية فايمر : الجمهورية الألمانية منذ ١٩١٩ حتى ١٩٣٣ .

و بقدر ما كان شرحه للأمور الواجب أخذها في الإعتبار بشأن الهجوم على الغرب واقعياً تم أخذ ملاحظاته في الإعتبار و كانت مقنعة في نظري بإستثناء ما يتعلق بمسألة التوقيت، و بخلاف أن خطابه تضمن هجوماً ليس فقط على *القيادة العليا للجيوش الألمانية*بل على جنرالات الجيش أجمعين و الذين إتهمهم "هتلر" بالتعطيل الدائم لجرأته، و بالنسبة لي يعد هذا أكثر خطاب متحيز سمعته من "هتلر"، و قام القائد العام للجيش بفعل الشيء الوحيد الممكن و هو تقديم إستقالته و التي رفضها "هتلر" بدوره رغم أن هذا لم يكن حلاً للأزمة، و كانت *القيادة العليا للجيوش الألمانية*ما تزال في موقف حرج بشأن الإستعدادات للهجوم على الغرب لم تكن لترضى به، أما رئيس هيئة الأركان فظل دوره منحصراً كمستشار بشأن السياسة العامة للحرب و كونه مجرد منفذ عام.

أي إستفسار حول أسباب مثل هذا التطور في العلاقة بين رئيس الدولة و قادة الجيش سيُظهر العامل الحاسم المتمثل في تعطش "هتلر" للسلطة و غروره المتنامي إضافة إلى الفساد المتفشي بين أتباع "جورينج" و أتباع "هيملر" ، كما أنه يجدر ذكر أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية*ساهمت بقدر يسير في القضاء عليها على يد "هتلر" بسبب الطريقة التي تعاملت بها مع مسألة كيف تسير الحرب بعد الحملة البولندية.

و بقرارها البقاء على حالة دفاعية في الغرب منحت *القيادة العليا للجيوش الألمانية*"هتلر" المبادرة رغم أنه من المعروف أن تحديد الخطوات الواجب إتخاذها في الجيش من صميم إختصاص *القيادة العليا للجيوش الألمانية*تقترحها على رئيس الدولة و هو ما قاد لهزيمة بولندا.

و كان *للقيادة العليا للجيش* بلا شك الحق في تقرير أن التوقيت في خريف ١٩٣٩ و عدم إستعداد التشكيلات الجديدة يجعل أي هجوم على الغرب لا يُنصح به على الإطلاق في هذه المرحلة، ولكن لم تمنح تلك الحقيقة البسيطة و لا الترتيبات المتخذة لتعزيز الدفاعات على الغرب إجابة وافية لسؤال كيف ننهي الحرب بنتيجة مرضية من الناحية العسكرية، و كانت الإجابة على هذا السؤال ممكنة لو مارست *القيادة العليا للجيوش الألمانية*تأثيرها على الإستراتيجية العامة للحرب.

و كان لرئيس هيئة الأركان العامة للجيش الحق في إقتراح تسوية سياسية مع القوى الغربية، لكن ماذا سيحدث لو لم تظهر أي أمارات للتسوية؟ سيكون ضرورياً مع رجل

مثل "هتلر" على وجه الخصوص وجوب قيام *القيادة العليا للجيوش الألمانية* بإتباع الطريقة العسكرية لإنهاء الحرب حتى و لم يكن الهجوم على الغرب مناسباً في تلك اللحظة.

و نتيجة لما سبق وُجدت ثلاثة أسئلة توجب أخذها في الإعتبار عقب إنتهاء الحملة البولندية:

١. هل يمكن أن تنتهي الحرب في صالحنا بالإستناد للتكتيكات الدفاعية أم أن هذا الغرض يمكن تحقيقه فقط بواسطة هجوم ألماني على الغرب ؟
٢. لو كان هذا الهجوم ضرورياً فمتى يتوجب شنه بحيث ينتج عنه نجاح ساحق؟
٣. كيف يمكن أن يسير الهجوم بما يضمن النصر على مستوى القارة؟

و فيما يتعلق بالسؤال الأول هناك إحتمالان : الأول هو إحتمال توصل الرايخ لتسوية مع القوى الغربية عقب سقوط بولندا، و كان على *القيادة العليا للجيوش الألمانية* أن تضع ذلك الإحتمال موضع شك منذ البداية لأن طبيعة الشخصية البريطانية المتمثلة في عدم تقبل إنصياع بريطانيا العظمى لأي شروط فُرضت عليها و لأن "هتلر" عقب هزيمة بولندا لم يكن مستعداً لتقبل فكرة تسوية مسألة الحدود الألمانية البولندية عبر حل وسط، كما أنه كان يتوجب عليه – إن أراد التسوية مع الغرب – الإنسحاب من بولندا و تأسيسها من جديد و هذا الأمر مستحيل إن وضعنا في الإعتبار الجزء الشرقي الذي إستولى السوفييت عليه، و يستحيل على أي حكومة ألمانية أن تستطيع إزالة الوجود السوفييتي حتى بعد الإطاحة بـ"هتلر".

أما الثاني و هو إنهاء الحرب باللجوء إلى التكتيكات الدفاعية فيتوقف على قيام الغرب بالمبادرة بشن الهجوم على ألمانيا، و هو ما سيمنح الألمان فرصة تحقيق نصر حاسم عبر صد الهجوم و شن هجوم مضاد على الغرب، و ذُكر في كتاب "محادثات مع هالدر" أنه تحدث عن عملية لـ"هجوم مرتد" ، و وفقاً للجنرال "هيسنجر" فإن المرحلة ملائمة جداً لمثل تلك الفكرة رغم أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية* لم تأخذها في إعتبارها إلا متأخراً في شهر ديسمبر.

و بلا شك كان هناك أمراً جذاباً بشأن عملية "الهجوم المرتد" تمثل في فكرة توريط العدو في هجوم مرهق على طول خط "سيجفريد" أو جعله ينتهك حيادية لوكسمبرج و بلجيكا و حتى هولندا، و هي بلا شك فكرة لامعة، و لكن أليس من غير الجائز إعتبار

هذه الحالة ضرباً من التفكير المتمني على الأقل بالنسبة للمستقبل القريب؟ هل كان جائزاً إفتراض أن القوى الغربية – التي لم تجرؤ على شن الهجوم وقت تواجدت أغلب القوات الألمانية في بولندا – ستهاجم الفيرماخت الآن و هم يواجهونها بكامل قوتهم؟ أنا شخصياً أعتقد أن عملية "الهجوم المرتد" الألمانية حينئذ كانت غير قائمة على أساس سليم.

و نظرتي هذه وجدت دعماً لها في خطة حربية أعدها القائد العام لجيوش الحلفاء الجنرال "جامبلين" و وقعت في يد القوات الألمانية و نستشف منها الأمور التالية:

١. إن قوات الحلفاء قبل ربيع ١٩٤١ لم تتوفر لها القوة المادية اللازمة لشن هجوم على ألمانيا في الغرب، و يجب الحصول على حلفاء جدد لتحقيق التفوق العددي في القوات البرية.
٢. إن البريطانيين غير مؤهلين للمشاركة في هجوم واسع على ألمانيا قبل ١٩٤١ إلا في حالة حدوث إنهيار جزئي لألمانيا بواسطة ثورة أو إنقلاب.
٣. إن المهمة الرئيسية للقوى الغربية في ١٩٤٠ هي حماية السيادة الفرنسية من أي عدوان و مساعدة بلجيكا و هولندا في صد أي هجوم يقع عليهما، فضلاً عن القيام بمجهودات تهدف لخلق تهديدات إستنزافية لألمانيا تتمثل في دول بحر البلطيق و دول البلقان في حال ظلت إيطاليا محايدة ، كما يتوجب الإستمرار في الضغط على بلجيكا و هولندا لجلبهما في جانب الحلفاء.
٤. يجب السعي لحرمان الرايخ من الموارد الحيوية عبر ما سلف ذكره من خلق تهديدات إستنزافية و عبر فتح جبهات حرب جديدة مع دول محايدة لفرض حصار عليه.

من خطة الحرب السابقة تتضح نية القوى الغربية الصريحة في الدخول في حرب إستنزاف بفتح عدة جبهات حرب مختلفة حتى تحين اللحظة التي تكون فيها أتمت الإستعداد الذي يتيح لها شن الهجوم على الغرب.

رغم أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية* لم يكن لها علم بتلك الخطة وقتها، إلا أنها مالت لفكرة أن القوى الغربية تريد حرباً طويلة الأمد من معطيات الواقع الراهنة.

وفقاً للإحتمالات الدموية نستنتج لزومية الهجوم على خط "سيجفريد" لأن الشعب الفرنسي و الشعب البريطاني سيصيبهما التعب من الحرب الضبابية و التي لا تستطيع *القيادة العليا للجيوش الألمانية* الألماني الإستناد عليها كأساس لأي قرار تصدره،و لا

يمكن لألمانيا أن تنتظر حتى يتم العدو إعادة تسليحه – فضلاً عن المساعدات الأمريكية التي كان الرئيس روزفلت يرسلها للحلفاء – بحيث يصل للنقطة التي يكون عندها أقوى من ألمانيا في البر و الجو و كذلك البحر، و هل يمكنها أن تتحمل الإنتظار و هناك الإتحاد السوفييتي يترصد للهجوم عليها من الخلف؟ و هذا الأخير – أي الإتحاد السوفييتي – لا توجد أي مصلحة مشتركة له مع ألمانيا ، و كلما صار الحلفاء أقوى كلما صار موقف ألمانيا أشد حرجاً.

و بالنسبة للقادة العسكريين كان الموقف عقب الحملة البولندية هكذا: الإجابة على السؤال الأول – و هو هل يمكن إنهاء الحرب بنجاح عبر التكتيكات الدفاعية – ستكون بالسلب إلا إذا كانت القيادة السياسية مصرة على التوصل لتسوية سياسية مع القوى الغربية متجسدة في حل وسط يرضى كل الأطراف ، و حق القائد العام للجيش في نصح "هتلر" باللجوء للحلول الوسط لا غبار فيه خصوصاً مع وجود إحتمالية إطالة أمد الحرب، و مثل هذا التصرف سيؤدي – بالطبع - لتأجيل مؤقت لأي عمليات عسكرية على الجبهة الغربية ، و بصرف النظر عن ذلك كان واجباً على قادة الجيش تقديم المشورة العسكرية لـ"هتلر" و كان عليهم أن يخبروه الخطوات الواجب إتباعها في حال عدم التوصل لحل سياسي للنزاع.

بمنعى آخر كان يتوجب على *القيادة العليا للجيوش الألمانية* أن تقدم لـ"هتلر" خطة عسكرية بديلة إذا ثبت إستحالة التوصل لأي حل سياسي مع القوى الغربية و هو الأمر الذي كان يرغبه"هتلر" في البداية، و على المرء ألا يفترض أن إستمرار "هتلر" في رفض أي هجوم على الغرب لدى هزيمة بولندا و لا حتى مجرد الإنتظار حتى يأخذ "هتلر" قراره العسكري من تلقاء نفسه.

و لا يمكن أن تتضمن أي توصية عسكرية بشأن متابعة الحرب الإستمرار على الوضع الدفاعي في الغرب إلا إذا ساد الإعتقاد بإمكانية إخضاع بريطانيا بواسطة صراع جوي أو صراع غواصات ، و هو الإفتراض الذي لا أساس له يقوم عليه.

و من الناحية العسكرية و مع ثبوت إستحالة التوصل لأي تفاهمات سياسية فإن التوصية الوحيدة التي يمكن للمرء قولها هي وجوب أن تكون الحرب في الغرب هجومية، و عند تبني هذه التوصية يتوجب على *القيادة العليا للجيوش الألمانية* أن تبادر بإتخاذ القرار المتعلق بتوقيت و الكيفية.

و بالنسبة لمسألة التوقيت نجد أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية* توافقت مع كل القادة على الجبهة الغربية حول إستحالة تحقيق أي نجاح حاسم إن تم الهجوم في أواخر الخريف أو خلال الشتاء.

و كان السبب الرئيسي لذلك هو العوامل المتعلقة بالفصل من السنة، ففي الخريف و الشتاء تتسبب العوامل الجوية في حرمان الفيرماخت من الإستعانة بذراعيهم القويتين و هما المدرعات و اللوفتافا مما يؤثر على كفائتهم القتالية، كما أن قصر مدة النهار في هاذين الفصلين من السنة يؤدي لإستحالة إنجاز أي مهمة تكتيكية في يوم واحد مما يؤدي لخفض سرعة سير العمليات.

و السبب الآخر تمثل في عدم جاهزية التشكيلات المكونة حديثاً وقت إندلاع الحرب من حيث التدريب، و كانت القوات الأساسية التي خدمت في بولندا هي الوحيدة الجاهزة للدخول في القتال في خريف ١٩٣٩، أما باقي التشكيلات فلم تكن لديها القدرة على التعامل مع باقي الأسلحة أو التصرف كجزء من تشكيل أضخم كما أنها إفتقرت للإنضباط الداخلي ، و فوق ذلك لم تكن عملية إعادة ترتيب فرق المدرعات بعد الحملة البولندية قد إكتملت بعد، و كان يتوجب إعادة الفرق الميكانيكية من بولندا في وقت أبكر لو إنتوت القيادة بدء الهجوم في خريف ١٩٣٩، و الأدهى من كل ما سبق ذكره إكتشاف وجود عيوب خطيرة في اللوفتافا توجب التعامل معها.

و هكذا يتضح أن أي هجوم على الغرب يجب ألا يتم قبل ربيع ١٩٤٠ ، و الوقت المتاح حتى حلول هذا الموعد رآه القادة العسكريون مناسباً للسعي للتوصل لحل سياسي للأزمة و هو ما رفضه "هتلر" بسبب سبق رفض الحلفاء لعرض السلام الذي قدمه في مطلع أكتوبر ١٩٣٩ .

و لن نخوض في ذكر مشكلة الكيفية المتصلة بالإستعدادات الإستراتيجية للهجوم على الغرب حيث خصصنا لها فصلاً قادماً تكون موضوعاً له.

و ما يمكن قوله هنا هو أن خطة العملية التي أقرها "هتلر" في ٩ أكتوبر كانت قاصرة ، فبدلاً من أن تكون متضمنة لقرار متكامل على مستوى القارة بأكملها نجده مقتصراً على هدف مرحلي قصير الأمد.

و لا يزال السبب مجهولاً حول ما دفع *القيادة العليا للجيوش الألمانية* لأن تظل عاجزة عن التدخل في وضع السياسة المستقبلية للجبهة الغربية خلال تلك الأسابيع الحيوية التي أعقبت الحملة البولندية و هو ما تسبب لحصر القرار العسكري في يد "هتلر"، ربما تكون قد أملت هذه القيادة في جعل "هتلر" يسعى للوصول لحل سياسي، أو ربما تكون قد سعت لتجنب تكرار إنتهاك حيادية بلجيكا[1] و ما تنجم عنه من آثار، و في هذا الوقت تولد إنطباع لدى أي متابع أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية* كانت تشك في إمكانية تحقيق ألمانيا نصر حاسم في هجومها على الغرب.

و ما حدث حقاً هو أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية* تخلت عن سلطتها في إتخاذ القرار العسكري لصالح "هتلر" ، و مع إنبطاحها أكثر أمام إرادة "هتلر" فيما يتعلق بخطة العمليات في الغرب و التي رفضها القادة فإننا نجدها قد تنازلت تماماً عن دورها الأساسي المنوط بها كسلطة مسئولة عن العمليات البرية.

و رغم أن المقترحات العملياتية المقدمة من قيادة مجموعة الجيوش "أ" إلى *القيادة العليا للجيوش الألمانية* قد منحتها فرصة إسترداد موقعها إلا أنها أضاعت الفرصة من تحت يدها.

و في الوقت الذي حقق فيه الهجوم على الغرب نجاحاً فاق توقعات "هتلر" نفسه نجد هذا الأخير ينظر للقيادة العليا للجيش بإعتبارها مجرد جهة تنفيذية يمكنه إغفالها حتى و لو تعلق الأمر بالتكتيكات الكبيرة.

لقد تولي "هتلر" القيام بالوظائف التي قال "شليفن"[2] أنه لا يمكن القيام بها على أتم وجه إلا بواسطة جهة ثلاثية تشمل ملكاً و رجل دولة و قائد عسكري، و الآن نجده يتقمص دور القائد العسكري، و لكن هل سقطت على رأسه نقطة من الزيت المقدس[3] و الذي يعتبرها "شليفن" ضرورية لأحد الأفراد الثلاثة؟

---

[1] حدث إنتهاك حيادية بلجيكا لأول مرة في الحرب العالمية الأولى عندما غزتها ألمانيا للوصول إلى فرنسا.
[2] ألفريد فون شليفن : قائد عسكري ألماني عاش بين ١٨٣٣ – ١٩١٣.
[3] تعبير إقتبسه الكاتب من الكتاب المقدس "الإنجيل".

٥

الخلاف حول خطة العملية

لم يكن معروفاً للكل خلفية الخطة التي حلت محل الخطة الصلية التي وضعتها *القيادة العليا للجيوش الألمانية*بإسم العملية "الأمر أصفر" يوم ١٩ و ٢٩ أكتوبر كأساس للهجوم الذي سنقوم به على الغرب و التي ضمنت لنا نصراً ساحقاً على الجيوش الأنجلو-فرنسية في بلجيكا و هولندا، و كان "ليدل هارت" هو أول من كشف عن هذه كيفية ظهور هذه الخطة الجديدة و الذي ربطها بإسمي نتيجة لما أخبره به الفيلد مارشال "فون رندستيدت" و الجنرال "بلومنتريت" قائد العمليات.

و لكوني أُذكر بإعتباري المحرك الأساسي في هذا الشأن فيكون من حقي أن أدلي بدلوي محاولاً شرح كيف ظهرت الخطة للوجود خاصة أنها نالت تميزاً مؤكداً، كما أنني أنا الذي وضعت أفكار الخطة عبر المذكرة التي سلمتها للقيادة العليا للجيش و التي تضمنت تفاصيل الخطة التي قمنا بصياغتها معتقدين أنها ستقود للنصر الحاسم في الغرب، كما أنني أتيحت لي الفرصة عقب تعييني رئيساً لهيئة أركان مجموعة الجيوش "أ" للقاء"هتلر"شخصياً و تسليمه تفاصيل الخطة التي طالما رفضتها القيادة العليا للجيوش، و بعد ذلك بأيام قلائل وضعت *القيادة العليا للجيوش الألمانية*خطة جديدة بناء على توصياتنا.

و أؤكد في نفس الوقت على أن قائدي الكولونيل جنرال "فون رندستيدت" و التابعين لي "بلومنتريت" و "تريسكو" إتفقوا أجمعهم مع وجهة نظري و قام "فون رندستيدت" بتبني كل توصياتنا و التوقيع عليها بإسمه، و بدون دعمه لنا ما إستطعنا أبداً مواصلة محاولاتنا لتغيير رأي *القيادة العليا للجيوش الألمانية*بواسطة مذكراتنا المكررة.

و قد يجد المؤرخ الحربي أو الضابط الذي يقرأ في التاريخ العسكري أن الخلاف حول خطة العمليات أمراً يستحق الدراسة التامة، و لتحقيق الغرض المنشود من هذا الكتاب أجد نفسي مضطراً للإقتصار على ذكر الخطوط العريضة للخطة التي وضعتها *القيادة العليا للجيوش الألمانية*و شرح النتائج الفورية للتصور الإستراتيجي لها، و بعد ذلك

سأنتقل للحديث عن النقاط التي أثارتها مجموعة الجيوش بشأن هذه الخطة ، و في النهاية سأذكر بإختصار الشكل النهائي الذي صارت عليه خطة العمليات بعد الأخذ – بناء على تعليمات "هتلر" - بالتعديلات التي قدمتها مجموعة الجيوش التابعة لنا.

خطة *القيادة العليا للجيش* (خطة هتلر):

كان الأساس الإستراتيجي للخطة التي تبنتها *القيادة العليا للجيوش الألمانية* و "هتلر" في ضوء أوامر العمليات على النحو التالي:

إقترحت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* – بناء على التوجيه الصادر من "هتلر" بتاريخ ٩ أكتوبر – إرسال جناح أيمن قوي من الجيوش الألمانية عبر هولندا إلى شمال بلجيكا لهزيمة القوات الأنجلو-فرنسية المتوقع تجمعها مع القوات البلجيكية و الهولندية، و بمعنى آخر هدف هذا القرار إلى التقدم القوي على الجناح الأيمن، و سيتكون هذا الجناح المهاجم من مفرزة الجيوش الشمالية[١] و مجموعة الجيوش "ب" بقيادة الجنرال "فون بوك" و كان على هذه القوات جميعاً أن تتجمع في عند نهر "راين السفلي" و شمال جبل "إيفل"، و إندرج تحت مجموعة الجيوش "ب" ثلاثة جيوش، و هذا الجناح الشمالي بأكمله تضمن ثلاثين فرقة مشاة و كتلة ضخمة من التشكيلات المتحركة[٢] تشمل تسع فرق مدرعات و أربع مشاة محمولة على عربات، و بلغ عدد قواتنا على الجبهة الغربية ما مجموعه ١٠٢ فرقة و هو ما يمثل نصف مجموع قواتنا بأكملها.

و بينما كانت مهمة مفرزة الجيوش الشمالية محو هولندا كان على مجموعة الجيوش أن تهاجم عبر شمال بلجيكا مارة بشمال و جنوب "لييج"، و تقرر لقوات الدبابات لعب الدور الحاسم هنا لتدمير العدو.

في ٢٩ أكتوبر تم تعديل خطة العمليات لأول مرة بحيث تخرج هولندا من الصورة في المراحل الأولية، و تم هذا التعديل بناء على إقتراح من *القيادة العليا للجيش*.

[١] تكونت المفرزة من فيلقين أو ثلاثة و هي جيش صغير.
[٢] يقصد بتشكيل متحرك هو ما يتضمن وحدات تسير على عجلات سواء مجنزرة أو لا.

و بالتالي توجب على مجموعة الجيوش "ب" أن تهاجم من الجهتين حول "لييج" بواسطة جيشين هما الرابع و السادس و يتبعهما جيشان آخران هما الثامن عشر و الثاني، و بعد ذلك تم تضمين هولندا في الخطة مرة أخرى و تم تكليف الجيش الثامن عشر بمهمة القضاء عليها.

و ستقوم مجموعة الجيوش "أ" – المكونة من جيشين هما الثاني عشر و السادس عشر بما مجموعه ٢٢ فرقة - بتغطية التقدم السريع الذي تقوده مجموعة الجيوش "ب" من الجهة الجنوبية، و تتقدم عبر جنوب بلجيكا و لوكسمبرج و ذلك عقب التجمع في جنوب جبل "إيفل" و جبل "هانسرك"، و كان على الجيش الثاني عشر أن يتقدم على يسار مجموعة الجيوش"ب" مؤسسا شبكة دفاعية متصلة بهدف حماية أي تقدم مستقبلي لمجموعة الجيوش "ب" من مباغتات العدو.

أما الجيش السادس عشر فكان عليه التقدم جنوباً بعد عبور لوكسمبرج بهدف حماية الجناح العميق للعملية برمتها عن طريق إنشاء خط دفاعي على طول خط "ماجينو" غرب المرتفعات الواقعة بين منطقة "السار" و نهر "موز" شرق "سيدان".

أما مجموعة الجيوش "ج" – و المكونة من جيشين و ثمانية عشر فرقة مشاة - فتم تكليفها بحماية خط "سيجفريد" بداية من الحدود مع لوكسمبرج وصولاً إلى الحدود السويسرية ، و تكون إحتياطي مجموعة الجيوش من سبعة عشر فرقة مشاة و فرقتين محمولتين.

تم ذكر الهدف من هذه العملية في الفقرة الأولى من الأمر العملياتي الصادر من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* يوم ١٩ أكتوبر بعنوان "الهدف العام" حيث قيل :

" الهدف هو هزيمة أكبر عدد ممكن من القوات الفرنسية و قوات الحلفاء بالتزامن مع الحصول على أكبر مساحة ممكنة من الأراضي في هولندا و بلجيكا و شمال فرنسا لتكون قاعدة تنطلق منها عمليات جوية و بحرية ناجحة ضد بريطانيا و لتكون منطقة حماية واسعة لحوض الروهر".

و ذكرت الفقرة الثانية الهدف من هجوم مجموعتي الجيوش و الذي ستكون تحت إشراف القائد العام للجيش "فون براوخيتش" هو:

"أثناء القيام بالقضاء على القوات الهولندية يتم القضاء على أكبر عدد ممكن من القوات البلجيكية قرب التحصينات الحدودية و تجميع أكبر قدر ممكن من الفرق الميكانيكية على وجه السرعة، و لتشكيل قاعدة تضمن متابعة الهجوم بواسطة جناح أيمن قوي و تضمن السيطرة السريعة على خط الساحل البلجيكي"

و وفقاً للتعديل السالف ذكره على خطة العمليات الذي تم يوم ٢٩ أكتوبر قامت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* بتوسيع نطاق الهدف من عمليات مجموعة الجيوش "ب" و أعادت صياغة " الهدف العام" على النحو التالي:

"الإشتباك و تدمير أكبر قدر ممكن من الجيش الفرنسي في شمال فرنسا و بلجيكا و بالتالي خلق ظروف تساهم في متابعة الحرب ضد بريطانيا و فرنسا في البر و الجو".

و الفقرة المعنونة بـ"ترتيب المعارك و المهام" نجد *القيادة العليا للجيوش الألمانية* حددت الهدف من مجموعة الجيوش قائلة:

"تدمير قوات الحلفاء شمال السوم و الزحف نحو ساحل القنال الإنجليزي"

تم توسيع مهمة التغطية المكلفة بها مجموعة الجيوش "أ" – و هي مهمة دفاعية الطابع – لدرجة إضطر الجيش الثاني عشر معها – و هو الذراع اليمنى للمجموعة – للتقدم عبر نهر "موز" جنوب "فوماي" و من ثم التقدم عبر المنطقة الحدودية الفرنسية المحصنة في إتجاه "لاون".

و كان من الأفضل التعبير عن الهدف العملياتي من أوامر العمليات بالقول بوجوب تدمير القوات الأنجلو-فرنسية التي نتوقع أن نلتقي بها في بلجيكا بواسطة جناح أيمن قوي بينما تتم تغطية الجناح الأيسر الضعيف، و كان الهدف المتعلق بالأراضي هو السيطرة على ساحل القنال الإنجليزي، و لكن لم يتم إخبارنا بالخطوة التالية لتلك الضربة الأولى.

إعتراضات:

كان رد فعلي على الخطة الموضوعة في أوامر العمليات السالف ذكرها عاطفياً بشكل بارز، و قد أوقعي الهدف الإستراتيجي للقيادة العليا للجيش في الحيرة لأنه تقليد تام لخطة "شليفن" الشهيرة التي تم تطبيقها عام ١٩١٤، و قد وجدت أن قيام جيلنا بمجرد تقليد الخطط القديمة أمراً مهيناً حتى و لو كانت من نتاج شخص مثل "شليفن"، و ما الذي يمكن أن نحققه إن طبقنا خطة درسها أعداؤنا بحيث نجدهم أخذوا إحتياطاتهم تجاهها إن أردنا تكرارها معهم؟ و كان راسخاً لدى العسكريين أجمعهم أن قدرة الألمان على الهجوم على خط "ماجينو" ستكون أقل من القدرة التي تمتعوا بها عند إقتحام تحصينات خط "فيردون-تول" في فرنسا عام ١٩١٤.

و كان حكمي الأولي على *القيادة العليا للجيوش الألمانية*و المستند لدوافع عاطفية غير منصف، و يرجع ذلك إلى أن الخطة وضعها أصلاً "هتلر" كما أنها في حقيقة الأمر كانت أبعد ما تكون عن مجرد تكرار خطة "شليفن" ، و الفكرة المنتشرة حينها – و الصحيحة أيضاً – هي أنه كان مخططاً عام ١٩٣٩ – كما كان الوضع في ١٩١٤ - لإلقاء ثقل هجوم القوات الألمانية على الجناح الشمالي و كلا الخطتين تضمنتا الزحف عبر بلجيكا ، و فيما عدا ذلك تباينت الخطتان.

ففي المقام الأول الموقف مختلف تماماً، ففي ١٩١٤ كان ممكناً – وفقاً لما رآه "شليفن" – الإستناد على عامل المفاجأة و هو ما شمل الجناح الشمالي للجيش الألماني و لو لم تتضمن الخطة الزحف عبر بلجيكا، أما في ١٩٣٩ فكانت نية "هتلر" غير خافية على الأعداء.

و في مقام آخر نجد أنه في ١٩١٤ كان هناك أمل – إستند عليه "شليفن" – في إقتناء الفرصة و الهجوم على فرنسا عبر منطقة "اللورين" ، أما في ١٩٣٩ لم تتوفر مثل هذه الفرصة فالعدو سيوجه أغلب قواته فوراً لمواجهة قواتنا المتقدمة عبر بلجيكا و هولندا حيث سنتمكن – على عكس الحال في ١٩١٤ – من الإيقاع بها، و بدلاً من القيام بالمبادرة بالهجوم في منتصف الجبهة سيقوم الفرنسيون بتوجيه ضربة قوية من الخلف للجناح الجنوبي من قواتنا المنشغلة بوقف تقدمهم في بلجيكا، و بإختصار نقول أن أن خطة "شليفن" لا يمكن تكرارها.

و بصرف النظر عن هذا نجد أن "هتلر" و *القيادة العليا للجيوش الألمانية*لم تكن لديهم أية نوايا لتكرار خطة "شليفن" بكل حذافيرها، فكان هدف "شليفن" هو القضاء تماماً على الجيش الفرنسي عبر تطويقه في الشمال بهجوم على شكل خطاف ثم – عقب تطهير شمال فرنسا منه – التقدم جنوباً إلى غرب "باريس" دافعاً الجيش الفرنسي بأكمله للتقهقر على جبهة تمتد من "متز" مروراً بجبال "الفوج" وصولاً للحدود السويسرية مما سيؤدي في النهاية لتدمير هذا الجيش، و لتحقيق ذلك نجد "شليفن" تقبل المخاطر المتمثلة في أي هجوم مضاد في منطقة "الألزاس" في نفس الوقت الذي كان يأمل فيه قيام الفرنسيين بهجوم مضاد في "اللورين" محاولين وقف النجاح الذي تحققه عملية التطويق الألمانية.

و بالنظر للخطة الموضوعة عام ١٩٣٩نجد أنها لم تتضمن أي مقصد واضح حول القتال في حملة تنتهي بنصر حاسم، فكان هدفها تحقيق نصر جزئي يتمثل في هزيمة قوات الحلفاء شمال بلجيكا و الحصول على أراضي متمثلة في ساحل القنال الإنجليزي ليكون قاعدة لأي عمليات مستقبلية.

و أثناء قيام الكولونيل جنرال "فون براوخيتش" و هئية الأركان التابة له بصياغة أوامر العمليات عام ١٩٣٩ خطر على بالهم ما كتبه "مولتكه" للقيادة العامة في الأطروحة المتعلقة بحرب ٧١/١٨٧٠:

"إن أي خطة للعمليات لا تتعدى بكل تأكيد مرحلة الإلتحام المباشر مع الكتلة الرئيسية لقوات العدو، فقط رجل من العامة هو الذي يعتقد كلما تقدمت الحملة أن الخطة الأصلية تم تضمينها بكل التفاصيل التي تصل بها للنتيجة النهائية".

لو كانت هذه الأطروحة مصدر إلهام للقيادة العليا للجيش أثناء قيامها بالتخطيط لوجدناها إحتفظت لنفسها بالحق في تقرير متابعة الهجوم - بصرف النظر عن الوسيلة – عقب تحقيق أول مهمة له من عدمه.

و وفقاً لما سمعته عندما تسلمت أوراق أوامر العملية في "زوسن" أستطيع فقط إفتراض أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية*وضعت في إعتبارها أن فرص تحقيق أي نجاح حاسم على المسرح الفرنسي ضئيلة للغاية، و تعزز هذا الإنطباع بسبب الزيارات المتكررة التي قام بها القائد العام للجيش بصحبة رئيس هيئة الأركان العامة لمقر قيادتنا، و لم يعر أيهما بالاً لإصرارنا المتكرر على الحاجة لمواصلة الكفاح عقب تحقيق النصر الشامل،

و قد ساورني الشك حول ما إذا كان "هتلر" نفسه يعتقد إمكانية القضاء على فرنسا بالكامل وفقاً للخطة الموضوعة حينها، و كان إهتمامه الرئيسي هو ضمان توفر العناصر اللازمة لمتابعة القتال حتى لا يتكرر ما حدث في ١٩١٤ بعد فشل الهجوم على فرنسا عندما وجدنا أننا تنقصنا القواعد اللازمة لمتابعة صراع الغواصات مع بريطانيا، و لهذا السبب نجد مهتماً بشكل كبير بالحصول على القواعد عبر السيطرة على ساحل القنال الإنجليزي.

و هنا يتبدى جلياً إستحالة تحقيق هدف العملية المتمثل في هزيمة فرنسا تماماً من ضربة واحدة كما خطط "شليفن" لذلك من قبل، فكما شرحنا آنفاً لم تكن الظروف مواتية لذلك، و حتى لو قُدم الإقتراح بوجوب متابعة القتال – عقب تحقيق هدف *القيادة العليا للجيوش الألمانية* الأولي و هو تحقيق النصر الجزئي – حتى يتم القضاء على فرنسا كند لألمانيا فيتوجب تعديل الخطة الحالية بحيث تكون متصلة بهذا الهدف النهائي على النحو التالي :

١. وجوب أن تهدف الخطة لتدمير الجناح الشمالي للعدو تماماً و تدمير أي قوات متواجدة غرب فرنسا لضمان التفوق اللازم للخطوة التالية.
٢. يجب تشكيل موقف إستراتيجي قوي يكون نقطة إنطلاق لأي عمليات قادمة.

و في رأيي أقول إن الخطة المقدمة حينها لم تقدم أي ضمانات لتحقيق الأمرين السابقين.

عندما وصلت القوة الهجومية الألمانية المتمثلة في مجموعة الجيوش "ب" – قوامها ٤٣ فرقة – إلى بلجيكا فإنها ستواجه عشرين فرقة بلجيكية و عشر فرق هولندية إن تدخلت هولندا في الحرب، و يجب عدم الإستهانة بهذه القوات بغض النظر عن ضآلة حجمها لأنها مدعومة بتحصينات قوية على جانبي مدينة "لييج" و على طول قناة "ألبرت" فضلاً عن العوائق الطبيعية مثل قناة "ألبرت" في بلجيكا و التي تمر عبر غابة "أنتويرب" و تحصينات خط نهر "موز" إضافة لعدد لا حصر له من المجاري المائية الهولندية، و في غضون أيام قلائل ستنضم الجيوش الأنجلو-فرنسية المرابضة على الحدود الفرنسية البلجيكية لصد أي هجوم ألماني لهذه القوات.

و بالتالي لن يكون للجناح الألماني المهاجم أي فرصة – كما كان الوضع في ١٩١٤ – لتحقيق المفاجأة الإستراتيجية بحركة تطويق واسعة النطاق، و بوصول القوات الأنجلو-

فرنسية ستجد نفسها تقاتل عدواً يضاهيها قوةً، لذا يتوجب إتباع الأساليب التكتيكية لا الإستراتيجية لتحقيق النجاح لهذه الضربة الأولى.

لو كانت قيادة العدو أظهرت قدراً من المهارة العسكرية لنجحت في تجنب الهزيمة المنكرة التي تعرضت لها قواته في بلجيكا، و حتى لو أخفقت في التمسك بخط التحصينات "أنتويرب-لييج-موز" كان بمقدورها سحب القوات إلى منطقة "السوم السفلى" بشكل منظم بحيث يستطيع هناك إعادة تنظيم صفوفه و التحضير لتكوين جبهة جديدة، و خلال هذا الوقت كان الهجوم الألماني سيفقد زخمه بحيث لن تكون مجموعة الجيوش "أ" قادرة على منع العدو من تشكيل خط دفاعي يمتد من نهاية خط "ماجينو" شرق "سيدان" وصولاً إلى منطقة "السوم السفلى"، و هكذا سيجد الألمان أنفسهم في نهاية معارك الخريف في موقف مماثل لعام ١٩١٤ ، و الميزة الوحيدة التي سيحصلون عليها هي مساحة أكبر من القواعد على ساحل القنال الإنجليزي، و كنتيجة لذلك سنخفق في تدمير القوات الفرنسية في بلجيكا – و هو الأمر الضروري لو أردنا ضمان التفوق الحاسم على العدو – و لن يكون الموقف الإستراتيجي في صالحنا في المعارك النهائية، و بالتالي نستنتج أن الخطة الموضوعة بواسطة *القيادة العليا للجيوش الألمانية* سيتمخض عنها نصر جزئي فقط لا أكثر.

و ما حدث فعلاً هو أن العدو تم تدميره بالكامل في بلجيكا ١٩٤٠ بفضل مهارة معالجة الموقف التي تمتعت بها مجموعة الجيوش "ب" مما قاد لإستسلام الجيوش البلجيكية و الهولندية، و رغم ثقتنا الكبيرة في القيادة الألمانية و القوة الضاربة لمدرعاتنا إلا أنه لا يمكننا التعويل عليهما تماماً لتحقيق النجاح، و لو كان للطرف الآخر قيادة أفضل لأختلفت القصة كلياً.

و كانت الكارثة الحقيقية التي واجهتها جيوش العدو في بلجيكا بسبب قدرة دبابات مجموعة الجيوش "أ" – وفقاً لتعديلات أدخلت على الخطة فيما بعد – على قطع خطوط إتصالات العدو و طرده من منطقة "السوم".

و أخيراً أغفلت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* شيء واحد و هو فتح نطاق المناورة أمام قيادة العدو الجريئة و الصارمة، و ليس للمرء الحق في إفتراض أن مثل هذه القيادة ستكون قاصرة خاصة بالنظر للسمعة التي تمتع بها الجنرال "جامبلين" في أوساطنا

حيث كان قد ترك إنطباعاً ممتازاً لدى الجنرال "بيك" في آخر مرة زارنا فيها قبل الحرب.

كان القائد الجرئ للعدو في موقف يمكنه من صد هجوم الألمان عبر بلجيكا والقيام في نفس الوقت بهجوم مضاد واسع النطاق ضد الجزء الجنوبي من الجناح الشمالي للجيش الألماني، حتى عندما تم تخصيص قوات لنجدة القوات البلجيكية و الهولندية المحشورة داخل بلجيكا كان في خط "ماجينو" ٥٠ أو ٦٠ فرقة يمكن فصلها بسهولة و إستخدامها لشن هجوم مضاد، و لما كان مجموعة الجيوش "ب" تتقدم بإتجاه القنال الإنجليزي و مصب نهر "السوم" كان من الأفضل لقيادة العدو أن توجه هجومها ناحية الجزء العميق من الجناح الشمالي للألمان، و لكن هل كانت مجموعة الجيوش "أ" – قوامها ٢٢ فرقة - قادرة على صد هذا الهجوم ؟ مهما كانت الإجابة لن يكون أي تطور على تلك الخطوط مؤثراً على المشهد النهائي لمسرح عمليات الغرب

<u>خطة مجموعة الجيوش "أ" :</u>

شكلت الإعتراضات آنفة الذكر – و التي تبدت لي أثناء دراتي لخطة *القيادة العليا للجيش*- أساس الإقتراحات التي قدمناها في صورة مذكرات تهدف لوضع وجهة نظرنا أمام قادة الجيش، و لما كانت هذه الإقتراحات مكررة بشكل ما فيتوجب علي أن ألخصها في النقاط التالية مع توضيح تعارضها مع المقاصد العملياتية للقيادة العليا للجيش :

١. الهدف الذي إقترحته للهجوم على الغرب هو فرض واقعاً على الأرض، بحيث يُستكمل القتال بعد تحقيق الأهداف المحدودة التي قررتها *القيادة العليا للجيش*، و لم تبرر أوامر العمليات مجازفات سياسية مثل إنتهاك حيادية ثلاث دول و لا أي مجازفات عسكرية، و كان حجم الهجوم الألماني هو بطاقتنا الرابحة في المعركة بأكملها و لا تُقبل أي تجزئة لها.
٢. يجب تركيز الثقل الأساسي لهجومنا في مجموعة الجيوش "أ" لا "ب" ، و الهجوم المقترح لمجموعة الجيوش "ب" هدفه ضرب قوات العدو المنتظرة، و حتى لو حققت بعض النجاحات الأولية فإنه يجب طردها من منطقة نهر "السوم".

الفرصة الحقيقية أمام مجموعة الجيوش "أ" هي شن هجوم مفاجئ عبر غابات "الأردين" - التي لا يتوقع العدو أي تواجد للمدرعات فيها لطبيعتها الوعرة – تجاه "السوم السفلي" و وقف تحرك قوات العدو في بلجيكا ، و هذا هو السبيل الوحيد لتدمير كامل جناح العدو الشمالي في بلجيكا تمهيداً لإحراز النصر النهائي في فرنسا.

٣. بجانب الفرصة السابقة تحملت مجموعة الجيوش "أ" الخطر الرئيسي في الهجوم الألماني.

لو تصرف العدو بشكل صحيح لكان سيسعى لتصحيح الوضع السئ له في بلجيكا عبر الإنسحاب إلى ما وراء "السوم" ، و في نفس الوقت يقوم بتنشر كل قواته المتاحة و تجهيزها لشن هجوم مضاد ضد الجزء الجنوبي بهدف تطويق الكتلة الرئيسية للجيش الألماني في بلجيكا قبالة "راين السفلي"، و رغم أن المرء قد يحجم عن نعت القيادة العليا الفرنسية بمثل هذه الجرأة - فضلاً عن المعارضة الأكيدة التي سيبديها حلفاء فرنسا لمثل هذه الخطوة – إلا أنه لا يمكن إنكار مثل هذه الإحتمالية أبداً.

كان العدو سينجح في تشكيل خط دفاعي غير قابل للكسر بإستخدام إحتياطاته المتواجدة حينها لو توقف هجومنا عبر بلجيكا في منطقة "راين السفلى"، و هذا الخط يبدأ من شمال غرب نهاية خط "ماجينو" شرق "سيدان" مروراً بنهري "السوم" و "أن" مستفيداً منهما كعوائق طبيعية وصولاً إلى القنال الإنجليزي.

و لمنع ذلك يتوجب تدمير أي حشود للعدو تجاه الجزء الجنوبي -سواء على جانبي نهر "موز" أو بين نهري "موز" و "واز" – قبل أن يكتمل إحتشادها، و يجب ضرب تماسك خط العدو في هذه المنطقة منذ البداية بهدف تطويق خط "ماجينو" لاحقاً.

٤. يجب منح مجموعة الجيوش "أ" ثلاثة جيوش بدلاً من إثنين لأن ثقل العملية في أغلبه يقع على كاهلها: **الأول** يتقدم عبر جنوب بلجيكا و عبر نهر "موز" و عليه أن يهرع تجاه "السوم السفلى" لضرب قوات العدو المقابلة لمجموعة الجيوش "ب" من الخلف ، و **الثاني** فعليه أن يسلك إتجاه الجنوب الغربي و تكليفه بمهمة شن هجوم على أي قوات معادية محتشدة غرب نهر "موز" بغرض شن هجوم مضاد على جزئنا الجنوبي و تدميرها، أما **الثالث** فعليه تغطية الجناح العميق للعملية بأكملها إنطلاقاً من شمال خط "ماجينو" شرق "سيدان".

و بهدف تحقيق نقل الثقل الرئيسي للعملية من مجموعة الجيوش "ب" إلى المجموعة"أ" طالبنا بالآتي:

١. جيش واحد إضافي .
٢. قوات مدرعة قوية.

و النقاط المختصرة سالفة الذكر هي ما تضمنته المذكرة التي قدمتها مجموعة الجيوش "أ" إلى *القيادة العليا للجيش*.

النضال من أجل خطة مجموعة الجيوش "أ" :

من الطبيعي ألا أكون جاهزاً في أكتوبر ١٩٣٩ بخطة عملية متكاملة، و العمل الجاد تجابهه طبيعة البشر دوماً قبل تحقيق الهدف المنشود منه، و لا يمكن أن ينبع من رأس الإنسان عمل فني متكامل كما خرجت "أثينا" من رأس "زيوس"[١] .

و رغم ذلك كانت المبادئ الأساسية للخطة الجديدة موجودة في أول إقتراحات قُدمت للقيادة العليا للجيش بتاريخ ٣١ أكتوبر ١٩٣٩ بشأن السياسة العملياتية حول الهجوم الألماني.

و للدقة نذكر وجود وثيقتين متضمنتين في المذكرة المقدمة، **الأولى** عبارة عن خطاب من قائد مجموعة الجيوش إلى القائد العام يتعلق بالمشكلة الأساسية التي تواجه الهجوم الألماني في الموقف الراهن.

و بدأ "فون رندستيدت" خطابه بالتأكيد على أن الهجوم طبقاً للخطة الموضوعة يوم ١٩ و ٢٩ أكتوبر لن يكون له أي أثر فعال على الحرب، فقوة القوات الألمانية مقارنة بقوات العدو لا تنبئ عن أي إمكانية لتحقيق النصر الشامل عبر تطويق العدو و ضربه من الخلف، و النتيجة المحتملة هي معركة في منطقة "السوم"، و أشار "فون رندستيدت"

---

[١] تروي الأسطورة الإغريقية أن أحد الآلهة اخبر زيوس بأن زوجته ميتس - وكانت حاملاً منه - سوف تلد له ولداً ويكون أقوى منه، فإبتلع زيوس متس ليحول دون تحقيق النبوءة، وما إن فعل ذلك حتى أصابه صداع شديد، إضطر بعدها هيفايستوس إبن زيوس من هيرا وإله الحدادة إلى إن يضربه بفأس على رأسه فشهقا وخرجت منه أثينا إلهة الحرب بكامل لباسها و أسلحتها تصرخ صرخات الحرب.

في الوقت نفسه إلى الصعوبات التي تعرقل إستخدام الطيران و الدبابات خلال الخريف و الشتاء.

و مع ذلك فإن هذا الهجوم يجب شنه لو تمخض نجاحه عن توفير المتطلبات اللازمة لقواتنا الجوية و البحرية لتبدأ عملياتها ضد بريطانيا، و قد أظهرت تجربة الحرب العالمية الأولى عدم كفاية السيطرة على جزء من ساحل القنال الإنجليزي بل يتوجب علينا السيطرة على كامل الساحل الشمالي لفرنسا و ساحل الأطلنطي أيضاً من أجل هذا الغرض.

إن زيادة حجم القوات المشاركة في الهجوم على الغرب من الجيش الألماني سيضع النصر المحدود الذي حققناه في مهب الريح بالنظر إلى وجود الإتحاد السوفييتي في ظهورنا، و حجم الهجوم هو العامل الحاسم في الأمر برمته، أما بالنسبة لصداقتنا مع السوفييت فإنها ستكون قائمة طالما ظلت قدرة الجيش الهجومية موجودة.

و في هذا الوقت كان حجم القوات المشاركة في الهجوم مقتصراً على الفرق الأساسية و ظل كذلك حتى وصلت التشكيلات الجديدة للمستوى المطلوب من التدريب و الإنضباط، و بالتالي لا يمكن شن الهجوم إعتماداً على الفرق الأساسية فقط.

و قد تقوم القوى الغربية بالمبادرة بالهجوم تحت تأثيرغارات اللوفتافا ضد بريطانيا، و في حال حدوث ذلك لا يوجد ما يؤكد أن فرنسا ستشارك في مثل هذا الهجوم بالنظر إلى الحالة المعنوية للجنود ، و من وجهة نظرنا كان من المرغوب أن يورط العدو نفسه في هجوم على مواقع محصنة إضافة إلى إنتهاك حيادية بلجيكا و هولندا، و في ذات الوقت لا يمكن للمرء أن يقف ساكناً و يمنح بريطانيا الوقت الذي يتيح لها إكمال التسليح و إنتاج الطائرات.

من وجهة النظر العسكرية يمكن الإنتصار في الحرب ضد بريطانيا فقط في البحر و الجو، و قد نخسر الحرب لو بددنا طاقتنا الهجومية في معارك جانبية.

و تضمن خطاب "فون رندستيدت" تحذيراً من القيام بأي هجوم ألماني سابق لأوانه خلال شهور الخريف أو الشتاء، و هو ما رأته مجموعة الجيوش "أ" و *القيادة العليا للجيوش الألمانية*معاً ، لكنهم لم يتوافقوا على طريقة الواجب تبنيها للقيام بالهجوم حيث

عارض قائد مجموعة الجيوش تنفيذ الهجوم وفقاً لأوامر العملية الصادرة من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* بشكل لا يضمن تحقيق النجاح.

و إتخذ الإتصال الثاني بين مجموعة الجيوش "أ" مع *القيادة العليا للجيوش الألمانية* و المؤرخ بـ٣١ أكتوبر شكل الخطاب الرسمي، و صادق عليه "فون رندستيدت" و تضمن إقتراحات حول كيفية تنفيذ الهجوم الألماني، و هذا الخطاب شدد على أهمية ما يلي:

١. تركيز الثقل الأساسي للهجوم في الجناح الجنوبي بشكل كامل.
٢. الإعتماد على فرق المشاة الميكانيكي و تكليفها بالتقدم بسرعة من الجنوب تجاه الخطوط الخلفية لقوات الحلفاء شمال بلجيكا.
٣. أرسال جيش إضافي يتولى صد أي هجوم واسع النطاق للعدو على الجزء الجنوبي التابع لنا عبر القيام بهجمات مضادة.

و بالكاد توقع المرء أن يرد الرد على هذا الخطاب بحلول الثالث من نوفمبر و هو اليوم الذي قام فيه القائد العام للجيش و رئيس هيئة الأركان العامة بزيارتنا و أتيحت لي فرصة عرض الأمر مباشرة عليهم بتعليمات من "فون رندستيدت"،و مع ذلك رفض الكولونيل جنرال "فون براوخيتش" الطلب الذي قدمته بخصوص منحنا قوات إضافية – الجيش الإضافي و قوات الدبابات – متحججاً بأنه يتمنى لو إستطاع فصلهم ليمنحنا إياهم، و هذا أوضح لنا أنه يرفض وجهة نظرنا، و في نهاية المطاف منحنا وعداً بفرقة مدرعة و فوجين مشاة ميكانيكي من قوات الإحتياط.

و لسوء الحظ أوضح الزائرون لنا أن لهم تحفظات قوية على الهجوم المزمع شنه على الغرب خاصة بالنظر إلى فرص تحقيق النصر الحاسم في الغرب، و طلبوا من قادة الجيوش و الفيالق التابعين لنا أن يوردوا تقارير عن حالة تشكيلاتهم، و لكن الطريقة التي إستلموا بها الشكاوى – و كانت عديدة – عن حالة الفرق المكونة حديثاً تركت علي إنطباعاً بعدم رضائهم الشخصي عن الهجوم.

بعد ذلك بأيام قلائل خطب الكولونيل جنرال "فون رندستيدت" في جنرالات مجموعة الجيوش لمحو الأثر المتولد عن هذا الإنطباع، و شرح لهم وجهة نظر هيئة الأركان العاملة معه موضحاً وجود أكثر من وسيلة لتحقيق النصر الحاسم في الغرب حتى لو لم ينطلق الهجوم قبل حلول فصل الربيع.

في ٦ نوفمبر و بمناسبة الرد على طلب *القيادة العليا للجيوش الألمانية* المتعلق بإرسال تقرير عن تنفيذ أوامر العملية قمنا بتقديم توصياتنا مجدداً ، و لم نتلق أي جواب.

و خلال هذا الوقت كان خبراء الأرصاد التابعين لـ"هتلر" يهرلون على سلالم منشآتهم صعوداً و نزولاً، و في كل مرة يتنبأون فيها بصفاء الجو يصدر "هتلر" الكلمة السرية لإنتشار القوات لا يلبثون أن يتراجعوا عن تنبؤهم و يتم بالتالي إلغاء العملية.

في ١٢ نوفمبر فوجئنا برسالة مطبوعة وصلتنا نصها :

"قرر الفوهرر الآن تشكيل مجموعة ثالثة من القوات سريعة الحركة على الجناح الجنوبي للجيش الثاني عشر أو في القطاع المخصص للجيش السادس عشر و هو سيكون مخصص للهجوم على سيدان و المنطقة الواقعة شرقها لتحقيق الإستفادة من طبيعة المنطقة الخالية من الغابات على جانبي مقاطعات أرلون و تنتجني و فلورانفي، التشكيل : قيادة الفيلق التاسع عشر و الفرقتان ٢ و ١٠ بانزر و فرقة مشاة ميكانيكي و فوج الليبستاندرت و جروسداتشلاند[١]

مهمة هذه المجموعة هي:

١. هزيمة قوات العدو المحمولة على مركبات في بلجيكا و تمهيد الطريق أمام الجيشين الثاني عشر و السادس عشر .
٢. لتحقيق مفاجئة السيطرة على الضفة الغربية لنهر موز جنوب أو شرق سيدان و بالتالي تحقيق موقف داعم للمرحلة التالية من العملية خاصة لو فشلت وحدات المدرعات التابعة للجيشين السادس و الرابع في قطاعاتها"

و ما سبق تبعه إسهاب في شرح أوامر العمليات الصادرة من *القيادة العليا للجيوش الألمانية*، و إتضح من صياغة الرسالة أن وضع الفيلق التاسع عشر تحت قيادة مجموعة الجيوش "أ" تم بأوامر من "هتلر"، ما الذي دفعه إلى ذلك؟ و قد يكون ما ذكره قائد الجيش السادس عشر الجنرال "بوزتش" في مقابلة أجريت معه مؤخراً، و كان الأخير مطلعاً على وجهة نظري و ربما كان متفقاً مع طلب تزويدنا بقوات مدرعة من أجل تقدم سلس عبر غابات "الأردين"، و يحتمل أن يكون "هتلر" قد أصدر قراره من تلقاء نفسه، و كان "هتلر" مهتماً بالخطوات التكتيكية و قضى وقتاً كثيراً في التفكير على

---

[١] فوج جروسداتشلاند : من وحدات النخبة في الجيش الألماني.

الخرائط، و ربما يكون قد أدرك أن أسهل طريق لعبور نهر "موز" هو "سيدان" حيث قد يكون التقدم أصعب بالنسبة لمدرعات الجيش الرابع، من المرجح جداً أن يكون قد وجد أن تقاطع نهر "موز" في منطقة "سيدان" نقطة في صالحه – بالنظر إلى أنها تمنح الجناح الجنوبي لمجموعة الجيوش "أ" إطلالة مفتوحة على النهر – و رغب – كعادته دوماً – في تحقيق جميع الأهداف مرة واحدة، و في الواقع – رغم سعادتي بالحصول على فيلق بانزر – ظل الأمر محبطاً بالنسبة لمدرعاتنا، و لهذا السبب كان قائد الفيلق ١٩ بانزر الجنرال "جيودريان" غير راض عن الدور الجديد لوحدته و كانت سعادته تتمثل في توجيه الدبابات للقيام بضربة قوية في مكان واحد و توقيت واحد، و تحمس فقط لخطتنا لما أطلعته على الدوافع العملياتية وراء نسعي مجموعة الجيوش لنقل الثقل الأساسي للهجوم إلى الجناح الجنوبي و جذبت إنتباهه للهدف المتمثل في مصب نهر "السوم" و هو الخطوط الخلفية للعدو، و حيويته تلك كانت ملهمة لدباباتنا في تسلسلها خلف خطوط العدو بإتجاه ساحل القنال الإنجليزي، و بالنسبة لي كانت موافقة "جيودريان" على فكرتي حول دفع عدد كبير من الدبابات في منطقة وعرة كغابات "الأردين" دعماً هاماً لها.

نعود للحديث عن وضع الفيلق التاسع عشر و نجد أن "هتلر" إعتبر ذلك إجراءً تكتيكياً يقوم في ذات الوقت بتسهيل عبور مجموعة الجيوش "ب" لنهر "موز".

و لم يتضمن شرح القيادة العليا لأوامر العمليات أي إشارة لأهداف جديدة، و لا أي إشارة للسعي- أو حتى لتمهيد الطريق – لقرار نهائي بخصوص تنفيذ حركة تطويق تبدأ من قطاع مجموعة الجيوش "أ" في إتجاه مصب نهر "السوم".

و في ٢١ نوفمبر قام القائد العام للجيش و رئيس هيئة الأركان العامة بزيارة جديدة لمجموعة الجيوش في "كوبلنز" و حضرها قائد مجموعة الجيوش "ب" و القواد التابعين له بجانب قادة مجموعة الجيوش "أ".

و تستحق تلك الزيارة الذكر لسبب واحد على وجه الخصوص، حيث طلب "فون براوخيتش" من قادة مجموعة الجيوش و قادة الجيوش توضيح نواياهم حيال تنفيذ أوامر العمليات الصادرة من *القيادة العليا للجيوش الألمانية*و التصرفات التي قاموا بها في سبيل ذلك،و لما جاء دورنا قال أنه يريد سماع قادة الجيوش فقط، و يظهر من ذلك

رغبته في تحاشي قيام قيادة مجموعة الجيوش "أ" بالتعبير عن عدم إتفاقها مع أوامر العمليات.

و كنتيجة لذلك لم يكن أمامنا خيار سوى تسليم *القيادة العليا للجيوش الألمانية*مذكرة أخرى حول وجهة نظرنا في الكيفية التي يكون عليها الهجوم .

و قد وضعت هذه المذكرة – كسابقاتها المقدمة في ٣١ أكتوبر و ٦ نوفمبر و٣ نوفمبر و ٦ ديسمبر و ١٨ ديسمبر و ١٢ يناير – المبادئ الأساسية التي وضعتها مجموعة الجيوش "أ" في إعتبارها بخصوص خطة العملية برمتها، و تضمنت كل مذكرة ذات المفاهيم و الإعتبارات التي تضمنتها سابقاتها لذا يتوجب علي التلخيص.

و بدا في نفس الوقت أن "هتلر" يفكر في توظيف الفيلق التاسع عشر في قطاع مجموعة الجيوش "أ" و المشكلة المتعلقة بكيفية تحريك قوات إضافية لدعمها في حال لم تحقق مدرعات مجموعة الجيوش "ب" النتائج بالسرعة المتوقعة من هجومها، و قد أخبرنا "جرينر" أن "هتلر" سأل *القيادة العليا للجيوش الألمانية*في منتصف نوفمبر عن كيفية و مدى القدرة على دعم مدرعات "جيودريان" عند الحاجة، و ذكر "جرينر" أيضاً أن "هتلر" أصدر توجيهاً للقيادة العليا للجيش يتضمن تعليمات بتجهيز المؤن اللازمة لنقل حمل الهجوم الرئيسي من مجموعة الجيوش "ب" إلى مجموعة الجيوش "أ" على وجه السرعة في حال تحقيق هذه الأخيرة نتائج طيبة بشكل أسرع.

و في نهاية نوفمبر قامت *القيادة العليا للجيوش الألمانية*– تنفيذاً للأمر الصادر من"هتلر" – بتحريك الفيلق ١٤ مشاة ميكانيكي من وقعه شرق "راين" إلى خلف منطقة تمركز مجموعة الجيوش "أ"، و هذا الفيلق لا يزال يُعد من إحتياط الجيش رغم أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية*صار لها – وفقاً لمعطيات الموقف – أن تقرر هل ستدرجه ضمن مجموعة الجيوش"أ" أم "ب" ؟

و من غير الواضح ما إذا كان "هتلر" نفسه إقتنع بفكرة نقل ثقل العملية الأساسي لمجموعة الجيوش "أ" أو ما إذا كان متحفظاً على وجهة نظر هذه المجموعة؟

في ٢٤ نوفمبر – و هو اليوم التالي للخطبة التي ألقاها على قادة الأجهزة الثلاثة في "برلين" – إلتقى "هتلر" بالكولونيل جنرال "فون رندستيدت" و "بوزتش" و "جيودريان"، و فهمت من "جيودريان" خلال رحلة العودة إلى "كوبلنز" أن "هتلر"

أبدى تقبلاً شديداً لوجهة نظر مجموعة الجيوش، و لو كان الأمر هكذا فأعتقد أنه كان مهتماً في المقام الأول بالتعزيزات من المدرعات اللازمة لمجموعة الجيوش التابعة لنا كوسيلة لإقتحام خط "موز" قرب "سيدان" لمصلحة مجموعة الجيوش "ب"، و أعتبر قيام "فون رندستيدت" بإستغلال هذه المناسبة لعرض خطتنا أمام "هتلر" خاصة أن موقف "فون براوخيتش" صار أكثر حرجاً فيما بعد.

و ما يذكره "جرينر" من إطلاع "هتلر" على خطتنا في نهاية أكتوبر من مساعده العسكري "شمندت" هو أمر يدعو للريبة خاصة بالنظر إلى الوقت الذي تم فيه، و مع ذلك قام "شمندت" بزيارتنا بناء على تعليمات من "هتلر" للتأكد من توقف الهجوم بسبب الأحوال الجوية وحالة الأرض من عدمه، و في تلك المناسبة أخبر قائد العمليات العقيد "بلومنتريت" و العميد "فون تريسكو" أن مجموعة الجيوش أرسلت للقيادة العليا للجيش خطة للهجوم أفضل من تلك التي وضعتها الأخيرة.

و عقب ذلك بعدة أيام أرسل "بلومنتريت" – بعد أخذ رأيي – إلى العقيد "شمندت" نسخة من مذكرتي الأخيرة، و لا أعلم هل تم تقديمها إلى "هتلر" أو "جودل"، و في كل الأحوال عندما أرسل لي "هتلر" طالباً لقائي بخصوص وجهة نظري حول الهجوم على الغرب يوم ١٧ فبراير ١٩٤٠ لم يعط أي إشارة تدل على إطلاعه على أي من المذكرات السابقة.

ربما كان إعتراض "هتلر" الذي أبداه في نهاية نوفمبر يهدف للتأكد من أن عملية نقل الثقل الأساسي للعملية من مجموعة الجيوش "ب" إلى المجموعة "أ" ستتم أثناء التقدم في سير العملية، و هذا لا يعني أي تغيير في خطة العملية حتى تاريخه و لا يعني أيضاً أنه قبل التعديلات التي أدخلناها عليها، و قد ظلت أوامر العملية قائمة كما هي رغم نشر الفيلق ١٤ مشاة ميكانيكي خلف منطقة تمركز مجموعة الجيوش "أ"، و كما كان الوضع في سابقه سيتم السعي لتحقيق النجاح عن طريق هجوم رئيسي تنفذه مجموعة الجيوش "ب" عبر شمال بلجيكا بينما تقوم مجموعة الجيوش "أ" بتوفير الحماية فقط، و الإختلاف الرئيسي يكمن في أن "هتلر" أراد أن تتم عملية النقل في مرحلة لاحقة إن لم يرق مستوى نجاح مجموعة الجيوش "ب" للمستوى المتوقع أو إن حققت مجموعة الجيوش "أ" نتائج أسرع.

و صار الأمر واضحاً بصورة أكثر عندما تسلمت الرد من الجنرال "هالديرتو" على مذكرة قدمتها بتاريخ ٣٠ نوفمبر، و كان هذا أول إشعار بالإستلام بشأن توصياتنا حتى تاريخه.

و جوهر ملاحظاتنا تمثل في ظهور نقطة جديدة للهجوم – بواسطة مجموعة الجيوش "أ" – و ذلك أتاح نجاح إختراق غابات "الأردين" و هو الأمر الذي يستلزم متابعة توسيع نطاق العملية كما إقترحنا تماماً.

و رغم تطابق وجهة نظرناإلى حد كبير مع أفكار *القيادة العليا للجيوش الألمانية*إلا أن "هالدر" أصر على أن أوامر الأخيرة المتعلقة بالفيلق التاسع عشر و الفليق الرابع عشر ليست نقطة محورية في الهجوم لكنها فقط أشارت لإمكانية تشكيلهما إن إقتضت ذلك الحاجة، و قال "هالدر" عن ذلك:" لمؤثرات خارجة عن سيطرتنا وجدنا أن القرار المتعلق بتحديد مركز الثقل الرئيسي للهجوم تثور به مشكلة القيادة أثناء تنفيذ العملية لا مشكلة تخطيطها".

و مما سبق نستخلص أمرين ، **أولهما** إصرار "هتلر" على أن حقه في إتخاذ قرار الهجوم يشمل كذلك تنفيذه على أرض الواقع، و **ثانيهما** إصراره على تحديد مركز الثقل الرئيسي للهجوم إستناداً على حسب الكيفية التي يسير الهجوم وفقاً لها و بالتالي نجده غير ملم بخطتنا أو محجماً عن تبنيها.

و تأكد الإنطباع الأخير في مكالمة هاتفية أجراها "هالدر" معي في ١٥ ديسمبر.

في ٦ ديسمبر أرسلت له خطاباً آخر يتضمن كل ما يؤيد خطتنا من أسانيد، و تضمن هذا الخطاب الخطة الجديدة برمتها، و لما لم يصلني رد "هالدر" حتى ١٥ ديسمبر هاتفت الجنرال "فون شتنباجل" و سألته إلى متى ستتجاهل *القيادة العليا للجيوش الألمانية*مقترحاتنا، و ترتب عن هذا الإتصال مكالمة "هالدر" المشار إليها آنفاً، و قد أكد لي فيها إتفاق كل قادة الجيش مع خطتنا لكنه توجد تعليمات صارمة بجعل ثقل الهجوم الرئيسي من نصيب مجموعة الجيوش "ب" أو نقل هذا الثقل أثناء العملية الهجومية ذاتها.

و قد يعتقد المرء من ذلك أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية*صارت تتفق مع وجهة نظرها و أنها على وشك أن تعرضها على "هتلر" بطريقةأو بأخرى، و قد علمت حينها

من الجنرال "واليرمونت" و الجنرال "فون لوسبرج" أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية*لم تعرض أبداً توصيتنا على "هتلر" بالشكل الذي أردناه، كان الأمر أكثر تعقيداً بكثير مما ظنناه.

و يمكنني القول أن فكرة نقل ثقل الهجوم لمجموعة الجيوش "أ" عقب بدء العملية – سواء إتفقت *القيادة العليا للجيوش الألمانية*معنا أم لا – كانت فكرة غير متوافقة مع العمليات التي تنوي مجموعة الجيوش إتمامها.

و أقر أن "نابليون" هو من صاغ الفكرة الشهيرة حول مهاجمة مواقع الأعداء القوية و الشعيفة على حد سواء، و صار هذا بديهياً لدى الفرنسيين خصوصاً منذ هجومهم الفاشل على منطقة "اللورين" في ١٩١٤، و هو ما كان يمكن لقيادة الحلفاء في ١٩٤٠ تبنيه حيث أرادت أن يتملكنا الإرهاق من الهجوم عليهم و بالتالي لم يكن أمامها سوى الإنتظار و الترقب ، و كان واجبهم يتمثل في تخطي إختبار القوة في بلجيكا ثم توجيه ضربة مضادة للجزء الجنوبي من قواتنا المهاجمة بإستخدام أقوى قواتهم.

و في حالتنا هذه لم يكن ممكناً وجود أي سؤال حول الإنتظار و الترقب لمعرفة أين و متى سنلقي أوراقنا الرابحة بل إن خطة مجموعة الجيوش "أ" كانت مبنية على المفاجأة، و لم يكن ممكناً للعدو توقع تقدم قوات مدرعة قوية عبر غابات "الأردين" و يعقبها جيش كامل ، و هذا الهجوم سيصل لهدفه في "السوم السفلى" فقط إن دحر قوات العدو المتواجدة جنوب بلجيكا بنجاح، و كان علينا عبور نهر "موز" وراء فلول قوات العدو إن أردنا مهاجمة قواته المواجهة لمجموعة الجيوش "ب" من الخلف.

كما أنه لا يمكن أن تتم أي محاولة لتدمير إحتياطات العدو القوية المتموضعة قرب الجزء الجنوبي من قواتنا المهاجمة – بين نهري "موز" و "أويز" – و بالتالي كسب الموقف لصالح خطوتنا التالية المتمثلة في تدمير ما تبقى من قوات العدو إلا إذا توافرت لدينا القوات الكافية للمبادرة بالهجوم.

و سياسة الإنتظار و الترقب قبل أن نقرر مكان تركيز الثقل الرئيسي للهجوم سيضيع علينا فرصة تدمير قوات العدو شمال بلجيكا بحركة تطويقية من جهة الجنوب، و يعني منح العدو الفرصة لنشر قواته من أجل القيام بهجوم مضاد على الجزء الجنوبي من قواتنا مما سيمنحه فرصة لتحقيق النصر، و هي الفرصة التي لم تسع قيادة العدو للإستفادة منها أبداً.

و تحضرني مقولة "مولتكه" و نصها :" إن حدث خطأ في المراحل الأولى للإنتشار فلا يمكن أن تسير الأمور على ما يرام أبداً" بالنظر إلى فكرة إنتظار وصول قوات مناسبة و تخصيصها لمجموعة الجيوش "أ" و إتخاذ قرار الهجوم بصرف النظر عن مدى إمكانية تحقيق المفاجئة بقوات غير مناسبة.

و بإختصار لا يمكن للمرء إن ينتظر ليرى كيف سار الهجوم - سواء تم تحطيم العدو في بلجيكا بهجوم ضخم أو سينجح الفيلق التاسع عشر في ذلك و يصل إلى "سيدان" بمفرده، و لو تم تبني خطة مجموعة الجيوش "أ" لتوجب تزويدنا بداءة بقوات مدرعة و ثلاثة جيوش إضافية حتى و لو لم يصل الجيش الثالث إلا أثناء سير العمليات، و هذا هو السبب الذي دعاني في مذكرتي المقدمة في ٦ ديسمبر لئلا أكتفي بجيشين قوامهما ٢٢ فرقة مشاة و فرقة بانزر واحدة بل طلبت ثلاثة جيوش قوامها ٤٠ فرقة مشاة و فيلقين مركبات، و هذا هو الرقم الذي نجحنا في ضمانه عقب تدخل "هتلر" و الموافقة على خطتنا.

و كان علينا متابعة النضال، و تمحور إهتمامنا الرئيسي منذئذ حول التأكد من إستخدام الفيلق ١٩ بانزر و الفيلق ١٤ مشاة ميكانيكي – و منذ بداية الهجوم – في التقدم عبر غابات "الأردين" نحو نهر "السوم السفلي" ، و كان وجوبياً أن نضمن توافر الجيش الثالث الذي طلبناه منذ بداية العملية كي يقوم بالهجوم على قوات العدو القريبة من الجزء الجنوبي من قواتنا غرب نهر "موز".

لو نجحنا في كسب الموافقة على هاذين المطلبين – حتى و لو لم تكن *القيادة العليا للجيوش الألمانية*متقبلة لوجهة نظرنا في مجملها – سيسير الهجوم في طريقه للنصر الحاسم الذي ناضلنا من أجله.

و أقر أنه لو لم يكن ممكناً أن تتوسع خطة العملية التي وضعناها أكثر من القيام بالهجوم الأول على العدو فسيرجع ذلك إلى تسبب نقص القوات في إصابة القوات بالركود التام و هي في مراحلها العملياتية الأولية و هو عين ما أقره "مولتكه".

و في نفس السياق أشار "مولتكه" إلى أنه يتوجب على القائد العسكري أن ينظر إلى ما قبل الهجوم الأول و ضع عينه نصب الهدف النهائي له، و هذا الهدف كما رأيناه هو تحقيق النصر على أرض القارة الأوربية ، و هو ما يتوجب أن يكون هدف الهجوم الألماني منذ الآن فصاعداً ، حتى لو إقتضى ذلك المرور بمراحل مختلفة.

و ما ذكرناه عن "نابليون" سابقاً هو نفس الفكرة التي دارت حولها تحفظات "هتلر" حول موضع تركيز ثقل الهجوم الرئيسي، و هو الأمر الذي سيحقق نتائج جيدة في موقف آخر، لكن في حالتنا هذه سيقتصر على على تحقيق ما هو أقل من النصر الشامل.

و قد عرضت على "فون رندستيدت" في ١٨ ديسمبر – عندما لم يؤت خطابي لهيئة الأركان العامة في ٦ ديسمبر بنتائجه المأمولة – مسودة لأوامر العمليات بشأن الهجوم على الغرب تستند إلى رؤيتنا حول العملية، و هو ما دعمه في مقابلاته مع القائد العام للجيش و "هتلر" – في حال موافقة القائد العام له، و تمت المقابلة مع "فون براوخيتش" في ٢٢ ديسمبر و لكن لم يتم أي إجتماع مع "هتلر"، و تم إرسال المسودة أيضاً للقيادة العليا للجيش كتابة أملاً مني في إمكانية إقتناع القيادة و فرع العمليات التابع لها بها إن قرأتها في ورقة جاهزة بدلاً من عرضها شفاهة كما حدث من قبل، بعد الحرب إكتشفت أن فرع العمليات التابع للقيادة العليا للجيش لم تصله مذكراتي أبداً من "هالدر".

و قد وضعت حالة الطقس في النصف الثاني من ديسمبر مسألة الهجوم على الغرب خارج محل التفكير، و بدا أنه من الجيد أن تنقضي فترة فاصلة قبل أن نبدأ مجدداً في إدخال أي تغييرات على خطة العمليات حيث نكون قد جهونا فيها قدراً كافياً من الأفكار قبل البدء في التغيير، لذا أتيحت لي فرصة العودة للمنزل في ليلة عيد الميلاد، و أثناء عودتي إلى "كوبلنز" عرجت على مقر *القيادة العليا للجيوش الألمانية*في "زوسن" لمعرفة الإنطباع الذي خلفته مسودتنا عليها، و أكد لي "فون شتنباجل" مجدداً إتفاق القيادة التام مع وجهة نظرنا لكنها كانت مضطرة للخضوع لأوامر "هتلر" المتعلقة بموضع تركيز الثقل الرئيسي للهجوم.

و كما كان الأمر سابقاً لم يكن واضحاً قيام القائد العام بتقديم أي من مقترحاتنا لـ"هتلر" ، و بدا أنه من غير المحتمل قيامه بذلك عندما علمت من العقيد "هسينجر" أن "فون براوخيتش" صار بعيداً عن "هتلر" منذ ٥ نوفمبر الماضي.

و عاد خبراء أرصاد "هتلر" للظهور مجدداً في العام الجديد، و قد وعد الطقس الصحو الصفو بفتح المجال لعمل اللوفتافا رغم أن إكتساء غابات "الأردين" بالثلوج - بجانب الجو البارد - يعيق عمل المدرعات ، و مرة أخرى يصدر "هتلر" الكلمة الشفرية آذنة بإنتشار القوات في أماكنها المحددة لبدء الهجوم.

و تهيباً من الموقف أرسلنا للقيادة العليا للجيش مذكرة أخرى في ١٢ يناير معنونة بـ"الهجوم على الغرب"، و عرضنا فيها وجهة نظرنا الهادفة لتحقيق النصر الحاسم، و رغم أنه من المستحيل إدخال أي تغييرات على أوامر العمليات في تلك اللحظة الفاصلة إلا أننا شعرنا بإمكانية أخذ توصياتنا في الإعتبار حتى بعد بدء العملية، و في أي حال تم إلغاء الأمر ببدء الهجوم عدة مرات مما أتاح لنا فرصة إعادة النظر في الخطة بهدف تغييرها جذرياً.

و توجب علينا لتحقيق ذلك إزالة تلك العقبة التي كانت تمنع حتى تاريخه الموافقة على الخطة المقدمة من جانبنا، و لكن أين تكمن هذه العقبة؟ وفقاً لما أخبرتنا إياه *القيادة العليا للجيوش الألمانية* فإنها تكمن في "هتلر" نفسه، و أكدت لنا القيادة مرات عديدة أنه رغم إتفاقها بشكل كبير مع وجهة نظرنا إلا أنه وجدت أوامر صارمة من "هتلر" بعدم نقل ثقل الهجوم إلا بعد بدء العملية، و لكن هل أطلعت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* "هتلر" على خطتنا و التي تختلف جذرياً عن خطتها؟ هل كان من غير الممكن إقناع "هتلر" إن عُرضت عليه خطة تأخذ في إعتبارها أمور لم يكن قادة الجيش متنبهين لها حتى تاريخه و هي إمكانية تحقيق النصر الحاسم في الغرب؟

و لتوضيح ذلك كانت المذكرة المقدمة بصحبتها خطاب من الكولونيل جنرال "فون رندستيدت" ينتهي بالجملة التالية:

"تم إبلاغ مجموعة الجيوش هذه بإحتفاظ الفوهرر و القادة الكبار لأنفسهم بالسيطرة الكاملة على العمليات عبر تشبثهم بحق تقرير أين سيتم تركيز الثقل الرئيسي للهجوم، و أنا أطلب عرض هذه المذكرة على الفوهرر شخصياً"

و هذا الطلب – الذي وقعه "فون رندستيدت" بناء على إقتراح مني – يعد مخالفة لما إستقرت عليه التقاليد العسكرية الألمانية من حيث إقتصار الحق في تقديم التوصيات للقائد الأعلى على القائد العام للجيش أو رئيس هيئة الأركان العامة.

و مع ذلك لو كانت القيادة العامة للجيش متفقة مع وجهة نظرنا فلن يوجد ما يمنعها من عرضها على "هتلر" بمبادرة منها، و سيعطيها هذا فرصة لإقناع "هتلر" بها و منحها سلطة إدارة كل شيءون العمليات التي تتم على الأرض، و لن يوجد من يفرح لحدوث ذلك أكثر مني بإعتباره شيئاً ناضلت كثيراً من أجله مع الكولونيل جنرال "فون فريتش" و الجنرال "بيك" لمنح *القيادة العليا للجيوش الألمانية* هذا الدور أثناء عملي فيها.

و من جهة أخرى لو فشلت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* في الحصول على موافقة "هتلر" على مقترحاتنا سيترتب على ذلك تقوية وضع الكولونيل جنرال "فون رندستيدت" نتيجة لقيامه بتقديم المقترحات و هو الرجل الذي يثق فيه "هتلر" كثيراً.

و ربما سيكون ممكناً حينها إثناء "هتلر" عن فكرته القاضية بنقل ثقل الهجوم أثناء سير العملية، و هذا هو ما إعتبرناه حينها – أو دُفعنا لإعتقاده بواسطة *القيادة العليا للجيوش الألمانية* – العقبة الرئيسية أمام تنفيذ خطتنا على أرض الواقع.

و كان الرد على هذه المذكرة محبطاً، و تضمن خطأنا في إفتراض إقتصار سعي *القيادة العليا للجيوش الألمانية* على تحقيق أهداف محدودة – على إعتبار أن الأهداف الأخرى ستتحقق أثناء تنفيذ العملية، و تم النص على تخصيص قوات إضافية لصالح مجموعة الجيوش "أ" و مركز قيادة جديد و لكن وقت تنفيذ ذلك البند تُرك أمره للقائد العام للجيش، و تم إخبارنا بعدم حدوث أية مناسبة تسمح بعرض المذكرة على "هتلر" و هي التي كان القائد العام للجيش متفقاً معها إلى حد كبير.

و هذا التأكيد على موافقة القائد العام للجيش لم يلفت نظرنا عن عدم رغبته في عرض التعديلات الأساسية التي إقترحناها على خطة العملية على "هتلر".

و على النقيض ظلت أوامر العمليات جبرياً على صورتها السابقة، و كان تحقيق نتيجة معركة بلجيكا من نصيب الهجوم الذي تنفذه مجموعة الجيوش "ب" التي سيتركز عليها ثقل الهجوم الرئيسي على الأقل خلال المراحل الأولية للهجوم.

و ظلت مجموعة الجيوش "أ" مسئولة عن حماية العملية سالفة الذكر، و لم يتم توسيع مهمة بحيث تشمل الزحف على "ألسوم السفلي" و حول مؤخرة العدو التي تهاجمها مجموعة الجيوش "ب" في شمال بلجيكا.

وظل أي نقل للثقل الرئيسي للهجوم الألماني معتمداً على التقدم الذي تحرزه العمليات، و لم يتم إعطاء مجموعة الجيوش "أ" القوات المدرعة التي طلبت أن تكون تحت يدها منذ بداية العملية لو كان الهدف هو تحقيق المفاجأة في جنوب بلجيكا و الإلتفاف حول العدو في مصب نهر "السوم"، و لم تُمنح هذه المجموعة الجيش الإضافي الضروري لتغطية تقدمها و حمايتها من أي هجوم مضاد مفاجئ من العدو.

بمعنى آخر كنا متمسكين بذلك الخطأ المتعذر إصلاحه في المراحل الأولى للإنتشار، لم يرد أولئك المسئولون أن يورطوا أنفسهم في عملية وصفها الجنرال "جودل" في فبراير ١٩٤٠ بأنها طريق ملتوية يمكن لإله الحرب فيها أن يوقع بنا.

و بدون وعي تماماً إتفقت القيادة العليا الألمانية و قيادة الحلفاء على أنه من الأكثر أماناً مهاجمة مقدمة كل منهما في شمال بلجيكا من التورط في أي عملية تتضمن مغامرة: على الجانب الألماني تمثلت في قبول خطة مجموعة الجيوش "أ" و على جانب الحلفاء تمثلت في تجنب أي معركة حاسمة في بلجيكا بهدف توجيه هجوم مضاد قوي للجزء الجنوبي من الهجوم الألماني.

و في تلك الأثناء حدث أمر إعتبره كثيرون العامل الحاسم المسئول عن التعديلات الجذرية التي أدخلت لاحقاً على خطة العملية و وضعتها على الخط الذي تريده مجموعة الجيوش "أ" لها.

حيث قامت سبع فرق مظليين بعملية هبوط إضطراري في بلجيكا و هو ما ترتب عنه وقوع أوراق أوامر العمليات التي تسلمها الأسطول الجوي في اليد البلجيكية، و من ثم جاز إفتراض أن القوى الغربية صارت على علم بخطة العملية.

و لكن سوء الحظ هذا لم يؤد لأي تغيير في خطة العملية رغم أنه زاد من تقبل "هتلر" و *القيادة العليا للجيوش الألمانية*للتوصيات التي قدمتها مجموعة الجيوش "أ" لاحقاً، و قد أظهر مؤتمر إنعقد في ٢٥ يناير في "بادجودسبرج" بين القائد العام للجيش و قادة مجموعتي الجيوش "أ" و "ب" و قادة الجيوش التابعين لهم عدم وجود أي تغيير على الإتجاه الأساسي للقيادة العامة للجيش،و رغم حدوث المؤتمر عقب فترة يسيرة من الحادث المؤسف إلا أن مهمة مجموعتي الجيوش ظلت كما هي، و تم توسيع مهمة مجموعة الجيوش "ب" بحيث تم السماح لجيشها الثامن عشر بإحتلال هولندا كلها و ليس – كما كان مخططاً في الأصل – الأجزاء الواقعة خارج ما يعرف بـ"حصن هولندا"، أما بالنسبة لمجموعة الجيوش "أ" فقد ظل كل شيء على ما هو عليه،و رغم أنه تمت إضافة مقر قيادة جديد إلا أنه ظل – كالفرقة ١٤ مشاة ميكانيكي – تحت سلطة *القيادة العليا للجيش*، و رغم إشارتي إلى أن تقدم الفيلق ١٩ بانزر عبر غابات "الأردين" لن يحقق نجاحاً في بلوغ "سيدان" لأن العدو نشر قوات كبيرة – الجيش الفرنسي الثاني – على نهر "موز" إلا أن "فون براوخيتش" رفض أن يضعه تحت

إمرتنا، و هو ما أظهر إصرار القيادة العليا على عدم نقل ثقل الهجوم الرئيسي حتى يبدأ تنفيذ العملية، كما أثبت أن سقوط أوامر العملية في يد بلجيكا لم يغير أي شيء في تفكير القيادة.

و رغم ذلك أتبعت قيادة مجموعة الجيوش المقترحات آنفة الذكر بمذكرة للقيادة العليا للجيش في ٣٠ يناير إستندت إلى ما جمعته إستخباراتنا عن العدو ذلك الوقت، و ذكرنا توقعنا توجه القوات الفرنسية القوية – خصوصاً الوحدات الميكانيكية – إلى جنوب بلجيكا، و في مثل تلك الظروف لن يكون هناك أمل في تغلب الفيلق ١٩ بانزر وحده على حشود العدو أو حتى يتمكن من عبور النهر.

و تم تدعيم وجهة نظرنا بمحاكاة على منضدة عليها رمل تخيلنا فيها تقدم الفيلق ١٩ بانزر برفقة جيشين من مجموعتنا، و إستنتجنا قدر المشاكل الواضحة التي ينجم عنها إستخدام الفيلق التاسع عشر منعزلاً، و تولد لدي إنطباع أن الكولونيل جنرال "هالدر" – و الذي حضر المحاكاة بصفته مراقب – بدأ أخيراً يتفهم صلاحية وجهة نظرنا.

و حينها دخل مصيري في منعطف مفاجئ، ففي ٢٧ يناير أبلغت أنه تم تعييني قائداً عاماً للفيلق الثامن و الثلاثين و الذي سيكون مقر قيادته في الوطن، و علمت من الكولونيل جنرال "فون رندستيدت" أنه تم إخباره بذلك بواسطة القائد العام للجيش في مؤتمر في ٢٥ يناير، و السبب الذي ذكروه هو أنه بات من غير الممكن تجاوزي فيما يتعلق بتشكيل أي فيالق جديدة، و تم منح الكولونيل جنرال "فون رندستيدت" – الذي يعد رئيسي الأعلى - كذلك فيلقاً، و رغم أنه لا يمكن إعتبار ذلك خروجاً عن المألوف إلا أنه بدا إحداث تغييرات في هيئة أركان مجموعة الجيوش أثناء التحضير لهجوم ضخم غريباً بالنسبة لي، و كانت هناك طرق أخرى لحل مشكلة الرتبة التي نجمت عن ذلك التغيير ، و لا يمكن الشك في أن عملية تغيير منصبي كان سببها رغبة جزء من *القيادة العليا للجيوش الألمانية*في القضاء على مصدر إزعاج يريد وضع خطة للعملية بمحض إرادته.

و في نهاية المحاكاة على المنضدة التي ساعدت الكولونيل جنرال "فون رندستيدت" في إتمامها قام الأخير بتوجيه الشكر لي أمام الجميع بإعتباري رئيس الأركان التابع له، و قد عكست الكلمات التي إنتقاها لذلك كل ما يمكن أن يتصف به قائد من معاني الفروسية و اللياقة، و كان مما أشعرني بالرضا شعور قائدي للجيوش من مجموعتنا و هما

الجنرال "بوزتش" و الجنرال "ليست" بالإضافة للجنرال "جيودريان" ليس فقط بالإمتعاض بل بالفزع بسبب تغيير منصبي.

في ٩ فبراير غادرت "كوبلنز" متوجهاً إلى "ليجنتز".

أما بالنسبة لرفيقيّ الوفيين العقيد "بلومنتريت" و العميد "تريسكو" فقد إستسلما للأمر الواقع و تعاملا مع رحيلي بإعتباره نهاية النضال في سبيل خطة العملية التي وضعناها.

وكا "تريسكو" – في إعتقادي – هو من حث صديقه "شمندت" على منحي فرصة التحدث إلى "هتلر" شخصياً حول الطريقة التي نريد أن يسير عليها الهجوم.

في ١٧ فبراير تم إستدعائي إلى "برلين " لمقابلة "هتلر" و إطلاعه على القادة المعينين على الفيالق مؤخراً، و تبع المقابلة تناول الغداء الذي ما إنفك "هتلر" عن الحديث فيه كالمعتاد، و أظهر معرفة بارعة بالإبتكارات التقنية في دول الأعداء كتلك التي في الوطن تماماً، و تم تقديم تقارير عن هجوم مدمرة بريطانية على السفينة "ألتمارك" في المياه الإقليمية النرويجية مما جعله يفكر بعمق في عدم قدرة تلك الدول الصغيرة على حماية حياديتها.

وبينما هممنا بالمغادرة بعد إنهاء تناول وجبة الغداء إستدعاني "هتلر" لمكتبه و طلب مني أن أطلعه على وجهة نظري حول الهجوم على الغرب، و لم أعرف بوضوح هل أبلغه "شمندت" بخطة العملية التي وضعناها بتفاصيلها من عدمه، و في أي حال إكتشفت أنه تفهم النقاط التي أشارت إليها مجموعة الجيوش التابعة لنا منذ شهور خلت، و وافق كلية على كل ما قلته له.

و فور إنهاء لقائي معه أرسلت خطاباً موجزاً لمجموعة الجيوش "أ" نصه :

"عندما كنتفي لقاء مع الفوهرر بإعتباري القائد العام للفيلق ٣٨ في ١٧ فبراير ١٩٤٠ حظى رئيس هيئة الأركان السابق لمجموعة الجيوش بفرصة عرض وجهة نظر مجموعة الجيوش حول سير العملية في الغرب عليه، و جوهر ما عرضه تمثل في الآتي:

١. يجب أن يكون هدف العملية هو تحقيق النصر الحاسم على الأرض، فمخاطر وضع خطة العملية الحالية لأهداف محدودة للعملية – تدمير أكبر قدر ممكن لقوات

العدو في بلجيكا و إحتلال الساحل الشمالي لفرنسا - عالية جداً من الناحيتين السياسية و العسكرية، يجب أن يكون الهدف هو تحقيق النصر الحاسم.

يجب أن يتم توجيه العملية نحو إحراز النصر الحاسم في فرنسا و تدمير المقاومة الفرنسية.

٢. و يتطلب ذلك تركيز الثقل الأساسي للهجوم و منذ البداية في مجموعة الجيوش "أ" على الجناح الجنوبي – على خلاف الخطة الأصلية – لا المجموعة "ب"، فوفقاً للخطة الأصلية يمكن الهجوم على القوات الأنجلو-فرنسية من الأمام عند تقدمهم في بلجيكا و إجبارهم على التقهقر إلى نهر "السوم" و هو ما قد يعطي نتائج مقبولة إلى حد ما.

أما إن تم نقل الثقل الأساسي للهجوم لمجموعة الجيوش "أ" في الجنوب – و التي مهمتها ستكون التقدو عبر جنوب بلجيكا عبر نهر "موز" بإتجاه "السوم السفلي" – سيتم حصار قوات العدو القوية في شمال بلجيكا بعد أن تهاجمها من الأمام مجموعة الجيوش "ب" و يسهل تدميرها، و يمكن تحقيق ذلك فقط إن تمكنت مجموعة الجيوش "أ" التقدم بسلاسة بإتجاه "السوم السفلي"، و يجب أن يكون ذلك أول مرحلة من الحملة، و ستكون المرحلة الثانية هي تطويق الجيش الفرنسي بأكمله بخُطاف قوي من جهة اليمين.

٣. لتحقيق هذه المهمة يجب أن تحتوي مجموعة الجيوش "أ" على ثلاثة جيوش بالإضافة لجيش رابع يجب أن يتموضع على الجزء الشمالي لها.

و تكون مهمة الجيش الشمالي " الثاني" لمجموعة الجيوش هي عبور نهر "موز" إلى "السوم السفلي" لإعتراض قوات العدو المنسحبة من أمام مجموعة الجيوش "ب"، و يجب أن يتقدم جيش آخر – وهو الجيش الثاني عشر - من الجنوب عبر نهر "موز" على جانبي منطقة "سيدان" و يزحف في إتجاه الجنوب الغربي بهدف إحباط أي محاولة فرنسية للتموضع و تجهيز قواتها لهجوم مضاد غرب نهر "موز".

أما ثالث الجيوش – و هو السادس عشر – فسوف يقوم بالمهمة الدفاعية الأساسية المتمثلة في تغطية الجزء الجنوبي للعملية بين نهري "موز" و "موسل".

و من الأساسي قيام اللوفتافا بتدمير حشود القوات الفرنسية في وقت مبكر من العملية لأنه لو قام الفرنسين بأي محاولة لفعل شيء فستتثمل في القيام بهجوم مضاد واسع النطاق غرب نهر "موز" أو على جانبيه، و قد يتوسع هذا الهجوم المضاد و ينتد حتى نهر "موسل".

٤. لن يحقق إرسال الفيلق ١٩ بانزر منفرداً إلى نهر "موز" في منطقة "سيدان" غرضه كاملاً، فلو قدم العدو للقائنا بقوات ميكانيكية قوية في جنوب بلجيكا سيكون الفيلق ضعيفاً جداً أمامه و لن ينجح في تدميره قواته و الوصول لخط "موز"، و مثل ذلك إن أقنع العدو نفسه بالتمسك بنهر "موز" بالقوات القوية التي يمتلكها حينها فلن يتمكن الفيلق من عبور النهر وحيداً.

لو قادت التقدم وحدات ميكانيكية – على الأقل يجب أن يعبر فيلقان نهر "موز" بشكل متزامن في "سيدان" و "شالرفي" – مستقلة عن القوات المدرعة المتوجهة إلى "موز" ضمن الجيش الرابع فيتوجب وضع الفيلق الرابع عشر بجانب فيلق "جيودريان" منذ البداية، و لن يثور هناك أي تساؤل حول قيام مجموعة الجيوش "أ" أو "ب" بإستخدامه في أي تطورات مستقبلية.

و قد أبدى الفوهرر موافقته على الأفكار المعروضة سالفاً، و تم إصدار أوامر العمليات الجديدة بعد ذلك بوقت قصير"

و لسوء الحظ لم يمكنني الإطلاع بعدها على أوامر العمليات النهائية، كل ما أعلمه هو أنها صدرت بأوامر من "هتلر" في ٢٠ فبراير.

و هي قد أرضتني في مجملها بإعتبارها حققت ما طالما ناضلت لأجله، فقد وفرت:

١. فيلقي بانزر – التاسع عشر بقيادة "جيودريان" و الرابع عشر بقيادة "فون فيترشيم" – لقيادة التقدم عبر نهر "موز" بين "شالرفي" و "سيدان"، و تم توحيدهما تحت قيادة مجموعة بانزر الجديدة المنعقدة للجنرال "فون كليست".

٢. التخصيص النهائي لقيادة الجيش الثاني و جعلها من نصيب مجموعة الجيوش "أ" بدلا من المجموعة "ب" و منحها القوات المطلوبة، و سيكون ممكناً الآن وضع هذا الجيش في المساحة الشاغرة بين حدود مجموعة الجيوش و الجيش السادس عشر الذي زحف جنوباً.

٣.	وضع الجيش الرابع تحت قيادة مجموعة الجيوش "أ" بدلاً من المجموعة "ب" بهدف منحها قدرة المناورة اللازمة لتقدمها حتى نهر "السوم السفلي"، و كانت مجموعة الجيوش "أ" قد طالبت مراراً على الأقل بالفيالق الجنوبية من هذا الجيش بهدف توسيع حدود تقدمها، و قد أخطأ "جرينر" في تحديد الوقت الذي تم هذا التغيير فيه في نوفمبر، بل تم تنفيذه فقط عند لإصدار أوامر العمليات الجديدة.

و بهذه التعليمات الجديدة تكون *القيادة العليا للجيوش الألمانية*قد أقرت بشكل كامل وجهة نظر مجموعة الجيوش، و تم نقل الثقل الرئيسي للهجوم بأكمله للجناح الجنوبي على أوسع نطاق تتيحه الأرض لنا شمال خط "ماجينو" و شبكة الطرق الموجودة هناك، و في نفس الوقت ظلت مجموعة الجيوش "ب" قوية كفاية – قوامها ثلاثة جيوش – لتنفيذ مهمتها شمال بلجيكا و هولندا بنجاح ساحق.

و صارت مجموعة الجيوش "أ" قادرة على مفاجأة العدو بالهجوم عبر غابة "الأردين" و عبر نهر "موز" وصولاً إلى "السوم السفلي"، و بالتالي يمكنها منع قوات العدو في بلجيكا من الإنسحاب خلف النهر، و سيصير ممكناً التعامل بكفاءة مع أي هجوم مضاد على الجزء الجنوبي من الهجوم الألماني.

و فيما يتعلق بتنفيذ الهجوم الألماني في مايو ١٩٤٠ أود أن أقول:

أحرز هجوم مجموعة الجيوش "ب" بنجاح أكثر مما هو متوقع بفضل تفوق القوات الألمانية – خصوصاً الوحدات المدرعة – بالنظر لقوة التحصينات البلجيكية و حقيقة إضطرارها للهجوم من الأمام.

و بصرف النظر عن ذلك يكمن السبب الحاسم في هزيمة الحلفاء في شمال بلجيكا في الهجوم المفاجئ خلال غابة "الأردين" عبر نهر "موز" وصولاً إلى مصب نهر "السوم " إنتهاء بالموانئ المطلة على القنال الإنجليزي، و أشعر أن هذا النجاح يرجع إلى – إضافة للقيادة النشيطة للكولونيل جنرال "فون رندستيدت" – للموهبة الخارقة للجنرال "جيودريان" التي طبقت مبادئ مجموعة الجيوش على أرض الواقع.

لكن النصر في شمال بلجيكا لم يكن كاملاً على نحو ما قد يبدو عليه فقد أعلن "تشرشل" نجاحهم في إجلاء ٣٣٨٢٢٦ جندي – منهم ٢٧١٧٦ فرنسيين – من ميناء "دانكيرك" رغم أنهم فقدوا كل معداتهم الثقيلة في تلك العملية، و هذا الإجلاء الناجح يرجع أساساً

إلى تدخل "هتلر" الذي أوقف مرتين تقدم مدرعاتنا – مرة أثناء تقدمها نحو الشاطئ و مرة ثانية حول "دانكيرك".

و أعطيت ثلاثة أسباب للقرار الأخير الذي فتح جسراً ذهبياً أمام الجيش البريطاني لعبور القنال: **الأول** هو أن "هتلر" أراد حماية المدرعات الألمانية في الجزء الثاني من الحملة على فرنسا لأن "كايتل" أخبره بعدم صلاحية التربة حول "دانكيرك" للدبابات، **الثاني** المقترح هو أن "جورينج" أخبره بقدرة اللوفتافا على إحباط أي محاولة للهرب من "دانكيرك"، و في سبيل تدعيم وجهة نظره أعطى "جورينج" بعض التصريحات التي حمت وجاهته و مظهره، و كلاً من السببين السابقين خطأ من الوجهة العسكرية.

أما **السبب الثالث** هو أن "هتلر" – وفقاً لما ورد عن محادثاته مع "فون رندستيدت" – تعمد السماح للبريطانيين بالهرب إعتقاداً منه أن ذلك سييسر التفاوض مع بريطانيا.

و أيما كانت الإجابة فقد كانت "دانكيرك" إحدى أكبر أخطاء "هتلر" العسكرية، فقد أحبطت محاولته غزو بريطانيا و سمحت للأخيرة بالتالي للقتال في أفريقيا و إيطاليا.

و بينما رضي "هتلر" بفكرة مجموعة الجيوش "أ" حول محتصرة العدو شمال بلجيكا بهجوم عبر غابة "الأردين" وصولاً إلى البحر و هو الأمر الذي إنتهى على أبواب "دانكيرك" إلا أنه لم يتقبل كلية فكرة خلق نقطة إنطلاق للمرحلة التالية بشكل متزامن، و كانت القيادة الألمانية مهتمة بتغطية تقدم وحدات مجموعة الجيوش "أ" الميكانيكية إلى البحر و حمايتها من أي هجوم مضاد على أي جانب من نهر "موز" بواسطة إقتطاع الفرق التي تحقق نجاحاً تماماً كما تنفرط حبات العقد بهدف حماية الجزء الجنوبي المهدد، و كان واضحاً الخطر الكبير الذي يتجسد في فكرة أن أي هجوم مضاد من العدو يجب وقفه بالهجوم الفوري بإتجاه الجنوب الغربي لنهر "موز" و تمزيق جبهة العدو بين نهري "موز" و "أويز".

و كما سيتجلى لاحقاً إثناء الحملة الروسية كانت لدى "هتلر" موهبة فطرية في التعاطي مع المشاكل الميدانية لكنه كان ينقصه التدريب اللازم للقائد العسكري الذي يتيح للأخير تقبل المخاطر الكبيرة التي قد تعرض أثناء تنفيذ العملية لأنه يعلم أن بمقدوره السيطرة عليها، و في هذه الحالة فضّل "هتلر" الحل الدفاعي الأكثر أماناً عن الحل الشاق الذي قدمته مجموعة الجيوش "أ"، و كان من حسن طالعه أن قيادة العدو لم تأمر بشن أي هجوم مضاد ضخم رغم أن الأخيرة كان يمكنها جمع ٥٠ فرقة على نهر "موز" لتحقيق

هذا الغرض و إن عنى ذلك التخلي مؤقتاً عن كل شيء يقع خارج المنطقة المحصنة في بلجيكا و هولندا.

و بعد إكتمال المرحلة الأولى من الهجوم الألماني وجد الخصمان أنفسهما متواجهين على جبهة طويلة ممتدة من خط "ماجينو" إلى "كارينان" و على طول نهري "أن" و "السوم السفلي"، و كانت مهمة الألمان الأساسية هي إختراق هذه الجبهة مجدداً، و المرحلة الثانية من الهجوم الألماني قادت في نهاية المطاف لإخضاع العدو بشكل تام و يرجع ذلك إلى عجزه الناجم عن خسائره في شمال بلجيكا خاصة بالنظر إلى جبهته الممتدة من الحدود السويسرية حتى البحر، و سبب آخر يكمن في الإنحدار الفعلي للروح المعنوية للجيش الفرنسي – لأسباب أخرى غير عدم قيام العدو بأي شيء حيال جودة المدرعات الألمانية، و لو كان القائد العام لقوات الحلفاء تصرف على النحو الذي ظنت قيادة مجموعة الجيوش "أ" أنه سيسير عليه لكان أطلق هجوماً ضخماً على جانبي نهر "موز"، و كان هذا الهجوم سيتحطم – وفقاً لخطة مجموعة الجيوش "أ" – و هو في مرحلة تجميع القوات، و لو تقدمت مجموعة الجيوش "ب" – بعد تطويق العدو في شمال بلجيكا بشكل متزامن – عبر نهر "السوم السفلي" لتطويق فلول قوات العدو لكنا خضنا معركة نهائية خلف خط "ماجينو" بقوات إحتياطية فقط.

و بالنظر لحقيقة إحرازنا للنصر الساحق في مسرح العمليات الفرنسي – بإستثناء نجاح الهروب البريطاني من "دانكيرك" – قد تبدو الملاحظات آنفة البيان غير ضرورية، و ربما قد تكمن أهميتها الوحيدة في إظهار أن - حتى لو أبدى العدو حماساً أكبر و تقديراً أفضل للأمور- الخطة الجديدة كانت كفيلة بإحراز النصر في الحملة و لو نظرنا للحظات الفارقة التي مررنا بها المرحلة الأولى بين نهري "موز" و "موسل".

٦

القائد العام للفيلق الثامن و الثلاثين

المتفرج

كان الدور الذي لعبته في الهجوم على الغرب غير مهم لدرجة أتحمل معها عدم ذكره في هذه المذكرات، و السبب الوحيد لذكره هو إبداء الثناء و العرفان للشجاعة و الإنجازات الإشتثنائية التي حققتها القوات التي عملت تحت إمرتي ذلك الوقت، و سبب آخر هو أن عمليات الفيلق الثامن و الثلاثين التي أعقبت نجاح الإختراق الألماني عند نهر "السوم" ستفيد في توضيح المطاردة التي إستمرت عند نهر "السين" و جنوباً حتى "اللوار" و عدم منح أي لحظة للعدو يلتقط فيها أنفاسه حتى إنهار نهائياً.

و خلال الأشهر التي إستمر الآخرون في العمل فيها وفقاً للأفكار التي ناضلت من أجلها كانت مهمتى المتواضعة هي مراقبة تجمع قيادة فيلقي و أفواج الإشارة الملحقة به في "ستيتن"[١]، و من وقت لآخر تسلمت تعليمات للتحري عن الفرق الجديدة أثناء عملية إنشاء معسكرات لها في "بوميرانيا" و "بوزنان".

في ١٠ مايو ١٩٤٠ علمت ببدء الهجوم الألماني على الغرب من خلال الراديو في "ليجنتز" و التي غادرت إليها في إجازة قصيرة، و تعلقت كل أمنياتي خلال الأيام القليلة التي تلت ذلك بقواتنا التي تتقدم في غابة "الأردين"، هل ستنجح في عبور لوكسمبرج و إختراق الدفاعات البلجيكية على الضفة الأخرى من نهر "الباستون" قبل إقتراب القوات الفرنسية القوية من المنطقة؟ هل سيكون ممكناً الحفاظ على زخم و نشاط المدرعات لدى عبورها نهر "موز" و بلوغها "سيدان" و إنشاء قاعدة لعملية تطويف الجناح الشمالي للعدو؟

و القارئ سيقدر بالتأكيد عدم شعوري بالعرفان تجاه الشخص الذي أعادني إلى ألمانيا في اللحظة الحاسمة التي صارت فيها الخطة التي ناضلت من اجلها محل تنفيذ في الغرب.

---

[١] ستيتن : مدينة بولندية.

في مساء ١٠ مايو وصلني أمر نقل قيادة الفيلق ٣٨ إلى "برونزويك" ، و بعدها إنتقلنا إلى "دوسلدرف" حيث تم ضمنا لمجموعة الجيوش "ب"، و للأيام القليلة التالية لم يكن لدي ما أفعله سوى التركيز على التحري عن المواقع البلجيكية القوية التي سقطت في الهجوم الأول على نهر "موز" عند "ماستريتش" و على طول قناة "ألبرت" – مثل الحصن المنيع في "إبين-إميل"- و التي سقطت بفعل الهجوم المفاجئ عليها و ظلت تحت نيران المدافع البلجيكية ، كما قمت بزيارة مجموعة الجيوش "ب" و الجيش السادس لأطّلع على تقدم العمليات، و أدركت أنهم مازالوا لا يملكون صورة واضحة عما قد يقدم عليه العدو، و لا حتى *القيادة العليا للجيوش الألمانية*تمتلك هذه الصورة التي تتكتم على نواياها المستقبلية و أقنعت نفسها بتوسيع المسافة بين مجموعتي الجيوش بشكل أكبر في إتجاه الشمال الغربي.

في ١٦ مايو وُضعت قيادتنا تحت إمرة مجموعة الجيوش "أ" ، وفي اليوم التالي أرسلت إلى قائدي السابق "فون رندستيدت" في منطقة نهر "الباستون"، و قد رحب بي بشدة هو و خليفتي في المنصب الجنرال "فون سودنسترن" و بقية زملائي القدامى، و علمت أخيراً حينها كيف تسير العمليات في غابة "الأردين" و نهر "موز"، و كان على فيلقي أن يتجاوز الجيش الثاني عشر – و القادر على قيادة التقدم غرباً بإتجاه نهر "السوم السفلي" – و حيث يتمكن الجيش الثاني من التموضع بين الجيشين الثاني عشر و السادس عشر بحيث تكون جبهته مواجهة للجنوب الغربي.

و فور وصولي لمقر القيادة واجهت تدخلاً من "هتلر" في سير العمليات العسكرية، و قد أصدرت *القيادة العليا للجيوش الألمانية*– عملاً بتعليمات "هتلر" – أمراً لمجموعة بانزر التي يقودها "كليست" بألا توغل لأبعد من نهر "أويز" للوقت الراهن و أنه يتوجب على على الجيش الثاني عشر أن يتقدم بإتجاه الجنوب الغربي و يأخذ وضعاً دفاعياً هناك، أما الجيش الثاني فيتوجب عليه الآن التموضع بين الجيشين الرابع و الثاني عشر و يتهيأ للتحرك غرباً فيما بعد، و السبب الذي مُنح لنا تمثل في رغبة الفوهرر في تجنب أي تراجع ألماني مهما كانت التكلفة – و لو مؤقتاً – و الذي قد يرفع من المعنويات المنهارة للجموع الفرنسية، و قد خشي "هتلر" من أن مثل هذا التراجع قد يحدث إن إستمر الجيش الثاني عشر في تقدمه غرباً تجاه "السوم السفلي" فيوقع به هجوم مضاد فرنسي على جناحه في غرب نهر "موز" من جهة الجنوب.

بمعنى آخر بدأت المصالح الإعلامية لرجل السياسة تطغى على وظيفة القائد الأعلى، فمن جهة كان واضحاً أن وقف مجموعة بانزر "كليست" عند نهر "أويز" حملت مخاطرة بفقد فرصة تدمير قوات العدو شمال بلجيكا و التي كان مفترضاً أن تهاجمها مجموعة البانزر من الخلف، و من جهة أخرى فإن الأمر الصادر للجيش الثاني عشر بإتخاذ الوضع الدفاعي في الجبهة المواجهة للجنوب الغربي عنى التخلي عن المبادرة في المنطقة ما بين نهري "موز" و "أويز"، و لما حدث ذلك لم يكن هناك سبب معقول لتوقع هجوم مضاد واسع النطاق في هذا القطاع، و كان العدو سيحتاج أسبوعاً آخر لتحضير القوات اللازمة للهجوم المضاد وفق ما رأته مجموعة الجيوش "أ" إن كانت لدى العدو أصلاً خطة لذلك، الأمر برمته يتجسد في وجود مقترح أساسي تم تقديمه بشكل متكرر للقيادة العليا للجيش بواسطة مجموعة الجيوش خلال الشتاء يتضمن وجوب أيجاد حل هجومي آمن يضمن حماية الجزء الجنوبي من التقدم تجاه نهر "السوم السفلي".

و بدا واضحاً الآن أن "هتلر" – رغم عدم جرأته على تحمل مخاطر مؤقتة بخصوص الجزء الجنوبي من الهجوم الألماني – كان يطالب بحقه في ممارسة السيطرة التامة على عمليات الجيش بتفاصيلها.

و الحقيقة المتجلية في قدرته في تلك اللحظة الفارقة توقع حدوث التراجع المؤقت للألمان بسبب أي مستجدات تحدث على الأرض ترجع إلى فشل القيادة للجيش في موضعة الجيش الثاني على الجبهة في أقرب وقت عقب عبور القوات الألمانية لنهر "موز" برغم نصيحة مجموعة الجيوش المبكرة لها، و كان يمكنها موضعته إما بين الجيشين الرابع و الثاني عشر لتنفيذ عملية الزحف تجاه "السوم السفلي" أو بين الجيشين الثاني عشر و السادس عشر في سبيل تقدم الهجوم في إتجاه الجنوب الغربي بين نهري "موز" و "أويز"، و لا يمكن أن يكون سبب ذلك السهو هو عدم وجود مساحة كافية على الجبهة الأمامية للفرق القادمة فيما بعد بإعتبار أن الشيء المهم الآن هو إيجاد مقر قيادة للجيش على خط التشعب الذي يجب أن يتم الآن إلى في إتجاهات الهجوم المختلفة، و سيتم خلق مساحات للفرق الجديدة في وقت لاحق عندما تتوسع منطقة العمليات.

و هذا المثال يخدم فقط في إظهار فكرة إستحالة تنفيذ أي خطة عمليات بالشكل الذي يريده واضعوها تماماً، حتى عند عدم وجود أي أساس مقنع يمكن الإستناد عليه.

و لم يخل تدخل "هتلر" بسير العمليات في هذه المناسبة على عكس ما حدث عندما أمر بتوقف مجموعة بانزر "كليست" قرب "دانكيرك" ، و مكّن الدور الدفاعي الذي أمر به الجيش الثاني عشر العدو من بناء جبهة جديدة يتوجب سحقها في المرحلة الثانية من الحملة على نهر "أن" و هو ما سيكون عالي التكلفة، و تمت التضحية عبثاً بفرصة تدمير الدفاعات الفرنسية المتماسكة على هذه الجبهة الممتدة بحركة هجومية، و كانت هذه النقطة - بالإضافة إلى تطويق الجناح الشمالي للعدو – حجر زاوية من مقترحاتنا الميدانية المقدمة للقيادة العليا للجيش المتعلقة بالمرحلة الثانية التي لا مفر منها للهجوم الألماني.

و في تلك الأثناء تحرك مقر قيادتنا بعيداً نحو المدينة اللوكسمبرجية الخلابة المسماة "كليرف"، و في هذه المرحلة لم نعد مجرد متفرجين بل صرنا مسئولين عن عدد من الفرق في مؤخرة الجيش الثاني، كانت هذه المهمة غير محفزة إلى حد ما خاصة مع تحقق الهزيمة الساحقة لجناح العدو الشمالي.

و في ذلك الوقت بلغتني أخبار عن فقد صهري "إيجبرت فون لوزتش" قائد سرية طائرات قاذفة قرب "بروكسل"، و كان "إيجبرت" قد عاش معنا لسنوات في "دريسدن" أيام دراسته و هو الأخ الأصغر لزوجتي ، و كان الأخ المفضل لزوجتي و كان في مكانة الإبن لدينا، و تعيش زوجته الصغيرة معنا في "ليجنتز"، و عانت هي و أمها و زوجتي معهما من القلق لأسابيع بسبب عدم ورود أية أنباء عن مصير طائرة "إيجبرت" و طاقمها، و الشيء الوحيد المعروف هو أنها تحطمت أثناء توجهها للهجوم ضمن سريتها، و لم أتمكن حتى نهاية الحملة على فرنسا من القيام بالتحقيق المناسب، و بعد جهد مضني تم تحديد مكان حطام الطائرة في محيط "بروكسل"، و كشفت التحقيقات مع أهل هذه المنطقة عن تلقي الطائرة ضربة مباشرة من المدافع المضادة للطائرات هوت على إثرها فوراً إلى الأرض، و حاول فردان من طاقم الطائرة الهرب لكن لقيا مصرعهما على يد القوات البلجيكية : أحدهما أثناء هبوطه بمظلة في الجو و الآخر بعد أن حطّ سالماً على الأرض، أما عن صهري فقد مات في الطائرة برفقة رجل آخر.

في ٢٥ مايو تلقت قيادتنا أوامر لتولي أمور الفيلق ١٤ بانزر و الذي تركه الجنرال "كليست" خلفه ليحمي مؤخرة قواته عند نهر "السوم السفلي" في قطاع "أبفيل-أمينز" و تشكل من الفرقة ٩ بانزر و الفرقة الثانية مشاة ميكانيكي ، و نفذما الأمر في ٢٧ مايو.

و حتى هذه المرحلة لم تكن هناك جبهة متماسكة عند "السوم السفلي"، و كانت الفرقة الثانية التابعة للفيلق الرابع عشر مشاة ميكانيكي تسيطر على رأس كوبري حول "أبفيل" على الضفة اليسرى من النهر، و ذات المهمة كانت من نصيب الفرقة ٩ بانزر و لكن في "أمينز"، و ظلت الأرض بالتالي تحت مراقبتنا بكل بساطة.

و صار العدو عاجزاً عن جلب قوات كافية لتشكيل جبهة جديدة على طول نهر "السوم السفلي"، و واجهت قواتنا في رأس الكوبري في "أمينز" فرقة فرنسية و بعض القوات البريطانية، أما رأس الكوبري في "أبفيل" فقد واجهته فرقة بريطانية.

و كانت مهمتنا هي التمسك برؤوس الكباري في المنطقتين، و تم إرسال الفرقة ٩ بانزر و الثانية مشاة ميكانيكي إلى "أبفيل" للتمسك بشمال نهر "السوم"، و عُقيب ذلك أرسلت الفرقتان إلى ساحل القنال الإنجليزي للمشاركة في المعارك الدائرة هناك.

و قد أخبرني الجنرال "فون ويترهيم" قائد الفيلق الرابع عشر بانزر أنه لم يتوقع أي نشاط معادي واسع النقاط، و بعد قوله ذلك بساعة وردت أخبار من رأسي الكباري بتعرضهما للهجوم بقوة، و تحدثت عن ظهور قوات للعد في المنطقتين، و مع ذلك تم دحر الهجومين بحلول الظهيرة تدمرت فيهما ٣٠ مدرعة بريطانية في "أبفيل" و العديد من الدبابات الفرنسية الثقيلة في "أمينز"، تسع من المدرعات البريطانية دمرها مدفعجي يسمى "برنجفورث" بضربة واحدة ، و هو أول مجند طلبت منحه وسام صليب الفارس.

و قد إعتبرت تلك الهجمات دليلاً واضحاً على إما أن العدو يأمل في إرسال قوات من نهر "السوم" للجناح الشمالي من قواته الذي يتعرض للضغط أو لتشكيل جبهة جديدة في منطقة نهر "السوم السفلي"، و هو ما أثار في مواجهتنا نفس المشكلة التي تحدثت عنها سابقاً بخصوص أوامر "هتلر" الصادرة للجيش الثاني عشر، هل يتوجب علينا أن نظل في نفس الوضع الدفاعي في "السوم السفلي" أو علينا أن نتولى المبادأة بالهجوم ؟

و كان الوضع الدفاعي الذي أمر به الفيلق ١٤ بانزر سيسمح للعدو بلا شك في تشكيل خط دفاعي جديد و قوي على طول نهر "السوم السفلي"، و كان مما يثير حيرتنا هل سنكون قادرين على التمسك بـ"أمينز" و "أبفيل" عندما يجب العدو قواته الجدية أم لا؟ و لم تكن الفرقتان الميكانيكيتان اللذان تركناهما كإحتياط في شمال نهر "السوم" مناسبتان لأي معركة على رؤوس الكباري لأنه لا يمكن دفعهما لتقوية دفاعات رؤوس الكباري

كما لا يمكن إستخدامهما في هجوم مضاد عندما ينجح العدو في السيطرة على رؤوس الكباري و يدمر الفرق الألمانية المتواجدة فيها و يعبر نهر "السوم".

و النتيجة التي أستخلصها مما علا - و قدمتها مرات عدة للكولونيل جنرال "فون كلوج" قائد الجيش الرابع الذي نتبعه - هي أنه يتوجب علينا أن نستخدم كلا الفرقتين الميكانيكيتين لتحقيق المفاجأة المتمثلة في عبور النهر بين رأسي الكباري و توجيه هجمات على أطراف قوات العدو، و فكرت في القتال بإستخدام المركبات جنوب النهر حتى تنتهي المعركة في شمال بلجيكا و يتمكن الجناح الألماني الشمالي من التقدم عبر نهر "السوم"، و يتوجب أن نستهدف منع قيام العدو ببناء أي جبهة جديدة،صحيح أنه لا يمكن إنكار أن تورط الفيلق في القتال وحيداً جنوب النهر سيؤدي إلى موقف صعب، لكن كانت تلك مخاطرة علينا قبولها – في سبيل تحقيق المصلحة الإستراتجية – إن أردنا تجنب الحل العسير المتمثل في الهجوم على جبهة نهر "السوم" التي يتملك العدو الوقت الكافي لتجهيزها و تعزيزها.

و لسوء الحظ لم يهتم قائد الجيش الرابع بمقترحاتنا المقدمة له مراراً و تكراراً و لم يستخدم الفرق الموجودة في الخطوط الخفية لنا و التي كانت جاهزة لعبور النهر، و لا أعلم ما إن كان ذلك بقرار شخصي منه أو بناء على تعليمات من *القيادة العليا للجيش*، و كنتيجة لذلك لم يكن لدينا خيار سوى الدفاع عن رؤوس الكباري بينما تُرك العدو في موقف يمكنه من بناء جبهة ممتدة على طول النهر بين رؤوس الكباري، و الحقيقة التي يعرفها البشر عادة هي إما الدفاع عن النهر من الخلف أو المحافظة على السيطرة عليه بإستخدام رؤوس الكباري، أما فكرة إقتحام النهر باللجوء إلى قتال بالمركبات من الأمام فلم تُذكر يوماً في الكتب.

و للأيام القليلة التالية ركز العدو هجماته على رأسي الكباري ، و ظل الموقف حول "أمينز" مضطرباً لفترة، و قد اقنعني قيام بعض الوحدات بجولة هناك بأن الأمور تسير على ما يرام، و لعب الفوج ١١٦ مشاة دوراً بارزاً في العملية الدفاعية وبعد ذلك قاد الفوج الثالث تلك العملية بقيادة رفيقي القديم الجنرال "هيرلين".

و على النقيض إتخذت الأمور في "أبفيل" منحى خطيراً في ٢٩ مايو، فقد تولت الفرقة ٥٧ مشاة – ذات الخبرة القليلة عن القتال –الأمر هناك بدلاً من الفرقة الثانية مشاة ميكانيكي، و بعد وصولها بفترة وجيزة شن العدو هجوماً مدعوماً بقوات مدرعة

بريطانية قوية على عدة مواقع ألمانية و نجحت في إختراقها مسببة خسائر ضخمة من حيث القتلى و الجرحى و كذلك الأسرى – كما تجلى لاحقاً ، و خرجت بنفسي من منطقة "أبفيل" للإلتقاء بكتيبة ألمانية - يبدو تقريباً أنها أساءت فهم الأوامر الموجهة إليها – قامت بإخلاء مواقعها و تزحف عائدة عبر المدينة، فقمت بردها إلى مسارها الصحيح، و في وقت قريب صارت الفرقة هي المتحكمة في الموقف.

و لما أذن لنا الكولونيل جنرال "فون كلوج" في الخروج من رأسي الكباري إلا أنه رفض طلبنا السماح لنا في عبور النهر من جانبي "أبفيل" و الهجوم على قوات العدو بحركة كماشة، لكن كانت رغبة القيادة في تجنب أي خطر و لو ضئيل واضحة حتى تنتهي المعركة في شمال بلجيكا و يتم نشر القوات بناء على أوامر رسمية ضد الجبهة الجديدة التي يقوم العدو بتشيكلها.

و العدو سيقوم بالإستفادة من هذا التدخل في جلب إحتياطاته و إنشاء جبهة جديدة تمتد من خط "ماجينو" في منطقة "كاريnan" في منطقة منبع نهر "السوم"، و فجأة تخلى "هتلر" عن المبادرة في المنطقة بين نهري "موز" و "أويز" بما مكن العدو من تشكيل جبهته على نهر "آن"، و بذا تم التخلي عن كل محاولات إسترجاع المبادرة جنوب نهر "السوم".

الزحف الإنقضاضي على "اللوار":

بينما إنحصر في قدري في المرحلة الأولى من الحملة في كوني مجرد متفرج إلا أن المرحلة الثانية منها سمحت لي بلعب دوري كاملاً كقائد لتشكيل رئيسي.

لم تثمر محاولاتنا لإقناع قادتنا بأن يسمحوا لنا بعبور نهر "السوم" قبل أن يتمكن العدو من تنظيم جبهة متماسكة له هناك عن أي نتائج مثمرة، و كُرست الأيام الأولى من شهر يونيه للتحضير للهجوم الذي سينفذه الجيش الرابع في الخامس من يونيه.

القطاع على جانبي "أبفيل" تولى أمره الفيلق الثاني – يقوده الجنرال "كونت بوكدروف" – و تم نشر الفيلق ١٥ بانزر – يقوده الجنرال "هوث" - في "أيلي" بينه و بين الفيلق

الثامن و الثلاثين، و تولى الفيلق ١٤ بانزر أمر رأس الكوبري في "أمينز" بدلاً من الفيلق التاسع، و وضع تحت إمرة الجيش القريب منه، و تُرك الفيلق الثامن و الثلاثين ليتولى قطاع عرضه ٣٠ ميل على جانبي "بكوينجي"، و كان لديه فرقتان من أجل الهجوم هما الفرقة ٤٦ مشاة السوديتية[١] بقيادة الميجور جنرال "فون هاس" على الميمنة و الفرقة ٢٧ السوابية[٢] بقيادة اللفتنانت جنرال "بيرجمان" على الميسرة، و تم وضع الفرقة السادسة الوستفالية[٣] - يقودها الميجور جنرال "فون بيجليبن" ضمن الإحتياط و كان عليها إتمام عملية الإختراق فور عبور القوات الرئيسية للنهر.

(من بين أولئك الجنرالات الأكفاء تم إعدام الجنرال "فون هاس" على خلفية محاولة إغتيال "هتلر" في ٢٠ يوليه ١٩٤٤ ، و قُتل الجنرال "بيرجمان" في الشرق، و مات الجنرال "فون بيجليبن" إبان الحرب)

و مالت أرض المعركة ضدنا في إتجاه نهر "السوم" حيث خلت تماماً من الغابات التي توفر لنا الغطاء الفعال، و كانت الضفة الجنوبية مرتفعة بشكل حاد مما منح العدو موقعاً مرتفعاً يزيد من قوته الدفاعية، و مع ذلك كانت حواف المياه في وادي النهر على ضفتيه المتقابلتين عاجّة بالحشائش، و تواجدت بعض القرى على الضفة الجنوبية من النهر – خلال الوادي – نذكر منها "بريلي" و "أيلي" و "بيكوينجي"، و قد بدا أن العدو تحصن فيها بشكل جيد، و عجت تلك القرى – كسائر القرى الفرنسية – بالمباني و الحوائط التي توفر نقاط حصينة لأي مدافع، و فيما وراء الضفة الجنوبية – و خلف المنطقة الدفاعية للعدو - المرتفعة تواجدت قرى كثيرة و غابات كثيفة تسمح للعدو بإستخدامها كمراكز للمقاومة و مواقع للمدفعية.

و تواجه فيلقنا الآن فرقتان فرنسيتان : فرقة من زنوج المستعمرات و أخرى الفرقة ١٣ الألزاسية[٤]، و قد أشارت تقارير إستخباراتية إلى أن مدفعية العدو لا تقل عدداً – إن لم تزد – عن مدفعيتنا، و قد شعرت بإمكانية نجاح هجومنا إن إستخدمنا عامل المفاجأة بالنظر إلى طبيعة الأرض و نسبة القوات المشاركة فيه، و أمرت مدفعيتنا بأن تظل صامتة حتى يبدأ الهجوم، و بعد ذلك تطلق أكبر قدر من نيرانها على الضفة الجنوبية و القرى الواقعة في الوادي بهدف القضاء على كل ما قد يعيق عبور النهر.

---

[١] نسبة إلى منطقة السوديت التي أخذتها ألمانيا في نزاع ١٩٣٨ .
[٢] نسبة إلى منطقة سوابيا في ألمانيا.
[٣] نسبة إلى منطقة وستفاليا.
[٤] نسبة إلى منطقة الألزاس.

تحرك المشاة من كلا فيلقينا في جنح الظلام قبل بدء الهجوم على طول ضفة النهر بحوزتهم قوارب مطاطية و جسور عائمة و أدراج خشبية، و كانت مهمتهم أن يقوموا بمباغتة العدو بالعبور مع أول ضوء للنهار و يجتازوا القرى.

و قاتل العدو بضراوة، و شمل العدو الزنوج بما عرف عنهم من بأس و قوة الشخصيات و صلابتها و هوان الحياة عليهم و الألزاسيين المعروف عنهم الشجاعة و الذين زودوا ألمانيا في الحرب العالمية الأولى بمقاتلين أشداء كثر، و كان مأساوياً حقاً أن تلتقي بأولئك الألمان القدامى[١] و هم يقاتلونك الآن كعدو، و قد أخبرني بعض الأسرى منهم – وبكل فخر - أن آباءهم قد خدموا في الجيش الألماني سابقاً و كذلك في الحرس الإمبراطوري و أسطول ألمانيا القيصرية، و قد ذكرني ذلك بالعدد الكبير من الألزاسيين الذين توليت تدريبهم في الحرس الثالث و كان عدد لا بأس منهم مقاتلين أشداء.

كنت أراقب إنطلاق الهجوم من مقر قيادة فيلقي في غابة صغيرة قرب الجبهة، و بمجرد أن شعرنا بالرضا لنجاح العبور إستقليت سيارتي متقدماً إلى الأمام، و بدأ الآن الصراع حول السيطرة على المنطقة المرتفعة و القرى المطلة على النهر، و كان مما أذهلنا هو عدم نشاط مدفعية العدو فهي لم تؤد دورها المناسب بالنظر إلى عدد القطع التي وقت في أيدينا حينها، و بالقطع كانت عقول المدفعجية الفرنسيين ماجينوية الفكر[٢] فكانوا غير قادرين على التكيف و كانت سرعتهم في تركيز النيران على منطقة ما ضئيلة جداً بشكل لا يتناسب مع الحرب الديناميكية التي تعتمد على الحركة، و الأدهى من ذلك أنهم لم يقوموا بتطوير أي تقنيات للمراقبة و الإستطلاع كما فعلنا نحن، كما أن متخصصيهم في ذلك المجال لم يكونوا في مثل كفاءة متخصصينا، و بدا أنهم مازالوا يعيشون في أمجاد نصر ١٩١٨، و في كل الأحوال كانت مناسبة سارة لنا أن نجد مدفعية العدو غير مماثلة لتلك التي شهدناها في الصراع الإستاتيكي الساكن للحرب العالمية الأولى.

و قد كان وضع عبوري لمسطحات نهر "السوم" يشوبه الحرج نظراً لأن جسر الطوارئ المنشأ حديثاً مازال تحت مدى نيران العدو المتمركز في قرية "بريلي"، و رغم ذلك عمدت إلى العبور و التقدم للأمام في أمان و وصلت إلى الفوج ٦٣ مشاة التابع للفرقة السابعة و العشرين - يقودها الجنرال "جرينر" – و التي نجحت في

---

[١] يقصد الألزاسيين الذين ضمت فرنسا مقاطعتهم عقب الحرب العالمية الأولى في معاهدة فرساي ١٩١٩ .

[٢] نسبة إلى خط ماجينو و تعني أنهم دأبوا على التعامل مع العدو من داخل خطوط التحصينات و ليس المناطق المفتوحة كالأنهار.

السيطرة على المرتفعات المقابلة و لكن بخسائر ثقيلة، و ما أذهلني هو رباطة جأش الجرحى الذين توجب عليهم الإنتظار في تلك المنطقة الميتة حتى تصل المركبات و التي لم تكن قادرة على إجلائهم في تلك المرحلة المبكرة، و بعد ذلك عبرت نهر "السوم" منتقلاً إلى نقطة عبور الفوج ٤٠ مشاة التابع لذات الفرقة و الذي تقدم على ميسرة الفيلق، و تمركز قبالة غابة "نويي" و التي تقع بشكل كبير ضمن قطاع الفيلق ١٤ بانزر المجاور و يسيطر عليها العدو، و هنا شعرت بالخوف - نظراً لحجم الخسائر التي حدثت – بسبب تعرض الفوج لنيران العدو من الخلف من جهة قرية "أيلي" التي كانت تحت سيطرة العدو، و بصرف النظر عن ذلك تمت السيطرة على المنطقة المرتفعة هنا أيضاً.

و عبرت الفرقة ٤٦ مشاة على الجانب الأيمن النهر بنجاح و صارت الآن قبالة المرتفعات، و يشعر المرء بالرضا من نتائج عمليات اليوم الأول رغم أن القتال في القرى المتاخمة للنهر إستمر حتى الليل.

و نجح الفيلق ١٥ بانزر في عبور النهر كالفيلق المجاور لنا لكنه لم ينجح في التقدم كثيراً بسبب قتال العدو بضراوة دفاعاً عن المنطقة المعروفة بإسم "أرينز" قاطعاً الطريق بالتالي أمام المركبات.

و بدا أن الفيلق ١٤ بانزر على ميسرتنا – و الذي شن هجومه بدءاً من رأس الكوبري في "أمينز" عقب قصف العدو بشكل تمهيدي – قد تعرض لتوقف خطير بسبب حقول الألغام التي زرعها العدو، لذا أمر هذا الفيلق بالهجوم جنوباً مما أدى لإنقطاع إتصالنا به حتى نهاية التقدم.

و قد منحنا هجوم يوم الخامس من يونيه مساحة كبيرة جنوبي النهر مما أتاح نشر أول بطاريات مدفعية خلال الليل، و مع ذلك ظل الأمر على غير وضوحه فيما يتعلق بتقبل العدو لهزيمته من عدمه أو أنه سيستمر في مقاومته العنيفة، و في مثل تلكم المواقف قد تتجلى مشكلة نقص اللإسخبارات عن مثل تلك المسائل، و غطت سحابة من عدم التأكد – و هو العامل الدائم في كل الحروب – مواقع العدو و نواياه، و قد يقود أي تردد زائد في تلك المواقف إلى تراجعات خطيرة ، كما أن أي تأخير لساعات معدودة قد يمكن العدو من بناء جبهة جديدة تتسبب في خسائر كبيرة مجدداً.

و يكون لدى القائد الميداني – الذي ينحصر رد فعله هنا في ترقب وصول أية تقارير إستخباراتية – أمل ضئيل بأن تتبسم له إلهة الحرب، و باكراً صباح يوم السادس من يونيه ذهبت إلى مقر قيادة الفرقة ٤٦ مشاة و التي تقدمت لمسافة على الضفة الجنوبية للنهر، و قد وجدتهم نصف نائمين بعد مشقة اليوم السابق، و أشرت لهم بوجوب إستمرار التقدم خاصة أنه قد بدا أن الفرقة لم تدخل في إشتباك مباشر مع العدو، و ذهبت إلى المنطقة الأمامية للفرقة و وجدت الفوج ٤٢ بدون أي أوامر برغم ضجيج الإشتباك المسموع و القادم من خارج جبهته فقررت تحريكه، و بعد ذا قمت بزيارة الفوج الواقع على ميمنة الفيلق، و وجدته مترقباً للنتائج المترتبة على قصف المدفعية لقرية "كويسي" و ما جاورها من مرتفعات و غابات رغم كونه مستعداً للمضي قدماً، و لم تكن تقارير الإستطلاع متاحة، و لما تولد لدى الإنطباع بأن القرية و ما حولها من مرتفعات و غابات صارت خالية من أي قوات معادية تحتلها أصدرت الأوامر لقادة الأفواج لبدء التقدم على جبهة واسعة لكن على مجموعات متفرقة، و لوكان العدو مايزال هناك فسيضطر لإظهار نفسه و من ثم يتعرض لنيران المدفعية التي وضعت على أهبة الإستعداد، و كلما تقدمت القوات وفق ما أمرت به كلما تضاءلت مخاوفها بشأن الخسائر، و لما تشكك بعض القادة في تقديري للموقف قمت بالتوجه بسيارتي الكوبلفاجن[١] حيثما توجهت القوات.

و على مدخل "كويسي" وجدنا حاجزاً يسد الطريق لكنه كان خال من أي رجل، و داخل القرية سمعنا بعض الطلقات بين الحين و الآخر أطلقتها فلول قوات العدو، و بعد مراقبة وجيزة توغلنا داخل القرية و وجدنا أنه تم إخلاؤها بالفعل كما حدث بالنسبة للمرتفعات المقابلة لها و حافة الغابة المجاورة لها، و قد عدت إلى الفوج – الذي صار جاهزاً للتقدم الآن - حاملاً معي تلك المعلومة و إقترحت عليهم أن يأخذوا الترتيبات اللازمة للقيام بعمليات إستطلاعية لصالحهم في المستقبل، ورغم أن قادة الفيالق غير معنيين أصلاً بالقيام بدوريات الإستطلاع إلا أنني شعرت بضرورة أن أقدم لهم مثالاً عملياً خصوصاً و أن القوات المشاركة في القتال لم تكن تعرفني بعد كما أنني كنت مقتنعاً أن كفاءة التقدم تتوقف على مبادرة القادة، و كنت مسروراً لرؤية السعادة على وجوه مرافقي الملازم "فون شويردنر" و سائقي لما شعروه من متعة خلال تلك الرحلة الإستطلاعية المفاجئة.

---

[١] المقابل الألماني للسيارة الجيب الأمريكية.

خلال النهار زرت الفوجين التابعين للفرقة السابعة و العشرين و الذين إشتبكا مع العدو أثناء هجومهما على قرية "سيسمونت"، و فجأة وجدت نفسي عن غير قصد غلى الخط الأمامي للجبهة و تحدثت مع قائد إحدى السرايا، و بعد أن أطلعني بإيجاز على الموقف بدا عليه أنه لا يريد إضاعة فرصة اللقاء مع قائد من رتبة عليا فطلب مني أن أطرح خريطتي على المنضدة و أشرح له عليها خطة المعركة كما أعرفها تماماً، و بمجرد أن رويت ذلك التعطش للمعلومات قفلت عائداً إلى فيلقي آخذاً معي أحد المصابين الذي إستغل زيارتي للجبهة، و لحسن الحظ كانت رحلة العودة قصيرة فقد إنتقل مقر القيادة إلى غابة صغيرة قرب الجبهة.

في السابع من يونيه دخلت الفرقة ٦ مشاة – و التي عبرت النهر في اليوم السابق – في معركة على أقصى ميمنة الفيلق، و قد أظهر أولئك الوستفاليون حماساً عالياً في القتال، و عندما توجهت بالسيارة بعد الظهيرة للإلتقاء بالفرقة وجدت أن قطاع "بوا" قد تمت السيطرة عليه و صارت مدينة "بوا" الصغيرة في أيدينا و إنشغل الفوج في الهجوم على قرية على الجانب البعيد من القطاع، و رغم ذلك ظلت "بوا" و الطريق المؤدي إليها تحت نيران مدفعية العدو بعيدة المدى، و من طرائف الأمور أن قائد إحدى السيارات المحملة بالذخيرة لما أوقفه القصف عن متابعة التقدم بالسيارة هرع ليختبئ تحت ذات السيارة المحملة بالقذائف ذاتها.

و في عصر ذات اليوم توجهت لزيارة فوج تابع للفرقة السادسة و الأربعين، و كان هذا الفوج قد تمركز أمام قطاع "بوا"، و عمد أيضاً للعبور خلال الليل عقب إقامة إتصالات مع الأسلحة الثقيلة و المدفعية و التي كانت تنقصنا في المثال الأول.

و صار الآن ممكناً نشر الفرقة السابعة و العشرين على الخط الثاني ، و قد عُرف عن تقدمها خطواته الواسعة، أما عن مكانها على ميسرة الفيلق فستحتله فرقة الخيالة الأولى.

و شهد يوم الثامن من يونيه إستمرارية التقدم بفضل ثبات الوستفاليين على ذات وتيرة التقدم، و أفادت الفرقة السادسة و الأربعون بتجمع مئة دبابة فتم الأمر بقيام قاذفة منقضة بغارة ضدهم، و لسوء الحظ لم تتمكن الفرقة من إستغلال تلك الميزة للسيطرة على الدبابات فقد إختفت تلك الدبابات رغم أن عملاً أكثر رشاقة من ذاك كان ليؤدي الغرض المرجو.

مجرى سير القتال يومي السابع و الثامن من يونيه خلّفت إنطباعاً لدى قيادة الفيلق مغزاه أن العدو الأكثر تضرراً صار غير قادر على فعل شيء سوى إبداء بعض المقاومة الوقتية و المحدودة في ميدان مفتوح، و يمكن إفتراض أنه سيحاول سحب ما يملكه من قوات إلى ما وراء الروافد السفلية لنهر "السين"، و هناك سيحاول – بمساعدة الإحتياطات المتاحة له – تجديد مسعاه للعودة للقتال، و يتوقف كل شيء – بالنظر إلى فيلقنا – على تحركنا في سرعة لشق طريقنا عبر النهر قبل أن يستغل العدو الفرصة و يتمكن من تنظيم دفاعاته، و رغم أن الفيلق ما يزال على بعد ٤٥ ميل من نهر "السين" مساء يوم الثامن من يونيه إلا أنه قد صدرت الأوامر بتحريك رؤوس حربة من وحداته من المركبات ليس فقط وصولاً حتى النهر بل عبوراً له بالفعل في اليوم التالي، و توجب أن تتبعها الكتلة الرئيسية و المدفعية التي تجرها الخيول بأعلى سرعة ممكنة بحيث تصل للنهر المذكور في يوم التاسف من يونيه، و تم توجيه الفرقة السادسة للعبور عند "ليس أندليه" و السادسة و الأربعين عند "فيرنون".

كان هذا أمراً إستثنائياً بالنسبة للقوات التي إنخرطت في قتال لمدة أربعة أيام متواصلة، و لكن من المعروف في الحرب وجود لحظات يأمر فيها القائد الأعلى بأصعب الأوامر لتجنب ضياع فرصة ما تجعل قواته تواجه الأمور الصعبة فيما بعد.

و في هذه الحالة مالت العملية لصالح القيام بتحرك سلس، و قد بدا أن الفرنسيين عازمون على الدفاع عن "باريس" بكل ما أوتوا من قوة، فقد كان هناك جيشاً ضخماً تموضع على طول الخط الدفاعي في المناطق الحضرية الممتدة من نهر "أويز" حتى نهر "مارن" شمال المدينة، لو نجحنا في عبور نهر "السين" أسفل "باريس" فسنأخذ المدافعين على حين غفلة و لن يكون أمام قواتهم سوى الإنسحاب من المدينة كي لا يقعوا تحت الحصار.

لذا فقد أملى موقف الفيلق أوامر صارمة على القوات، و تطلب وجود قادة على كل المستويات بهدف أخذ قرار المبادرة بالهجوم بأسرع وجه ممكن، و مثل هذه الفرصة لا يمكن التفريط فيها أبداً و يجب العض عليها بالنواجز.

و منذ الصباح الباكر ليوم التاسع من يونيه حتى المساء المتأخر كنت أتجول على الطرق بهدف التأكد من بلوغ الفرق الأمامية للفيلق للأهداف المعينة لها، و تملكتني

السعادة لرؤية المشاة مستعدين لتحقيق الهدف المعين لهم – بلوغ نهر "السين" – رغم ما يحيط بهم من ظروف صعبة.

و بشكل طبيعي حدثت الإحتكاكات المعتادة رغم أن الأمور سارت بسلاسة بالنسبة للفرقة السادسة، و في الصباح الباكر إلتقيت بقائدي الفرق و من ثم قمت بزيارة للفرقة السادسة و الأربعين، و لما وصلت لمنطقة عبور الفرقة السادسة في "ليس أندليه" بحلول الظهيرة إكتشفت وصول الكتيبة الإستطلاعية للنهر و أن قيادة الفرقة بدأت التحضير للعبور تواً و الذي قررت أنه سيتم بعد الظهيرة، و لسوء الحظ تم تفجير الجسر وقت وصول كتيبة الإستطلاع، و تعرضت مدينة "ليس أندليه" التاريخية الواقعة أعلى جرف للإحتراق بفعل غارة نفذتها قاذفة منقضة، هذه الغارة لم نكن نرغب فيها أبداً.

و قد تجلت مشكلتان أمام الفرقة السادسة و الأربعين: **الأولى** أنها تحركت متأخرة بثلاث ساعات عن المتوقع، و قد قفلت عائداً لزيارتها عقب زيارتي للفرقة السادسة و وجدت أنها فقدت كل الإتصالات مع كتيبتها الإستطلاع و التي لم تكن قد بلغت نهر "السين" بعد على عكس كتيبة الإستطلاع التابعة للفرقة السادسة، و لم يكن هناك ما يقدم لأجلها سوى أن يُقترح على قائدها – أي الفرقة السادسة و الأربعين – أن يلتقي بي مساء ذلك اليوم في "فيرنون" و هي نقطة عبور فرقته، و قد إقترحت عليه أيضاً أن يحضر معه كتيبته الإستطلاعية.

و في تلك الأثناء عدت إلى "ليس أندليه" حيث وجدت الفرقة السادسة تنفذ عملية العبور على ثلاث نقاط مواجهة لمقاومة ضعيفة جداً من العدو، و قد بذلت المشاة و المدافع التي تجرها الأحصنة قصارى جهدها للوصول لنهر "السين" في توقيت مناسب.

و لما عدت بحلول السابعة مساء إلى "فيرنون" وجدت أن قائد الفرقة السادسة و الأربعين قد وصل و معه الكتيبة الإستطلاعية، و كان العدو لسوء الحظ قد تمكن هنا أيضاً من تدمير الجسر، و قد أمرت بأن يتم عبور كتيبة الإستطلاع ليلاً تحت جنح الظلام بسبب تعرض منطقة "فيرنون" لإطلاق نار مستمر من مدافع العدو الرشاشة على الضفة الجنوبية للنهر.

لم أكن قادراً خلال تلك المطاردة المضطربة على توظيف فرقة الخيالة الأولى – و التي وصلت حينها لمنطقة الفيلق – بالشكل الذي كنت أريده، لذا فكرت في إعادتها فقيادة

الجيش كمحني إياها فقط إعتقاداً منها أني سأستخدمها لتغطية ميسرة الجيش عند نهر "أويز" و حمايتها من أي تهديد قد يأتي من جهة "باريس"، و فجأة وردتني تقارير من الفرقة تفيد تعرضها للهجوم بواسطة قوات مدرعة معادية قوية و كانت ما تزال بعيدة عن مؤخرة الفرق المتقدمة التابعة لنا، لقد كانت تلك القوات هي الدبابات التي غافلت الفرقة السادسة و الأربعين من قبل و هربت منها، و ها هي الآن تغير على جناحنا الممتد.

و عندما عدت إلى "فيرنون" باكراً صباح ١٠ يونيه بعد سنة يسيرة من النوم وجدت عبور العناصر الأولى من الفرقة السادسة و الأربعين للنهر، لذا كان الفيلق الثامن و الثلاثين هو أول من حاز على موطئ قدم راسخ على الضفة الجنوبية للنهر، و كان للقوات كل الحق في الفخر بما حققته من إنجاز، و كنت سعيداً لمعرفة أن التحرك السلس قد جنّب الفيلق خوض صراع مكلف من أجل عبور نهر "السين".

لم يكن موقع الفيلق الثامن و الثلاثين مما يُحسد عليه، فقد وجد نفسه وحيداً على الضفة الجنوبية للنهر، و لم يكن الفيلق المجاور له – الفيلق الخامس عشر – قد عبر نهر "السين" حتى يوم ١٠يونيه ثم تم نقله إلى "لوهافر"[1]، الفيلق الثاني – و الذي كان يتبعنا – كان ما يزال بعيداً، و قبعت على ميسرة الفيلق علامة الإستفهام الرئيسية حول "باريس" : أين يمكن أن تختبئ قوات العدو؟ و الأدهى من ذلك هو أن الفيلق الثامن و الثلاثين كان يحتاج إلى يومين آخرين لينقل كل قواته عبر النهر، و كان الجسران العائمان على النهر في منطقتي "ليس أندليه" و "فيرنون" هدفاً دائماً لهجمات سلاح الجو الملكي البريطاني و التي نجحت حقيقةً في إعطاب جسر "فيرنون" لفترة، و لو كانت لدى العدو إحتياطات متاحة يمكن إستخدامها لأخذ المبادرة على هذه الجبهة فسيكون الفيلق الثامن و الثلاثين – بعزلته جنوب النهر – هو هدفه بالتأكيد.

و قد أخبرني الكولونيل جنرال "فون كلوج" قائد الجيش الرابع عند بداية الهجوم أن هدف العملية المخصص له بواسطة *القيادة العليا للجيوش الألمانية* هو إنشاء رأس كباري جنوب نهر "السين"، و قد بدت المهمة الموكلة للجيش الرابع غير مناسبة حتى لو كان غرض القائد الأعلى هو حسم المرحلة الثانية من الحملة على فرنسا ليس – كما تراءى لي – بواسطة جناح شمالي قوي يزحف جنوباً إلى غرب "باريس" وفقاً لخطة "شليفن" و لكن بواسطة زحف من جهة الجنوب تنفذه حشود مدرعة تجاه شرق "باريس"، بل و

[1] لوهافر : ميناء شمال فرنسا على القنال الإنجليزي.

حتى لو تقرر أن يكون الزحف على شرق "باريس" تحركاً حاسماً – خصوصاً مع نجاح مجموعة الجيوش "ج" في إختراق خط "ماجينو" و تقدم مجموعة الجيوش "ب" عبر نهر "السوم السفلي" – فقد كان ضرورياً أن تكون المبادأة من نصيبنا، و لم تبدأ مجموعة الجيوش "أ" في عبور نهر "أن" إلا في يوم التاسع من يونيه و ظلت تترقب هل سيحقق ذلك لنا النجاح المتوقع أم لا؟و في نفس الوقت على المرء أن يفترض أن العدو – في حال ما سرنا على خطة "شليفن" – لن يكتفي بمشاهدتنا و نحن ننفذ حركة تطويق واسعة النطاق عبر نهر "السين السفلي" و سيقوم بدوره بإتخاذ الإجراءات المضادة اللازمة لوقف ذلك، و هذا ما منحنا سبباً إضافياً للحرص على أن تكون المبادأة من نصيبنا على الجناح الأيمن من الجيوش الألمانية و ألا نترك للعدو الوقت الذي يمكنه من التموضع هناك و الإستعداد لشن هجوم مضاد، و بالتالي لو كان الدور الإستراتيجي – كما رأيته – للجيش الرابع قد منح سبباً لتوجيه هجمات على جنوب النهر فقد بدا لي خطأ إستبقاء الفيلق الثامن و الثلاثين عند رأس الكباري و جعله ينتظر جمع العدو للقوات التي تحقق له التفوق علينا.

لذا طلبت من الجيش الإذن لي بالهجوم جنوباً بمجرد عبور مدفعية فيلقي للنهر و ذلك بدلاً من البقاء في رأس الكباري الذي قمنا بتوسيع نطاقه حتى نهر "أور"، و على سبيل الإحتراز تم جلب الفرقة ٢٧ مشاة إلى الضفة الجنوبية لنهر "السين"، و في العاشر يونيه طلبت الموافقة على جلب الفرقة الأولى خيالة لجنوب نهر "السين" بدلاً من موقعها الأصلي على نهر "أويز" و الذي ظلت فيه منذ اليوم الذي حققنا فيه النصر البارع على مدرعات العدو، و طبقاً للظروف السائدرة رأيت أنه من الطبيعي وجوب أن تشكل فرقة الخيالة الأولى رأس الحربة للزحف، و إتجهت نيتي لإستخدامها في إعتراض خط السكة الحديد و الطرق المؤدية إلى "باريس" في أقرب وقت ممكن.

و لسوء الحظ تم رفض مقترحاتي على أساس وجوب إنتظار الجيش أولاً للتعليمات بشأن أي تحركات مستقبلية، و بعد ذلك سُحبت مني فرقة الخيالة الأولى و وضعت تحت إمرة الفيلق الأول الواقع على الخط الثاني للتقدم، و كانت الأوامر هي حماية ضفة نهر "أويز" على أن يظل الفيلق في كل الأحوال شمال نهر "السين"، و بذا – مع خالص أسفي – تم إبعاد تلك الفرقة عن الدور الملائم لها بالنظر إلى سماتها الخاصة.

و قد ساهمت حادثتان وقعتا مساء يوم الحادي عشر من يونيه في تبرير الطلبات التي قدمناها، **أولاهما** قيام الفوج ٥٨ مشاة التابع للفرقة السادسة بإسقاط طائرة للعدو تبين

حمل طيارها لوثائق تتضمن أوامر بالإنسحاب العام، و **ثانيتهما** قيام الفرقة السادسة و الأربعين بإيراد تقارير تفيد بتعرضها لهجوم قوي تنفذه دبابات العدو و هو ما كان دلالة على إكتشاف العدو ضعف تواجدنا جنوب النهر، و المزيد من التراخي من جانبنا سيؤدي إلى تقوية وضع العدو.

دحرت الفرقة السادسة و الأربعون الهجوم ذات المساء و لكن بخسائر كبيرة، و قد أوردت باكراً في الصباح التالي أن العدو يتأهب للقيام بالهجوم مجدداً مستخدماً ١١٠ دبابة و طلبت الدعم العاجل، فقررت المبادرة بالهجوم مستخدماً ثلاث فرق، و بصعوبة بالغة صدرت الأوامر بهذا الهجوم من قيادة الجيش، و رغم موافقة قائد الجيش على قراري إلا أنه شعر بوجوب التروي بسبب غياب الأوامر الصريحة من *القيادة العليا للجيش*، و كان قلقه الأساسي راجع إلى إحتمال قيامي بالهجوم بواسطة فيلقي من تلقاء نفسي، لذا فقد أصدر لي أوامر صارمة بألا يتجاوز الهجوم خط "إفرو-باسي"، و لجعل ذلك مؤكداً تضمنت الأوامر الممنوحة لي ذات التحذير.

و بينما حقق هجوم الفرقة السابعة و العشرين على الميسرة تقدماً جيداً أوردت الفرقة السادسة و الأربعون عدم قدرتها على البدء لنقص في مدفعيتها و ذخائرها و عددها على الضفة الجنوبية، و رغم ذلك تمكنت من صد هجوم دبابات العدو، و ثبت أن عدد هذه الدبابات لم يكن يتجاوز الخمسين أو الستين دبابة.

و دخلت الأيام القليلة التالية ضمن فترة التقدم فقد عبر الفيلق الثاني نهر "السين" في ١٣ يونيه، و في ذلك اليوم إتخذنا من منزل الروائية الفرنسية الشهيرة "كوليت دي أرفيل" – و الذي كان قد غادره - مقراً لنا، و قد قضيت ليلتي في غرفة نومها و التي كانت – مثل الصالون تماماً – غاية في الأناقة و روعة الأثاث، و كان حمام السباحة الملحق به نعمة كبيرة حلّت علينا.

في ١٤ يونيه قام القائد العام بزيارتنا، و كنت قادراً على إطلاعه على ما حققه الفيلق من نجاح حتى تاريخه، و لكنه أثناء قيامه بأخذ ملحوظات عن هذا النجاح لم يتحدث عن نواياي المستقبلية.

في ١٥ يونيه أبلغني الكولونيل جنرال "فون كلوج" أن الجيش الرابع حُددت له مدينة "لومان" للسيطرة عليها، و شدد على وجوب التوجه إليها على الفور بصرف النظر عن تشكيلات أي من جناحي الجيش، و في حالتنا هذه شعرت بعدم الحاجة لإبداء النصيحة.

في ١٦ يونيه إشتبكت فرق الفيلق مجدداً مع مقاومة منظمة على طول خط "فرت-سينوتش-شاترنو"، و تضمنت قوات العدو المنخرطة في القتال عناصر من الفرق الأولى و الثانية و الثالثة الميكانيكية التي نجحت في الهرب عبر "دانكيرك" إلى "بريست" الواقعة شمال غرب فرنسا و عادت من هناك مجدداً، إضافة إلى لواء "سباهي"[١] و الفرقة المغربية، و بحلول المساء تم كسر مقاومة العدو، و هنا أيضاً حاز رجال الفرقة السادسة على إعجابي فقمت بزيارتهم خلال تفقدي للفرق.

و ذاك المساء تلقينا أوامر حددت لنا خط "لومان-أنجر" كمحور لتقدمنا، و سيوضع الفيلق الأول على ميسرتنا آخذاً معه الفرقة السادسة و الأربعين، و ركب الفيلق ١٥ بانزر – يتكون من فرقة واحدة – على القوارب في بحيرة "شيربورج" و كان عليه التوجه إلى نهر "اللوار السفلي" لتكوين رأس كوبري هناك، و بدا أن هذا هو نهاية الأمر.

في ١٧ يونيه تم إعلان إقالة رئيس الوزراء الفرنسي "باول رينو" و تعيين المارشال "بيتان" محله، هل كان الرجل السابق ينتوي إعادة تنظيم المقاومة أم أن أهل السياسة فضلوا ترك ذلك الأمر لأحد المحاربين القدامى في الحرب العالمية الأولى؟

في ١٨ يونيه تلقينا أوامر من الفوهرر تضمن الهجوم على العدو بلا رحمة و هو ما لم يكن جديداً بالنسبة لنا، و تضمن أيضاً إحتلال المناطق التي كانت خاضعة للرايخ اللماني سابقاً و هي "تول" و "فيردون" و "نانسي" فضلاً عن موانئ "بريست" و "شيربورج"، و قمنا بالزحف كما أمرنا، و قد كان أحد أفواجنا يغطي مساحة ٥٠ ميل كما بلغت كتيبة إستطلاع تابعة للعقيد "ليندمان" غرب "لومان"، و قضيت ليلتي في قلعة "بونتيبل" العائدة للعصور الوسطى بما تضمنته من خندق و جسر معلق و أربعة جدران بسمك تسعة أقدام وحدائقها الغنّاء التي يقف فيها برجان من الخلف، و كانت قريبة من قلعة "اللوار" التي سأراها فيما بعد و التي تعد أكثر المباني التي جذبتني منذ قدمت إلى فرنسا، و كانت مؤثثة بشكل راق من الداخل، أما عن مالكها السيد "دي روشنفوكولد" دوق "دودين" و الذي سبق أن غادرها للأسف.

في ١٩ يونيه إستقليت سيارتي لمسافة ٣٠ ميل وصولاً إلى كتيبة "ليندمان" الإستطلاعية دون رؤية جندي ألماني واحد، و في "لومان" - التي حقق فيها جدي

[١] تكون من المقاتلين الجزائريين في الجيش الفرنسي.

نصراً مؤزراً منذ سبعين سنة – زرت الكاتدرائية الكبيرة، و في الطريق رأيت مجموعات غير مسلحة من الجيش الفرنسي تتحرك شرقاً و فوجاً كاملاً من المدفعية قد إستسلم لـ"ليندمان" بكامل عدته و مركباته، لقد تفكك العدو بالقطع، كما وجدت كتيبة "ليندمان" متوقفة في قطاع "مايين" عند "ليون دي أنجر" فقد تم إكتشاف وجود دبابات على الضفة البعيدة و معها بعض المدافع الرشاشة التي كانت تطلق النيران على الجسر، و كان "ليندمان" يقوم بجهد ضائع في سبيل دحر العدو مستخدماً قطعة المدفعية الوحيدة التي يمتلكها من عيار ١٠٠ ملليمتر، و أثناء التوجه لأقرب المواقع من النهر – على مسافة قريبة من الجسر – إكتشفت عدم حضور العدو بشكل قوي بإستثناء المنطقة المحيطة بالجسر، كما إكتشفت وجود قائد سرية بدا أنه ينتظر على الضفة لرؤية ما إذا كان العدو سيتخلى عن الجسر طواعية أم لا، و قد نصحته بالسباحة جنوب النهر كما أخبرته بأنني سأكون مسروراً لو رغب في مرافقتي له، و قد تم هذا الإتفاق بنجاح، و عُقيب ذلك قام أفراد السرية بكاملها بالتجرد من ملابسهم و القفز في النهر و هم عراة كما خلقهم بارئهم و بلغوا الضفة الأخرى سالمين، و سيطرنا على الجسر، و رأيت جثث عدد من الألمان مطرحة على جانبيه، و بقيت مع كتيبة الإستطلاع حتى أتموا تقدمهم على الضفة البعيدة من النهر و بعدها عدت إلى مقر قيادة فيلقي، و بالنظر إلى ما حدث من توقف كتيبة الإستطلاع على "مايين" لمدة ثمان ساعات بسبب وجود عدد قليل من دبابات العدو و مدافعه الرشاشة فقد أرسلت الملازم "جراف" حاملاً مني أوامر صارمة إلى "ليندمان" تتضمن وجوب عبور نهر "اللوار" خلال تلك الليلة، و قد وجد "جراف" القوات بدأت تخلد للراحة على الجانب الذي نسيطر عليه من النهر، و مع ذلك قام "جراف" بقيادة الكتيبة و عبور النهر بإستخدام القوارب المطاطية ذات الليلة.

و وصل إلى مسامع قيادة الفيلق نبأ عبور كتيبتي الإستطلاع التابعتين للفرقتين لنهر "اللوار" خلال ساعات الظلام، و على الفور توجهت لمنطقة العبور و لم أستطع إخفاء تعجبي عند بلوغي للنهر من شدة إتساعه، و كان مجرى المياه قوياً عند نقطة العبور الغربية و بلغت المسافة من الضفة للأخرى حوالي ٦٠٠ ياردة، و كان أحد سهمي رأس الكوبري قد تعرض للتفجير و تم غلق الثغرة الناتجة عن ذلك بواسطة إستخدام الجسر العائم، و للتغلب على مشكلة فرق الإرتفاع بين الضفتين البالغ ٣٠ قدم توجب عليا إستخدام رصيف منحدر ذو ميل حاد، و لما ثبتت خطورة الإعتماد عليه حتى بالنسبة للسيارة "الكوبلفاجن" إضطرت الأنواع ثقيلة الوزن من المركبات للإنتظار و العبور

بإستخدام المعديات و هو لم يكن بالأمر السهل بالنظر إلى إتساع و قوة مجرى النهر إضافة إلى كثافة الرمال على ضفافه.

لقد كان الموقف أبسط من ذلك في نقطة العبور الأخرى بمنطقة "شالون" حيث يتفرع النهر عندها لثلاثة أفرع، و قد سقطت الجسور فوق الفرعين الشماليين في أيدينا دون قتال و بالتالي تبقى لنا مسافة طولها ١٦٠ ياردة فقط للنعبرها، و هناك شهدت أمراً غير عادي فالقوات الفرنسية التي بدت غير مسلحة من على الضفة الأخرى للنهر صباحاً ظهرت حقيقة إشتمالها على دبابات ثقيلة بعد الظهيرة، و لم تكن قواتنا التي عبرت النهر بالمعديات كافية لوقفهم بسبب عدم إمتلاكها لوسائل لنقل دافعها عبر النهر، لذا رأيت في نقطة تقاطع "شالون" مدفعاً ألمانياً مضاداً للطائرات عيار ٨٨ ملليمتر يواجه دبابة فرنسية ثقيلة كل منهما على ضفة من النهر و أطلقا النار على بعضيهما في نفس اللحظة، و لسوء الحظ تم تدمير مدفعنا فإحتل مدفع مضاد للدبابات خفيف مكانه بعد ذلك مباشرة و الذي تمكن من توجيه ضربة مباشرة لنقطة ضعف دبابة العدو ذات الـ٣٢ طن، فإشتعلت بها النيران.

و في تلك الليلة إنتقلت لقلعة "سيرو" القريبة من "شالون"، لقد كانت بناء هائلاً ضخم الحجم تحيطه أبراج عالية موزعة على شكل حدوة حصان تحيط بها حدائق رائعة، و يحيط خندق بذلك كله، و تنتمي القلعة لدوق "تريموليبه" و أمير "تار" و هو أحد الأسماء البارزة في فرنسا القديمة، و كان الدوق قد حصل على لقبه الأخير بزواجه – الذي إعتبره حقاً وراثياً - عام ١٥٠٠ من عائلة "أنجو" من "نابولي"[١] ، و لم يحوزوا رغم ذلك عرش "نابولي" و حازه "فرديناند دي كاثوليك" بدلاً منهم، و كان لقب "فارس بلا خوف و بلا مراجعة" من نصيب دوق "تريموليبه" و فارس "بايارد"، و إحتوت القلعة بجانب مكتبتها الرائعة على عدد من التحف التاريخية تعود للأيام التي كان قاطنوها فيها مؤيدين لآل "ستيوات"، و قد تم إغلاق الطابق الأرضي من قبل بسبب إستخدام هذه القلعة في تخزين أثاث قصر "فرساي"، أنا شخصياً قضيت الليلة في غرفة أحد الأبراج و كانت مؤثثة على أعلى مستوى بها سرير فاخر تعلوه مظلة إرتفاعها ٢٥ قدم، و ألحق بهذه الغرفة غرفة أخرى لتغيير الملابس ذات سقف معقود التجاويف، و كانت القلعة مبنية وسط حديقة ضخمة و حوائطها مبنية من الطوب الأبيض و جدرانها مبنية من الحصى الملساء، و بها سلّم تحت سقف الإستطلاع المقوس يصل بك إلى

[١] نابولي : مدينة إيطالية.

غرف الطابق الأول و هي عدد من الغرف المزدانة بالرسوم الجميلة و المفروشات البديعة، و لاحاجة للقول بوجوب معاملة هذه الممتلكات بأقصى إحترام ممكن و أشد عناية ممكنة.

بحلول ٢٧ يونيه كنا قد نجحنا في نقل الفرقتين السادسة و السابعة و العشرين عبر نهر "اللوار"، و قد تقدمت كتيبتاهما الإستطلاعيتان لمسافة أبعد حتى تم قبول إستسلام القوات الفرنسية.

في ٢٣ يونيه علمنا بأمر الهدنة الموقعة في غابة "كومبين" يوم ٢٢، إنتهت الحملة على فرنسا، و في أوامري الصادرة للفيلق شعرت بوجوب توجيه الشكر للفرق التي عملت تحت إمرتي - و التي كانت محرومة من مزايا حماية القوات المدرعة أو الميكانيكية – على ما قدمته من تضحيات و شجاعة و إنجازات باهرة، و ما يعادل عملية الهجوم الناجح بأكملها قيامهم بالزحف لمسافة ٣٠٠ مبل في الليلة الواحدة فيما يستحق أن يُطلق عليه "الزحف الإنقضاضي على اللوار".

و الآن بدأت العجلة في الدوران، لقد كان الطريق طويلاً من "كوبين" ١٩١٨ إلى "كومبين" ١٩٤٠ ، إلى أين ستأخذنا هذه العجلة من هنا؟

٧

بين حملتين

لقد أزال اليوم الذي ألقى فيه الفرنسيون أسلحتهم أحد أسوأ الذكريات في عقول الألمان و هي إستسلام الحادي عشر من نوفمبر١٩١٨ الموقع أمام المارشال "فوش"[١] في عربة القطار في غابة "كومبين"، و الآن توقع فرنسا إستسلامها في نفس المكان و نفس العربة.

---

[١] فرديناند فوش : قائد عسكري فرنسي عاش بين ١٨٥١ – ١٩٢٩ .

و قد مثّل يوم الثاني و العشرون من يونيه ١٩٤٠ قمة حياة "هتلر" المهنية، حيث تم القضاء على أكبر أعداء الرايخ تهديداً لألمانيا منذ ١٩١٨ و هو فرنسا، أما بريطانيا فحتى لو لم تكن قد هُزمت بشكل نهائي إلا أنه تم طردها إلى خارج القارة، و رغم تشكيل الإتحاد السوفييتي – المجاور للرايخ حالياً – تهديداً محتملاً بصرف النظر عن معاهدة "موسكو" إلا أنه كان من غير المحتمل – من وجهة الألمان المنتصرون في بولندا و فرنسا – قيام بشن أي عمل عدواني في المستقبل القريب، و حتى لو قرر الكريملين إستغلال فرصة إنشغال ألمانيا في الهجوم على الغرب لشن هجوم في المستقبل القريب فقد فاتت الفرصة الآن، و لم تكت قد سمحت للفيرماخت بإمكانية النصر السلس الحاسم على جيوش الحلفاء.

لا يعني تحقيق الفيرماخت مثل هذا النجاح في بولندا و فرنسا بالتأكيد عمل قادتهم في سبيل الإنتقام منذ ذلك اليوم في "كومبين"[1]، و على النقيض لما تروجه الحملات الدعائية المعادية تتجلى حقيقة أن قيادة الجيش في الفترة من ١٩١٨ حتى ١٩٣٩ – بفضل التقدير السليم للمخاطر الناجمة عن القيام بأي أعمال عدوانية على الرايخ - لم تكن تريد إشعال أي حرب عدوانية أو إنتقامية بل سعت فقط لتأمين و حماية الرايخ، و أقر أن القادة العسكريين قد سمحوا لـ"هتلر" بمراوضتهم، فيمكن القول أنهم تقبلوا هيمنة السياسة على الموقف – حتى تلك التي لم يتفقوا معها – بالشكل الذي منع وقوع أي محاولات إنقلاب على الشرعية.

و لا يمكن القول أن سرعة إعادة التسليح الذي قام "هتلر" بكل ما هو ممكن في سبيل إنجازه هي السبب في تحقيق النجاح في تلك الحملة، فإعادة التسليح كانت أمراً حيوياً ذات أولوية قصوى بالنسبة لألمانيا بعد أن صارت بلا دفاع تقريباً بسبب قيود معاهدة "فرساي"، و لا يمكن أن يثور أي تساؤل حول مدى تمتع الفيرماخت بالتفوق الذي تمتع به لاحقاً السوفييت على الأرض و الحلفاء الغربيين في الجو، بل إنه بالنظر لعدد التشكيلات و المدافع و الدبابات المشاركة في الحملة نجد أن الحلفاء الغربيين متعادلين مع الألمان إن لم يتفوقوا عليهم في بعض المجالات، فالحملة في الغرب لم يحسمها قدر تسليح الجانبين بل حسمتها الجودة الأفضل و القيادة الأبرع للقوات و هي السمة التي تمتعت بها ألمانيا، كما أن الفيرماخت تعلموا أشياء جديدة منذ ١٩١٨ مع الأخذ في الإعتبار القوانين الراسخة للحرب.

[1] يقصد يوم الإستسلام في نوفمبر ١٩١٨ .

عقب الهدنة شرعت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* في إتخاذ إجراءات تسريح عدد لا يستهان به من الفرق، و في نفس الوقت تم تحويل عدد كبير من فرق المشاة إلى فرق ميكانيكية أو مركبات.

إنتقلت قيادة الفيلق الثامن و الثلاثين إلى منطقة "سانسير" وسط الأدغال المحيطة بنهر "اللوار" لتتولى مسئولية تحويل بعض هذه الفرق، لذا قمنا بإستبدال قلعة "سيرو" المليئة بالتحف التاريخية كمقر للقيادة بمنزل صغير بناه مصنع الخمر المشهور بإسم "كونتروا" و الواقع على قمة تلة شديدة الإنحدار تطل على نهر "اللوار".

كان من المفترض أن يعكس منزلنا الجديد هذا صورة المعقل الأثري و كان يحمل كل بصمات التذوق السئ الموجود في كل تقليد ذلك النوع، و لم يتم تحسين الإنطباع بذلك البرج المبني قرب غرفة المعيشة و الذي بُني حقيقة ليبدو مجرد طلل، و لم تظهر المدافع الصغيرة المنتشرة في التراس أي تشابه مع النصب التذكارية للحروب بالشكل الذي أراده مالك البيت، الشيء الوحيد الجميل بخصوص هذا المنزل هو الإطلالة الجميلة من فوق التلة على وادي نهر "اللوار" الممتد.

و هناك دلالة على الطبيعة المرائية للمالك تتجسد في الصورة الضخمة الموجودة في مكتبه و التي تضمنت ملوك أوربا في القرن الذي عاش فيه و هو القيصر الألماني و الإمبراطور العجوز "فرانزجوزيف"[1] و الملكة "فيكتوريا"[2] و هكذا، و لسوء الحظ أظهرتهم الصورة كما لو كانوا قد تعاطوا من الكونتروا أكثر مما ينبغي، و بجانب المنضدة توجد صورة للمالك نفسه ممسكاً بكأس من الخمر الذي صنعه، و كانت إزالة ذلك المسخ كله من أهم ما أدخلناه من تغييرات على المنزل.

في ١٩ يوليه غادر كل قادة الفيرماخت الشباب إلى "برلين" لحضور جلسة الرايخستاج التي أعلن فيها "هتلر" إنتهاء الحملة على الغرب، و في نفس الجلسة عبّر عن عرفان الأمة لأبنائها عبر تكريم عدد من القادة العسكريين مما دل على رضائه عن نتيجة الحرب، و كما شعر الألمان بشكل طبيعي بتكريم الجنود الشجعان شعرنا نحن رجال الجيش بأن هناك تمييزاً قد تجاوز حدود الضرورة من جهتي الأسلوب و النطاق.

---

[1] فرانز حوزيف : إمبراطور النمسا-المجر و عاش بين ١٨٣٠ – ١٩١٦.
[2] فيكتوريا: ملكة بريطانيا و عاشت بين ١٨١٩ – ١٩٠١ .

كان تعيين "هتلر" لعدد من الفيلد مارشالات و أحد الجراند أدميرالات بعيداً عما سار عليه العرف سابقاً بالنسبة للرتب في ألمانيا، و يجب أن يكون المرء قد قاد حملة بنفسه أو إنتصر في معركة أو غنم حصناً من العدو في سبيل الحصول على ذلك التكريم بصرف النظر عن الفيلد مارشالات القلائل الذين تم تعيينهم في عهد القيصر "فيلهلم الثاني" أيام السلم.

في نهاية الحملة البولندية – و التي أشبع القائد العام للجيش و كلا مجموعتي الجيوش فيها متطلباتهم – لم يقم "هتلر" بإظهار الثناء لأي من قادة الجيش عبر منحهم رتبة فيلد مارشال، و ها هو الآن يمنح عدداً منهم تلك الرتبة دفعة واحدة، و تضمنوا – إلى جانب القائد العام للجيش الذي قاد حملتين ناجحتين – رئيس *القيادة العليا للجيوش الألمانية*و الذي لم يسبق له تولي أي قيادة أو منصب ضمن هيئة الأركان العامة، و كان منهم أيضاً وكيل وزارة الخارجية لشيءون اللوفتافا و هو أصلاً لا يجوز منحه أي رتبة معادلة لرتبة القائد العام للجيش.

و الدليل الصريح على إتجاه "هتلر" تجسد في الطريقة التي رفع بها "جورينج" فوق كل قادة الجيش و الأسطول بمنحه رتبة "رايخ مارشال" و جعله الحائز الوحيد لوسام "الصليب الحديدي الأعظم"، و مثل تلك الطريقة في توزيع التشريفات يمكن العمل بها في تلك الظروف مع شخص مثل "فون براوخيتش" كتشريف متعمد له ، و قد اظهرت بجلاء مشاعر "هتلر" تجاه *القيادة العليا للجيش*.

في يوم جلسة الرايخستاج علمت بنبأ تخصيص دور جديد لقيادة فيلقي، تم نقلنا إلى ساحل القنال الإنجليزي للتحضير لغزو بريطانيا و تم وضع ثلاثة فرق مشاة تحت إمرتنا، و إتخذنا من منتجع "لوتوكو" على البحر قرب "بولون" حيث توجد العديد من الفيلات التي كانت مملوكة لبريطانيين مقراً لنا، و بينما إستقرت القيادة في أحد الفنادق ذات الرفاهية العالية إنتقلت أنا و طاقمي المباشر لإحدى الفيلات المملوكة لمالك سفن فرنسي، و رغم أن مالك السفن هذا قد غادر إلا أنه ترك بعض العاملين بالفيللا حيث وجدنا أحدهم يمكنه إدارتها و الإعتناء بأثاثها و سائر محتوياتها، و على عكس ما حدث لاحقاً في ألمانيا لم نتصرف بإعتبارنا سادة أو لوردات فنقوم بالتمتع بممتلكات العدو، بل قمنا بتحقق مستمر من المنازل التي إحتلها الألمان كما أن القيام بإزالة أثاث المنازل أو الأشياء القيمة كالتذكارات مثلاً لم يكن مسموحاً بها في عرف القوات الألمانية، و ذات مرة أثناء تجولي وقعت عيني على فيلا شككت في محافظة القوات الألمانية المحتلة لها

على مظهرها الجميل، و في الصباح التالي كان على الرقيب الأول من المجموعة المحتلة للفيلا تنفيذ أوامر مغادرتها – رغم ما ما كان فيه هو و مجموعته من إرهاق – و تحققت بنفسي من تنفيذ الأمر.

و كنتيجة للتصرف الذي لا تشوبه شائبة من جانب قواتنا لم تحدث أي مشاحنات أو مشاكل من أي نوع مع السكان المدنيين خلال فترة الشهور الستة التي قضيتها في فرنسا، كما أن الفرنسيين – بصرف النظر عن سلوكهم المهذب – تعاملوا معنا بكرم أجبرنا على إحترامهم، أما عن بقية القوات فأنا أفترض وقوع كل فرد تحت تأثير سحر هذه الأرض المباركة بمناظرها الطبيعية الخلابة و ثراء آثارها المنتمية لثقافة قديمة بمطاعمها الرائعة و الأغراض التي ما تزال موجودة في محلاتها، صحيح أن قوتنا الشرائية[١] كانت ضئيلة خاصة أننا كنا مقيدين بنسبة معينة ندفعها مقابل ما نشتريه بواسطة عملة الإحتلال، و هذه القاعدة الصارمة كانت تسري في كل ما يتعلق بالجيش بحيث يستلزم الذهاب للتسوق – و هو الأمر الأكثر رغبة بالنسبة للفيرماخت - المرور بتحقق و يقتصرعلى الحاجات الأساسية، و رغم ذلك كان لدى المرء ما يكفيه للقيام برحلة إلى "باريس" و يقضي يومه مستمعتاً بسحر هذه المدينة.

إقامتنا على الساحل مكنتنا من الإستمتاع بالسباحة حتى منتصف نوفمبر و هي المتعة التي تنّعم بها مساعدي الملازم "سبيشت" و سائقي المخلص "ناجل" و سائسي "رونج" بإعتبارها الفرصة التي طالما تحرّقوا شوقاً إليها، و ذات مرة نسينا شأن حركة المد و الجزر غير الإعتيادية في القنال الإنجليزي – رغم سيطرتنا الكاملة عليه – حيث يصل الفرق بين الموجة المرتفعة و الأخرى المنخفضة إلى ٢٦ قدم، و هذا أبرز لنا بالصدفة عاملاً هاماً فيما يتعلق بالتوقيت المناسب لأي عملية إنزال بحري على الساحل البريطاني و توقيت إنزال القوات من السفن في الموانئ التي يستهدفها الغزو كلها مسائل دخلت في دائرة المناقشة، و كنتيجة للمد و الجزر حدث أن كنا ذات مرة بعيدين عن البحر بمسافة لا بأس بها ففوجئنا بالأمواج تحوم حول سيارتنا "المرسيدس" و هي على الشاطئ و تحتجزها، و لكننا نجحنا في سحبها بإستخدام جرار عبر الرمال التي صارت ناعمة جداً في اللحظة الفارقة قبل وصول الموجة التالية.

---

[١] القوة الشرائية : هي مقدار السلع و الخدمات التي يمكن الحصول عب=ليها بإستخدام وحدة من العملة المتداولة في مكان معين و زمان معين.

و لكن لم تتسبب المتعة و المغريات الناجمة عن جمال هذا البلد و لا فترة الراحة التي أعقبت حملة ناجحة في إرتخاء القوات و هو المصير الذي تتعرض له القوات المحتلة عادة، و أي ميل من جانب القوات في هذا الإتجاه تتم مواجهته بالحاجة لتدريب تشكيلاتنا من أجل مشروع الغزو و هو مهمة جديدة تماماً في حد ذاتها، و كانت قواتنا تخضع لتدريبات يومية على الكثبان الرملية و في المستنقعات المجاورة و التي تتشابه إلى حد كبير مع الأراضي التي ننوي الإنزال عليها، و بعد وصول معدياتنا – تشمل زوارق بخارية مطورة و لنشات و قوارب صغيرة – أمكننا التدريب على عمليات التحميل و الإنزال بالتعاون مع الأسطول، و عندما ترسو إحدى مراكب الإنزال بشكل سئ على الشاطئ فإن طاقمها يتعرض لحمام بارد، و كان على ضباط البحرية الشباب تعلم كيفية تأدية وظيفتهم، لا يستطيع المرء أن يلومهم على نقص حماسهم و عدم قدرتهم على قيادة الزوارق البخارية بدلاً من الطرادات و غواصات "يو-بوت" التي تدربوا عليها خصوصاً أنه لم يكن من السهل التعامل مع الرجال العجائز الذين يتولون أمر هذه الزوارق و يقفون بجانبهم أثناء القيام بعملية الإنزال ، و رغم ذلك فقد أظهر كل الرجال أكبر إهتمام و تركيز في عملية التدريب على المهمة غير العادية، و كنا مقتنعين بأنه ستتم إجادتها لاحقاً.

العملية "أسد البحر":

يبدو هذا بالنسبة لي مكاناً جيداً كي أورد فيه ملاحظاتي حول خطة الغزو التي وضعها "هتلر" و الأسباب التي دفعته للتخلي عنها.

لو كان "هتلر" صدق حقاً أنه ربح الحرب بعد هزيمة فرنسا و أن المسألة الآن تقتصر على مجرد نقل الحرب إلى الأرض البريطانية فلن يكون هناك خطا في هذا، و قد أظهر الرفض البريطاني البارد لعرض السلام المقدم منه – و الذي كان في غاية الإبهام – عدم سهولة إقناعها حكومة و شعباً.

و بعدها وجد "هتلر" و *القيادة العليا للجيوش الألمانية* أنفسهم يتساءلون :"ما الخطوة التالية"؟

أي رجل دولة أو قائد أعلى معرض لمواجهة ذات المشكلة في وقت الحرب عندما ينشأ موقف جديد كلية ناجم عن تراجع عسكري أو أي تطور غير متوقع في الحقل السياسي – مثل دخول دولة جديدة للحرب إلى جانب العدو، و في مثل تلك الظروف لا يكون أمامه خيار سوى طرح خطة الحرب الموجودة جانباً، و في الوقت ذاته قد يشعر المرء لميل تجاه إلقاء اللوم على "هتلر" لمبالغته في تقييم موارده و إستهانته بموارد العدو أو لإصداره حكماً سياسياً خاطئاً.

و لكن عندما يصل الأمر إلى حد أن يتساءل رئيس الدولة أو آلة الحرب العاملة معه "ما الخطوة التالية؟" عقب تحقيق عملياته العسكرية كل توقعاته قائدة إلى هزيمة أحد الأعداء و إنسحاب الآخر إلى جزيرته فلا يكون مجال للتساؤل حول وجود خطة للحرب من عدمه لدى الجانب الألماني.

بالطبع لا توجد حرب تسير وفق برنامج محدد و صارم،و لكن بما أن "هتلر" تقبل مخاطر الدخول في حرب ضد فرنسا و بريطانيا منذ سبتمبر ١٩٣٩ كان لزاماً عليه أن يضع مسبقاً تصورات مختلفة للتعامل مع هاتين القوتين، من الواضح قطعاً عدم إمتلاك القائد الأعلى لألمانيا لأي خطة حرب توضح ما يتوجب إتخاذه من إجراءات بعد تحقيق النصر على فرنسا، كان "هتلر" يأمل في إستسلام بريطانيا، أما بالنسبة لمستشاريه العسكريين فكان لزاماً عليهم إنتظار قرار الفوهرر.

ضربت الحالة سالفة الذكر مثلاً على النتيجة الحتمية لوجود مثل ذلك التنظيم العسكري السطحي الذي ظهر في ألمانيا عندما تولى "هتلر" السلطة العليا و لم يقم بإنشاء هيئة أركان عامة تابعة للرايخ لتكون مسئولة عن وضع الإستراتيجية العليا للدولة.

و الحقيقة المتجلية هي أنه لا توجد أي سلطة عسكرية بجانب رئيس الدولة – صاحب القرار السياسي - مخولة بتحمل مسئولية هذه الإستراتيجية الشاملة.

فمنذ البداية قام "هتلر" بتحجيم وضع *القيادة العليا للجيوش الألمانية* و جعلها مجرد سكرتارية عسكرية، و حتى رئيسها "كايتل" كان غير قادر على إبداء المشورة لـ"هتلر" بشأن الإستراتيجية.

كما أن "هتلر" لم يسمح بأن يكون لأي من قادة الأفرع الثلاثة للقوات المسلحة[١] أي تأثير بشأن تلك الإستراتيجية العامة، لكنهم كانوا قادرين من وقت إلى آخر على إبداء الرأي بشأن ما يستجد من الأمور و ذلك أثناء مقابلاتهم الشخصية معه، و لكن القرار النهائي كان يصدر من "هتلر" فقط وفق ما يخطط له، لذا كان دوماً يصر على وضع أول خطوة على طريق إصدار قرار يتعلق بالسياسة الحربية الشاملة بالنسبة لأفرع القوات المسلحة الثلاثة بإستثناء حالة النرويج عندما صدر الإقتراح الأول من "رايدر".

و بسبب عدم السماح لأي شخص – بمن فيهم *القيادة العليا للجيوش الألمانية*– بصياغة أي خطة حرب تم ترك كل شيء في يد "هتلر" و حدسه، و قد ساهم كلٌ من "كايتل" و "جورينج" في هذا التملق الساذج، و آخرون مثل "فون براوخيتش" و "رايدر" في الإستقالة، و حقيقة قيام هيئة الأركان التابعة لكل فرع للقوات المسلحة بوضع رؤيتها حول السياسة طويلة الأمد لا تُحدث أي فرق يُذكر، فعلى سبيل المثال نذكر تكليف الجراند أدميرال "رايدر" في شتاء ٤٠/٣٩ هيئة العمليات البحرية لدراسة إمكانيات و متطلبات أي عملية إنزال بحري على الساحل البريطاني، في الواقع لم يوجد من يقوم بالدور الحقيقي لرئيس هيئة الأركان العامة بحيث يعتبره "هتلر" المسئول عن وضع الإستراتيجية العامة و ليس مجرد مستشار أو منفذ لأوامره.

و تمخض ذلك الأسلوب في القيادة عن نتيجة – كما ذكرت من قبل – تجسدت في أنه عندما إنتهت الحملة على الغرب تجلّت أمامنا مشكلة "ما الخطوة التالية؟".

و نضيف على ما سبق وجود حقيقتين توجب على القائد الألماني الأعلى التعامل معهما :

١. وجود بريطانيا غير مهزومة و غير راغبة في أي تفاهمات.
٢. الخطر المتجسد في إحتمالية قيام جارنا الجديد – الإتحاد السوفييتي – بالتدخل بصرف النظر عن السلام السائد بيننا حالياً، و هو التهديد الذي أشار إليه "هتلر" في نوفمبر ١٩٣٩ عندما شدد على الحاجة لحسم القرار بشأن الغرب.

و في ضوء هاتين الحقيقتين كان واضحاً أن أهم مهمة تقع على عاتق الرايخ هي إنهاء الحرب مع بريطانيا في أقرب وقت ممكن، و حينها فقط يمكن للمرء أن يأمل في كون

[١] تتكون من القوات البرية و البحرية و الجوية.

الفرصة قد ضاعت أخيراً على "ستالين"[1] في إستغلال الصراعات بين الأوربيين لصالح طموحاته التوسعية.

و إذا إستحال التوصل لأي تفاهمات فيتوجب حينئذٍ على ألمانيا القضاء على عدوتها الأخيرة بريطانيا بقوة السلاح.

إن هذه هي مأساة تلك الفترة الوجيزة التي كان مصير أوربا فيها ليستقر ربما لسنوات قادمة لولا تعنت الطرفان و رفضهما التوصل إلى أي تفاهمات بناء على أرضية مشتركة، و لكن ما هو مؤكد هو أن "هتلر" سعى لتجنب خوض أي صراع بقاء مع الإمبراطورية البريطانية لأن هدفه الرئيسي يوجد في الشرق.

و كانت الطريقة التي عرض فيها "هتلر" عرض السلام المقدم منه إلى بريطانيا في جلسة الرايخستاج أضعف من أن تحدث أي رد فعل في صالحها، و بصرف النظر عن ذلك فإنه من المشكوك فيه أن يتقبل "هتلر" - الذي أسكرته نشوة الظفر – أي سلام مبني على المنطق و العدالة حتى لو قدم الطرف الآخر إقتراحاً جدياً حول ذلك، و الأدهى من ذلك هو أنه قد صار الآن حبيس تصرفاته فقد سلّم نصف بولندا و بحر البلطيق للإتحاد السوفييتي و هو الفعل الذي لا يمكن إزالة آثاره إلا بحرب جديدة، كما أنه فتح الطريق أمام إيطاليا لتطمع في أراضي تحت السيادة الفرنسية و بالتالي أوقع نفسه في مشكلة مدى الإعتماد على حليفه، و أخيراً لقد تسبب "هتلر" منذ أزمة "براغ"[2] في إفقاد العالم الثقة به و بأي إتفاق يعقده معه.

و لذلك كله كان الشعب الألماني سيهتف له بقوة لو تمكن "هتلر" من تقديم السلام المشرف له عقب هزيمة فرنسا، و الشعب لم يكن حريصاً على ضم أي مساحات من الأراضي البولندية لسلطان الرايخ، و لم يكن الشعب يتعاطف مع أولئك الذين يؤسسون مطالباتهم بتلك الأراضي على حقيقة كونها جزءاً من الإمبراطورية الرومانية المقدسة[3]، و لم يأخذ الشعب الألماني فكرة "العرق السيد" الذي يجب أن يسود أوربا – و حتى العالم بأكمله – على محمل الجد و الإعتبار بإستثناء بعض المتطرفين الحزبيين، و كان على "هتلر" فقط أن يبتعد عن أهل الدعاية المغرضة و بذا يصير السلام المشرف أمراً ممكناً.

---

[1] جوزيف ستالين : زعيم الإتحاد السوفييتي منذ منتصف عشرينيات القرن العشرين حتى وفاته عام ١٩٥٣.
[2] براغ : عاصمة تشيكوسلوفاكيا.
[3] الإمبراطورية الرومانية المقدسة : دولة حكمت وسط أوربا خلال العصور الوسطى و تفككت عام ١٨٠٦ .

و من جهة أخرى بدا أن الشخصية البريطانية – و التي تجلت سماتها في شخصية "وينستون تشرشل" – كانت تميل لرفض أي تسوية عقلانية في تلك المرحلة من الحرب و المراحل اللاحقة لها، لقد تجلّت للعيان تلك المثابرة و الصلابة البريطانية التي تثير الإعجاب و التي تدفع البريطانيين للخوض في غمار أي صراع بغض النظر عن مدى التهديد الناجم عن الموقف السائد حينئذٍ، و فوق ذلك كانت كراهيتهم اللامحدودة لـ"هتلر" و نظام حكمه – وربما كل البروسيين – قد تمكنت منهم و جعلتهم يغضون الطرف عن النظام الأسوأ منه و الذي شكل تهديداً كبيراً لأوربا و هو الإتحاد السوفييتي، و مما زاد من تطرف السياسة البريطانية هو العامل التقليدي المتعلق بميزان القوى الأوربين - و هو ما كان دوماً السبب الدافع لبريطانيا لدخول الحرب – منذ طالبت بتدمير ألمانيا التي صارت قوة كبيرة في القارة، و تعامت أعين بريطانيا عن رؤية حقيقة أن الحاجة الأهم في عالم متغير تتمثل في خلق توازن قوى عالمي خصوصاً بالنظر إلى ما بلغه الإتحاد السوفييتي من قوة و الخطر المرتبط بالفكرة السائدة فيه حول "الثورة العالمية".

و يُضاف إلى ما سبق أن "تشرشل" كان أكثر من مجرد مقاتل فقد كان عقله متعدياً لحدود خوض المعركة و تحقيق النصر الحاسم فيها إلى ما يقبع وراء هذا الغرض العسكري من مكاسب سياسية، و لم يقدر "تشرشل" خطر السوفييت إلا بعد ذلك بسنوات عندما وصلوا إلى منطقة البلقان الحيوية لبريطانيا، و مع ذلك لم يتمكن حينها من شق طريقه بين "روزفلت" و "ستالين"، ففي تلك الأثناء نجده قد إعتمد على حيوية و نشاط شعبه و قدرة الرئيس الأمريكي على توريط الولايات المتحدة في الحرب إلى جانب بريطانيا رغم ما أبداه الأمريكيون من عدم رغبة في حدوث ذلك – على قدر كراهيتهم لـ"هتلر" - في تلك المرحلة من الحرب.

كما أن رجل مثل "تشرشل" لم يكن على إدراك للخطر الذي يمثله الإتحاد السوفييتي لألمانيا، و فيما يتعلق بالحرب فقد وضعها على الجانب الإيجابي لصالح بريطانيا، و من جهة أخرى لم يبد أن فكرة السعي نحو تسوية مع ألمانيا المستندة إلى فرضية أنه سوف يتبعها بفترة قصيرة صراع قوة بين الدولتين الشموليتين قد ثارت في عقله، هذا بجانب حقيقة أن التقييم المعتدل لقوة الدولتين و نقاط ضعفهما سيقوده بالتأكيد إلى إفتراض على قدرة أيهما على القضاء على الأخرى و إخضاعها للأبد و أن كلاهما سيقتصر على تثبيط الآخر لفترة من الزمن بسبب ما سيلم بهما من وهن، و مثل هذا الموقف سيدفع

القوى الأنجلو-ساكسونية بإعتبارها إمبراطوريات عالمية للسكوت حيال الحقيقة المتمثلة في أن الصراع بين الدولتين الشموليتين سيحدد مصير أنظمتيهما بشكل نهائي.

في عصر الدكتاتوريات و الحملات الصليبية – و هو العصر الذي كانت عواطف العامة تحددها الدعاية الجامحة – كانت كلمة "عقلانية" بلا وزن، لذا بدا واضحاً أن كلاً من بريطانيا و ألمانيا – لسوء حظ أوربا و على حساب شعوبها – لم تريا أي خيار سوى القتال.

لذا تمثلت إجابة القائد الأعلى لألمانيا حول مشكلة "ما الخطوة التالية؟" بعد نهاية الحملة على الغرب في إستمرار الصراع مع بريطانيا، لكن حقيقة عدم وجود خطة حرب حاضرة لدى الجانب الألماني بعد الحملة على الغرب تمخضت عنها آثار بالغة لما ذكرناه آنفاً من أسباب، و عندما أقر "هتلر" القضاء على بريطانيا بواسطة الغزو لم يتم إتخاذ أي إستعدادات في سبيل تحقيق تلك المهمة، مما ترتب عليه إهدارنا لأفضل فرصة ننتهز فيها ضعف بريطانيا، و الإستعدادات التي كنا قد بدأنا فيها إستغرقت وقتاً طويلاً جعلت نجاح عملية الإنزال مرهوناً فقط بظروف الطقس.

و هذه الحقيقة الأخيرة – بجانب أخريات سنعرض لهن في موضع لاحق – منحت "هتلر" الأسس التي إستند عليها في تخليه عن خطة الغزو و التحول عن بريطانيا لتوجيه الضربة للإتحاد السوفييتي، و هو ما نتيجته معروفة.

و قبل أن أعرض لأسباب ذلك التغيير الجذري في الجبهة أشعر بوجوب عرض الفرص التي كنا سنغتنمها لو كان "هتلر" متأهباً لتحمل مواصلة القتال مع بريطانيا حتى النهاية.

كانت هناك ثلاث وسائل متاحة لنا، **الأولى** هي محاولة تركيع بريطانيا بواسطة قطع خطوط إمداداتها الممتدة عبر البحار، و فرص نجاح ألمانيا هنا عالية بسبب سيطرتها الكاملة على سواحل النرويج و هولندا و بلجيكا و فرنسا و إمكانية إستخدامها كقواعد لعمليات الغواصات و العمليات الجوية.

و في هذا السياق نقرر أن الموارد المتاحة كانت أقل مما هو في صالحنا.

فالأسطول لم يكن يمتلك ما يعادل ما يمتلكه من غواصات "يو-بوت" بالنظر إلى المدمرات الثقيلة و حاملات الطائرات التي تتعاون معها، إضافة إلى أن الدفاعات البريطانية المضادة للغواصات ستكون لها اليد العليا في الصراع إن لم نتمكن من تحييد

سلاح الجو الملكي و إخراجه من المعركة، أما بالنسبة للوفتافا فكانت على عاتقه المهام التالية:

١. تحقيق السيادة الجوية على الأقل للحد الذي يضمن القضاء على قدرة سلاح الجو الملكي على التدخل في صراع الغواصات.
٢. إصابة الموانئ البريطانية بالشلل.
٣. التعاون بفعالية مع غواصات "يو-بوت" في هجماتها على قوافل العدو.

في الواقع إرتبط كل ذلك بوجوب التغلب على سلاح الجو الملكي و تدمير مراكز الإنتاج التابعة له.

لكن ظهرت عدم قدرة اللوفتافا و عدم قوته كفاية بحيث يستطيع تحقيق المهام الموكلة له في معركة بريطانيا ١٩٤٠، و سواء كانت النتيجة ستكون كما هي لو كانت الظروف الجوية في أغسطس و سبتمبر في صالح الألمان و لو كانت القيادة الألمانية لم تحول إنتباهها من قتال سلاح الجو الملكي إلى قصف "لندن" تاركة العدو في تردده.

في كل الأحول كان من المستحيل تحقيق مهمة التغلب على سلاح الجو الملكي و تدمير مراكز الإنتاج التابعة له في صيف العام ١٩٤٠ بالنظر إلى محدودية عدد القاذفات الألمانية و الطائرات بعيدة المدى، و كانت كل معركة نخوضها بكامل رصيدنا من الموارد تتطلب وقتاً أكثر و قواتاً أكبر مما قدرناه من الأساس، و لا تصدر القرارات السريعة في المعارك بين طرفين متعادلي القوة – أو مختلفيها – إلا بواسطة القيادة المتفوقة و ليست الأكثر قوة، و قد تجلّى ذلك في حالتنا تلك.

كان علينا أن نجهز من البداية لصراع طويل الأمد، و كان يتوجب مضاعفة أسطول الغواصات لضمان النجاح، و كان يتوجب إتخاذ خطوات مماثلة بالنسبة للوفتافا.

و علينا ألا نختبئ من حقيقة أن فكرة الإخضاع السريع لدولة ضخمة مثل بريطانيا بإستخدام "الصراع الجوي الإستراتيجي"[١] – وفق ما كان الجنرال "دوهيت" مقتنعاً به تلك الأيام – ليست سوى أمنيات واهية، و هو عين ما ينطبق على الغارات الجوية التي شنها الحلفاء على ألمانيا لاحقاً، على أية حال طالما تقرر تركيع بريطانيا بواسطة قطع مواصلاتها البحرية عنها كان يتوجب تسخير كل إمكانات الرايخ الصناعية لخدمة إنتاج

[١] يعني تنفيذ غارات جوية مكثفة لمدة طويلة ضد كافة الأهداف المدنية و العسكرية بهدف ضرب الجبهة الداخلية و تركيع قيادة الدولة المستهدفة.

الغواصات و الطائرات الألمانية، و كان لزاماً أن يتم تخفيض القوة البشرية للجيش لصالح الصناعة.

و قد أظهر طول مدة الصراع مساوئه فلا أحد يعلم ما المدة التي سيظل الروس صامتين فيها، كما أن تقليص القوات البرية الألمانية و شغل قواتها الجوية بالحرب مع بريطانيا قد يمكنا الإتحاد السوفييتي من – حتى لو لم يدخل في الحرب – ممارسة الإبتزاز السياسي.

و خطر آخر تجسد في إحتمالية تدخل الأمريكيين – الذين لا يمكنهم الإكتفاء بمشاهدة بريطانيا تُدحر ببطء – في مرحلة مبكرة من الحرب، و كان يمكنهم التدخل بسرعة نسبية في أي معركة بين الأساطيل البحرية و الجوية فلو كانت ألمانيا تغزو بريطانيا سيكون تدخلهم في هذه الحالة بعد فوات الأوان، و برغم ذلك لو كانت لدى الرايخ سياسة إستراتيجية حقيقية فسيكون ممكناً تحقيق النجاح في هذا المجال (غزو بريطانيا)، و لا يجب أن يغيب عن الأذهان دوماً خطر تدخل الإتحاد السوفييتي أو الولايات المتحدة، و هو ما أثبت أولوية تدمير سلاح الجو الملكي و التفرغ بعدها لقطع خطوط الإمداد البريطانية في البحر، و أي خروج عن ذلك و إستهداف معنويات المدنيين بواسطة الغارات الجوية على المدن لن يؤدي إلا لتقليص فرص تحقيق النصر.

أما الطريقة **الثانية** لتحطيم بريطانيا فسأطلق عليها "الصراع على البحر المتوسط"، فقد كان "هتلر" و كل القيادة العسكرية الألمانية في غضب شديد بسبب عدم قدرتهم حينها على التحرر من فكرهم "القاري" و الإلتفاف لأهمية البحر المتوسط بإعتباره شريان حياة الإمبراطورية البريطانية.

صحيح أن "هتلر" كان يفكر بمنطق "القارية" فقط، و ما يمكن التساؤل بشأنه هو ما إذا كان خسارة بريطانيا لمواقعها على البحر المتوسط سيدفعها للخضوع و الإستسلام؟ و ما النتائج التي ستترتب على غزو البحر المتوسط على الرايخ؟

من غير المتنازع عليه أن خسارة بريطانيا للمتوسط ستكون ضربة قوية لها، فالنتائج المترتبة على ذلك بالنظر إلى الهند و الشرق الأدنى و إمدادات الوقود ستكون مميتة للغاية، فضلاً عن أن غلق البحر أمام بريطانيا سيفاقم مشكلاتها الغذائية.

لكن هل هذه الضربة مميتة؟ من وجهة نظري لا، فبريطانيا ستظل محتفظة بروابطها مع الشرق الأوسط و الأقصى عبر رأس الرجاء الصالح و هذا الرابط لا يمكن قطعه بأي حال إلا بواسطة ضرب الحصار على الجزر البريطانية ذاتها بإستخدام غواصات "يو-بوت" و اللوفتافا، بمعنى آخر عبر اللجوء إلى الوسيلة سالفة الذكر، و هذا سيستهلك موارد اللوفتافا أجمعها و لا يترك أي شيء يستخدم في مسرح عمليات البحر المتوسط، و مهما كانت خسارة بريطانيا لمواقعها في "جبل طارق" و جزيرة "مالطة" و مصر و الشرق الأدنى مؤلمة إلا أنها ليست مصيرية، و كل ما ستؤدي إليه هو تعزيز صلابة الإرادة الوطنية البريطانية، فالأمة البريطانية سترفض الهزيمة و ستستمر في القتال بعزيمة أشد، كما أنها قد تكون كذبت بشأن إعتبار البحر المتوسط هو شريان الحياة بالنسبة للإمبراطورية، كما أنه من المستبعد أن يتخلى أهل السلطنة و الفئة الحاكمة و حاشيتها عن سلطانهم.

أما بالنسبة للسؤال حول النتائج التي تتمخض عن الصراع على المتوسط على الرايخ فالنقطة الأولى هنا هي أنه رغم إمتلاك إيطاليا قواعد متميزة للعمليات هناك إلا أن جيشها قدم إسهامات متواضعة، و هو الأمر الذي كان واضحاً وضوح الشمس و لا حاجة لذكر أدلة عليه، كما أنه لم يكن متوقعاً أن يستطيع الأسطول الإيطالي طرد البريطانيين من البحر المتوسط.

لذا يجب أن تقوم ألمانيا بالمجهود الأساسي في الصراع و التي لن تكون مدعومة بفكرة إعتبار حليفتها إيطاليا للبحر المتوسط بحراً خاصاً بها و بالتالي ستطالب بالهيمنة الكاملة عليه.

لو كنا نسعى لطرد بريطانيا من مواقعها على البحر المتوسط عبر اللجوء إلى توجيه ضربة قاضية لها فيتوجب علينا السيطرة على "جبل طارق" و "مالطة" و طردهم من اليونان و مصر، و بالتالي لا يثور أي شك حول أنه لو كانت ألمانيا تريد جعل البحر المتوسط محور إستراتيجيتها فعليها أن تنفذ تلك المهمة بطريقة عسكرية.

و لكن لن يكون ذلك هو نهاية الأمر، فالسيطرة على "جبل طارق" تستوجب رضاء الأسبان – و هو الأمر المستحيل - أو الضغط عليهم كي يتقبلوا ذلك، و أي سبيل آخر نتبعه سيعني القضاء على حيادية أسبانيا، و لن يكون أمام الرايخ خيار سوى تولي أمر حماية الساحل الأيبيري – سواء بموافقة أسبانيا و البرتغال أم بدونها – بهدف ضمان

خطوط الإمداد الواقعة في تلك المنطقة، و علينا توقع مقاومة كلتا الدولتين خاصة البرتغال التي ستستولي بريطانيا حينها على مستعمراتها، و على أية حال فإن شبه الجزيرة الأيبيرية ستتطلب قدراً كبيراً من الجيش الألماني على المدى الطويل، كما أن تداعيات إحتلال أسبانيا و البرتغال في الولايات المتحدة و أمريكا اللاتينية ستكون وخيمة.

إن لم يتم التوصل لتسوية حقيقية مع فرنسا – و التي كانت خارج المسألة فيما يتعلق بالمطالبات الأسبانية و الإيطالية على مستعمراتها – فيكون لزاماً أن نحتل شمال أفريقيا لمنع القوة البحرية البريطانية من أي موطئ قدم ممكن لها على البحر المتوسط.

و بمجرد طرد البريطانيين من مصر و اليونان فستتضح أهمية القيام بعملية إنزال في الشرق الأدنى بالنظر إلى أي تحرك من جانبنا شرق المتوسط خاصة إن تذكرنا رغبتنا في قطع إمداد النفط عن بريطانيا، كما أن فكرة إنشاء قواعد ألمانية في الشرق الأدنى ستكون لها المزايا التالية: إحتمالية تهديد الهند و الجبهة الأخرى للإتحاد السوفييتي لمنعه من التدخل ضد ألمانيا، و أشعر بعدم واقعية تلك الإفتراضات، فبصرف النظر عن موقف شعوب الشرق الأدنى تجاه فكرة إنشاء قواعد ألمانية على أراضيهم توجب أخذ أمران في الإعتبار:

١. لا يمكن تنفيذ أي عمليات ضد الهند أو الإتحاد السوفييتي إنطلاقاً من الشرق الأدنى بالنظر لإعتبارات الإمداد فقط بما يضمن تحقيق أي نجاح ، فلكونها قوة بحرية نجد أن لبريطانيا اليد العليا هنا.
٢. إن ظهور ألمانيا في الشرق الأدنى لن يقلل خطر تدخل الإتحاد السوفييتي ضدها بل سيزيد منه.

من وجهة نظري يكمن جوهر مشكلة البحر المتوسط في الآتي:

إن خسارة بريطانيا لمواقعها لن يحسم مصيرها بشكل نهائي.

لتوضيح ذلك نقول أن الصراع على السيادة في البحر المتوسط سيثبط قوات عسكرية ألمانية ضخمة عن أداء مهامها لمدة طويلة مما يزيد من الإغراء أمام الإتحاد السوفييتي للتدخل في الحرب ضدنا، و هذا ما يتأكد بالنظر إلى الغنائم التي يسيل لها لُعاب

السوفييت – الهيمنة على البلقان و الشرق الأدنى – و التي لا سبيل لها سوى بتحقيق النصر على ألمانيا.

إن السعي لتحطيم بريطانيا عبر البحر المتوسط سيخلق موقفاً مشابه لما حدث مع "نابليون" عندما أراد توجيه ضربة قوية لبريطانيا في الهند عبر مصر، و هو الأمر الذي يعني توريط القوات الألمانية لمدة طويلة في أسلوب لا يحسم المعركة لصالحها، و الأدهى من ذلك إنه سيمكن بريطانيا الأم من إعادة التسلح و يمنح الإتحاد السوفييتي الفرصة المناسبة لمواجهة الرايخ.

في حقيقة الأمر كانت وسيلة البحر المتوسط سبيلاً نتجنب به إتخاذ قرار شعرنا بعدم القدرة على تنفيذه تجاه أرض بريطانيا ذاتها مباشرة.

و يحضرنا ذلك إلى ما كان سيحدث في ١٩٤٠ من غزو للجزيرة البريطانية.

و قبل الخوض في ذلك يجب ملاحظة عدم توفير "هتلر" للقوات اللازمة في الوقت المناسب فيما يتعلق بإستراتيجيتنا حول البحر المتوسط – و هو عين ما حدث لاحقاً في روسيا، كما أن إمتناعه عن غزو "مالطة" – و هو ما كان ممكناً في المراحل المبكرة - كان خطأ فادحاً، و هذا الخطأ يمكن إعتباره أحد العوامل الحاسمة التي قادت للخسارة النهائية لشمال أفريقيا التي حدثت فيما بعد.

على كلٍ، بحلول يونيه ١٩٤٠ كان "هتلر" قد صاغ أوامر غزو بريطانيا – و التي لم يصدر بها قرار واضح – و أمر ببدء الإستعدادات المناسبة.

و بدأ التحضير للعملية تحت الإسم الكودي "أسد البحر" و التي سيبدأ تنفيذها فور تهيؤ الظروف لذلك، الأسلوب الذي تم على أساسه وضع خطة التنفيذ و ما ترتب عنه من مشاحنات – بشكل رئيسي بين هيئات أركان الجيش و نظيرتها في الأسطول – تم إتباعه من قبل، و هو ما نجمت عنه الأسباب التي دفعتنا للتخلي عن مشروع العملية.

كل ذلك سنناقشه هنا بفحص تلك الأسئلة المهمة:

١. هل سيؤدي غزو بريطانيا إلى دفعها للإستسلام؟
٢. هل من المتوقع نجاح الغزو؟ و ما هي نتائج الفشل؟
٣. ما الأسباب التي دفعه "هتلر" في نهاية الأمر إلى التخلي عن الخطة – و عن فكرة غزو بريطانيا برمتها – و التحول إلى الإتحاد السوفييتي؟

الإجابة على السؤال الأول هي أن الغزو هو أسرع وسيلة لتحييد بريطانيا، و الطريقتان الأخريتان اللتان ناقشناهما سلفاً لم يكونا ليأتيا بنتيجة سريعة، و لكن هل الحل المذكور هنا سيكون نهائياً؟ الإجابة هي إحتمالية قيام "تشرشل" و حكومته – بعد سقوط الجزيرة البريطانية – بمواصلة إدارة الحرب من كندا، و لا يمكن التنبؤ بموقف حاشيته من حيث هل سيتبعون قائدهم أم لا، لذا لا يعني غزو الجزيرة ذاتها الهزيمة الكاملة للإمبراطورية.

(سواء قام الشعب البريطاني – على عكس الفرنسي – بالمقاومة في حال نجاح الغزو أم لا ،أو سواء وقعت الحكومة الإستسلام – كما فكر "تشرشل" في إحتمالية حدوثه، و كلها أمور لا مجال لمناقشتها هنا.... الكاتب)

و يجب أن تكون النقطة الجوهرية هي الآتي: إن قيام ألمانيا بغزو الجزيرة سينجم عنه طرد الطرف الآخر من أقوى قواعده و التي يمكن إستخدامها في تنفيذ أي غزو على أرض القارة الأوربية من جهة البحر، فشن الهجوم من المحيط الأطلنطي بدون إستخدام هذه الجزيرة كرأس حربة هو أمر أبعد من حدود الممكن تلك الأيام – حتى لو تدخلت الولايات المتحدة في الحرب، و لا يمكن بالتالي الشك في قدرة ألمانيا على التعامل مع الموقف في البحر المتوسط مع إتمام إحتلال بريطانيا و القضاء على سلاح الجو الملكي و تشتت أسطولها في المحيط الأطلنطي و جعل إمكانات الجزيرة الحربية بلا قيمة و ذلك بدون أي جدال.

من هنا يجب القول بأنه حتى لو حاولت الحكومة البريطانية أن تستمر في القتال عقب هزيمتها في أرضها الأم فستكون فرصتها في إحراز أي نصر ضئيلة، و السؤال هل سيستمر أهل السلطنة و حاشيتها في دعم الحكومة في مثل هذه الظروف ؟

هل سيستمر التهديد السوفييتي لألمانيا قائماً حتى لو خسر الروس إمكانية التعويل على فتح جبهة ثانية على الألمان في أي صراع في المستقبل القريب؟ ألن يتحول رد فعل "ستالين" إلى جهة أسيا – بعد الإتفاق مع "هتلر" ؟ هل ستاخذ الولايات المتحدة على عاتقها القيام بحملتها الصليبية ضد ألمانيا و تتحمل تكلفتها لوحدها؟

لا يمكن العثور على أي إجابة مقنعة للتساؤلات السابقة في يومنا هذا، و لا في أي وق لاحق....

يجب الإعتراف بعدم قدرة الرايخ على تحقيق السلام عبر البحار، و لكن هناك شيء واحد مؤكد و هو أن الموقف الذي سيكون عليه بعد نجاح غزو بريطانيا سيكون أفضل بكثير مما صار عليه وفقاً للطريق الذي سلكه "هتلر".

و من وجهة النظر العسكرية كان غزو بريطانيا في صيف ١٩٤٠ هو أفضل الحلول خاصة مع وجود فرص كثيرة للنجاح، أما عن الخطوات الواجب إتخاذها لإحلال السلام – و هو الهدف الأساسي من النصر الألماني – فهي موضوع يخرج عن دائرة هذه الدراسة العسكرية.

لنرجع إلى الجوانب العسكرية و نسعى للفصل في مدى فرص نجاح عملية غزو بريطانيا في ١٩٤٠.

من وجهة نظري ستظل الآراء حول تلك المسألة منقسمة، فقد تضمنت العملية "أسد البحر" بالتأكيد مخاطر جمة.

و مع ذلك ليس من الكاف النظر إلى القدر المهول من المعدات التي كان الحلفاء يمتلكونها في غزو عام ١٩٤٤ للتأكيد على أن أي غزو ألماني يعتمد على طريقة بدائية لنقل المعدات عبر البحر سيتعرض بالطبع للإجهاض، كما أنه ليس من الكاف الإشارة إلى التفوق الجوي و البحري الكاسح للحلفاء في ١٩٤،رغم أن كلا العاملين يتسمان بالحسم.

بينما لم تكن ألمانيا تمتلك هاذين العاملين في صيف ١٩٤٠ إلا أنها تمتعت بميزة عدم إحتمال مواجهة أي دفاع منظم على الساحل البريطاني في صورة قوات جيدة التسليح و التدريب و القيادة، و تبقى الحقيقة المتجلية في كون بريطانيا عاجزة عن الدفاع عن نفسها في صيف ١٩٤٠ مهما تحدثنا عن قواتها البرية، و هذا العجز كان ليصبح نهائياً لو لم يسمح "هتلر" بهروب قوات الإمبراطورية البريطانية من "دانكيرك".

كان نجاح غزو بريطانيا في صيف ١٩٤٠ يعتمد على عاملين:

١. التنفيذ في أقرب وقت ممكن بحيث يمكننا توجيه الضربة لها و هي في حالة العجز و إستغلال ميزة الطقس الصيفي – فوفقاً لما شهدناه من القنال الإنجليزي تبين لنا أنه يكون هادئاً في شهور يوليه و أغسطس و حتى بداية سبتمبر.

٢. قدرتنا على تحييد سلاح الجو الملكي و الأسطول البريطاني في منطقة القنال خلال مدة العبور و المدة التي تعقبها مباشرة.

و في نفس الوقت لا ينكر أحد حقيقة تضمن العملية "أسد البحر" لمخاطر جمة برغم عدم قدرتنا على التأكد من ظروف الطقس و مدى قدرة اللوفتافا على تحقيق السيادة الجوية على الأقل فوق القنال، و قد بدا التردد واضحاً على وجوه قيادات الفيرماخت بالنظر إلى تلك المخاطر المرتبطة بالعملية، فخضعت لمراجعات عدة.

كما أن قصد "هتلر" لم يكن واضحاً حينها، و قد كانت الإستعدادات على كل المستويات ناقصة بما فيها القيادة ، و قد إعتبر الجنرال "جودل" – رئيس هيئة الأركان المشتركة لأفرع القوات المسلحة – أن أي محاولة للغزو هي ضرب من الرعونة الغير مبررة بالنظر إلى الموقف السائد كلية.

أما القائد العام للوفتافا "جورينج" فلم يكن يعتبر الهجوم الجوي على بريطانيا ركناً أساسياً – رغم حيويته – في عملية الغزو التي سينفذها الفيرماخت، و على النقيض فإن الطريقة التي أدار بها موارد اللوفتافا - و بددها في نهاية الأمر – تشير إلى أنه إعتبر الهجوم الجوي على الجزيرة مسألة شخصية يتولاها بنفسه.

أما عن القيادة العليا للأسطول – و هي الجهة صاحبة الحق الأصيل في مناقشة أي عملية غزو لبريطانيا – فبالكاد توصلت من دراستها حول المشكلات التي قد تتعرض لها العملية إلى أن تنفيذها سيحتاج إلى متطلبات أكثر تعقيداً، و بصرف النظر عن ذلك فهي الجهة الأكثر إدراكاً لعدم مناسبة معداتها للعملية.

أما عن الجهة صاحبة وجهة النظر الأكثر إيجابية حول هذا الموضوع فكانت *القيادة العليا للجيش*، رغم أنها لم تكن تفكر في عملية الغزو قبل سقوط فرنسا.

و الشيء الوحيد المؤكد هو أن أولئك الأشخاص المعرضون للهلاك إن تم تنفيذ العملية – أفراد التشكيلات المشاركة في الغزو – هم أكثر الأشخاص الذين بدت عليهم الحماسة و الحيوية أثناء التدريبات، و أنا أشعر بوجوب ذكر ذلك لأن التشكيل الذي أقوده – الفيلق الثامن و الثلاثين – كان ضمن أول موجة تقرر أن تنطلق من المنطقة بين "بولون" و "إيتابل" و تحط على المنطقة البريطانية المقابلة من الساحل و الممتدة بين "بيكسيل" و "بيتشي هيد"، و قد كنا واثقين من النجاح بصرف النظر عن المخاطر، و

في نفس الوقت لم نكن ندرك الشكوك التي ثارت حول فرعي القوات المسلحة الآخرين، خصوصاً البحرية.

من المعروف جيداً وجود سببين دفعا "هتلر" للتخلي عن العملية "أسد البحر": **الأول** كان طول المدة التي تحتاجها التدريبات مما يعني عدم عبور الموجة الأولى قبل ٢٤ سبتمبر، و هو الموعد الذي لا يؤمل بعده –حتى لو نجحت الموجة الأولى - في إستمرار الطقس الجيد و الضروري للمتابعة، أما **الثاني** – و هو العامل الحاسم – تمثل في حقيقة عدم تمكن تحقيق اللوفتافا السيادة الجوية في السماء البريطانية حتى ذلك التاريخ.

و حتى لو تم قبول هاذين العاملين كأساس للتخلي عن الغزو في سبتمبر ١٩٤٠ فإن ذلك يظل لا يجيب على التساؤل حول مدى إمكانية تنفيذ الغزو الألماني لو تعاملت القيادة الألمانية مع بعض المسائل بأسلوب مختلف، و مع ذلك يظل ما ذُكر آنفاً هو الأساس الذي قام عليه قرار "هتلر" حول تجنب الدخول في صراع بقاء مع بريطانيا و التحول إلى الإتحاد السوفييتي.

و بالتالي تكون المشكلة هنا حول مدى كون العاملين المشار إليها سلفاً – تأخير تنفيذ الغزو و الشكوك حول إمكانية حسم معركة بريطانيا – لا مفر منهما من عدمه.

فيما يتعلق بالعامل **الأول** – تأجيل عملية الإنزال حتى نهاية سبتمبر – فكان يمكن تجنبه بالتأكيد، إن وجود خطة حرب تركز على مسألة هزيمة بريطانيا هو جزء أساسي من الإستعدادات الفنية للغزو كان يمكن إتمامه قبل إنتهاء الحملة على الغرب، كما أن وجود مثل تلك الخطة كان ليمنع "هتلر" - مهما كانت دوافعه لذلك - بالتأكيد من السماح للقوات البريطانية من الهروب من "دانكيرك"، و في أسوأ الحالات كان تأخير موعد الإنزال حتى دخول الخريف لو كان القرار الألماني بشان غزو بريطانيا تم إتخاذه على الأقل عند سقوط فرنسا – منتصف يونيه – و ليس بعد ذلك بشهر كامل – منتصف يوليه، إضافة إلى ذلك فإن الإستعدادات للغزو و التي بدأت في يوليه على قدم و ساق تمت كاملة في منتصف سبتمبر، و لو كان القرار قد صدر قبل ذلك بشهر لتم عبور القنال الإنجليزي في منتصف أغسطس.

أما بالنسبة للمجرى غير المرضي الذي إتخذته معركة بريطانيا و الذي كان العامل **الثاني** في هجر عملية "أسد البحر" فيجب وضع النقاط التالية في الإعتبار:

إن فكرة تحقيق السيادة الجوية في سماء بريطانيا بواسطة حرب جوية تبدأ منفردة قبل أقرب موعد لبدء الغزو هي عبارة عن خطأ من القيادة.

إن تحقيق السيادة الجوية فوق بريطانيا قبل بدء الغزو هي أمر مفترض لضمان نجاحه، و هو الأمر الذي يعد تبديداً سابقاً لأوانه لقوة اللوفتافا في معركة تدور تحت ظروف ليست في صالحه.

يتوجب أن يثير التقييم المعتدل لقوة اللوفتافا مقارنة بقوة العدو الشكوك حول مدى قدرة و مناسبة قوات اللوفتافا لتنفيذ أعمال عدوانية ضد سلاح الجو الملكي و مراكز الإنتاج التابعة له تحسم نتيجة المعركة لصالحها فوق بريطانيا.

أولاً إن قيادة اللوفتافا إستهانت بقيادة المقاتلات و بالغت في تقييم قوة قاذفاتها بجانب أنها سمتحت بتعرضها لمفاجأة إكتشاف وجود نظام رادار قوي و فعال لدى العدو.

إضافة إلى ذلك كان معروفاً أن مدى و نطاق عمل القاذفات و بعض المقاتلات أقل مما هو مطلوب، و لذا تمكن سلاح الجو الملكي من صد الضربات الموجهة له، كما أن المقاتلات الألمانية فوق بريطانيا كانت تعمل في ظروف ليست في صالحها بل في صالح العدو، كما أن القاذفات نظراً لعددها الكبيرإفتقرت لوجود مقاتلات تخرج معها لتوفير الغطاء الحامي لها.

و هذا الإعتبار فقط هو ما كان يتوجب أن يحسم قيام قيادة اللوفتافا بإتخاذ القرار بشأن الدخول في صراع مع سلاح الجو الملكي، بحيث كان عليها أن تستدرج سلاح الجو الملكي حتى تجبره على منازلته تحت ظروف في صالحها مع بدء تنفيذ العمليات على الأرض بالتزامن مع ذلك.

و أخيراً نجد أن القيادة الألمانية قد إرتكبت خطأ آخر عندما قامت بتحويل الهدف العملياتي لهجماتها الجوية في اللحظة التي – بصرف النظر عن العيوب غير المتوقعة التي شابت اللوفتافا مقارنة بسلاح الجو الملكي – كانت فيها نتائج الهجمات متعادلة، في ٧ سبتمبر تم تحويل الثقل الرئيسي للهجمات إلى "لندن" و هي الهدف الذي لا قيمة له بالنسبة لعملية الغزو.

و رغم كون تحقيق السيادة الجوية في سماء المعركة أمراً مرغوباً فيه بالنسبة لأي عملية غزو دوماً إلا أن المراجعات الدقيقة لكل العوامل المحيطة بالعملية كانت لتدفع القائد الألماني الأعلى لتوجيه اللوفتافا لتوجيه ضربتها القوية بالتزامن مع بدء الغزو.

و للمرء أن يعترض بأن موارد اللوفتافا تم تخصيصها للقيام بمهام كثيرة نذكر منها :

١. مهاجمة القواعد الجوية البريطانية في شمال إنجلترا.
٢. حماية عمليات تحميل القوات على السفن في الموانئ الفرنسية.
٣. حماية وسائل نقل القوات أثناء عبور القنال.
٤. دعم أول موجة من الغزو أثناء إنزال القوات.
٥. منع الأسطول البريطاني من التدخل بمعاونة الأسطول و المدافع الساحلية.

و لكن لم تكن كل هذه المهام في وقت واحد حتى و لو تطلب تنفيذها أن يتم بشكل متقارب زمنياً، فمثلاً لم يكن تدخل الأسطول البريطاني – بصرف النظر عن القطع الصغيرة منه الموجودة في موانئ جنوب إنجلترا – ممكناً قبل إتمام إنزال أول موجة من القوات.

كل شيء كان ليعتمد على نتيجة المعركة الجوية الكبيرة التي ستندلع فوق القنال أو جنوب إنجلترا بمجرد بدء القوات البرية في تنفيذ عملية الغزو، و كانت الظروف التي ستدخل اللوفتافا المعركة في ظلها لتكون أفضل من تلك السائدة داخل أراضي الدولة البريطانية.

طبيعي أن مثل هذا التصرف يعني المخاطرة بكل الأمور دفعة واحدة، و لكن هذا هو الثمن الذي كان على المرء دفعه بالنظر إلى ظروف المعركة إن تقبلنا المخاطرة و بدء الغزو.

و عندما تخلى "هتلر" فعلياً عن خطة غزو بريطانيا – لما تقدم ذكره من أسباب – في سبتمبر ١٩٤٠ كانت هذه الأسباب كافية لذلك التخلي في وقته، و سبب ظهورها جميعاً يرجع إلى غياب أي جهة داخل القيادة العليا الألمانية – بإستثناء "هتلر" رجل السياسة – تكون مسئولة عن السياسة الإستراتيجية الشاملة، فلا يمكن أن توجد أي جهة في الأوقات الحسنة لتضع خطة حرب تتضمن بريطانيا و تكون قادرة على إدارة الغزو بشكل موحد على مستوى أفرع القوات المسلحة الثلاثة.

لو تخلت بذا القيادة الألمانية عن فرصها في دخول جولة القتال الأخيرة مع بريطانيا و الخروج منها بنجاح فإن أسباب ذلك لا تكمن فقط في قصور هيئات الأركان بل في الفكر السياسي الذي كان يعتنقه "هتلر".

و لا يثور شك حول أن "هتلر" دوماً ما تمنى تفادي أي صدام مع بريطانيا و الإمبراطورية البريطانية، و قد ذكر مراراً أن الرايخ لا مصلحة له في تدمير الإمبراطورية البريطانية، فقد كان معجباً بتلك الإمبراطورية و إنجازاتها السياسية، و حتى لو لم يرد المرء منح الأمور قيمة من مظهرها إلا أنه من المؤكد أن "هتلر" كان على علم بأنه لو تدمرت الإمبراطورية البريطانية فلن يكون هو أو ألمانيا وريثتها بل الولايات المتحدة أو اليابان و ربما الإتحاد السوفييتي، و قد كان إتجاه "هتلر" نحو بريطانيا مهماً من الناحية الواقعية فهو لم يرد و لم يكن يتوقع أصلاً الدخول في حرب مع بريطانيا، و من ثم سعى لتجنب أي مناوشات معها لأطول فترة ممكنة.

و هذا الإتجاه – و أيضاً حقيقة عدم توقعه لمثل هذا النصر الساحق على فرنسا – يشرح فشل "هتلر" في تبني خطة حرب تستهدف إلحاق الهزيمة ببريطانيا بمجرد الإطاحة بفرنسا، و النقطة المحورية هنا هي أنه لم يكن يريد أي إنزال على الأراضي البريطانية، كما أن مفاهيمه السياسية كانت متعارضة مع المتطلبات الإستراتيجية التي تبعت تحقيق النصر في الغرب، و ما كان كارثياً بخصوص مفاهيمه تلك أنها لم تتضمن أي شعور بعطف أو شفقة تجاه بريطانيا.

أما عن إتجاه "هتلر" نحو الإتحاد السوفييتي – على الناحية الأخرى – فقد كان مختلفاً تماماً برغم التحالف الذي عقده مع "ستالين" في ١٩٣٩، فهو كان فاقداً للثقة و مستهيناً بالروس في نفس الوقت، كما أنه كان يخشى ميل الروس التقليدي للتوسع رغم كونه هو من فتح لهم الطريق إلى الغرب بتوقيعه معاهدة "موسكو".

و قد يفترض المرء أن "هتلر" كان يدرك أن القوتين الشموليتين ستتصادمان عاجلاً أو آجلاً بعدما صارتا متجاورتين، و الأدهى من ذلك أن فكرة مساحة العيش "ليبنسروم" الواجب تأمينها للشعب الألماني كانت مستحوذة عليه تماماً، و هي ما يمكن العثور عليها فقط في الشرق.

و رغم عدم وجود أي خيط من العقلانية يمكنه الحؤول دون الصدام مع الإتحاد السوفييتي إلا أنها كانت لها أهمية خاصة بالنسبة لشخص مثل "هتلر" و الذي بدا أنه قد

صار بعد سقوط فرنسا "سيد أوربا"، و أدى تسارع تموضع القوات السوفييتية على الحدود الشرقية لألمانيا إلى تغذية مشاعره و هو الإتجاه ظهر نتيجة قصور السياسات المستقبلية للكريملين.

"هتلر" يواجه الآن مشكلة غزو إنجلترا، و هو كان على وعي بالمخاطرة التي تتضمنها تلك العملية، فإن فشلت عملية الغزو ستضيع القوات المشاركة فيه من الجيش و الأسطول و حتى من اللوفتافا الذي سيزداد ضعفاً، و لكن هذا الفشل لن يؤدي – من وجهة النظر العسكرية الضيقة - في الوقت ذاته إلى إضعاف القوة العسكرية اللمانية بشكل لا يمكن إصلاحه، التأثير الأبعد سيكون في الحقل السياسي: فمن جهة هذا الفشل قد يدفع بريطانيا على مواصلة الحرب و من جهة أخرى قد يؤثر على إتجاه الولايات المتحدة و الإتحاد السوفييتي نحو دخول الحرب، و الأهم من كل ما سبق إن مثل هذا الإخفاق العسكري قد يؤثر سلباً على مظهر الدكتاتور في ألمانيا و العالم أجمع.

و هذا الخطر الأخير لا يمكن أن يتحمله الدكتاتور، تماماً كإتجاهه نحو الإمبراطورية البريطانية الذي جعله يلقي أي تفكير حول الصدام معها وراء ظهره و كتقييمه الخاطئ للعقلية البريطانية الذي شجعه على أن يأمل بإمكانية التوصل لتفاهمات في النهاية، لذا وجدناه الآن يتراجع عن تقبل المخاطرة، لقد أراد أن يتجنب مجازفة الدخول في صراع بقاء مع بريطانيا، و قد إعتقد بأمكانية إقناعها بالتوصل لتسوية عبر كسر ذراعها الطولى التي تهدد بها الأرض الألمانية – سلاح الجو الملكي – و ذلك بدلاً من السعي إلى تدميرها.

و لكن عبر تراجعه هذا عما كان يعتبر مخاطرة عسكرية و سياسية إرتكب "هتلر" خطؤه الأكبر من حيث التقييم، و الأمر المؤكد هو أن "هتلر" لو توقف عن خوض المعركة مع بريطانيا في أفضل الأوقات لصالحه فستصبح ألمانيا عاجلاً أو آجلاً في موقف لا تحسد عليه، و كلما طالت الحرب مع بريطانيا كلما تعاظم الخطر الذي يهدد الرايخ من جهة الشرق.

عندما قرر "هتلر" عدم المغامرة بتوجيه الضربة القاضية لبريطانيا في صيف ١٩٤٠ – و أضاع فرصة نادرة بقراره هذا – لم يعد بمقدوره الإعتماد على مدى تمتعه بضبط النفس، و لهذه النقطة نجد إتخذ قراره بشأن خوض المغامرة المتمثلة في محاولة القضاء

على الإتحاد السوفييتي بواسطة شن حرب وقائية في الوقت الذي خلا فيه الغرب من أي عدو قادر على منازلته على أرض القارة.

في الواقع عنى ذلك أن "هتلر" تقبل المخاطرة الأكبر بحرب على جبهتين بسبب نجاحه في تجنب المخاطرة بغزو بريطانيا، و في نفس الوقت أضاع عاماً كاملاً في وضع خطة الغزو ثم التخلي عنها، و هذا التأخير لم يكن أبداً في صالح ألمانيا.

بإلغاء عملية "أسد البحر" في نهاية سبتمبر ١٩٤٠ عاد الفيلق الثامن و الثلاثين إلى تدريباته العادية، كما إنسحبت المعديات المخصصة لنا من موانئ القنال الإنجليزي حيث كانت معرضة لخطر هجمات سلاح الجو الملكي، و لم نسمع أي نبأ في تلك المرحلة عن نوايا "هتلر" بخصوص الإتحاد السوفييتي و قراره النهائي بشأن الهجوم تم إتخاذه في وقت لاحق، و لم تبدُ لي أي أمارات عما سيحدث إلا في ربيع ١٩٤١ عندما تم منحي منصباً جديداً.

الباب الثالث

الحرب في الشرق

٨

قيادة البانزر

بنهاية فبراير ١٩٤١ تركت قيادة الفيلق الثامن و الثلاثين على ساحل القنال الإنجليزي و توليت قيادة الفيلق ٥٦ بانزر و الذي كان مقره في ألمانيا، بالنسبة لي فقد حقق هذا أمنية طالما حلمت بها حتى قبل الحملة على الغرب و هي قيادة أي فيلق ميكانيكي في الجيش.

و كقائد فيلق بالطبع لم تُطلب مشورتي حول وسيلة و كيفية سير الحملة على الإتحاد السوفييتي، كما أننا لم نتسلم أوامر العمليات الخاصة بنا إلا في مرحلة متأخرة – في مايو ١٩٤١ حسبما أتذكر – و هي لم تغطى سوى المهام الفورية المخصصة على مجموعة البانزر التي يتبعها فيلقي.

لذا و فيما يتعلق بسير العمليات في الإتحاد السوفييتي في ١٩٤١ لا أستطيع التعليق عليها بالقدر الذي فعلته إزاء الحملة في الغرب حيث كان لي تأثير على الشكل النهائي لخطتها.

و مع ذلك أعتقد أن هناك عاملين تجليا بوضوح حينها:

الأول تمثل في خطأ "هتلر" في الإستهانة بموارد الإتحاد السوفييتي و المهارات القتالية للجيش الأحمر، و هو ما نتج عنه إفتراضه أن الإتحاد السوفييتي يمكن الإطاحة به بالوسائل العسكرية في حملة واحدة، و لو كان ذلك ممكناً فتحقيقه ممكن عبر السعي نحو إنهيار الإتحاد السوفييتي من الداخل بشكل متزامن مع الحملة العسكرية، و لكن

السياسات التي أقرها "هتلر" في الشرق عبر مفوضي الرايخ و فرع الأمن في الأراضي المحتلة في الشرق أنتجت العكس تماماً، بمعنى آخر بينما كانت إستراتيجيته هي تدمير النظام السوفييتي في أسرع وقت ممكن إلا أن تصرفاته السياسية كانت متناقضة مع ذلك بكل ما تحمله الكلمة من معنى، و قد ظهرت الإختلافات في الأهداف بين القادة العسكريين و السياسيين غالباً في حروب أخرى، أما في هذه الحالة التي توحد فيها القائد السياسي و العسكري في شخص "هتلر" فقد حدث أن دارت سياساته في الشرق بشكل معاكس تماماً لمتطلبات إستراتيجيته حارمةً إياها من أي فرصة لتحقيق النصر السريع.

الثاني هو الفشل في تحقيق سياسة إستراتيجية موحدة في القمة – بين "هتلر" و *القيادة العليا للجيوش الألمانية*– و هو ما تجلى في وضع الخطة العامة و في تنفيذها أثناء الحملة عام ١٩٤١.

كانت أهداف "هتلر" الإستراتيجية مبنية أساساً على إعتبارات سياسية و إقتصادية و هي :

١. السيطرة على "لينينجراد"[١] و هي المدينة التي إعتبرها مهد البلشفية، و بالسيطرة عليها بمساعدة الفنلنديين يمكنه الهيمنة على البلطيق.
٢. السيطرة على المناطق الزاخرة بالمواد الخام في أوكرانيا و مراكز تصنيع الأسلحة في حوض نهر "دونتز" الأوكراني و حقول النفط القوقازية، و قد أمل "هتلر" في أنه عبر السيطرة على تلك المناطق سيتمكن من ضرب الإقتصاد الحربي السوفييتي في مقتل.

و قد رأت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* أن السيطرة على تلك المناطق يتطلب أولاً هزيمة الجيش الأحمر، و قد رأت كذلك أن الكتلة الرئيسية لهذا الجيش يمكن الإلتقاء بها على الطريق إلى "موسكو" بإعتبار هذه المدينة هي مقر السلطة السوفييتية و التي لن يخاطر النظام الحاكم بخسارتها.

(لم تتأكد صحة هذا التقدير بالكامل بالنظر إلى توزيع القوات السوفييتية..الكاتب)

هناك ثلاثة أسباب لذلك : **الأول** هو أن "موسكو" تمثل الآن – على عكس الوضع عام ١٨١٢ حينما غزا "نابليون" روسيا[١] – العاصمة السياسية لروسيا، و **الثاني** هي أن

[١] لينيجراد : سانت بطرسبرج حالياً و هي مدينة تقع شمال روسيا و فيها وُلد "فلاديمير لينين" مؤسس الشيوعية لذا لها قدسية عند الشيوعيين.

خسارة مراكز تصنيع الأسلحة حول "موسكو" و شرقها سيلحق ضرراً بالغاً بالإقتصاد الحربي السوفييتي، أما **ثالث** هذه الأسباب – وربما أهمها – فهو الموقع الإستراتيجي لمدينة "موسكو" بإعتبارها نقطة محورية على شبكة الطرق الأوربية الروسية، و خسارتها ستقسم الدفاعات الروسية إلى جزئين و تمنع القيادة السوفييتية من تخطيط أي عملية بشكل متناسق.

بالنظر من وجهة إستراتيجية فإن الإختلاف بين "هتلر" و *القيادة العليا للجيوش الألمانية* تتجسد في الآتي: أراد "هتلر" السعي للتحرك لعى جناحي الجبهة – و هو الحل الذي يتضمن شساعة إتساع مسرح العمليات في حين أن ألمانيا لا تمتلك القوات المناسبة – في حين سعت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* للتحرك على منتصف الجبهة.

و على أساس هذا الإختلاف حول الإستراتيجية الأساسية تم التوصل لتحديد مسار العمليات الألمانية، و رغم أن "هتلر" وافق على توزيع القوات الذي إقترحته *القيادة العليا للجيوش الألمانية* – وفقاً له يتم تقسيم القوات إلى مجموعتي جيوش في الشمال و واحدة فقط في المنطقة التي تقع جنوب مستنقعات "بينسك"[٢] – إلا أن لعبة شد الحبل تلك قد إستمرت حول الأهداف الإستراتيجية خلال الحملة، و النتائج الحتمية لذلك لم تكن فقط فشل "هتلر" في تحقيق أهدافه – و التي كانت مبالغاً فيها – بل إن الموقف زاد تعقيده بالنسبة *للقيادة العليا للجيش*.

تم تحديد القصد العام من حملة "بارباروسا"[٣] في التوجيه الصادر بها بـ(تدمير الكتلة الرئيسية من الجيش الروسي المتواجدة غرب روسيا بواسطة عمليات جريئة تتضمن عمليات إختراق عبر رؤوس حربة تنفذها القوات المدرعة و منع فلول العدو من الهرب إلى الداخل الروسي) و هو ليس سوى صيغة تكتيكية أو إستراتيجية، و أقر أننا حققنا نجاحاً إستثنائياً – بفضل تفوق مجموعة العمل الألمانية و الأداء المتميز لقواتنا – تسبب في وضع القوات المسلحة السوفييتية على شفير الهزيمة، و لكن تلك الصيغة لا يمكنها أن تحل محل أي خطة عمليات فيما يتعلق بالإستعدادات و التنفيذ و التي يتم إعدادها في القمة و التي – من زاوية المقارنة بين الجيوش المتحاربة من حيث القوة و المسافة التي تنفذ عليها – تقبل إفتراض الحاجة إلى حملتين لتدمير القوات المسلحة السوفييتية.

---

[١] كانت العاصمة حينئذٍ هي "سانت بطرسبرج".
[٢] جنوب بيلاروسيا حالياً.
[٣] باربارosa : الإسم الذي أطلقه "هتلر" على الحملة على روسيا نسبة إلى الملك الألماني فريدريك باربروسا.

بوصفي قائد فيلق – كما ذكرت آنفاً – لم أكن قادراً على الإطلاع على خطط و مقاصد القائد الأعلى، و لهذا السبب لم تثر أية شكوك لدي في ذلك الوقت حول الخلافات بين "هتلر" و *القيادة العليا للجيوش الألمانية* على طبيعة الإستراتيجية، و لكنني بدأت أشعر بتأثيرها.

كان على الفيلق ٥٦ بانزر أن يهاجم إنطلاقاً من "بروسيا الشرقية" بإعتباره جزءاً من مجموعة بانزر الرابعة التابعة لمجموعة الجيوش الشمالية.

و قد تم تكليف مجموعة الجيوش الشمالية – يقودها الفيلد مارشال "ريتر فون ليب" – بمهمة التقدم من "بروسيا الشرقية" لتدمير قوات العدو في منطقة بحر البلطيق و من ثم التقدم إلى "لينينجراد".

أما مجموعة بانزر الرابعة – يقودها الكولونيل جنرال "هوبنر" - فكانت مهمتها التقدم إلى نهر "دفينا" المقابل لمدينة "داوغافبيلس"[١] بهدف السيطرة على كل نقاط العبور تمهيداً لأي تقدم لاحق في إتجاه "أوبوتشكا"[٢].

و كان على الجيش السادس عشر بقيادة الكولونيل جنرال "بوزتش" و المتموضع على ميمنة مجموعة بانزر الرابعة أن يتقدم عبر "كاوناس"[٣]، أما على الميسرة فتواجد الجيش الثامن عشر بقيادة الجنرال "فون كوشلر" و تمثلت مهمته في التقدم بإتجاه "ريجا"[٤].

في ١٦ يونيه وصلت إلى منطقة تموضع الفيلق ٥٦ بانزر، و قد أصدر الكولونيل جنرال "هوبنر" الأوامر التالية بشأن تقدم مجموعة بانزر الرابعة:

على الفيلق ٥٦ بانزر – المكون من ثمان فرق بانزر و ثلاث فرق مشاة ميكانيكي و ٢٩٠ فرقة مشاة – الإختراق في إتجاه شرق الغابة الواقعة شمال نهر "ميمل" و شرق مدينة "تلسيت"[٥] و السيطرة على الطريق الواسع إلى "داوغافبيلس" شمال شرق "كوفنو"، و على ميسرته يتحرك الفيلق ٤١ بانزر - بقيادة الجنرال "راينهارد" و يتكون من ست فرق بانزر و ٣٦ فرقة مشاة ميكانيكي و ٢٦٩ فرقة مشاة – بإتجاه

[١] داوغافبيلس : مدينة تقع في لاتفيا حالياً.
[٢] أوبوتشكا : مدينة روسية قريبة من بحر البلطيق.
[٣] كاوناس : مدينة في ليتوانيا حالياً.
[٤] ريجا : عاصمة لاتفيا.
[٥] تلسيت : تقع في بروسيا الشرقية و إسمها الحالي سوفستك بسبب تغيير الروس لإسمها الأصلي بعد سيطرتهم على بروسيا الشرقية بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية.

"داوغافبيلس" عابراً نهر "جاكوبستاد"، و ستتبعنا فرقة "رأس الموت" من سرايا الدفاع – و التابعة لمجموعة البانزر – على إعتبار أننا الفيلق الذي يحقق أسرع تقدم.

و في سبيل تحقيق الهدفين المتمثلين في محاصرة قوات العدو قبالة نهر "دفينا" و المضي قدماً في تنفيذ عمليات مجموعة الجيوش الشمالية كان من الأهمية بمكان السيطرة على الجسور الواقعة على نهر "دفينا" خاصة و أن النهر الضخم هذا يشكل عقبة عسيرة التحطيم، و صار تقدم مجموعة بانزر الرابعة عبارة عن سباق بين الفيلقين في الوصول إلى النهر أولاً، وقرر الفيلق ٥٦ بانزر أن يقوم بذلك شتاءً للإستفادة من ميزة أن مقاومة العدو ستكون أقل في مؤخرته مما سيواجهه الفيلق ٤١ بانزر، و لهذا السبب تم منح هذا الأخير فرقة مدرعة أكثر مما في فيلقي، و قد إقترحت تركيز ثقل الرئيسي لهجومنا على أضعف نقاط العدو و لكن قيادة مجموعة البانزر لم تدعم ذاك الإقتراح.

قبل أن أتحول لوصف عمليات الفيلق ٥٦ بانزر يجب أن أبدي بعض الإهتمام لشأن يلقي بظلاله على مدى البون بين معايير الجنود و معايير القيادة السياسية.

قبل بدء الهجوم بأيام قلائل تسلمنا أمراً من القائد الأعلى للقوات المسلحة و الذي عُرف فيما بعد بـ"أمر الكوميسار[١]"، تضمن النص على إعدام كل كوميسارات الجيش الأحمر الذي وقعوا في أسرنا بإعتبارهم دُعاة الأيديولوجية البلشفية.

أتفق تماماً على أنه من وجهة نظر القانون الدولي فإن حالة أولئك الكوميسارات في غاية الإلتباس،فهم ليسوا جنوداً بالطبع إلا إذا إعتبرت أن "الجاولايتر"[٢] العامل معي مراقباً سياسياً لآداء الجنود، فلا يمكن منحهم مرتبة غير مقاتل مثل رجال الدين المصاحبين للقوات و لا الأطباء و المراسلين الحربيين، و على النقيض فإنهم كانوا – رغم أنهم ليسوا جنوداً – مقاتلين أشداء و لكن نشاط هؤلاء المقاتلين يعد غير مشروع وفقاً للمفهوم التقليدي للصراع الحربي فنشاطهم لم يقتصر على المراقبة السياسية لقادة الجيش السوفييتي العسكريين بل العمل على إضفاء أكبر قدر ممكن من الوحشية على العمليات القتالية و إكسابها شخصية هي أبعد ما تكون عن المفاهيم التقليدية المتعارف عليها للسلوك القتالي الذي يتبعه الجنود، كما أن أولئك الكوميسارات كانوا هم المسئولين

---

[١] كوميسار : رتبة للموظف السياسي التابع للحزب الشيوعي في الجيش الأحمر السوفييتي و تعني لغوياً المفوض.
[٢] جاولايتر : حاكم المقاطعة في القانون النازي.

بشكل أساسي عن أساليب القتال و أساليب معاملة الأسرى التي تناقضت تماماً مع نصوص إتفاقية "لاهاي" بشأن الحرب.

أيما كان إحساس المرء تجاه وضع الكوميسارات في القانون الدولي فإنه كان مما لا يليق بشيم الجندية أن يتم قتلهم بالرصاص بعد وقوعهم في الأسر، إن أي أمر مثل "أمر الكوميسار" لا يمت للجندية بصلة، كما أن تنفيذه سيلحق ضرراً بالغاً بشرف و أخلاقيات القوات المحاربة، و كنتيجة لذلك أبلغت قادتي أن تنفيذ "أمر الكوميسار" لا يمكن أن يتم تنفيذه بواسطة أي رجل تحت قيادتي و قد كان كل من تحت قيادتي متفقين معي – بمن فيهم أفراد الفيلق أجمعهم - على قلب رجل واحد في هذا الخصوص، و أحتاج لحمل قادتي على نفس ما أراه، و في نهاية المطاف و عقب جهد مضني تكللت مجهوداتي بشأن إلغاء "أمر الكوميسار" بالنجاح خاصة أنه تبدّا بوضوح أن مثل هذا الأمر سيحمل سائر الكوميسارات على حث جنودهم على القتال بأبشع أسلوب قتالي ممكن لضمان تماسك قواتهم للنهاية.

(عندما توليت قيادة الجيش الحادي عشر ظهر أن بقية الجيش تشاركني نفس وجهة النظر، و لم يتم تنفيذ "أمر الكوميسار" هناك أيضاً، و من تم قتلهم من الكوميسارات – و هم عدد قليل – كانوا تم القبض عليهم في خطوطنا الخلفية و تم الحكم عليهم بالموت بتهمة قيادة مجموعات "بارتيزان"[١] و كل الحالات تم تطبيق القانون العسكري عليها.. الكاتب)

في الساعة ١٣:٠٠ يوم ٢١ يونيه تم إخطار مجموعة قيادتنا بأن الهجوم سيبدأ الساعة ٠٣:٠٠ في الصباح التالي، لقد سبق السيف العزل.

لم يكن ممكناً إستخدام سوى الفرقة الثامنة بانزر و الفرقة ٢٩٠ مشاة في الهجوم على مواقع العدو الحدودية بسبب المساحة الضيقة التي تم تخصيصها لفيلقي في الغابة شمال نهر "ميمل"، لذا تم إستبقاء الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكا جنوب النهر.

و قد إلتقينا في المنطقة المجاورة للحدود بمقاومة ضعيفة ربما تكون قد أتت من المواقع الدفاعية الأمامية، و مع ذلك كان هناك تشبث قوي بموقع للعدو تجسد في حفرة محصنة يتمركز بها مدفع رشاش لم تتمكن من إختراقها سوى الفرقة الثامنة بانزر و التي تمكنت أيضاً من إختراق تحصينات العدو شمال نهر "ميمل" بحلول الظهيرة.

[١] بارتيزان : ميليشيا شيوعية عملت كخلايا مقاومة ضد الجيش الألماني في الأراضي الروسية.

و قد أظهرت القيادة السوفييتية وجهها الحقيقي في هذا اليوم الأول للهجوم، فقد مرت قواتنا على دورية ألمانية حاصرتها قوات العدو في وقت مبكر و وجدنا كل أفرادها قتلى و جثثهم قد مُثّل بها، لذا إتفقت مع قائد مجموعة البانزر على عدم السماح بوقوعنا في أسر مثل هذا العدو، و في وقت قريب وقعت حالات إدعى فيها الجنود السوفييت الإستسلام برفع أيديهم و ما إن إقترب المشاة الألمان منهم بمسافة كافية أخرجوا أسلحتهم و أطلقوا النار عليهم و حالات أخرى إدعى فيها المصابون السوفييت الموت و ما إن تدير قواتنا ظهورها لهم حتى يباغتونها و يطلقوا النار عليها من الخلف.

كان الإنطباع السائد لدينا هو أنه بينما تفاجأت بالهجوم القوات المعادية المنتشرة في المناطق الحدودية و على الخطوط الأمامية فإنه من المحتمل أن القيادة السوفييتية لم تكن تتوقعه ، و لهذا السبب لم تقم بوضع إحتياطاتها الكاملة على أهبة الإستعداد بشكل متناسق.

لقد كان هناك جدال ضخم حول مسألة كون القوات السوفييتية في حقيقة الأمر في أوضاع هجومية أم دفاعية، لو نظرنا إلى قوة القوات السوفييتية المنتشرة في الأجزاء الغربية من الإتحاد السوفييتي و قوة حشوده المدرعة في منطقة "بيالستوك"[١] و حول "لفيف" فسنجد أنه من الممكن أن يتولى السوفييت عاجلاً أو آجلاً زمام المبادرة و يقوموا هم بالهجوم و هو عين ما ذكره فيه "هتلر" بخصوص قراره بالهجوم، و من ناحية أخرى نقرر أن شكل القوات السوفييتية يوم ٢٢ يونيه لم يكن ليشير إلى أية نوايا عدوانية لدى الإتحاد السوفييتي.

أعتقد أن الأقرب للحقيقة هو وصف أوضاع القوات السوفييتية – و التي دعمها إحتلال شرق بولندا و الأقاليم البلطيقية و بيسارابيا بقوات ضخمة – بأنها تموضعات موجهة ضد أي مؤامرة، في ٢٢ يونيه ١٩٤١ كانت القوات السوفييتية على تلك الحالة و لم يمكن إستخدامها إلا في أدوار دفاعية فقط، و لكن كان من الممكن التحول عن تلك الحالة بسرعة لملاقاة أي تغيير يحدث في الموقف السياسي أو العسكري الألماني بحيث يمكن – في وقت محدود – أن يجمع الجيش الأحمر قواته – و التي تفوق القوات الألمانية عددياً – و يصير قادراً على دحر الهجوم، و مع ذلك كانت أوضاع القوات السوفييتية حتى ٢٢ يونيه تشكل تهديداً لنا رغم كونها دفاعية، و في اللحظة التي ستكون

[١] بيالستوك : مدينة شمال بولندا.

الأمور فيها في صالح الإتحاد السوفييتي – عسكرياً أو سياسياً – سيصبح حينها تهيدياً حقيقياً للرايخ.

بالتأكيد فَضل "ستالين" تجنب الصدام مع الرايخ في الصيف ١٩٤١، و لكن لو وجدت هناك أي تطورات دولية تقود القيادة السوفييتية عاجلاً أو آجلاً لتصديق إمكان لجوئها للأسلوب السياسي أو اللجوء إلى تهديد ألمانيا بالتدخل العسكري فسيتخذ تموضع القوات السوفييتية الطابع الهجومي، لقد كان الأمر – كما ذكرت بالتحديد – تموضعات موجهة ضد أي مؤامرة.

و الآن لنعد إلى الفيلق السادس و الخمسين.

كان على الفيلق أن يركز على أمرين في حال ما أراد تحقيق مهمته المتمثلة في السيطرة على "داوغافبيلس"، عليه في اليوم الأول أن يزحف مسافة ٥٠ ميل داخل أرض العدو بهدف السيطرة على نقاط العبور على نهر "دوبيسا" بمنطقة "أريوجولا"، أنا أعرف قطاع نهر "دوبيسا" منذ الحرب العالمية الأولى و هناك يوجد وادي عميق ذو منحدرات شديدة لا تستطيع الدبابات التعامل معها، في الحرب العالمية الأولى عمل مهندسو السكك الحديدية لمدة أشهر كي يهيئوا أرضه لتكون صالحة لهذه الإنشاءات منشيءين بناء خشبياً ضخماً، لو نجح العدو الآن في تفجير الجسر في "أريوجولا" يعلق الفيلق فاقداً للأمل و سيكون لدى العدو الوقت الكافي لتنظيم دفاعاته على الضفة البعيدة من النهر و التي ستكون عسيرة بشكل كبير على الإختراق، و بالتالي لا يمكننا أن نتوقع حينها أن نأخذ العدو مباغتة على جسور "دواغافبيلس"، لقد كانت نقطة العبور في "أريوجولا" حتمية بالنسبة لنا بإعتبارها رأس الحربة.

رغم التطرف التي قد يبدو عليه ما تطلبه قيادة الفيلق نجحت الفرقة الثامنة بانزر – بقيادة الجنرال "براندنبرجر" و الذي قضيت معه معظم اليوم – في تحقيق مهتمها، و بعد إختراق المواقع الحدودية و القضاء على مقاومة العدو نجحت هذه الفرقة في السيطرة على نقطة تقاطع "أريوجولا" بقوة إستطلاعية في مساء يوم ٢٢ يونيه ١٩٤١، و تم توجيه الفرقة ٢٩٠ مشاة – التي تتقدم بسرعة كبيرة – و الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكا – و التي بدأت في التحرك عبر نهر "ميمل" – ناحية نقطة العبور جنوب "أريوجولا".

لقد نجحت الخطوة الأولى.

الشرط الثاني لتحقيق النجاح في "دواغافبيلس" هو وجوب تقدم الفيلق إلى الأمام خلال تلك المدينة بصرف النظر عن مدى مواكبة بقية التشكيلات على جبهته لذلك التحرك، و تعتمد السيطرة على تلك الجسور القيمة كلية على قدرتنا على أخذ العدو هناك مباغتة، و بشكل طبيعي كنا على إدراك تام بالمخاطرة التي يتضمنها ذلك التحرك.

و كما إتضح فيما بعد – و هو ذات ما أملنا فيه – لقد كان الفيلق محظوظاً لضرب الجزء الضعيف من دفاعات العدو، و برغم هجمات العدو المضادة المتكررة – بعضها تضمن قتالاً شرساً – تمكنت فرقنا من كسر تلك المقاومة بسرعة ملحوظة.

بينما واجه الفيلق ٤١ بانزر على ميسرتنا مقاومة شديدة من العدو المتموضع حول "شياولياي"[1] أجبرته على عدم مبارحة مكانه بشكل مؤقت، و قام الجناح الأيسر من الجيش السادس عشر على ميمنتنا بالقتال للسيطرة على "كوفنو"، تمكن الفيلق ٥٦ بانزر من بلوغ الطريق السريع لـ"دواغافبيلس" في ٢٤ يونيه في منطقة "ويلكوميرز"[2]، و بتوغله ١٠٥ميل داخل أرض العدو لم يبتعد الفيلق فقط عن التشكيلات الألمانية على الجناح الآخر فقط بل إنه تخطى القوات السوفييتية في المنطقة الحدودية تاركاً إياها وراءه، و الآن توجد حوالي ٨٠ ميلاً متبقية لبلوغ جسور "دواغافبيلس"، و لكن هل يمكننا أن نحافظ على وتيرة التحرك تلك؟ من المؤكد أن العدو سيلقي بإحتياطاته المستدعاة حديثاً في مواجهتنا، و في أي لحظة بسد الفجوة الموجودة خلفنا و قطع الإمدادات عنا، و لكن بالرغم من تحذيرات قيادة مجموعة البانزر لنا إلا أننا لم تكن لدينا نية ترك إلهة الحظ تتخلى عنا بسبب كثرة خسائرنا، و رغم أن الفرقة ٢٩٠ مشاة لم تكن قادرة على اللحاق ببقية الفيلق إلا أن معرفتنا بتحركها المتقاطر وراءنا منحتنا إحساساً بالطمأنينة – خاصة و أنها مسحت عن أعيننا القلق من قيام أية قوات معادية قوية بمهاجمتنا من الخلف، و في تلك الأثناء كانت قيادة مجموعة البانزر و معها فرقتان متحركتان – الفرقة الثامنة بانزر و تتحرك على الطريق السريع و الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكا التي تتحرك جنوبها – تهاجم لتنال جائزة النصر في "داوغافبيلس"، كانت كلتا الفرقتين قادرتين على تحطيم إحتياطات العدو المُلقى بها في مواجهتها، و في تلك المعارك – بعضها كانت شرسة – خسر العدو قرابة السبعين دبابة – حوالي نصف

[1] شياولياي : ميدنة في ليتوانيا.
[2] أوكمرج في بولندا حالياً.

قوتنا من المدرعات – و عدد ضخم من المدفعية، و في تلك المرحلة بالكاد كنا نمتلك الوقت أو الرجال لفصل الأسرى و سوقهم إلى المعسكرات.

مبكراً يوم ٢٦ يونيه كانت الفرقة الثامنة بانزر خارج "داوغافبيلس" و بينما كنت في مقر الفرقة بحلول الساعة ٠٨٠٠ صباحاً تسلمت تقريراً مفاده نجاح قواتنا في السيطرة على الجسرين الكبيرين، و قد إستمر القتال داخل المدينة على الجانب البعيد من النهر لكن عملية السيطرة على الطريق إلى الجسر تمت بدون خسائر، و تم التغلب على الحراس الذي كادوا يضعون متفجرات فيه قبل مدخل الجسر بياردات قليلة، أما عن جسر السكك الحديدية فقد تضرر بشكل طفيف لمتفجرات وضعت فيه لكنه ما زال صالحاً للإستخدام، و في اليوم التالي نفذت الفرقة الثالثة مشاة ميانيكا عبوراً مفاجئاً للنهر في المدينة، لقد تحقق هدفنا.

قبل بدء الهجوم سؤلت ما المدة التي نعتقد أننا سنستغرقها لبلوغ "دفينا" على إفتراض أن الأمر ممكن، و كانت إجابتي أنه إن لم يتم الوصول إلى هناك خلال أربعة أيام فلا يمكننا الحديث عن السيطرة على نقطة العبور بدون خسائر، و الآن و بعد مضي أربعة أيام و خمسة ساعات بعد ساعة الصفر كنا قد أتممنا زحفاً بلا توقف لمسافة ٢٠٠ ميل داخل أرض العدو، و قد حققنا ذلك فقط لأن الإسم "دواغافبيلس" كان الشيء الرئيسي في عقل كل مجند و ضابط و لأننا كنا متأهبين لمواجهة أشد المخاطر في سبيل بلوغ هدفنا، و قد منحنا التقدم عبر جسري المدينة الكبيرين إحساساً غامراً بالإنجاز بصرف النظر عن قيام العدو بإمطارهما بنيرانه قبل أن ينسحب متقهقراً، و مما زاد في شعورنا بالرضا هو أننا لم ندفع ثمناً كبيراً في سبيل بلوغ تلك الغاية.

و بشكل طبيعي صار موقف الفيلق – بالنظر إلى الضفة الشمالية لنهر "دفينا" آمناً، و يوجد وراءنا بحوالي ٦٠ إلى ١٠٠ ميل الفيلق ٤١ بانزر و الجناح الأيسر للجيش السادس عشر، و بينهم و بيننا توجد عدة فيالق سوفييتية تنسحب إلى نهر "دفينا"، و علينا ليس فقط أن نتوقع سعي العدو بكل ما أوتي من قوة للإغارة علينا على الضفة الشمالية بل أن نحمي أنفسنا على الضفة الجنوبية للنهر من تشكيلات العدو التي تقترب من جهة الجنوب، و ظهرت هشاشة موقفنا بشكل أكبر عندما تعرض أحد أفرع قيادة الفيلق للهجوم من الخلف في غابة غير بعيدة عن مقر قيادتنا التكتيكي.

و مع ذلك لم تتراءى أمامنا أي مشكلة فيما يتعلق بموقفنا الحالي – و الذي لن يستمر بالطبع - أكبر من مشكلة "ما الخطوة التالية؟"، هل الهدف هو "لينينجراد"؟أم أننا سنتحرك إلى "موسكو"؟ و لم يكن ممكناً لقائد مجموعة البانزر – الذي طار لزيارتنا بواسطة طائرة "فيسلر ستورش" يوم ٢٧ يونيه – أن يقدم أية إجابة، و منطقياً قد يتوقع المرء أن يكون قائد مجموعة بانزر بأكملها على علم بالأهداف المستقبلية و لكن هذا لم يحدث في حالتنا تلك، و لأسف تم إحباط حماسنا بأمر مفاده توسعة رأس الكوبري حول "دواغافبيلس" و الإبقاء على نقطة العبور مفتوحة، كان علينا أن ننتظر وصول الفيلق ٤١ بانزر و الجناح الأيسر للجيش السادس عشر ، و كان على الفيلق ٤١ بانزر عبور النهر في منطقة "جاكوبستادت".

و بينما كان ذلك الحل الآمن في حقيقة الأمر إلا أننا كانت لدينا أفكار أخرى، فكما شهدنا الأمر لقد سبب ظهورنا المفاجئ خلف الجبهة إرتباكاً مؤكداً لدى العدو، و سيسعى قطعاً بكل ما أوتي من قوة لطردنا إلى ما وراء النهر، و بالتالي كلما تقدمنا للأمام في وقت أقرب كلما تضاءلت فرصته في مواجهتنا بقوات تفوقنا قوة، لو تقدمنا نحو "بسكوف"[١] – مع مواصلة حماية نقاط العبور في "دواغافبيلس" – و لو قامت قيادة مجموعة البانزر بتحريك فيلق بنزر آخر في نفس الوقت نحو "دواغافبيلس" خلفنا سيكون محبذاً لو إستمر العدو في مواجهتنا بأي قوات يمتلكها حينها، و لن يكون قادراً لفترة على الدخول في معركة ضدنا، أما بالنسبة لقوات العدو المنهزمة جنوب نهر "دفينا" فيُترك أمرها لجيوش المشاة التي ستأتي وراءنا.

و لا حاجة للقول بأنه كلما توغل فيلق بانزر منفرداً – أو مجموعة بانزر كاملة – عميقاً داخل الأراضي الروسية كلما تعاظمت المخاطر المحيطة به، و على نقيض ذلك يمكن القول بأن أمن أي تشكيل دبابات يعمل خلف خطوط العدو يعتمد بشكل كبير على قدرته على مواصلة التحرك، فما إن يتوقف عن التحرك حتى يتعرض للهجوم من كل الجهات بواسطة إحتياطات العدو.

لكن القائد الأعلى لم يشاركنا وجهة النظر و لا يمكن لومه بالتأكيد على ذلك، في الواقع كان علينا أن نتضرع إلى إلهة الحظ أكثر من أي وقت مضى كي ترضى عنا و تقودنا إلى عبور الهاوية، و بذا شعرنا بأن هدف الوصول إلى "لينينجراد" بدأ في الإبتعاد عنا تاركاً إيانا نقضي الوقت في "دواغافبيلس"، و كما توقعنا من قبل بدأ العدو يرسل

[١] بسكوف : مدينة روسية تبعد ٢٠ كم عن الحدود مع إستونيا.

التعزيزات ليس فقط من "بسكوف" بل من "مينسك"[1] و "موسكو" كذلك، قبل ذلك بمدة طويلة قمنا بالتوقف عن آداء عملنا بغرض صد هجماته التي شنها على الضفة الشمالية لنهر "دفينا" بدعم فرقة مدرعة و كان الموقف حرجاً في بعض المراحل، و أثناء تنفيذ الفرقة الثالثة بانزر لهجوم مضاد لتغطية مساحات من الأرض وجدنا جثث ثلاثة ضباط و ثلاثين مجنداً سقطوا مصابين و أسرهم العدو، لقد تم التمثيل بهم بشكل بشع.

في الأيام القليلة التالية فعلت القوات الجوية السوفييتية كل ما هو ممكن لتدمير الجسور التي سقطت سابقاً بأيدينا، و بمكابرة شديدة طارت أسرابهم الواحد تلو الآخر على إرتفاع منخفض مما جعلها فرائس سهلة لمقاتلينا العاملين على مدافع فلاك المضادة للطائرات، و قد خسروا في يوم واحد فقط ٦٤ طائرة بهذه الطريقة.

و أخيراً تمكنا من التحرك مجدداً في ٢ يوليه عقب إنضمام فرقة "رأس الموت" من سرايا الدفاع لفيلقنا بإعتبارها تشكيله الثالث المتحرك ، و عبر الفيلق ٤١ بانزر نهر "دفينا" في "جاكوبستادت".

و تم تعيين محور "ريزكني"[2] - أوستروف – بسكوف" كأهداف لتقدمنا، لذا صارت أخيراً "لينينجراد" في متناول أيدينا.

و على الرغم من ذلك مضت ستة أيام منذ دخول الفيلق المفاجئ إلى "دواغافبيلس"، و كان لدى العدو الوقت للتعافي من الصدمة التي أصابته على يد مباغتة القوات الألمانية على الضفة الشمالية لنهر "دفينا".

و قد أثار تقدم الفيلق ٥٦ بانزر إلى "دواغافبيلس" إرتباكاً و فوضى حتميين في منطقة إتصالات العدو، فقد قطعت تسلسل قيادة العدو و جعلته عاجزاً عن تنسيق أي هجمات مضادة، و لكن هذه المزايا ضاعت بسبب قرار مجموعة بانزر الرابعة – بصرف النظر عن دوافعه – بالبقاء على نهر "دفينا"، و سواء صرنا الآن محظوظين كفاية بحيث نستعيد المبادرة و العدو ما يزال في حالة الضبابية من عدمه فإن المؤكد هو أن الفرصة الوحيدة للقيام بذلك تكمن في مدى قدرة مجموعة البانزر على دمج كل قواتها في المعارك، و كما سنرى هذا هو بالتحديد ما فشلت في القيام به رغم أن مقاومة العدو ظلت أضعف من أن توقف التقدم.

---

[1] مينسك : عاصمة بيلاروسيا حالياً.
[2] ريزكني : مدينة شرق لاتفيا.

و مع ذلك تحركت مجموعة البانزر بشكل منتظم من خط "دواغافبيلس-جاكوبستادت" في إتجاه "بسكوف"، و قد تحرك الفيلق ٥٦ بانزر نحو الشرق من طريق "دواغافبيلس-ريزكني-أوستروف" الرئيسي بينما تحرك الفيلق ٤١ بانزر على ميسرته، و كانت مقاومة العدو أشد و أكثر منهجية من تلك التي لاقيناها في الأيام الأولى القليلة من الحملة، و لكنه ظل ينهزم مجدداً و مجدداً.

و الآن بدأت مجموعة البانزر في الإقتراب من خط "ستالين"، و هو خط من التحصينات يمتد على طول الحدود السوفيتية الأصلية من أقصى جنوب بحيرة "بيبوس" غرب "بسكوف" إلى أطلال الحصن الروسي القديم المعروف بإسم "زيباش".

و في هذه المرحلة خصصت قيادة مجموعة البانزر الطريق الرئيسي للفيلق ٤١ بانزر كي يتابع تقدمه نحو "أوستروف"، و أرسلت الفيلق ٥٦ بانزر شرقاً نحو "زيباش" و "أوبوتشكا"، و كان الغرض هو إختراق خط "ستالين" و نقوم بتطويق مجموعة كبيرة من قوات العدو متوقع تموضعها في "بسكوف" من جهة الشرق، كانت خطة رائعة لو تواجدت تلك القوات فعلاً في هذا المكان و تمكن الفيلق ٥٦ بانزر من تنفيذ تلك المناورة بأي سرعة، في رأينا لم يكن الأول – أي تواجد قوات العدو في ذاك المكان – حقيقياً و الأخير – أي تنفيذ المناورة – لم يكن بالشأن السهل لأنه فيما يتعلق بالإتجاه المحدد للفيلق كان عليه أن يواجه مستنقعات كبيرة تقبع أمام خط "ستالين"، و بالتالي لم يعد المظهر القوي لفيلقينا الذي تجلى في التقدم نحو "أوستروف" متاحاً لنا، و يؤسفني أن أقول أن شكوكنا حول تلك المستنقعات كانت مبررة تماماً.

كان على الفرقة الثامنة بانزر أن تجتاز طريقاً من الخشب عبر المستنقعات لكنه كان مسدوداً بحواجز من مركبات تابعة لفرقة ميكانيكية سوفييتية، و قد إستغرقت أياماً في سبيل تطهير الطريق و إعادة بناء الجسور التي تم تفجيرها، و ما إن إجتازت الفرقة أخيراً المستنقعات حتى واجهتها مقاومة ضارية تم التغلب عليها بعد قتال عنيف.

أما الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكا فقد وجدت طريقاً جانبياً ضيقاً لا يمكن للمركبات أن تسير عليه ، لذا توجب سحبها و إرسالها إلى "أوستروف" خلف الفيلق ٤١ بانزر.

أما فرقة "رأس الموت" من سرايا الدفاع فقد واجهت تربة أفضل – رغم أنها واجهت تحصينات خرسانية قوية – أثناء تقدمها إلى "زيباش"، إلا أنه قد بدا عليها الضعف بسبب نقص التدريبات التي تلقاها ضباطها و جنودها مما أثر سلباً على خبرتهم، و لكن

تولد لدينا إنطباعاً جيداً عن هذه الفرقة لما رأيناه فيها من إنضباط و تضامن، و يوجد لدي أسباب عدة لأثني على إنضباطها الشديد و هو المطلب الأساسي لأي تقدم ناجح للقوات الميكانيكية، و قد أبدت هذه الفرقة حماساً ملحوظاً في هجومها و رسوخاً بيناً في دفاعها، و قد قدت هذه الفرقة في مناسبات عدة لاحقاً و أعتقد أنها أفضل فرقة سرايا دفاع شهدتها بنفسي، و كان قائدهم تلك الأيام رجلاً شجاعاً أصيب فيما بعد و لقي مصرعه.

لا يمكن لأي من هذه الأشياء أن يعيض عن نقص تدريب القيادة، و قد عانت تلك الفرقة من خسائر فادحة لأن أفرادها لم يتعلموا شيئاً عن الوحدات الرئيسية للجيش إلا حين دخلوا المعركة، و قد أدت خسائرهم و نقص خبرتهم إلى ضياع فرص عديدة كانت سانحة لهم، و هو ما أدى للدخول في معارك جانبية غير ضرورية، و أشك لو كان هناك شيئاً يصعت تعلمه أكثر من تحديد اللحظة الحاسمة التي يظهر فيها ضعف مقاومة العدو أمام المهاجم و تكون بمثابة الفرصة الواجب إنتهازها، محصلة كل ذلك كانت قيامي بشكل متكرر بتقديم المساعدة إلى تلك الفرقة حتى و لو لم أكن قادراً أحياناً على منع وقوع الخسائر الكبيرة، و بعد عشرة أيام تمت إعادة هيكلة الأفواج الثلاثة للفرقة و تشكلت من فوجين جديدين.

و لكن لا يوجد أدنى شك حول الخطأ الذي لا يغتفر في جعل سرايا الدفاع تنظيماً عسكرياً منفصلاً نظراً لشجاعتهم في القتال و حسن إنجازهم في المعارك، التغييرات المنتقاة التي حدثت في الجيش إمتدت و على نطاق واسع إلى سرايا الدفاع و التي أدت إلى نزيف من الدماء لا يتناسب أبداً مع ما حققته من مكاسب، و بشكل طبيعي لا يمكن لوم رجال سرايا الدفاع على ذلك بل يوجه اللوم بشأن النزيف غير المبرر للقوة البشرية إلى الرجال الذين أنشأوا هذه الفرقة العسكرية الخاصة بناء على دوافع سياسية دون إلتفاف إلى المعارضة التي أبدتها الجهات العسكرية المختصة.

و علينا ألا ننسى البتة أن سلاح سرايا الدفاع قاتل جنباً إلى جنب بجوار الجيش و كان رجاله نِعم الرفاق على الجبهة و دائماً ما أظهروا شجاعة و براعة يُعتمد عليها، و بدون شك كان كثيرون منهم ليسعدوا لو خرجوا من تحت قيادة رجل مثل "هيملر" و إنخرطوا في صفوف الجيش.

و قبل العودة للحديث عن الفيلق ٥٦ بانزر أود أن أمنح القارئ صورة عن كيفية سير العمل داخل قيادة تشكيل الدبابات خلال تلك الحرب الأخيرة.

في أواخر معركة "جريفلوت" – في حرب ٧١/١٨٧٠ – وضع جدي مركز قيادته فوق تلة تمكنه من مشاهدة كامل أرض المعركة و إدارة سير العمليات بنفسه، و كان قادراً أيضاً على التوجه إلى الأفواج المتموضعة تأهباً للهجوم و توجيه اللوم القوي – كما روي لي - إلى إحدى قطع المدفعية التي ترمي قذائفها بعيداً عن العدو.

مثل تلك المشاهد هي أمر من الماضي، القيادات في الحرب العالمية الأولى كانت مجبرة أكثر و أكثر على التراجع إلى الخلف بسبب زيادة مدى نيران مدفعية العدو و صار من المستحيل إدراك كامل إتساع أرض المعركة بالعين المجردة، و منذئذٍ صار العامل الحاسم هو الخطوط التليفونية الفعالة و صارت فكرة "شيلفن" حول أمير الحرب الذي يجلس وراء مكتبه و يصدر الأوامر عبر الهاتف حقيقةً.

و بدورها تطلبت الحرب العالمية الثانية وسائل أخرى للقيادة خصوصاً فيما يتعلق بالتشكيلات المتحركة بسرعة، ففي حالة تلك الأخيرة تتغير المواقف بسرعة و تتوالى الفرص السانحة و تزول في وهلات بحيث لا يستطيع قائد أي قوة دبابات المكوث في مكتبه بعيداً في المؤخرة، و لو إنتظر طويلاً في الخلف حتى تصله التقارير من الوحدات الأمامية فسيكون أي قرار يتخذه فائتاً لأوانه و ستضيع كل الفرص الممكنة، و غالباً عندما يحقق النجاح في قتال ما يكون ضرورياً للتعامل مع الظاهرة الطبيعية المتجسدة في الإرهاق الناجم من المعركة و العمل على تجديد حيوية القوات.

و الأكثر حيوية بالنظر إلى المتطلبات المتجددة في الحرب الحركية الجديدة المعتمدة على طاقات الضباط و الأفراد أن تظهر القيادات العليا أنفسها لأكثر وقت ممكن على خطوط الجبهة الأمامية، و يجب ألا يشعر الجندي العادي أبداً بأن القادة ذوي الرتب العليا منشغلون في القمة بإصدار الأوامر و هم خلف القوات دون أن يكونوا على علم بما يحدث فعلياً على الجبهة، و ذاك الجندي يشعر بالرضا لرؤية قائده الأعلى موجوداً معه و هو يحرز النجاح في هجمة ما، و فقط بواسطة البقاء مع القوات يومياً يمكن للمرء معرفة إحتياجاتهم و يستمع لمخاوفهم و يقدم الدعم لهم،و يجب ألا يقتصر القائد الأعلى على كونه الرجل الذي يعد المتطلبات الواجب تنفيذها في المهمة بل يجب أن يكون رفيقاً و صديقاً لأفراد القوات، و بصرف النظر عن أي شيء آخر فإنه يقوم

بإضفاء الحيوية على القوات في كل زيارة لها ، و في مرات عدة أثناء قيامي بزيارة الفرق العاملة معي أسمع أصواتاً تتحدث في قلق عن إنخفاض الروح المعنوية للجنود و ما أصابهم من إجهاد و توتر و كلها عوامل غير مرغوبة و لا يمكن تجنبها في ذات الوقت، و مثل تلك المخاوف تتمكن من القادة أكثر فأكثر بمرور الوقت بإعتبار أنهم من يتحمل في النهاية مسئولية الأفواج و الكتائب العاملة تحت قيادتهم، و لكنني ذات مرة توجهت لتفقد القوات في المقدمة و شعرت بسعادة بالغة لرؤية الثقة بادية على وجوههم و تفاؤل يفوق ما كنت أوقعه – و هو أمر غير شائع بالنسبة لمن لم يدخل في قتال و ينتصر فيه ذلك الوقت، و حينها أشعلت سيجاراً بصحبة طاقم دبابة و تحدثت مع بعض المشاة حول الموقف العام، لم أخفق أبداً في مواجهة ذلك الإلحاح المتعذر كبح جماحه على المضي قدماً و ذلك الإستعداد على الزحف حتى نفاد آخر جزئ من الطاقة في الأجساد، و كلها تعد من العلامات المميزة للجندي الألماني، مثل تلك الأمور في أقصى ما يتمناه القائد الأعلى و يسعى إليه، و كلما علت الرتبة كلما قلت نسبة حدوثها فقيادة مجموعة الجيوش مثلاً تكون غير قادرة على الإختلاط بالقوات المقاتلة تماماً كقادة الفيالق.

فحتى قادة الفيالق بالطبع لا يمكنهم البقاء بصفة دائمة على الجبهة، و الرجل الذي يتجول دوماً حول المناطق الأمامية – و لا يتم العثور عليه حين طلبه – دوماً ما يترك شيءون القيادة لهيئة الأركان العاملة معه، و هذا قد يكون شيئاً جيداً في حالات عدة و لكنه ليس الدور الأساسي له.

كل شيء يتوقف في نهاية المطاف – خصوصاً فيما يتعلق بالتشكيلات عالية الحركية – على تنظيم منطقي لواجبات القيادة، و هو الأمر الواجب الحفاظ على إستمراريته مهما تكلف الأمر.

كان حتمياً أن تبقى قيادة الفيلق في مكانها متمركزة لبضعة أيام بهدف المحافظة على تدفق الإمدادات، و من جهة أخرى كان على القائد العام و فرع العمليات التابع له نقل مقر القيادة التكتيكي للأمام مرة أو مرتين في اليوم الواحد إن أرادوا البقاء على إتصال مع الفرق الميكانيكية، و هو ما تطلب درجة عالية من الحركية من جانب القيادة، و السبيل الوحيد لتحقيق ذلك هو تقليل عدد طاقم القيادة إلى أدنى حد ممكن و العمل في ظل غياب وسائل الراحة المعتادة، و لا حاجة للقول بأن قديس الروتين الذي يصاحب

الجيوش من الخلف – بصرف النظر عن إنجازاتها – لم تتجلى شفاعته إلا في أوقات قليلة عندما عملنا تحت مثل تلك الظروف.

لم نهدر الوقت بحثاً عن أماكن للإقامة، ففي فرنسا كانت القلاع و المنازل القديمة هي مأوانا، أما الأكواخ الخشبية الصغيرة في الشرق فلم تغرينا بالمكوث فيها خاصة بالنظر إلى إمتلائها بالحيوانات المستأنسة، و كنتيجة لذلك إتخذت مقار قيادتنا التكتيكية من الخيام مراكز لها طول الوقت تقريباً بينما حملت عربتان و بضعة عربات "فولكسفاجن" و العربات التابعة لقسم الإشارة بقية الرتب عندما قمنا بتغيير مواقعنا، أنا شخصياً نمت ذات مرة في كيس نوم داخل إحدى الخيام التي تشاركتها مع أحد الضباط و لآ أذكر أنني إستخدمت سريراً مريحاً سوى ثلاث مرات أثناء قيادتي لفيلق البانزر هذا، أحد الرجال إعترض على النوم في الخيام و قضى ليلته في سيارته، و لسوء حظه إضطر لترك قدميه ممتدتين من الباب مما تسبب في عدم قدرته على خلع حذائه المبتل عقب تلك الليلة المطيرة.

و قد إعتدنا على نصب معسكرنا الصغير في أية غابة أو أيكة قريبة من محور التقدم، و إن كان ممكناً فبالقرب من أي بحيرة أو جدول بحيث يمكننا أخذ غطسة سريعة قبل الإفطار أو لدى عودتنا محملين بالأتربة و الغبار من أي جولة إلى الجبهة.

بينما كان على رئيس الأركان بشكل طبيعي أن يظل خلف مركز القيادة كي يتعامل مع سير العمل و المكالمات الهاتفية قضيت أنا أياماً – و ربما بعض الليالي – على الطرقات ، و كنت أغادر لزيارة الفرق و القوات التي في المقدمة عادةً في الصباح الباكر عقب تسلم التقارير عن الموقف وقت الفجر و إصدار الأوامر الضرورية ، و بحلول الظهيرة أعود إلى مركز القيادة لبرهة من الزمن بعدها أتوجه لزيارة فرقة أخرى حتى يحل المساء بإشارة نصر أو بالحاجة للإنتعاش، و عند عودتنا إلى المخيم – الذي قد يكون حينئذٍ قد إنتقل إلى موقع آخر – نشعر بتعب شديد، في مثل تلك المناسبات كان العلاج الأمثل هو – بفضل أفكار الرائد "نيمان" مساعدي الثاني – تناول وجبة من الدجاج المشوي أو زجاجة من الخمر بدلاً من وجبة المساء المعتادة المكونة من خبز الجاودار و لحم الخنزير المدخن و السمن، و أخشى أنه كلما تقدمنا لمسافة أبعد كلما صار جلب الدجاج أصعب، و عندما صار من الصعب نصب الخيام لقدوم الخريف ببرودته و أمطاره وجدنا بعض المتعة بإستخدام حمامات الساونا و التي – رغم بدائيتها – كانت موجودة في بعض المنازل الريفية.

كانت تلك القيادة المرنة من جانبي ممكنة فقط لأنني كنت قادراً على إستقلال عربة غير مرتبطة سلكياً بأي شيء آخر في تلك الجولات بقيادة ضابط الإشارة الممتاز "كوهلر" الذي كان يرافقنا و الذي ترقى فيما بعد و صار رائداً بهيئة الأركان العامة، و بفضل السرعة المثيرة للإعجاب التي كان يصلنا بها بأي من مقرات قيادة الفرق تمكنت من أن أظل على علم دائم بمستجدات الأمور في قطاع الفيلق و كان أي قرار يصدر مني يصل لوجهته دونما أدنى تأخير، و أود أن أضيف أنه خلال فترة سجني عقب الحرب كان "كوهلر" أكثر الأصدقاء دعماً لزوجتي.

و إلى جانب سائقيّ المخلصين "ناجل" و "شومان" وتابعيّ كان رفيقي الدائم في تلك الجولات هو الملازم "سبيشت"، و قد أسميناه "بيبو" لقصر قامته و شبابه المنتعش و طبيعته التفاؤلية، و هو ضابط صغير في سلاح الخيالة، و دوماً ما كان نشيطاً و مفعماً بالحيوية و أحياناً متهوراً في المواقف الخطرة و كان أيضاً مبتهجاً و أنيقاً إلى حد ما، كل تلك المؤهلات جعلتني أحبه ، و كان يمتطي الخيول ببراعة – والده كان مربي خيول و أمه كانت فارسة من الطبقة الأولى – و فاز في عدة مناسبات و هو لازال ضابط صف قبل الحرب، كان يميل للمزاح بشأن أي شيء و لم يكن يحب أكثر الدخول في مناوشات مع قائده العام، و لكوننا ننتمي إلى فيلق بانزر و بالتالي يمكن أن نشتبك مع العدو يومياً كان "بيبو" مسروراً لوجوده معي، و لكن عندما صرت قائداً لأحد الجيوش و تعذر عليّ التوجه للجبهة في مرات عديدة صار مفتقداً لي بشدة، و كان هذا مسلكاً عادياً بالنسبة لضابط صغير كما أنني قمت بزيارته في بعض المناسبات، في القرم قاد "بيبو" مرتين سرية إستطلاع بمهارة فائقة، و عندما كنا أمام "لينينجراد" أرسلته إلى إحدى الفرق لكن تلك المرة توفي في تحطم الطائرة الـ"فيسلر ستورش" التي كان يستقلها، و كانت خسارة فادحة بالنسبة إلىّ.

و الآن لنعد إلى الفيلق ٥٦ بانزر، كان قد أصبح من الواضح بحلول ٩ يوليه أن محاولات المجموعة الرابعة بانزر لتطويق قوات العدو التي تصورت تموضعها في "بسكوف" بواسطة إرسال فيلقنا إلى الشرق بات الأمل مفقوداً في نجاحها بالنظر إلى طبيعة الأرض و ضرواة مقاومة العدو، و لم يكن أمامها سوى وقف المناورة و إعادة توجيه قيادة الفيلق و الفرقة الثامنة بانزر نحو المحور الشمالي الأصلي بإتجاه "أوستروف" على نفس خطى الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكي، و منذ تحرك الفيلق من "دواغافبيلس" حطم الفيلق – وفق ما وردت من تقارير يوم ١٠ يوليه – أربع أو خمس

فرق مشاة للعدو و فرقة مدرعة و أخرى ميكانيكية و هي قوات تفوقنا عدداً بمراحل، و إلى جانب الآلاف من الأسرى فقد غنمنا منذ عبور حدود الرايخ قرابة ٦٠ طائرة و ٣١٦ مدفع – تشمل مدافع مضادة للطائرات و مضادة للدبابات – و ٢٠٥ دبابة و ٦٠٠ عربة نقل، و رغم إجبار العدو على التراجع شرقاً إلا أنه لم يتم تدميره بعد، و هو الأمر الذي سيتجلى للعيان لاحقاً.

الآن و مع تجمع مجموعة البانزر حول "أوستروف" كنا نأمل في الفيلق ٥٦ بانزر في تقدم سريع و منسق نحو "لينينجراد" و ذلك أثناء إجتيازنا "لوجا"[١] و إجتياز الفيلق ٤١ بانزر "بسكوف"، و في رأينا قدم ذلك لنا أفضل فرصة ليس فقط للسيطرة السريعة على المدينة بل لمحاصرة قوات العدو المنسحبة عبر إستونيا أمام جيشنا الثامن عشر، و بالتالي ستقع مهمة حماية الجناح الشرقي للعملية على كاهل الحيش السادس عشر الذي يتحرك خلف مجموعة بانزر الرابعة.

و رغم أنه من المفترض أن تعمل مجموعة البانزر وفق التوجيهات الصادرة من المستويات العليا إلا أن قيادتها قررت شيئاً آخر.

تم تخصيص الطريق الرئيسي عبر "لوجا" للفيلق ٤١ بانزر يقطعه وصولاً إلى "لينينجراد"، و كان على الفيلق ٥٦ بانزر التقدم نحو "بورخوف"[٢] و "نوفجورد"[٣] ثم إلى "شدوفو"[٤] بهدف قطع إتصالات العدو بين "لينينجراد" و "موسكو" في أقرب وقت ممكن.

و رغم أهمية تلك المهمة الأخيرة إلا أن تلك الأوامر قادت كلا الفيلقين إلى التشرذم على نطاق واسع و هو نتيجة للإنحراف في توجيه القوة الضاربة الضرورية، تم حجز فرقة سرايا الدفاع في "أوستروف" بإعتبارها ضمن إحتياطات مجموعة البانزر، و بالتالي – كما حدث عندما غادرنا الحدود الألمانية – صار ثقل التقدم الرئيسي مركزاً على الجناح الأيسر لمجموعة البانزر المتمثل في الفيلق ٤١ بانزر، و تم تكليف الفيلق ٥٦ بانزر بمهمة الزحف على نطاق واسع حول "شدوفو" بفرقة مدرعة واحدة و فرقة مشاة واحدة فقط و تم حرمانه من الحماية اللازمة لجناحه الجنوبي الواسع بواسطة فرقة سرايا

---

[١] لوجا: مدينة روسية ضمن مقاطعة لينينجراد حالياً.
[٢] بورخوف : مدينة غرب روسيا ضمن مقاطعة بسكوف.
[٣] نوفجورد : مدينة غرب روسيا.
[٤] شدوفو : مدينة ضمن مقاطعة نوفجورد.

الدفاع التي تتبعه على الميمنة، لقد كانت هذه حركة خطرة جداً بالنظر إلى أن قوات رغم إجبار الفيلق لها على التقهقر إلا أنها لم تتدمر بالكامل.

و لذا ظللنا مقتنعين بأن الفيلق سيواصل البحث عن أمنه في سرعة الحركة.

بحلول ١٠ يوليه كانت الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكي – و التي أعيدت لتكون تحت قيادتنا في "أوستروف" - قد تمكنت من السيطرة على "بورخوف" بعد صراع عنيف و تموضعت على طريق صغير تجاه الشمال، و توجهت الفرقة الثامنة بانزر إلى "زولتسي" للسيطرة على نقاط العبور الحيوية التي يصب عندها نهر "مشاجا" في بحيرة "إلمن".

و قد إستمر التقدم خلال الأيام القليلة التالية عبر سلسلة من المعارك – أغلبها كان ضارياً، بإستثناء هجوم تعرضت له قيادة الفيلق على الضفة الشمالية لنهر "شيلون" في الساعات الأولى من يوم ١٤ يوليه – تقريباً نفذته وحدات العدو الإستطلاعية – فالعدو لم نعد نشعر بوجوده على جناحنا الجنوبي، و في ذات اليوم تم تحريك الفرقة الثامنة بانزر – و التي كانت قد سيطرت على "زولتسي" بعد معارك مع العدو المجهز جيداً بالمدفعية و المدرعات - بناء على إلحاح مني نحو قطاع نهر "مشاجا"، و قد إكتشفت أن الجسر تم تفجيره.

و في نفس التوقيت قامت قيادة مجموعة البانزر بنقل الثقل الأساسي لتقدمها بعيداً إلى الغرب من طريق "لوجا"، و قد حركت التشكيلات الميكانيكية الثلاثة للفيلق ٤١ بانزر شمالاً لسد الطريق أمام قوات العدو المنسحبة عبر "نارفا" شمال بحيرة "بيبوس" أمام الجيش الثامن عشر، و تم ترك فرقة مشاة واحدة (الفرقة ٢٩٠ مشاة) لتتولى أمر الطريق إلى "لوجا".

و بذا وجد الفيلق ٥٦ بانزر فجأة نفسه منعزلاً أكثر مما مضى أثناء تقدمه الواسع إلى "شدوفو"، لذا توجهنا إلى قيادة مجموعة البانزر لإبلاغهم بأنه لو تقرر قيام فيلقنا بالسيطرة على "شدوفو" فهو في حاجة للدعم الفوري من كلٍ من فرقة "رأس الموت" من سرايا الدفاع و من الفيلق الأول للجيش السادس عشر و الذي كان في الواقع قريباً نسبياً منا.

لقد كان الفيلق ٥٦ بانزر في مأزق قبل الإجابة على طلبه آنف الذكر، ففي صباح يوم ١٥ يوليه وردتنا تقارير غير باعثة على السرور في مركز قيادة الفيلق على نهر "شيلون" غرب "زولتسي"، و تضمنت هذه التقارير قيام العدو بشن هجوم قوي من جهة الشمال على الجناح الذي تشغله الفرقة الثامنة بانزر – المتوجهة إلى نهر "مشاجا" – و في نفس الوقت تقدم العدو من جهة الجنوب عبر نهر "شيلون"، و عنى ذلك أن الكتلة الرئيسية للفرقة الثامنة بانزر – بين "زولتسي" و نهر "مشاجا" - قد تمت محاصرتها و قطع ما بينها و بين الأرتال الخلفية للفرقة و التي كان مركز القيادة في منطقتها، و لم يتوقف الأمر عند ذلك الحد، فقد أغلق العدو علينا الفخ من الخلف عبر إرسال قواته من جهة الجنوب لقطع خطوط إمداداتنا، و في نفس الوقت وجدت الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكي – المتقدمة نحو الشمال - نفسها تتعرض للهجوم بقوات معادية تفوقها قوة من جهة الشمال و الشمال الشرقي في "مالي أوتوجروش".

لقد كانت نية العدو في محاصرة الفيلق ٥٦ بانزر أثناء عزلته تلك واضحة، و قد مكن الإخفاق في إصطفاف فرقة سرايا الدفاع "رأس الموت" خلفنا العدو من الهجوم عبر نهر "شيلون" بقواته التي تتموضع جنوبنا، و في نفس الوقت تسبب إبعاد الفيلق ٤١ بانزر عن طريق "لوجا" في تحرير قوات العدو المتواجدة هناك و ها هي الآن تهاجم جبهتنا الشمالية.

كان موقف فيلقنا تلك اللحظة مما لا يحسد عليه و لم نجد إجابة على التساءل حول مدى خطورة الموقف حينها، هل حملنا نجاحنا السابق إلى المدى الذي جعلنا لا نلتفت إلى قوات العدو على جبهتنا الجنوبية؟ و ما هي الفرصة الأخرى التي قد تفيدنا في تنفيذ مهمتنا؟ و في تلك المعمعة الطريق الوحيد الذي إنفتح لنا هو سحب الفرقة الثامنة بانزر عبر "زولتسي" للهرب من الحركة التطويقية التي تهددها، كما ينبغي عدم توريط الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكي في أي إلتحام للمحافظة على حرية الفيلق في الحركة، و كانت الأيام القليلة التالية حرجة بإصرار العدو على إكمال عملية التطويق و إستمراره في إلقاء – بجانب فرق المشاة – فرقتين مدرعتين إلى أتون المعركة إضافة إلى غطاء من المدفعية و الدعم الجوي، و على الرغم من ذلك عمدت الفرقة الثامنة بانزر إلى إختراق "زولتسي" في إتجاه الغرب ثم تقوم بلم شملها إستناداً إلى بعض الدعم الجوي المؤقت لها، و في سبيل إخراج نفسها من الإلتحام دخلت الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكي في سبعة عشر هجوماً على العدو تكللت كلها بالنجاح، و في ذات الوقت و بعدما وضعت قيادة

مجموعة البانزر فرقة سرايا الدفاع "رأس الموت" تحت إمرتنا كان ممكناً لنا تطهير خطوط إمدادات الفيلق.

بحلول ١٨ يوليه كانت الأزمة قد إنتهت على خير و بدأ الفيلق في التموضع حول "دنو" على جبهة تواجه الشرق و الشمال الشرقي، و تم التخلص من الخطر المبكر الذي كان يرابض على جبهتنا الجنوبية بإقتراب الفيلق الأول من الجيش السادس عشر من "دنو".

و قد واسانا شيء واحد تمثل في إستحواذنا على طائرة بريد معادية و وقع في أيدينا خطاب موقع عليه من المارشال "فوروشيلوف"[١] – و الذي سبق أن إلتقيته في "موسكو" عام ١٩٣١ و هو الآن قائد الجبهة المعادية لنا ، لم تؤكد ذلك عناصر الجيوش السوفييتية التي دحرناها بل تمت الإشارة إليه خصيصاً فيما يتعلق بالمعارك حول "زولتسي".

و بينما كنا محاصرين كان الرابط الوحيد بيننا و بين المؤخرة إما لاسلكياً أو بواسطة الطائرات، و مع ذلك غمرتنا الوفرة العادية للأوراق في اللحظة التي إسترجعنا فيه خطوط الإتصالات، شيء واحد يستحق الذكر هنا هو ذلك الإستفسار المشيءوم الذي أرسلته القيادة العليا لنا تلغرافياً، و تضمن أن إذاعة "موسكو" قد أعلنت – فيما بدا أنه إحتفالاً بتطويقنا – الحصول على بيانات و معلومات سرية حول قاذفات الصواريخ المتعددة التي نمتلكها، و بالطبع شعر السوفييت بالغضب من هذا السلاح الجديد و الذي كان قادراً على إطلاق عدة صواريخ تعمل بالوقود المشتعل دفعة واحدة، و على الفور أطلق الجيش السوفييتي تحذيرات صريحة لنا بالتوقف عن إستخدام ذلك السلاح و إلا قصفونا بالغاز – و هو ما كان تهديداً فارغاً بالطبع بالنظر إلى عدم ملائمة دفاعاتهم المتعلقة بالحرب الكيماوية، و في مثل تلك الظروف يكون من القابل للفهم قيامهم بالغناء و الرقص طرباً بالحصول على تلك المعلومات، و الآن يُطلب منا نحن أن نشرح كيف تسربت تلك المعلومات السرية للعدو، و قطعاً لم يتم أخذها من القوات المقاتلة و إنما من طابور إمداد و تموين إعترض السوفييت طريقه عندما قطعوا طريق إمداداتنا، فهذا الأمر قد يحدث لتشكيل من المدرعات يقاتل بعيداً عن جبهة الجيش التابع له، و بمناسبة الرد على إستفسار القيادة العليا أرسلنا تقريراً لها تضمن الحقيقة و أضفنا أنه لتجنب حدوث ذلك مجدداً يتوجب علينا أن نتوقف عن القيام بأي تحركات منفردة بمسافة ٦٠ ميلاً وراء خطوط العدو.

---

[١] كليمنت فوروشيلوف : قائدعسكري روسي عاش بين ١٨٨١ – ١٩٦٩ .

في ١٩ يوليه تم إبلاغنا بواسطة قيادة مجموعة البانزر بأنه تقرر إرسال الفيلق ٥٦ بانزر عبر "لوجا" إلى "لينينجراد"، و قد تم وضع الفرقة ٢٦٩ مشاة – و التي كانت إنتشرت على طريق "لوجا" – تحت إمرتنا، و حتى التو لم تتم الإستجابة لمقترحنا بحشد قوات مجموعة البانزر بشكل أخير لتوجيه ضربة قوية يُفضل أن تكون بإتجاه الشمال بواسطة الفيلق ٤١ بانزر شرق "نارفا" – و هي المكان الذي توجه إليه الفيلق للسيطرة على الطرق المؤدية إلى "لينينجراد" – بدلاً من التقدم على محور "لوجا" و الذي يمر عبر غابات كثيفة.

لقد كنا نحن أول من شن هجوماً نحو الشرق بواسطة الفيلق الأول بإتجاه قطاع "مشاجا" و الذي وصلنا إليه ذات مرة، و كان بادياً إصرار القيادة العليا على خطتها المتمثلة في حركة تطويق واسعة النطاق و كانت مستعدة للدوران شرق بحيرة "إلمن"، و في ذلك الوقت دخل فيلقنا بصحبة الفيلق الأول في معارك متتالية نجم عنها إنسحاب العدو مجدداً عبر نهر "مشاجا".

في ٢٠ يوليه قام الجنرال " باولوس " من *القيادة العليا للجيوش الألمانية*بزيارتنا و قد وضعته في الصورة حول ما خضناه من معارك حتى اللحظة و شرحت له كيف صارت مجموعة البانزر في بلد لا تتلاءم تربتها أبداً مع القوات المدرعة، كما أن خسائر التشكيلات المدرعة الثلاثة لفيلقنا بلغت ٦٠٠٠ رجل إضافة إلى صيرورة كلٍ من الرجال و المعدات تحت الضغط الشديد رغم تمكن الفرقة الثامنة بانزر من رفع عدد دباباتها العاملة أثناء أيام قليلة من الراحة من ٨٠ إلى ١٥٠ دبابة.

و أخبرت " باولوس " أن الأفضل من وجهة نظري هو سحب كامل مجموعة البانزر من تلك المنطقة التي يستحيل فيها التحرك بسرعة و توجيهها إلى "موسكو"، و لو تم الإصرار على مواصلة التقدم نحو "لينينجراد" و إتمام حركة التطويق عبر "شدوفو" فمن الأساسي حينئذٍ إتاحة فرق المشاة لنا، و بمجرد تطهير منطقة الغابات من أي تواجد معادي يتوجب إدخار فيلقنا لحين التقدم النهائي إلى المدينة و إلا ستبلغ فرق المركبات المدينة و هي في حالة إنهاك تام بما يجعلها غير صالحة للقتال، و على أية حال – كما أوضحت له – إن أي عملية من هذا القبيل تحتاج وقتاً طويلاً، لذا لو أردنا السيطرة بسلاسة على "لينينجراد" و خط الساحل فالشيء الوحيد الذي نقوم به لتحقيق ذلك هو تركيز كامل مجموعة البانزر شمال المنطقة الشرقية لـ"نارفا" و من هناك تتقدم مباشرة نحو المدينة.

و قد إتفق الجنرال " باولوس " تماماً مع آرائي تلك.

و مع ذلك سارت الأمور في بداية الأمر عكس ذلك، فبينما تولى الجيش السادس عشر – يتضمن الفيلق الأول و فيلق آخر وصل مؤخراً – أمر جبهة نهر "مشاجا" غرب بحيرة "إلمن" تقرر قيام الفيلق ٥٦ بانزر بتنفيذ الهجوم على "لينينجراد" عبر طريق "لوجا"، و لهذا الغرض تم تخصيص الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكي و الفرقة ٢٦٩ مشاة و فرقة شرطة تابعة لسرايا الدفاع وصلت مؤخراً.

و قد أدى ذلم لبعثرة القوات الميكانيكية لمجموعة البانزر أكثر مما مضى، فقد ظلت فرقة سرايا الدفاع "رأس الموت" مع الجيش السادس عشر عند بحيرة "إلمن" و تم نقل الفرقة الثامنة بانزر إلى الإحتياط بقرار من مجموعة البانزر كي تتولى تمشيط الخطوط الخلفية و منطقة الإتصالات من البارتيزان و هو دور غير مهم و غير مناسب لها إلى حد بعيد، و بذا صار الفيلق الآن يمتلك فرقة مشاة ميكانيكي واحدة و هي الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكي في منطقة "لوجا" بينما كان الفيلق ٤١ بانزر يمتلك ثلاث فرق مشاة ميكانيكي تقوم بعملياتها شرق "نارفا"، و القاعدة التي أرساها الكولونيل جنرال "جيودريان" بشأن إستخدام المدرعات هي :"لا تبعثرها، ألق بها كلها"[١] أما في حالتنا تلك فكان العكس هو الذي بدا سريانه، فقد أخفقت كل مجهوداتنا في سبيل الإحتفاظ بفرق المشاة الميكانيكي الثلاثة بصرف النظر عن الطريقة التي أرسل بها فيلقنا للقتال، و قد أظهرت التجارب منذ زمن أنه عندما كان يتناقص عدد القوات فإن قليل من القادة سعوا إلى إحكام السيطرة على المعركة و تجنب تبعثر تشكيلاتهم.

سيحتاج الأمر لمساحة كبيرة لو قمت بوصف المعارك حول "لوجا"، لقد كانت تلك المعارك ضارية، فبينما كان العدو يمتلك عدد محدود من القوات في تلك المنطقة منذ أسابيع خلون نجده الآن صار يمتلك أعاد شحن قواه بفيلق كامل من ثلاث فرق مدعوم بمدفعية و مدرعات قوية، لتوضيح ذلك كانت المنطقة الريفية حول "لوجا" منطقة تدريب روسية كان العدو بالطبع ملماً بها تماماً ، و إضافة إلى ذلك كان لديه الوقت الكافي لتجهيزها بما يتاسب معه.

و بينما كانت تلك المعارك دائرة تم منح فيلقنا مهمة جديدة، و أخيراً تم تكليفه بمصاحبة الفيلق ٤١ بانزر بالتوجه شمالاً للهجوم على "لينينجراد"، و حتى الآن إشتمل الموقف

[١] هي مقولة منسوبة لهانز جيودريان تعني وجوب إستخدام كامل قوة المدرعات و ليس نصفها لتحقيق الهدف المنشود منها.

على قيادة الفيلق و الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكي، أما فرقة "رأس الموت" من سرايا الدفاع و الفرقة الثامنة بانزر فظلتا على دورهما الحالي.

في ١٥ أغسطس سلمنا منطقتنا لقيادة الفيلق ٥٠ بقيادة الجنرال "ليندمان" – و هو صديق قديم لي منذ الحرب العالمية الأولى – و بدأنا نتحرك شمالاً، و قد كان الطريق إلى مركز قيادتنا الجديد عند بحيرة "سامرو"- ٢٥ ميلاً جنوب غرب "نارفا" – سيئاً و إستغرقنا ثمان ساعات إجتياز مسافة ١٢٥ ميل، و بصعوبة بالغة وصلنا لبحيرة "سامرو" متأخراً تلك الليلة حيث تلقينا مكالمة هاتفية من قيادة مجموعة الجيوش تأمرنا بوقف الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكي – والتي كانت قادمة خلفنا – و بأن نتحرك جنوباً مجدداً في الصباح التالي لنرسل تقارير إلى قيادة الجيش السادس عشر في "دنو"، و كان علينا بصحبة الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكي و فرقة "رأس الموت" من سرايا الدفاع أن ننضم لذلك التشكيل، لا يستطيع أحد التظاهر بأننا كنا مسرورين بذلك الترحال، و الإستثناء الوحيد المثير للإعجاب كان ضابط فرع التموين و الإمداد التابع لنا و هو الرائد "كلينشميدت" و الذي كانت رباطة جأشه المبتهجة واضحة رغم سماعه نبأ أنه سيقوم بتحويل خط إمداداته و مواصلاته بزاوية قدرها ١٨٠ درجة.

لذا في ١٦ أغسطس تحركنا عائدين إلى "دنو" على متن ذات الطريق السئ الذي عبرناه البارحة، و هذه المرة كانت المسافة التي قطعناها ١٦٠ ميل إستغرقنا ١٣ ساعة في إجتيازها، و لحسن الحظ لم تقترب منا الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكي كثيراً من جهة الشمال و تمكنا بذا من العودة في وقت جيد، و لا أهتم بتخيل ردة فعل القوات تجاه ذلك كله.

السبب الرئيسي للتغيير كان عدم ملائمة المجموع الإجمالي لقواتنا كما أن المنطقة بين "لينينجراد" و "بسكوف" و بحيرة "إلمن" كانت ريفية غير ملائمة لمرور الدبابات.

و كانت الصورة التي أُعطِيناها لدى وصولنا لمقر قيادة الجيش السادس عشر هي الآتي: تعرض الفيلق العاشر – الذي يقاتل على الجناح الأيمن للجيش جنوب بحيرة "إلمن" – للهجوم بواسطة قوات معادية تفوقه بمراحل شملت الجيش السوفييتي الثامن و الثلاثين و المكون من ثمان فرق و تشكيلات خيالة، و هو الآن يقاتل معركة دفاعية ضارية جنوب بحيرة "إلمن" على جبهة مواجهة للجنوب في ظل سعي العدو لتطويقه من جهة الغرب، و كان على الفيلق ٥٦ بانزر أن يقدم العون اللازم.

ما توجب على الفيلق فعله – إن أمكن بدون لفت إنتباه العدو – هو تقديم فرقتيه الميكانيكيتين إلى جبهته الغربية شرق "دنو" بغرض إختراق الجبهة أثناء إنشغال العدو بمقاتلة فيلقنا العاشر، لقد كانت المهمة الملقاة على عاتقنا شيقة و كان من الممتع رؤية سرور قوات سرايا الدفاع لدى معرفتها أنها ستعود تحت إمرتنا، و مما يثير الحزن أننا لم نتمكن من الإستعانة بالفرقة الثامنة بانزر في مثل هذه العملية.

في ١٨ أغسطس تم تحرك الفرقتين بحذر شديد إلى مناطق التموضع المموهة بنجاح، و عندما شن الفيلق هجومه في اليوم التالي كان العدو مفاجئاً تماماً، و قد أثبتت خطتنا في إختراق جبهة العدو نجاحاً باهراً، و في الهجمات التي أعقبت ذلك نجحنا برفقة الفيلق العاشر – الذي عاد لوضعية الهجوم – في هزيمة الجيش السوفييتي الثامن و الثلاثين، و بحلول ٢٠ أغسطس وصلنا إلى نهر "لوفات" جنوب شرق "ستارايا رشا" و ذلك بصرف النظر عن الحقيقة المتجلية في أنه في تلك التربة الرملية – المفتقرة إلى الطرق – إضطر المشاة من الفرقتين الميكانيكيتين للتقدم سيراً على الأقدام، و خلال تلك الأيام القليلة غنم الفيلق ٥٦ بانزر منفرداً ١٢ ألف أسير و ١٤١ دبابة و ٢٤٦ مدفع و عدة مئات من الأسلحة الآلية و المركبات، و قد تضمنت الغنائم شيئان مثيران:**الأول** كان مدفع مضاد للطائرات من عيار ٨٨ مللي ألماني الصنع يرجع إلى العام ١٩٤١ ، و **الثاني** هو أول مدفع سوفييتي قاذف للقنابل تقع بيد الألمان ، و لأنني كنت قلقاً من إحتمالية الإخلاء من ذلك الموقع فقد تملكني الغضب عندما عرفت أن المدفع لا يمكن تحريكه لأن شخصاً ما قام بإعطابه و سرق إطاراته، ذلك المجرم كان مساعدي الثاني الرائد "نيمان" و الذي إكتشف ملائمة تلك الإطارات لسيارتنا ، و قد بدا عليه الحزن لما أمرته بإعادة الإطارات إستعداداً لإعادة الإنتشار.

و بينما كانت القوات المقاتلة – و التي توجب عليها ذات مرة بذل قصارى جهدها – تستمتع براحة وجيزة على نهر "لوفات" دار حديث حول إنسحاب الفيلق ٥٦ بانزر و توظيفه للعمل في مكان آخر مع إستمرار الجيش السادس في التقدم شرقاً جنوب بحيرة "إلمن"، في نهاية أغسطس تسببت أول أمطار تصادفنا في هذا الصيف في تحويل الطرق إلى أوحال و برك علقت فيها الفرق الميكانيكية تماماً لفترة من الزمن، و في نفس الوقت حرك العدو قوات جديدة ، و لتعويض هزيمة الجيش الثامن و الثلاثين ظهرت له ثلاث جيوش جديدة على طول جبهة "خولم-إلمن" مقابلة لجيشنا السادس عشر ، و إشتملت قوات العدو على الجيش السابع و العشرين و الجيش الرابع و الثلاثين

و الجيش الحادي عشر، و دارت معارك ضارية لكن الحديث عنها سيحتاج مساحة كبيرة، نفذ الفيلق ٥٦ بانزر عبوراً لنهر "بولا" و تقدم واصلاً إلى نقطة ما على مقربة من "ديميانسك"، و بصرف النظر عن حقيقة ضراوة مقاومة العدو فقد زاد المجهود التي تبذله قواتنا في سبيل إجتياز الطرق الموحلة من الألم الذي تعانيه تلك القوات سواء الرجال أو المعدات، و خلال تلك الفترة قضيت وقتي كله مع الفرق و حتى سيارتي "الكوبلفاجن" المتينة تم سحبها بواسطة جرار للسير على تلك الطرقات.

خلال تلك الفترة بدأنا نشعر بالفرق بين الأهداف التي وضعها "هتلر" – "لينينجراد" – و الأهداف التي وضعتها *القيادة العليا للجيوش الألمانية*– "موسكو" ، و قد أخبرني قائد الجيش السادس عشر الكولونيل جنرال "بوزتش" أنه إنتوى التقدم شرقاً وصولاً إلى مرتفعات "فالادي" بحيث يكون قادراً على التقدم فيما بعد في إتجاه "كالينين – موسكو"، و بدا أن قيادة مجموعة الجيوش الشمالية غير موافقة خاصة بالنظر لقلقها حول تبعثر الجبهة الشرقية للجيش، و في بداية سبتمبر تدخل الفيلق ٥٧ بانزر في عملياتنا من منطقة عمليات مجموعة الجيوش الوسطى في الجنوب فتم إخبارنا في ١٢ سبتمبر بوجوب توجهنا جنوباً في وقت قريب مع الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكي لنصير تحت إمرة الجيش التاسع من مجموعة الجيوش الوسطى، و حتى بإعتباري قائد للفيلق عجزت عن فهم تلك التغييرات و التنقلات رغم أنه ساد لدي إنطباع أنه ناجم عن لعبة شد الحبل الدائرة بين "هتلر" و *القيادة العليا للجيوش الألمانية*حول تحديد الهدف الإستراتيجي : "موسكو" أم "لينينجراد"؟.

على كلٍ كانت المعارك التي خاضها الجيش السادس عشر بصحبة الفيلق ٥٦ بانزر في تلك الأسابيع ناجحة بإستمرار، و في ١٦ سبتمبر كانت *القيادة العليا للجيوش الألمانية*قادرة على إعلان هزيمة العناصر الأساسية للجيوش السوفييتية الحادي عشر و السابع و العشرين و و الرابع و الثلاثين، تم تدمير تسعة فرق للعدو و تشتيت تسعة آخرين.

و مع ذلك ظللنا عاجزين عن العثور على أي إحساس الرضا من تلك الإنجازات حيث أنه لم يكن واضحاً لأي فرد ما الهدف وراء إستراتيجيتنا أو الغرض النهائي لكل تلك المعارك، و مهما ما كان قد يحدث فقد حلت نهاية فترة التقدم كالذي أحرزناه عند "دواغافبيلس".

باتت أيامي في قيادة الفيلق ٥٦ بانزر معدودة، ففي مساء مساء ١٢ سبتمبر و في ظل المطر الغزير كنت جالساً في خيمتي مع ضابطين أو أكثر من العاملين معي، و منذ زيادة حلكة الظلام باكراً بدأنا في ممارسة بعض التسلية بلعبة الجسر[١] حتى وقت وصول تقارير الموقف لنا في المساء، و فجأة ضرب جرس الهاتف في مكتبي و طلُب مني تلقي المكالمة من صديقي "بوزتش" قائد الجيش، إن المكالمة الهاتفية في مثل تلك الساعة المتأخرة لا تبشر بخير عادةً و لكن في تلك الحالة قرأ عليّ "بوزتش" رسالة مطبوعة وصلته من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* نصها:

"على جنرال المشاة فون مانشتاين المغادرة على الفور إلى مجموعة الجيوش الجنوبية لتولي قيادة الجيش الحادي عشر"

كل جندي سيشعر بالفخر و السرور الذي أشعر به إزاء قيادة جيش كامل منذ الآن، و قد بدا ذلك بالنسبة إلي – ذاك الوقت – قمة حياتي المهنية العسكرية.

و باكراً في الصباح التالي هممت بالمغادرة و تلقيت وداعاً عبر الهاتف فقط للأسف من الفرق العاملة تحت قيادتي و من الضباط العاملين معي، وقد كانت لدي ذكريات جميلة مع الفيلق ٥٦ بانزر و ضباطه عن كل ما حققناه من إنجاز في الشهور الماضية عندما تطورت مراكز القيادة و الفرق و صارت وحدة متكاملة.

و رغم البهجة التي شعرت بها لتكليفي بتلك المهمة الجديدة إلا أنني كنت على الرغم من ذلك على وعي تام بأن المرحلة الأكثر إرضاءً في حياتي كجندي قد إنتهت، فلمدة ثلاثة أشهر كاملة عشت قريباً من القوات المقاتلة مشاركاً إياها ليس فقط تجاربها و محنها و إنما فخر نجاحاتها أيضاً، و كنت قادراً مرة تلو الأخرى على إضفاء الحيوية عليها من نبع الخبرة العامة و تكريس كل فرد نفسه في بهجة شديدة للواجب و من الألفة التي سادت بين رفقاء القتال، و منذ الآن فصاعداً سيحول منصبي دون العمل بين القوات .

كان مما يحزنني أنني لن أكون قادراً على العيش مجدداً بين شيء يُقارن بالإندفاع الطائش للفيلق ٥٦ بانزر في الأيام الأولى للحملة، لذا فقد كان الوداع صعباً من رئيس هيئة الأركان العامل معي العقيد "بارون فون إلفرفلدت" و هو الشخص الهادئ الرزين الذي لم يخب ظني فيه أبداً، و ينطبق المثل على رئيس العمليات الموهوب الرائد "ديلتتفسن" و رئيس فرع الإستخبارات "جيودو فون كسيل" و ضابط المؤن الرائع الذي

[١] من ألعاب أوراق اللعب "الكوتشينة".

لا يكل و لا يمل أبداً الرائد "كلينشميدت"، و ممن تركتهم أيضاً رئيس فرع القائد العام الرائد "فون دي مارفتز" و الذي إنضم لنا منذ أسابيع قليلة خلون و إرتبط به بأقرب روابط صداقة ممكنة و التي تعود إلى للأيام التي قضيناها سوية في "بوميرانيا" و في الأكاديمية العسكرية.

عندما غادرت في صباح ١٣ سبتمبر لإلقاء الوداع الرسمي على صديقي "بوزتش" لم آخذ معي سوى "سبيشت" و سائقي "ناجل" و "شومان"، و لا يوجد شخص منهم على قيد الحياة الآن.

٩

الحملة على القرم

لو حاولت الآن وصف المعارك التي خضتها في شبه جزيرة القرم بواسطة الجيش الحادي عشر و القوات الرومانية المصاحبة له فسيكمن السبب الرئيسي لذلك في رغبتي بتخليد ذكرى رفقائي من الجيش القرمي، و في نفس الوقت أود أن أطلع الرجال الذين نجوا من تلك المعارك على تقرير عام بشأن الأحداث التي لم يكونوا على معرفة سوى بجزء من صورتها في ذلك الوقت.

لقد بذل أولئك الرجال مجهوداً خارقاً في فترة ٤٢/١٩٤١ خائضين معركةً تلو الأخرى ضد عدو لدود يفوقهم عدةً و عدداً، لا يوجد شيء يمكن مقارنته بروحهم القتالية أثناء تنفيذ أي هجوم أو تقدم، و عندما بدا أن الموقف حرج و مُفقد للأمل تجدهم قد وقفوا و قاتلوا بلا تردد أو وجل، و في الغالب لم يكونوا على علم بالدافع الذي دفعنا إلى تخصيص المهام مستحيلة الإتمام لهمو السبب حول إدخالهم في معركة تلو الأخرى و نقلهم من جبهة إلى أخرى، و برغم ذلك فقد بلغوا أقصى حدود التفاني من تنفيذ ما طُلب منهم متبادلين الثقة مع قادتهم.

و لكن حملة الجيش الحادي عشر على شبه جزيرة القرم تستحق جذب الأنظار إليها خارج الدائرة المغلقة للمشاركين فيها لأنها من الحالات القليلة التي كان فيها جيش منفرد قادر على التعامل مع الموقف ويكأنه مسرح عمليات منفصل تتولى أمره طواقمه الخاصة بدون أدنى تدخل من القيادة العليا، لقد كانت حملة تضمنت – خلال مدة قدرها عشرة أشهر من القتال المتواصل – معارك دفاعية و هجومية و صراع حركي متمتع بحرية حركة كاملة و عمليات تقدم طائشة و عمليات إنزال من العدو المسيطر على البحر إضافة إلى إشتباكات مع عناصر بارتيزان و هجمات على حصون قوية.

و أخيراً هذه الحملة جديرة بالإهتمام لأن القتال فيها تم على شبه جزيرة في البحر الأسود و التي تحمل حتى اليوم آثار الإغريق و القوط[١] و تجار "جنوة"[٢] و التتر، و في الماضي في حرب ٥٦/١٨٥٤ – و التي كانت نقطة محورية في التاريخ – ذات الأسماء التي كانت تُسمع حينها سمعناها في تلك الحملة مثل نهر "ألما" و مدن "بالاكلافا" و "إنكرمان" و "مالاكوف".

و مع ذلك لا يمكن مقارنة حرب ٥٦/١٨٥٤ على المستوى العملياتي بالحملة التي تمت في ٤٢/١٩٤١ ، ففي الحالة الأولى تمتعت القوى الغربية بتفوق بحري بكل ما تترتب عليه من مزايا، أما في حالة الحملة على القرم في ٤٢/١٩٤١ كان الروس هم من يتمتعون بالسيطرة على البحر الأسود، لم يتوجب على جيشنا الحادي عشر غزو القرم و "سفاستبول" فقط و إنما مواجهة الروس بكل ما الإمكانيات المتاحة و برغم سيادتهم على البحر.

الموقف عندما توليت القيادة:

في ١٧ سبتمبر ١٩٤١ وصلت لمقر قيادة الجيش الحادي عشر في "نيكولاييف" القاعدة البحرية الروسية في رأس "بج"، و توليت زمام القيادة.

[١] القوط : من الشعوب الجرمانية التي غزت أجزاء من الإمبراطورية الرومانية بين القرنين الثالث و الخامس الميلاديين.
[٢] جنوة : مدينة في إيطاليا حالياً.

تم دفن سلف يفي هذا المنصب الكولونيل جنرال "ريتر فون شوبرت" في المدينة قبل وصولي بيوم، و الذي مات على إثر إنفجار الألغام في الحقل الذي هبطت فيه طائرته الـ"فيسلر ستورش" بالخطأ فتوفي هو و الطيار، و قد فقد الجيش اللماني بموته ضابطاً مشهوداً له بالنزاهة و الإستقامة و هو من أكثر الضباط خبرة على الجبهة، و قد تأست به قواته في أي مكان حلّت به.

لقد كانت قيادة الجيش الحادي عشر – و الذي تكون فرع العمليات بها لاحقاً – و بلا إستثناء من أكفأ الرجال و لدي ذكريات رائعة حول المساعدات التي قدموها لي في عامين و نصف من الحرب المستعرة، لقد عملنا سوياً بشكل غير إعتيادي من التكامل و عندما تركت القيادة في ١٩٤٤ رغب العديد منهم في عدم الإستمرار في هذا الجيش.

لم تنتهي حداثة منصبي الجديد بتوسعة نفوذ قيادتي من فيلق في الجيش إلى جيش بأكمله، و لم أكتشف حتى وصولي "نيكولاييف" أنه بالإضافة للجيش السادس عشر كان علي تولي قيادة الجيش الروماني الثالث التابع له.

لم يكن من السهل ترتيب تسلسل القيادة في ذلك الجزء من الجبهة الشرقية لأسباب سياسية.

إنعقدت قيادة القوات المتحالفة – الجيشين الرومانيين الثالث و الرابع و الجيش الألماني الحادي عشر – لرئيس الدولة الرومانية المارشال "أنتونيسكو"[1] لكنه ظل خاضعاً لتوجيهات مجموعة الجيوش الجنوبية التي يقودها الفيلد مارشال "فون رندستيدت"، كانت قيادة الجيش الحادي عشر بمثابة وصلة ربط بين المارشال و قيادة مجموعة الجيوش كما كانت تقدم له النصائح بشأن العمليات.

و كان الموقف عندما وصلت و كأن "أنتونيسكو" يتحكم في الجيش الروماني الرابع فقط و الذي قام بتوجيهه إلى "أوديسا"[2] ، أما الجيش الروماني الآخر المشارك في الحملة – الجيش الثالث – فتم وضعه تحت إمرة الجيش الألماني الحادي عشر و الذي بدوره يتلقى أوامره من قيادة مجموعة الجيوش الجنوبية.

إن تكليف قيادة جيش بالتحكم في و إدارة جيش آخر مستقل بذاته بالإضافة لجيشها الخاص هو في أحسن الأحوال أمر مربك ، و تتضاعف صعوبة المهمة عندما يكون

[1] أيون أنتونيسكو: هو رئيس دولة رومانيا و عاش بين ١٨٨٢-١٩٤٦.
[2] أوديسا : مدينة على البحر الأسود تابعة لأوكرانيا حالياً.

ذلك الجيش حليفاً لك، و ما زاد في صعوبة الأمر هو إنعدام الفروق بين الجيشين من حيث التنظيم و التدريب و القيادة – و هو العادي بين الجيوش المتحالفة – فضلاً عن الفرق الملحوظ بينهما في الكفاءة القتالية، و قد قادنا ذلك من وقت إلى آخر إلى للتدخل بشكل أكثر صلابة في طريقة إدارة الجيش الحليف للعمليات أكثر مما هو معتاد أو مرغوب لو كانت قواتنا هي التي تنفذ العملية و ذلك لمصلحة الحفاظ على العلاقات الجيدة بيننا.

و ترجع قدرتنا على التعاون مع القيادات الرومانية و قواتها المقاتلة بدون أي خلافات حقيقية – برغم ما واجهناه من صعاب – بشكل أساسي إلى ولاء قائد الجيش الثالث الروماني الجنرال "دوميتريسكو"[١] ، كما أسهمت فرق الإتصال الألمانية التي عملت مع طواقم القيادة الرومانية على مستوى قيادات الفرق في ذلك التعاون بفضل لباقتها و حسن تصرفها و أحياناً بفضل حزمها و صلابتها.

و الرجل الأكثر إستحقاقاً للذكر في هذا السياق هو المارشال "أنتونيسكو"، فمهما كان حكم الأجيال القادمة عليه كسياسي فلقد كان "أنتونيسكو" وطنياً بمعنى الكلمة و جندياً مخلصاً و بالتأكيد أكثر حليف وفي، لقد كان جندياً – ما إن ربط قدر دولته بقدر الرايخ – فعل كل شيء ممكن في سبيل تسهيل إستغلالنا لقوة رومانيا العسكرية و مجهودها الحرب حتى تمت الإطاحة به، و لو لم تسر الأمور بهذا الشأن على النحو الذي كان مأمولاً فيرجع سبب ذلك إلى الظروف الداخلية لدولته و نظام حكمه، و في كل الأحوال ظل "انتونيسكو" وفياً لحلفائه و أستطيع الحديث بكل الثناء و العرفان عن عملنا المشترك.

أما بالنسبة للجيش الروماني فلا يوجد شك حول وجود جوانب واضحة من الضعف فيه، فعلى الرغم من كون الجندي الروماني – ريفي الأصل – محدود الرغبات و مقاتل شجاع فإن إحتماليات تدريبه كفرد مقاتل قادر على التفكير بنفسه في أرض المعركة و يتعامل كضابط صف كانت محدودة إلى حد بعيد بسبب مستوى التعليم العام المنخفض في رومانيا، و في حالات حصلت عناصر من الأقلية الألمانية على مستوى جيد من التعليم إلا أن المستوى الروماني العام حال دون إحراز أي تقدم، كما أن تلك التدريبات العتيقة التي عفى عليها الزمن كانت غير مناسبة لرفع كفاءة القوات، و كان تأثيرها هو دفع الجنود الرومانيين في الإحتياط الألماني لفعل أي شيء في سبيل الإنضمام لأحد

[١] بيتر دوميتريسكو : قائد عسكري روماني عاش بين ١٨٨٢ – ١٩٥٠.

أفرع القوات المسلحة الألمانية الثلاثة أو – في حال عدم قبول الأخير لهم – لسلاح سرايا الدفاع.

و فيما يتعلق بالإستقرار الداخلي للقوات الرومانية كان هناك عيباً تمثل في غياب ضباط الصف بالمعنى الذي نعرفه، و أخشى أن يكون الناس في ألمانيا اليوم باتوا على إستعداد لنسيان الدين الذي كنا ندين به في الماضي لهيئة ضباط الصف الممتازة العاملة معنا.

و عامل آخر على قدر كبير من الأهمية تجسد في عدم بلوغ نسبة الضباط المتولين للمناصب القيادية و المتوسطة للرقم المطلوب، كما أن الرومانيين إفتقدوا تماماً للصلة الرابطة بين الضباط و الأفراد و التي كانت متجلية بوضوح في الجيش الألماني، لقد كانت إدارتهم للقوات بعيدة كل البعد عن التقاليد البروسية.

و نظراً لإفتقادهم لأي خبرة حربية كان تدريب القوات الرومانية قاصراً عن تحقيق متطلبات الحرب الحديثة و هو ما قاد لخسائر غير مبررة و التي بدورها أثرت على الروح المعنوية للقوات.

إن القادة العسكريين – و الذين كانوا خاضعين للتأثير الفرنسي منذ ١٩١٨ – ما يزالون يفكرون بمنطق الحرب العالمية الأولى ، و قد كانت أسلحتهم و معداتهم متهالكة و غير متلائمة خصوصاُ تلك الخاصة بالوحدات المضادة للدبابات و هو ما ترتب عليه عجزهم عن الثبات أمام هجمات الدبابات السوفييتية، و سواء كانت ألمانيا قادرة على طلب مساعدة أكثر فاعلية أم لا هي مسألة يحسمها آخرون.

و كان مما شان الإستعانة بالقوات الرومانية على الجبهة الشرقية هو تهيبهم الرهيب من الروس ، و هذا التهيب تحول في المواقف الصعبة إلى ذعر، إن تلك المشكلة من الواجب أخذها في الحسبان عند تقرير الدخول في حرب مع روسيا تتضمن أمم جنوب شرق أوربا، و في حالة الصرب و البلغار فقد زادت الخطورة بسبب الإحساس بالإنجذاب بين الشعوب السلافية.

و هناك عامل آخر لا يمكن تجاهله بشأن تقييم الكفاءة القتالية للقوات الرومانية، ففي الوقت الذي كانت رومانيا فيه قد حققت هدفها الأساسي و هو السيطرة على "بيسارابيا" إضافة إلى قبولها بمنطقة "ترانسينستريا" التي أقنعها بقبولها "هتلر" و التي لم تكن

ضمن الطموحات الرومانية إلا أنه كان مفهوماً عدم تقبل كثير من الرومانيين لفكرة التوغل على حساب الدولة الروسية.

و على الرغم من كافة المساوئ و التحفظات التي أوردناها آنفاً فإن القوات الرومانية أبلت بلاءً حسناً في آداء واجبها، و فوق ذلك فإنها أخضعت نفسها طواعية للقيادة العسكرية الألمانية و لم تقدم المصالح المظهرية على الإحتياجات العسكرية كما فعل غيرها من حلفائنا، و بلا شك لقد لعبت العقلية التعاونية للمارشال "أنتونيسكو" دوراً رئيسياً في هذا الحقل.

و إجمالاً فإن الحكم الذي قادني إليه مستشاريي ذلك الوقت تمثل في أن الجيش الثالث الروماني في حال وقوع خسائر فادحة به لن يكون مناسباً للقيام بأي عماليات هجومية و يجب إستخدامه حينئذٍ للمهام الدفاعية بشرط تعزيزه بدعامات عظام ألمانية.

و شكل القطاع الذي توليت قيادته الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية، و للتوضيح أكثر أقول أنه إشتمل على شبه جزيرة القرم و جزء من ثنية نهر "دنيبر" جنوب "زابوروزي"، لم يكن هناك أي إتصال حقيقي مع القوات الأساسية لمجموعة الجيوش الجنوبية المتقدمة شمال نهر "دنيبر" و هو ما كان مفيداً بالنسبة للحرية العملياتية للجيش الحادي عشر، و بعد ما عانيت مع ممرات الغابات في شمال روسيا أثناء قيادتي لفيلق الدبابات و التي لا تتلائم مع التربة الريفية ها أنا أجد نفسي إزاء سهوب شاسعة تخلو من تماماً من أي عوائق طبيعية حتى لو لم توفر تلك السهوب لي أي غطاء، لقد كانت حقلاً مثالياً لعمل الدبابات و لكن لسوء الحظ إن الجيش الحادي عشر لا يمتلك أي دبابة.

و التنوع الطبيعي الوحيد الذي أتيح لنا تجسدت عناصره في الأنهار الصغيرة و المسطحات المائية الصغيرة التي كانت تتبخر و تجف صيفاً مشكلة ممرات عميقة إلى حد ما إضافة إلى الصدوع شديدة الإنحدار المسماة "بلكاس"، و على الرغم من ذلك فإن إنفرادية و ندرة تلك السهوب منحتها سحراً خلاباً، لقد أسر كل فرد منا مرة أو مرتين بالجمال اللامتناهي للطبيعة برغم أننا كنا نسير لساعات – إعتماداً على البوصلة - دون مقابلة أي نتوء على سطح الأرض أو أي وجود لإنسان أو تجمعات بشرية هناك، و على الأفق البعيد بدت جبال و كأنها تخفي وراءها الجنة و لكن هذا الأفق كان يبتعد و يبتعد كلما إقتربت منه، و ما خرج عن تلك الطبيعة الواحدة كان خطوط التلغراف البريطانية الإيرانية التي صنعتها شركة "سيمنز" منذ سنوات، و في وقت غروب

الشمس تكتسي تلك السهوب بلون النيران الأحمر الخلاب، و في سهوب "النوجاي"[1] جنوب و حول "ملتيبول" تمر على قرى تحمل أسماء ألمانية مثل "كالرسرو" و "هلينينتال"، و هي تقع في وسط مزارع فاكهة ، و تشهد منازلها الصخرية متينة البناء على الماضي الزهو، و لا يزال السكان يتحدثون الألمانية لكن أغلبهم رجال و نساء عجائز و أطفال، أما اليافعين فقامت السلطات السوفييتية بترحيلهم.

و تنفيذ المهمة الموكلة إلى الجيش الحادي عشر إنقسم إلى إتجاهين مختلفين.

فمن جهة يتم التنفيذ عبر التقدم على الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش الجنوبية مع الإستمرار في الضغط على العدو أثناء إنسحابه شرقاً، و لتحقيق تلك الغاية توجب وضع الكتلة الرئيسية للجيش في الأمام على طول الساحل الشمالي لبحر آزوف في إتجاه مدينة "روستوف".

و من جهة أخرى كان على الجيش السيطرة على شبه جزيرة القرم و هي المهمة ذات الأولوية الخاصة، و يكمن أحد أسباب ذلك في إحتمالية تأثير السيطرة على شبه الجزيرة عى تركيا، و سبب آخر يتجسد في التهديد الذي تمثله قواعد العدو الجوية الضخمة في القرم على حقول النفط الرومانية و الحيوية جداً لألمانيا، و عقب إتمام السيطرة على القرم يتوجه فيلق المشاة الجبلي من الجيش الحادي عشر عبر مضايق "كيرتش" إلى القوقاز بهدف تعزيز الهجوم على "روستوف".

في ذلك الوقت كان لدى القائد الأعلى أهدافاً بعيدة المدى لحملة ١٩٤١، و سيظهر عما قريب أن الدور المقرر للجيش الحادي عشر غير واقعي.

في بداية سبتمبر نفذ الجيش الحادي عبوراً لنهر "دنيبر" في "بيريسلفال" و هو إنجاز إستثنائي للقوات لعبت الفرقة ٢٢ مشاة –الساكسون السفلى – دوراً هاماً، و مع ذلك فقد شهدت بداية الشهر النقطة التي أدت إزدواجية المهمة الملقاة على الجيش الحادي عشر إلى حدوث تصدع في محور تقدمه.

عندما توليت القيادة وجدت نفسي مُجابهاً بالموقف التالي:

متابعة فيلقين من الجيش و هما الفيلق الثلاثين – يقوده الجنرال "فون سالموث" و قوامه الفرقتين ٢٢ و ٧٢ مشاة و فرقة "الليبستاندرت" من سرايا الدفاع – والفيلق ٤٩ جبلي

[1] النوجاي : قبائل من الترك التتر تعيش هناك.

– يقوده الجنرال "كوبير" و قوامه الفرقة ١٧٢ مشاة و الفرقتين الأولى و الرابعة مشاة جبلي – ضغطهم على العدو نحو الشرق عقب إلحاق الهزيمة به على نهر "دنيبر" و بتنا الآن قريبين من الخط الممتد من "مليتوبول" إلى ثنية نهر "دنيبر" جنوب "زابوروزي".

و إنطلق فيلق واحد – الرابع و الخمسين بقيادة الجنرال "هانسين" – صوب شبه جزيرة القرم – تحديداُ برزخ "بيريكوب"[١]، و قد كانت الفرقة ٥٠ مشاة – و القادمة من اليونان – تحت إمرة الجيش الروماني الرابع أمام "أدويسا" و شاركت بشكل جزئي في تمشيط ساحل البحر الأسود.

أما الجيش الثالث الروماني – قوامه فيلق مشاة جبلي و فيلق خيالة - فما يزال غرب نهر "دنيبر" حيث من المقرر أن يستريح هناك لبرهة، و كانت تقوده في سبيل تنفيذ ذلك رغبة في تحاشي أي تقدم لما وراء النهر حيث أنه قد حقق أهداف رومانيا السياسية بعبور رأس "بج".

و إزاء تلك المهمة المزدوجة بالهجوم على العدو شرقاً إلى"روستوف" و غزو شبه جزيرة القرم و بالتالي عبور مضيق "كيرتش" إلى القوقاز كان على قيادة الجيش الحادي عشر أن تقرر ما إذا كانت ستتعامل مع المهمتين المختلفتين تزامنياً أو بترتيب زمني معين، القرار الواجب إتخاذه من القائد الأعلى تم تركه لمجرد جيش.

و بدا أكيداً أن كلا المهمتين لا يمكن تنفيذهما تزامنياً بالنظر إلى قدر ما نملكه من قوات.

إن السيطرة على شبه جزيرة القرم تحتاج إلى قوة أكبر من الفيلق الرابع و الخمسين و الذي صار على أعتاب برزخ "بيريكوب" الآن، و على الرغم من الصورة الإستخباراتية التي أعطِيناها بشأن وجود ثلاث فرق للعدو فقط كانت قد هربت من نهر "دنيبر" إلى البرزخ إلا أن حجم القوات التي يمتلكها الروس في القرم نفسها – خصوصاً في "سفاستبول" - لم يكن واضحاً ، و عما قريب بدا أن العدو يمتلك ست فرق جاهزة للقتال وليس ثلاثاً في البرزخ نفسه، و تم تعزيزها لاحقاً بالجيش السوفييتي المدافع عن "أوديسا".

[١] برزخ بيريكوب : هو ممر ضيق عرضه ٥-٧ كيلومتر يربط شبه جزيرة القرم بأوكرانيا.

بالنظر إلى طبيعة الأرض فإن الصلابة الدفاعية التي تبديها ثلاث فرق للعدو كفيلة بمنع دخول الفيلق الرابع و الخمسين لشبه جزيرة القرم أو على الأقل ستوقع به خسائر فادحة أثناء قتاله في البرزخ.

و يحجز القرم عن الأرض الرئيسية بحر "لازي"، و هو نوع من مسطح طيني أو مستنقع مالح و يستحيل عبوره على المشاة كما أنه عقبة مانعة أمام قوارب الإنزال نظراً لضحالته الشديدة، لذا يوجد فقط ممران للوصول إلى القرم هما برزخ "بيريكوب" في الغرب و ممر أرضي غرب "هينيتشيسك" في الشرق، و ذاك الأخير ضيق جداً لا يكفي سوى لمرور طريق جانبي أو سكة حديد و كلاهما يتوجب تشييدهما على جسور تمتد لمسافات طويلة.

و بما أن عرض برزخ "بيريكوب" أقل من خمسة أميال فإن الهجوم سيكون تجابهياً و في منطقة تخلو من أي غطاء، و تقرر إرسال هجوم جانبي من جهة البحر على أي جانب، و إضافة للدفاعات القوية المنتشرة في البرزخ فإنه يخترقه خندق التتار – خندق من صنع الطبيعة بعمق ٥٠ قدم - من المنتصف.

و بمجرد إختراق برزخ "بيريكوب" توجب علينا إجتياز عنق زجاجة آخر في "إشون" حيث تقلص البحيرات الملحية عرض الجبهة إلى ميلين فقط.

بالنظر إلى تلك الصعوبات على الأرض و تفوق العدو في الجو كان علينا أن نتوقع صراعاً مرهقاً و شاقاً، و حتى لو نجحنا في إختراق "بيريكوب" سيظل الشك ثائراً حول ما إذا كان الفيلق ما يزال يحتفظ بقوة كافية لخوض معركة ثانية في "إشون" من عدمه، على أية حال فإن حيازتنا لفرقتين أو ثلاث غير كاف لغزو كامل شه جزيرة القرم بما فيها "سفاستبول".

لضمان عملية سلسة في القرم كان على الجيش أن يسحب بعض القوات القوية الإضافية من مجموعتها الزاحفة شرقاً، و ما سيتبقى سيكون كافياً للتقدم طالما واصل العدو إنسحابه رغم أنه سيكون ضعيفاً للوصول إلى هدف بعيد مثل "روستوف" لو أراد العدو تشكيل جبهة جديدة في الخلف أو تجهيز قوات جديدة للقتال.

و بإعتبار التقدم إلى "روستوف" شديد الخطورة فسيتوجب علينا ترك القرم وراء ظهورنا في الوقت الحالي، و مع ذلك يظل من الصعب في تلك الحالة تقرير مدى القدرة

على جعل القوات اللازمة لغزو شبه الجزيرة متاحة، و بجانب ذلك فإن القرم ستصير تهديداً خطيراً للجبهة الشرقية بسبب سيطرة العدو على البحر إضافة إلى إستمرار تهديد قواعد العدو الجوية لحقول النفط الرومانية.

لو تم تنفيذ المحاولة للتقدم إلى "روستوف" و ما ورائها بفيلقين تزامناً مع غزو شبه جزيرة القرم بفيلق واحد فستكون النتيجة الوحيدة هي الإخفاق في تحقيق أيٍ من الهدفين.

و طبقاً لما تقدم قرر الجيش الحادي عشر منح الأولوية لشبه جزيرة القرم، و قررنا أنه في كل الأحوال لن نقوم بتنفيذ تلك المهمة بدون قوات كافية، و في سبيل ذلك تم منح الفيلق الرابع و الخمسين كل المدفعية المتاحة لدى الجيش و مهندسيه و مدفعيته المضادة للطائرات إضافة إلى إستدعاء الفرقة ٥٠ مشاة من المؤخرة من أجل المرحلة الثانية و هي معركة برزخ "إشون"، لكن ظل هذا غير كافٍ، فقد كان من الضروري إمتلاك فيلق ثانٍ بهدف غزو القرم سريعاً عقب إختراق البرزخ حتى لو لم تكن هناك حاجة له بالنسبة للمعركة في برزخ "إشون"، و قررنا أن يكون هذا الفيلق هو فيلق المشاة الجبلي الألماني و الذي قرر القائد الأعلى توجيهه نحو مضيق "كيرتش" ليعبره متوجهاً إلى القوقاز لاحقاً، و في تلك الأثناء يمكن إستخدام ذلك التشكيل المكون من فرقتين بشكل أفضل في المناطق الجبلية الجنوبية في القرم من إستخدامه في السهوب.

و بعيداً عن ذلك كله كان علينا – عقب نجاح إختراقنا إلى داخل شبه الجزيرة - القيام بمحاولة الهجوم على حصن "سفاستبول" على حين غفلة بإستخدام الوحدات الميكانيكية، و لهذا الغرض توجب نشر "الليبستاندرت" خلف الفيلق الرابع و الخمسين عندما يتوجه للهجوم.

و قد إحتوت تلك الترتيبات على إضعاف واضح لجبهة الجيش الشرقية، و كل ما يمكن العثور عليه ليحل محل القوات هناك - بصرف النظر عن عناصر الفرقة ٢٢ مشاة المستخدمة في الدفاع عن الساحل شمال القرم – كان الجيش الروماني الثالث، و برغم المعارضة الرومانية التي ذكرتها آنفاً كنت قادراً على طلب تحريك الجيش الروماني بسرعة نحو نهر "دنيبر" بعد محادثات مع الجنرال "دوميتريسكو".

و كان من الواضح أن الإجراءات التي يتخذها الجيش الحادي عشر قد تتضمن مخاطر جمة في حال قام العدو بوقف إنسحابه على جبهة الجيش الشرقية و حاول إسترداد

المبادرة بالهجوم هناك، و هذا هو الثمن الذي توجب دفعه إن أردنا عدم تنفيذ مهمة غزو القرم بقوات غير مناسبة.

حرب على جبهتين:

(الإختراق في "بيريكوب" و معركة بحر آزوف):

بينما تسببت مشاكل الإمدادات في تأخير إستعدادت هجوم الفيلق الرابع و الخمسين على برزخ "بيريكوب" إلى ٢٤ سبتمبر و قواتنا ما زالت تتجمع على الخطوط الموضحة لها كانت هناك إشارات لتغيير في الموقف على جبهة الجيش الشرقية منذ ٢١ سبتمبر فصاعداً.

لقد تموضع العدو في مواقع مجهزة جيداً على طول جبهة ممتدة من غرب "مليتوبول" إلى ثنية نهر "دنيبر" مما نجم عنه عدم الإستمرار في التقدم، و على الرغم من ذلك مضى الجيش قدماً في فصل فيلق المشاة الجبلي الألماني مصدراً أوامره إلى بقية التشكيلات الألمانية للإنضمام للقوات الألمانية في الجيش الثالث الروماني بهدف تقليص الخطر إلى أقل حد ممكن، و تم دمج فيلق الخيالة الروماني الموجود على القطاع الجنوبي من تلك الجبهة في الفيلق الثلاثين الألماني في حين تولى الجيش الثالث الروماني قيادة الفرقة ١٧٠ مشاة الألمانية لدعم فيلق المشاة الجبلي الروماني.

و بحلول ٢٤ سبتمبر كان الفيلق الرابع و الخمسين قادراً على التحرك للهجوم على برزخ "بيريكوب"، و برغم منحه أقصى دعم مدفعي و الفرقتين ٤٥ و ٧٣ مشاة و اللتين قاتلتا في ظل أقسى ظروف ممكنة كان عليه أن يتقدم في ظل شروق الشمس القائظ على السهوب الملحية الخالية من أي أثر للمياه و من أي غطاء، و كان العدو قد حول البرزخ إلى نظام دفاعي قوي بعمق عشرة أميال و قاتل بضراوة على كل خندق و كل نقطة محصنة.

و مع ذلك نجح الفيلق في السيطرة على "بيريكوب" عقب صد هجمات العدو المضادة و عبر خندق التتار في ٢٦ سبتمبر، و قضينا ثلاثة أيام من القتال الكثيف في بقية منطقة

العدو الدفاعية و – بعد السيطرة على منطقة "أرميانسك" المحصنة جيداً – في الريف المفتوح، و تراجع العدو عبر بحيرات "إشون" معانياً من خسائر ثقيلة في الأرواح و عشرة آلاف أسير و غنمنا ١١٢ دبابة و ١٣٥ مدفع.

لكن ما زالت ثمرة ذلك العمل المضني – إختراق شبه جزيرة القرم نهائياً – بعيدة المنال، فبالرغم من ثقل خسائر العدو و فداحتها إلا أن عدد الفرق المواجهة للفيلق في تلك الأثناء زاد إلى ستة، و بالتالي إن أي محاولة للمضي قدماً في إختراق برزخ "إشون" ستكون مكلفة للغاية بالنسبة لقواتنا بالنظر إلى نسبة القوات المشاركة و التضحيات التي قدمتها القوات الألمانية.

أما بالنسبة لطلب الجيش الحادي عشر تعزيزه في تلك اللحظة الفارقة بفيلق المشاة الجبلي و "الليبستاندرت" فقد أحبطه العدو، و قطعاً أدى توقعه لقيامنا بتوغل داخل القرم بسرعة عالية لقيامه بإحضار قوات جديدة إلى جبهته بين بحر آزوف و نهر "دنيبر".

و في ٢٦ سبتمبر شن العدو هجوماً على جبهة جيشنا الشرقية بواسطة جيشيه الثامن عشر و التاسع و المكونين من إثني عشر فرقة كلها إما جديدة أو أتت بعد راحة، و قد أخفق في هجومه الأول في إحراز أي نجاح ضد فيلقنا الثلاثين – رغم الوضع الحرج الذي صار عليه الموقف هنا – أما في قطاع الجيش الثالث الروماني فقد نجح في سحق اللواء الرابع مشاة جبلي الروماني و أحدث ثغرة بعمق عشرة أميال في جبهة ذلك الجيش، أما عن اللواء فقد خسر كتلة المدفعية الرئيسية و بدا أنه على شفير الإنهيار، كما قد عانى اللوائين الجبليين الرومانيين الآخريين من خسائر متنوعة.

و الآن لم يعد أمامنا خيار سوى جعل فيلق المشاة الجبلي الألماني – و الذي في طريقه إلى برزخ "بيريكوب" – ينعطف يميناً لغرض إنشاء نقطة إسترجاع للجيش الثالث الروماني، و في نفس الوقت تم حرمان الجيش الحادي عشر من خدمات أحد أسرع تشكيلاته و هو "الليبستاندرت" نظراً لأن القائد الأعلى أمرنا بالإحتفاظ به و إستبقائه للتقدم نحو "روستوف" كجزء من مجموعة بانزر الأولى و الذي سينقل إليها في وقت قريب، و بذا مُنعنا من إستخدام "الليبستاندرت" في إختراق البرزخ و صدر الأمر بإعادته للجبهة الشرقية بطريقة مماثلة.

و لكي يكون فرع العمليات التابع للجيش قريباً من جبهتي الجيش فقد قام في ٢١ سبتمبر بتشييد مركز قيادة تكتيكي في "أسكانيا نوفا" في سهوب "نوجاي" و التي كانت مملوكة يوماً لعائلة "فالز-فينز" الألمانية.

و فيما مضى كانت "أسكانيا" نموذجاً للريف مشهوراً في كل أنحاء روسيا لكنها صارت الآن مزرعة تعاونية، و صارت مبانيها مهملة في حزن شديد و قامت القوات السوفييتية المنسحبة بتدمير كل الآلات و سكبت النفط على مزارع القمح الموجودة على المرتفعات في الهواء الطلق و أضرموا فيها النيران، و ظلت الأدخنة تتصاعد من تلك النيران لأسابيع دون أن يكون أي إنسان قادراً على إطفائها.

و قد دفعنا تزايد الضغط على جبهة الجيش للإنتقال يوم ٢٩ سبتمبر لمنطقة بعيدة عن مكمن الخطر و معنا جزء قليل من الطاقم التكتيكي، و هذا يعد وسيلة ملائمة دوماً في أوقات الأزمات لأنها تمنع الطواقم التابعة من الإنسحاب مبكراً و ترك إنطباعاً سيئاً على القوات، و في تلك الحالة الراهنة كان من المناسب على نحو خاص تغيير مواقع القيادات الرومانية بالنظر إلى ميول تلك القيادات.

في نفس اليوم نفذ فيلق المشاة الجبلي الألماني و "الليبستاندرت" هجوماً على جبهة العدو الجنوبية و التي هزم فيها الجيش الثالث الروماني لكنه فشل في إستغلال نجاحه المبدئي هذا، و بينما كان من الممكن إستعادة الموقف لصالحنا في تلك المنطقة كانت هناك أزمة جديدة بدأت تحط على الجناح الشمالي للفيلق الثلاثين و التي فتح لها لواء الخيالة الروماني المجال، و كان علي أن أتدخل بقوة هناك لمنع إنسحاب الفيلق، و تم دحر التهديد بالإختراق هناك عبر الإلتفاف حول "الليستاندرت" و مواجهته.

إن توتر الموقف على جبهتنا الشرقية ناجم عن الأحداث التي ذكرناها آنفاً، و قد أدى أيضاً لخلق فرصة ذهبية لنا، فعبر قيام العدو بشن هجمات متتالية على جبهتنا بهدف إضعافها و تشتيت إنتباهنا بعيداً عن القرم أوقع العدو بجيشيه في وضع مواجه لنا و لم يكن لهما بالقطع أي إحتياطات تحميهما من أي عبور ننفذه لنهر "دنيبر" في "زابوروزي" و "دنيبروبتروفسك"[١] حيث نجحت مجموعة بانزر الأولى بقيادة الجنرال "فون كليست" في كسر جناح العدو الشمالي، و بعدما قدمت إقتراحاتي إلى مجموعة الجيوش الجنوبية منذ أيام خلت حول القيام بالتدخل من تلك الجهة تم إصدار الأوامر

[١] دنيبروبتروفسك : في أوكرانيا حالياً جنوب شرق العاصمة كييف على نهر دنيبر.

المناسبة في الأول من أكتوبر، و بينما ظل الجيش الحاديعشر يتصدى لهجمات العدو المتواصلة بدأت مجموعة البانزر تزيد من ضغطها من جهة الشمال، و الآن بدأ العدو في التراجع و بحلول الأول من أكتوبر جاء دور الفيلق الثلاثين ليتولى أمر الهجوم، و في الأيام القليلة التالية نجحنا بالتعاون مع مجموعة البانزر الأولى في تطويق حشود جيشي العدو في منطقة "بول تومكاك – ماريوبول – بيرديانسك" أو في تدمير المنسحب منهما، و قد غنمنا ٦٥ ألف أسير و ١٢٥ دبابة و قرابة ٥٠٠ مدفع في تلك المناسبة.

غزو القرم:

أعقب معركة بحر آزوف تغيير في ترتيب القوات على الجناح الجنوبي الألماني، فقد بدا أن القائد الأعلى أدرك عدم قدرة أي جيش على القتال تزامنياً في عملية بإتجاه "روستوف" و أخرى في شبه جزيرة القرم، لذا و منذ الآن فصاعداً تم إلقاء مهمة التقدم نحو "روستوف" لمجموعة بانزر الأولى و التي أمر الجيش الحادي عشر بتسليمها الفيلق ٤٩ مشاة جبلي و "الليبستاندرت".

تم إعطاء الجيش الحادي عشر مهمة واحدة و هي غزو شبه جزيرة القرم بالفيلقين المتبقيين لديه و هما الفيلق الثلاثين المكون من الفرق ٢٢ و ٧٢ و ١٧٠ مشاة و الفيلق الرابع و الخمسين المكون من الفرق ٤٦ و ٧٣ و ٥٠ مشاة.

تم تكليف الجيش الثالث الروماني بقيادة المارشال "أنتونيسكو" بحماية سواحل البحر الأسود و بحر آزوف،و بعدما صرت قريباً من المارشال وافق على منحي قيادة الفيلق الجبلي الروماني - المكون من لواء خيالة و لواء مشاة جبلي – إلى داخل القرم وصولاً إلى الساحل الشرقي.

و الآن و مع تقليص مهمة الجيش الحادي عشر إلى الهدف الوحيد المتمثل في غزو شبه جزيرة القرم إلا أن القائد الأعلى مع ذلك نفد صبره و أراد عبور أي فيلق لمضيق "كيرتش" إلى "كوبان" في أقرب تاريخ ممكن.

و لإدراك الجيش الحادي عشر مدى سوء تقدير "هتلر" للعدو و إستهانته به فقد شعر الجيش بأنه مجبر على توضيح وجوب أن تكون الأهداف ذات الأولوية في مثل تلك العملية هي تطهير القرم من الأعداء، و بلا شك سيقاتل العدو حتى آخر رجل دفاعاً عن شبه الجزيرة و قد يفضل التخلي عن "أوديسا" في سبيل الدفاع عن "سفاستبول".

و بالطبع طالما أن للسوفييت وجود و لو لرجل واحد في القرم فلا يمكن الحديث أبداً عن إرسال جزء من الجيش الحادي عشر – و الذي لديه فيلقان فقط - عبر مضيق "كيرتش" إلى "كوبان"، و كما سارت الأمور لقد وجدناها فرصة لطلب دعمنا بفيلق إضافي من ثلاث فرق، و خلال الأسابيع القليلة التالية – و يرجع السبب الأساسي لذلك إلى رغبة "هتلر" سالفة الذكر- تم تزويدنا بالفيلق الثاني و الأربعين و الفرقتين ١٣٢ و ٢٤ مشاة، و كنتيجة لمجهودات الروس اليائسة للإحتفاظ بالقرم أثبتت التعزيزات حتميتها للمعارك على شبه الجزيرة .

الصراع على برزخ "إشون":

كانت المشكلة الأساسية هي مواصلة الصراع على مداخل شبه جزيرة القرم و فتح الطريق عبر برزخ "إشون"، و قد يرى البعض أنها مجرد عملية هجومية أخرى، و لكن تلك الأيام العشرة من المعارك تجسد أعلى نموذج للعمليات الهجومية كمثال برّاق على الروح القتالية و الجود بالذات اللتين تمتع بهما الجندي الألماني.

و في هذا الصراع إفتقدنا تقريباً لكل المزايا المطلوبة بشكل عام كضروريات أولية لأي هجوم على مواقع محصنة.

كان التفوق العددي في صالح المدافعين السوفييت لا المهاجمين الألمان، فعما قريب تواجهت الفرق الألمانية الست مع ثمان فرق مشاة و أربع فرق خيالة سوفييتية ، كما قام السوفييت في ١٦ أكتوبر بإخلاء حصن "أوديسا" – رغم الهجمات الفاشلة للجيش الرابع الروماني - و نقلوا قواتهم إلى إلى القرم عبر البحر، و برغم إعلان اللوفتافا أنها أغرقت ٣٢ ألف طن من قوافل الإمدادات السوفييتية إلا أن الكتلة الرئيسية لتلك القوافل نجحت في إنزال حمولتها في موانئ "سفاستبول" و بقية الموانئ على الشاطئ الغربي

لشبه الجزيرة، و قد ظهرت أولى الفرق السوفييتية على جبهة المعركة عقب بدء هجومنا بوقت قصير.

كانت المدفعية الألمانية متفوقة على مدفعية العدو و قدمت دعماً فعالاً للمشاة المهاجمين، و لكن على جانب العدو كانت المدافع الساحلية المصفحة قادرةعلى التدخل من الساحل الشمالي الشرقي للقرم و الضفة الجنوبية لنهر "زيباش" دون أن تكون المدفعية الألمانية قادرة على التعامل معها، و بينما قام السوفييت بالتخلي عن مدرعاتهم تمهيداً لشن هجوم مضاد لم يتمكن الجيش الحادي عشر الألماني من إغتنام أيٍ منها.

و فوق كل ذلك لم يمتلك القادة المشرفون أي فرصة لتسهيل أداء المهمة الشاقة على القوات بواسطة أي مناورة تكتيكية، و في هذا الموقف كان من المستحيل أخذ العدو على حين غفلة حيث أن كل ما توجب عليه فعله هو الجلوس و الإنتظار في مواقعه المحصنة جيداًحتى بدء الهجوم، و كما كان الوضع في "بيريكوب" قضى البحر من ناحية و نهر "زيباش" من ناحية أخرى على أي إمكانية لتطويق العدو، و على النقيض من ذلك كان من الضروري تنفيذ الهجوم مجابهة من الأمام على طول المضايق الأرضية الثلاثةو التي كان البرزخ ينقسم إليها بسبب البحيرات الموجودة به.

كان إتساع تلك المضايق الثلاثة يسمح لنا بعبور ثلاث فرق فقط من الفيلق الرابع و الخمسين – الفرق ٧٢ و ٤٦ و ٢٢- كمرحلة أولى، و كان الفيلق الثلاثين عاجزاً عن التقدم حتى تتم السيطرة على مساحة أكبر من الأرض في الجنوب.

لم توفر السهوب الملحية – المنبسطة كالفطيرة و الخالية من أي غطاء نباتي – أي غطاء من أي نوع للمهاجمين، و كانت السماء فوقهم تسيطر عليها القوات الجوية السوفييتية و التي كانت مقاتلاتها و قاذفاتها تنقض على أي هدف يعثرون عليه، و لم تضطر المشاة و قطع المدفعية الميدانية على الخط الأمامي للجبهة فقط إلى أن تجهز حفر لها بل كان ذلك ضرورياً كذلك بالنسبة لكل مركبة و حصان خلف منطقة المعركة كحماية من هجمات طيران العدو، لقد بلغ الأمر مدى بعيداً من السوء خاصةً و أن مدافعنا المضادة للطائرات كانت تتهيب إطلاق النار على طائرات العدو بسبب تعرضها للتدمير مباشرة من الجو كرد فعل، و لم تتم تطهير السماء من قوات العدو إلا في الأيام الأخيرة للهجوم عقب وصول "مولدرز"[١] و مجموعة المقاتلات التابعة له لأرض

[١] فيرنر مولدرز : طيار ألماني في الحرب العالمية الثانية و عاش بين ١٩١٣ – ١٩٤١.

المعركة، و لكن إنطبق ذلك فقط على ساعات النهار أما ليلاً فحتى "مولدرز" لم يكن بوسعه فعل شيء.

في مثل تلك الظروف القتالية و بمواجهة عدو يرفض بصلابة التخلي عن أي بوصة من الأرض زادت المطالبات المفروضة على القوات المهاجمة بشكل غير إعتيادي و تعاظمت خسائرها بشكل ملحوظ، و خلال تلك الفترة كنت دائم التنقل على الطرقات لأرى بنفسي كيف تسير الأمور و ما المساعدة الممكن تقديمها للقوات المهاجمة في صراعها الشاق هذا.

و قد أفزعتني حالة التدهور التي آلت إليها القوة القتالية، فقد قدمت الفرق المشاركة في تنفيذ تلك المهمة تضحيات كبيرة في معركة برزخ "بيريكوب" و بحر آزوف و حان الوقت الذي يتساءل فيه المرء حول إمكان نجاح الصراع على ممرات ضيقة أو – على فرض نجاحنا في الإختراق – هل ستظل قواتنا قادرة على أخذ القرم من عدو يزداد قوة بمرور الوقت.

بحلول ٢٥ أكتوبر بدت القوات مرهقة و غير قادرة على مواصلة الهجوم، و قد أبلغنا قائد إحدى الفرق مرتين بأن الأفواج تحت قيادته خارت قواها، و هذه هي اللحظة التي كانت ستأتي عاجلاً أو آجلاً في أي صدام عندما تصير نتيجة المعركة على حافة سكين، لقد كانت تلك هي الساعة التي تُظهر ما إذا كانت إرادة المهاجم في الجود بنفسه إلى أقصى الحدود أقوى من إرادة المدافع في مواصلة المقاومة من عدمه.

إن الصراع حول إتخاذ القرار ببذل أقصى جهد – مع مخاطر جمة متمثلة في إحتمال ضياع تلك المجهودات هدراً – يدور فقط داخل قلب القائد، و سيكون ذاك القرار بلا فائدة إن لم يكن مُلهماً بواسطة ثقة القوات و تصميمها على عدم التخلي عن القتال.

لم يكن الجيش الحادي عشر مستعداً لإضاعة النصر بسبب ضعفه الخاص و إستغراقه وقتاً أطول لتنفيذ مهام بسيطة، و كما بدا جلياً بعد ذلك، تمكنت الروح القتالية الصلبة لقواتنا من التغلب على قرار العدو المتين بالتمسك بمواقعه، و بعد يوم آخر من الجهد الخارق حلّ علينا يوم ٢٧ أكتوبر بالنجاح الحاسم، و في ٢٨ أكتوبر و بعد عشرة أيام من القتال المرير إنهارت دفاعات السوفييت و تولى الجيش الحادي عشر ملاحقة العدو.

الملاحقة:

قدمت الملاحقة التي أعقبت النصر مثالاً مشرفاً على جرأة و روح المبادرة لدى القادة على كل المستويات و إنكار الذات الذي تمتعت به القوات، إن مشهد تلك الأفواج المنهكة جراء خسائرها الكبيرة و متطلبات الحملة غير المسبوقة و هي تتسابق بإتجاه الهدف المغري المتمثل في الساحل الجنوبي لشبه جزيرة القرم يذكرنا بمشهد جنود من جيش آخر في ١٧٩٦ عندما غزت حقول إيطاليا بقيادة "نابليون".

بحلول ١٦ نوفمبر إنتهت الملاحقة الشرسة و صار كامل القرم بأيدينا عدا منطقة "سفاستبول" الحصينة، لقد نجحت الفرق الست للجيش الحادي عشر في سحق أفضل كتلة من جيشي العدو بما مجموعه إثني عشر فرقة مشاة و أربعة فرق خيالة، و خسر العدو ١٠٠ ألف أسير من مجموع قوات ٢٠٠ ألف في الصراع على عنقي زجاجة من الأرض و الملاحقة التي أعقبت ذلك، إضافة إلى ٧٠٠ مدفع و ١٦٠ دبابة، و أما عن قواته التي نجحت في الهرب عبر مضيق "كيرتش" أو إلى "سفاستبول" فكانت مجرد حطام و لا تمتلك أي أسلحة ثقيلة، و بالنسبة لحقيقة إمكانية تحويل تلك القوات اللاجئة للحصن إلى قوات مستعدة للقتال فترجع إلى سيطرة العدو على البحر و التي مكنته من إحضار قوات و معدات جديدة دون أدنى تأخير.

و بينما إنتقلت الفروع الإدارية لقيادة الجيش الحادي عشر إلى "سيمفروبول"[١] إنتقل مركز قيادتنا التكتيكي إلى "زارابوس" – قرية شمال المدينة سالفة الذكر – حيث وجدنا مكاناً مريحاً لإقامتنا في إحدى المدارس المبنية حديثاً على يد السوفييت في المنطقة الريفية، و قد أقمت أنا شخصياً مع رئيس الأركان في منزل ريفي صغير ملحق بمزرعة فواكه تعاونية حيث إمتلك كلٍ منا غرفة خاصة به، و إشتمل أثاث غرفتي على سرير و منضدة و كرسي و مقعد صغير للجلوس عليه في حوض الغسيل و بعض شماعات الملابس، و كان يمكننا بشكل طبيعي الحصول على بعض الأثاث من "سيمفروبول" و لكن طاقم القيادة التابع لنا رفض الإنغماس في الراحة بينما قواتنا محرومة منها.

[١] سيفروبول : مدينة بوسط شبه جزيرة القرم و هي العاصمة الروسية للإقليم.

و قد ظللنا في تلك المنازل المتواضعة حتى أغسطس ١٩٤٢ بإستثناء مرتين قضينا إحداهما على جبهة مضيق "كيرتش" و الأخرى أمام "سفاستبول"، لقد كان الإنتقال من الحياة البدوية – في السهوب - تغييراً جذرياً بالنسبة لنا ، و لم يكن ذلك التغيير بالضرورة مرحباً به، و عندما يصير طاقم أي تشكيل راكداً تكون النتيجة الحتمية لذلك ليس فقط الغرق في روتين يومي و إنما العودة إلى الحرب الورقية[١]، و قد خضت تلك الحرب الورقية في ذلك الشتاء في فصلي بين موقدي حطب صغيرين قمنا ببنائهما على الطريقة الروسية بسبب قيام السوفييت بتدمير نظام التدفئة.

و بمناسبة هذه النقطة يتوجب علي الإشارة لمشكلة كانت مثار إهتمام بالغ بالنسبة لي حتى بالرغم من إنتهائها قبل أن يتملكنا القلق الذي تسبب فيه شتاء ٤٢/١٩٤١ في المناخ العملياتي، إن الرجل الذي قود جيشاً يعد القاضي الأعلى فيه و أصعب قرار يواجهه هو أن يصدر حكماً بالموت، فمن جهة هذا واجبه الأساسي اللازم لحفظ الإنضباط الخادم لمصلحة القوات أولاً بأن يوقع العقوبات المتنوعة على المخالفات التي تحدث ،و من جهة أخرى إنه مما يصعب على العقل تقبله إنهاء حياة إنسان بجرة قلم تحمل توقيعاً، إن الموت بالتأكيد يحصد أرواح آلاف الضحايا يومياً في الحرب و كل جندي يتوقع أن تأتيه لحظة الموت في أي وقت، و لكن هناك فرق كبير بين الموت بشرف في معركة و بين الوقوف أمام بنادق رفقائك ليتم محوك من الحياة بطريقة مخزية و مهينة.

و لا مجال بالطبع للرحمة عندما يلطخ أحد الجنود الشرف العسكري بأي تصرف أو يتسبب في مقتل زملائه، و لكن كانت هناك حالات عديدة لم يتسبب فيها أي إنحطاط في شخصية فاعلها و إنما ترجع إلى خطأ بشري قابل للتوضيح، و حتى في مثل تلك الحالات كان على المحكمة العسكرية أن تصدر أحكاماً بالموت بموجب صرامة القانون العسكري.

و قد كنت متقبلاً في أي حالة لم يصدر فيها حكم بالموت لإصدار حكمي بناء على آراء قضاة الجيش التي يبلغونني بها شفاهة – و هم رجال يستحقون الإعجاب – و لكنني كنت حريصاً على دراسة الملفات بنفسي، و عندما صدر الحكم بالموت على جنديين من فيلقي في بداية حرب لقيامهما بإغتصاب و قتل إمرأة عجوز لم أرَ سوى أنهما حصلا على ما يستحقانه.

[١] أي الحرب بمجرد الرسم على الورق دون تنفيذ على أرض الواقع.

و حالة أخرى حدثت مختلفة تماماً و تتعلق بشخص حائز على وسام الصليب الحديدي أثناء الحملة البولندية تم نقله إلى وحدة غريبة بعد خضوعه لنوبة علاج في مستشفى، و في أول أيامه تم قتل كافة طاقم المدفع الرشاش مما أدى لفقده لأعصابه و هروبه، وفقاً للقانون يتم الحكم عليه بالموت و لكن ما تزال هناك أمور يجب النظر إليها في حالته تلك – حتى لو كان الرجل مذباً لجبنه و من ثم تعريض الروح المعنوية للقوات للخطر- تدعو لتطبيق أحكام أخرى، و لما كنت غير قادر على التصديق فوراً على الحكم الصادر من المحكمة العسكرية فإن الإجراء الذي إتبعته في تلك الحالة و ما ماثلها هو إستشارة قائد الفوج الذي ينمتي إليه المذنب ثم أصدرت حكماً – بناء على موافقة قائد الفوج – بسجنه أربعة أسابيع، و لو قام الرجل خلال تلك المدة بمراجعة نفسه و التكفير عما بدر منه ألغيت الحكم الصادر بالموت، و إن لم يفعل أقررت ذاك الحكم، و كل الرجال الذين إرتكبوا ذلك الفعل في تلك الفترة لم يقع منهم في يد العدو سوى رجل واحد أما الباقي فإما ماتوا رجالاً كنظرائهم في المعارك و إما أثبتوا إستحقاقهم للتبرئة.

الهجوم الأول على "سفاستبول":

إن مهمة الجيش الحادي عشر الآن هي السيطرة على آخر معاقل العدو في شبه جزيرة القرم ألا و هي "سفاستبول"، و كلما تحقق ذلك في وقت أقرب كلما كان الوقت الذي يملكه العدو لتنظيم دفاعاته أقل و كلما تعاظمت إحتمالات النجاح، و الأدهى من ذلك أنه يقلل أي إحتمالات تدخل للعدو من البحر.

وفقاً لحساباتنا، إن التحركات الضرورية لقواتنا و تجهيز الذخيرة سيكتمل في ٢٧ أو ٢٨ نوفمبر، و نتيجة لذلك قررنا إعتبار ذلك التاريخ هو الحد الأقصى لإنطلاق الهجوم.

و في تلك النقطة تغلب علينا الشتاء الروسي و كان تأثيره مدمراً بشكل كبير ، و في شبه جزيرة القرم هطل المطر جاعلاً كل الطرق غير الممهدة أصلاً غير صالحة للإستخدام، و من جهة أخرى سيطر الجليد على الأرض الأساسية في الشمال مخرجاً أربعة من جرارات القطارات من أصل خمسة نمتلكها جنوب نهر "دنيبر"، و هو ما قاد

للتقليص من وصول الإمدادات للجيش الحادي عشر إلى حمولة قطار واحد أو قطارين يومياً، و برغم وجود الجليد على نهر "دنيبر" إلا أنه لم يكن حاملاً لأي ممرات ثلجية.

و على هذا المنوال إستمرت إستعدادات الهجوم، و بدلاً من يوم ٢٧ نوفمبر لم يبدأ القصف التمهيدي للمدينة قبل يوم ١٧ ديسمبر، و في نهاية المطاف و عقب تأخير لمدة ثلاثة أسابيع مهمة صار الفليقان الرابع و الخمسين و الثلاثين قادرين على شن هجومهما على القطاعات الشمالية و الجنوبية على وجه الخصوص، و قبل ذلك كان لدى الجيش الحادي عشر إتخاذ قرار صعب ، ففي ١٧ أكتوبر دخلت الأمور في "روستوف" منعطفاً خطيراً مما حدا بقيادة مجموعة الجيوش إلى أن تأمر بالتسليم الفوري للفرقتين ٧٣ و ١٧٠ مشاة، و برغم كل التحذيرات من أن ذلك سيجعل أي هجوم على "سفاستبول" مستحيلاً لم يُسمح لنا بالإحتفاظ سوى بالفرقة ١٧٠ و التي كانت في طريقها للإلتحاق بالفيلق الثلاثين و لن تتمكن من بلوغ "روستوف" في الوقت المحدد أبداً، و هذا التنازل لا يغير من الحقيقة المتجلية في أن إستبعاد الفرقة ٧٣ حرم الهجوم على القطاع الشمالي من العنصر الإحتياطي الضروري، و صار علينا أن نعيد التفكير في مدى قدرتنا عقب ذلك على شن الهجوم، و على كلٍ لقد قررنا أن نقوم بالمخاطرة.

من غير الممكن وصف سير الهجوم بالتفصيل هنا، لذا سنقول إن المهمة الأولى كانت إقتياد العدو – بهجوم مفاجئ من الشرق – من منطقته الأمامية بين نهري "كاتشا" و "بيلبك" و السيطرة في نفس الوقت على نقاطه الحصينة في سهل "بيلبك" و على طول مرتفعاته الجنوبية، و هناك يتم توجيه الهجوم نحو منحدرات الحصن نفسه جنوب "بيلبك" وصولاً إلى خليج "سفيرنايا"، و تقع المسئولية عن النجاح في تلك المعركة على الفرقة ٢٢ مشاة – الساكسون السفلى – الشجاعة بقيادة البطل اللفتنانت جنرال "وولف"، حيث نجحت في تمشيط المنطقة الأمامية بين نهري "كاتشا" و "بيلبك" من أي تواجد للعدو و إجتاحت بصحبة الفرقة ١٣٢ مشاة المرتفعات الجنوبية لوادي "بيلبك" و توغلت داخل المنطقة الحصينة جنوب النهر، و لكن رأس حربة الهجوم كان يضيق ببطء بسبب عدم إحراز الفرقتين الـ٥٠ و ٢٤ مشاة – و المكلفتين بالتقدم إلى خليج "سفيرنايا" من الشرق – لأي تقدم في المنطقة الجبلية الريفية الوعرة – جزء منها مجرد أعشاب و حشائش نمت تلقائياً.

و قد إستنزف القتال الكثيف على نقاط التحصين – و التي دافع عنها العدو بضراوة – قوة قواتنا إضافة إلى إنهاك البرد القارس لقواها إلى أقصى درجة، و على الرغم من

ذلك توسعت رأس الحربة في أواخر ديسمبر – حيث إستمر القتال حتى خلال عيد الميلاد – إلى قرب من حصن "ستالين" و الذي تعني السيطرة عليه منح مدفعيتنا مجالاً للرؤية على خليج "سفيرنايا"، و كل ما نحتاجه الآن هو قوات جديدة لإنجاح التقدم نحو الخليج، و لكن كان هذا ما ينقصنا بالضبط بسبب قيامنا بتسليم الفرقة ٧٣ ، و حتى قيامنا بحشر فرقنا المشاركة في الهجوم في رأس الحربة تلك لن يعوضنا عن خسارتنا لتلك الفرقة.

و كما كان حال السوفييت عندما علقت قوارب الإنزالات خاصتهم في مضيق "كيرتش" أولاً ثم في "فيودوسيا"[1] كان التهديد المميت متمثلاً في اللحظة التي كانت كامل قوات الجيش فيها – بإستثناء فرقة ألمانية و لوائين رومانيين – تقاتل حول "سفاستبول".

كان واضحاً أنه ينبغي علينا أن نحرك قوات من "سفاستبول" إلى النقاط المهددة بأقصى سرعة، و أي تأخير و لو بسيط سيؤدي لنتائج مصيرية، و لكن هل سيتوجب علينا وقف الهجوم على "سفاستبول" لو بدا ضرورياً إرسال هجوم آخر للسيطرة على خليج "سفيرنايا"؟

و الأدهى من ذلك ، كان من المؤكد أن سحب القوات من "سفاستبول" عقب إحراز النجاح على الجبهة الشمالية سيكون أسهل مما لو رفضنا ترك العدو و شأنه لفترة قصيرة.

وفقاً لذلك قرر الجيش الحادي عشر تقبل المخاطرة الكامنة في كل ساعة تأخير لسحب القوات من "سفاستبول"، و بداءة صدر الأمر بوقف الهجوم للفيلق الثلاثين فقط و تم إرسال الفرقة ١٧٠ لشبه جزيرة "كيرتش" المهددة، و في نفس الوقت تم القيام – بموافقة قائد الفيلق الرابع و الخمسين و قادة الأفواج – بمحاولة أخيرة على الجبهة الشمالية لتحقيق هدف الهجوم المتمثل في خليج "سفيرنايا".

و كما هو الحال دائماً قدمت القوات أفضل ما لديها و نجح الفوج ١٦ مشاة بقيادة العقيد "فون تشولتيتز" التابع للفرقة الثانية و العشرين في إختراق الحلقة الخارجية لحصن "ستالين"، و نفدت حينها قوى الجنود فأرسل قادة الهجوم تقريراً في ٣٠ ديسمبر يفيد عدم توقع نجاح أي محاولة جديدة للهجوم، و عقب نقاشات من جانب مجموعة الجيوش عبر الهاتف إقتنع "هتلر" أخيراً بضرورية وقف الهجوم، و بالتالي أصدرت قيادة

[1] فيودوسيا : ميناء شرق شبه جزيرة القرم.

الجيش الحادي عشر أوامرها بوقف الهجوم، و على مضض إضطرت لإصدار أوامر الإنسحاب من الجبهة الشمالية إلى منطقة المرتفعات شمال وادي "بيلبك"، و لكن لم تتوافر القوات الضرورية لتنفيذ هذا الإجراء، و لا نملك ما نقول حيال الحقيقة المتجلية في أن الموقف على الحدود الضيقة لرأس الحربة سيصير غير ممكن الدفاع عنه على المدى الطويل، و رفض "هتلر" لقرار الإنسحاب - و الذي يتصادم مع تحريمه الصارم لأي إنسحاب تطوعي – لم يكن له وزن مقارنةً بالمسئولية الملقاة على عاتق المرء عن القوات التي تضحي كثيراً بنفسها.

و بذا أخفقت أول محاولة للسيطرة على "سفاستبول".

الهجوم "ستالين" لإعادة غزو شبه جزيرة القرم:

لقد أثبت الإنزال الذي قام به السوفييت في شبه جزيرة "كيرتش" – و الموجه ضد الجيش الحادي عشر عند دخول المعركة على الجبهة الشمالية مرحلتها الحاسمة – أنه ليس سوى إجراء تمويهي من جانب العدو بغرض التضليل و تشتيت الإنتباه، و قد أعلنت المحطات الإذاعية السوفييتية أنه هذا كله عملية هجومية لإعادة غزو القرم بتخطيط و قيادة من "ستالين" شخصياً و أنها لن تنتهي حتى يتم محو الجيش الحادي عشر من على الخريطة تماماً، و هذا ليس تهديداً فارغاً بالنظر إلى حجم قوات العدو المشاركة في العملية، و وراء تلك القوات إرادة "ستالين" الوحشية التي تتجسد فيها المعاني الحقيقية لعدم الرحمة.

في ٢٦ ديسمبر بدأ العدو بعد عبور مضيق "كيرتش" في إنزال فرقتين على جانبي المدينة، و تبعت ذلك عمليات إنزال أصغر حجماً على الشاطئ الشمالي لشبه الجزيرة، و صار الفيلق الثاني و الأربعين – و الذي يعتمد على الفرقة ٤٦ مشاة في الدفاع عن شبه الجزيرة – بقيادة الجنرال "كونت سبونيك" في موقف لا يحسد عليه، و مراراً طلب "كونت سبونيك" إخلاء شبه الجزيرة على أمل عدم تعرضه للتطويق من جانب العدو إلا أن الجيش الحادي عشر لم يتفق معه حيثأنه لو تمكن العدو من الحصول على موطئ قدم قوي له في "كيرتش" فسيعني ذلك فتح جبهة ثانية في القرم و هو ما يعد موقفاً

خطيراً جداً على الجيش بأكمله طالما ظلت "سفاستبول" في يد العدو، و كنتيجة لذلك أمرنا الفيلق الثاني و الأربعين بتوجيه ضربته و العدو ما زال فاقداً لتوازنه عقب الإنزال مباشرة و إجباره على العودة إلى البحر، و في نفس الوقت أرسلنا اللوائين الرابع و الثامن المشاة الجبليين الرومانيين – و اللذان كان أولهما حول "سيمفربول" و الثاني كان منشغلاً بحراسة الشاطئ الشرقي لشبه جزيرة القرم – إلى "فيودوسيا" للتعامل مع أي محاولة إنزال من جانب العدو في تلك النقطة الحرجة و غرض ذلك هو الإحتفاظ بالفيلق الثاني و الأربعين للمهمة سالفة الذكر، و بالتزامن مع ذلك صدرت أوامر لمجموعة الأفواج الوحيدة المتبقية في القرم و التابعة للفرقة ٧٣ بالتحرك نحو "فيودوسيا" من "هينيتشيسك".

و بحلول ٢٨ ديسمبر نجح الفوج ٤٦ مشاة في القضاء على الرؤوس التي أنشأها العدو على الشاطئ شمال و جنوب "كيرتش" بإستثناء مجموعة صغيرة من القوات المعادية لا تزال تقاتل على الشاطئ الشمالي، و على الرغم من ذلك جدد "كونت سبونيك" طلبه الإذن بإخلاء شبه جزيرة "كيرتش"، و هو ما كنا نرفضه جملة و تفصيلاً إقتناعاً منا بأن التخلي عن شبه جزيرة "كيرتش" سيقود إلى موقف يفقد الجيش معه القدرة على السيطرة على قواته.

و في تلك الأثناء تحرك الفيلق الرابع و الخمسين في يوم ٢٨ ديسمبر لشن هجومه الأخير على "سفاستبول".

و لكن العدو كان في مرحلة التجهيز لتوجيه ضربة جديدة، ففي يوم ٢٩ ديسمبر بلغتنا أنباء عن قيامه بعملية إنزال ليلي في "فيودوسيا" تحت غطاء من قوات بحرية قوية، و قواتنا هناك ضعيفة – قوامها كتيبة مهندسين و قوات مضادة للدبابات و بعض البطاريات الساحلية كما أن الرومانيين لم يبدؤوا في الوصول إلا في الصباح التالي – و غير قادرة على وقف عملية الإنزال، و كان إتصالنا التليفوني مع الفيلق الثاني و الأربعين و الموجود في وسط شبه الجزيرة قد خرج من الخدمة، و لكن بحلول الساعة العاشرة صباحاً سمعنا عبر الإذاعة أن "كونت سبونيك" أمر بالإخلاء الفوري لشبه الجزيرة على إثر الإنزال الذي تم في "فيودوسيا"، و رغم إصدارنا لأمر مضاد لذلك الإجراء على الفور إلا أن وحدات الإشارة التابعة للفيلق الثاني و الأربعين لم تتمكن من إلتقاطه، و على الرغم من تقديرنا لمخاوف الفيلق بشأن تطويق العدو الكتواجد في "فيودوسيا" له إلا أننا لم نؤمن بإمكانية تصحيح هذا الموقف عبر الإنسحاب المباشر.

و تزامناً مع إصدار الأمر بإلغاء الإنسحاب من شبه جزيرة "كيرتش" أصدر الجيش الحادي عشر أوامره لفيلق المشاة الجبلي الروماني لمواجهة العدو في "فيودوسيا"و إجباره على العودة إلى البحر بمعاونة لوائين سبق ذكرهما سالفاً و فوج مشاة ميكانيكي روماني، و رغم أننا لم نمتلك صورة واضحة عن القدرة الهجومية لتلك التشكيلات الرومانية إلا أنه يمكن القول بأن قيامها بالهجوم على العدو ذي التواجد الضعيف في "فيودوسيا" – حتى تاريخه - قد يمكننا من إستغلال تلك الميزة لصالحنا، و في أسوأ الأحوال – حسب تصورنا – سيعمد الرومانيون إلى إحتواء العدو في رأس شاطئي ضيق حول "فيودوسيا" حتى تصل القوات الألمانية هناك.

تطور الموقف على شبه جزيرة "كيرتش":

حتى تلك الأمنية أثبتت أنها مجرد وهم، فبدلاً من أن يوجه فيلق المشاة الجبلي الروماني هجومه نحو "فيودوسيا" نجده قد سمح لمجموعة من الدبابات السوفييتية بطرده و إجباره على التراجع إلى نقطة ما شرق "ستاري كريم"[1].

و عقب سلسلة من المسيرات بإستخدام القوة نجحت الفرقة ٤٦ مشاة في بلوغ الشريط الضيق من الأرض في "بارباتش، و في سبيل ذلك قامت بالتخلي عن أغلب مدفعيتها على الطرق المكسوة بالثلوج و وصلت قواتها في حالة إعياء تام، و كان العدو قادراً على تولي زمام المطاردة إنطلاقاً من الرأس الشاطئي الصغير المحتفظ به شمال "كيرتش"، و تفاوتت سرعته في جلب الإمدادات على حسب مقدار تجمد المضايق، و لو قام القائد السوفييتي بإستغلال الميزة الموجودة في صالحه تلك و قام بمطاردة الفرقة ٤٦ مشاة من "كيرتش" و إندفع خلف الرومانيين أثناء إنسحابهم من "فيودوسيا" لصار مصير الجيش الحادي عشر بأكمله على المحك، و كما حدث لم يكن يعلم متى يأخذ قراره الحاسم إما لكونه لم يدرك أصلاً الفرصة السانحة أمامه أو أدركها و لكنه رفض خوض المغامرة و إستغلالها.

---

[1] ستاري كريم : مدينة جنوب شرق شبه جزيرة القرم.

و كان من الممكن أيضاً بمساعدة الفرقة ٤٦ مشاة المنهكة و الفوج ٢١٣ مشاة – و الذي وصل تواً من "هينيتشيسك" – و القوات الرومانية بناء جبهة دفاعية – و لو كانت غير سميكة – بين المنحدرات الشمالية لجبال "يايلا" القريبة من "ستاري كريم" و نهر "زيباش" غرب "أك موناي"، و لكي يتم دعم القوات الرومانية و حماية أسلحة الثقيلة تم ضم كل الضباط و الأفراد الألمان – بمن فيهم من أمكن فصلهم عن قيادة الجيش الحادي عشر – للوحدات الرومانية.

بحلول ١٥ يناير صار الفيلقان الثلاثون و الثاني و الأربعون جاهزين لشن الهجوم المضاد على جبهة "فيودوسيا"، لقد كان القرار بالمخاطرة بشن هذا الهجوم صعباً لأنه سيُنفذ بواسطة ثلاث فرق و نصف ألمانية ضعيفة و لواء مشاة جبلي روماني ضد عدو تزايد قوته لتبلغ ثمان فرق و لواء، و الأكثر من ذلك بينما كان العدو يمتلك عدداً محدوداً من الدبابات في حوزته لم نكن نحن نمتلك أياً منها أصلاً، و كنا نشك في إمكان تقديم اللوفتافا لأي دعم بالنظر إلى الطقس السيئ و الذي حال دون قيامها بتنفيذ أي طلعات جوية فوق "فيودوسيا" خلال الأيام القليلة الماضية، و على الرغم من ذلك يتوجب علينا إقتناص الفرصة و بدء الهجوم.

نجح الهجوم بفضل شجاعة قواتنا و بحلول ١٨ يناير تمت السيطرة على "فيودوسيا"، و قد خسر العدو ٦٧٠٠ قتيل و ١٠ آلاف أسير و ١٧٧ مدفع و ٨٥ دبابة، كما قامت اللوفتافا بعمل جيد بالنسبة لميناء "فيودوسيا" على الرغم من ظروف الطقس السيئة و أغرقت عدد من ناقلات العدو.

و قد أوعز لنا النجاح في "فيودوسيا" بوجوب الإستغلال الفوري له لطرد الجيوش السوفييتية من شبه جزيرة "كيرتش"، و على الرغم من كون ذلك أمراً مرغوباً فيه إلا أن الجيش الحادي عشر قرر – و بعد دراسة دقيقة – عدم إمكان تنفيذ ذلك بالموارد المتاحة خاصة أننا وُعدنا بتزويدنا بكتيبة دبابات و سربي طائرات و هي القوات التي نجتاجها لتنفيذ تلك المهمة بالضبط.

و بالتالي على الجيش الحادي عشر الإستغناء عن فكرة الإستغلال الجامح لإنجازاته في "فيودوسيا" و أن يوجه نفسه لمهمة إجبار العدو عن التقهقر من عنق الزجاجة في "بارباتش" و التي ينتهي عندها مضيق "كيرتش" بين بحر آزوف و البحر الأسود، لم

يكن هناك بالتأكيد أي خوف حول هذا القرار فقد أدركنا أن القوات صارت الآن في حاجة لإحتياطات كبيرة بعد كل ماقامت به من مجهود حتى تاريخه.

إستمرار الهجوم "ستالين":

رغم أن إستعادة السيطرة على "فيودوسيا" و غلق شبه جزيرة "كيرتش" في "بارباتش" قد خلصنا مؤقتاً من خطر داهم إلا أننا لم نسمح بأن يقودنا ذلك إلى إحساس زائف بالأمان، ففي ذلك الوقت كان العدو يحاول جاهداً على الجبهة الشرقية لتعويض خسائره في الصيف الماضي و يعيد زمام المبادرة لنفسه، فلماذا يستثني القرم من ذلك و التي تزوده سيطرته على البحر بفرص نجاح عالية؟ و النجاح هنا ستكون له تداعيات حاسمة على الجبهة الشرقية بأكملها – سياسياً بالنظر لتركيا و إقتصادياً بالحصول على قواعد للعمليات الجوية ضد حقول النفط الرومانية، و نقطة أخرى يتوجب أخذها في الإعتبار و هي أن الدعاية السوفييتية قد ربطت الهجوم على القرم بإسم "ستالين" لذا كان من المستحيل إلغاؤه تحت أي ظرف.

و قد إكتشفنا في وقت قريب أن العدو يدفع بتعزيزات إلى "كيرتش"، و لكونه مسيطراً على المضايق المتجمدة أمكنه تعويض خسارته لميناء "فيودوسيا"، و قد أظهرت الصور الجوية بإستمرار العدو و هو يحشد قواه في موانئه المطلة على البحر الأسود و القواعد الجوية شمال القوقاز، كما تواردت في ٢٩ يناير تقارير إستخباراتية تقدر قوة العدو على جبهة "بارباتش" بأكثر من تسع فرق و مجموعتين من ألوية المشاة و لوائي دبابات مستقلين.

كما بدأت تنشط جبهة "سفاستبول" مجدداً خصوصاً فيما يتعلق بالمدفعية.

بعد أسابيع من الهدوء الذي لم يخلُ من التوتر أطلق العدو أخيراً هجومه الضخم في ٢٧ فبراير.

و قد إستمرت المعارك الضارية على جبهتي "بارباتش" و "سفاستبول" بعنف بالغ حتى الثالث من مارس، ثم هدأت الأمور لفترة على الجبهتين، و قد نجحنا أخيراً في إحتواء

تقدم العدو على جبهة "بارباتش" في القطاع الشمالي عبر الإستغلال الجيد للحشائش المنتشرة هناك، و رغم أن الجبهة صارت الآن متواصلة إلا أنها مع ذلك تقلصت بشكل كبير غرب الجزء الشمالي منها.

في ١٣ مارس بدأ العدو هجوماً ضخماً آخر و هذه المرة بواسطة ثمان فرق مشاة و لوائين مدرعيين مستقلين، و بينما تمكنا من تدمير ١٣٦ دبابة في الأيام الثلاثة الأولى إلا أننا تعرضنا لعديد من الأزمات، و قد تقاس مرارة القتال بالنظر إلى حقيقة توجب قيام الفوج ٤٦ مشاة – و الذي وقع على كاهله صد الجزء الأكبر من الهجوم – صد ما يتراوح بين عشرة و إثنين و عشرين هجوماً خلال ذات الأيام الثلاثة.

و في ١٨ مارس أبلغنا الفيلق الثاني و الأربعون أنه صار غير قادر على التصدي لأي هجوم كبير آخر.

و قد قررنا عقب وصول الفرقة ٢٢ بانزر المشكلة حديثاً إلى هذه الجبهة في تلك الأثناء – و التي خصصتها *القيادة العليا للجيوش الألمانية* للجيش الحادي عشر – أن التوتر الشديد للموقف يبرر توظيفنا إياها للقيام بهجوم مضاد، و تمثل هدفنا في إستعادة السيطرة على خط القتال الرئيسي و الذي ظللنا متماسكين عليه عبر عنق الزجاجة المتمثل في برزخ "بارباتش" و بالتالي تتم محاصرة الفرقتين أو الثلاث المعاديتين الموجودتين في الجزء الشمالي.

و قد إنتقلت مع عدد صغير من هيئة الأركان إلى مركز قيادة قريب من جبهة "بارباتش" المهددة كي أشاهد الإستعدادات للهجوم المضاد التي يقوم بها الفيلق الثاني و الأربعون.

و قد أخفق الهجوم الذي إنطلق في ٢٠ مارس و دعمته الفرقتين ٤٦ و ١٧٠ مشاة، فقد توجهت الفرقة المدرعة الجديدة فوراً صوب منطقة تموضع السوفييت في الصباح الباكر، و قطعاً كنا مخطئين بإلقائها في أتون معركة رئيسية دون إخضاعها للتدريبات اللازمة مع تشكيلها التابعة له، و بينما أخفق الهجوم – و الذي حُددت له أهداف محددة – إلا أن ذات الفرقة نجحت في أسابيع لاحقة لبلوغ مستوى التوقعات عقب إتمام التدريب في ظل ظروف مشابهة للحرب تماماً و كجزء من تشكيل كبير، و لكن ما الذي كان يمكننا فعله في تلك الظروف سوى المخاطرة بإلقائه في المعركة؟ فعلى الأقل صدم ذلك العدو و كشف لنا عن إستعداداته لهجوم ضخم آخر في تلك اللحظات الحرجة، و

عندما شن العدو هجومه في ٢٠ مارس تمكن الفيلق الثاني و الأربعون من دحره، و في تلك المرة ألقى العدو بأربع فرق فقط إما لأن بقية تشكيلاته صارت منهكة بشكل مؤقت أو لأنه فضّل تحديد أهدافه هذه المرة لأنه رأى الدبابات على جبهتنا لأول مرة.

و في تلك الأثناء و بينما كانت الفرقة ٢٢ بانزر خارج سياق الأمور لبعض الراحة و التجهيز وصلت العناصر المتقدمة من الفرقة ٢٨ مركبات خفيفة لمؤخرة الجبهة ، و بذا صرنا الآن قادرين على التصدي لأي هجوم معادي بقوة.

(فرق المركبات الخفيفة الجديدة – و على عكس سابقاتها – لم تكن مزيجاً بين فرق المدرعات و الميكانيكا و إنما كانت أقرب – من حيث الهيكل و المعدات – لفرق المشاة الجبلي، فيما بعد أطلق عليها "فرق الملاحقة" ... الكاتب)

وصل الهجوم المعادي – و الذي كان آخر نشاط للعدو في سبيل إستعادة السيطرة على شبه جزيرة القرم – في ٩ أبريل، و شاركت فيه ما يتراوح بين ست و ثمان فرق مشاة مدعومة بـ ١٦٠ دبابة، و بحلول ٩ أبريل كان قد تم دحره بخسائر فادحة للعدو، و بهذا إنتهت قدرات العدو الهجومية على هذا المسرح.

و صارت الفرق الجسورة التي قادت المعركة الدفاعية حتى نتيجتها النهائية المتمثلة في النجاح – برغم الضغط الهائل الواقع عليها – الآن قادرة على الخلود للراحة رغم أنها لم يمكن إخراجها من مسرح العمليات.

و من جهة أخرى إنتقلت قيادة الجيش من ذلك الشتاء القارس الملئ بالتجارب و الأزمات غير المسبوقة إلى مهمتها الجديدة و هي التجهيز للهجوم الأخير لطرد الروس من شبه جزيرة القرم.

العملية "حبار"[1]

(إعادة غزو شبه جزيرة "كيرتش"):

بين المعركة الدفاعية قبل الأخيرة و الأخيرة لشبه جزيرة "كيرتش" أتى المارشال "أنتونيسكو" للقرم و قام بجولة تفقدية بصحبتي للفرق الرومانية و جبهة "سفاستبول"، و قد تولد لدي إنطباعاً ممتازاً من طريقته الباسلة، و قد بدا أن القادة الرومانيين يتهيبون التعامل معه، و كنت ممتناً له بوجه مخصوص لوعده إياي بفرقتين رومانيتين خاصة و أنه منذ وصول الفرقتين الألمانيتين – ٢٢ بانزر و ٢٨ مركبات خفيفة – باتت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* غير قادرة على إرسال أي قوات إضافية تجهيزاً للهجوم.

و بموجب تعليمات من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* تم إعتبار عملية الطرد النهائي للسوفييت من القوم بمثابة مرحلة تمهيدية للهجوم الشامل الذي خطط القائد الأعلى لشنه على القطاع الجنوبي من الجبهة الشرقية.

كان الهدف الأول للجيش الحادي عشر هو تدمير قواعد العدو في شبه جزيرة "كيرتش"، و من أسباب ذلك إستحالة التنبؤ بالوقت الذي ستستغرقه أي عملية ضد "سفاستبول"، و السبب الأهم على الإطلاق هو أن جبهة "كيرتش" – و رغم كونها الأسهل من حيث إرسال التعزيزات – ظلت تمثل التهديد الأخطر على الجيش الحادي عشر، و يجب عدم إتاحة الوقت أمام العدو للتعافي من خسائر هجماته السابقة، كما يتوجب تنحية "سفاستبول" جانباً حتى الإنتهاء من القضاء على القوات السوفييتية في شبه جزيرة "كيرتش".

لم تمنح مقارنة القوى بين الألمان و الروس في القرم أي تفاؤل بخصوص نتيجة هاتين المهمتين، فللعدو ثلاثة جيوش في القرم تحت إمرة مركز قيادة خاص بجبهة القرم بدا أنه تشكل حديثاً و مقره في شبه جزيرة "كيرتش".

و ظلت حصن "سفاستبول" تحت حماية جيش الساحل السوفييتي و الذي قدرنا قوته في فبراير بسبع فرق مشاة و لواء مشاة و لوائين بحريين و فرقة خيالة، و أقصى قدر من

[1] الحبار: هو نوع من الطيور يقطن قارات العالم القديم و يتسم بعدم القدرة على الطيران و هو من الطيور القارتة و الإنتهازية بشكل عام و يتراوح طولها بين ٤٠ – ١٥٠ سنتيمتر.

القوات متاح لنا خلال الهجوم على "كيرتش" و إحتواء قوات العدو على الجبهتين الشمالية و الشرقية للحصن كان الفيلق الرابع و الخمسين و الفرقة ١٩ الرومانية الواصلة حديثاً و التي وُضعت تحت إمرة الفرقة ٥٠ الألمانية في الهجوم على "كيرتش"، و القوة الوحيدة التي تُركت على الجبهة الجنوبية لـ"سفاستبول" هي الفرقة ٧٢ مشاة.

و كان على فيلق المشاة الجبلي الروماني – قوامه أربعة لواءات فقط – الدفاع عن الساحل الجنوبي لشبه جزيرة القرم بأكمله ضد أي هجوم مفاجئ للعدو من البحر، و بذا كان على الجيش الحادي عشر تجريد الجبهات الأخرى من قواتها في سبيل الهجوم على "كيرتش" بأكبر قوة ممكنة.

و على جبهة "كيرتش" يمتلك العدو جيشيه الرابع و الأربعين و الخامس و الأربعين، و اللذين باتا يتضمنان بحلول نهاية أبريل ١٩٤٢ سبعة عشر فرقة مشاة و ثلاثة ألوية مشاة و فرقتي خيالة و أربع ألوية مدرعة، بما مجموعه ستة و عشرين تشكيلاً.

و إزاء ذلك القدر المهول من القوات أمكننا إشراك فقط خمس فرق مشاة ألمانية – بما فيها الفرقة ٥٠ مشاة المستدعاة من "سفاستبول" – و الفرقة ٢٢ بانزر، و أضيف إلى ذلك الفيلق السابع الروماني و قوامه الفرقة التاسعة عشر و اللواء الثامن خيالة و الفرقة العاشرة – تلك الخيرة تم نقلها من الساحل الغربي، و نظراً لأن الإستفادة من تلك القوات الرومانية في أي دور هجومي كانت محدودة زاد التباين العددي بصورة ملحوظة في الهجوم القادم و المُسمى "حبار".

كما يتوجب أن نأخذ في إعتبارنا أن الهجوم عبر فجوة "بارباتش" يجب أن يكون أمامياً في مراحله الأولى نظراً لأن البحار على أيٍ من الجانبين تقضي على أي إمكانية للتطويق، و الأكثر من ذلك أن العدو قد نشرٍ دفاعاته على عمق ملحوظ، و الآن كيف يمكننا في تلك الظروف و بالنظر إلى تفوق العدو عددياً علينا بالضعف أن نحقق هدفنا المتمثل في تدمير جيشيه الإثنين؟

شيء واحد كان واضحاً و هو أنه لا يمكن للهجوم الأمامي على جيشي العدو و لا حتى الإختراق البسيط لصفوفهما أن يصل بنا إلى أي نتيجة، و لو عمد العدو – عقب خسارته لمواقعه في "بارباتش" – إلى إعادة تشكيل جبهته في أي مكان سيكون حتمياً أن تتوقف عمليتنا، و كلما زاد إتساع شبه جزيرة "كيرتش" بشكل أكبر نحو الشرق كلما

زادت قدرة العدو على الإستفادة من تفوقه العددي، و يجب أن تكفي الست فرق الألمانية اتي نمتلكها لغرض تنفيذ الهجوم عبر فجوة عمقها ١١ ميلاً في "بارباتش" و التي سيلقي العدو بكامل قواته فيها بشكل متزامن، و لكن كيف يمكننا التقدم نحو الشرق عندما يتعلق الأمر بالقتال على جبهة بعرض ٢٥ ميلاً؟ و لذا يجب أن يكون الهدف ليس فقط إختراق صفوف العدو في جبهة "بارباتش" و التوغل في عمقه بل يجب أن يكون تدمير الكتلة الرئيسية لتشكيلاته أو على الأقل الأجزاء الأساسية منها أثناء عملية الإختراق الأول.

و في هذا الخصوص قدم لنا العدو فرصة فقد كان لا يزال في قطاعه الجنوبي - بين البحر الأسود و "كوي أسان" – يجهز دفاعاته القوية على الخط الأصلي لجبهة "بارباتش" بشكل أساسي، أما عن جبهته الشمالية من جهة أخرى فقد برزت بشكل واضح وراء جبهة "بارباتش" على هيئة إنحناءة واسعة تصل غرباً إلى "كيت" ، و يرجع تاريخ حدوث ذلك إلى وقت إكتساح العدو السوفييتي للفرقة الرومانية الثامنة عشر.

و بدا واضحاً أن القائد السوفييتي قرر الإقتداء بمحاولتنا لسد تلك الثغرة من خلال طريقة توزيعه لقواته، و وفقاً لتقاريرنا الإستخباراتية جمع العدو ثلثا قواته – من الأساس و الإحتياط – في أو خلف قطاعه الشمالي، و مع ذلك كان في الجنوب ثلاث فرق من الأساس و إثنتان أو ثلاث من الإحتياط، و تماماً كالهجوم السابق الذي نفذته الفرقة ٢٢ بانزر كان الهدف المتمثل في إختراق جبهة العدو في منطقة غرب "كوي أسان" هو سبب تلك التموضعات.

و مثل ذلك كان الموقف الذي بنى الجيش الحادي عشر عليه خطة الهجوم في العملية "حبار"، فقد قررنا توجيه هجومنا الحاسم ليس إلى المنطقة التي تبرز فيها الجبهة غرباً و إنما جنوباً إلى القطاع الجنوبي على طول ساحل البحر الأسود، بمعنى آخر في آخرمكان يتوقعه العدو.

تم إلقاء تلك المهمة على عاتق الفيلق الثلاثين – قوامه الفرق ٢٨ مركبات خفيفة و ١٣٢ مشاة و ٥٠مشاة و ٢٢ بانزر ، و رغم الإبقاء على الفرقة ١٧٠ مشاة في القطاع المركزي في المرحلة الأولى بهدف خداع العدو إلا أنها ستتوجه جنوباً فيما بعد.

و كانت الخطة أن يقتحم الفيلق الثلاثون مواقع العدو في "بارباتش" بواسطة ثلاث فرق و يستولي على الخندق المضاد للدبابات العميق الموجود في إتجاه الشرق بهدف تمهيده

و فتح المجال أمام الفرقة ٢٢ بانزرلتخطي تلك العقبة، و ما إن تتحرك تلك الأخيرة يقوم الفيلق بالتقدم شمالاً و الزحف نحو مؤخرة قوات العدو المتجمعة في القطاع الشمالي، و من ثم يقوم بالتعاون مع الفيلق الثاني و الأربعين و الفيلق السابع الروماني بمحاصرة العدوعلى الساحل الشمالي لشبه الجزيرة.

و تقع مسئولية حماية الجناح الشرقي للفيلق الثلاثين ضد هجمات العدو القادمة من جهة "كيرتش" على تشكيل متحرك يُسمى "مجموعة الألوية جروديك" و المشتمل على وحدات مشاة ميكانيكي ألمانية و رومانية، و كان عليها إنجاز مهمتهما هجومياً بالتقدم بسرعة نحو "كيرتش" و بالتالي تقضي على أي محاولة من جانب عناصر العدو للهجوم من الخلف.

و بغرض تذليل الصعاب المحيطة بالإقتحام المبكر في "بارباتش" قام الجيش الحادي عشر بعمل دراسات حول ما يحتمل أن يكون أول عملية إنزال بحري بإستخدام الزوارق الهجومية من نوعها، فكان سيتم إنزال كتيبة خلف مواقع العدو في "بارباتش" مع أول ضوء بعد نقلها بواسطة زوارق هجومية من "فيودوسيا".

و سيتم دعم الهجوم الأساسي للفيلق ليس فقط بواسطة المدفعية و إنما بكامل الفيلق الجوي الثامن.

و كان الفيلق الجوي الثامن – و الذي يتضمن كذلك عدداً ضخماً من الوحدات المضادة للطائرات – بالنظر إلى بنيانه أقوى و أصلب تشكيل متاح من اللوفتافا لدعم العمليات العسكرية، و كان قائده العام "بارون فون ريشتهوفن" بالتأكيد من أفضل قادة اللوفتافا في الحرب العالمية الثانية، و كان دوماً ما يشتد فيما يفرضه على الوحدات العاملة تحت إمرته و لكنه كان يحرص على قيادة أي هجوم تنفذه قواته بنفسه، و الأكثر من ذلك، إن المرء كان يراه بإستمرار على الجبهة لإعتياده على القيام بجولات للوحدات الأمامية لتقدير مدى الحاجة للدعم الجوي للعمليات البرية، و دوماً ما كنا نتعاون سوياً بشكل جيد سواء في الجيش الحادي عشر و لاحقاً في مجموعة الجيوش الجنوبية، و أنا أذكر جيداً إنجازات "فون ريتشهوفن" و ذلك الفيلق الجوي بكامل التقدير و الإمتنان.

و على بقية جبهة "بارباتش" كانت مهمة الفيلق الثاني و الأربعين و الفيلق السابع الروماني هي القيام بمحاكاة هجوم بهدف الحؤول دون هرب العدو، و بمجرد إتمام الإختراق في الجنوب يتوجب عليهما الإنضمام للهجوم الرئيسي.

إن نجاح هذه العملية يعتمد على عاملين : **الأول** هو قدرتنا على جعل العدو يعتقد بإستمرار أن هجومنا الرئيسي سيأتي من الشمال حتى يفوت عليه الأوان للخروج من الشَرَك أو حتى يلقي بإحتياطاته إلى القطاع الجنوبي، أما **الثاني** فكان سرعة تنفيذ الفيلق الثلاثين – و خصوصاً الفرقة ٢٢ بانزر – للتقدم على جهة الشمال.

تم تحقيق العامل الأول بواسطة تكتيكات خداعية مكثفة تضمنت – إلى جانب الخداع اللاسلكي – نشر إستعدادات زائفة للمدفعية في القطاعين المركزي و الشمالي تزامناً مع تحريك قوات في ذات المنطقة، و كما بدا كانت تلك التكتيكات ناجحة للغاية حيث ظلت الكتلة الرئيسية لإحتياطات العدو خلف جناحه الشمالي حتى فات أوان تحركها.

و قُبيل بدء الهجوم بلحظات فقدنا رئيس هيئة أركاننا صاحب الخبرة العالية الجنرال "فولر" و الذي كان خير عون في الأيام الصعبة من الشتاء السابق و الذي لعب دوراً هاماً في التحضير للعملية "حبار"، كلانا وجد أمر رحيله صعباً و لكنه تم تعيينه رئيساً لهيئة أركان مجموعة الجيوش الوسطى، و قطعاً لم يمكنني الوقوف في طريق تقدمه.

و كان خليفة "فولر" في منصبه الجنرال "شولز" و الذي أثبت أنه خير صديق و مستشار، و كان خير عون لي في أصعب مراحل حملة شتاء ١٩٤٣ و خلال ذلك الوقت كنا نقاتل في سبيل إنقاذ الجيش السادس، و إلى جانب شخصيته الشجاعة تمتع "شولز" بأعصاب حديدية و إدراك متميز لإحتياجات و متطلبات القوات المقاتلة، و كان قد حصل على وسام "صليب الفارس" في موقف صعب بإعتباره رئيس هيئة أركان الفيلق، و قد أثبت كفاءة عالية عندما صار قائداً لفيلق تابع لمجموعة الجيوش الجنوبية فيما بعد.

في الثامن من مايو تحرك الجيش الحادي عشر لتنفيذ العملية "حبار".

تمكن الفيلق الثلاثون من تخطي العقبة المضادة للدبابات و إختراق مواقع العدو الأمامية، كما قدم الإنزال بالزوارق الهجومية بفضل عامل المفاجأة مساعدة مهمة لجناحنا الأيمن المتقدم على طول الساحل، و على الرغم من ذلك لم تكن المعركة أبداً سهلة، كما أن مساحة الأرض التي كسبناها خلف الخندق المضاد للدبابات لم تكن كافية لتنتقل إليها الفرقة المدرعة ، إضافة إلى الصعوبة التي تم بها الهجوم اللاحق للفيلق الثاني و الأربعين، و على الرغم من ذلك فقد إشتبكنا مع عشر فرق معادية و نجحنا في

تشتيت الجناح الجنوبي للعدو، و لم تبدُ أي أمارات حول تحرك إحتياطاته من الجناح الشمالي.

لم يكن من الممكن جلب و موضعة الفرقة ٢٢ بانزر حتى التاسع من مايو و قبل تحركها شمالاً كان عليها أن تصد هجوماً قوياً لدبابات العدو، ثم هطل المطر و ظل طوال المساء جاعلةً تعاون وحدات الدعم التابعة للوفتافا أو تنفيذ الدبابات لأي تقدم صباح ١٠ مايو مستحيلاً ، و رغم أن الجو صفا بعد الظهيرة إلا أن الفارق الزمني المتمثل في الأربع و عشرين ساعة كانت لتكون سبب تراجعنا في مثل تلك العملية المعتمدة أساساً على سرعة الحركة، و مما واسانا نجاح مجموعة الألوية جروديك في التحرك بسلاسة إلى الشرق قبل المطر، و هي الحقيقة التي مكنتها من دحض أي محاولة من العدو لبناء جبهة له في الخلف، و بدا واضحاً أن العدو لم يتوقع ذلك التقدم الجرئ في أعماق منطقة إتصالاته، و لسوء الحظ تعرض قائد المجموعة العقيد "فون جروديك" لإصابات عديدة أثناء تنفيذ العملية و مات عقب ذلك بفترة قصيرة.

و منذ ١١ مايو فصاعداً سارت العملية دون عوائق تذكر، و وصلت الفرقة ٢٢ بانزر إلى الساحل في الشمال مكتسحةً في طريقها ثمان فرق للعدو، و صار الجيش قادراً على إصدار الأمر ببدء الملاحقة، و قد قدمت القوات –بما فيها الرومانية – أفضل ما لديها في سبيل إنجاح العملية، و بحلول ١٧ مايو سقطت "كيرتش" بيد الفرقة ١٧٠ مشاة و الفوج ٢١٣، و برغم ذلك الإنجاز الكبير ما تزال أمامنا معارك كثيفة لتصفية فلول العدو و التي هرعت نحو الساحل الشرقي.

و قبل إنطلاق الهجوم إنتقلت مجدداً لمركز قيادة جديد خلف الجبهة و كنت أقضي يومي بأكمله أتفقد طواقم قيادة الفرق و القوات على الخطوط الأمامية، و كجندي كان هناك شيء لا يمكن نسيانه حول تلك المطاردة المغرية، فقد كانت كل الطرق عاجّة بمركبات العدو و دباباته و مدافعه فضلاً عن طوابير طويلة من الأسرى، و كان المنظر من فوق تلة "كيرتش" ساحراً و التي كان لدي موعد عليها مع الجنرال "فون ريتشهوفن"، حيث يقع تحتنا مضيق "كيرتش" – و هو الهدف الذي طالما حلمنا به - تخترقه أشعة الشمس المشرقة، و على الشاطئ العاجّ بكل نوع من المركبات السوفييتية توجد قوارب بخارية تابعة للعدو تحاول سحب الأفراد لكنها كانت تبتعد تحت تأثير نيران مدفعيتنا، و في سبيل تجنيب مشاتنا أي تضحيات أخرى و الوصول إلى إستسلام عناصر العدو التي ما

تزال تقاتل بيأس على طول الساحل قمنا بتوجيه قصف مدفعي مكثف على لجيوب المقاومة الأخيرة تلك.

بحلول ١٨ مايو إنتهت معركة شبه جزيرة "كيرتش"، و ظلت مجموعات ضئيلة من قوات العدو في التحصن في الكهوف حول "كيرتش" لأسابيع بتأثير من بعض الكوميسارات المتطرفين، و وفقاً للتقارير الواردة إلينا فقد غنمنا ١٧٠ ألف أسير و ١١٣٣ مدفع و ٢٥٨ دبابة.

لقد نجحت خمس فرق مشاة و فرقة مدرعة ألمانية برفقة فرقتي مشاة و لواء خيالة روماني في القضاء على جيشين سوفييتيين كاملين قوامهما ستة و عشرين تشكيلاً، و قد نجحت عناصر قليلة للعدو في الهرب عبر مضيق "كيرتش" إلى شبه جزيرة "تامان"، لقد خضنا معركة إبادة حقيقية إنتهت إلى النصر.

العملية "حفش[1]":

(غزو "سفاستبول")

ما تزال أمام الجيش الحادي عشر المهمة الصعبة المتمثلة في غزو "سفاستبول".

و كنت قد أطلعت "هتلر" على نوايانا بشأن الهجوم على الحصن خلال زيارة لمقر قيادته في منتصف أبريل، و كانت تلك هي أول زيارة أقوم بها له منذ تلك المتعلقة بالهجوم على الغرب في فبراير ١٩٤٠، و حتى في ذلك اللقاء الثاني تولد لدي الإنطباع بأنه لم يتم إخباره بكل تفاصيل المعارك التي خضناها حتى تاريخه فقط بل بأنه قدّر المقترحات المتعلقة بالعملية المقدمة له كذلك، و قد سمع بإنتباه لكل ما قلته و إتفق تماماً مع وجهة نظر الجيش الحادي عشر حول طريقة إدارة هجوم "كيرتش" و الهجوم على "سفاستبول"، و لم يقم بأدنى تدخل في خططنا أو – كما حدث كثيراً فيما بعد – أي هذيان يتضمن روايات غير منتهية عن بيانات الإنتاج.

---

[1] سمك الحفش : فصيلة من الأسماك تعيش قرب شواطئ أوربا و آسيا و تتميز بجسمها الممدود و عدم وجود حراشف لها و حجمها الكبير و منها يصنع الطعام الشهير بإسم "كافيار".

و مع ذلك هناك سؤال حيوي واحد لم يُناقش في تلك المناسبة، و يتمثل في هل كان من الصواب – بالنظر للهجوم المخطط له على أوكرانيا – إشراك الجيش الحادي عشر بأكمله في الهجوم على حصن "سفاستبول" القوي و هو ما قد يستغرق فترة من الزمن لا يمكن تحديدها مسبقاً خاصة و أن النصر المُحرز في شبه جزيرة "كيرتش" أزال التهديد القادم من القرم ؟ من الواضح أن تسوية تلك المسألة من إختصاص القائد الأعلى لا قيادتنا نحن للجيش، و بالنسبة لي فقد آمنت ذلك الوقت – و لا زلت أؤمن حتى اليوم – بأن القرار بتكليف الجيش الحادي عشر بالإستيلاء على "سفاستبول" أولاً هو القرار الصائب، و لو قمنا بمواصلة إستغلال الحصن فسيبقى في القرم ثلاث أو أربع فرق ألمانية إضافة للقوات الرومانية – نصف الجيش الحادي عشر تقريباً.

و ما كان خطأ بلا شك هو قرار القائد الأعلى عقب سقوط "سفاستبول" بسحب الجيش الحادي عشر من الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية لإستخدامه عند "لينينجراد" و لسد الثغرات في خطوط القتال، و كان يتوجب عقب سقوط "سفاستبول" أن يعبر هذا الجيش مضيق "كيرتش" – كما هو مخطط أصلاً – لمنطقة نهر "كوبان" لإعتراض قوات العدو المتدفقة على القوقاز من نهر "دون السفلي" أمام مجموعة الجيوش "أ"، و لو لم يسعفنا الوقت للقيام بذلك فيتوجب نقله للإحتياط خلف الجناح الجنوبي، و لربما تجنبنا حينئذٍ مأساة "ستالينجراد"[١].

و على الفور عقب العملية في "كيرتش" شرع الجيش الحادي عشر يحشد قواته للهجوم على "سفاستبول".

كانت مسئولية الفيلق الثاني و الأربعين هي حماية شبه جزيرة "كيرتش" و الساحل الجنوبي للقرم، و القوات الألمانية الوحيدة التي تُركت له في سبيل هذا الغرض كانت الفرقة ٤٦ مشاة - بما يتبعها من الفيلق السابع الروماني - و قوامها الفرقتين العاشرة و التاسعة عشر مشاة و الرابعة مشاة جبلي و لواء الخيالة الثامن ، و عدا ذلك من القوات أرسل إلى "سفاستبول".

(تم تسليم الفرقة ٢٢ بانزر لمجموعة الجيوش الجنوبية...الكاتب)

[١] ستالينجراد : مدينة روسية تقع على ضفاف نهر الفولجا قرب بحر قزوين و إسمها الحالي "فولجاجراد".

و لا مجال للشك حول أن الهجوم على الحصن سيكون أصعب من الهجوم السابق في ديسمبر الماضي فقد كان أمام العدو عام و نصف لتشديد تحصيناته و تجهيز قواته و خطوط إمداداته عبر البحر.

و قد إشتملت قوة حصن "سفاستبول" على تحصينات مبنية حديثاً أقل – هي موجودة في كل الأحوال – من تلك التحصينات الإستثنائية الموجودة على الأرض المحيطة بالحصن و التي عجت بإنشاءات دفاعية صغيرة، و كل ذلك شكّل شبكة كثيفة من التحصينات تغطي كامل المنطقة من وادي نهر "بيلبك" إلى ساحل البحر الأسود.

و تضمنت المنطقة بين وادي "بيلبك" و خليج "سفيرنايا" بالأخص حزام مطور من التحصينات.

و تجري الجبهة الشمالية جنوب وادي "بيلبك" رغم أن العدو يمتلك شمال ذلك نقاط قوية مكثفة حول و شمال منطقة "ليوبيموفكا"، حتى الوادي نفسه و المنحدرات المنتشرة جنوبه عجّت ببطاريات مدفعية عيار ٣٠٥ ملليمتر تم تثبيتها في إستحكامات دفاعية مصفحة أسميناها "ماكسيم جوركي ١"، كما أن المنحدرات كانت مغطاة بشبكة كثيفة من الإنشاءات الميدانية بعمق ميل واحد منها ما كان خرسانياً، و خلف ذلك تأتي سلسلة من النقاط الخرسانية قوية البناء و التي أطلقت عليها قواتنا أسماء "ستالين" و "فولجا" و "سيبيريا" و "مولوتوف" و "جي بي يو" و أخيراً "تشيكا" و التي كانت موصولة ببعضها بواسطة سلسة من الخنادق، و حاجز آخير يوجد على الشاطئ الشمالي لخليج "سفيرنايا" يتكون من منطقة دفاعية من نقاط قوية تضمنت الأسماء التالية "دونتز" و "دون" و "لينين" و منطقة "بارتنيفكا" المحصنة إضافةً إلى الحصن الشمالي القديم و المدافع الساحلية، و قد حفر الروس داخل الجروف الصخرية المطلة على الخليج المذكور غرفاً تكون بمثابة مخابئ لمؤنهم و ذخيرتهم.

تفرع القطاع الشمالي للجبهة الشرقية في نقطة على بعد ميل و ربع شرق قرية "بيلبك"، و المسافة بين الفرعين تحميها مرتفعات وادي "كاميشلي " الوعرة، و يجري القطاع الشمالي للجبهة الشرقية عبر أشجار مشابكة كثيفة تغطي منحدرات جبال "فايلا"، و داخل تلك الأشجار المتشابكة تتمركز عديد من جيوب المقاومة – بعضها داخل تجاويف صخرية – و التي لا يستطيع المهاجم تصفيتها بواسطة المدفعية، و هذا القطاع الشمالي للجبهة الشرقية ينتهي بجروف حادة جنوب و جنوب شرق منطقة "جايتاني".

و رغم أن الغابات تتلاشى في الجنوب إلا أن الأرض تتزايد وعورتها تجاه الساحل و التي تتواجد عليه جبال صخرية.

كان الوصول إلى منطقة الحصن الجنوبية على جانبي الطريق السريع الواصل بين الساحل الجنوبي و "سفاستبول" محرماً بداءة لوجود سلسلة من القمم شديدة الإنحدار و التي حولها الروس إلى نقاط دفاعية قوية، و قد يتذكر المقاتلون السابقون في القرم هذه الأسماء لتلك النقاط "شوجارلوف" و "نورث نوس" و "تشابل ماونت" و "رون هيل"، و بعدها تأتي قرية "كاماري" المحصنة جيداً، و في نهاية المطاف تأتي سلسلة الجبال الصخرية شمال شرق خليج "بالاكلافا"، و كان العدو قادراً على التشبث بمواقعه هنا عندما نجح الفوج ١٠٥ مشاة في السيطرة على حصن "بالاكلافا" في خريف ١٩٤١، و قد إعتُبر إختراق تلك السلسلة من القمم و الجروف المحصنة ضرباً من الخيال بالنظر لتجاور تلك المرتفعات.

و خلف المنطقة الدفاعية الموجودة في الجنوب – شمال الطريق من "سفاستبول" – تأتي سلسلة مرتفعات "فيوكيني" و التي تمتد جنوباً حتى الساحل و العاجّة بالنقاط الدفاعية مثل "إيجلز بيرتش" و قرية "كاديكوفكا" المحصنة، كل ما سبق كان بمثابة تمهيد لأقوى تحصينات العدو و المنشأ على طول مرتفعات "زابون" و هو عبارة عن سلسلة من المرتفعات ذات الجوانب شديدة الإنحدار من جهة الشرق، و تبدأ من جروف "إنكرمان" ممتدة عبر وادي "تشورنايا" وصولاً إلى جنوب "جايتاني"، و من ثم تنعطف إلى الجنوب الغربي لتعترض الطريق إلى "سفاستبول" و تصل حتى البحر من خلال تلة "ويندميل" غرب الساحل، إن موقع "زابون" بفضل حوافه الحادة و إمكانية التغطية النيرانية لما حوله من جانب المدافعين يستحيل على المشاة الهجوم عليه كما أن المدفعجية فيه يشرفون على كامل المنطقة المحيطة به إلى أبعد ما تراه عين بشر، و للمصادفة كانت تلك المرتفعات هي الخط الذي تمسك به الحلفاء الغربيين خلال حرب القرم لحماية مؤخرة هجومهم على "سفاستبول" من أي هجوم للجيش الروسي.

و لكن حتى عندما يتمكن المهاجم من السيطرة على ذلك الموقع المتميز فإن مشاكله لا تكون قد إنتهت بعد، فعلى طول الساحل توجد بطاريات المدافع الساحلية بما فيها "ماكسيم جوركي ٢" في دشمته المصفحة، و كان هناك أيضاً سلسلة دفاعات نصف دائرية الشكل حول المدينة ذاتها تبدأ من "إنكرمان" على خليج "سفيرنايا" واصلة إياه بخليج "سترلستكايا"، و إشتملت تلك السلسلة على خندق مضاد للدبابات و أسلاك شائكة

و عدد كبير من تمركزات المدافع الرشاشة كما تضمنت المقبرة البريطانية التي تعود إلى حرب القرم و التي حولها الروس لموقع مدفعية قوي.

و أخيراً كان هناك خط من التحصينات يمتد على طول حدود المدينة و كذلك عديد من العوارض على شبه جزيرة "خيرسونس" في جهة الشرق، و الروس معروفون دوماً بمهارتهم العالية في تشييد الدفاعات و الإستحكامات و تمويهها، و في "سفاستبول" أضافوا لذلك تمتعهم بميزة السيطرة على مساحة من الريف زودتهم بإمكانيات أكبر للقصف المدفعي، و إضافة إلى ذلك سمحت لهم الطبيعة الصخرية للأرض بتغطية مدافعهم و مورتاراتهم[1] بحيث يمكنهم إستخدامها دون خشية تعرضهم للإصابة المباشرة جراء القصف المضاد، و لأننا نتحدث عن الروس فلا حاجة للتأكيد على حقول الألغام الكثيفة التي زُرعت ليس فقط على طول الجبهة المكونة من مناطق دفاعية متنوعة بل داخل تلك المناطق كذلك.

و بالنسبة لكيف يتم الهجوم على منطقة الحصن فقد توصل الجيش الحادي عشر إلى ذات النتائج التي توصل لها في الشتاء السابق، و لم نتقبل أي فكرة حول إستغلال القسم الأوسط من جبهة الحصار في شن هجوم شامل لأن الدعم المدفعي و الجوي – و هو ورقتنا الرابحة – لن يكون فعالاً في منطقة الغابة فضلاً عن إرتفاع نسبة خسائرنا، و بذا لم يكن أمامنا من خيار سوى الهجوم مجدداً من الشمال و الشمال الشرقي و الجنوب من القطاع الجنوبي.

و هذه المرة أيضاً توجب توجيه الضربة الأساسية – كبداية على الأقل – إلى الشمال رغم أن تحصينات العدو كانت بلا شك أقوى و أكثر عدداً في المنطقة الشمالية للحصن فوق خليج "سفيرنايا" مما هي عليه في المنطقة الجنوبية و التي سيكون الهجوم فيها أسهل بكثير، و فوق كل ذلك لم يكن إستخدام المدفعية و اللوفتافا فعالاً في الشمال بشكل أكبر من التلال الريفية في القطاع الجنوبي.

و بالطبع هناك هجوم ينبغي أن يتم في الجنوب أيضاً، و من أسباب أنه من المهم تشتيت دفاعات العدو عبر العجوم من جهات متعددة في ذات الوقت، و سبب آخر يتمثل في وجوب أن نتوقع تمركز العدو داخل المدينة ذاتها و في "خيرسونس" حتى عقب خسارته للمنطقة المحصنة شمال خليج "سفيرنايا"، و كان علينا أن نتذكر أن المهمة

[1] مدفع مورتر : عبارة عن قطعة مدفعية صغيرة ذات عيار قوي للضرب العمودي و الإسم الشائع له "هاون".

التي تنتظرنا في "سفاستبول" لا تشتمل فقط على الإستيلاء على الحصن و لكن مواجهة جيش يفوقنا عدداً.

(وفقاً للبيانات المتاحة لدى الجيش الحادي عشر تضمنت القوات الموجودة في الحصن : قيادة جيش الساحل للجنرال "بيتروف" و الفرق ٢ و ٢٥ و ٩٥ و ١٧٢ و ٣٤٥ و ٣٨٦ مشاة ، و الفرقة ٤٠ خيالة، و الألوية ٧ و ٨ و ٧٩ مشاة بحرية، و الجيش الذي هرب من أمامنا منذ فترة هو الذي نواجهه الآن و لكن بعد ان أعاد شحن قواه..... الكاتب)

و لم يكن العامل الذي سيطر على تكتيكاتنا في الشتاء السابق – وهو الحاجة للسيطرة على الميناء في أقرب وقت ممكن – قليل الأهمية الآن ، وطالما أن الجيش الحادي عشر بحوزته الدعم المقدم من الفيلق الثامن الجوي فلن تكون للعدو حرية تدفق الإمدادات عبر البحر.

و هكذا كانت الإعتبارات التي بنى عليها الجيش الحادي عشر خطة العملية "حفش".

و قد إنتوينا الهجوم على الجبهة الشمالية و الجزء الجنوبي من الجبهة الشرقية بينما نمنع العدو من الهرب من القطاع الأوسط الممتد من "مكنسيا" إلى "فيرخ-تشورجن" ، و كانت الأهداف الرئيسية في الشمال تتمثل في الشاطئ الشمالي لخليج "سفيرنايا" و المرتفعات حول "جايتاني" أما في الجنوب فكانت السيطرة على المرتفعات في "زابون" على جانبي الطريق الواصلة بين الساحل الجنوبي و "بالاكلافا" و بين "سفاستبول".

سيتم تنفيذ **الهجوم في الشمال** بواسطة الفيلق الرابع و الخمسين و قوامه الفرق ٢٢ و٢٤ و ٥٠ و ١٣٢ مشاة بقيادة الجنرالات "وولف" و "بارون فون تيتاو" و "شميدت" و "ليندمان" و الفوج التعزيزي ٢١٣ مشاة، و تضمنت الأوامر الصادرة للفيلق وجوب الإبقاء على قواته محتشدة في صلابة في الإتجاه الرئيسي للهجوم على الأرض المرتفعة شمال الجزء الشرقي من خليج "سفيرنايا"، و كل أجزاء المنطقة المحصنة الغير مشتملة في المرحلة الأولى ستشملها كلها عملية هجوم من الخلف فيما بعد، في حين يسعى الجناح الأيسر من الفيلق للسيطرة على مرتفعات "جايتاني" و المنطقة الجنوبية الشرقية لها بهدف تمشيط الطريق أمام تقدم فيلق المشاة الجبلي الروماني نحو الجنوب.

ستقود **الهجوم على الجنوب** قيادة الفيلق الثلاثين و قوامه فرقتي المشاة ٧٢ و ١٧٠ و الفرقة ٢٨ مركبات خفيفة.

(يقود تلك الفرق الجنرالات "ميولر-جبهارد" و "ساندر" و "سينهوبر" ....الكاتب)

و كانت مهمته الأولى هي السيطرة على مواقع مراقبة المدفعية و المواقع الأمامية من أجل التقدم نحو مرتفعات "زابون"، و لتحقيق ذلك كان على الفيلق أن يستولي على المنطقة الدفاعية القريبة للعدو المشتملة على نقاط "نورث نوس" و "تشابل ماونت" و "رون هيل" و "كاماري" و "هاي كليف" جنوب "كاماري" و أن يقضي على أي مصدر نيران في تلك المرتفعات الصخرية الواقعة شرق "بالاكلافا" في الجنوب، و للتغلب على تلك المشكلة كان على الفرقة ٧٢ مشاة التقدم على طول جانبي الطريق السريع المؤدي إلى "سفاستبول" بينما تقوم الفرقة ٢٨ مركبات خفيفة بالسيطرة – بموجب الدور المخصص لها – على القمم الشمالية البعيدة لسلسلة الجبال شرق خليج "بالاكلافا"، و يتم الإبقاء على الفرقة ١٧٠ مشاة في الإحتياط ذلك الوقت، و بسبب الطبيعة الإستثنائية الوعرة لتلك المنطقة فإن تنفيذ تلك المهام لا يتم إلا بواسطة هجمات محددة مُعد لها جيداً.

واقعاً بين مجموعتي الهجوم الكبير كان فيلق المشاة الجبلي الروماني مسئولاً بداءةً عن محاصرة العدو داخل جبهته و منعه من الهروب منها، و كان على الفرقة ١٨ الرومانية على وجه الخصوص القيام بهجمات محددة مصحوبة بقصف مدفعي لحماية الجناح الأيسر للفيلق الرابع و الخمسين من أي هجوم للعدو من جهة الجنوب، و في نطاق أبعد جنوباً كان على الفرقة الأولى مشاة جبلي الرومانية أن تدعم الجناح الشمالي للفيلق الثلاثين بالسيطرة على "شوجارلوف".

و بمناسبة تحضير المدفعية للهجوم قرر الجيش الحادي عشر الإستغناء عن القذائف المعروفة لدى العدو ، و قد لا يُرى أن لذلك تأثير فعال بالنظر إلى الطبيعة المميزة للأرض و كثرة مواقع العدو ما لم يكن بحوزتنا قدر كاف من الذخيرة، و بدلاً من ذلك ستبدأ التحضيرات قبل شن هجوم المشاة بخمسة أيام بهجوم جوي و قصف مكثف بكل ما نملكه من قطع مدفعية على خطوط إمدادات العدو و النقاط المعروف إحتشاده فيها، و خلال الخمسة الأيام التالية لذلك يقوم مدفعجيتنا بإسكات مدفعية العدو بواسطة القصف محدد الأهداف و تدمير المواقع الأمامية القريبة من منطقة العدو الدفاعية، و خلال تلك

الفترة يقوم الفيلق الجوي الثامن بهجمات متواصلة على المدينة و الميناء فضلاً عن منشآت الإمداد و التموين و المطارات.

و الآن لنتحدث قليلاً عن قوة مدفعيتنا.

بداءةً و بشكل طبيعي إستدعى الجيش الحادي عشر كل مدفع في مدى الهجوم كما أتاحت له *القيادة العليا للجيوش الألمانية* أثقل القطع الممكنة.

و بنظرة شاملة إمتلك الفيلق الرابع و الخمسون – قائد المدفعية فيه هو الجنرال "زوكرتورت" – ستاً و خمسين قطعة مدفعية ثقيلة و متوسطة، واحداً و أربعين قطعة خفيفة و ثمانية عشر مدفع مورتر إضافة إلى كتيبتين مدافع هجومية، و قد بلغ مجموع ذلك ١٢١ بطارية مدعومة بكتيبتي مراقبة و إستطلاع.

و تضمنت مدفعية الحصار الثقيلة قطع مدافع يصل عيارها إلى ١٩٠ ملليمتر فضلاً عن قطع هاوتزر[١] و هاوتزر ثقيلة يصل عيارها إلى ٣٠٥ و ٣٥٠ و ٤٢٠ ملليمتر ، و فوق ذلك كان هناك مدفعين عيار ٦٠٠ ملليمتر و المدفع الشهير "بيج دورا"[٢] و عياره ٨٠٠ ملليمتر، و تم تصميم هذا الوحش الأخير بهدف قصف أقوى أجزاء خط "ماجينو" الفرنسي لكنه لم يكن جاهزاً ذلك الوقت، لقد كان معجزة في الإنجاز الفني، و كان طول سبطانته ٩٠ قدماً و طول القذيفة يساوي إرتفاع منزل من طابقين، و تطلب جلبه عبر السكك الحديدية المنشأة له خصيصاً ستين قطاراً، كما كان يصاحبه دوماً فوجان مضادان للطائرات، و بالطبع لم يكن تأثير ذلك المدفع من الفعالية بحيث يقارن بالجهود التي بذلت في إنتاجه، و على الرغم من ذلك نجحت إحدى قذائفه الضخمة في تدمير مخزن ذخيرة للعدو على عمق ٩٠ قدماً تحت التربة الصخرية للشاطئ الشمالي لخليج "سفيرنايا".

أما عن مدفعية الفيلق الثلاثين فكانت تحت قيادة الجنرال "مارتينيك" و هو ضابط مدفعية متميز كان حاملاً لنفس الرتبة في الجيش النمساوي، و لسوء الحظ تم قتله في الشرق عندما كان قائداً لفيلق.

---

[١] هاوتزر : نوع من أنواع المدفعية يتميز بسبطانة قصيرة نسبيا واستخدام قذائف صغيرة ودفعها لمسافات بعيدة بسرعة أبطئ بمسار منحنٍ للمقذوف بحيث يكون مسار المقذوف مقوس لضرب المواقع خلف الموانع بعكس المدفع الذي يستخدم المسار المستقيم بسرعة فوهية عالية جدًا "المورتر".

[٢] بيج دورا : يقصد مدفع جوستاف الشهير.

و إشتملت مدفعية ذلك الفيلق على خمس و عشرين قطعة ثقيلة و متوسطة ، و خمس و عشرين قطعة خفيفة و ست قطع مورتر إضافة إلى كتيبة مدافع هجومية و كتيبتي مراقبة و إستطلاع، كما خُصص لها الفوج ٣٠٠ بانزر و التي كانت دباباته يُتحكم بها عن بعد و تحمل كميات كبيرة من المتفجرات.

و بالنسبة لفيلق المشاة الجبلي الروماني فإمتلك إثنا عشر قطعة مدفعية متوسطة و إثنان و عشرين قطعة خفيفة كانت كافية لأداء مهمته المحددة له.

و إضافة أخرى رحبنا بها لقوتنا المدفعية تمثلت فيما فعله الجنرال "فون ريتشهوفن" قائد الفيلق الجوي الثامن من تحويل عدد من الأفواج المضادة للطائرات التابع له إلى أفواج مدفعية أرضية.

لم يحدث أبداً خلال الحرب العالمية الثانية أن حشدت المدفعية الألمانية مثل ذلك القدر المستخدم في الهجوم على "سفاستبول" خاصة بالنظر للأعيرة المستخدمة، و قد يبدو ذلك تافهاً عند مقارنته بحشود المدافع التي إستخدمها السوفييت فيما بعد أثناء عمليات الإختراق التي تمت في الريف المفتوح ، في "سفاستبول" كان لدى المهاجم ٢٠٨ بطارية مدفعية – بإستثناء مضادات الطائرات – على جبهة طولها ٢٢ ميلاً، و هذا يعني متوسط عشر قطع للميل الواحد من الجبهة تقريباً رغم أن النسبة كانت أعلى بالقطع على قطاعات الهجوم الحقيقية، و كانت تلك النسبة في الهجوم السوفييتي عام ١٩٤٥ هي ٤٠٠ مدفع للميل الواحد من الجبهة.

قبل الهجوم بأيام قلائل قمت بزيارة وجيزة للقلعة الجنوبية لإلقاء نظرة قريبة على إستعدادات الفيلق الثلاثين، و كان مركز قيادتنا هناك قصر ساحر مغربي الطراز يقع على جرف شديد الإنحدار معانق لساحل البحر الأسود و كان مملوكاً فيما مضى لدوق كبير، و في آخر يوم لإقامتي هناك قمت بجولة إستطلاعية بواسطة إحدى قطعنا البحرية – مركب "إي بوت" إيطالي – على طول الساحل حتى "بالاكلافا"، و كان هدفي هو التأكد من الدرجة التي يمكن بها رؤية الطريق الساحلي – و الذي ستمر عليه كامل تعزيزات و إمدادات الفيلق – من البحر و بالتالي يكون هدفاً لأي قصف من تلك الجهة، و لكن لم يغامر أسطول البحر الأسود السوفييتي بالقيام بأي فعل من ذلك القبيل بفضل يقظة و نشاط اللوفتافا.

و أثناء عودتنا تعرضنا لكارثة خارج "يالطا"[1] حيث فوجئنا بسيل من نيران الرشاشات و قذائف مدفعية ينهمر علينا من السماء، و إكتشفنا أن مصدرهما مقاتلتين سوفييتين إنقضتا علينا من جهة الشمس و لكن صوتهما توارى تحت تأثير ضجيج محركاتنا القوية، و في غضون ثوان مات أو أصيب سبعة من الستة عشر فرد الذين كانوا معي كما هددت الحرارة الناجمة عن إشتعال النيران في السفينة بتفجير الطوربيدات الموجودة على جانبي السفينة، و كان تصرف القبطان الملازم المساعد الإيطالي يفوق كل ثناء و أظهر حضوراً ذهنياً قوياً في الخطوات التي قام بها لحمايتنا و حماية السفينة، و دون الإلتفاف للمخاطر الكامنة في إنتشار الألغام في البحر قفز "بيبو" إلى المياه و أخذ يسبح وصولاً إلى شاطئ قريب حيث أوقف عربة مارة، و توجه بها إلى "يالطا" و أحضر قارباً كرواتياً لسحبنا إلى الشاطئ، لقد كانت رحلة حزينة حقاً فقد مات ضابط إيطالي صغير و جُرح ثلاثة بحارة، كما مات أيضاً النقيب "فون ويدل" قائد ميناء "يالطا"، و أصيب سائقي و رفيقي الوفي "فريتز ناجل" بإصابات متنوعة في فخذه، و قام الملازم المساعد الإيطالي بخلع قميصه و إستخدمه كضمادات لـ"ناجل" و لكن كان من المستحيل وقف نزيف الدم المتدفق من الشريان.

أتى "فريتز ناجل" من "كارلسروه"[2] و عمل سائقاً معي منذ ١٩٣٨، و قد مررنا بكثير من الخُطب معاً ، و كان قد أصيب ذات مرة و هو معي إبان الفترة التي قضيناها في الفيلق ٥٦ بانزر، و على مر السنين أثبت "ناجل" أنه رفيق مخلص و بمر الوقت صار صديقاً وفياً لي، و هو بني العينين و مهندم دون أي أثر للخنوع أو الضعف، و هو رياضي و محبوب و تمكن من كسب قلوب كافة زملائه و قادته، و ما إن وطئت أقدامنا الشاطئ حتى هرعت به إلى المستشفى الميداني حيث تقرر إجراء عملية له و لكنه كان قد فقد كثير من الدماء أثناء النزيف ، و خلال ذات الليلة رحل عنا ذلك الشاب، و قمنا بدفنه بجانب زملائه الألمان و الإيطاليين في مقبرة بـ"يالطا" على جرف مطل على البحر – ربما يكون هو أروع الأماكن على ذلك الشاطئ المجيد.

و أرسلت إلى والدي "فريتز ناجل" نسخة من الرثاء الذي قلته أثناء تشييع جنازته.

---

[1] يالطا : مدينة جنوب القرم فيها إنعقد مؤتمر يالطا الشهير بين قادة الحلفاء روزفلت و تشرشل و ستالين في فبراير ١٩٤٥.

[2] كارلسروه : مدينة جنوب غرب ألمانيا.

و لكن الحرب لا تقف على أي رجل و لا على أفكاره، و في الأيام القليلة التالية أقامت قيادة الجيش الحادي عشر – و التي تقلصت إلى أقل عدد ممكن - مركزاً للقيادة التكتيكية في جبهة "سفاستبول" في منطقة "يوخاري كارالس" و هي قرية تترية تقبع في وادي ضيق بين الجروف، و ينبغي أن يكون الروس قد علموا بإقامة مركز قيادة – بعلاماته المميزة – هناك ففي كل ليلة يحوم أحد طياريهم بطائرة "راتا" قديمة – معروفة لدى قواتنا بإسم "ماكينة الحياكة" – و يلقى قدراً من القنابل و لكن و لحسن الحظ دون أدنى ضرر، و على قمة جرف فوق القرية في جبال "تشيركس – كيرمن" – و التي بنى القوط فيها معقلاً لهم ذات مرة – قمنا بتشييد مركز مراقبة و في مساء السادس من يونيه صعدنا إليه لمراقبة هجوم المشاة على طول الجبهة في الصباح التالي، و هناك ظللت بصحبة "بيبو" و رئيس الأركان و رئيسي فرعي الإستخبارات و العمليات ساعات الليل قبل الهجوم في ذلك المكان المشتمل على حفرة مرتبطة بخندق مراقبة و مجهزة بتليسكوبات، و مجدداً يُقدم "بيبو" ملحوظة مبهجة لنا في ذلك المساء .

و قد إقتُرح أن أصدر أمراً يومياً للقوات أوضح فيها أهمية المعركة التي ستخوضها، و أقول بوجه عام أنني لا أحبذ ذلك النوع من الوعظ، فبجانب حقيقة أنه نادراً ما يجد رد فعل لدى القوات إن قواتنا ليست في حاجة لتذكيرها بما هو على المحك أمامها بإعتباره الشيء الذي تقوم به القوات دوماً – و هو القتال بضراوة، و مع ذلك قمت بكتابة بعض الكلمات على ورقة سلمتها إلى "بيبو" لكي ينقلها إلى قيادات الفيالق، و عقب ذلك بفترة وجيزة عاد إلي "بيبو" و قال لي :"تمام سيدي، لقد نشرت الدعاية المبالغ فيها" ، من السئ أن يقول "بيبو" ذلك و لكنه على أي حال كان يعبر عن وجهة نظر الجندي العادي حول مثل ذلك النوع من الإعلانات، و غرقنا كلنا في الضحك على ذلك.

في صباح السابع من يونيه و ما إن أحال الفجر سماء الشرق ذهباً و محا الظلام من الوادي حتى قامت مدفعيتنا بصب جام نيرانها على العدو تمهيداً لهجوم المشاة، و بشكل متزامن قامت أسراب اللوفتافا بفتح مدافعها على الأهداف المحددة لها، لقد كان المشهد أمامنا لا يوصف نظراً لأنه من النادر في الصراع الحديث أن يُطل قادة الجيش على أرض المعركة بأكملها، و أمكن للعين في إتجاه الشمال الغربي أن تتجول من منطقة الغابات التي شهدت المعارك الضارية للجناح الأيسر للفيلق الرابع و الخمسين على اليمين إلى المرتفعات الواقعة جنوب وادي "بيلبك" و التي نقاتل بضراوة للوصول إليها، و بالنظر للغرب يمكن للمرء رؤية مرتفعات "جايتاني" و و تلمع وراءها بمسافة بعيدة

تلألآت مياه خليج "سفيرنايا" عند إلتقائها بالبحر الأسود، و حتى مرتفعات شبه جزيرة "خيرسونس" – و التي عثرنا عليها على آثار للثقافة الهيلينية [١] - كانت بادية في الأفق إن كان الطقس صحواً، و في الجنوب الغربي توجد مرتفعات "زابون" و جروف المنطقة الساحلية، و في الليل يرى المرء في محيط الحصن الواسع ومضات الضوء الناتجة عن نيران مدافع العدو، أما في النهار فيرى مثار نقع قواتنا المندفعة و قذائف مدفعيتنا و طائراتنا، لقد كانت مشاهد ممتة لمشهد خلاّب.

في "سفاستبول" كان الأمر أكبر من مجرد مواجهة جيش مهاجم لعدو مساوٍ له في القوة العددية على أقل تقدير، و أكبر من قيام مدفعية و طائرات من أحدث طراز بقصف حصن معزز بالفولاذ و الخرسانة و الجرانيت، كانت "سفاستبول" كذلك تجسد روح الجندي الألماني بشجاعته و مبادرته و الجود بذاته في مواجهة مقاومة شرسة من عدو يتمتع بمميزات حبته إياها الطبيعة من طبيعة التربة و مثابرة و صمود الجندي الروسي مدعماً بالقبضة الحديدية للنظام السوفييتي، و من المستحيل وصف هذا الصراع و الذي دام قرابة الشهر في ظل الحرارة القائظة – بلغت في الصباح الباكر ١٠٦ درجة فهرنهايت [٢] - بشكل منصف لطرفيه المهاجم و المدافع، إن ما حققته قواتنا في تلك المعركة يستحق لقب "ملحمة" و لكن المساحة هنا تكفي فقط لذكر موجز عن ذلك الصراع الذي لم يُضاهى في شراسته أبداً.

و قد أرسل الفيلق الرابع و الخمسين على جناحه الأيمن الفرقة ١٣٢ لشن هجوم أمامي عبر وادي "بيلبك" إلى المرتفعات الواقعة جنوبه مبتعدةً عن رأس الكوبري الذي أقامه العدو في "ليوبيموفكا"، و على جناحه الأيسر كانت الفرقة ٢٢ مشاة و مهمتها فتح طريق عبر الوادي لتقدم الفرقة ١٣٢ بالزحف إلى جنوب وادي "بيلبك" من جهة الشرق من خلال وادي "كاميشلي"، و على ميسرة ذلك كله كان على الفرقة ٥٠ مشاة – المهاجمة عبر منطقة "كاميشلي" – أن تشترك في هذا الزحف بالتحرك في إتجاه جنوب غربي، و على أقصى ميسرة الفيلق – في منطقة الغابات الجبلية – كان على الفرقة ٢٤ مشاة التقدم إلى مرتفعات "جايتاني" بينما تقوم الفرقة الثامنة عشر الرومانية بحمايتها.

---

[١] هيلينية : هي حقبة زمنية لحضارة الإغريق تمتد من ٣٢٣ – ١٤٦ ق.م و تمثل ذروة النفوذ اليوناني على العالم القديم.
[٢] تساوي ٤١ درجة سيليزيوس تقريباً.

و كنتيجة الدعم الساحق بواسطة مدفعيتنا القوية و الهجمات الغير متوقفة للفيلق الجوي الثامن تمكنا من عبور واديي "كاميشلي" و "بيلبك" في اليوم الأول و الحصول على موطئ قدم على المرتفعات الجنوبية لوادي "بيلبك".

و كانت مهمة الفيلق الثلاثين الأولى في الجنوب هي السيطرة على مواقع الإنطلاق اللازمة لشن هجومه القادم على جانبي الطريق السريع إلى "سفاستبول" و الذي لن ينطلق قبل مرور بضعة أيام.

تميزت المرحلة الثانية من الهجوم – و التي دامت حتى ١٧ يونيه – بنضال مرير في سبيل كل شبر من الأرض و كل خندق و كل تمركز مدفع رشاش على كلا الجبهتين، و مرة بعد الأخرى يحاول الروس إستعادة ما فقدوه بواسطة شن هجمات مضادة عنيفة، و قد قاتلوا في كل نقطة قوية كبيرة و كل تمركز لمدفع رشاش صغير حتى آخر رجل و آخر طلقة، و رغم أن ثقل الهجوم الرئيسي وقع على كاهل المشاة و المهندسين إلا أن مواقع مراقبة المدفعية كذلك تستحق التقدير و الإمتنان لقيامها بدور رائد في التوجيه النيراني و الذي مهد للسيطرة على نقاط العدو القوية و تمركزات رشاشاته، و كانت تلك المواقع بجانب المدافع الهجومية هي خير معين للمشاة في تقدمهم.

في ١٣ يونيه نجح الفوج ١٦ مشاة بقيادة العقيد "فون تشولتيتز" من الفرقة الثانية و العشرين في السيطرة على حصن "ستالين" و الذي صمد أمام هجوم الشتاء الماضي، و تجلت روح مشاتنا في أحد مصابي ذلك الفوج و الذي صاح رغم كسر ذراعه و شج رأسه قائلاً:"أستطيع أن أتحمل المزيد الآن، لقد سيطرنا على ستالين".

بحلول ١٧ يونيه بات من الممكن – رغم فداحة الخسائر – التقدم إلى داخل عمق المنطقة المحصنة في الشمال، و قد وقعت أيضاً في أيدينا مواقع الخط الدفاعي الثاني و هي "تشيكا" و "جي بي يو" و "سيبيريا" و "فولجا".

و في نفس اليوم كان الفيلق الثلاثين قادراً على التقدم إلى المناطق الدفاعية الأمامية على جبهة "زابون"، و في خضم القتال المرير سقطت النقاط القوية الحصينة "نورث نوس" و "تشابل ماونت" و "رون هيل" في يد الفرقة ٧٢، بينما إستولت الفرقة ١٧٠ على "كاماري"، و على شمال الفيلق و عقب سلسلة من المعارك العقيمة نجحت الفرقة الألى مشاة جبلي الرومانية في السيطرة على "شوجارلوف"، و من جهة أخرى كانت الفرقة ٢٨ مركبات خفيفة تتقدم ببطء على الجروف الصخرية للمنطقة الساحلية و هي "روز

هيل" و "فيرميليون١ و ٢" نظراً لأن ذلك هو الأسلوب الوحيد الممكن إتباعه في تلك المتاهة من الجروف و الذي إقتضى القفز كالضفادع من نقطة إلى أخرى و هو ما قاد لخسائر ملحوظة.

و بجانب الثمن الذي دفعناه في سبيل تلك النجاحات فإن محصلة الهجوم بدت مرتفعة التكلفة في ميزان الأيام القليلة القادمة، فقدرة قواتنا على الإحتمال بدأت في النفاد ، و قد طلب الفيلق الرابع و الخمسون إخراج الفرقة ١٣٢ مؤقتاً من الخدمة بهدف إستبدال أفواجها المنهكة بأفواج من الفرقة ٤٦ الموجودة في شبه جزيرة "كيرتش"، و حلت محلها الفرقة ٢٤ و التي أخرجت من الجناح الأيسر للفيلق لهذا الغرض.

و في نفس الوقت وجد الجيش الحادي عشر نفسه تحت ضغط من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* لإخراج الفيلق الجوي الثامن و تخصيصه للهجوم على أوكرانيا إن لم يساهم في السقوط المبكر لـ"سفاستبول"، و قد أصررنا من جانبنا على إستمرار الهجوم حتى بلوغ النجاح النهائي مهما تكلف الأمر و الذي يعتمد بدوره على الحضور المستمر للفيلق الجوي الثامن، و في النهاية إنتصرت وجهة نظرنا.

و لكن من ذا الذي يمكنه في ذلك الوقت يضمن السقوط المبكر للحصن و قوة المشاة تتضاءل أمام نواظره؟ و لإدراك الجيش الحادي عشر أن قوة المشاة قد تنهار مبكراً فقد طلب إمداده بثلاثة أفواج مشاة إضافية و هو الطلب الذي وافقت عليه *القيادة العليا للجيش*، و على أقل تقدير ستصل تلك الأفواج في المرحلة النهائية للصراع.

كان من الملائم في الموقف الراهن في حالة كلا الفيلقين المهاجمين إستغلال الميزة المتمثلة في قدرة المهاجم على نقل إتجاه أو ثقل الهجوم كما يشاء و يرتضي و من ثم يتمكن من أخذ العدو مفاجأة.

إنحرف الفيلق الرابع و الخمسين غرباً مُدخِلاً الفوج ٢١٣ مشاة و الفرقة ٢٤ في المعركة، و قد تولى الفوج ٢١٣ مشاة بقيادة العقيد "هيتزفلد" أمر البطارية "ماكسيم جوركي١" المصفحة – أحد مدافعها تم تدميره بضربة مباشرة من أحد مدفعية الحصار، و الآخر دمره مهندسونا و الذين نجحوا في الوصول إلى قمة البطارية، و مع ذلك لم يستسلم حراس الحصن – و الذين نزلوا إلى الطوابق السفلية – إلا بعد فتح مهندسينا لطريق داخل تحصيناتهم في الدور الأرضي، و أثناء محاولتنا الإقتحام قُتل الكوميسار المسئول عن الحصن فإستسلم رجاله و هم يتلون الصلوات على شفاههم، و بعد ذلك في

٢١ يونيه تمكنت الفرقة ٢٤ من تمشيط بقية القطاع الشمالي على طول الساحل الغربي التي تتواجد فيها التحصينات الحامية مدخل خليج "سفيرنايا".

أما بالنسبة للفيلق الثلاثين فقد جلب تحول مفاجئ في نقطة محورية للهجوم نجاحاً مهماً في ١٧ يونيه، فقد قرر الفيلق وقف التقدم عبر السلسلة الشمالية من المنطقة الساحلية شرق "بالاكلافا" و تركيز قواته على الفور جنوب الطريق الرئيسي تمهيداً لتقدم مفاجئ، و لم يكن هناك سوى المدفعية لوقف أي تحرك مضاد من العدو من جهة المنطقة الساحلية، و نجحت بذا الفرقة ٧٢ في التغلب على مواقع العدو جنوب الطريق و إستغلت كتيبتها الإستطلاعية بقيادة الرائد "باك" بجرأة ذلك المكسب المبدئي بالتقدم مباشرة وسط العدو المتخبط وصولاً إلى "إيجلز بيرتش" على خط "زابون"، و في الصباح الباكر ليوم ١٨ يونيه عمدت الكتيبة للسيطرة على معقل العدو المحصن جيداً في "إيجلز بيرتش" و البقاء هناك حتى ترسل الفرقة تعزيزات لها، و لو تحقق ذلك فسيكون من الممكن توسعة إختراق النظام الدفاعي للعدو بإتجاه الشمال.

و في المرحلة الثالثة من الهجوم إنما تحقق النجاح الذي أحرزناه بواسطة التحويل المفاجئ للنقطة المحورية للهجوم خصوصاً فيما يتعلق بالمدفعية، و عنى ذلك في الشمال الإنجاز التام لهدفنا الأول – خليج "سفيرنايا – و في الجنوب السيطرة على نقاط الإنطلاق لتنفيذ الهجوم على خط "زابون".

تم تركيز كامل نيران المدفعية في القطاع الشمالي للسماح للفرقة ٢٤ بالسيطرة على حصون شبه الجزيرة المتحكمة في مدخل خليج "سفيرنايا"، و كان أمنعها تلك النقطة القوية المسماة "نورث نوس".

سيطرت الفرقة ٢٢ على كامل جبهتها من الجروف المطلة على خليج "سفيرنايا"، و وقع قتال عنيف على نفق السكك الحديدية على الحد الفاصل بين الفرقتين ٢٢ و ٥٠ و الذي شن منه العدو هجوماً مضاداً قوياً بلواء نقله أحد الطرادات حديثاً للجبهة، تمت السيطرة أخيراً على النفق بعد قصف مدخله، و قد خرجت منه ليس فقط مئات الأفراد من القوات و إنما جموع غفيرة من المدنيين بما فيها من نساء و أطفال، و قد واجهنا صعوبة خاصة في إخراج العدو من مخبئه الأخير على الشاطئ الشمالي للخليج حيث قام بحفر مخابئ عميقة لتخزين المؤن داخل الجدران الصخرية العمودية، و تمت إضافة أبواب فولاذية لتلك المخابئ تحصيناً لها، و لما أظهر العدو داخل المخابئ معاندة

في الإستسلام – تحت ضغط من الكوميسارات بالطبع – كان علينا أن نحاول تفجير الأبواب، و ما إن إقترب مهندسونا منها حتى وقع إنفجار داخل مقدمة المخبأ و إنهارت كتلة كبيرة من الجرف الصخري عليه دافنةً تحتها ليس فقط العدو بل سرية مهندسينا كذلك، لقد قام الكوميسار المسئول بتفجير مقدمة المخبأ و طار أفراد العدو في الهواء، و في النهاية عمد ملازم ثان من سلاح المدفعية الهجومية – و الذي كان قد أحضر مدفعه الهجومي معه على طول الطريق الساحلي غير مكترث بقصف العدو القادم من الشاطئ الجنوبي – إلى إجبار بقية أجزاء المخبأ على فتح الأبواب فقام بتوجيه نيران مدفعه على فتحة الجدار من مسافة قريبة، فظهرت جموع من الجنود و المدنيين و إنتحر الكوميسارات.

و كانت الفرقة ٥٠ – و التي كان عليها أن تخوض قتالاً شرساً في الريف المغطى بأشجار كثيفة في قطاعها – قادرة على الوصول للطرف الشرقي من خليج "سفيرنايا" و السيطرة على مرتفعات "جايتاني" المتحكمة في بداية وادي "تشورنايا".

و على ميسرتها كان فيلق المشاة الجبلي الروماني يقاتل ليشق طريقه عبر الغابات الواقعة فوق التلال جنوب شرق "جايتاني"، و قد كان الجنرال "لاسكار" – و الذي سقط أسيراً في "ستالينجراد" فيما بعد – هو عقل و روح ذلك التقدم.

كما نجح الفيلق الثلاثون في إحراز بعض المكتسبات بالتغييرات المفاجئة التي حدثت في إتجاه هجومه، و تمكن من تحريك الفرقة ١٧٠ بشكل دائري من الجنوب لمهاجمة جبال "فيدجوكيني" مستفيداً من ميزة السيطرة على "إيجلز بيرتش" بواسطة الفرقة ٧٢، لقد تعرض العدو – الذي أدار عيونه للشرق متوقعاً هجومنا على مرتفعات "زابون" – للمفاجأة و صارت السيطرة على الجبال ممكنة بسهولة، و قد أمّن لنا ذلك قاعدة راسخة للهجوم الشامل على خط "زابون".

و خلال نفس تلك الأيام القليلة أحرز الجناح الأيسر لفيلق المشاة الجبلي الأول الروماني بعض التقدم.

و بذلك وجد الجيش الحادي عشر نفسه مسيطراً على أغلب الحزام الخارجي للحصن بحلول صباح ٢٦ يونيه، لقد تم إجبار العدو على التقهقر للخلف إلى المنطقة المحصنة الداخلية و التي تتشكل جبهتها الشمالية من الشاطئ الجنوبي الصخري لخليج "سفيرنايا"

و تمتد جبهتها الشمالية من مرتفعات "إنكرمان" على طول منطقة "زابون" وصولاً إلى الجروف حول "بالاكلافا".

و صار على الجيش الحادي عشر الآن أن يقرر كيف يخترق تلك الحلقة الداخلية من التحصينات، و كان من المفروغ منه أن العدو في "سفاستبول" سيواصل المقاومة بضراوة كما سبق خصوصاً و أنه لم يصدر أي تصريح من قادته – قيادة جبهة القرم – يوحي بأي أمل في الإنسحاب.

و من جهة أخرى كان علينا مواجهة حقيقة أنه برغم النقص الذي يكون قد حدث في إحتياطات العدو فإن القدرة الهجومية للأفواج الألمانية بلغت أيضاً منتهاها.

و في الأسابيع الأخيرة كنت قد قضيت كل أوقات الصباح و بعد الظهيرة لي أزور قيادات الفيالق و قادة المدفعية و الفرق و الأفواج و الكتائب و مواقع مراقبة المدفعية، و كنت كذلك على وعي تام بأحوال وحداتنا، و شاهدت تناقص عدد أفراد الأفواج إلى بضعة مئات لكل منها، و أتذكر إخراج سرية من خط القتال و قوامها ضابط واحد و ثمان مجندين فقط.

و من ثم كيف يمكننا إنهاء معركة "سفاستبول" و الفيلق الرابع و الخمسون مسيطر على خليج "سفيرنايا" أمامها بينما يخوض الفيلق الثلاثون قتالاً شرساً على مرتفعات "زابون"؟

الحل المثالي لتلك المشكلة هو نقل ثقل الهجوم إلى الفيلق الثلاثين على الجناح الجنوبي، و مع ذلك يستحيل هذا الحل عملياً فنقل الفرق وحدها سيستغرق أياماً عدة و خلال هذا الوقت ستُتاح للعدو فرصة يسترجع فيها قواه، و في المنطقة الأمامية تم ربط القطاعين معاً بطريق واحد ضيق و الذي واجهنا مشكلات عدة في إنشائه خلال الجبال في الشتاء الماضي،و على أية حال لن يتحمل وزن المدفعية الثقيلة و فكرة نقل ذلك النوع من المدفعية حول "يالطا" و حشوها بالذخائر لدى وصولها للقطاع الجنوبي ستستغرق أسابيع لتُنفذ، و يجب مراعاة عامل آخر و هو نية القائد الأعلى سحب الفيلق الجوي الثامن من القرم في تاريخ قريب.

و فور وصول الفرقة ٢٢ لخليج "سفيرنايا" قمت بزيارة أفواجها بهدف الإطلاع على الموقف العام من موقع مراقبة على الشاطئ الشمالي، و يمتد أمامي خط مياه إتساعه

يتراوح بين ميل و نصف و ألف ياردة و حيث رست فيه كامل الأساطيل، و يميناً على الجانب البعيد تقبع مدينة "سفاستبول" و أمامها مباشرة حائط من جرفصخري يعج بمواقع للعدو، و قد تراءى لي من هنا أنه ينبغي على المرء أن يقتحم تحصينات "زابون" من آخر جهة يتوقع العدو أن يأتي هجوم منها و هي جهة خليج "سفيرنايا".

و عندما ناقشت هذه الخطة لأول مرة مع الفيلق الرابع و الخمسين و عدد من القادة التابعين له هبت عاصفة من الشكوك، و تساءلوا كيف يمكن لقوارب الإنزال عبور ذلك الإمتداد الواسع من الخليج في مواجهة سلسلة هائلة من التحصينات و المدافع و التي تطل على الشاطئ الجنوبي؟ كيف يمكن إيصال قوارب الإنزال للشاطئ لهذا الغرض و تحميلها بالقوات و المنفذ الوحيد للمياه موجود تحت وادي شديد الإنحدار و في مرمى نيران العدو على الساحل الجنوبي؟

و مع ذلك من المنطقي إستحالة أخذ الهجوم عبر خليج "سفيرنايا" العدو على حين غفلة بحيث يكون مفتاح النجاح، و قد أصررت على خطتي برغم كل الإعتراضات و برغم كون الأمر بإلقاء الآخرين في تلك المخاطرات صعباً عندما يحول موقع المرء بينه و بين مشاركتهم تلك الصعاب.

و لما إتخذ القرار سعى كل فرد يشمله إلى تنفيذه بأكبر طاقة ممكنة، و في هذا السياق أوجه كلمة تقدير و إمتنان خاصة للمهندسين و الذين قدموا نموذجاً رائعاً أثناء مشاركتهم المشاة في السيطرة على مواقع تمركزات مدافع العدو الرشاشة.

و تحدد صباح يوم ٢٩ يونيه كموعد لبدء الهجوم الشامل على المنطقة الداخلية للحصن – الفيلق الرابع و الخمسون سيعبر خليج "سفيرنايا" و الفيلق الثلاثون سيشن هجومه على مرتفعات "زابون"، و في ٢٨ يونيه كانت الفرقة ٥٠ قد نجحت في عبور الجزء الجنوبي من وادي "تشورنايا" وإستولت على "إنكرمان"، و كان هذا مشهداً مؤثراً تجسدت فيه المأساوية في العصبية التي قاتل بها أولئك البلاشفة، و فوق "إنكرمان" يوجد حائط من جرف صخري يمتد جنوباً لمسافة بعيدة، و بداخلة يوجد عدد كبير من الغرف التي كانت مستغلة كمصانع للشامبانيا القرمية،و على جوانب مخازن الخمور وضع البلاشفة ذخيرتهم، و لكنهم صاروا الآن يستخدمونها كمآوي للاجئيهم و جرحاهم، و ما إن دخلت قواتنا "إنكرمان" حتى تهاوى الجدار الصخري تحت ضغط التفجير الهائل و سقط هذا الجدار من علو قرابة ٩٠٠ ياردة دافناً تحته آلاف البشر، و رغم

كون ذلك مسلك قليل من الكوميسارات المتطرفين إلا أنه يعد إجراء لا يحترم حياة الإنسان و هو ما كان مبدأ سائداً لدى تلك القوة الآسيوية[1].

و قد ساد توتر هائل لدى الجميع بشأن تلك العملية خلال تلك الساعات من منتصف ليل ٢٨ /٢٩ يونيه و التي كانت الإستعدادات لعبور خليج "سفيرنايا" فيها تحت التنفيذ، و بهدف تغطية أي ضوضاء مصدرها الشاطئ الشمالي إستمر الفيلق الجوي الثامن في شن غاراته على المدينة، و تأهبت كل مدفعيتنا لفتح نيرانها على قمم الجرف الواقع على الشاطئ الجنوبي في اللحظة التي يطلق العدو نيرانه علينا بعد أن يكتشف ما كنا نقوم به، و لكن ظلت الأمور هادئة على الجهة الأخرى و تمت المهمة المتمثلة في نقل و تحميل قوارب الإنزال بدون أي عوائق، و في الساعة الواحدة إنطلقت أول موجة من الفرقتين ٢٢ و ٢٤ نحو الشاطئ المقابل، و قد تم العبور – و الذي فاجأ العدو – بنجاح ساحق، و لما بدأت دفاعات العدو من فوق الجرف تقوم بواجبها و تطلق نيرانها عليها كان رجالنا قد سيطروا على أول موطئ قدم على الشاطئ أدناه، و على الفور قامت قواتنا عبر تسلق الجرف بالقضاء على أي قوات معادية تظهر نفسها و تفتح النار عليها، و بهذه الطريقة تم التغلب على مواقع "زابون" من الجناح.

و مع أول ضوء دخلت قواتنا في القتال ضد جبهة العدو في ذلك الموقع.

فتحركت على الجناح الأيسر للفيلق الرابع و الخمسين الفرقة ٥٠ و الفرقة ١٣٢ التي وصلت مؤخراً لجبهة القتال – قوامها الآن أفواج المشاة التابعة للفرقة ٤٦ – من مواقعها حول و جنوب "جايتاني" للهجوم على المرتفعات بين "إنكرمان" و إحدى النقاط جنوبها، و قامت المدفعية على الشاطئ الشمالي لخليج "سفيرنايا" بدعم جناح الهجوم ثم إنضم له فيلق المشاة الجبلي الروماني.

كما بدأ الفيلق الثلاثون تقدمه الشامل نحو خط "زابون" مع مطلع النهار مدعوماً ببطاريات المدفعية بعيدة المدى التابعة للفيلق الرابع و الخمسين فضلاً عن الطلعات الجوية المكثفة التي نفذها الفيلق الجوي الثامن، و بينما كان الفيلق الثلاثون يستخدم المدفعية بهدف الخداع و إيهام العدو أن الهجوم سيُنفذ على جبهة واسعة قام هذا الفيلق بنشر الفرقة ١٧٠ كقوة محددة المهام في منطقة صغيرة المساحة بجانب مرتفعات "فيدجوكيني"، و قد وصلت الفرقة ١٧٠ مدعومة بمدافع هجومية و الكتيبة ٣٠٠ بانزر

[1] يقصد عدم سماح الكوميسارات للجنود بالإستسلام أو بإخراج المدنيين و معاقبة مخالفي ذلك بالموت و هي السياسة السائدة في الإتحاد السوفييتي و التي تسببت في زيادة أرقام ضحايا الصراع.

و الدعم النيراني من الفوج المضاد للطائرات إلى منطقة المرتفعات على جانبي الطريق إلى "سفاستبول" في وقت قريب، و قد إستغلت هذه الفرقة الميزة المتولدة عن الخداع الذي وقع فيه العدو و تقدمت لمسافة بعيدة شمال و غرب و جنوب الفيلق فاتحةً المجال لبقية الفرق كي تلحق بها.

و قد حُسم مصير "سفاستبول" عقب العبورالناجح للخليج و سقوط مرتفعات "إنكرمان" في أيدينا و نجاح الفيلق الثلاثين في إختراق مواقع العدو في "زابون".

و ما تبع ذلك كان مجرد قتال يائس لن يحمي العدو من الهزيمة و لن يكون حتى مفيداً للسوفييت على المستوى العملياتي الشامل، بل إنه كان أمراً بلا جدوى من وجهة نظر الشرف العسكري – و رغم الإقرار ببسالة الجندي الروسي الذي قاتل بشجاعة منقطعة النظير – مطالبة النظام السياسي له بمواصلة ذلك القتال العقيم.

و قد صارت الفرق التابعة للفيلق الرابع و الخمسين – و التي نفذت عبور الخليج - بسيطرتها على الجروف الصخرية الواقعة على الشاطئ الجنوبي للخليج بالفعل داخل الحلقة الخارجية لمواقع العدو المحيطة بالمدينة، و لذا و بينما كانت عناصر هذا الفيلق تقوم بإختراق تلك الحلقة في إتجاه الجنوب كانت الكتلة الرئيسية منها قادرة على الإنعطاف غرباً و التعامل مع التحصينات الخارجية و المدينة ذاتها، و بسقوط حصن "مالاكوف" الشهير – و الذي سالت عنده دماء كثيرة في حرب القرم – توغل الفيلق داخل دفاعات "سفاستبول".

و في تلك الأثناء و قبل إنقضاء يوم ٢٩ يونيه تم الدفع بفرقتي مؤخرة الفيلق الثلاثين – و هما الفرقة ٢٨ مركبات خفيفة و الفرقة ٧٢ – للتقدم خلف الفرقة ١٧٠، و بمجرد وصولهما لمواقع العدو في "زابون" – و التي إستولت عليها مؤخراً الفرقة ١٧٠ – توجب عليهما التوجه للسيطرة على شبه جزيرة "خيرسونس".

نجحت الفرقة ٢٨ مركبات خفيفة في إختراق الحلقة الخارجية من التحصينات جنوب شرق "سفاستبول" بسيطرتها على المقبرة العسكرية الإنجليزية و التي كان الروس قد حولوها بحيث تكون نقطة قوية ضمن الحلقة الخارجية من التحصينات و تحولت الآثار الرخامية التي تخلد الجنود البريطانيين إلى أطلال، و الموتى الجدد في تلك المقبرة دُفنوا في قبور فتحتها قذائف المدفعية لهم، ثم تقدمت هذهالفرقة جنوب المدينة لدخولها من

جهة الغرب في حال تحصن العدو فيها جيداً أو كحل بديل بهدف الحيلولة دون خروج العدو.

و كان هدف الفرقة ١٧٠ هو المنارة الواقعة على الطرف الغربي الأقصى لشبه جزيرة "خيرسونس" – و هي النقطة التي وقفت فيها "إفجينيا"[١] وحيدةً و حملقت ناظرةً بزوغ الأرض اليونانية.

و تقع على عاتق الفرقة ٧٢ مهمة التقدم على طول الساحل الجنوبي مهاجمة مواقع العدو في "زابون" في إتجاه جنوبي، و قامت أولاً بالسيطرة على "ويندميل هيل" و بذا إستطاعت تأمين الطريق الرئيسي إلى "سفاستبول" لصالح الفيلق، و قد تبعتها الفرقة الرابعة مشاة جبلي الرومانية و التي قامت بمهاجمة النظام الدفاعي للعدو حول "بالاكلافا" من الخلف آخذةً عشرة آلاف أسير.

و قد إفترضنا بناء على المعرفة التي جنيناها حول أساليب السوفييت حتى تاريخه أن العدو سيقوم بخطوة أخيرة خلف الدفاعات الخارجية لـ"سفاستبول" و داخل المدينة نفسها بعد ذلك، و قد صدر أمر من "ستالين" تكررت إذاعته عبر اللاسلكي إلى المدافعين عن المدينة بالثبات حتى آخر رجل و آخر طلقة، كما عرفنا أنه تم تجنيد كل شخص قادر على حمل السلاح داخل المدينة.

إن قيادتنا ستكون مقصرةً في حق جنودها من الجيش الحادي عشر لو لم تأخذ تلك الإحتمالية بجدية، فأي معركة داخل مدينة تكون لها خسائر فادحة بالنسبة للطرف المهاجم، و قد أصدرنا أوامرنا – بغرض حماية الجنود – إلى المدفعية و الفيلق الجوي الثامن بقصف المدينة مرة أخرى قبل مواصلة الفرق لهجومها، فكان واجباً أن نُظهر للعدو أنه لا يمكنه توقع إستنزاف دماءنا في حرب شوارع.

لذا بدأ يوم الأول من يوليه بقصف مكثف على التحصينات الخارجية و نقاط العدو القوية داخل المدينة، و كانت إحدى طائراتنا إستطلاعية قد أوردت من قبل عدم توقع أي مقاومة ضارية من العدو، فتوقف القصف و شرعت الفرق في التحرك إلى داخل المدينة، و قد بدا أنه من المحتمل قيام العدو بسحب الكتلة الرئيسية لقواته إلى خارج المدينة في إتجاه الغرب في الليلة السابقة.

[١] إفيجينا : هي إبنة الآلهة أجامون و كليمنسترو في الميثولوجيا الإغريقية ، و قد ألف عنها الروائي المسرحي اليوناني "يوربيديس" عرضاً مسرحياً في القرن الخامس قبل الميلاد غلب عليه طابع الرومانسية و التراجيديا.

و لكن الصراع لم ينته بعد، فعلى الرغم من تخلي جيش الساحل السوفييتي عن المدينة إلا أن ذلك فقط كان لغرض القيام بعميات مقاومة جديدة من خلف الدفاعات المحيطة بشبه جزيرة "خيرسونس" – سواء تنفيذاً لأمر "ستالين" المعروف بإسم "الظهور للجدران"[1] أو بهدف إجلاء جزء من الجيش بواسطة السفن التابعة للأسطول الأحمر ليلاً من المداخل الجانبية غرب "سفاستبول"، و كما توضح فيما بعد تمكن عدد قليل من القادة و الكوميسارات فقط من الهرب عبر زوارق الطوربيدات و كان قائد الجيش الجنرال "بتروف" واحداً منهم، و عندما حاول خليفته الهرب بنفس الطريقة تم إعتراض طريقه بواسطة قاربنا "إي بوت"الإيطالي.

و بذا إستمرت المعارك الأخيرة على شبه جزيرة "خيرسونس" حتى الرابع من يوليه، و بينما إستولت الفرقة ٧٢ على حصن "ماكسيم جوركي ٢" المصفح – و الذي تحصن فيه بضعة آلاف من الرجال – قامت الفرق الأخرى تدريجياً بدفع العدو للخلف تجاه الطرف الأقصى لشبه الجزيرة، و قد قام الروس بمحاولات متكررة للإختراق شرقاً في المساء آملين في الإنضمام لمجموعات البارتيزان في جبال "يالطا"، و هاجمت جحافل منهم خطوطنا مربوطة أذرعهم ببعضها البعض لمنع أي تراجع أو إنسحاب، و أمامهم تواجدت نساء و فتيات تابعات لمنظمة "الشباب الشيوعي" حاملات أسلحتهن، وبشكل حتمي بلغت الخسائر الناجمة عن مثل ذلك التصرف رقماً إستثنائياً.

و في نهاية المطاف سعت فلول جيش الساحل السوفييتي للجوء إلى الكهوف الكبيرة المنتشرة في شاطئ شبه جزيرة "خيرسونس" بحيث ينتظروا هناك إجلاءهم، و عند إستسلامهم في الرابع من يوليه خرج ٣٠ ألف رجل من تلك الرقعة الصغيرة من الأرض فقط.

و إجمالاً بلغ رقم الأسرى الذين وقعوا في أيدينا في الحصن ما يربو عن ٩٠ ألف، كما فاقت خسائر العدو من حيث عدد القتلى خسائرنا بمراحل، إضافةً إلى عدد هائل من الغنائم لم يمكننا حصره في حينها، فلقد سقط حصن منيع معزز و مدعم بكل أنواع الإستحكامات و يرابض فيه جيش بأكمله دفاعاً عنه، و أخيراً تم القضاء على جيش العدو و صارت شبه جزيرة القرم بأكملها في يد الألمان، و حينئذٍ صار الجيش الحادي عشر – من وجهة النظر العملياتية – جاهزاً للمشاركة في الهجوم الألماني الضخم على الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية.

[1] من الأوامر التي أصدرها القائد السوفييتي "جوزيف ستالين" لمنع إنسحاب قواته و معاقبة ذلك بالموت.

و كنت قد قضيت مساء الأول من يوليه مع مع طاقم القيادة العامل معي في مركز القيادة التكتيكي – منزل تتري صغير في جبال "يوخاري كارالس"، و لم يظهر في تلك الليلة الطيار السوفييتي الذي كان معتاداً على قصف القرية يومياً، و شردنا بأفكارنا في المعارك التي خضناها في الشهور الأخيرة و الرفاق الذين قضوا فيها و لم يعودوا معنا.

ثم سمعنا على الراديو موسيقى النصر مصحوبة ببيان رسمي بسقوط "سفاستبول"، و عقب ذلك بفترة وجيزة وصلت الرسالة التالية عبر جهاز التلغراف:

" إلى القائد العام لجيش القرم

الكولونيل جنرال فون مانشتاين

تقديراً لخدمتكم الإستثنائية الجديرة بالتقدير في المعارك المتوجة بالنصر في القرم – و التي بلغت أوجها في القضاء على العدو في كيرتش و غزو حصن سفاستبول العظيم – فإنني أمنحكم ترقية لرتبة فيلد مارشال، و عبر ترقيتكم و صنع درع تذكاري يرتديه كل من شارك في الحملة على القرم من كل الرتب فإنني أشيد أمام كامل الشعب الألماني بالإنجازات البطولية للقوات المقاتلة تحت قيادتكم.

أدولف هتلر"

١٠

"لينينجراد – فيتيبسك"

بينما كانت فرق الجيش الحادي عشر تتعافى من مشاق القتال الأخير و كنت أنا في أجازة في رومانيا كان على الطواقم التشكيل المتنوعة العمل على وضع خطط عبور مضيق "كيرتش" تمهيداً لإنضمام الجيش للهجوم الكبير الذي تم إطلاقه في تلك الأثناء

على الجناح الجنوبي الألماني، و خلال أجازتي كنت مطلعاً على التحضيرات بواسطة رئيس العمليات العقيد "بوس"، و لسوء الحظ كانت كل خططه غير مثمرة بسبب مبالغة "هتلر" – و الذي سعى كالمعتاد لتحقيق أهداف كثيرة مرة واحدة – في تقييم النجاح المبدئي للهجوم و تخليه عن تضمين الجيش الحادي عشر في العمليات.

و لدى عودتي إلى القرم في ١٢ أغسطس إنزعجت لتلقيّ توجيهاً جديداً من القيادة العليا، و تضمن إلغاء خطة عبور الجيش للمضيق و حلت محلها عملية تتضمن فقط قيادة الفيلق الثاني و الأربعين و معها الفرقة السادسة و الأربعين و القوات الرومانية، و تم تخصيص الجيش الحادي عشر نفسه للسيطرة على "لينينجراد" و كانت مدفعيته في طريقها لهذا الغرض، و لسوء الحظ تم فصل ثلاث فرق منا، فبقيت الفرقة الخمسون في القرم و تم إرسال الفرقة الثانية و العشرين – تم تحويلها لفرقة مظلات - لجزيرة كريت حيث صارت إحدى أفضل فرقنا هناك عاطلة حتى نهاية الحرب تقريباً، أما الفرقة الثانية و السبعون فتم نقلها لمجموعة الجيوش الوسطى للتعامل مع أزمة محدودة هناك، و هكذا كان كل ما تبقى للجيش الحادي عشر لترتيب المعركة ينحصر في قيادة الفيلقين الرابع و الخمسين و الثلاثين و الفرق ٢٤ و ١٣٢ و ١٧٠ مشاة و ٢٨ مركبات خفيفة، و بصرف النظر عن دوافع القيادة العليا بخصوص ذلك فإن فصل جيش بأكمله عملت في إطاره كل فيالقه و فرقه معاً لفترة طويلة كان أمراً باعثاً على الأسى، كما أن التعارف و الثقة المتبادلة الناجمتين عن خوض المعارك الشرسة تعد عوامل ذات أهمية قصوى في الحرب و لا يجب التغاضي عنها أبداً.

و لكن كانت هناك علاقة وثيقة الصلة على نحو أكبر، هل من ممكن إيجاد أي تبرير لسحب الجيش الحادي عشر من الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية في هذه اللحظة الذي صار فيها حراً في القرم و توظيفه في مهمة أقل أهمية – غزو "لينينجراد"؟و على كل حال بالنسبة للجانب الألماني كانت النتائج الحاسمة في صيف ١٩٤٢ متحققة في جنوب الجبهة، و كانت تلك مهمة لم نكن أقوياء كفاية لتنفيذها – خصوصاً و أنه من القطعي حتى الآن أن إزدواجية أهداف هتلر {"ستالينجراد" و القوقاز} ستقسم الهجوم في إتجاهين و كلما إبتعد نحو الشرق أكثر كلما طال أكثر الجناح الشمالي لرأس حربة.

و قد أظهرت أحداث لاحقة كم كان من الأفضل إبقاء الجيش الحادي عشر على الجناح الجنوبي بصرف النظر عن ما إن كان قد تحرك للأمام عبر مضيق "كيرتش" لمنع

العدو من التراجع إلى القوقاز أو كان قد إتبع مجموعات الجيوش المهاجمة كإحتياط عملياتي.

و عندما خرجت عن مسار رحلتي شمالاً للتوجه إلى مقر قيادة "هتلر" و الحديث حول مهامي الجديدة قمت بمناقشة هذه المشكلة تفصيلاً مع رئيس هيئة الأركان العامة الكولونيل جنرال "هالدر"، و قد أوضح لي "هالدر" عدم إتفاقه كلية مع مقترح "هتلر" بالسيطرة على "لينينجراد" تزامناً مع الهجوم في الجنوب و لكنه قال أن "هتلر" مصر على ذلك و يرفض التخلي عن هذه الفكرة، و مع ذلك عندما سألت عن مدى إعتقاده أنه من الممكن عملياً الإستغناء تماماً عن الجيش الحادي عشر في الجنوب أخبرني عن يعتقد ذلك فعلاً، أنا شخصياً بقيت متشككاً في هذا بدون أن أكون قادراً بالطبع على تفنيد رأي ئيس الأركان مسبقاً.

و في ذات المناسبة لاحظت مدى سوء العلاقات بين "هتلر" و رئيس الأركان العامل معه، و مما أثير من نقاط في ذلك المؤتمر اليومي كان الأزمة المحدودة التي وقعت في قطاع مجموعة الجيوش الوسطى نتيجة لهجوم سوفييتي محدود هناك - نفس الأزمة في الواقع التي تطلبت فصل فرقتنا الثانية و السبعين، و عندما إستغلها "هتلر" كفرصة للإمعان في إلقاء خطبة عصماء تضمن نقداً لاذعاً للرجال المقاتلين في تلك المنطقة عارضه "هالدر" على نحو ملفت للنظر موضحاً أن قوة القوات قد خارت منذ فترة فضلاً عن أن الخسارة العالية من الضباط و ضباط الصف تحديداً كان لها تداعيات كبيرة،و رغم تحدثه لغة موضوعية إلا أنه كلمات "هالدر" إستثارت غضب "هتلر"، و تساءل عن مدى حق "هالدر" – بأسلوب يفتقر للباقة – في الإختلاف معه معلناً أنه بوصفه جندي مشاة عمل على الخطوط الأمامية في الحرب العالمية الأولى سيكون أفضل حكماً على الموقف من "هالدر" الذي لم يمر بهذا الموقع أبداً.

و قد كان المشهد في مجمله مفتقداً للوقار لدرجة أنني تركت طاولة الخريطة و ظللت بعيداً عنها حتى هدأ "هتلر" و طلب مني العودة، و عقب ذلك شعرت بضرورة ذكر الحادث لرئيس مكتب السكرتارية الجنرال "شمندت" و الذي كان أيضاً كبير مساعدي "هتلر" العسكريين، و أخبرته أنه من المستحيل على القائد العام للقوات المسلحة و رئيس أركان الجيش أن يتقبلوا هذه المعاملة و أنه يتوجب على "هتلر" الإنصات لرئيس الأركان العامل معه و إظهار شيء من الإحترام له في حضرته أو يتوجب على

"هالدر" إتخاذ السبيل الوحيد المفتوح أمامه، و لسوء الحظ لم يحدث أي شيء من هذا القبيل حتى حدث الإنفصال بعد ذلك بستة أسابيع بإقالة "هالدر".

في ٢٧ أغسطس وصلت قيادة الجيش الحادي عشر جبهة "لينينجراد" للتحري عن إمكانيات الهجوم في قطاع الجيش الثامن عشر و لوضع خطة الهجوم على المدينة، و كان من المنوي أنه مجرد القيام بذلك يتعين علينا تولي أمور هذا الجزء من جبهة الجيش الثثامن عشر المواجه للشمال في حين يحتفظ هذا الأخير بجبهته الشرقية على نهر "فولخوف"، و تمت تجزئة الجبهة المخصصة للجيش الحادي عشر إلى ثلاثة أجزاء: قطاع "نيفا" و يمتد من بحيرة "لادوجا" إلى جنوب شرق "لينينجراد" و جبهة الهجوم الحقيقي جنوب "لينينجراد" و الجبهة المشتملة على رأس الكوبري الواسع الذي ما يزال السوفييت محتفظين به على الشاطئ الجنوبي لخليج فنلندا حول "أورانيينبوم".

و قد كان هناك بالإضافة للمدفعية الهجومية القوية – جزء منها تم جلبه من "سفاستبول" – ١٣ فرقة في حوزة الجيش تتضمن الفرقة الزرقاء الأسبانية و فرقة مدرعة و فرقة مشاه جبلي و لواء من سرايا الدفاع، و مع ذلك تسع فرق و نصف فقط هي ما تُرك للهجوم على "لينينجراد" من تلك القوات نظراً لحاجة جبهتي "نيفا" و "أورانيينبوم" لفرقتين على حدة للدفاع عنهما، و لم تكن القوة كبيرة بإعتبار أن العدو لديه هناك جيشاً مكوناً من ١٩ فرقة مشاه و لواء مشاه و لواء حرس حدود و ما يتراوح بين لواء أو إثنين مدرعين مستقليين.

و بالنظر للتناسب بين القوى فسيكون أمراً مساعداً لنا للغاية إن شارك الفنلنديون – و الذين لديهم قوات تسد برزخ "كارليان" شمال "لينينجراد" – في الهجوم، و مع ذلك عندما وصلت هذه المسألة لضابط الإتصال الألماني في مقر القيادة الفنلندي { الجنرال "إيرفروث"[١] } بدا أن القيادة العليا الفنلندية ترفض المشاركة، و كانت حجة الفنلنديين وفقاً للجنرال هي فنلندا تعتبر منذ ١٩١٨ أن وجودها لا يشكل تهديداً لـ"لينينجراد"، و هذه الحجة جعلت مسألة مساعدة الفنلنديين غير واردة على الإطلاق.

و بالتالي وجد الجيشالحادي عشر نفسه معتمداً على موارده الخاصة كليةً لتنفيذ مهمته، و كنا أجمعون على وعي تام بأن نجاح هذه العملية أمر مثيراً للصعوبات و حقيقة أنها لم تكن ضرورية على الإطلاق جعلتنا نتقبلها بصعوبة بالغة، و قد كانت في صيف

---

[١] ويلدمار إيرفروث" ضابط مشاة ألماني عاش بين ١٨٧٩ – ١٩٧١.

١٩٤١ فرصة سانحة للسيطرة على "لينينجراد" بتحويل مسار العمليات إليها، و على الرغم من إعتبار "هتلر" في تلك الأيام المبكرة السيطرة المبكرة على المدينة مسألة ذات أولوية رئيسية إلا أنه تم إهدار الفرصة لسببٍ أو لآخر، و فيما بعد إعتقد "هتلر" أنه يمكنه تجويع "لينينجراد" و إجبارها على الإستسلام، و قد أحبط السوفييت هذا عن طريق إيصال الإمدادات للمدينة بالسفن عبر بحيرة "لادوجا" صيفاً و عبر خط سكك حديدية يمر على جليد هذه البحيرة شتاءً، و ما وجد الألمان أنفسهم إزاءه اليوم كان جبهة تمتد من بحيرة "لادوجا" حتى غرب "أورانينبوم" و التي كانت إستنزافاً بطيئاً لمواردهم، وعلى الرغم من كون التخلص من هذه المدينة أمراً مرغوباً بالطبع – مهاجمة المدينة على الفور الآن – عندما تتم محاولة لفرض حل للقضية في جنوب الجبهة الشرقية إلا أنه كان نقطة مثيرة للجدل، حيث قال "شيلر"[1] ذات مرة: **"كل لحظة واحدة نفقدها هي خسارة أبدية"**

و مع ذلك صار علينا أن نبذل قصارى جهدنا في التحضير للهجوم المكلفين به،و قد بدا لأي شخص يقوم بالإستطلاع على طول الجبهة جنوب "لينينجراد" أن المدينة تقع على مسافة يسيرة على الرغم من تمتعها بحماية شبكة من الإنشاءات الميدانية موزعة على عمق كبير، و يذكر المرء منها الإنشاءات الضخمة في "كولبينو" التابعة لقطاع "نيفا" التي ما تزال تنتج الدبابات، كما كان من الممكن رؤية أحواض بناء السفن في "بولكوفو" على خليج فنلندا كذلك، و تقع في تلك المسافة أيضاً ظلال كاتدرائية القديس "إسحاق" و برج الأدميرالية الكبير و حصن "بيتر و باول"، و في الجو الصحو أمكن أيضاً رؤية طراد بحري تم إعطابه بفعل نيران مدفعية، و كان هذا الطراد من ضمن السفن ذات وزن ١٠ آلاف طن التي قمنا ببيعها للروس في ١٩٤٠، و أصابني الحزن لمّا عرفت أن عديد من أماكن الإقامة الإمبريالية التي أعرفها منذ ١٩٣١ قد وقعت ضحية للحرب – قصر الإمبراطورة "كاثرين" في "تسارسكو سيلو" و القصر الأصغر في نفس المكان الذي كان القيصر الأخير يعيش فيه و كذلك قصر "بيترهوف" الجميل المطل على خليج فنلندا، فقد إشتعلت النيران فيها بفعل القصف السوفييتي.

و قد أدركنا من إستطلاعاتنا أن الجيش الحادي عشر يجب في أي حال ألا يتورط في قتال داخل المناطق المبنية من "لينينجراد" حيث ستنتزف قواه بسرعة ، و أما بالنسبة لإعتقاد "هتلر" بأن المدينة ستضطر للإستسلام بفعل الغارات الإرهابية التي ينفذها

[1] فريدريش شيلر: شاعر ألماني عاش بين ١٧٥٩ – ١٨٠٥.

الفيلق الثامن الجوي فإننا لن نكن نؤمن بذلك أكثر من الكولونيل جنرال "فون ريتشهوفن" القائد ذو الخبرة الوحيد في القوات الجوية.

و بالتالي إنتوينا البدء في التنفيذ بإختراق الجبهة جنوب "لينينجراد" مدعوماً بأقصى دعم مدفعي و جوي ممكن و لكن دون التقدم لأبعد من الحدود الجنوبية للمدينة، و حينئذٍ ينعطف فيلقان شرقاً و يعبران بسرعة نهر "نيفا" جنوب شرق المدينة لتدمير قوات العدو بينه و بين بحيرة "لادوجا" قاطعين طريق الإمداد عبر البحيرة و عازلين "لينينجراد" من جهة الشرق،و من ثمّ سيكون من الممكن السيطرة على المدينة بسرعة – مثل "وارسو" من قبل – دون خوض أي قتال من منزل إلى منزل.

و لسوء الحظ ستثب مقولة "شيلر" عما قريب حقيقتها، فالعدو لم يخفق في الإنتباه للتجمع الألماني في قطاع "لينينجراد" و في ٢٧ أغسطس شن هجوماً على الجبهة الشرقية للجيش الحادي عشر مجبراً إيانا على إشراك الفرقة ١٧٠ بمجرد وصولها في القتال، و في الأيام القلائل التالية صار من الواضح أن السوفييت يشنون هجوماً تخفيفياً كبيراً هدفه وقف هجومنا.

و في عصر يوم الرابع من سبتمبر تلقيت مكالمة هاتفية من "هتلر" شخصياً أخبرني فيها أنه من الضروري التدخل في جبهة "فولخوف" لمنع وقوع كارثة هناك، و كنت سأقوم بتولي زمام القيادة هناك و إستعادة الموقف بواسطة الهجوم، و في ذات اليوم أتم العدو إختراقاً عميقاً على إمتداد واسع من جبهة الجيش الثامن عشر النحيلة جنوب بحيرة "لادوجا".

و قطعاً كان من المربك بالنسبة لنا إعفاء الجيش الثامن عشر من القيادة في قطاعه الخاص بمجرد حدوث أزمة هناك، و لم يكن طاقم القيادة مسروراً – و هو الأمر المتفهم – لرؤيتنا نُكلف بهجوم ضخم على "لينينجراد".

و بدلاً من الهجوم المخطط له على "لينينجراد" ستقع الآن معركة جنوب بحيرة "لادوجا".

فقد نجح العدو في إكتساح إمتداد طوله خمسة أميال من جبهة الجيش الثامن عشر شمال خط السكك الحديدية الواصل من "لينينجراد" إلى الشرق و الإختراق لقرابة ثمانية أميال لنقطة ما فوق "مجا" التي يمر عبرها الخط، و كانت المسألة الأولى هي إيقاف العدو

بالقوات المتاحة للجيش الحادي عشر، و قد تمكنا من القيام بذلك في الأيام القليلة التالية بتكلفة قدرها خوض قتال مرير، و عقب نشر الجيش الحادي لبقية فرقه التي وصلت تواً في تلك الأثناء بات قادراً على بدء هجومه المضاد الشامل، و تم شنه إنطلاقاً من الجناحين السليمين بغية قطع رأس حربة العدو من جذورها.

تم تنفيذ التقدم من الجنوب بواسطة الفيلق الثلاثين – قوامه الفرق ٢٤ و ١٣٢ و ١٧٠ مشاة والثالثة مشاة جبلي – و من الشمال أتى الفيلق السادس و العشرون – و هو التشكيل المسئول أصلا' هنا و قوامه الفرق ١٢١ مشاة و الخامسة مشاة جبلي و ٢٥ مركبات خفيفة، و بحلول ٢١ سبتمبر و بعد قتال كثيفتم سد الثغرة التي أحدثها العدو، و في الأيام القليلة التالية وقعت هجمات قوية شنتها قوات معادية جديدة من الشرق تم دحرها إبان محاولتها فك حصار رؤوس الحربة المحاصرة، و أخفقت محاولة مماثلة نفذها جيش "لينينجراد" مهجماً بثمان فرق عبر نهر "نيفا" و من الجبهة الواقعة جنوب "لينينجراد".

و مع ذلك كان علينا في نفس الوقت التعامل مع القوات المعادية القوية المحاصرة بين "جايتلوفو" و "مجا"، و كالمعتاد لم يفكر العدو في الإستسلام برغم موقفه الميئوس منه و عدم جدوى مواصلته الصراع من وجهة نظر العمليات ككل، بل إنه على النقيض حاول مرة تلو المرة شق طريق الخروج من الجيب، و لكون المنطقة برمتها مغطاة بالغابات الكثيفة – نحن من جانبنا لم نفكر أبداً في تنفيذ أي إختراق في بيئة من هذا النوع – فإن أي محاولة ننفذها لدفع مشاتنا للهجوم على العدو ستكبدنا الفادح من الخسائر، و نتيجة لذلك جلب الجيش الحادي عشر أكبر حشد ممدفعية ممكن من جبهة "لينينجراد" بهدف إخضاع الجيب للقصف على مدار الساعة، و في غضون أيام قليلة من القصف – مدعوماً بهجمات اللوفتافا – تحولت الغابة إلى برية متقدة مبثورة بأوراق ما كان أشجاراً عملاقة، و قد منحتنا يوميات خاصة بقائد إحدى الأفواج السوفييتية لاحقاً فكرة عن التأثير الذي حققناه، و أظهرت أيضاً كيف كان الكوميسارات عديمي الرحمة في إجبارهم القوات داخل الجيب على إطالة المقاومة.

و بتلك الوسائل بتنا قادرين على إنهاء القتال داخل الجيب بحلول الثاني من أكتوبر، و قد ألقى العدو {الجيش الثاني صدمة} ما لا يقل عن ١٦ فرقة مشاة و تسعة ألوية مشاة و خمسة ألوية مدرعة في النعركة، و من بين تلك القوات لاقت سبع فرق مشاة و ستة ألوية مشاة و أربعة ألوية مدرعة مصيرها المحتوم، أما البقية فعانت خسائر فادحة

للغاية في محاولاتها غير المثمرة لشق طريق للقوات المحاصَرة، تم أخذ ١٢ ألف أسير و غنمنا و دمرنا ٣٠٠ مدفع و ٥٠٠ مورتر و ٢٤٤ دبابة، و تجاوز رقم قتلى العدو رقم أسراه أضعافاً مضاعفة.

في حين تم إتمام مهمة إستعادة الموقف على الجبهة الشرقية للجيش الثامن عشر على هذا النحو كانت خسائر فرقنا ثقيلة أيضاً و تم إستهلاك قدر كبير من الذخيرة المخصصة للهجوم على "لينينجراد"، و بوضع ذلك في الحسبان لا يمكن إثارة مسألة البدء الفوري في شن الهجوم، و على الرغم من ذلك كان "هتلر" غير راغب أولاً في التخلي عن فكرة الإستيلاء على "لينينجراد" برغم من أنه لم يكن مستعداً لتقبل أهداف محدودة أكثر، و هذا بالطبع يعني أننا لم نحقق هدفنا بعد – و هو تسوية الوضع على جبهة "لينينجراد" مرة واحدة و للأبد – و قد أصر الجيش الحادي عشر على عدم قدرته على تنفيذ أي عملية ضد المدينة بدون أخذ إستراحة وافية و إعادة شحذ قواه، و بينما إستعرت تلك المناقشات و أتبعت الخطة الأخرى إنقضى شهر أكتوبر.

و هو أمر مثبط للعزائم أن نعلق هنا في الشمال في وقت بدا فيه هجومنا في جنوب الجبهة ينحسر في القوقاز و على أبواب "ستالينجراد"، و من غير المفاجئ أن يشعر مساعدي الملازم "سبيشت" مجدداً بعدم الرضا الذي يقلق أي ضابط صغير يعمل ضمن طاقم تشكيل عالي عندما لا يجد ما يشغله، فبدأ "بيبو" في تجاذب أطراف الحديث معي و لم أتمكن – مع معرفتي شعوره – من حرمانه من رغبته، فأرسلته إلى الفرقة ١٧٠ و التي كانت تقاتل على نهر "نيفا" و الذي كان قد قاتل ضمن صفوفها في شبه جزيرة القرم، و قد لقي المسكين مصرعه في تحطم الطائرة الـ"فيسلر ستورش" التي كانت تقلّه لينضم لفوجه و قمنا بدفنه في ٢٥ أكتوبر، و قد كان موته ضربة موجعة لكل شخص – و على الأخص لي أنا، فنحن لن نسمع مجدداً صوته الصفو و لا ضحكته الغريبة، يالشدة الشوق الذي سأشعر به تجاه هذا الرفيق الشاب الذي ملأ لحظاتنا مرحاً و كان رفيقي في كثير من الرحلات الخطرة و الشاقة دون أن يفقد مرةً رونقه و ثقته بنفسه و لا حتى قيادته! و هو ثاني مساعد مباشر لي يضيع منا في الحرب في الشرق بعد "ناجل".

و قُبيل دفن "سبيشت" طرت إلى مقر القيادة العامة لأتسلم عصا الفيلد مارشال، و يالها من إحساس رائع لو كان قد حضر معي!

و كما هو معتاد حتى اللحظة معي إستمر "هتلر" على نفس أسلوبه متحدثاً بتقدير حار عن الطريقة التي خاضت بها قوات الجيش الحادي عشر معركة بحيرة "لادوجا"، و قد إستغللت هذه الفرصة في الإفصاح له عن آرائي بخصوص المطالب المبالغ فيها المفروضة على مشاتنا، فمع تلك الخسائر الفادحة التي عانيناها في الشرق في النزال الذي نخوضه مع عدو شرس كالروس كان من حيوي الأهمية العمل دوماً على شحذ قوى أفواج المشاة التابعة لنا بدون أدنى تأخير، و لكن نظراً لعدم وصول التعزيزات في موعدها أبداً – و هو ما كان يحدث دوماً منذ بدءالحملة الروسية – إضطرت المشاة لخوض القتال و هي في أدنى مستوياتها من القوة مما يترتب عليه حتماً صيرورة القوات المقاتلة أكثر إنهاكاً فأكثر مع مرور الوقت.

و الآن كنا على علم بأن اللوفتافا – بتعليمات من "هتلر" – تقوم بالتحضير لإنشاء ٢٢ فرقة تحت مسمى "فرقة لوفافتا ميدانية" خصصت لها ١٧٠ ألف رجل، و لم يكن أمر مفاجئ في هذا، حيث كان "جورينج" دوماً يقوم بأشياء مبالغ فيها في نطاق نفوذه ليس فقط فيما يتعلق بالتمويل و لا الإنشاءات و لكن بالقوة البشرة أيضاً، و في نفس السياق تم تأسيس اللوفتافا لتنفيذ مهام عملياتية لم تعثر على ما يكفي تنفيذها من طواقم الطائرات أو الماكينات، و هذا ليس مقام الإستفسار عن سبب سير الأمور هكذا، و تكمن الحقيقة الأساسية في أن اللوفتافا عليها أن تخصص ١٧٠ ألف رجل و هو ما كان يمكنها فعله منذ زمن طويل و هو ما يعني إنتهاء الحلم بالحرب الجوية الإستراتيجية بمعركة بريطانيا.

و أولئك الـ١٧٠ ألف رجل سيتم تجميعهم الآن في وحدات خاصة باللوفتافا لخوض قتال على الأرض، و بأخذ في الإعتبار الإختيار الواسع المفتوح أمام اللوفتافا في إختيارها لتلك الفرق فسنجد أن هذه الأخيرة تكونت من الجنود الممتازين، و لو كان تم نقلهم كتعزيزات لفرق الجيش في خريف ١٩٤١ للإبقاء عليها في كامل قواها لكان الجيش الألماني قد تمكن من إنقاذ نفسه إبان حوادث شتاء ٤٢/١٩٤١، و لكن تكوين هذه القوات الممتازة على هيئة فرق في إطار اللوفتافا كان أمراً بالغ الجنون، فأين ستحصل على التدريب على القتال التلاحمي و على ممارسته في الواقع مع بقية التشكيلات؟ و أين ستحصل على الخبرة القتالية الحيوية في الشرق؟ و أين ستعثر اللوفتافا على قادة للفرق و الأفواج و الكتائب؟

و قد غطيت كل هذه الجوانب تفصيلاً في تلك المحادثة مع "هتلر" و بعد ذلك بقليل ضمنتها مذكرة قدمتها له، و قد إستمع لحججي بإنتباه كافٍ و لكنه أصر على أنه قد منح تلك المسألة الإعتبار الكافي و أنه يتعين عليه التمسك بقراره، و عقب ذلك بفترة وجيزة أخبرني رئيس أركان مجموعة الجيوش الوسطى في ذلك الوقت – و هو الرجل المطلع جيداً على بواطن الأمور بحكم صلته الوثيقة بمساعد "هتلر" – الأسباب التي قدمها "جورينج" لـ"هتلر" وراء رغبته في تشكيل اللوفتافا فرقها الخاصة،و إدعى "جورينج" أنه ليس بإمكانه تسليم جنوده المشبعين بالإشتراكية القومية لجيش ما يزال يوجد به رجال دين و يقوده ضباط تربوا على تقاليد القيصر، و قد أخبر رجاله بالفعل أنه على اللوفافتا أن تقدم التضحيات أيضاً كي لا يبدو الجيش واقفاً بمفرده في خضم الصعاب، و هذه كانت هي الحجج التي قدمها "جورينج" لـ"هتلر".

و الآن توشك مهمتنا في "لينينجراد" على النهاية، فخلال زيارة لـ"فينيستا" قال "هتلر" أنه من المحتمل نقل مقر قيادتي لمجموعة الجيوش الوسطى في إقليم "فيتيبسك" حيث كانت هناك أمارات على تحضير العدو لهجوم كبير، و عندما يتحقق ذلك فستكون مهمتنا التصرف بشكل مضاد عبر شن هجوم من جانبنا، و مع ذلك أخبرني في نفس الوقت أنه لو ترك هو و مقر قيادته "فينيستا" فسأتولى أنا قيادة مجموعة الجيوش "أ"، و التي كان "هتلر" يقودها بنفسه منذ إقالة الفيلد مارشال "ليست" بدون سبب سليم – تبعاً لخلاف بينه و بين "هتلر" – كعمل هامشي له – و هو الأمر المستحيل إستمراره على المدى الطويل، و ما كان مفاجئاً أكثر ما قاله بخصوص تعييني قائد عام لمجموعة الجيوش في تلك المناسبة، فقد أخبرني أنه يفكر في التقدم عبر البلقان في العام القادم إلى الشرق الأدنى بمجموعة جيوش قوامها مشاة ميكانيكية! و هو تدبير يُظهر عدم واقعية تقييمه للموقف العسكري العام و الإمكانيات الإستراتيجية.

و قد ميّزت أيامي القليلة الأخيرة فعلى جبهة "لينينجراد" بالضربة الأصعب التي أصابت زوجتي و نفسي و أطفالي في هذه الحرب الأخيرة و هي وفاة أكبر أبنائنا "جيرو"، فقد لقي مصرعه فداءً لمحبوبتنا ألمانيا في ٢٩ أكتوبر حيث كان ملازم ثانٍ ضمن الفوج ٥١ غرناد[١] بانزر التابع للفرقة الثامنة عشرة، و أنا على ثقة بإعتباري أحد من قادوا آلاف الشبان الذي ضحوا بحياتهم من أجل ألمانيا من مسامحتي بشأن ذكر هذه الخسارة الشخصية هنا، فخسارة حياة إبننا لا تختلف بالتأكيد عما قدمه عدد لا يحصى من الشباب

[١] الغرناد : هو مصطلح أطلق على رماة القنابل الألمان "grenadiers"

الألماني و آبائهم و أمهاتهم، و لكنه سيظل من المقدّر تخصيص مكان في هذه المذكرات الخاصة بي لإبني الذي قدم حياته في سبيل أرض الأسلاف، و هو يرد هنا مثالاً لكل من سلك هذا الدرب و ضحّوا كما ضحّى و يعيشون في قلوب أحبتهم تماماً كما يعيش إبننا الحبيب في قلوبنا.

و كان "جيرو" – المولود في ليلة رأس السنة عام ١٩٢٢ و لقي مصرعه في عامه العشرين – طفلاً ضعيفاً منذ ولادته، فقدعانى من مرض الربو منذ طفولته و بفضل العناية الفائقة به من قبل زوجتي كبر حتى صار ملائماً للعمل كجندي، و لكن برغم أن مرضه حرمه من أمور كثيرة في صباه إلا أنه جعله ذا طبيعة غير عادية و عازماً على تنفيذ كل ما تطلبه منه الحياة برغم كل الصعوبات.

و كان "جيرو" طفلاً جديراً بالمحبة: جاداً و مفكراً و لكن سعيد دائماً، و بعد إنهائه إختباره المدرسي الأخير في أكاديمية الفرسان في "ليجنتز" ١٩٤٠ عبّرصراحة عن أمنيته في أن يصير جندياً و أن ينضم لسلاحي {المشاة} – و المعروف في ألمانيا بإسم "ملكة أرض المعركة" لأنه يتحمل منذ زمن طويل العبء الأكبر للقتال، و غني عن القول أننا كوالديه تفهمنا رغبته تلك في إتباع خطى أجداده و أسلافه على الرغم من عدم قيام أي منا بمحاولات التأثير عليه في إختياره لمهنته، فقد كانت تجري في دمه ببساطة الرغبةً في أن يصير ضابطاً نظامياً و يكون مدرباً للشباب الألماني و قائداً له في أوقات الأزمات.

و بعد إجتيازه للإختبارات المدرسية إنضم للفوج ٥١ غرناد بانزر في "ليجنيتز" و خدم خلال حملة صيف ١٩٤١ في روسيا كمجند، و تمت ترقيته لرتبة عريف و حاز وسام الصليب الحديدي لقيامه بالعودة برفقة بعض رفقائه تطوعاً لسحب زميل مصاب لهم في دورية، و في خريف ١٩٤١ تم إرساله للوطن لمدرسة الضباط و في ربيع ١٩٤٢ تسلم رتبته.

و عقب مرض خطير و أجازة نقاهة عاد للفوج الذي أحبه و الذي يقاتل الآن على بحيرة "إلمن" كجزء من الجيش السادس عشر، و قد سررت لرؤيته و هو في طريقه متجهاً إلى هناك فعرج عليّ لرؤيتي في عربتي الخاصة على الجبهة خلال معركة بحيرة "لادوجا"، و رأيته بعد ذلك مرة واحدة عندما زرت صديقي "بوزتش" في مقر قيادة الجيش السادس عشر في ١٨ أكتوبر، و كان قد دعى "جيرو" للحضور كذلك لذا تمكنت

و "بوزنتش" و مساعدي "سبيشت" و إبني "جيرو" من قضاء مساء سعيد معاً، و قد لقي "سبيشت" مصرعه عقب ذلك بأيام قلائل.

و باكراً في ٣٠ أكتوبر ١٩٤٢ و عقب تسليم تقاير الموقف الصباحية جاءني رئيس الأركان العامل معي المخلص "شولز" – خليفة "فولر" – حاملاً نبأ مقتل إبني "جيرو" بفعل قصف روسي في الليلة الماضية و هو في طريقه للجبهة لتسليم أمر لقائد إحدى الفصائل بوصفه مساعد قائد الكتيبة.

و قمنا بدفن الإبن الغالي على شواطئ بحيرة "إلمن" في اليوم التالي، و قد بدأ كاهن الفرقة ١٨ غرناد بانزر القس " كروجر" خطبته التأبينية بالكلمات التالية:

"ملازم من المشاة"

و لم يكن إبني يريد غير ذلك.

و عقب إنتهاء مراسم الدفن طرت للوطن لقضاء أيام قليلة مع زوجتي الغالية و التي كان هذا الإبن موضع عناية خاصة بالنسبة لها لسنوات، و هو لم يمنحنا سوى البهجة رغم كل ما عانيناه من قلق بفعل مرضه الذي قاتله بشجاعة، لقد إستودعنا روحه في لدى الله.

سقط "جيرو إريتش سيلفستر فون مانشتاين" – كغيره من آلاف الشباب الألمان – في المعركة جندياً شجاعاً، و كان نداء الضابط هو مهمته في الحياة و قد أوفى بها أحسن وفاء رغم صغر سنه، و لو تحدث المرء عن شاب أرستقراطي لإنطبق ما يُقال عليه ليس فقط لمظهره الخارجي – كان طويلاً رشيقاً حسن البينة – و لكن لسمات شخصيته و رونقه، و لم يقتصر أمره على ذلك بل كان رحيماً عطوفاً لهوفاً إلى مساعدة الغير و في ذات الوقت جاد و مبتهج، و لم يكن أنانياً يفكر في نفسه بل إنه لم يعرف سوى معاني الرفقة و الإحسان، و كان عقله و روحه متفتحَين لكل ما هو جيد و خير،فقد كان جندياً ألمانياً و رجلاً لطيفاً و مسيحياً بمعنى الكلمة.

و أثناء إقامتي في "ليجنيتز" عقب دفن "جيرو" تم نقل مقر قيادة الجيش الحادي عشر من "لينينجراد" إلى قطاع مجموعة الجيوش الوسطى في منطقة "فيتيبسك"، و لا يوجد شأن مهم يستحق الذكر بخصوص الأسابيع القليلة التي قضيتها هناك،و قبل إتخاذ أي

خطوات بصدد الهجوم المضاد المزمع قيامنا بشنه رداً على الهجوم السوفييتي المتوقع تطورت الأحداث في جنوب الجبهة الشرقية بشكل دعا إلى منحنا دوراً جديداً.

في ٢٠ نوفمبر تسلمنا أوامر بتولي القيادة فوراً في القطاع الواقع على جانبي "ستالينجراد" بإعتبارنا قيادة مجموعة جيوش جديدة مسماة مجموعة الجيوش "دون"،و كنت لتوي في رحلة للجبهة لزيارة فيلق "فون دير تشيفاليري"[١] برفقة رئيس العمليات العقيد "بوس" و تأخرت عن الوصول بسبب إنفجار لغم تحت القطار الذي كنت أستقله، و قد جعل حضور البارتيزان في هذه الأراضي السفر في عربات مدرعة أو قطارات محمية على نحو خاص ضرورياً.

و بسبب حيلولة الطقس السيئ دون الطيران إضطررنا لمغادرة "فيتيبسك" على متن قطار في ٢١ نوفمبر و توقفنا مجدداً بسبب الألغام، و وصلنا مقر قيادة مجموعة الجيوش "ب" – و التي كانت مسئولة عن قطاعنا المستقبلي - في ٢٤ نوفمبر – عيد ميلادي الخامس و الخمسين، و ما علمناه هناك حول موقف الجيش السادس و الجبهات المتاخمة للجيش الرابع بانزر و الجيشين الثالث و الرابع الرومانيين سنتعرض له لاحقاً في فصل خاص بـ"ستالينجراد".

١١

"هتلر" كقائد أعلى

إن تعييني قائداً لمجموعة الجيوش "دون" وضعني لأول مرة تحت أوامر "هتلر" المباشرة بصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة {الفيرماخت} و الجيش، و الآن فقط وجدت نفسي في موقع يُمكنني من رؤية كيف يحاول القيام بواجبات القائد العسكري الأعلى بجانب واجبات رئيس الدولة حيث أنني حتى اللحظة كنت أشعر بتأثيره على القرارات العسكرية من بعيد و بشكل غير مباشر، و بسبب السرية الصارمة المفروضة

[١] هيلموث فون دير تشفاليري: ضابط مشاة ألماني عاش بين ١٨٩٦ – ١٩٦٥.

على كل المسائل ذات الطبيعة العملياتية كنت عاجزاً عن تكوين أي رأي صالح من جانبي.

فخلال حملة بولندا لم نكن واعين بأي تدخل من طرف "هتلر" في قيادة الجيش، و في زيارته لمجموعة جيوش "فون رندستيدت" أنصت في ود بالغ لعرضنا للموقف و وافق على نوايانا دون القيام بأي محاولة للتدخل.

و أما بالنسبة لخطة إحتلال النرويج فلم يعلم أي شخص خارج القيادة شيئاً عنها، و قد سبق شرح موقف "هتلر" إزاء الهجوم على الغرب تفصيلاً، و قد كان ما فعله *بالقيادة العليا للجيوش الألمانية* في هذا الصدد أمراً دافعاً للأسى و الإنزعاج، و لكن يجب وضع في الإعتبار أن رأيه القاضي بوجوب تسوية الأمور في الغرب بواسطة الهجوم كان صائباً تماماً من وجهة النظر العسكرية حتى لو لم يُمكن قول المثل بالنسبة لمسألة التوقيت،و إقراراً للحق أقول أنه وضع الإطارالخارجي لخطة تضمنت بالكاد حلاً كاملاً – كما سبق توضيحه، و في تلك المرحلة من المحتمل أنه لم يعتقد بإمكان حصاد النتائج التي تحققت في نهاية المطاف، و على الرغم من ذلك فعندما أتاحت له الخطة المقدمة من مجموعة الجيوش "أ" تلك الإمكانية وجدناه أيقن الفكرة و تبناها على الفور- حتى برغم فرضه قيوداً أخبرت عن تحاشيه للمخاطر، و خطؤه المصيري الكامن في إيقاف تقدم المدرعات عند "دانكيرك" لم يكن ظاهراً للعيان في ذلك الوقت حيث خدعت صورة الشاطئ العاجّ بالمعدات المهجورة كل شخص لم يكن مدركاً قدر النجاح الذي حققه البريطانيون في سحب قواتهم عبرالقنال.

و مع ذلك فقد كشف غياب "خطة حربية" تسمح بالتحضير للغزو في وقت محدود عن إخفاق قيادة الفيرماخت – من جانب "هتلر" تحديداً، و على اليد الأخرى كان من المستحيل على أي شخص بعيد أن يحكم ما إن كان القرار بغزو الإتحاد السوفييتي لا يمكن تحاشيه لأسباب سياسية، فقد بد إنتشار القوات السوفييتية على الحدود الألمانية و المجرية و الرومانية تهديداً كافياً.

و قد كنت علمت بوصفي قائد فيلق ثم قائد الجيش الحادي عشر القليل عن تأثير "هتلر" على خطة الهجوم على الإتحاد السوفييتي و إدارة العمليات في المرحلة الأولى من الحملة و كذلك عن خطط هجوم الصيف عام ١٩٤٢،و كان هناك بالتأكيد تدخل من جانب "هتلر" في إدارة حملة القرم، صحيح أنه وافق على نوايانا بلا تردد عندما زرته

في ربيع عام ١٩٤٢ و فعل كل شيء بلا شك لإنجاحنا في "سفاستبول"، و قد ذكرت بالفعل أنني أرى أن الجيش الحادي عشر صار يُستخدم على نحو خاطئ بعد سقوط الحصن.

و الآن و مع صيرورتي تحت سلطة "هتلر" مباشرة بوصفي قائد مجموعة جيوش سأخوض أول تجربة لي بشأن ممارسته لمهام القيادة العليا.

و لدى الحديث عن "هتلر" كقائد عسكري يتعين بالتأكيد على المرء ألا يعتبره مجرد "عرّيف من الحرب العالمية الأولى".

فقد كان له علم بلا شك حول المبادئ العملياتية الأساسية – كما ظهر من أسلوب وضعه لخطة مجموعة الجيوش "أ" في الغرب، و هذا بالطبع يمكن حتى للعسكريين الهواة فعله – و إلا لما تضمن التاريخ قصصاً لدوقات و أمراء برعوا كقادة ناجحين، و إضافة لذلك فإن "هتلر" كان يمتلك ذاكرة حفظ مدهشة و قدرة تخيل بارعة جعلته قادراً على إدراك كل الشئون الفنية و مشكلات التسليح بسرعة، و قد كان مطلعاً بشكل مذهل على تأثير أحدث أسلحة العدو و كان قادراً على ذكر عواميد كاملة من أرقام و معطيات الإنتاج الحربي لدينا و لدى العدو كذلك، و قد كانت هذه بالطبع طريقته المفضلة في التكيف مع أي موضوع لم يكن يحبذ الحديث فيه، و لا مجال للسؤال عن الفضل الذي يرجع إلى بصيرته و نشاطه غير العادي في تحقيق الكثير من النجاحات في مجال التسلّح، و لكن إيمانه بتفوقه في هذا المجال قاد في نهاية المطاف إلى نتائج كارثية وخيمة، فقد حال تدخله دون التطوير السلس للوفتافا و في الوقت المناسب و كان هذا هو ما عرقل تطوير مشروعات الدفع الصاروخي و الأسلحة الذرية.

و أكثر من ذلك أن إهتمام "هتلر" بكل ما هو فني قاده إلى المبالغة في تقييم موارده الفنية، و نتيجة لذلك نجده إعتمد على مجرد مفارز مكونة من مدافع هجومية أو دبابات نمر[١] الجديدة لإستعادة الموقف و هو ما لا يمكن تحقيقه إلا بإستخدام حشود ضخمة من القوات.

إن ما كان يفتقر "هتلر" إليه – و أتحدث هنا بشكل عام – هو القدرة العسكرية القائمة على الخبرة و هو الشيء الذي لم يكن "حدسه" ليصلح بديلاً له.

[١] هي دبابة ألمانية ثقيلة تعد من أقوى دبابات الحرب العالمية الثانية و تتميز بمدفع عيار ٨٨ ملليمتر و وزنها ٦٢ طن.

و في حين كان لـ"هتلر" إحساس بالفرصة التكتيكية و إمكانية إدراكها بسرعة إلا أنه ما يزال يفتقر إلى القدرة على تقييم المتطلبات الأساسية لخطة العمليات و إجراءاتها، فقد أخفق في فهم وجوب أن تكون أهداف أي عملية و نطاقها متناسبة تماماً مع الزمن و القوات الذين تحتاجهما لتنفيذها – بغض النظر عن إمكانيات الإمداد، و هو لم يدرك – أو لم يكن ليدرك – أن أي عملية هجومية واسعة المدى تتطلب التجهيز المتأني لقوات تفوق تلك المشاركة في الهجوم الأصلي، وكل هذا توضح أثناء إعداد هجوم صيف ١٩٤٢ و تنفيذه، و مثال آخر يتمثل في الفكرة البارعة التي صرّح لي بها و هي التقدم عبرالقوقاز إلى الشرق الأدنى و الهند بواسطة مجموعة جيوش قوامها قوات مشاة ميكانيكية فقط.

و كما هو الحال في المجال السياسي - بصرف النظر في كل الأحوال عن نجاحات عام ١٩٣٨ – إفتقر "هتلر" في المجال العسكري كل حدس متصل بحسن تقدير الأمور بشأن ما يمكن تحقيقه و مالا يمكن تحقيقه، ففي خريف ١٩٣٩ – برغم إعترافه بقدرة فرنسا على المقاومة – لم يدرك منذ البداية إمكانية تحقيق النجاح الحاسم عبر هجوم ألماني مخطط له جيداً، و لكن عندما تحقق له هذا النجاح فَقَدَ إدراكه لفرصة تتحين في ظروف أفضل، و ما كان يفتقر غليه في كل حالة هو التدريب الحقيقي على الإستراتيجية و التكتيكات الكبيرة.

و هكذا تشبث هذا العقل النشط بأي هدف يستثير توهمه مسبباً تشتيت "هتلر" لقوى ألمانيا بواسطة تحديد عدة أهداف لتنفيذها تزامنياً – و غالباً في أصعب مسارح العمليات، و لم تكن القاعدة القاضية بإستحالة أن يكون المرء قوياً جداً في المنقطة الحاسمة – مما يقود المرء للتخلي عن الجبهات الأقل حيوية أو لتقبل مخاطر إضعافها جذرياً بغية تحقيق هدف حاسم – لها أي وجود في ذهنه، و نتيجة لذلك نجده في هجومي عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٣ لم يتقبل المخاطرة بأي شيء في سبيل تحقيق النجاح، كما أنه لم يكن قادراً على تحديد الإجراء اللازم لتعويض المنحى الغير موات لمصلحتنا الذي إتخذته الأمور بعدئذٍ و لا راغباً في ذلك.

و أما بالنسبة لأهداف "هتلر" الإستراتيجية – على الأقل في الصراع مع الإتحاد السوفييتي – فقد كانت محكومة بدرجة كبيرة بالإعتبارات السياسية و إحتياجات الإقتصاد الحربي الألماني، و هذا تم توضيحه سلفاً في الملاحظات الواردة على الحملة الروسية و سيظهر مجدداً في سياق المعارك الدفاعية لعامي ١٩٤٣ و ١٩٤٤.

و الآن فإن للمسائل ذات الطبيعة السياسية و الإقتصادية بلا شك أهمية قصوى عندما يتعلق الأمر بالأهداف الإستراتيجية، و ما تغاضى "هتلر" عنه كان أن تحقيق الأهداف الإقليمية و الإحتفاظ بها بتطلب بداءة هزيمة القوات المسلحة للعدو، و طالما ظلت هذه المسألة العسكرية غير محسومة – و هو ما سيتضح من الصراع مع الإتحاد السوفييتي – فإن تحقيق الأهداف الإقليمية متمثلة في المناطق ذات الأهمية الإقتصادية سيظل أمراً معقداً و سيعد الإحتفاظ بها من قبيل الإستحالة المطلقة، و عندما يأتي اليوم الذي يتمكن المرء فيه من تدمير مراكز تسليح العدو أو نظام النقل بواسطة الغارات الجوية أو الصواريخ الموجهة هو الذي يمكن فيه إعتباره غير قادر على مواصلة القتال.

و لمّا كان من الواجب أن تكون الإستراتيجية بلا جدال أداة في أيدي القيادة السياسية فإنه يتعين على الأخيرة أن تتغاضى عن – كما فعل "هتلر" بدرجة كبيرة إبان تحديده لأي أهداف عملياتية – حقيقة أن الهدف الإستراتيجي لأي حرب هو تحطيم القوة العسكرية الدفاعية للعدو، و فقط عندما يتم تأمين النصر يكون الطريق مفتوحاً لإدراك الأهداف السياسية و الإقتصادية.

و هذا يقودني إلى العامل الأكثر تأثيراً من غيره في تكوين سمات قيادة "هتلر" و هو مبالغته في تقييم "قوة الإرادة"، فقد إرتأى أن هذه "الإرادة" يُمكن ترجمتها إلى "إيمان" في نفوس أصغر المجندين بهدف التأكيد على صواب قرارته و ضمان نجاح أوامره.

قطعاً إن أهم متطلبات النصر هو قوة إرادة القائد الأعلى، و قد خُسرت كثير من المعارك و أهدِر الكثير من النجاح بسبب خوار إرادة القائد الأعلى في اللحظة الحاسمة.

إن إرادة النصر التي تمنح أي قائد القوة لرؤية الأزمة تختلف تماماً عن إرادة "هتلر" – و التي تنبع أساساً من إيمانه "بمهتمه" الخاصة، و مثل هذا الإيمان يجعل أي إنسان متحاشياً للمنطق و يقوده حتماً لإعتقاد أن إرادته تستطيع العمل حتى بما يتجاوز حدود الواقع العملي – سواء تمثل هذا المنطق في حضور قوات معادية متفوقة للغاية و ظروف الوقت و المكان أو تمثل ببساطة في حقيقة أن العدو كذلك لديه إرادته الخاصة.

و بوجه عام، كان ميل "هتلر" ضئيلاً لربط حساباته الخاصة بنوايا العدو المحتملة حيث أنه كان مقتنعاً بأن إرادته هي المنتصرة دوماً في النهاية، و قد كان راغباً عن تقبل أي تقارير – مهما كانت موثوقة – بشأن تفوق العدو حتى لو كان العدو أقوى منه بمراحل،

فكان "هتلر" إما يرفض هذه التقارير أو يقلل من شأنها مع إطلاق تطمينات حول أوجه قصور العدو و اللجوء إلى الذكر اللا منتهي لأرقام الإنتاج الألماني.

و في مواجهة إرادته تنجت جانباً كل العناصر الأساسية لتقدير أي موقف و التي يجب أن يستند إليها أي قرار صادر عن قائد عسكري، و بذلك أدار "هتلر" ظهره للواقع.

و السمة الوحيدة الجديرة بالذكر هي أن تقييمه المبالغ فيه لقوة إرادته الخاصة – بصرف النظر عن المتعلق بموارد العدو و نواياه المحتملة – لم يكن متزامناً مع جرأة إصدار القرارات، فنفس الرجل الذي صار – عقب نجاحاته السياسية حتى عام ١٩٣٨ – مغامراً هو من تجنب تقبل أي مخاطر في الحقل العسكري، و القرار العسكري الجريء الوحيد الذي يُذكر في رصيد "هتلر" هو ذلك المتعلق بإحتلال النرويج و حتى حينئذٍ كان الإقتراح الأساسي صادراً عن الجراند أدميرال "رايدر"، و حتى هناك بمجرد حدوث أزمة محدودة في "نارفيك" رأى "هتلر" إخلاء المدينة و التضحية بموجبه عن الهدف الأساسي للعملية برمتها – و هو الإبقاء على طرق تدفق الحديد الخام مفتوحة، و إبان تنفيذالحملة على الغرب – كما رأينا من قبل – أظهر "هتلر" تحاشياً واضحاً لتقبل المخاطر العسكرية، و قد كان قرار الهجوم على الإتحاد السوفييتي النتيجة الحتمية لإلغاء غزو بريطانيا – و الذي إرتآه "هتلر" خطراً جداً.

و خلال الحملة الرئيسية تجسد خوف "هتلر" من الخطر بطريقتين: **الأولى** – كما سنرى لاحقاً – في رفضه لتقبل مرونة العمليات – وفقاً للظروف التي سادت منذ ١٩٤٣ فصاعداً - و الذي يمكن تحقيقها فقط بواسطة التخلي الطوعي الوقتي عن الأرض المحتلة، أما **الثاني** فكان خوفه في تقليص الجبهات الثانوية أو مسارح العمليات الجانبية لمصلحة النقطة التي يتعلق بها قراره الرئيسي حتى عندما يُعد القيام بذلك خطراً إحتمالاً.

و هناك ثلاثة أسباب محتملة لتفادي "هتلر" هذه المخاطر في الحقل العسكري: **أولاً** ربما يكون شعر سراً بإفتقاره للقدرة العسكرية اللازمة للتعامل معها، و لكونه كذلك لم يكن محبذاً لإنتقاد جنرالاته فيما يتعلق بها، و **ثانياً** خوفه الشائع لدى كل الدكتاتورات من تزعزع مظهره بسبب أي تراجعات، و في الممارسات العملية أدى هذا الخوف إلى وقوع أخطاء عسكرية دمّرت مظهر هذا الرجل أكثر من أي شيء آخر، و **ثالثاً** نفور

"هتلر" الواضح – و المتأصل في شهوته للسطة – من التخلي عن أي شيء مما وقع تحت يديه.

و في نفس السياق نذكر موقف آخر لـ"هتلر" معارض لما قاتلت و رئيس الأركان الجنرال "زيتزلر" من أجله بلا طائل خلال الفترة التي كنت أقود فيها مجموعة الجيوش "دون".

ففي كل وقت واجهه فيها قرار لم يكن يحب إتخاذه و لكنه لم يتمكن في نهاية المطاف من تحاشيه وجدناه يماطل في ذلك لأطول فترة ممكنة، و قد حدث هذا في كل مرة كان من الضروري على وجه الإستعجال لنا إشراك قوات في المعركة في وقت مناسب لوقف أي نجاح عملياتي يحققه العدو أو للحيلولة دون إستغلاله لهذا النجاح، و إضطرت هيئة الأركان لخوض نزال مع "هتلر" لأيام قبل أن تتمكن من تحرير أي قوات من القطاعات الأقل عرضة للتهديد من الجبهة لإرسالها للنقطة الحاسمة، و في أغلب الأحوال كان يعطي عدد ضئيل جداً من القوات بعد فوات الأوان – و هو ما أدى عادة لقيامه في نهاية المطاف بمنح ما كان مطلوب منه منذ البداية،و عادة ما كان الصراع يستمر لأسابيع كاملة عندما تُثار مسألة التخلي عن موقع لا يمكن الدفاع عنه مثل منطقة نهر "دونتز" في ١٩٤٣ أو ثنية نهر "دنيبر" في ١٩٤٤، و عين ذلك ينطبق على إخلاء النتوءات الغير هامة على إمتدادات كبيرة من الجبهة لغرض الحصول على قوات إضافية، و من المحتمل أن "هتلر" توقع دائماً أن تسير الأمور كيفما يشاء حتى النهاية ممكنة إياه من تفادي القرارات التي يبغضها فقط إن عنت له التعرف على حقيقة أنه يتوجب عليه تكييف نفسه مع تصرفات العدو، إن العوامل التي دأبت على التأثير في قيادة "هتلر" العسكرية و زادت في تاثيرها أكثر فأكثر مع مرور الوقت كانت تضخيمه من إيمانه بقوة إرادته الخاصة – و هو ما يعني تحاشياً مؤكداً لتقبل أي مخاطر كامنة في العمليات الحركية عندما لا يكون نجاحها مضموناً مسبقاً – و كراهيته التخلي عن أي شيء طواعية ، و تدريجياً صار الدفاع العنيد عن كل شبر من الأرض هو الشاغل الأهم لهذه القيادة، و هكذا و عقب إحراز الفيرماخت نجاحات إستثنائية في السنوات الأولى للحرب بقوة القدرة الحركية العملياتية كان رد فعل "هتلر" لدى حدوث أول أزمة أمام "موسكو" هو تبني نهج "ستالين" القائم على التشبث بقوة بكل شبر من الأرض، و قد كانت هذه سياسة جعلت القادة السوفييت قريبين على مشارف هاوية السقوط في ١٩٤١ مما دفعهم للتخلي عنها عندما شن الألمان هجوم عام ١٩٤٢.

و لكنه بسبب دحر قواتنا بواسطة المقاومة الهجوم المضاد السوفييتي شتاء عام ١٩٤١ إقتنع "هتلر" بأن تحريمه أي إنسحاب طوعي قد أنقذ الألمان من مصير جيش "نابليون" الكبير عام ١٨١٢، و قد تدعم إعتقاده هذا بمواقف بطانته الخاصة و العديد من القادة على الجبهة، و بالتالي عندما تصاعدت أزمة جديدة في خريف ١٩٤٢ بعد ما تعطل الهجوم الألماني خارج "ستالينجراد" و في القوقاز إعتقد "هتلر" مجدداً أن تعويذة النجاح تقبع في التشبث بما هو مُمتلك بالفعل مهما بلغت التكلفة، و منذ الآن فصاعداً لن يمكن إثناؤه عن هذه الفكرة أبداً.

و الآن من المعترف به على وجه العموم أن الدفاع هو الأقوى من بين صورتي القتال {الهجوم و الدفاع}، و مع ذلك يكون هذا حقيقي فقط عندما يكون الدفاع فعّالاً لدرجة تجعل المهاجم ينزف حتى الموت أثناء هجومه على مواقع المدافع، و هذا لم يكن الحال على الجبهة الشرقية حيث كانت أعداد الفرق الألمانية المتاحة غير كافية بالمرة لتنظيم دفاع قوي، و كان العدو – الأقوى بمراحل - دائماً قادراً على – بواسطة حشد قواته في المكان الذي يختاره – إختراق الجبهات الممتدة لمسافات بعيدة، و نتيجة لذلك باتت أعداد كبيرة من القوات الألمانية عاجزة عن تحاشي تطريقها، و فقط في العمليات الحركية يمكن التعويل على تفوق الطواقم الألمانية و القوات المقاتلة و ربما يمكن حينئذٍ إفشال قوات الإتحاد السوفييتي.

و سنتعامل بتفصيل أكبر مع إيثار "هتلر" المتزايد للتشبث بكل شيء مهما بلغت التكلفة في سياق المعارك الدفاعية الواقعة على الجبهة الشرقية في عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٤، و ربما يكمن سبب إصراره هذا في شخصيته، فقد كان رجلاً شهد قتالاً لا يعرف سوى الوحشية المفرطة، و قد علقت في ذهنه صورة حشود العدو و هي تنزف حتى الموت أمام خطوطنا أكثر من مفهوم المبارز الداهية الذي يعرف متى يرجع خطوة للوراء تمهيداً لشن الهجوم الحاسم، و أما بالنسبة لفن الحرب فقد إعتبر أن القوة الضاربة يمكن ضمان أقصى فاعلية لها بواسطة قوة الإرادة المحركة لها.

و حيث أن "هتلر" قد رفع من قدرة القوة فوق قدرة العقل و لم يقيّم – مع الوضع في الإعتبار لشجاعة الجندي – قدرته إلى نفس المدى فلن يكون مفاجئاً أمر إمتلاكه "عقدة الأرقام"، فتجده يُغرق نفسه في ذكر أرقام ما تنتجه صناعة السلاح الألمانية – و التي ضاعف من إنتاجه بدرجة كبيرة – حتى لو فضّل غض الطرف عن حقيقة كون أرقام إنتاجية صناعة السلاح لدى العدو ما تزال أعلى.

و ما نساه كان قدر التدريب و المهارة المطلوب لجعل أي سلاح جديد فعالاً لأقصى درجة، فتجده مسروراً بمجرد وصول الأسلحة للجبهة، و لم يكن يقلقه ما إن كانت الوحدات المعنية قد عرفت كيف تتعامل معها أم لا أو ما إن كان السلاح نفسه تم إختباره في ظروف قتالية.

و بنفس الطريقة كان يأمر "هتلر" بتشكيل الفرق الجديدة، و بالرغم من أنه من المطلوب تحقيق زيادة في أرقام تشكيلاتنا إلا أن شحذها بالمقاتلة و السلاح كان على حساب التعزيزات المخصصة لفرقنا العاملة بالفعل – و التي تعرضت مع مرور الوقت للإستنزاف من ناحية القوة البشرية، و في نفس الوقت إضطرت التشكيلات المكونة حديثاً لدفع ثمن باهظ من القتلى نظراً لنقص خبرتها القتالية، و خير مثال على ذلك هي فرق اللوفتافا الميدانية و السلسلة غير المنتهية من فرق سرايا الدفاع و أخيراً ما يُعرف بفرق الغرناد الشعبية.

و نقطة أخيرة تستحق الذكر هي أنه على الرغم من تعويل "هتلر" الدائم على نظرته "الجندية" و أحب دوماً التذكير بأنه حصل على خبرته العسكرية من كونه جندياً على خط الجبهة إلا أن شخصيته حازت القليل من سمات الجنود و عواطفهم مثل حزبه بالنظر إلى القيم البروسية التي كان الحزب شغوفاً بإنتهاكها.

و بالتأكيد كان يتم إبلاغ "هتلر" بالظروف السائدة على الجبهة عبر التقارير التي يتسلمها من مجموعات الجيوش و الجيوش، و إضافة لذلك غالباً ما كان يلتقي بالضباط العائدين تواً من مناطق خطوط الجبهة، و لذا فإنه لم يكن واعياً فقط بإنجازات قواتنا و لكن بالضغط المستمر الذي تتعرض له منذ بداية الحملة الروسية، و ربما كان هذا أحد الأسباب وراء كوننا لم نعمد أبداً لإيصال "هتلر" لأي مكان قريب من خط الجبهة في الشرق، فقد كان من الصعب كفاية إقناعه بزيارة مقر مجموعة الجيوش حيث لم تخطر في باله أبداً فكرة التقدم بعيداً للأمام، و ربما يكون قد خشي من تسبب مثل تلك الرحلات في تدمير أحلامه الذهبية بشأن إرادته التي لا تُقهر.

وبرغم الآلام كان "هتلر" دائم التشديد على كونه جندياً سابقاً على خط الجبهة، و لا أزال غير ممتلك للإحساس بإنتماء قلبه للقوات المقاتلة، فبالنسبة له الخسائر مجرد أرقام تقلل من القوة البشرية، و من غير المحتمل أن تكون قد أزعجته بصفته بشراً.

(و قد كتب لي ضابط سابق *بالقيادة العليا للفيرماخت* – و الذي نُقل للعمل هناك بعد إصابته على الجبهة و صار على إتصال يومي بـ"هتلر" بحكم وظيفته أساساً في اللقاءات اليومية الوجيزة و أحياناً في إجتماعات خاصة – ما يلي:

"أنا أعي تماماً تبرير هذا الشعور الموضوعي – عدم تعاطف هتلر مع القوات المقاتلة و إعتبار الخسائر مجرد أرقام ، هكذا ظهر أمام جمع كبير من الناس و لكن في الواقع كان العكس تماماً، فقد كان من وجهة نظر الجندي ليناً جداً و معتمداً على نحو مؤكد على عواطفه إلى حد كبير، و كان أمراً ذا مغزى كونه لا يتحمل أي مواجهة لرعب الحرب، فقد كان خائفاً من لينه و حساسيته و التي كانت لتعيقه عن إتخاذ القرارات التي تتطلبها منه حياته السياسية، و قد كانت الخسائر التي وجد نفسه مجبراً على التعامل معها شخصياً أو تم إعطائه وصفاً واقعياً عنها مصدراً للرعب له و بالقطع سببت له معاناة كبيرة تماثل تلك الناجمة عن وفاة من يعرفهم.

بعد سنوات من الملاحظة لا أصدق أن هذا كان تمثيلاً و لكنه ببساطة أحد جوانب شخصيته، و بالتالي كان يميل عمداً للمناخ الخالي مما لا يحبذه تجنباً لمواجهة أي شيء يخاف منه و يقض مضجعه، و هذا أيضاً هو السبب الأكثر رسوخاً وراء عدم ذهابه للجبهة أو لزيارة أي من المدن التي تعرضت للقصف، و من المؤكد تماماً أن ذلك لا يرجع إلى أي نقص ٍفي شجاعته الشخصية و إنما للخوف من أن يتملكه الرعب مما يراه.

و كان غالباً ما يُذكر في الإجتماعات الخاصة في الحديث حول إنجازات القوات المقاتلة أنه يكنّ لها كل التقدير و التعاطف"

و يظهر رأي هذا الضابط – و الذي لم يكن من محبي "هتلر" أو داعميه – على الأقل قدر التباين في الإنطباعات المتولدة لدى الناس عن شخصية "هتلر" و عقليته و كيف كان صعباً الوصول لأعماقهما، و إن كان "هتلر" حقيقة ليّن القلب فكيف يمكن للمرء تفسير الوحشية المتزايدة لنظام حكمه مع مرور الوقت؟....الكاتب)

و مع ذلك كانت نظرة "هتلر" مماثلة للجندي تماماً فيما يتعلق بالتزيينات العسكرية، و كان هدفع الأول و الأعظم من تلك التزيينات هو تكريم الشجاع من الرجال المقاتلين و تعد اللوائح التي أصدرها في بداية الحملة بخصوص الحصول على وسام الصليب الحديدي نموذجاً على ذلك، و قد قرر "هتلر" أن هذا التزيين يتعين منحه فقط عن

التصرفات الدالة على قيادة شجاعة و نموذجية – و هو ما عنى فيما يتعلق بفئة القادة أن الحصول عليه غير ممكن إلا بالنسبة لقادة التشكيلات و الضباط الكبار العاملين معهم، و لسوء الحظ أخفق كثيرون من المسئولين عن منح هذا التزيين في إتباع تلك القاعدة المثيرة للإعجاب – و هو ما يرجع في جزء منه إلى التأخر في إنشاء وسام صليب للخدمة العسكرية الجديرة بالتقدير {وسام الـ"كريجسفيرديِنستكروز"} الذي تقرر منحه لأولئك الذي ما يزالون يستحقون التقدير و لو كانوا حائزين سلفاً على وسام الصليب الحديدي، و مع "هتلر" كان ضمان منح وسام صليب الفارس لأي جنرال مستحق أصعب من أي ضابط أو جندي على الجبهة.

و أما بالنسبة للميل الدؤوب إلى الإنتقاص من قدر الشارات و الأوسمة المختلفة التي أنشأها "هتلر" خلال فترة الحرب فإنه من المتعين على الناس أن تضع في إعتبارها ما حققه جنودنا خلال السنوات الطويلة التي إستغرقتها الحرب، و قد كانت شارات مثل مشبك القتال التلاحمي {ناهكامفسبانج} و درع القرم الخاص بالجيش الحادي عشر تُرتدى بكل فخر في كل الأحوال، و بجانب ذلك يُظهر رقم الميداليات المُرتداة لدى الطرف الآخر بواسطة الجنود أن مسألة التزيينات العسكرية لا يجب الخوض في أحاديث سخيفة عنها و وصفها بأنها مجرد "قطع من صفيح".

و قد أدت أوجه القصور التي ذكرتها إلى التقليل من لياقة "هتلر" للقيام بالدور الذي نصّب فيه نفسه و هو القائد العسكري الأعلى.

و مع ذلك كان بالإمكان موازنة أوجه القصور تلك فقط إن كان جاهزاً لتلقي النصيحة – واضعاً ثقته فيها – من رئيس أركان محنك و مسئول، و رغم كل ذلك كان يحوز بالفعل عدداً من المؤهلات التي لا غنى عنها لأي قائد أعلى و هي : إرادة قوية و أعصاب قادرة على التماسك في أوقات الأومات و عقل نشيط إضافة إلى الموهبة العملياتية المرتبطة بالقدرة على إدراك الإحتماليات ذات الطبيعة الفنية، و لو كان فقط عثر على درب ليسلكه لتعويض نقص التدريب و الخبرة في المجال العسكري – خصوصاً فيما يتعلق بالإستراتيجية و التكتيكات الكبيرة – عبر توظيف مهارة رئيس الأركان العامل معه لظهر قائداً عسكرياً كفئاً برغم كل أوجه القصور المذكورة أعلاه، و لكن كان هذا ما لم يكن "هتلر" ليتقبله على وجه التحديد.

و كما إعتقد أن قوة إرادته حاسمة بشتى الطرق أدت نجاحاته السياسية – و بالطبع الإنتصارات العسكرية المبكرة في الحرب و التي إعتبرها إنجازات شخصية له – إلى إفقاده كل تقدير للأبعاد غيما يتعلق بتقييم قدراته الخاصة، و في نظره كان تقبل نصيحة صادرة عن رئيس أركان مسئول فعلاً يعني إخضاع إرادته الخاصة إرادة شخص آخر، و يُضاف إلى ذلك حقيقة أنه كان مشبعاً بحكم النشأة و الخلفية بإنعدام ثقة متين تجاه القادة العسكريين و الذين كان أسلوب تفكيرهم و نمطهم غريباً عنه، لذا لم يكن "هتلر" متأهباً لرؤية مستشار عسكري مسئول حقيقة بجانبه، فقد أراد أن يكون "نابليون" آخر يعمل تحت يديه رجال متساهلون منفذين إرادته طواعية، و لسوء الحظ لم يكن حائزاً على تدريب "نابليون" العسكري و لا على عبقريته العسكرية.

و قد أوضحت بالفعل في الفصل الخاص بخطة غزو بريطانيا أن "هتلر" قام بتنظيم القيادة العليا بحيث لم يكن أي شخص مخولاً سلطة إسداء النصح له بخصوص أي إستراتيجية كبيرة أو وضع أي خطة حربية، و قد كان طاقم العمليات التابع *للقيادة العليا للفيرماخت* نظرياً لتأدية تلك المهمة – في الواقع كان مجرد قائم بدور سكرتارية عسكرية، و علة وجودها الوحيدة تتمثل في ترجمة أفكار "هتلر" و تعليماته إلى مصطلحات ذات طابع عسكري.

و لكن الأسوأ لم يأتِ بعد، فتعيين "هتلر" للنرويج مسرحاً للعمليات لا سلطة *للقيادة العليا للجيوش الألمانية* فيه كانت فقط الخطوة الأولى في إرباك العمليات البرية، و في وقت لاحق تم نقل كل مسارح العمليات الأخرى تدريجياً *للقيادة العليا للفيرماخت*، و أخيراً ستبقى الجبهة الشرقية فقط بإعتبارها مسئولية *القيادة العليا للجيوش الألمانية* و حتى حينئذٍ كان "هتلر" فوق رأسها، و بالتالي تُرك لرئيس أركان الجيش تأثير ضئيل على مسارح الحرب الأخرى كالقائدين العامين للفرعين الآخرين من القوات المسلحة تماماً بشأن المسائل المتعلقة بالإستراتيجية الكبيرة، فلم يكن له أي قول بأي شكل بصدد التوزيع العام لقوات الجيش و غالباً ما جَهِل ما يتم إرساله للمسارح المتنوعة من قوات و مواد، و في هذه الظروف كان حتمياً حدوث إنهيار لدى طاقم العمليات التابع *للقيادة العليا للفيرماخت* و هيئة الأركان العامة للجيش، بل إنه محتمل أن يكون هتلر" قد خلق صدامات عمدية بغية أن يكون له القول الفصل في كل الأوقات، و بشكل طبيعي إن مثل هذا التنظيم المعيب للقيادة العليا العسكرية ساهم مساهمة حاسمة في إنهياره، و نتيجة أخرى متمخضة عن مبالغة "هتلر" في تقييم قوة إرادته و قدرته العسكرية تجسدت في

محاولته المرة تلو المرة التدخل في إدارة التشكيلات الثانوية بواسطة إصدار أوامر من طرفه.

و قد كانت دوماً سمة خاصة بالقيادة العسكرية الألمانية أنها تعتمد على قادتها من كل المستويات في إبراز المبادرة إلى تحمل المسئولية و القيام بكل ما في وسعها لتعزيز تلك المؤهلات و الرغبة في ذلك، و هذا هو سبب – من حيث المبدأ – تضمن "التوجيهات" الصادرة من قيادات عليا و الأوامر الصادرة من القادة من المستوى المتوسط و الأدنى دائماً ما يُسمى "تكليفات" للتشكيلات الثانوية، و كان تنفيذ تلك التكليفات تفصيلاً من إختصاص قادة التشكيلات الثانوية المعنية، و قد كان نظام تسليم الأوامر هذا سبباً كبيراً وراء النجاح الذي حققه الجيش الألماني على خصومه اللذين كانت أوامرهم تحكم عموماً تصرفات قادة التشكيلات الثانوية تفصيلاً، و فقط في حالة إنعدام أي بديل كان يقوم أي فرد من جانبنا بالتعدي على سلطة قيادة أي تشكيل ثانوي بإصدارأوامر خاصة بالتصرف المتعين عليها إتباعه.

و قد إعتقد "هتلر" – من جهة أخرى – أن بإمكانه رؤية الأشياء بصورة أفضل من خلف مكتبه مما يمكن لقادته على الجبهة، حيث أنه تجاهل حقيقة أن كثير مما ذُكر له على الخرائط التفصيلية المعروضة أمامه حول الموقف كان قطعاً قديماً و غير محدث، و أكثر من ذلك أنه لم يكن من المحتمل قادراً على تحديد التصرف الملائم و الضروري إتخاذه في المنطقة الخاصة به.

و قد إعتاد تدريجياً على التدخل في تصريف أمور مجموعات الجيوش و الجيوش و ما يدنوها من تشكيلات عبر إصدار أوامر خاصة ليس من إختصاصه إصدارها على الإطلاق، و في حين كنت بعيداً حتى اللحظة عن مثل هذا التدخل في نطاق قيادتي إلا أنني تم تحذيري مسبقاً منه بما أخبرني به الفيلد مارشال "فون كلوج" عندما إلتقيت به في محطة سكك حديدية في طريقي من "فيتيبسك" إلى "روستوف"، و قال لي في مجموعة الجيوش الوسطى أنه كان يتوجب عليه إستشارة "هتلر" قبل تنفيذ أي عملية تتضمن قوات قوامها كتيبة أو أكثر، و حتى لو لم أتعرض شخصياً لمثل هذا التدخل غير المتسامح معه فيما بعد إلا أنني خضت صدامات بما فيه الكفاية مع القيادة العليا نتيجة لتدخل "هتلر".

و على نقيض عاطفته الجارفة تجاه الأوامر الفردية – و التي لم تكن عادة سوى عوائق أمام طواقم القيادة و مؤذيات للعمليات – كان "هتلر" كارهاً لإصدار أي توجيهات عملياتية طويلة الأجل، و كلما زاد إهتمامه بمبدأ "التشبث بكل شيء مهما بلغت التكلفة" بوصفه ألفا و أوميجا[١] سياسته كلما صار أقل جهوزية لإصدار توجيهات طويلة الأجل تأخذ في حسبانها التطور المتوقع عادة للموقف الإستراتيجي، و كون الطرائق ستضعه حتماً في نهاية المطاف في وضع ليس في صالحه مقابلةً لعدوه كان أمراً رفض إستشراقه، فقد حال إنعدام ثقته في قادته دون منحهم – في صورة توجيهات طويلة الأجل – حرية التصرف و هو الأمر الذي لم يكن يحبذه "هتلر"،و مع ذلك فإن تأثير هذا كان إضمحلال أكثر بديهيات القيادة بداهةً، و على المدى البعيد لن تتمكن أي مجموعة جيوش من تسيير الأمور بدون أي توجيهات من القيادة العليا – و بالتأكيد عندما لا تشكل جزءً من جبهة ممتدة و تكون قادرة على الإستعانة بجيرانها على أي جناح، و غالباً ما فكّرنا غامرنا الحنين في أيامنا في شبه جزيرة القرم عندما كنا قادرين على خوض القتال في مسرح عمليات خاص بنا بأكمله.

و يتبقى أن أوضح – لأقصى ما يمكنني فعله بناء على خبرته الشخصية – السبيل الذي سلكته النزاعات الناشئة حتماً بين "هتلر" و قادة الجيش نتيجة لموقفه بصدد شئون القيادة العسكرية، فتصفه كثير من السجلات بأنه مستعر الغضب يكاد يعض السجاد بأسنانه، لكن بالرغم من أنه قد فقد في بعض المناسبات بلا شك سيطرته على نفسه إلا أن المرة الوحيدة التي رفع فيها صوته أو تصرف بوقاحة كانت في حضوري إبان ما دار بينه و بين "هالدر" و هو ما ذكرته بالفعل سلفاً.

و قطعاً أحس "هتلر" بالمدى الذي قد يبلغه في تحمله لمحاوره و الأشخاص الذين يأمل في إخافتهم بواسطة نوبات الغضب التي كان غالباً ما يحاكيها، و يتعين عليّ أن أقول أنه بالنسبة لإتصالاتي الشخصية به كان يحافظ على هدوء مظهره و التصرف بشكل طبيعي حتى عندما تتعارض وجهات نظرنا، و في المناسبة الوحيدة التي تصرف فيها بأسلوب شخصي كان الرد الحاسم الحاد متقبلاً في صمت.

و كانت لدى "هتلر" موهبة إتقان تكييف نفسه نفسياً مع الفرد الذي يبغي إقناعه بوجهة نظره، و علاوة على ذلك كان دائماً ما يعرف دافع أي شخص للقدوم لمقابلته مما أتاح له فرصة التهيؤ و تجهيز الحجج المضادة مسبقاً، إن ملكته بخصوص إلهام الآخرين

[١] ألفا و أوميجا: هما الحرفان الأول و الأخير من اللغة الإغريقية القديمة و يقصد هنا أن هذا المبدأ هو أساس سياسته بداية و نهاية.

بواثقة ثقته في ذاته كانت بارزة بشدة، و هذا ينطبق على وجه الخصوص على الضباط الذي لا يعرفونه عن قرب و يلتقون به لدى زيارته للجبهة، ففي هذه الحالات كان أي شخص يقول لـ"هتلر" الحقيقة حول ما يجري هناك يرجع متغيراً و مفعماً بالثقة.

و في النزاعات المتنوعة التي خضتها ضد "هتلر" بخصوص أي مسائل عملياتية داخلة في إختصاصي كقائد لمجموعة الجيوش كان أشد ما أثّر فيّ صلابته غير المعقولة في دفاعه عن وجهة نظره، و غالباً ما كانت هناك مجادلات ثابتة لبضع ساعات قبل أن يحقق زائره هدفه أو يرجع بخفيّ حنين – على الأقل تعزيه بعض الوعود الفارغة، و لم أعرف قط رجلاً مثله يظل ثابتاً بقوة في أي مناقشة، و بينما كان أقصى وقت تستغرقه أي منازعة مع قائد على خط الجبهة في أسوأ الحالات بضع ساعات كان رئيس الأركان الجنرال "زيتزلر" يخوض سجالات تدوم لأيام بهدف دفع "هتلر" لإتخاذ التصرف الضروري، و في كل مرة كانت تدور فيها إحدى تلك السجالات كنا نسأل الجنرال "زيتزلر" في أي جولة صار.

بجانب ما تقدم، لم تكن الحجج التي كان "هتلر" يدافع بها عن وجهة نظره – و أقصد هنا العسكرية البحتة – عادةً من النوع الذي يمكن التغاضي عنه، و بعد كل ذلك كان المرء في أي مناقشة بشأن النوايا العملياتية يتعامل دوماً مع مسألة من المستحيل مطلقاً لأي مرء التنبؤ بنتيجتها، فلا شيء مؤكد في الحرب حتى لدى تنفيذ كل ما يقال.

و في كل مرة تظاهر "هتلر" فيها بأنه لا يؤثر بآرائه على الإستراتيجية كان ينتج شيئاً ذا طابع إقتصادي أو سياسي، و حيث أنه محيط علماً بالموقف السياسي و الإقتصادي الذي لا يمكن لأي قائد على خط الجبهة الإحاطة فقد كانت حججه عامةً غير قابلة للتفنيد،و كملجأ أخير كان كل ما يمكن للمرء فعله هو الإصرار على أنه إن لم يوافق – أي "هتلر" – على المقترحات أو الطلبات المقدمة له فستسير الأمور في الإتجاه الخاطئ عسكرياً و هو ما سيكون له بدوره تداعيات أسوأ في الحقلين السياسي و الإقتصادي.

و من جهة مقابلة، غالباً ما كان "هتلر" يُظهر نفسه كمستمع منصت جداً لدى سؤاله عن شيء لا يحب السؤال عنه، و في تلك الحالات كان قادراً للغاية على خوض أي مناقشة موضوعية.

من الطبيعي أنه لا يمكن أن تنشأ أي علاقة مودة بين هذا الدكتاتور المتطرف – الذي كان يفكر فقط في طموحاته السياسية و عاش مؤمناً بـ"مهمته" – و القادة العسكريين، و

لم يكن العنصر الشخصي هاماً لدى "هتلر" على الإطلاق، فبالنسبة له إن البشر مجرد أدوات تعمل في خدمة طموحاته السياسية، و من جانبه لم ينبع أي رابط ولاء للجندي الألماني.

إن أوجه القصور الأكثر وضوحاً لدى القيادة العسكرية الألمانية – بعضها نشأت من شخصية "هتلر" و البعض الآخر من التنظيم المعيب للقيادة العليا المشروح سلفاً – أثارت طبعاً مسألة ما إن كان من الممكن إحداث تغيير، و أفضّل تجنيب الناحية السياسية هنا – كما فعلت في كل مقام آخر من هذا الكتاب.

و قد قمت بكا لا يقل عن ثلاث محاولات – للوصول لإدارة أكثر منطقية للعمليات – بهدف إقناع "هتلر" بقبول بعض التعديل في القيادة العليا، و قد كانت القيادة العسكرية العاملة معه – على حد علمي – غير مؤهلة بشكل صريح للغاية.

و كنت مدركاً تماماً لحقيقة أن "هتلر" لم يكن جاهزاً أبداً لأي تغيير في قيادته العليا رسمياً، فبوصفه دكتوراً لن يمكنه القيام بذلك بدون معاناة ما يُعتبر من طرفه خسارة غير مقبولة لمظهره، و في رأيي كان كل شيء يعتمد على إقناع "هتلر" بترك إدارة العمليات في كل المسارح لرئيس أركان واحد مسئول و تعيين قائد عام للجبهة الشرقية مع الإحتفاظ في نفس الوقت بموقعه كقائد أعلى شرفياً، و سنتعرض لهذه المحاولات المبذولة من طرفي – و التي كانت بلا طائل- لاحقاً عندما نصل للحديث عن أحداث العامين ١٩٤٣ و ١٩٤٤، و قد كانت تلك المحاولات مهمة خطرة بالنسبة لي حيث كان "هتلر" يعلم أنني أنا الشخص الوحيد الذي يراه كثيرون في الجيش ملائماً لمنصب رئيس الأركان أو قائد عام في الشرق.

لا أنتوي في هذا المقام الخوض في مسألة تغيير قيادة الرايخ بإستخدام وسائل عنيفة – كما حدث في ٢٠ يوليه ١٩٤٤ – برغم من أنني قد أفعل هذا يوماً ما، ففي نطاق هذه المذكرات الحربية يبدو كافياً أن أقول أنني كشخص مسئول عن مجموعة جيوش عاملة في الميدان لم أشعر بالحق في تدبير إنقلاب في وقت الحرب لأن ذلك من وجهة نظري سيقود لإنهيار فوري للجبهة و ربما لفوضى داخل ألمانيا، و بجانب ذلك كانت هناك دوماً مسألة القسم العسكري و مدى مقبولية القتل لدوافع سياسية.

و كما قلت في محاكمتي: **"لا يمكن لأي قائد كبير على مر العصور أن يتوقع جود جنوده بحيواتهم في سبيل النصر ثم يلقي بهم إلى الهزيمة بيديه"**

و على أية حال، كان واضحاً بالفعل بحلول ذلك الوقت أنه حتى الإنقلاب لن يحدث أي فرق مع الحلفاء المطالبين بالإستسلام غير المشروط، و لم نكن في رأيي وقت توليّ القيادة قد بلغنا النقطة التي يُعتبر فيها مثل هذا التصرف الحل الوحيد الممكن.

١٢

فاجعة "ستالينجراد"

"أيها الغريب! لأسبرطة قُلْ ،

هنا في سلام الموت ترقد فرقتها الوفية ،

تخليداً أبدياً لخدمتها لها"[١]

أبداً لن يتم حفر تلك الأسطر – و التي تتحدث عن بطولة المدافعين في معركة "ترموبيل" و المعتبرة للأبد أنشودة الشجاعة و الفداء و الطاعة ببسالة – على صخرة ما في "ستالينجراد" كتذكار على ما لاقاه الجيش السادس على نهر "فولجا"، و لن يتم تشييد أي رمز أو قبر لجندي مجهول على ما تبقى من آثار الجنود الألمان الذين عانوا الجوع و التجمد حتى قضوا نحبهم هناك.

و لكن ستظل ذكرى معاناتهم غير القابلة للوصف و بطولتهم منقطعة النظير و إخلاصهم و التضحية بذاتهم في سبيل الواجب حيةً لفترة طويلة عقب إنقشاع غمام صيحات النصر التي يطلقها العدو و ذهاب ألم الثكل و المرارة و خيبة الألم من القلب.

[١] من قصيدة للشاعر الإغريقي "سيمونيدس" يخلد فيها ذكرى الفرقة الأسبرطية بقيادة "ليونيداس" التي قاتلت الفرس بقيادة "أحشويرش الأول" في موقعة ترموبيل عام ٤٨٠ ق.م.

إن معركة "ستالينجراد" تُعامل بشكل غير مفهوم بواسطة السوفييت على أنها نقطة تحول الحرب، تماماً كالبريطانيون الذين يعطون وصفاً مماثلاً لمعركة بريطانيا، و الأمريكيون الذين يرجعون إحراز الحلفاء للنصر إلى دخولهم للصراع فقط.

و في ألمانيا أيضاً يشعر كثير من الناس بوجوب إعتبار "ستالينجراد" المعركة الحاسمة للحرب العالمية الثانية.

و في الحقيقة لا يمكن إعتبار أي من الحالات الفردية سالفة الذكر حدثاً حاسماً، فلقد تحددت نتيجة الحرب عبر عواملٍ متعددة ربما يكون أهمها هو الموقف اليائس السئ الذي وجدت ألمانيا نفسها في نهاية المطاف فيه في مواجهة أعدائها، و هو ما كان نتيجةً لسياسات "هتلر" و إستراتيجيته.

لقد كانت "ستالينجراد" بالتأكيد نقطة تحول من حيث أنها شهدت إنحسار موجة الهجوم الألماني على نهر "فولجا" عندها كإنحسار الأمواج بين المد و الجزر، و لكن رغم فداحة خسارة الجيش السادس إلا أن ذلك يظل لا يعني أن الحرب في الشرق – و بحكم الواقع الحرب برمتها – قد تمت خسارتها بشكل نهائي، و سيظل من المقنع إمكان فرض حالة من الجمود تسمح بخروج مشرف من الحرب لو أن قيادة ألمانيا السياسية و العسكرية تبنت حلاً يهدف إلى هذا.

الطريق إلى "ستالينجراد":

إن سبب تدمير الجيش السادس في "ستالينجراد" يكمن في رفض "هتلر" – و الراجع بلا شك لأسباب تتعلق بمظهره – التخلي عن المدينة طواعيةً.

و من الحقيقة أيضاً القول بأن إنتهاء الجيش السادس إلى هذا الموقف كان راجعاً إلى الأخطاء العملياتية المرتكبة سلفاً من القائد الأعلى في تخطيط و تنفيذ هجوم العام ١٩٤٢، و خصوصاً في مراحله النهائية.

سوف يتم التعامل مع المأزق الذي وجد فيه الجناح الجنوبي الألماني نفسه في أواخر خريف ١٩٤٢ بإعتباره نتيجة لكل الأخطاء المرتكبة في فصل مستقل عن حملة شتاء

١٩٤٢/٤٣، و كل ما سأفعله هنا هو عرض النقاط التي قادت الجيش السادس إلى مصيره.

و بفضل حقيقة أن تحديد "هتلر" لأهدافه الإستراتيجية كان منبنياً بشكل أساسي على إحتياجات إقتصاد الحرب فقد إنقسم الهجوم الألماني عام ١٩٤٢ إلى إتجاهين مختلفين: القوقاز و "ستالينجراد"، و في الوقت الذي توقف فيه الهجوم الألماني تبدت للعيان جبهة يتوجب التمسك بها في حين أن ألمانيا كانت تنقصها القوات الكافية لذلك، و مما زاد الطين بلة – فضلاً عن نفاد الإحتياطي الإستراتيجي – قيام القائد الأعلى بتشتيت الجيش الحادي عشر في كل إتجاه ممكن بمجرد أن صار حراً في شبه جزيرة القرم.

كانت مجموعة الجيوش "أ" – بجبهة تواجه الجنوب – تقع في شمال القوقاز بين البحر الأسود و بحر قزوين، في حين تولت مجموعة الجيوش "ب" جبهة تواجه الشرق و الشمال الشرقي بادئةً من نهر "فولجا" جنوب "ستالينجراد" و ترجع للوراء شمال المدينة لتلتقي بنهر "دون الأوسط" حيث تمتد بمحاذاته إلى نقطة ما شمال "فورونيز"[١]، و لم تكن أيتهما قوية كفاية للتمسك بجبهة تمتد بهذا الطول خاصة لو أخذ المرء في إعتباره أن الجناح الجنوبي للعدو و برغم خسائره الفادحة إلا أنه تفادى تدميره بشكل كامل و لم ينهزم تماماً بعد، و بجانب ذلك كان لدى العدو قدر هائل من الإحتياطات الإستراتيجية في قطاعاته الأخرى مثل المناطق النائية من الإتحاد السوفييتي، و أخيراً وليس آخراً فقد ظهرت بين مجموعتي الجيوش ثغرة إتساعها ١٩٠ ميل في سهوب "كالميك" يحرسها فرقة واحدة – ١٦ مشاة ميكانيكي – متموضعة في "ييلستا" بإمكانيات محدودة.

و قد شكلت محاولة التشبث بتلك الجبهة بالغة الإمتداد لأي مدة من الزمن أولى الأخطاء التي قادت الجيش السادس إلى لذلك الموقف اليائس في نهاية نوفمبر ١٩٤٢.

و أما الخطأ المصيري الثاني فكان إجبار "هتلر" لمجموعة الجيوش "ب" بتخصيص قوتها الضاربة – الجيش الرابع بانزر و الجيش السادس – للقتال داخل "ستالينجراد" و حولها، و تم ترك مهمة حماية الجناح الشمالي لتلك المجموعة على طول نهر "دون" للجيش الثالث الروماني و معه جيشان إيطالي و مجري، في حين تولى الجيش الألماني الثاني الضعيف تلك المهمة في قطاع "فورونيز"، و كان "هتلر" بالطبع على علم بأن

[١] فورونيز: مدينة تقع على نهر "فرورنيز" على بعد ١٢ كم من نهر "دون".

تلك الجيوش المتحالفة ليست قادرة على وقف أي هجوم قوي يشنه السوفييت، و هو ما ينطبق كذلك على الجيش الرابع الروماني المكلف بحماية الجناح الأيمن المكشوف للجيش الرابع بانزر.

إن محاولة السيطرة على نهر "فولجا" بالإستيلاء على "ستالينجراد" بخوض معركة فيها بعد تحقيق الهجوم الأولي نجاحاً جزئياً ستكون أمراً مقبولاً و لكن على المدى القصير، و لكن ترك الكتلة الرئيسية لمجموعة الجيوش "ب" في "ستالينجراد" لأسابيع بأجنحة غير محمية جيداً يعد خطأً فادحاً، فقد كان بمثابة قيامنا بإهداء العدو هدية تتمثل في إتاحة الفرصة له لتولي زمام المبادرة بتخلينا عنها على طول الجناح الجنوبي و كذلك بمثابة قيامنا بدعوة العدو لمحاصرة الجيش السادس.

و خطأ ثالث يتجسد في التسلسل الغريب للقيادة على الجناح الألماني الجنوبي.

فمجموعة الجيوش "أ" لم يكن لها قائد خاص و تولى "هتلر" بنفسه قيادتها و كأنها وظيفة جزئية الدوام.

و مجموعة الجيوش "ب" لم يكن لديها أقل من سبعة جيوش عاملة تحت قيادتها من ضمنها أربعة جيوش من دول حليفة، و لا توجد قيادة مجموعة جيوش قادرة على التعامل مع أكثر من خمسة جيوش بداءةً، و عندما يكون أغلبها من دول حليفة يصير ذلك الأمر حينها فوق طاقتها، و كانت قيادة مجموعة الجيوش "ب" حددت مقرها في "ستاروبيلسك" خلف الخط الدفاعي على نهر "دون" بهدف إبقاء عينها على الجيوش المتحالفة، و إختيار ذلك الموقع عنى أن القيادة تشعر بقلق بالغ إزاء الجناح الأيمن من قطاعها، و عامل آخر تجسد في تدخل "هتلر" الدائم في سير العمليات مما حرم قيادة مجموعة الجيوش من السيطرة على الجيش السادس بشكل كبير.

و صحيح أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية* أدركت تلك الأخطاء و أعدت خططاً لإنشاء مجموعة الجيوش الجديدة "دون" بقيادة المارشال "أنتونيسكو"، و لكن مع ذلك لم يتم إنشاء تلك القيادة الجديدة لأن "هتلر" تمنى رؤية "ستالينجراد" تسقط أولاً، و قد كان الإخفاق في توظيف المارشال الروماني خطأً فادحاً، و أقر أن قدرته القيادية لم يتم إختبارها بعد و لكنه كان بالطبع جندياً جيداً، و في كل الأحوال فقد كان حضوره مفيداً لصالح طلباتنا لأي قوات إضافية لحماية أجنحة جبهة "ستالينجراد"، فهو رئيس دولة و حليف إهتم به "هتلر" بشكل أكبر من قادة مجموعة الجيوش و قادة الجيوش الألمانية ،

و فوق كل ذلك ساهمت شخصية "أنتونيسكو" في شحذ قوى كل القادة الرومانيين و الذين كنّوا له كل إحترام بقدر لا يقل عن إحترام الروس له.

و كان واضحاً من أحد خطاباته – و الذي كان غامراً بالعاطفية – التي كتبها لي عقب تولي القيادة أن المارشال طالب في عدة مناسبات الإنتباه لخطورة الموقف العام و على الأخص بالنسبة للجيش الثالث الروماني، و لكونه لا يتولى أي قيادة على الجبهة فإن تعليقاته تلك إفتقرت للتحديد التي كانت ستتمتع به لو صدرت من رئيس الدولة بطريقة متزامنة بحيث تكون بمثابة إجابة لمتطلبات القطاع المهدد، و كان واضحاً أيضاً أن كلاً من مجموعة الجيوش "ب" و الجيش السادس لم يفشلا في التحذير من الهجوم الضخم الذي كان العدو يتأهب لشنه على جبهاتنا على جانبي "ستالينجراد".

و أخيراً يجب الإلتفات لحقيقة كان لها تداعيات خطيرة على موقف الجيش السادس و كامل الجناح الجنوبي، فقد تموضع كامل مجموعة الجيوش "أ" إضافة إلى الجيوش الرابع بانزر و السادس الألمانيين و الثالث و الرابع الرومانيين و الجيش الإيطالي على نقطة تقاطع واحدة على نهر "دنيبر" و هي جسر السكك الحديدية في "دنيبروبتروفسك"، فقد كانت أعمال إصلاح جسر السكك الحديدية في "زابوروزي" و الرابط الممتد عبر أوكرانيا ماراً بـ"نيكولاييف" و "خيرسون" إما قد توقفت أو لم تكتمل بعد، و كان الرابط بين الشمال و الجنوب الموجود خلف الخطوط الألمانية عاجزاً عن الوفاء بإحتياجاتنا، و لما تطلب الأمر جلب قوات جديدة أو تحريك القوات بسرعة بين الجبهات وجدت القيادة العليا نفسها في مأزق دائم أمام العدو الممتلك لخطوط مواصلات أكثر كفاءةً في كل إتجاه.

إن كل قائد عام يتوجب عليه – إن إبتغى النجاح – تحمل بعض المخاطر، و المخاطرة التي تقبلها القائد الأعلى في أواخر خريف ١٩٤٢ كان يجب ألا تتمثل أبداً في ربط القوة الضاربة لمجموعة الجيوش "ب" في "ستالينجراد" لفترة طويلة تُركت فيها جبهة نهر "دون" تحت حماية قوات ضعيفة و سهلة التدمير، و مما قد يُقال تأييداً لموقف القيادة العليا أنه كان من غير المتوقع إنهيار كافة الجيوش الحليفة، و لكن الرومانيين – و هم أفضل حلفاؤنا - قاتلوا بشكل جيد معنا في القرم، أما عن الوهم حول القدرة القتالية للإيطاليين فهو مما لا يُتقبل عذره أبداً.

و تمثلت المخاطرة التي تقبلتها القيادة الألمانية – عقب حملة الصيف الهجومية و التي أكسبتنا أراضٍ شاسعة دون أن تسفر عن نصرنا الحاسم أو هزيمة السوفييت النهائية على الجناح الجنوبي – في العودة إلى العمليات التي تعتمد على المركبات في المنطقة بين القوقاز و روافد نهر "دون" – مع الإستفادة من ميزة الثنية الضخمة للنهر – و ذلك بهدف الحيلولة دون تولي العدو زمام المبادرة، و لكن فكرة تقبل أهون الخطرين لم يكن لها محل في عقلية "هتلر"، فعقب فشله في إتخاذ القرار المناسب عقب فشل هجومه في تحقيق أي نتيجة مهمة نجده قد مهد الطريق أمام فاجعة "ستالينجراد".

تطورات الموقف حول "ستالينجراد" حتى منحى قيادة مجموعة الجيوش "دون" :

تضمن الأمر الصادر من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* إلى قيادة الجيش الحادي عشر في منطقة "فيتبسك" توليتنا قيادة الجيش الرابع بانزر و الجيشين الثالث و السادس الرومانيين تحت مسمى مجموعة الجيوش "دون" و ذلك بغرض تحقيق أفضل تنسيق بين الجيوش المشاركة في المعارك الدفاعية العنيفة غرب و جنوب "ستالينجراد"، و لما كنا لا نمتلك فرع للتموين و الإمداد فقد تم تزويدنا بفرع شُكل خصيصاً للمارشال "أنتونيسكو" يقوده العقيد"فينخ" – و هو من هيئة الأركان العامة و المشهور بموهبته الإستثنائية في تنظيم و نقل المؤن و الإمدادات و الذي تولى مهمة التغلب على كل مشاكل الإمداد التي واجهتها مجموعة الجيوش بإستمرار، و لسوء الحظ توقف جسر الإمداد الجوي إلى "ستالينجراد"، و عقب إستدعائي في أبريل١٩٤٤ تم نقل العقيد "فينخ" هيئة القيادة العامة في الغرب حيث قام – كما رُوي لي- بمهمة نقل الإمدادات بأقصى قدر ممكن في ظل سيطرة العدو التامة على السماوات، و قد تم إعدامه عقب ٢٠ يوليه ١٩٤٤ لمشاركته في المؤامرة على حياة "هتلر".

كانت مهمة مجموعة الجيوش "دون" – وفقاً لأوامر *القيادة العليا للجيوش الألمانية*– إحباط هجمات العدو و إعادة إحتلال المواقع التي إحتللناها سابقاً.

و كانت التعزيزات التي وُعدنا بها بداءةً فقط هي قيادات فيلق و فرقة كانت تتأهب للتحرك إلى "ميلروفو" خلف الجناح الأيمن المستقبلي لمجموعة الجيوش "ب".

و يمكن الإستدلال من صياغة مهمتنا و تفاهة الدعم الذي وُعدنا به على أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية* عند إصدارها ذلك الأمر كانت لا تزال غير مدركة لخطورة الموقف حول "ستالينجراد" خصوصاً و أن الحلقة كانت قد ضاقت كثيراً حول الجيش السادس ذلك اليوم.

و تواردت معلومات أكثر عندما كنت قادراً على التحدث مع الفيلد مارشال "فون كلوج" و رئيس الأركان العامل معه الجنرال "فولر" في محطة القطار في "فيتسبك"، و قد علمت أن العدو نجح في إختراق خطوط الجيش الثالث الروماني على نهر "دون" شمال غرب "ستالينجراد" بقوة كبيرة جداً إشتملت على قرابة جيشي دبابات سوفييتية إضافة لقدر كبير من الخيالة بما مجموعهما ٣٠ تشكيلاً، و حدث ذات الشيء مع الجيش الرابع الروماني – و الذي كان تحت قيادة الجيش الرابع بانزر - جنوب "ستالينجراد".

و قبل مغادرة "فيتبسك" أبرقت إلى رئيس هيئة الأركان العامة موضحاً أنه بالنظر إلى كبر حجم قوات العدو فإن مهمتنا في "ستالينجراد" لن تكون مجرد إسترداد نطاق محصن من الجبهة، و ما نحتاجه لإستعادة الموقف هو قوات تقارب في قوتها جيشاً بأكمله – و مع ذلك لا يجب إستخدام أياً منها في شن هجوم مضاد حتى تكتمل عملية نشرها.

و قد إتفق معي الجنرال "زيتلر" و وعدني بمحاولة السماح لنا بإمتلاك فرقة مدرعة و فرقتين أو ثلاثاً مشاة.

كما أرسلت طلباً كذلك لمجموعة الجيوش "ب" بوجوب إصدار تعليمات للجيش السادس بسحب قواته بلا هوادة من جبهاتها الدفاعية لكي يتم الإبقاء على خطوطها الخلفية مؤمنة على نهر "دون" في "كالاتش"، و سواء تم إرسال تلك التعليمات للجيش السادس أم لا هو أمر لم أتمكن من معرفته.

و لم نتمكن من الحصول على صورة واضحة للأحداث الأخيرة و الوضع الراهن من القائد الكولونيل جنرال "بارون فون فيتشس" و رئيس الأركان العامل معه الجنرال

"سودنستيرن" حتى وصولنا لمقر قيادة مجموعة الجيوش "ب" في "ستاروبيلسك" و ذلك يوم ٢٤ نوفمبر.

في الساعات المبكرة من يوم ١٩ نوفمبر و عقب تمهيد نيراني مدفعي كثيف نجح العدو في الخروج من رأس الكوبري على نهر "دون" خاصته في "كريمنسكايا" و عبور النهر غرباً لمهاجمة كلاً من الجناح الأيسر للجيش السادس – الفيلق الحادي عشر – و الجيش الثالث الروماني – قوامه الفيلقين الرابع و الخامس الرومانيين، و تزامناً مع ذلك شن هجوماً قوياً على الجيش الرابع بانزر – بقيادة الكولونيل جنرال "هوث" – جنوب "ستالينجراد" حيث يتداخل مع الجيش الرابع الروماني، و بينما تماسك الجناح الأيسر للجيش السادس تمكن العدو من إكتساح الرومانيين تماماً على كلا الجبهتين، و على الفور تم الدفع بقوات دبابات سوفييتية ضخمة عميقاً في كلٍ من هاتين النقطتين – تماماً كما تعلموا منا.

و في الساعات المبكرة من يوم ٢١ نوفمبر تلاقت القوات المهاجمة ببعضها على نهر "دون" في "كالاتش" حيث سقط الجسر الحيوي لإمدادات الجيش السادس في أيديهم سليماً، و في ضحى ذلك اليوم زاد إنغلاق الحلقة حول الجيش السادس و العناصر الألمانية و الرومانية من الجيش الرابع بانزر و التي تقلصت إلى جيب صغير من جنوب "ستالينجراد"، و قد تضمنت القوات المحاصرة خمس فيالق ألمانية بمجموع ٢٢ فرقة ، و فيلقين رومانيين، و حشود من مدفعيتنا التي لم تخدم على جبهة "لينينجراد" و أخيراً عدد كبير من وحدات المهندسين. و حتى فيما بعد لم تكن مجموعة الجيوش قادرة على الحصول على معلومات دقيقة حول عدد الجنود الألمان المحاصرين في ذلك الجيب، و قد ذكرت التقارير الواردة من الجيش السادس أن عددهم يتراوح بين ٢٠٠ ألف و ٢٧٠ ألف، و لكن تتوجب ملاحظة أن هذا الرقم يشتمل ليس فقط على القوات الرومانية و لكن عدة آلاف من المتطوعين من سكان المدينة الأصليين – أسميناهم "هيويس" – فضلاً عن أسرى الحرب، و رقم الـ ٣٠٠ ألف الشائع هو مجرد مبالغة بلا شك، كما قد إنتشرت بعض قوات مناطق الإتصالات خارج الجيب – بإعتبارهم ضمن قوات النقل – و عدد من الجرحى و كل من غادر تلك المنطقة على إختلاف رتبهم، و هذه العناصر المتبقية – و التي شكلت فيما بعد الكوادر التي أعادت تشكيل الجيش السادس – يتراوح عددها بين ١٥٠٠ و ٣٠٠٠ رجل لكل فرقة، و إذا أخذ المرء في

حسبانه أن قوى فرق الجيش السادس قد تدنت لحضيضها في نوفمبر فسيكون تقدير وجود ما بين ٢٠٠ ألف و ٢٢٠ ألف داخل الجيب صحيحاً إلى حدٍ ما.

و قد كان الموقف في ٢٤ نوفمبر على النحو التالي:

كانت التشكيلات الوحيدة المتاحة بحالة جيدة للجيش الرابع بانزر هي الفرقة ١٦ مشاة ميكانيكي على جناحه الجنوبي – الممتد على نطاق واسع في السهوب على جانبي "يبلستا" – و الفرقة ١٨ الرومانية على جناحه الشمالي، أما بقية القوات الرومانية فإما تقهقرت إلى "ستالينجراد" أو تم تدميرها، و قد حاول الجيش السادس جاهداً مستعيناً بما تبقى من القوات الرومانية التي أمكن جمعها و عدد من قوات مناطق الإتصالات التشبث بخط دفاعي طارئ أمام "كوتلنيكوفو" و تجنب أي هجوم من العدو لبعض الوقت، و أما عن الجيش الرابع الروماني فما تبقى منه تم وضعه تحت قيادة الكولونيل جنرال "هوث"، و بعد إنهيار القوات الرومانية تم نقل الفيلق الرابع – و الذي كان جزءاً من الجبهة جنوب "ستالينجراد" - إلى الجبهة جنوب و جنوب غرب "ستالينجراد" و صار تحت قيادة الجيش السادس.

تم حصار الجيش السادس – قوامه الفيالق ٤ و ٨ و ١١و ٥١ و الفيلق ١٤ بانزر – في "ستالينجراد"، و قد أخرج الفيلق الحادي عشر و عناصر من الفيلق الثامن من الجبهة المواجهة للشمال على جانبي نهر "دون" و وضعهماعلى الجبهة المشكلة حديثاً غرب الجيب و التي يصل طرفها الأقصى لنقطة ما شرق جسر "كالاتش"، و تم تشكيل جبهة جنوبية جديدة من إحتياط و العناصر التي تقهقرت إلى "ستالينجراد" من الجيش الرابع بانزر، و قد كان هذا الجيب بعرض ٣٠ ميلاً و يمتد مسافة ٢٥ ميلاً من الشمال إلى الجنوب.

تم إختراق كلا جناحي الجيش الثالث الروماني، و تشكل قلب الجيش من مجموعة قوامها ثلاث فرق بقيادة الجنرال "لاسكار" و الذي قاد مقاومة باسلة للعدو على نقيض ما كان عليه في "سفاستبول"، و لكن صارت تلك المجموعة محاصرةً و تم أسرها.

و قد شن الفيلق ٤٨ بانزر – و الذي كان ضمن الإحتياط خلف الجبهة المواجهة لرأس الكوبري الخاص بالعدو على نهر "دون" – ما بدا و كأنه هجوماً مضاداً فائتاً لأوانه، و هو ما إنتهى بالفشل فقد صارت فرقتاها الآن محاصرتين و تحت ضغط تنفيذ أمر يقضي بشق طريقهما نحو الغرب، و تمت إقالة قائد الفيلق الجنرال "هيم" بأوامر من

"هتلر" و نُقل إلى مقر قيادة هذا الأخير، و هناك أصدر "هتلر" حكماً بإعدامه بناء على محاكمة عسكرية ترأسها "جورينج" – و الذي كان جاهزاً دوماً لتنفيذ أي مهام من ذلك النوع – بعد إتهام الجنرال "هيم" بالمسئولية عن الفشل الذي تعرض له الفيلق، و لكن تم العفو عن "هيم" و رد إعتباره لاحقاً بعد التحقق من أن قواته كانت بالفعل أضعف من تنفيذ المهمة الموكلة إليها، و كان الفيلق ٤٨ بانزر يتشكل من فرقة المدرعات الرومانية المشكلة حديثاً – و التي لم تخض أي معركة حتى الآن – و الفرقة ٢٢ بانزر – و التي لم تكن على المستوى المطلوب من وجهة النظر الفنية.

و قد إمتلك الجيش الثالث الروماني ثلاثة فرق فقط من أجل الأغراض العملياتية، و ترجع تلك الفرق في الأساس إلى الفيلقين الأول و الثاني الرومانيين و اللذين لم يدخلا في المعركة و تموضعا بجانب القوات الإيطالية على نهر "دون".

وفي رأي مجموعة الجيوش "ب" كان لدى الجيش السادس مخزون ذخيرة يكفي ليومين و مؤن تكفي لستة أيام فقط، و هي بالقطع كميات ضئيلة جداً، و جلّ ما إستطاع جسر الإمداد الجوي تزويد الجيش السداس به – في الأوقات التي سمح الطقس فيها بذلك – هو عشر ما يحتاجه من الذخيرة و الوقود، و وُعد ذلك الجيش بإرسال مئة طائرة "يانكر" – حمولتها مجتمعةً ٢٠٠ طن بعد خصم الخسائر الحتمية – و يتبعها عدد آخر من الطائرات.

و قد أظهرت تقارير إستخباراتية أن العدو دفع بقرابة ٢٤ تشكيلاً – فرق و ألوية ميكانيكية و مدرعة – إلى الثغرة التي أحدثها في جبهة جنوب "ستالينجراد"، و قامت تلك القوات بالزحف شمالاً تجاه الجناح الجنوبي للجيش السادس و الذي كانوا يهاجمونه بضراوة.

كما دفع العدو بـ٢٤ تشكيلاً في النقطة التي إخترق عندها الجيش الثالث الروماني موجهاً إياها نحو "كالاتش" خلف الجيش السادس، و وردت تقارير تتحدث عن وجود ٢٣ تشكيلاً آخر في الغرب تتحرك إلى الجنوب و الجنوب الغربي في إتجاه نهر "تشير"، و إضافة إلى ما سبق كانت هناك القوات السوفييتية في "ستالينجراد" التي إحتفظت بتماسكها في مواجهة هجمات الجيش السادس و تم إرسال تعزيزات لها عبر نهر "فولجا"، فضلاً عن وجود حشود هائلة من القوات السوفييتية ما تزال تواجه الجبهة الشمالية للجيش السادس بين نهري "فولجا" و "دون"، و أخيراً لم يكن هناك شك حول

قيام العدو بجلب التعزيزات بإستمرار عبر السكك الحديدية، و حتى بحلول يوم ٢٨ نوفمبر تم الكشف عن وجود ١٤٣ تشكيل ضخم – فرق و ألوية مدرعات – في منطقة عمليات مجموعة الجيوش "دون" الجديدة.

و إشتملت القوات التي تشكلت منها مجموعة الجيوش "دون" تحت قيادتي على الآتي: فأولاً كان هناك الجيش السادس - و المحاصر في "ستالينجراد" بواسطة عدو يفوقه ثلاث مرات – و يتكون من عشرين فرقة ألمانية منهكة و فرقتين رومانيتين، و تدنت مستويات مخزونه من الذخيرة و الوقود و الغذاء بشكل خطير مع عدم وجود تدفق كافٍ من الإمدادات لبنائها مجدداً، و بجانب حقيقة كون الجيش السادس محاصراً إضافةً لعدم تمتعه بأي حرية ميدانية بأي شكل كانت فقد تسلم من "هتلر" أوامر قاطعة بعدم التخلي عن "حصن ستالينجراد"، و تأتي في المقام الثاني بقايا الجيش الرابع بانزر و الجيشين الرومانيين، و أفضل القوات التي كنا نمتلكها حينها هي فرقة ألمانية لم تُمس حتى الآن و هي الفرقة ١٦ مشاة ميكانيكي – و التي لم تتمكن من الإنسحاب من مواقعها الدفاعية في السهوب لأنها شكلت الغطاء الوحيد للخطوط الخلفية لمجموعة الجيوش "أ" – و معها أربع فرق رومانية حالتها سليمة و لكن تظل قيمتها في ميدان المعركة ضئيلة جداً مقارنة بالروس.

لقد كانت تبعية الجيش السادس لمجموعة الجيوش "دون" ضرباً من الخيال لأنها كانت خاضعة حتى اللحظة *للقيادة العامة للجيش* مباشرة، و "هتلر" هو الذي ربطه في "ستالينجراد" في الوقت الذي كان فيه ذلك الجيش قادراً على شق طريقه خروجاً منها، و هو الآن صار – من الناحية العملياتية – غيرمجدي، و صارت قيادة مجموعة الجيوش عاجزة عن قيادته و بالكاد إقتصرت على تقديم المساعدة له.

و بجانب ذلك كان "هتلر" مصراً على قيادته المباشرة للجيش السادس بواسطة ضابط إتصال من هيئة الأركان تم وضعه ضمن قسم الإشارة التابع لقيادة الجيش السادس، و حتى فيما يتعلق بالإمدادات كانت الكلمة الأخيرة بشأنها في يد "هتلر" نظراً لأنه الوحيد الذي يمتلك وسائل دعم الجيش جواً، و أشدد على أنني كنت محقاً في رفض ضم الجيش السادس لمجموعة الجيوش و الإصرار على بقائه تحت قيادة مباشرة من *القيادة العليا للجيش*، و لكنني لم أفعل ذلك خلال ذاك الوقت لأنني أملت في أن أكون في موقف أفضل من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* لضمان تحقيق التعاون المباشر بين القوات

المخصصة للإنقاذ و بين الجيش المحاصر، و أما عن سبب عدم تحقق ذلك التعاون في المرحلة الحاسمة فسنتعرض له لاحقاً.

و بجانب الجيش السادس – و الذي كان غير مجدٍ من الناحية العملياتية لكونه محاصراً – كان كل ما كانت مجموعة الجيوش "دون" تلك تنتظره مجرد بقايا.

و كان من المتصور أن تتسلم مجموعة الجيوش القوات الجديدة التالية و التي ستتموضع على النحو التالي:

القوات	من	إلى	الدور
قيادة الفيلق السابع و الخمسين. الفرقة ٢٣ بانزر. مدفعية الجيش القوية	الأخيرتين من مجموعة الجيوش "أ".	المدفعية إلى الجيش الرابع بانزر.	دور المدفعية تخفيف الضغط عن "ستالينجراد" من جهة الجنوب.
الفرقة السادسة بانزر.	الجبهة الغربية.		
قيادة فيلق واحد. أربع أو خمس فرق.		الجيش الثالث الروماني {الجناح الأيسر}	تخفيف الضغط عن "ستالينجراد" بواسطة التقدم شرقاً من نهر "تشير العلوي" بإعتبار مفرزة الجيش "هوليدت".

في مقر قيادة مجموعة الجيوش "ب" عُرضت عليّ رسالة أرسلها قائد الجيش السادس الجنرال " باولوس " عبر اللاسلكي إلى "هتلر" في – على ما أعتقد – ٢٢ أو ٢٣ نوفمبر، و قد تضمنت إعتباره و معه قادة الفيالق شق الجيش طريقه للخروج في إتجاه الجنوب الغربي أمراً حتمياً، و في سبيل تزويده بالقوات اللازمة لمثل تلك العملية فهو يحتاج إلى نقل تشكيلات بعينها داخل الجيش و سحب جبهته الشمالية للوراء في وقت قصير بهدف الإقتصاد في القوات، و أما عن وجهة نظر قيادة مجموعة الجيوش فتمثلت

في أنه حتى لو وافق "هتلر" على الفور على ذلك فسيظل من غير الممكن بدء أي عملية خروج قبل ٢٨ نوفمبر.

و مع ذلك رفض "هتلر" ذلك الطلب و حرّم أي تراجع أو إنسحاب على الجبهة الشمالية، و لجعل ذلك الأمر واضحاً فقد أسدى قيادة كامل الجبهة محل المشكلة إلى الجنرال "فون سيدلتز".

لم يكن طاقم قيادة مجموعة الجيوش "دون" ممتلكاً لا الوقت و لا الفرصة كي يُراجع تسلسل الأحداث التي تعرض لها الجيش السادس، و يتبدى بشكل واضح أن الجنرال " باولوس " قد قام بكل ما في وسعه – في حدود الأمر الصادر من "هتلر" بالتشبث بـ"ستالينجراد" – في سبيل سحب بعض القوات من الجبهات التي كانت غير مهددة في المراحل الأولى، و بسحب الفيلق الرابع التابع للجيش الرابع بانزر صار قادراً على تشكيل جبهة جديدة على جبهته الجنوبية المفتوحة، و الأدهى من ذلك أنه حاول الإبقاء على خطوطه الخلفية حرة عبر إرسال الفيلق ١٤ بانزر من الضفة الشرقية لنهر "دون" إلى ضفته الغربية، و لسوء حظ وجد ذلك الفيلق نفسه في مواجهة قوات سوفييتية تتفوق عليه غرب النهر، و في نفس الوقت تعرض الفيلق الحادي عشر – و الذي كان متمسكاً بمواقعه غرب نهر "دون" بجبهة تواجه الشمال – للهجوم من الخلف، و هذا الموقف قاد الجيش السادس لسحب كلا فيلقيه إلى الوراء إلى رأس كوبري غرب نهر "دون" و من ثم عبر النهر إلى الشرق بحيث يكون قادراً على تشكيل جبهة دائرية بين نهري "فولجا" و "دون".

على الرغم من أن تلك الإجراءات حالت دون وقوع الجيش السادس في هاوية الهزيمة التي إبتلعت جيرانه[١] إلا أنها قادت حتماً إلى تطويقه.

و من جهة أخرى يجب إيضاح أنه كان من مصلحة القائد الأعلى إصداره أي أمر يتيح للجيش السادس فرصة الحصول على مساحة من الحرية العملياتية بحيث يكون قادراً على تجنب الوقوع في أي حصار، و أي قائد بعيد النظر يستطيع من البداية إدراك أن حشد كامل القوات الألمانية المشاركة في الهجوم داخل "ستالينجراد" و حولها بدون حماية مناسبة لأجنحتها يضعها في خطر تعرضها للتطويق بمجرد نجاح العدو في إختراق الجبهات المحيطة بها، و عندما أطلق السوفييت هجومهم الضخم عبر نهر

[١] يقصد ما تعرضت له القوات الرومانية المحيطة بالجيش السادس من فناء مبكر على يد السوفييت.

"دون" و جنوب "ستالينجراد" في ١٩ نوفمبر كان القادة الألمان على علمٍ بما هو آتٍ، و منذ هذه اللحظة فصاعداً صار من غير المقبول أن يتم الإنتظار حتى يدحر العدو الرومانيين – حتى لو كانت جيوشهم لم يتم تشتيتها بسرعة – و سيظل من الضروري إستخدام الجيش السادس للقيام بدور متحرك بهدف السيطرة على الموقف على الجناح الجنوبي لمجموعة الجيوش "ب"، و أخيراً كان يتوجب على *القيادة العليا للجيوش الألمانية* بحلول مساء ١٩ نوفمبر أن تصدر أوامرها للجيش السادس بمنحه حرية المناورة.

و بدون الدخول في تفاصيل الأيام الأولى من الهجوم السوفييتي يملك المرء القول بأنه كان من الممكن الحيلولة دون تطويق الجيش السادس فقط لو حاول ذلك الأخير شق طريق الخروج في المراحل المبكرة إما بعبور نهر "دون" إلى الغرب أو بتوجيه ضرباته في إتجاه جنوبي غربي على طول الضفة الشرقية للنهر، و تقع مسئولية إصدار الأمر بذلك على القائد الأعلى، و بينما كان واجباً على الجنرال " باولوس " بالتأكيد إتخاذ قراره بالخروج من "ستالينجراد" فإنه بالكاد كان يمكنه فعل ذلك في ذلك الوقت المبكر الذي لم تكن خلاله *القيادة العليا للجيوش الألمانية* مطلعةً على الموقف في المناطق المتاخمة للجيش، و عندما طلب الجنرال الإذن له بشق طؤيق الخروج في ٢٢ أو ٢٣ نوفمبر كانت اللحظة الحاسمة لتنفيذ ذلك قد فاتت، و حقيقة كون عرض ذلك الطلب على "هتلر" خطأ من الناحية المعنوية في كل الحالات هي مسألة أخرى، و قد كان " باولوس " مطلعاً على رؤى "هتلر" للحرب في الشرق منذ شتاء ١٩٤١ عندما كان يعمل في *القيادة العليا للجيش*، و كان واعياً بأن "هتلر" ينسب لنفسه الفضل في إنقاذ الجيش الألماني من كارثة مماثلة لإنسحاب جيش "نابليون"[١] في ذلك الشتاء بإصداره أوامر التشبث بكل شبر على الأرض، كما أدرك " باولوس " أنه عقب إشارة "هتلر" في خطاب قصر الرياضة[٢] لـ"ستالينجراد" فإنه من المستحيل أن يتقبل الدكتاتور الجلاء من "ستالينجراد"، فقد صار إسم المدينة مرتبطاً بسمعته العسكرية.

لذا كان الحل الوحيد هو مواجهة "هتلر" بأمر واقع يتمثل في إنسحاب الجيش من "ستالينجراد".

[١] عانى الفرنسيون معاناة كبيرة أثناء انسحابهم من روسيا ١٨١٢ وذاقوا الأمرّين، إذ تعاون برد الشتاء الروسي القارس والمرض ومناوشات الأقنان على إفناء الجيش فلم يسلم منه إلا عدد قليل، فمن أصل ٤٠٠ ألف مقاتل تمكن ٤٠ ألف فقط من الخروج من روسيا.
[٢] هو خطاب في فبراير ١٩٤٣ .

من المعروف أن أي فعل من هذا القبيل قد يكلف " باولوس " رأسه، و لكن لا يجب أن يظن أي شخص أن هو ما منع " باولوس " من تولي زمام الأمور بنفسه و القيام بما يراه الصواب هو الخوف مما قد يتعرض له ، فقد كان ولاؤه لـ"هتلر" هو ما دفعه لمحاولة أن يكون خروج الجيش الألماني مصرحاً به خصوصاً و أنه كان على إتصال مباشر مع *القيادة العليا للجيوش الألمانية* بواسطة اللاسلكي، كما أنه – كما أوضحت بالفعل – بالكاد كان يمتلك صورة واضحة بشكل كافٍ عن الموقف العام، و قد تكون صعوبة إتخاذه القرار بمبادرة شخصية منه تزايدت نظراً لحقيقة أن أي خروج ستمثل خطراً أكبر على الجيش من التقنفذ في "ستالينجراد".

تقدير مجموعة الجيوش "دون" للموقف في ٢٤ نوفمبر:

في ذلك الوقت كانت قيادة مجموعة الجيوش "دون" عاجزة عن أن يكون لها يد في الأحداث عبر إصدارها أوامر من تلقاء نفسها، فهي لم تكون قادرة على تولي مسئولياتها حتى وصلْتُ إلى "نوفوتشيركاسك" – المكان الذي إخترناه كمقر لقيادتنا – و معي طاقم عمليات شبه مكتمل و تم إنشاء قنوات الإتصال الضرورية، و لكن الأمور لن تسير هكذا خلال الأيام القادمة لسبب واحد و هو أن طائراتنا عجزت عن الطيران و ظلت على الأرض بفعل العواصف الثلجية العنيفة التي غطت القطاع الأوسط ، لذا إضطررنا لمتابعة الرحلة بواسطة القطار.

و على الرغم من ذلك – بإعتباري القائد المستقبلي لمجموعة الجيوش – كان علي أن أركز تفكيري على شيء واحد بناء على تقارير الموقف التي وردتنا في ٢٤ نوفمبر، هل يتوجب على الجيش السادس – إن أمكن ذلك – أن يقوم بمحاولة خروج الآن؟ أم أنه سيكون من السيئ – بالنظر لضياع فرصة الخروج الأولى بلا شك – أن ينتظر وصول قوة تخفف الضغط عنه؟

و بعد دراسة متأنية و بموافقة تامة من رئيس الأركان الجنرال "شولز" ورئيس فرع العمليات العقيد "بوس" توصلت إلى النتيجة التالية:

سيبذل العدو في المقام الأول كل ما في وسعه لتدمير الجيش السادس المحاصر، و في نفس الوقت يجب أن نضع في إعتبارنا إحتمالية قيامه بمحاولة إستغلال إنهيار الجيش الثالث الروماني بدفع قوات ميكانيكية عبر الثنية الكبيرة لنهر "دون" تجاه "روستوف" حيث تكون أمامه فرصة قطع الإتصالات ليس فقط عن الجيش السادس و الجيش الرابع بانزر و لكن عن كامل مجموعة الجيوش "أ" كذلك، و ستسمح القوات التي بحوزة العدو – و التي يمكنه تعزيزها بواسطة الطرق أو السكك الحديدية – بالسعي لتحقيق الهدفين في وقت واحد.

و قد إستنتجت أيضاً أن أكثر الأهداف أولوية أمام مجموعة الجيوش يجب أن يتمثل في تحرير الجيش السادس، فمن جهة كان مصير ٢٠٠ ألف جندي ألماني على المحك، و من جهة أخرى إن لم يتم الحفاظ على الجيش بما يضمن تحريره في نهاية المطاف فلن يكون هناك بلا شك أي أمل في إستعادة الموقف على الجناح الأيمن للجبهة الشرقية، و كان هناك شيء واحد على قدر عالٍ من الوضوح و هو أنه حتى لو كنا قادرين على رفع الحصار و إعادة الإتصالات مع الجيش السادس فلا يجب أن نتركه في "ستالينجراد" بعد ذلك، فالقيمة المظهرية للمدينة لم تعد موجودة، و على النقيض إن أردنا النجاح في إخراج الجيش السادس منها فسيكون من الضروري بشكل عاجل تقديم أقصى مساعدة ممكنة في سبيل إستعادة الإستقرار على الجناح الجنوبي بما يضمن مرور الشتاء علينا بأمان.

و السؤال الذي يطرح نفسه بشكل عاجل هو هل يتوجب على الجيش السادس – الذي فقد فرصته الحقيقية في الخروج – محاولة القيام بذلك في تلك اللحظة تحديداً؟ و نظراً لمضي يومين على الطلب الذي أرسله "باولوس" إلى "هتلر" فلن يمكن البدء في محاولة الخروج – وفقاً لمجموعة الجيوش "ب" – قبل ٢٩ أو ٣٠ نوفمبر، ففي ذلك التاريخ سيكون العدو في حاجة لأكثر من أسبوع لإحكام قبضته على الجيب.

و سيكون أمام الجيش السادس طريقان فقط للخروج، و على كليهما سيكون العدو متأهباً، أحدهما هو شق طريقه في إتجاه نقطة تقاطع نهر "دون" في "كالاتش"، و لكن حتى لو عمد الجيش إلى التخلص من الحلقة المحيطة به في هذا الإتجاه فسيظل أمامه نهر "دون" معترضاً طريقه، و برغم إستهلاك معظم الذخيرة في الإقتحام الأصلي إلا أن الجيش سيكون عليه الآن القيام بعبور النهر في مواجهة قوات معادية قوية تتقدم غرب النهر في إتجاه نهر "تشير السفلي" لمنازلة عدوٍ أضعف منها، لذا يبدو جلياً أن

نجاح العبور – في ظل نقص الذخيرة و ضغط العدو المتقدم من جهات الشمال و الشرق و الجنوب – أمراً مشكوكاً فيه.

قد تكون الظروف مواتية للجيش السادس بشكل أفضل لو حاول تنفيذ عملية إختراق نحو بقايا الجيش الرابع بانزر بالتحرك في إتجاه جنوبي غربي شرق نهر "دون" – على الرغم من أن العدو سيكون متأهباً هنا أيضاً، و قد يكمن الإعتراض في هذه الحالة في عدم إمكان إعتماد الجيش على وجود أي قوات ألمانية ليلتحق بها على فرض نجاح عملية الإختراق، و سيجد نفسه مواجهاً للجيوش السوفييتية المحيطة بجبهاته الشمالية و الشرقية و الغربية حول "ستالينجراد" بينما يكون العدو غرب النهر قادراً على ملاحقته جنوباً و إحباط كافة محاولاته للعبور نحو الغرب، و أكثر الإحتمالات هو أن الجيش عاجلاً أو آجلاً لن يجد أي خيار أمامه سوى التوقف و القتال في السهوب دون إمدادات كافية من الذخيرة و الوقود أو الغذاء، و قد تهرب بعض العناصر مثل وحدات الدبابات و لكن مصير الجيش بأكمله قد حُسم، حيث إن القوات السوفييتية التي تشتبك معها ستتحرر و هو ما يقود بدوره إلى تدمير كامل الجناح الجنوبي للجيوش الألمانية – بما فيها مجموعة الجيوش "أ" التي ما تزال في القوقاز.

و في سبيل كلٍ من الجيش السادس و الموقف على الجناح الجنوبي بشكل عام توجب أن يكون هدفنا هو إخراج الجيش السادس من الجيب سليماً و بكفاءة قتالية عالية، و كان من الممكن تحقيق ذلك لو أن القيادة العليا قامت بمنحه الحرية العملياتية بمجرد ظهور خطر تطويقه، أما الآن فمن الواضح أن الأوان قد فات على الجيش السادس ليتحرر و يبقى ملائماً لتنفيذ أي عمليات بدون مساعدة إستثنائية من أي قوات تعزيزية لها.

و من جهة أخرى من الممكن إفتراض أنه بمجرد إنطلاق مجموعتي قوات الإنقاذ سيكون موقف الجيش السادس أفضل من الناحية العملياتية حتى و إن لم يكن كذلك بالنسبة للإختراق الأولي، فما إن تشتبك قوات العدو المتقدمة غرب نهر "دون" مع قوات أخرى فسيتمكن الجيش السادس من تجنب منازلة العدو في تلك اللحظة، و لو قامت مجموعة إنقاذ أخرى بمهاجمة قوات العدو المحاصرة للجيش السادس من الخلف شرق نهر "دون" في نفس الوقت الذي يبدأ فيه الجيش السادس بالتحرك فسيضطر العدو للتخفيف من حصاره و بهذا يتم تسهيل عملية خروج الجيش المحاصَر.

(رغم أن مجموعة الإنقاذ "هوليدت" لم تقم بهذا الدور أبداً بل إنها قامت في الواقع بربط القوات السوفييتية العاملة غرب نهر "دون"، و من جهة أخرى فقد أجبر تقدم الجيش الرابع بانزر العدو على إضعاف جبهته حول "ستالينجراد" بشكل ملحوظ....الكاتب)

و في نفس الوقت كان يتعين مواجهة حقيقة أن أي تأخير سيكون خطراً لأنه سيمنح العدو الوقت لترميم جبهة الحصار، و مثل هذا الخطر كان يمكن التغلب عليه لو قامت القيادة العليا بضمان تدفق الإمدادات على الجيش السادس جواً بالقدر اللازم لتحريره.

و مثل ذلك إفتراض عدم اللجوء للآن إلى الحل اليائس المتمثل في قيام الجيش السادس بشق طريق الخروج منفرداً دون إنتظار الفرصة الملائمة، و هذه الفرصة ستحين بمجرد قدوم قوات مجموعات الإنقاذ.

و في ضوء ما سبق أبلغت رئيس أركان الجيش السادس عبر الهاتف بأن وجة نظر مجموعة الجيوش تتمثل في الآتي:

إن أي خروج يقوم به الجيش السادس إلى الجنوب الغربي هو أمر ممكن حتى في تلك اللحظة، و ترك الجيش في "ستالينجراد" لفترة أطول سيكون خطراً كبيراً عليه بالنظر إلى نقص الذخيرة و الوقود.

و على الرغم من ذلك فمن المفضل – نظراً لإعتبارنا أن أفضل فرصة لخروج الجيش بشكل منفرد قد فاتت بالفعل – من وجهة النظر العملياتية في الوقت الحاضر إنتظار وصول مجموعات الإنقاذ لمساعدة ذلك الجيش – مع إفتراض إستمرار الدعم الجوي بقدر مناسب، و هذا العامل الأخير تحديداً حاسم.

يمكن إطلاق عملية الإنقاذ بواسطة قوات ستصل في بداية ديسمبر، و لتحقيق الأثر المطلوب ستتطلب العملية تدفق أكثر للتعزيزات نظراً لقيام العدو بحشد قوات ضخمة على جانبه.

و قد يظل أي خروج منفرد ينفذه الجيش السادس ضرورياً لو حال ضغط قوات العدو القوي عليه دون قيامنا بنشر قوات جديدة.

ويكمن أحد المتطلبات الحتمية لتقبل المخاطرة الكامنة في عدم تنفيذ أي عملية خروج فوري من "ستالينجراد" في وجوب تسلم الجيش السادس ٤٠٠ طن إمدادات يومياً جواً.

(٤٠٠ طن من الإمدادات يومياً هو الحد الأدنى لما تحتاجه مركبات الجيش من وقود و ما تحتاجه المدرعات و المشاة من ذخيرة، و مع نفاد مخزون الجيش السادس إرتفع عذا الرقم إلى ٥٥٠ طن .....الكاتب)

و قد أوضحت بجلاء في تلك المحادثة أنه إن لم يتم ضمان إيصال الإمدادات فلا يمكن للمرء تقبل المخاطرة و ترك الجيش السادس على حاله لفترة أطول – و لو كان ذلك بشكل مؤقت.

أي شخص شهد فاجعة "ستالينجراد" – الناجمة عن إصرار "هتلر" العنيد على التمسك بالمدينة و إخفاق *القيادة العليا للجيوش الألمانية* المتعمد في إستغلال آخر فرصة سنحت لها (و هو ما سنتحدث عنه في وقت لاحق) إضافة إلى التأخر في تجهيز مجموعة الإنقاذ التابعة للجيش الرابع بانزر و نجاح السوفييت في إختراق الجبهة الإيطالية و الذي جعل المفرزة "هوليدت" عاجزة عن القيام بأي شيء لإنقاذ "ستالينجراد" – سيخلص إلى أنه كان من الأفضل الإصرار على قيام الجيش السادس بشق طريق الخروج فوراً.

و من المنصف إفتراض أن بعض عناصر التشكيلات المحاصرة – على أقل تقدير – قد سعت إلى شق طريقها بالقتال للخروج إلى بقايا الجيش الرابع بانزر – تتمثل في بعض وحدات الدبابات و بعض كتائب المشاة.

و من جهة أخرى من غير الممكن أن يبقى الجيش قادر على تنفيذ عملياته بإعتباره مجرد تشكيل، لقد تم التعامل مع مستجدات الأمور بتشاؤم كبير بحلول أقرب تاريخ يمكن فيه تنفيذ محاولة الخروج.

و لكن في نفس وقت وصول العناصر الناجية من الجيش السادس و إنضمامها للجيش الرابع بانزر ستكون كافة قوات العدو المشاركة في الحصار قد تحررت، و بذلك سيُحسم مصير كامل الجناح الجنوبي للقوات الألمانية في الشرق بما فيها مجموعة الجيوش "أ".

و أشدد على الرغم من ذلك على أن ذلك الإعتبار الأخير لم يلعب أي دور مطلقاً في تقديرنا للموقف في ٢٤ نوفمبر، و بعيداً عن الرغبة في التضحية بالجيش السادس في سبيل الحفاظ على الجناح الجنوبي فقد تمنينا أن تسنح له فرصة أفضل للخروج بالعمل

بشكل تعاوني مع مجموعتي الإنقاذ مما لو حاول الخروج بشكل منفرد في هذه المرحلة الأخيرة.

و قد كنت و معي طاقمي مدفوعاً بواسطة الأمل في إنتشال جيش كامل ما يزال لائقاً للقيام بعمليات أخرى و ليس مجرد حطام عسكري، و لا حاجة للقول بأن إسم "ستالينجراد" و العامل المظهري لم يكن له أي أثر في حساباتنا تماماً.

و في ذلك اليوم مُنعنا من تقديم طلب أخير لـ"هتلر" بالسماح بخروج الجيش السادس أو أن نأمره بذلك على مسئوليتنا الكاملة، و قد يضيف المرء هنا أن الجنرال "باولوس" – و الذي يواجه معضلة التردد بين إطاعة "هتلر" أو إطاعة قيادة مجموعة الجيوش التي ينتمي إليها – كان بالكاد قادراً على إختيار الأخيرة.

بالنسبة للبقية كان من الواضح لنا بجلاء أنه حتى لو كانت مجموعات الإنقاذ قادرة على الوصول للجيش السادس فإن ذلك الأخير لا يمكن تركه في "ستالينجراد" بعد ذلك، و الشيء الوحيد الذي يجب ضمانه هو مدى إستعادة الجيش السادس لقواه القتالية في تلك الثناء، و كان محبذاً بشدة تحقيق ذلك في "ستالينجراد" – بشرط إستمرار تدفق الدعم الجوي – أكثر من أن يتم الإيقاع به في السهوب أثناء محاولته الهروب.

و مع ذلك كان المعيار الذي يحدد على أساسه سواء يمكن إنقاذ الجيش السادس مزدوج الجانب.

فأولاً هل اللوفتافا كفيلة بسد إحتياجات الجيش السادس الحيوية؟ و ثانياً هل سيرسل القائد الأعلى قوات إنقاذ – و إن تم ذلك هل ستكون تلك القوات جاهزة للقيام بذلك العمل؟

كلا السؤالين تم التعبير عنهما صراحة في رسالتنا الموجهة إلى *القيادة العليا للجيش*، و "هتلر" فقط – و هو القائد العام للفيرماخت و الذي يسيطر على كافة قوات الجيش و اللوفتافا على كافة مسارح الحرب – هو من كان قادراً على تقييم إمكانيات القيام بذلك و من ثم إصدار القرار المناسب ، فإذا كان القرار إيجابياً فسيكون من المبرر لنا قيامنا بإتخاذ الإجراء اليائس المتمثل في تنفيذ عملية خروج منفرد و ترك الجيش السادس في "ستالينجراد".

و لو كان "هتلر" مع ذلك غير راغب في إشراك كل رجل متاح في عملية إنقاذ "ستالينجراد" بينما ما يزال الوقت يسمح بذلك، أو لو كان – على نقيض تقديره الأفضل

للأمور - قد إنغمس في أوهامه حول قدرات اللوفتافا فإنه سيكون متهماً بإنعدام المسئولية الجسيم، و المثل يُقال بالنسبة لأولئك الذين – كما تبدى فيما بعد – دعموا و قووا في ذهنه مثل تلك المعتقدات أو الذين لم يفهموا أن مصير الجيش السادس يجب أن يكون مقدماً على سائر متطلبات كافة مسارح العمليات الأخرى.

و لم يكن أي جندي قادراً على توقع إبرام هذا الـ"جورينج" وعوداً عبثية حول جسر الإمدادات الجوي دون تكليف نفسه عناء تقديم ما هو متاح لديه بالفعل على الأقل.

و نحن لم نتمكن من توقع المدى الذي بلغه "هتلر" في تجاهل كل الإعتبارات الواقعية لصالح نظريته "تماسكوا أو موتوا"، و من أصلاً يمكنه أن يفترض تقبله – أي "هتلر" – خسارة جيش بأكمله في سبيل مجرد إسم "ستالينجراد"؟

الإنطباعات و القرارات الأولى:

في عصر يوم ٢٤ نوفمبر واصلنا رحلتنا من "ستاروبيلسك" إلى "نوفوتشركاسك"، و كنت قد سافرت على ذات الخط منذ عشر سنوات لحضور مناورات الجيش الأحمر في القوقاز، و في تلك المناسبة القديمة تولدت لدي كافة أنواع الإنطباعات الممتعة، أما اليوم فأنا اليوم متوجه في مهمة لا تحتمل أي أوهام برفقة طاقم القيادة العامل معي، و مرة بعد الأخرى طارت خواطرنا إلى رفقائنا المحاصرين في "ستالينجراد" برغم الجهود المبذولة بواسطة الملازم "ستاهلبرج" للتسرية عنا من خلال موسيقى جرامافون و الحديث حول مشاكل أخرى.

و كان هذا الملازم قد إنضم لطاقمنا عقب وفاة "بيبو" و قدمه لي إبن عمه زميلي القديم "تريسكو"، و قد ظل "ستاهلبرج" رفيقي الدائم حتى وضعت الحرب أوزارها، و قد كان خلال تلك السنين مساعداً وفياً لي في كل شيءوني الشخصية.

في صباح ٢٦ نوفمبر قطعت رحلتي إلى "روستوف" لرؤية الجنرال "هوف" –رئيس البعثة العسكرية الألمانية إلى رومانيا – و الذي تم تعيينه بالأساس في منصب رئيس هيئة الأركان الألماني لمجموعة الجيوش التي يقودها "أنتونيسكو"، و قد رسم لي

صورة مزعجة عن حالة الجيشين الرومانيين المتواجدين على جبهة "ستالينجراد"، فمن أصل ٢٢ فرقة – كما أخبرني – تم إفناء تسع منها تماماً و هربت مثلهن و لم يكن ممكناً إرسالهن للقتال في ذلك الوقت، بينما تتبقى أربع لائقات للقتال، و قد أمل في تمكنه من تجهيز تشكيلات جديدة إضافية من حطام سابقاتها إن تم منحه الوقت اللازم لذلك.

و نقيض ما قاله لي "هوف" أورده المارشال "أنتونيسكو" في خطاب لي، و كانت لديه ما يضايقه من القائد الأعلى ليخبرني به، حيث إتهمه "أنتونيسكو" بعدم منح الإهتمام الكافي بتحذيراته المتكررة حول الخطر الداهم في رأس كوبري "كريمنسكايا" المواجه لجبهة الجيش الثالث الروماني، كما إشتكى من الطريقة التي تم بها تأجيل توليه القيادة.

و قد أوضح المارشال – مبرراً لكل ما يقول – أنه من بين كل حلفاء ألمانيا فإنه و رومانيا قدّما أفضل ما عندهما في سبيل القضية المشتركة، و بموافقة منه تمت إتاحة ٢٢ فرقة لحملة ١٩٤٢ وضعها - بعكس إيطاليا و المجر – دون تحفظ تحت إمرة القيادة الألمانية برغم عدم وجود أي إلتزام ذي طابع تعاقدي عليه تجاه الرايخ.

لقد تضمن خطابه خيبة أمل مبررة لجندي رأى قواته تضيع أمام نواظره بسبب أخطاء آخرين.

لا يمكنني من أعماق وجداني المنازعة حول إنصاف النقد الصادر من المارشال، و كتبت له لأخبره بأنني – بإعتباري لم أشارك مسبقاً في الأحداث محل الكلام – غير قادر على التعليق على نقده اللاذع بنفسي فقمت بتمرير خطابه إلى "هتلر" و الذي أعرف أنه موجه بالأصل إليه، و بالتأكيد لن يضير "هتلر" شيء لو قام بقراءة مثل هذا النقد الصريح الصادر من أوفى حلفائه، و بجانب ما سبق تضمن الخطاب مسألة سياسية و هي تتعلق بالثقة الواجبة بين الحلفاء، فقد ذكر "أنتونيسكو" أن عدوه اللدود قائد الحرس الحديدي تم إبعاده عن متناول يده بواسطة "هيملر" و هو الآن متحفظ عليه داخل ألمانيا إلى حين الحاجة إليه، و هذا الحرس الحديدي - و هو منظمة سياسية راديكالية – دبر إنقلاباً من قبل ضد نظام "أنتونيسكو" و نجح في بداية الأمر في محاصرة مقر إقامة المارشال الرسمي.

و رغم أن المارشال تمكن في نهاية المطاف من قمع الإنقلاب إلا أن قائد الحرس الحديدي نجح في الهرب للخارج، و مما يمكن تفهمه إعتبار المارشال أنه يعامل بطريقة

تخلو من أي ولاء عندما يقوم "هيملر" بحماية مثل هذا الرجل، و مثل هذه التكتيكات المخادعة تفت من عضد أي تحالف.

و كان السبب الرئيسي الذي دفع "أنتونيسكو" إلى الكتابة إلى هو الشكوى من قيام الضباط و الجنود الألمان – على المستوى الرسمي و غير الرسمي – بالتعامل بشكل سيئ مع الجنود الرومانيين و نشر الإفتراءات عنهم، و رغم أن تلك الحوادث كانت طارئة حديثاً على القوات إضافة إلى سكوت الوحدات الرومانية و عدم القيام بأي فعل يدل على إمتعاض أو ضيق إلا أنني تصرفت بشأنها على الفور، و مهما بلغ الإحساس بالشفقة تجاه الغضب العارم الذي تشعر به القوات الألمانية بسبب تخلي وحدات جيرانها عنها إلا أن أي حوادث من هذا القبيل ستؤدي فقط لتدمير قضيتنا المشتركة.

و قد عرضت بالفعل ما يمكن وما لا يمكن توقعه من جانب القوات الرومانية في مواقف متنوعة، و لكنهم ما يزالون أفضل حلفائنا الذين قاتلوا ببسالة في أماكن متعددة.

في ٢٦ نوفمبر وصلنا إلى مقر قيادتنا الجديد في"نوفوتشيركاسك"، و كان الحرس المتاح لنا يتمثل في وحدة من المتطوعين القوزاق[١] - و الذين إعتبروا قيامهم بذلك شرفاً خاصاً، و لما صارت قنوات إتصالاتنا جاهزة في الليلة التالية صرنا قادرين على تولي قيادة مجموعة الجيوش "دون" في صباح ٢٧ نوفمبر.

و كانت المهمة الملقاة على عاتقنا مزدوجة، و الهدف الأساسي لها – و الذي يعتمد عليه كل شيء - هو إنقاذ الجيش السادس في "ستالينجراد"، و بجانب كون ذلك واجباً إنسانياً فهو كان أيضاً حيوياً من وجهة النظر العملياتية بسبب عدم إمكانية وجود أي أمل في إستعادة الموقف على الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية – أو مسرح العمليات الشرقي بأكمله – ما لم تُصان قوات الجيش السادس.

أما الجانب الثاني من المهمة – و هو ما يتوجب عدم إغفاله – فكان الخطر الداهم المتمثل في إحتمالية تعرض كامل الجناح الجنوبي للجيوش الألمانية للدمار، و لو سُمح بحدوث ذلك فستكون هذه نهاية الصراع في الشرق و من ثم تكون خسارة الحرب، لو نجح الروس في إختراق تلك المنطقة الهشة مع تنحية ما يُعرف بـ"حصن ستالينجراد" جانباً – و المكونة في تلك اللحظة بشكل أساسي من بقايا القوات الرومانية و قوافل

---

[١] القوزاق : هم جموعة أثنية للسلافيين الشرقيين الذين يقطنون بجملتهم السهوب الجنوبية في شرق أوروبا وروسيا وكازاخستان وسيبيريا

الإمدادات الألمانية و وحدات الطوارئ - و التي تشكل الحماية الوحيدة لكل المنطقة العملياتية بين مؤخرة مجموعة العمليات "أ" و جبهة نهر "دون" فلن يقتصر الأمر على مجرد جعل وضع الجيش السادس مفقود الأمل منه بل سيصير الموقف أكثر حرجاً بالنسبة لمجموعة الجيوش "أ" كذلك.

(وحدات الطوارئ هي وحدات مخصصة الغرض تشكلت من وحدات غير قتالية و طواقم قيادة و قوات من اللوفتافا و الأفراد من الجيش الذين كانوا عائدين إلى وحداتهم الأساسية من الإجازات المرضية، و قد إفتقرت تلك الوحدات للتماسك و الضباط و الأسلحة الملائمة – خصوصاً الأسلحة المضادة للدبابات و المدفعية – و معظمها لديه – أو ليست لديه على الإطلاق – أدنى خبرة قتالية أو تدريبية حقيقية، و كانت قيمتها القتالية ضئيلة جداً، و على الرغم من ذلك فبعد تلاحمها معاً لفترة في أرض المعركة نجدها غالباً ما تقاتل بشكل جيد......الكاتب)

و يرجع الفضل في نجاحنا على الإطلاق في تلك الأيام الحرجة أواخر نوفمبر في تقوية المناطق الدفاعية المحيطة و التي – بواسطة تغطية الثغرات الواسعة بين الجيش السادس ومجموعتي الجيوش "أ" و "دون" - حالت دون قيام الروس بإستغلال ذلك الموقف إلى قائد الجيش الرابع بانزر الكولونيل جنرال "هوث" و رئيس أركان الجيش الثالث الروماني العقيد "وينك"، فلو تمكن العدو في تلك اللحظة من التقدم بحركة سريعة إلى نهر "دون السفلي" في "روستوف" – حيث كان قوياً كفايةً للقيام بذلك – كانت ستصبح خسارة الجيش السادس و مجموعة الجيوش "أ" واقعاً لا مفر منه.

و لكن برغم أن ذلك التهديد الخطير للجناح الجنوبي ظل قائماً بإستمرار إلا أن مجموعة الجيوش لم تسمح بتحويل فرداً واحداً أو طلقة واحدة عن المهمة الأساسية المخصصين لها و هي إنقاذ الجيش السادس، فطالما هناك إحتمال و لو ضئيل للنجاح فسيتم السعي لتنفيذ محاولة الإنقاذ بأقصى جهد و موارد ممكنة، و للقيام بذلك توجب عليها أن تتقبل ما يعجز عقل بشر عن تخيله من مخاطر.

و حقيقة أننا أخفقنا في نهاية المطاف في مهمتنا تلك ترجع بشكل أساسي للتواجد الإستثنائي لقوات العدو و تدني قدرة قواتنا، كما تبدت أمامنا عوائق أخرى تتعلق بظروف الطقس و الذي أثر سلباً على نشاط اللوفتافا و خصوصاً فيما يتعلق بتوصيل

الإمدادات للجيش السادس و تتعلق كذلك بحالة وسائل الطرق و التي لم تسمح لقوات الإنقاذ بالدخول في معركتها بالسرعة المطلوبة.

و الأكثر من ذلك أننا واجهنا و لأول مرة تثبيطاً مصدره القيادة العليا الألمانية يجد نبعه في شخصية "هتلر" سواء من حيث آرائه أو سماته، و قد تم وصف ذلك بالفعل في الفصل الخاص بالقيادة العسكرية لـ"هتلر"، و كان من آثاره في حالتنا هذه متجسداً في عدم قدرة القيادة العليا على تقبل مخاطر أي تراجع يحدث على الجبهات الأخرى في سبيل توفير كافة الإمكانات اللازمة لعملية الإنقاذ، و الأدهى من ذلك أن ذلك التثبيط تسبب في التأخر في إتخاذ القرارات ذات الأولوية بشكل متكرر - رغم أنه كان من الممكن التنبؤ بالإتجاه العام للموقف بوضوح كما أن قيادة مجموعة الجيوش التابعة لنا قد أوضحته لـ"هتلر" تكراراً.

و فيما يتعلق بالمهمتين اللتين تواجههما مجموعة الجيوش فقد إنتهى الأمر تماماً بالنسبة للأولى – تخليص الجيش السادس – بحلول عيد الميلاد عام ١٩٤٢ عندما صار واضحاً أن الجيش الرابع بانزر لم يعد قادراً على الوصول إليه، فبإصرار "هتلر" على التشبث بـ"ستالينجراد" إضطرت قيادة الجيش السادس للتراجع في اللحظة الحاسمة – بالمخالفة لتعليمات مجموعة الجيوش – عن إستغلال ما بدت و أنها الفرصة الأخيرة للخلاص، و بذلك إنحسم مصير ذلك الجيش ، و فكرة "هتلر" حول إنقاذه في وقت لاحق بواسطة إستدعاء الفيلق بانزر سرايا الدفاع من "خاركوف"[1] في يناير لم تكن سوى وهماً.

و ما حدث في جيب "ستالينجراد" تبعاً لهجمات الجيش الرابع بانزر تجسد في حالة ركود تام كان و بحق صراعاً للجيش السادس من أجل البقاء، و لكن بالنظر إلى حقيقة أن الجزء الآخر من مهمة مجموعة الجيوش ما يزال منع تدمير الجناح الجنوبي بأكمله نجد أن الصراع لم يصل بعد لمراحله الختامية التي تبررلنا إنهاءه مبكراً – و بذا تتعاظم خسائر و معاناة الجيش المنكوب – بواسطة الإستسلام.

و قد كانت معارك إنقاذ الجيش السادس بالطبع مرتبطة إلى حد كبير بالتطورات على كامل الجناح الجنوبي الألماني، و سبب إرجاء حديثي عن ذلك الأخير لفصل لاحق هو منح وضوح أكبر حول الإعتبارات العملياتية المتنوعة التي يتضمنها.

---

[1] خاركوف : مدينة شمال شرق أوكرانيا و هي ثاني أكبر مدنها عقب العاصمة "كييف".

الموقف وقت تولي المسئولية:

كان الموقف المعاصر لتولي مجموعة الجيوش زمام القيادة مختلفاً عما كان عليه يوم ٢٤ نوفمبر.

فالعدو نشر قواته بالقطع بشكل أساسي في حلقة مغلقة حول الجيش السادس، فمن بين ١٤٣ تشكيل للعدو تم الإبلاغ بوجودها تم توظيف على الأقل ٦٠ منها في تطويق الجيش الذي تعرضت جبهته الجنوبية في ٢٨ نوفمبر لهجوم عنيف تمكن من صده، و في نهاية نوفمبر كان على جبهاته الأخرى قاطبةً معارك محدودة تمت تقوية دفاعاته خلالها بشكل أكبر، و على الرغم من ذلك كان واضحاً أن أي محاولة للخروج تلك اللحظة ستلاقي مجابهة قوية من العدو خصوصاً و أن مخزون الجيش من الوقود و الذخيرة قد شارف على الإنتهاء، و حتى لو نجح الخروج مبدئياً فسيجد الجيش نفسه قد بلغ نهر "دون" دون ذخيرة أو وقود في وقت لن تتواجد فيه أي قوات إنقاذ.

و على خلاف ذلك كان العدو مشغولاً بتحسس طريقه قدماً تجاه الحواجز الضعيفة الممتدة عبر الثغرات إلى جنوب و غرب "ستالينجراد" و التي كانت قوات الإنقاذ تنهي نشرها خلفها.

و كانت المشكلة الحالة أمام مجموعة الجيوش هي الحصول على أوضح صورة لنوايا و حالة الجيش السادس، حيث إن ما كانت تحصل عليه من *القيادة العليا للجيوش الألمانية*و مجموعة الجيوش "ب" من على بعد مئات الأميال كان بالقطع غير كاف.

و مبكراً في ١٦ نوفمبر تسلمت خطاباً من الجنرال "باولوس" عبر أحد الضباط كان قد تمكن من الهرب من الجيب.

و فيه شدد "باولوس" على ضرورة منحه "حرية التصرف في حالة الضرورة القصوى"، حيث إنه بدا من المحتمل في أي لحظة أن ينشأ موقف يدعو لخروج فوري في إتجاه جنوب غربي، و المعلومة التي أغفل ذلك الخطاب ذكرها و المتعلق بوضع مؤن الجيش ورد عنها تقرير أعده الجنرال "بيكرت" – ضابط من اللوفتافا هرب من

الجيب – و كتب تفاصيله قائد الأسطول الجوي الرابع الكولونيل جنرال "بارون فون ريتشهوفن" بهدف تنظيم جسر الإمدادات الجوي.

و وفقاً لـ"بيكرت" فإن الجيش السادس لديه مؤن تكفي لإثني عشر يوماً، و مخزون الذخيرة تبلغ نسبته ١٠ إلى ٢٠ % من المستوى الطبيعي و هو ما قد ينفد عقب يوم واحد فقط من القتال المكثف، و أما عن وقود المركبات فكان يكفي فقط للتحركات القليلة للقوات و لن يكفي لحشد الدبابات لتنفيذ عملية شق طريق الخروج، لو كانت هذه الأرقام صحيحة فلا يملك المرء سوى التعجب كيف أمكن للجيش السادس أن يعرض تنفيذ خطة الخروج التي تحدث عنها منذ أربعة أيام خلت.

و في ضوء تلك المعلومات قررت الطيران بنفسي إلى الجيب و التحدث مع "باولوس"، و مع ذلك تمكن رئيس الأركان و رئيس فرع العمليات من إقناعي بهجر تلك الفكرة – و التي كنت متحمساً لها بشدة – نظراً لحالة الطقس و التي ستؤدي لإحتجازي هناك ليومين أو أكثر، و قد كان البعد لكل ذلك الوقت أمراً غير مقبول بالنظر إلى الموقف المتوتر و الحاجة لإبقاء *القيادة العليا للجيوش الألمانية* دوماً على وعي بأفكار مجموعة الجيوش، لذا قمت بإرسال رئيس الأركان الجنرال "شولز" بدلاً مني و في مرة أخرى كان رئيس فرع العمليات العقيد "بوس".

و كانت مهمة "شولز" بشكل أساسي هي أن يحصل على إنطباع أولي عن موقف و حالة الجيش السادس و طاقم قيادته و يطلع قائد الجيش على خطط رفع الحصار،و هكذا تم منح هذا الأخير فرصة لإبداء رأيه حول إحتمالية و توقيت العملية، و كل شيء يعتمد على التناغم بين وجهة نظر "باولوس" و وجهة نظرنا، حيث إنه كان من الواضح أن قدرة مجموعة الجيوش على التأثير على قرارات محدودة لغياب أي إتصالات هاتفية أو مكتوبة يعتمد عليها، و مع غياب ضابط الإتصال مع *القيادة العليا للجيوش الألمانية*– و الذي يجعل وجوده في مقر قيادة مجموعة الجيوش إياها خاضعة للتأثر المستمر بأفكار "هتلر" و قراراته - تزايدت الحاجة إلى تحقيق التفاهم الكامل.

و بجانب إعراب "باولوس" في خطابه عن اليأس العميق و المتَقَبَل أيضاً حول الموقف الذي تقع المسئولية عنه على القائد الأعلى و ليس عليه بدا هذا الخطاب لي – بالنظر إلى ما تضمنه من الرغبة في منحه "حرية التصرف في حالة الضرورة القصوى" - أنه يبرز إنتوائه الخروج من الجيب لو صار الموقف هناك لا يمكن الدفاع عنه،و هذا قد

يكون إما بسبب تمكن العدو من الإختراق بالفعل أو بسبب حتى تمكن من إجتياز جبهة واحدة أو أكثر من جبهات الجيش السادس – بحيث يصير من غير الممكن الدفاع عن الموقف – أو بسبب خوار قدرات القوات، و على أية حال – في رأيي – فإن أي محاولة خروج ستفضي فقط إلى كارثة، و قد أبرز هذا الموقف شيئين على قدر لا يستهان به من الأهمية : **الأول** هو وجوب وجود دفاع صلب يحافظ على وجود الجيش نفسه ، و **الثاني** هو وجوب تنفيذ عملية إختراق – ليس بدافع فقدان الأمل و لكن بشكل متعمد و في توقيت محدد يكون فيه الجيش ما يزال لديه القدرة اللازمة لتنفيذه إضافة إلى التنسيق مع عمليات الإنقاذ من خارج الجيب.

و ما سبق كان وجهات النظر التي عرضها "شولز" على "باولوس".

و كان الإنطباع العام الذي عاد به "شولز" - و هو ما أكده لاحقاً العقيد "بوس" – هو أن الجيش السادس يعتبر الفرصة مواتية للتماسك في كل الأحوال إن تم ضمان تدفق الإمدادات جواً، و هو الإتجاه الذي سيكون خطراً كما سنرى لاحقاً.

و بهذا أصل لمسألة مدى إمكان النظر في فكرة جسر الإمداد الجوي فعلياً.

في تقريرنا *للقيادة العليا للجيش* من "ستاروبيلسك" في ٢٤ نوفمبر بذلت جهداً كبيراً في إبراز مصيرية ذلك، فلو ضمنا إيصال الإمدادات جواً – كما قلت – سنكون قادرين على تحمل أي تأخير في تنفيذ عملية الخروج حتى يزيد تدخل قوات الإنقاذ من فرص نجاح الخروج.

و برفض "هتلر" – الذي بلغ حد التهديد بالعقوبات – لطلب "باولوس" بالخروج في اليوم السابق لمحادثتي الهاتفية ذلك الأول كافة الضمانات بخصوص الإمداد الجوي ، و كان رفضه ذلك مبنياً على تأكيد من "جورينج" له - و الذي كانت هيئة الأركان العاملة معه هي السلطة الوحيدة المختصة بمساعدة اللوفتافا في توصيل الإمدادات للجيش السادس في "ستالينجراد".

عندما توليت قيادة مجموعة الجيوش "دون" أخبرني الكولونيل جنرال "فون ريتشهوفن" – و الذي كان يقوم الأسطول الجوي الرابع التابع له بدعمنا و توصيل الإمدادات للجيش السادس جواً – أنه لا يتقد إمكانية إستمرار تدفق الجسر الجوي في ظل الظروف الجوية الحالية، و حتى لو تحسن الجو فسيظل لا يؤمن بإمكانية الإحتفاظ بهذا الجسر لفترة من

الوقت وفق ما قاله لـ"جورينج"، و قد أضاف أنه ليس في موقع يمكنه من تقدير قدر الموارد المتاحة لـ"جورينج".

و على الفور أرسلت مجموعة الجيوش تقريراً يتضمن رأي "فون ريتشهوفن" إلى *القيادة العليا للجيوش الألمانية*و لكن إقتصر رد فعل الأخيرة على لفت نظرنا إلى الزيادات المزمعة في قوة أسراب طائرات النقل، و نفس الإجابة كانت تُمنح رداً على تقاريرنا اليومية و هي أن الحملات المتدفقة على الجيب تبلغ تقريباً الحصص المطلوبة، و قد وصلت أسراب طائرات النقل الجديدة تلك في موعدها بشكل كافٍ و أدى طواقمها واجبهم بأتم ما يكون الجود بالذات، و لكن على الرغم من خسارة اللوفتافا ٤٨٨ طائرة و قرابة الألف رجل في "ستالينجراد" إلا أنها لم تنجح أبداً في تزويد الجيش السادس بكل ما إعتُبر حداً أدنى من لوازمه.

و من المعروف جيداً أن الوعد الذي أبرمه "جورينج" لـ"هتلر" في ٢٣ نوفمبر – و ربما قبل ذلك – كان بلا أي ضمان تماماً، و لا أستطيع أن أقرر أن ذلك يرجع سواء لخطأ في تقدير إمكانيات اللوفتافا أو لطيشٍ في إبرام الوعد رغبةً في تملق "هتلر" أو مداعبته، و في أي حال فإن المسئولية تقع على "جورينج"، و كان على "هتلر" أن يتحرى الدقة في تصريحاته، فبجانب معرفته لطبيعة "جورينج" كان كذلك على وعيٍ تام بقوة اللوفتافا.

و على عكس "هتلر" لم تكن قيادة مجموعة الجيوش و لا قائد الأسطول الرابع الجوي في موقف يسمح لهما بإستيضاح الأمور، كما أنهما لم يتوافر لهما أي سبب ملح يدعو للإعتقاد بعدم قابلية جسر الإمدادات الجوي للتنفيذ على المدى القصير، و على كل حال فقد زودت اللوفتافا في شتاء ٤٢/١٩٤١ مئة ألف رجال في جيب "ديميانسك" بكل ما إحتاجوه.

و على الرغم من حقيقة كون ذلك الرقم محاصراً في ذلك الوقت كان من الممكن أن يقتصر الأمر على ضمان إستمرار تدفق الإمدادات على ذلك المكان لأسابيع أو أكثر، و ما إن تقترب مجموعات الإنقاذ من الجيب حتى يبادر الجيش السادس بشق طريق الخروج في جميع الأحوال، أما تركه في "ستالينجراد" لفترة أطول فكان أمراً غير وارد بالمرة.

و كل ما كان يتوجب فعله على القائد العام للوفتافا هو القيام بعملية حسابية بسيطة.

يبلغ الحد الأدنى من متطلبات الجيش السادس من كل أنواع الإمدادات ٥٥٠ طن يومياً أو على الأقل ٤٠٠ طن حتى ينفد كل مخزونه داخل الجيب.

و بغرض نقل ٥٥٠ طن جواً – لو قامت الطائرة الواحدة برحلة واحدة يومياً – فإننا بحاجة إلى ٢٢٥ طائرة "يانكر يو ٥٢ إس" أو في المقابل عدد أكبر من طائرات "هنكل هي ١١١ إس" و القادرة على حمل طناً و نصف فقط في بدنها الخارجي.

و أما عن مسافة الطيران من القواعد الجوية في "موروسوفسكي" و "تاتسنسكايا" فتبلغ ١١٠ و ١٣٥ ميل على التوالي برغم من أنه في كلتا الحالتين سيتم الطيران فوق آخر ٣٠ ميل من الأراضي الخاضعة للعدو، و كلا المطارين لم نخسرهما حتى عيد الميلاد ١٩٤٢ عندما إنحسم مصير الجيش السادس، و في ظل الظروف الجوية المواتية يُتوقع أن تقوم الطائرة الواحدة برحلتين يومياً، و في الأيام التي يتم فيها ذلك ينخفض عدد الماكينات[١] التي نحتاجها للنصف.

هذه الأرقام شكلت القاعدة الأساسية التي يُقدر بناء عليها القائد العام للوفتافا إمكانية إيصال الإمدادات للجيش السادس جواً، و إضافة إلى ذلك عليه أن يضع في حسبانه الإعتبارات التالية:

١. إحتمالية أن تظل الطائرات العاملة ضمن جسر الإمدادات الجوي راقدة على الأرض شتاءً نظراً لحالة الطقس، و يجب تعويض النقص الناجم عن ذلك بزيادة القدر المنقول في الأيام التي يسمح فيها الطقس بإتمام عملية النقل، و هو ما يستوجب معه زيادة عدد الطائرات العاملة، و بينما يصعب التنبؤ إلى مدى ستسمح حالة الطقس بالطيران إلا أنه يتوجب على خبراء الأرصاد التابعين للوفتافا أن يكونوا قادرين على الإستعانة بسجلات ترجع للشتاء الماضي.
٢. حقيقة أنه ليس كل الماكينات تكون صالحة للطيران أجمعها في وقت واحد، و هذا يمكن رؤيته من الإحصائيات، حيث يعتمد رقم الطائرات المعطلة إلى حد كبير على ما هو متاح من الطواقم الأرضية و منشآت الصيانة في القواعد الجوية، و هو ما سنتحدث عنه لاحقاً.

[١] يقصد الطائرات و المركبات و كل ما يستخدم لخدمة الجسر الجوي.

٣. يجب تذكر دوماً وجود نسبة معينة من ماكينات النقل تتعرض للإسقاط أو تتحطم، و يعتمد معدل الخسائر التي يتسبب فيها العدو بشكل كبير على مدى قدرة اللوفتافا على توفير غطاء من المقاتلات.

و بذا كان على القائد العام للوفتافا أن يزن كلتا المسألتين بحرص شديد قبل إبرام أي وعود حول جسر الإمدادات الجوي.

و السؤال: هل كان يمتلك أي إمكانيات تضمن على الفور وجود مساحة كافية لنقل الـ٥٥٠ طن واضعين في الإعتبار المتطلبات الإضافية التي تفرضها ظروف الطقس السيئة و عدم توافر الطائرات اللازمة لأسباب فنية؟

هل بمقدوره الحفاظ على التدفق المستمر لهذا الرقم من الإمدادات - عبر توفير عدد كافٍ من الطائرات المقاتلة و الإعتراضية لمواجهة الدفاعات الجوية المتوقع وجودها لدى العدو – بحيث يظل الجيش السادس صامداً منتظراً للوقت الذي يمكن فيه إنقاذه؟

لقد كان "جورينج" هو الوحيد الموجود في موقع يمكنه من الرد على تلك الأسئلة بما يشفي ألباب السائلين، فهو الوحيد القادر على إخبارهم بمدى إمكان توفير العدد المطلوب من الطائرات و مدى كون إستخدامهم دفاعي الطابع في هذا المقام بالنظر للإلتزامات الأخرى الواقعة على عاتق اللوفتافا، فلو كان رده بالنفي فمن واجبه إبلاغ "هتلر" بذلك في الوقت الذي أصدر الأخير فيه قراره بشأن الجيش السادس – حوالي في ٢٢ أو ٢٣ نوفمبر.

و كان من واجب "جورينج" الأول – بمجرد إصدار "هتلر" لأوامره القاضية ببقاء الجيش السادس في "ستالينجراد" – أن يوجه كل إحتياطات اللوفتافا من طائرات النقل و المقاتلات و فرق الإصلاح لهذا الغرض.

و من المشكوك فيه قيام "جورينج" بفعل كل ما يتوجب عليه في هذا المجال، و في بداية شهر يناير – نتيجة لإشارة مجموعة الجيوش المتكررة إلى ضعف جسر الإمدادات الجوي – أمر "هتلر" الفيلد مارشال "ميلخ"[1] ليتولى زمام الأمور، و نظراً لسيطرة الأخير على كل موارد اللوفتافا و قواتها في ألمانيا فقد كان بالتأكيد في موقع يمكنه من رفع كفاءة جسر الإمدادات.

[1] إرهارد ميلخ : ضابط في اللوفتافا الألماني عاش بين ١٨٩٢ – ١٩٧٢ .

أما الآن و لسوء الحظ فقد بدا الوقت متأخراً جداً من وجهة النظر العملياتية بالنسبة له كي يقدم أي شيء مفيد، و ينطبق نفس الكلام على جسر الإمدادات الجوي بالنظر لأننا فقدنا في تلك الأثناء القاعدتين الجويتين المشار إليهما آنفاً و صار على الإمدادات أن تطير لمسافات أبعد.

و حتى لو لم يكن وعد "جورينج" المبرم في ٢٢ أو ٢٣ نوفمبر صادراً عن طيش فسيظل يدير الأمور بشكل أسوأ بسبب عدم إستغلاله كل الإمكانيات المتاحة له في الأسابيع الحيوية الأولى من الحصار، فحتى ذلك الوقت كانت هناك فرص حقيقة لنجاح عملية إنقاذ الجيش السادس.

و كلما صار الجسر الجوي أكثر تعقيداً و صعوبة كلما زادت أهمية إنقاذ الجيش السادس في أقرب تاريخ ممكن، و بدا من البيانات التي زودت بها *القيادة العليا للجيوش الألمانية* مجموعة الجيوش أن الأولى قررت تخصيص القوات التالية لهذا الغرض:

١. من الجيش الرابع بانزر: الفيلق ٥٧ بانزر بقيادة الجنرال "كيرشنر" – سيتم نقله من مجموعة الجيوش "أ" – و قوامه الفرقتين ٦ و ٢٣ بانزر و الفرقة ١٥ لوفتافا ميدانية، و تحدد موعد وصول تلك القوات إلى منطقة "كوتلنيكوفو" في الثالث من ديسمبر.
٢. من قطاع الجيش الثالث الروماني: تشكيل جديد يحمل إسم "مفرزة الجيش هوليدت" و يتكون من الفرق ٦٢ و ٢٩٤ و ٣٣٦ مشاة و معه الفيلق ٤٨ بانزر بقيادة الجنرال "فون نوبلسدروف" و قوامه الفرقتين ١١ و ٢٢ بانزر و الفرقة ٣ مشاة جبلي و الفرقتين ٧ و ٨ لوفتافا ميدانية، و ستكون هذه المجموعة جاهزة من الناحية العملياتية في منطقة نهر "تشير الأعلى" في الخامس من ديسمبر.

و قد توقعت مجموعة الجيوش أن تبلغ قوات الإنقاذ أربع فرق مدرعة و أربع مشاة أو مشاة جبلي و ثلاث فرق لوفتافا ميدانية، و من المفترض منذ البداية أن فرق اللوفتافا الميدانية ستُخصص للمهام الدفاعية مثل حماية أجنحة العناصر المهاجمة.

و قد تكون هذه القوات كافية – على فرض وصولها بالقدر و الميعاد المحددين – لإنشاء إتصال مؤقت مع الجيش السادس بحيث يستعيد حريته في التحرك، و لكنها لا يمكنها في أي حال إلحاق هزيمة كبيرة بالعدو تمكننا – كما إعتقد "هتلر" بناء على خبرته حول الحرب الساكنة – من إعادة إحتلال المواقع السابق إحتلالنا لها قبل الهجوم.

في ٢٧ نوفمبر تسلمت مجموعة الجيوش رسالة مطبوعة من *القيادة العليا للجيوش الألمانية*ردت فيها على تقدير الموقف الذي رفعناه لها منذ ثلاثة أيام، و ظهر من ذلك أن "هتلر" ما يزال متحيزاً لأفكاره سالفة الذكر، و السبب الذي ذكره حول قراره التمسك بـ"ستالينجراد" هو أننا لو تخلينا عنها هذه المرة فسيتوجب علينا معاودة الكرة العام المقبل - و لو بتكلفة أكبر – و ذلك بهدف إستعادة ما ضحينا كثيراً لأجله في ١٩٤٢.

و بعيداً عن مدى ملائمة تكرار هجوم ١٩٤٢ أو نفعيته عندما يحين وقت ذلك فهذا السؤال أصلاً لم يكن له محل في الوقت الحاضر، و كانت المشكلة الحقيقة تتمثل في مدى وجود أقل فرصة تسمح بطريقة أو بأخرى بإستعادة الموقف على الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية، و قطعاً لا وجود لأي أمل في ذلك ما لم يتم إنقاذ الجيش السادس.

و لذا قمت في ٢٨ نوفمبر بإرسال تقييم مفصل عن الموقف لـ"هتلر" ملحقاً به جدول يتضمن قدرات قوات العدو – و مجموعها ١٤٣ تشكيل – العاملة ضدنا، كما ضمّنت التقييم صورة واضحة عن موقف الجيش السادس و حالته مشيراً على وجه الخصوص إلى إحتمالية حرمانه من إستخدام مدفعيته نظراً لنقص الذخيرة و فقدان القدرة على الحركة.

و قد قلت أنه في تلك الظروف فمما يُشك فيه كون المرء قادراً على تحمل الإنتظار حتى وصول كافة قوات الإنقاذ خصوصاً مفرزة الجيش "هوليدت"، و من المحتمل أن تبدأ الآن مجموعة الإنقاذ التابعة للجيش الرابع بانزر التحرك قبل هذا الأخير، و طبيعي أنه لا يمكن تحقيق أي نتيجة حاسمة بواسطة ذلك نظراً لإعتماد كل شيء على – كما أوضحنا في ٢٤ نوفمبر – توفير قوات إضافية، و أقصى ما يمكن للمرء تمني فعله هو شق ممر إلى الجيش السادس يتمكن من خلاله من إعادة التزود بالوقود و الذخيرة و بذا يستعيد قدرته على الحركة، و مع ذلك يجب عقب ذلك سحب الجيش مباشرة إلى خارج الجيب لأنه من المحتمل ألا يقدر على تحمل الشتاء في السهوب المفتوحة.

و فوق كل ما سبق - كما أخبرت "هتلر" – فقد كان من المستحيل إستراتيجياً مواصلة ربط قواتنا بإصرار في تلك المنطقة الصغيرة بينما يتمتع العدو بحرية الحركة على جبهة تمتد لمئات الأميال، و ما يتوجب علينا إستعادته مهما كانت التكلفة هو قدرتنا على المناورة بإعتبار الحل الذي تم تطبيقه في جيب "ديميانسك" العام الماضي أصبح غير وارد الآن.

و التقييم السابق الذكره أكدته أحداث لاحقة.

كان ذلك في الثالث من ديسمبر قبل أن يصلنا رد "هتلر" على تلك الإشكالية الرئيسية حول السياسة العملياتية – و هو مثال آخر على الطريقة التي كان "هتلر" يفضلها لتأجيل الإجابات التي لا يميل لها.

و تضمن الرد مع ذلك إتفاق "هتلر" مع آرائنا، و لكن كان هناك نقطتان فقط أورد بشأنهما تحفظات: **الأولى** هي أنه لا يرغب في سحب الجبهة الشمالية لـ"ستالينجراد" أو تقليصها بهدف توفير قوات إضافية، و **الثانية** هي أنه إعتبر – دون المنازعة في الرقم الذي ذكرناه عن تشكيلات العدو - أن قدرات الفرق السوفييتية قد تقلصت و أن قيادة العدو تعاني الآن مشكلة في المحافظة على الإمدادات و السيطرة على القوات و ذلك كنتيجة لنجاحاتها غير المتوقعة.

و ربما كان "هتلر" محقاً بشأن تقليص قوة الفرق المعادية، و كان ذلك تغيراً مفاجئاً بالنظر إلى المدى الذي بلغته عملية الإضعاف التي تعرضت لها قواتنا خلال معارك القتال الكثيف التي خاضتها على مدار أشهر متعددة – و هو الموضوع الذي أعدت عنه مجموعة الجيوش من التقارير وافيها، و أما عن معاناة السوفييت لمشاكل حول عملية الإمداد فكان أمراً غير محتمل إضافة إلى أن إفتراض فقدانهم السيطرة على القوات فكان أمراً ظنياً لا أكثر.

و على أية حال – و هو ما يجب الإلتفاف لأهميته – من الممكن إفتراض من موافقة "هتلر" العامة على وجهة نظرنا أنه وافق على النقاط الثلاثة التالية:

١. أنه لا يمكن بحال من الأحوال ترك الجيش السادس في "ستالينجراد" لأي مدة زمنية حتى و لو تمكنا من شق الطريق إليه.
٢. يجب أن يتسلم الجيش السادس معدل يومي ثابت من الإمدادات جواً.
٣. هناك حاجة ملحة لتدفق متواصل للتعزيزات تشدد عليها قيادة مجموعة الجيوش منذ ٢١ نوفمبر.

و سنرى في موضع لاحق أن "هتلر" لم تكن لديه أدنى نية لتحرير الجيش السادس من "ستالينجراد" حيث إنه لم يتم الوفاء بأي من المتطلبين المسبقين اللازمين لنجاح تلك العملية.

و كان أول شيء إكتشفناه هو أن قدرة القوات التي زودتنا بها *القيادة العليا للجيوش الألمانية* لإنقاذ الجيش السادس إضافة إلى توقيت وصولها لا يصل أبداً للحد الذي توقعناه وفقاً للوعود التي قُطعت لنا في "ستاروبيلسك".

فبادئ ذي بدء كانت هناك تأخرات ملحوظة في نقل القوات إلى مناطقها الجديدة، و ترجع تلك التأخرات في حالة مفرزة الجيش "هوليدت" الكفاءة المنخفضة للسكك الحديدية و في حالة المجموعة التابعة للجيش الرابع بانزر إلى حقيقة بدء ذوبان الجليد في القوقاز في الوقت الذي لا تزال فيه السهوب حول "ستالينجراد" في قبضته.

و نتيجة لما سبق باتت عناصر المركبات التابعة للفرقة ٢٣ بانزر عاجزة عن التحرك على الطريق في الوقت المحدد لها و إضطرت للإنتقال عبر السكك الحديدية بدلاً عنه.

و نظراً للمعدل البطئ الذي سارت عليه العملية تم إرجاء الموعد العملياتي الأخير للفيلق ٥٧ بانزر عدة مرات في موقف كل يوم فيه له ثمن.

و لم تكن قوة مجموعات الإنقاذ مرضية بالمرة، فالفرقة ١٥ لوفتافا ميدانية – و المقرر إنضمامها للفيلق ٥٧ بانزر – لم يتم تشكيلها بعد – و هي العملية التي ستسغرق أسابيع لإتمامها، و عندما صارت جاهزة أخيراً تم توجيهها لمعركة طارئة لأقصى الحدود – بالمصادفة في وقت تفاقمت فيه مشكلة الإنقاذ على نحو سلبي – و تحطمت في أولى أيامها القتالية، أما عن مدفعية الجيش السادس فوقع تسليمها على عاتق مجموعة الجيوش "أ" – بإستثناء فوج واحد من القوات الدخانية[1] - و لم تصل أبداً، و من أصل سبع فرق خُصصت لمفرزة الجيش "هوليدت" وجدنا أنه من الضروري أن تتضمن فرقتي مشاة {٦٢ و ٢٩٤} على جبهة الجيش الثالث الروماني لتزويدها بالقدر اليسير من الإستقرار، و سيقود إنسحابهما على الفور لإنهيار جبهتي الفيلقين الأول و الثاني الرومانيين، و لذا تم إستبعاد الفرقتين من عملية الإنقاذ منذ البداية، و كان من التشكيلات الموعود بها و التي لم تصل أبداً الفرقة الثالثة مشاة جبلي، فالنصف الأول منها – و الذي بدأ التحرك بالفعل – تم نقله بواسطة *القيادة العليا للجيوش الألمانية* إلى مجموعة الجيوش "أ" للتعامل مع أزمة تعرضت لها، و أما النصف الثاني فتمت إعادته لمجموعة الجيوش الوسطى لسبب مماثل، و قد أثبتت الفرقة ٢٢ بانزر – و التي إنضمت للجيش الثالث الروماني في بداية الهجوم السوفييتي – عجزاً واضحاً عن القيام بأي عمل

---

[1] القوات الدخانية: هي وحدات في الجيش الألماني إستخدمت الدخان كسلاح في الحرب العالمية الثانية و إشتملت على قاذفات صواريخ و قوات مهندسين ، و هي تعد ضرباً من الحرب الكيماوية.

هجومي عقب الخسائر التي عانت منها في معارك شهر نوفمبر، و نظراً لإستحالة توظيف فرق اللوفتافا الميدانية في أي دور هجومي كانت القوة الضاربة الوحيدة المتاحة لدعم عمليات الإنقاذ التي سينفذها الجيش الرابع بانزر و مفرزة الجيش "هوليدت" تتمثل في الفيلق ٥٧ بانزر – قوامه فرقتين مدرعتين – و الفيلق ٤٨ بانزر – قوامه الفرقة ١١ بانزر و الفرقة ٣٣٦ مشاة – على التوالي، و لم تتمكن الفرقتان ١٧ بانزر و ٣٠٦ مشاة - و التي أرسلتهما *القيادة العليا للجيوش الألمانية* للحلول محل القوات التي لم تصل – من تعويض النقص الحادث في القوة و لا من الإستعدادا لدخول المعركة في الوقت المبكر الذي تتطلبه عملية الإنقاذ.

و في تلك الظروف لم تعد الفكرة الأصلية حول إنقاذ الجيش السادس من إتجاهين مختلفين – الجيش الرابع بانزر من منطقة "كوتلنيكوفو" شرق نهر "دون" و مفرزة الجيش "هوليدت" من نهر "تشير الأوسط" في إتجاه "كالاتش" – صالحة بسبب نقص القوات، و أقصى ما يمكننا تمني فعله هو نشر قوات كافية على بقعة واحدة، و كما إتضح من الأمور ترك ذلك فقط الجيش الرابع بانزر جاهزاً للهجوم، فأمامه عدد قليل من الأميال يقطعها إلى "ستالينجراد" دون أي عوائق يجب أن يتغلب عليها مثل نهر "دون"، و كان من المعقول أيضاً أن نأمل في أن يكون آخر مكان يتوقع العدو منه قدوم الهجوم الإنقاذي هو أي مكان شرق نهر "دون" بإعتبار الموقف هناك يجعل نشر الألمان لقوات كبيرة أمراً به مخاطر جمة، و لنفس السبب نشر العدو قوات ضعيفة مبدئياً في إتجاه "كوتلنيكوفو" حمايةً لجبهة الحصار، وهنا لتلك الفترة من الوقت كان الجيش الرابع بانزر يواجه فقط خمس فرق معادية في حين نشر العدو على نهر "تشير" خمسة عشر فرقة على خط واحد.

لذا تضمن الأمر الصادر من مجموعة الجيوش في الأول من ديسمبر بشأن العملية "عاصفة الشتاء" الآتي:

في تاريخ لم يتحدد بعد – ولكن ليس قبل الثامن من ديسمبر في كل الأحوال – يقوم الجيش الرابع بانزر بشن الهجوم شرق نهر "دون" بالكتلة الرئيسية لقواته منطلقاً من منطقة "كوتلنيكوفو"، و بمجرد توغله داخل قوات العدو ستكون مهمته مهاجمة جبهة العدو الجنوبية أو الغربية المحاصرة لـ"ستالينجراد" و الإلتفاف حولها.

و كان على قوة صغيرة من الفيلق ٤٨ بانزر التابع لمفرزة الجيش "هوليدت" أن تتقدم من رأس كوبري "دون – تشير" في منطقة "نيزهني تشيرسكايا" إلى الخطوط الخلفية لقوات العدو، و لو تمكنت قوات العدو المواجهة للجيش الرابع بانزر شمال "كوتلنيكوفو" من التزود خفية بالتعزيزات قبيل الهجوم أو لو إتخذ موقف الجيش الرابع الروماني – و الذي كانت مهمته تغطية الجناح الشرقي الطويل للجيش الرابع بانزر – منحىً خطيراً آخر فسيتم حينئذٍ الإنتقال للخطة البديلة، و ستقوم الفرق المدرعة التابعة للجيش الرابع بانزر بحركة مباغتة تجاه الشمال على طول الضفة الغربية لنهر "دون" و تشن هجومها الرئيسي إنطلاقاً من رأس الكوبري في منطقة "نيزهني تشيرسكايا"، و كان من المتصور أيضاً أن تقوم مجموعة أقل قوة من قوات الصدمة بالزحف نحو "كالاتش" إنطلاقاً من رأس كوبري "دون – تشير" غرب نهر "دون" بغرض قطع إتصالات العدو هناك و فتح الجسر على نهر "دون" أمام الجيش السادس.

و فيما يتعلق بالجيش السادس فقد تضمنت الأوامر توجب قيامه بالإختراق إلى جهة الجنوب الغربي في إتجاه "دونسكايا تساريتسا" في تاريخ لم تحدده بعد مجموعة الجيوش و لكنه يعقب هجوم الجيش الرابع بانزر، و سيكون الهدف من ذلك هو وصول الجيش السادس إلى الجيش الرابع بانزر و المشاركة في تطويق جبهتي الحصار الجنوبية و الغربية فضلاً عن السيطرة على نقاط العبور على نهر "دون".

و بناء على تعليمات صريحة من "هتلر" كان على الجيش السادس مواصلة تشبثه بمواقعه الحالية داخل الجيب، و قطعاً لن يكون هذا ممكناً من الناحية العملية عندما يتحرك ذلك الجيش لشق طريق الخروج في إتجاه الجنوب الغربي كي يلتقي بالجيش الرابع بانزر نظراً لأن هجوم السوفييت على الجبهة الشمالية أو الشرقية سيجبره على أن يسير ببطء خطوة بخطوة، و في هذه الحالة لن يكون أمام "هتلر" بلا شك سوى خيار وحيد و هو تقبل هذه الحقيقة كما حدث في مناسبات آنفة، و لم يمكننا القول بذلك بالطبع أثناء سير العملية لأن "هتلر" علم به عن طريق ضابط الإتصال الموجود في مقر قيادة الجيش السادس و على الفور أصدر قراراً مضاداً.

و خلال الأيام القليلة التي أعقبت توليّ زمام الأمور بقي كل شيء هادئاً على جبهة مجموعة الجيوش، و بدا بشكل واضح أن العدو يحضر لهجوم مركز على الجيش السادس، و من جهة أخربدا أنه لم يكن مهتماً بالدخول في مغامرة القيام بهجوم فوري على "روستوف" بقوات مدرعة قوية، و حتى إنه لم يحاول التوجه نحو نقاط العبور

الخاضعة لمجموعة الجيوش في منطقة نهر "دونتز" أو تقاطع السكك الحديدية في "ليخاخا"، لربما ظن العدو أن بمقدوره تجنيب نفسه الخطر المرتبط بذلك النوع من تحركات الدبابات خاصة و أن تحضيراته للقوات في الثنية الكبيرة لنهر "دون" قد وعدته بضمان النجاح في أية حال، و لكنه بلا شك ضحّى لفرصة كبيرة سنحت له حيث أنه في نهاية نوفمبر و بداية ديسمبر لم تكن القوات التي نحتاجها لإعتراض طريقه موجودة بالفعل.

هجمات العدو على الجيش السادس:

في الثاني من ديسمبر شن العدو هجومه الأول على الجيش السادس، و كما تلته من هجمات في الرابع و الثامن من ذات الشهر فقد تصدت له بضراوة قواتنا الباسلة داخل الجيب، و لحسن الحظ ثبت أن الموقف من ناحية الإمدادات بدا أفضل الآن مما كنا نتوقعه لأن الجيش السادس أرسل تقريراً في الثاني من ديسمبر تضمن أنه بمواصلة التشبث بمواقعه معتمداً على تقليص إستخدام المؤن و ذبح كميات كبيرة من الأحصنة فإن المخزون من المؤن سيكفي حتى إثني عشر أو ستة عشر يوماً، و في نفس الوقت شجعتنا حالة الطقس على أن نأمل في رفع معدل تدفق الإمدادات جواً على الجيش السادس حيث تم إيصال ٣٠٠ طن منها فقط جواً في يوم الخامس من ديسمبر، و لسوء الحظ ظل هذا الرقم ثابتاً لبقية الوقت، و على الرغم من ذلك كان واضحاً وجوب عدم إضاعة أي وقت في الإتصال بالجيش السادس على الأرض و سحبه إلى خارج الجيب.

و بالنظر إلى مجريات الأمور نجد أن الشيء الوحيد الذي كان في صالحنا حتى اللحظة هو أن العدو لم يغامر بإستغلال فرصته و القيام بمهاجمة منطقة الإتصالات الخلفية لمجموعة الجيوش في نقاط التقاطع في نهر "دونتز" أو "روستوف" – و التي كان سيحاصر فيها بشكل متزامن مجموعة الجيوش "أ" – و من ناحية أخرى فقد تدهور الوضع بشكل سئ في القطاعات التي ستنطلق منها هجمات الإنقاذ.

فبالنسبة للجيش الرابع بانزر تأخر وصول الفيلق ٥٧ بانزر من القوقاز لأسباب سبق شرحها[١]، و تم تأجيل موعد تموضع تلك القوات من الثالث من ديسمبر حتى الثامن فالثاني عشر من ذات الشهر، و بشكل طبيعي لن يظل العدو صامتاً طوال تلك الفترة الطويلة، ففي الثالث من ديسمبر دفع بقوات كبيرة للأمام تجاه "كوتلنيكوفو" – المحطة التي سيتوجه الفيلق ٥٧ بانزر إليها بالسكك الحديدية – و ذلك بهدف تمشيط المنطقة هناك، و في اليوم التالي أجبرته الفرقة السادسة بانزر على التقهقر و التي كانت حينها قد صارت جاهزة للمشاركة في العمليات، و منذ الثامن من ديسمبر فصاعداً ظهرت دلائل تشير إلى تجمع عدد ضخم من قوات العدو على الجبهة الشمالية للجيش الرابع بانزر {شمال شرق "كوتلنيكوفو"} حيث تم التعرف على جيش سوفييتي جديد - الجيش الأول و الخمسين – هناك، و من جهة أخرى ظلت الأمور هادئة على الجبهة الشرقية للجيش الرابع بانزر و التي تشكلت أساساً من قوات الجيش الرابع الروماني، و ينطبق المثل على الفرقة ١٦ مشاة ميكانيكي حول "ييلستا".

و بهدف إزالة القلق لدى الرومانيين قررنا إرسال قوة مشاة ميكانيكي ضئيلة من تلك الفرقة شمالاً لإستطلاع الخطوط الخلفية لجبهة السوفييت المواجهة لهم، و قد أعلمتنا بما لا يترك مجالاً للشك أن العدو لم ينشر أي قوات ضخمة حتى اللحظة غرب نهر "فولجا".

أزمة على جبهة نهر "تشير":

لقد إتخذت الأمور منحىً أكثر خطورة في منطقة مفرزة الجيش "هوليدت" – قطاع الجيش الثالث الروماني، حيث إشتملت القوات المتواجدة في منطقة تمتد من تقاطع نهر "تشير السفلي" مع نهر "دون" حتى مسافة ٤٥ ميلاً على وحدات إنذار تكونت من عناصر صف الإمدادات و رجال الجيش السادس العائدين من أجازات إضافة إلى بعض المجموعات المضادة للطائرات، و قد إنضمت فيما بعد لهذه القوات فرقتا لوفتافا ميدانية و اللتان – بعد تخصيصهما أصلاً لصالح مفرزة الجيش "هوليدت" – ثبت أنهما في حالة لا تسمح بتوظيفهما بسبب نقص خبرتهما الحربية و نقص الضباط و ضباط الصف المدربين.

[١] ذوبان الثلوج و تحول الطرق إلى برك موحلة عجزت الدبابات عن السير فيها فإضطرت لإستخدام السكك الحديدية و هو ما أخّرها.

المنطقة الضعيفة بين ثنية نهر "تشير" عند "بولشوي ترنوفسكي" و جبهة نهر "دون" التي ما زالت سليمة بعد رأب الصدع الناجم عن إختراق الروس للجيش الثالث الروماني في نوفمبر بواسطة سحب الجناح الأيمن لعناصر الجيش الثالث الروماني على نهر "دون" – الفيلقين الأول و الثاني الرومانيين – و جلب الفرقة ٢٢ بانزر و هي في حالة سيئة و بقايا الفرق الرومانية المغلوبة، في الواقع كان يتوجب نشر فرق المشاة المخصصة لمفرزة الجيش "هوليدت" هنا بهدف تغطية الجبهة الممتدة لـ٧٥ ميلاً و الغير مستقرة على الإطلاق، و مع بداية شهر ديسمبر لاحت في الأفق نذر شؤم تنذر بهجوم ضخم وشيك على جبهة نهر "تشير"، و بعد ذلك بيومين تم الكشف عن وجود مدفعية قوية للعدو على طول الروافد السفلى للنهر، و في الرابع من ديسمبر بدأ الهجوم الروسي قاصفاً بلا هوادة كل نقاط الجبهة واحدة تلو الأخرى، و كلما إستمر العدو في محاولات الإختراق أكثر كلما صار الوضع أكثر حرجاً، و كان من الحيوي قطعياً أنه يتوجب علينا التشبث بذلك الإمتداد من النهر بإعتباره رأس كوبري ضمن زاوية تمتد بين نهري "دون" و "تشير" و المتضمن رأس الكوبري في "نيزهني تشيرسكايا"، و هو الأمر ذو الأهمية القصوى بالنسبة لعملية إنقاذ الجيش السادس، و بصرف النظر عن ذلك نجح إختراق العدو في منطقة على نهر "تشير" مما أتاح له تمشيط الطريق إلى القواعد الجوية في "موروسوفسكي" و "تاتسنسكايا" – و التي كانت على بعد ٢٥ و ٥٠ ميلاً فقط على التوالي – إضافة إلى نقاط تقاطع نهر "دونتز" و "روستوف"، و في تلك الظروف لم يكن أمام مجموعة الجيوش من خيار سوى الموافقة على نقل الفيلق ٤٨ بانزر – و الذي وصلت فرقتاه ١١ بانزر و ٣٣٦ مشاة تواً – مؤقتاً إلى جبهة نهر "تشير السفلي" لتقويتها، و قد وجد الفيلق نفسه يلعب دور رجل مطافئ حقيقي متنقلاً من نقطة إلى أخرى لكي يدعم ذلك الحاجز الهش من وحدات الإنذار و المهدد بالإنهيار، و قد حرم ذلك بشكل طبيعي مفرزة الجيوش "هوليدت" من الفرق الوحيدة التي يمكن توظيفها في أي هجوم إنقاذي من هذا الإتجاه مؤقتاً، و مع ذلك ظلت النية منعقدة لجلب الفيلق عبر رأس كوبري "نيزهني تشيرسكايا" للتعاون من مجموعة الإنقاذ التابعة للجيش الرابع بانزر ما إن يسمح الموقف بذلك.

في التاسع من ديسمبر بدأت تخف حدة الهجمات على الجيش السادس – و هي التي تضمنت شراسة غير مسبوقة من العدو ، و ربما يعنى ذلك أن القوات المشاركة فيها تم تحريرها بهدف التصدي لأي محاولة ألمانية تهدف لرفع الحصار.

و قد إستمر العدو في ضغطه على جبهة نهر "تشير" دون كلل أو ملل، و لكن بالنسبة للجبهة الشمالية للجيش الرابع بانزر – و عقب إخفاقه في عمليته المستهدفة "كوتلنيكوفو" – أظهر قدراً ملحوظاً من ضبط النفس.

القتال بلا جدوى من أجل إصدار القرارات:

بالكاد أحتاج في هذا الموقف الحرج لقول أنني كنت على إتصال هاتفي مستمر مع رئيس أركان الجيش الجنرال "زيتزلر"، و الذي كان متفقاً كليةً مع تصوري التنبؤي لتطورات الأحداث و الإستدلالات التي قدمتها له، و أما عن قدرته على دفع "هتلر" إتخاذ القرار المناسب - و في وقته – فكان أمراً مختلفاً تماماً.

و بجانب مطالبتنا المستمرة بتعزيزات لأسراب النقل التابعة للوفتافا و العاملة ضمن جسر الإمدادات الجوي للجيش السادس كانت أمامنا قضيتان معلقتان:

الأولى هي أنه حتى لو تم إنقاذ الجيش السادس فلا يجب في أية حال من الأحوال تركه في "ستالينجراد" لأي فترة زمنية، و قد كان "هتلر" شخصياً يريد التشبث بالمدينة – تماماً كما فعل بالنسبة لجيب "ديميانسك" الشتاء الماضي – و الإبقاء على إيصال الإمدادات للجيش هناك عبر ممر أرضي.

و من جهة أخرى كانت مجموعة الجيوش "دون" مقتنعة تماماً بأن ذلك القرار خاطئ كليةً و أنه من الأساسي منح الجيش السادس حرية الحركة العملياتية لو أردنا تجنب أي كارثة قادمة، و قد إستمر ذلك الجذب و الرخي حتى ضاعت آخر فرصة لإنقاذ الجيش السادس.

أما **الثانية** فكانت تعزيز قوات الإنقاذ، و منذ إكتشاف أنه من أصل سبعة فرق وُعدنا بهم من أجل محاولة الإنقاذ التي ستنفذها مفرزة الجيش "هوليدت" لم يكن يمكننا في أحسن الأحوال أن نتوقع سوى الحصول على الفيلق ٤٨ بانزر بقوام قدره فرقتين، لذا صار ضرورياً تعزيز الجيش الرابع بانزر، و أي شخص كان قادراً على إدراك أن هذا الأخير ليس بمقدوره بلوغ "ستالينجراد" بالفرقتين ٦ و ٢٣ بانزر فقط.

و كانت هناك طريقتان ممكنتان لإتمام عملية التعزيز.

أولاهما أن مجموعة الجيوش "دون" طلبت تكراراً إعطائها الفيلق الثالث بانزر التابع لمجموعة الجيوش "أ" – قوامه فرقتان – و الذي لا يصح بأي حال إستخدامه في المناطق الريفية الجبلية، و في كل مرة يُرفض الطلب بسبب إدعاء مجموعة الجيوش "أ" أنها لا يمكنها تحرير الفيلق ما لم يُسمح لها بإخلاء المرتفعات البارزة الموجودة عميقاً داخل القوقاز – و هو الإجراء الذي لم يؤيده "هتلر" بدوره، و قد أخفقنا في محاولاتنا في سحب أي فوج من مجموعة الجيوش "أ" و إرساله لإنقاذ الفرقة ١٦ مشاة ميكانيكي في "ييلستا" و التي كانت تغطي فيها الجناح البعيد للجيش الأول بانزر، و أي شيء تم تنفيذه لهذا الغرض خلال ذلك الوقت كان قد فات الأوان عليه لإحداث أي تغيير في "ستالينجراد".

و **الثانية** تمثلت في إرسال *القيادة العليا للجيوش الألمانية*قوات لغرض تعزيز الجيش الرابع بانزر من أجل الهجوم تجاه "ستالينجراد"، و في تلك الأثناء كانت الفرقة ١٧ بانزر و الفرقة ٣٠٦ مشاة المشكلة حديثاً في طريقهما على التوالي إلى مجموعة الجيوش "دون"، و نتيجة للتأخير الحادث في نشر الفيلق ٥٧ بانزر في "كوتلنيكوفو" وصلت الفرقتان المذكورتنا بالكاد في وقت إنطلاقهما نحو "ستالينجراد"، و لسوء الحظ أمرت *القيادة العليا للجيوش الألمانية*بإنزال تلك الفرقة من القطارات بإعتبارها الإحتياط الوحيد المتاح خلف الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش لأنها خشيت من تجهيز العدو لهجوم واسع النطاق في تلك المنطقة، و لكن *القيادة العليا للجيوش الألمانية*لم يكن ممكناً لها تحقيق الهدفين معاً: نجاح الجيش الرابع بانزر في مهمته و تجنب أي أزمة قد تفشل الفرقة ١٧ بانزر في التعامل معها إن حدثت، و بينما كنا نفضل من جهتنا نجاح الجيش الرابع بانزر إختار "هتلر" تجنب الأزمة الذي كان يأمل فيه بهدف الإحتفاظ بالفرقة ١٧ بانزر و حمايتها، و كانت النتيجة هي أنه عندما قام "هتلر" بتحرير هذه الفرقة عقب وقوع الفرقة ٣٠٦ تحت الحصار وجدناها قد وصلت متأخراً جداً للمرحلة الأولى من عملية الإنقاذ، و ربما يكون هذا هو الوقت الذي ضاعت فيه الفرصة الحقيقية.

و لدعم تأثير مكالماتي الهاتفية على "زيتزلر" و كذلك تقويته نفوذه على سير المعارك اليومية التي توجب عليه خوضها شعرت بضرورة إرسال تقييمات متعددة عن الموقف عبر التلغراف إما إليه أو مباشرة إلى "هتلر".

و قد تضمن أحد تلك التقييمات – بتاريخ التاسع من ديسمبر ١٩٤٢ – في ملحقه الثاني الصعوبات التي عانيناها في سبيل إبقاء "هتلر" و *القيادة العليا للجيوش الألمانية*في الصورة طوال الوقت، كما تضمن أيضاً دليلاً قاطعاً على التجهيزات ضخمة العدد المواجهة لمجموعة الجيوش و توضيحاً لأنواع القوات – بإستثناء الفرق القليلة التي وصلت حديثاً – التي عليها أن تخوض المعارك خارج جيب "ستالينجراد"، و أخيراً وليس آخراً شرح ذلك التقييم كيف عانت مجموعة الجيوش في سبيل إيصال خلاصة كافة المشاكل العملياتية للقيادة العليا.

و قد يتولد في هذا المقام لدى القارئ الناقد تعليقان على هذا التقييم.

فقد يعترض البعض على إشارتنا بأي شكل إلى وسائل و سبل الإستمرار في المعركة في حال بقي الجيش السادس في "ستالينجراد" عقب شق ممر إليه، و يُرد على ذلك بأنه من غير المفيد محاولة إقناع رجل مثل "هتلر" بعبثية ترك جيش كامل داخل المدينة حتى على فرض إمكانية إيصال الإمدادات له عبر ذلك الممر، و فقط عبر توضيح المشاكل العملياتية التي قد تواجهه إن حاول إستعادة سيطرته على المدينة يمكن للمرء أن يأمل في لفت نظره للحاجة إلى سحب الجيش السادس، و لسوء الحظ فقد أخفقت تلك المناشدة المستندة إلى المنطق في كسر عناده خاصة و أن الأمر يتعلق بمظهره، و في تلك الأثناء كنا ما نزال نأمل في قيام "هتلر" بالخضوع للأمر الواقع عندما تُعرض أمامه الصورة كاملة.

و أما التعليق الثاني فقد يكمن في إحتمالية أن يبدو إيماننا بإمكانية إنقاذ الجيش السادس مثيراً للدهشة و ذلك بالنظر إلى عدد تشكيلات العدو المواجهة لمجموعة الجيوش، و قد نُلام هنا لإستهانتنا بالعدو.

و بالنسبة لنا فإن مربط الفرس لهذا الأمر هو وجوب أن نتقبل أقصى المخاطر الممكنة إن سعينا لمنح رفقائنا من الجيش السادس فرصة للخلاص، و قد أظهرت الأمور أننا كنا على مشارف فتح طريقهم للحرية، و لكن كان مُقدراً علينا أن نفشل في تحقيق تلك الغاية و هو الأمر الراجع لأسباب سأشرحها لاحقاً.

سباق حياة أو موت:

لقد إنطلقنا بصحبة العدو منذ الآن في سباق حياة أو موت، و قد تمثل هدفنا الرئيسي في إنقاذ حياة الجيش السادس، و لكن في سبيل إنجاز ذلك قمنا بالمخاطرة بليس فقط ببقاء مجموعة الجيوش "دون" بل و مجموعة الجيوش "أ" أيضاً.

لقد كان سباقاً ستقرر نتيجته إما نجاح مجموعة الإنقاذ التابعة للجيش الرابع بانزر في بلوغ الجيش السادس شرق نهر "دون" قبل قد أن يجبرنا العدو على وقف تنفيذ العملية أو فشلها في ذلك، و قد ينجح العدو في ذلك عبر إكتساح جبهتنا الضعيفة على نهر "تشير" أو الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش – و لربما الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش "ب" كذلك – و بالتالي يضع نفسه في وضع يسمح له بقطع كافة خطوط الإتصالات الخلفية لمجموعتي الجيوش "دون" و "أ".

و لتنفيذ أي عملية هجوم على شرق نهر "دون" و حمايتها في حين بدا الخطر المحدق متعاظماً أكثر فأكثر فإن ذلك يعني تحمل مخاطر نادراً ما واجهناه من قبل، و لا أستطيع أن أصدق أن "هتلر" أدرك المغزى الكامل لذلك في تلك الأثناء و إلا لكان بالتأكيد قد إتخذ إجراءات أكثر جذرية على الأقل إلى حد تعزيز الجيش الرابع بانزر من أجل تنفيذ عملية إنقاذ سريعة للجيش السادس في "ستالينجراد"، و عوضاً عن ذلك – كما صرح بذلك الجنرال "زيتزلر" – لم يفعل "هتلر" سوى وضع العراقيل في طريقنا، و للتدليل على ذلك أستذكر مثالين تجسدا في إستبقائه للفرقة ١٧ بانزر في المكان الخطأ خلال تلك المرحلة الدقيقة من العملية و إخفاقه في تحرير الفرقة ١٦ مشاة ميكانيكي حتى فات أوان ذلك، و كثيراً ما صرح "هتلر" بأن الجنرالات و ضباط هيئة الأركان لا يجيدون سوى إحصاء وجود الفرص دون إستغلال أياً منها، و لا يوجد أي رد داحض لهذا الإدعاء أقوى من المخاطرة التي تقبلتها مجموعة الجيوش "دون" عندما أمرت الجيش الرابع بانزر بالتقدم نحو "ستالينجراد" و ظلت العملية مستمرة حتى آخر لحظة في موقف كان يهدد بتدمير كامل الجناح الجنوبي للجيوش الألمانية.

و هذا السباق مع الموت - و الذي بدأ في ١٢ ديسمبر عندما تحرك الجيش الرابع بانزر نحو "ستالينجراد" – يمكن وصف خطوطه العريضة هنا نظراً لإستحالة ذكر التغييرات

الخاطفة التي طرأت على موقف الفيلق ٥٧ بانزر في معاركه ضد عدو لم يتوقف أبداً عن إلقاء قوات جديدة تتشكل أولاً و أخيراً من الدبابات.

لقد تجلت للعيان بوضوح في تلك الفترة طلاقة حركة مدرعاتنا و تفوق طواقم دباباتنا و المكونة من رجال الغرناد الشجعان إضافة إلى مهارة وحداتنا المضادة للدبابات، و في نفس الوقت رأينا ما حققته فرقة مدرعة قديمة مثل الفرقة السادسة بانزر بقيادة الرائع الجنرال "راوس" و أخصائي الدبابات العقيد "فون هونرسدورف" – و الذي قُتل للأسف لاحقاً و هو على رأس هذه الفرقة – عندما دخلت في القتال بكامل عدتها و عتادها من العربات المدرعة و المدافع الهجومية، و على النقيض كم كان الأمر شاقاً بالنسبة للفرقة ٢٣ بانزر – يقودها الجنرال "فون فورمان" و هو زميل قديم لي إبان عملي في فرع العمليات التابع *للقيادة العليا للجيش* و الذي أصيب خمس مرات في الحرب العالمية الأولى – و التي تملكت بالكاد عشرين دبابة.

و دعونا الآن نحاول تتبع بعض سمات تلك المعارك و التي إرتبطت مادياً بنتائجها.

فبينما أنهى الفيلق السابع و الخمسون تموضعه شرق نهر "دون" حول "كوتلنيكوفو" بدأت قوات معادية ضخمة تهاجم جبهتنا على نهر "تشير السفلي" منذ ١٠ ديسمبر، و بات الآن واضحاً أن مسألة تحرير الفيلق ٤٨ بانزر لتخرج من رأس كوبري "تشير-دون" و تتعاون مع الفيلق السابع و الخمسين لم تعد واردة على هذه الجبهة.

و قد جعل هذا بدء الفيلق السابع و الخمسين التحرك أمراً طارئاً أكثر مما مضى، و بعد التصدي لمحاولة نفذها العدو لتدميره و هو ما يزال في مرحلة التموضع النهائي صار الفيلق قادراً على عبور خط البداية في ١٢ ديسمبر، و تولى الفيلق السابع الروماني حماية أجنحته تجاه نهر "فولجا" من ناحية الشرق و الفيلق السادس الروماني من ناحية الغرب و حتى نهر "دون"، و قد باغت الهجوم العدو بوضوح و الذي بدا أنه لم يكن متوقعاً لمثله على المدى القريب، و مبدئياً حقق الفيلق تقدماً حسناً، و بدلاً من التشرنق داخل تكتيكات دفاعية سارع العدو بجلب قوات جديدة من منطقة "ستالينجراد" و شن هجوماً مضاداً المرة تلو الأخرى في محاولات لإستعادة السيطرة على المنطقة التي سيطرت عليها دباباتنا أو لتطويق مجموعات صغيرة من هذه الأخيرة بواسطة مدرعاته التي تفوقها عدداً، و على الرغم من تدمير الفيلق السابع و الخمسين لمجموعات معادية قوية بشكل متتالي إلا أنه ما يزال لم يحقق أي نتيجة حاسمة حتى ١٧ ديسمبر – و هو

التاريخ التي صارت فيه الفرقة ١٧ بانزر أخيراً قادرة على التدخل شرق نهر "دون"، و قد أطلقتها *القيادة العليا للجيوش الألمانية* أخيراً من المنطقة التي كانت تستبقيها فيها خلف الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش إستجابةً لطلب مقر قيادتنا، و مع ذلك كان على هذه الفرقة أن تنجز تقدماً لمسافة كبيرة وصولاً إلى نهر "دون" و عبوراً للجسر الموجود عليه إلى "بوتمكنسكايا" قبل أن تبدأ عملها على النهر.

و بينما كان الفيلق السابع و الخمسين يناضل لإحراز أي نتائج حاسمة على الضفة الشرقية للنهر ضاعف العدو جهوده مجدداً غرب الفيلق بهدف تدمير الجبهة الألمانية على نهر "تشير"، و فوق كل ذلك أدرك العدو مسبقاً الأهمية الكبيرة لرأس الكوبري الذي كنا نتشبث به في الزاوية الممتدة بين نهري "تشير" و "دون" – بما فيها جسر نهر "دون" – و منذ ١٢ ديسمبر صار هدفاً لهجمات سوفييتية ضخمة، في ١٤ ديسمبر تم طردنا من الجسر و إضطررنا لتفجيره، و بحلول ١٥ ديسمبر بدا واضحاً أن المعركة على نهر "تشير السفلي" أمامها أيام قليل لتبدأ.

و مع ذلك بدا لنا خطراً جديداً في نفس الوقت في الثنية الكبيرة لنهر "دون"، فقد ظهرت علامات قطعية في ١٥ ديسمبر تشير إلى تحضير العدو للهجوم أمام الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش "دون" و الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش "ب"، و في اليوم التالي حدثت هجمات محدودة، و بدايةً لم يكن من الواضح تماماً ما إن كان العدو يمارس عادته في تحسس الجبهة قبل أي هجوم بهدف إختراقها أو كان يسعى لمنعنا من نقل أي قوات من هذا القطاع إلى ميدان المعركة شرق نهر "دون"، و مع ذلك إكتشفت رداراتنا جيشاً جديداً – الحرس الثالث – و هو ما يُفهم منه ضمنياً التحضير لعملية إختراق ذات أهداف بعيدة المدى مثل"روستوف".

إن مجموعة الجيوش لم تكن لتتحمل أي معركة حاسمة على جناحها الأيسر طالما كان عليها أن تقاتل لتحرير الجيش السادس شرق نهر "دون"، و كان عليها أن تبقى في مكانها إن إستطاعت، و بهذا تستطيع مفرزة الجيش "هوليدت" العثور على الإحتياطات الضرورية للقيام بأي عمل تأخيري – كانت مجموعة الجيوش قد أمرتها بالإنسحاب لجبهة أقصر في المؤخرة – واضعين في الإعتبار الحاجة الماسة لضمان إستمرارية بقاء الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش "ب".

و قد كان يوم ١٨ ديسمبر يوماً كارثياً من أوله.

فشرق نهر "دون" – و بصرف النظر عن وصول الفرقة ١٧ بانزر – لم يخض الفيلق ٥٧ بانزر أي قتال يتيح له أي إمكانية للتقدم بسلاسة إلى ما حول "ستالينجراد" و لتهيئة الظروف المناسبة لخروج الجيش السادس، و على النقيض بدا الأمر و كأن الفيلق سيتم إجباره على اللجوء للدفاع نظراً لمواصلة العدو في إحضار قوات جديدة في طريق الفيلق إلى جبهة الحصار حول المدينة.

و أما على **نهر "تشير السفلي"** فتواصلت الإشتباكات العنيفة رغم أن العدو لم ينجح بعد في إختراق جبهتنا، و على **الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش** من جهة أخرى بدأت تتشكل أزمة حادة جديدة فقد بدأ العدو هجوماً ضخماً على مفرزة الجيش "هوليدت" و الجيش الإيطالي المشكلين للجناح الأيمن لمجموعة الجيوش "ب".

و في حالة مفرزة الجيش "هوليدت" فقد أثبت كلا الفيلقين الرومانيين عدم ملاءمتهما للهجوم، و ثار شكٌ حول حول مدى إمكانية إحلال الفرق الألمانية في مواضعها البديلة و لو مظهرياً فقط عقبما تخلى عنها حلفاؤها.

و ما زاد الطين بلة هو أن العدو كان قدراً على إكتساح الجيش الإيطالي في هجومه الأول و بالتالي إختراق جناح مجموعة الجيوش "دون".

و في نفس اليوم طالبت مجموعة الجيوش *"القيادة العليا للجيش"* بإتخاذ إجراءات فورية لبدء إخراج الجيش السادس في إتجاه الجيش الرابع بانزر، و ما زالت هناك فرصة تتمثل في إمكانية قيام الفيلق ٥٧ بانزر بإكتساب مساحة جديدة من أرض المعركة في إتجاه الجيب بمجرد قيام الفرقة ١٧ بانزر بفرض وجودها تماماً، و بمعنى آخر لا يزال بمقدور المرء أن يأمل في إنتهاء الصراع شرق نهر "دون" بنتيجة في صالحنا، و لكن يمكن تحقيق ذلك في أبكر وقت ممكن فقط إن تمت صارت الفرقتان ١٧ بانزر و ١٦ مشاة ميكانيكي – الأخير كان ما يزال في "بيلستا" – متاحتين لعملية الإنقاذ التي سينفذها الجيش الرابع بانزر منذ البداية.

و على الرغم من إصرارنا على الحاجة الملحة لصدور قرار يسمح للجيش السادس بالخروج من "ستالينجراد" إلا أن "هتلر" رفض ذلك برغم قيام رئيس هيئة الأركان التابع له بإبلاغنا في وقت معاصر بأن كل القوات التي ما تزال تحت التعبئة سيتم توجيهها إلى مجموعة الجيوش "ب" نظراً للكارثة التي أصابت الجيش الإيطالي، بل إننا في حقيقة الأمر سُؤلنا في ذات السياق عن مدى إمكان الإحتفاظ بـ"ستالينجراد" و هو ما

أظهر ضيق الفكرة التي يمتلكها – أو مستعداً لإمتلاكها - القائد الأعلى عن جدية و خطورة الموقف.

لم يمنع رفض "هتلر" لسحب الجيش السادس من "ستالينجراد" في هذه المرحة مجموعة الجيوش على الأقل من التجهيز لما هو آتٍ و لا مفر منه، و قد قمت في ١٨ ديسمبر بإرسال رئيس الإستخبارات التابع لي الرائد "أيزمان" إلى داخل الجيب لتزويد الجيش السادس بوجهات نظرنا حول عملية الخروج و التي ستصير ضرورية بلا شك في المستقبل العاجل جداً.

و يتمثل أهم ما قاله في الآتي:

يعني الموقف الحرج على جبهة نهر "تشير" – و الأكثر حرجاً منه الموقف على الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش – أن معركة الجيش الرابع بانزر لتحرير الجيش السادس شرق نهر "دون" لا يمكن أن تستمر إلا لفترة محدودة، و علاوة على ذلك ثار الشك حول ما إن كان الجيش الرابع بانزر قادراً على حماية تقدمه وصولاً إلى جبهة الحصار الفعلية نظراً لقيام العدو بإستمرار بنشر قوات جديدة هناك لملاقاته، و لنفس السبب بدت فرص خروج الجيش السادس أفضل في الوقت الحاضر مما سبق و كانت عليه، و يعتمد أي ربط بين الجيش السادس و الجيش الرابع بانزر على قيام الأخير بالدور النشط في المعركة من الآن فصاعداً، و بمجرد نجاحها مبدئياً في الإختراق نحو الجيب في إتجاه جنوب غربي سيصير العدو غير قادر على إضعاف جبهة حصاره أكثر و هو ما سيمّكن بدوره الجيش الرابع بانزر من مواصلة تقدمه نحو الجيب.

من المحتمل توسيع المهمة الملقاة على عاتق الجيش السادس وفقاً لأوامر العملية "عاصفة الشتاء" و التي تسلمها في الأول من ديسمبر – و المتمثلة في البقاء في حالة إستعداد للتحرك في إتجاه جنوب غربي نحو "دونسكايا تساريتسا" لكي يتصل مع الجيش الرابع بانزر، فقد يتوجب على الجيش السادس الآن مواصلة العمل إلى ما وراء الهدف المحدود المخصص له في عملية "عاصفة الشتاء" و مواصلة التقدم جهة الجنوب الغربي حتى ينضم فعلياً للجيش الرابع بانزر، و بينما تضمنت عملية "عاصفة الشتاء" قيام الجيش السادس بالبقاء في "ستالينجراد" طبقاً لأوامر "هتلر" فإن الخطة البديلة الجديدة باتت تعني إجلاءه تدريجياً قطاعاً قطاعاً مع إستمرار محاولاته لإختراق صفوف العدو في إتجاه جنوب غربي.

و قد أوضح الرائد "أيزمان" كذلك أنه في حين قامت مجموعة الجيوش بكل ما أمكنها في سبيل تحقيق ذلك إلا أنها لا يمكنها تصديق إمكانية تحسين جسر الإمدادات الجوي بما يسمح للجيش السادس بالتمسك بـ"ستالينجراد" لأي فترة من الوقت.

و لكن نتائج مهمة الرائد "أيزمان" – و التي كانت تهدف للتنسيق بين وجهات نظر كلا القيادتين – لم تكن مشجعة بالمرة.

"باولوس" نفسه لم يكن متفائلاً بما قاله له "أيزمان" رغم أنه لم يهتم بالتأكيد على هول الصعاب و المخاطر التي قد تتضمنها المهمة الموكلة إليه، و على خلاف ذلك شدد رئيس فرع عمليات الجيش و ضابط المؤن على ذكر تلك الصعاب للرائد "أيزمان"، و لكن كلا الرجلين صرحاً بأنه ليس فقط من الأساسي في تلك الظروف محاولة شق طريق الخروج و إنما هو الأمر المناسب على الإطلاق.

و ما قرر في نهاية المطاف الإتجاه العام لدى الجيش السادس كان رأي رئيس هيئة أركان الجيش السادس الميجور جنرال "آرثر شميدت"، فقد إعتبر أنه من المستحيل تماماً على الجيش السادس أن يشق طريق الخروج في ذلك الوقت و أن مثل هذا الحل لن يكون سوى "إستسلاماً لكارثة"، و قد قال لـ"أيزمان" :**"إن الجيش السادس سيظل في مواقعه في الشرق، و كل ما عليكم فعله هو تزويده بالإمدادات بشكل أفضل"** ، و قد إفترض "شميدت" قطعاً أن إخراج الجيش من هذا الموقف الذي لم نتسبب نحن فيه و مواصلة تزويده بالإمدادات جواً إنما هو مسئولية القيادة العليا أو مجموعة الجيوش، و قد كانت هذه وجهة نظر لا يمكن فهمها و لكن يحق له نظرياً التمسك بها، و لسوء الحظ أثبتت الظروف أنها الأقوى، فقد أشار "أيزمان" إلى أنه على الرغم من قيام مجموعة الجيوش ببذل قصارى جهدها في إمداد الجيش السادس إلا أنها ليست في محل لوم إن تسببت أحوال الطقس في إيقاف جسر الإمدادات الجوي فعلياً و لا في وضع يمّكنها من إنتاج ماكينات النقل بواسطة قبعة الساحر، و لكن كل دفوعه تلك ضاعت كأمواج مياه خلّفتها بطة عائمة في بركة فيما يتعلق بـ"شميدت"، و حتى عندما سعى "أيزمان" لعرض ضرورة قيام الجيش السادس بشق طريق الخروج بالنسبة للعملية برمتها لم تتزحزح عقيدة رئيس الأركان.

و في حين كان بقية قادة الجيش السادس مدرّبين تكتيكياً بشكل أفضل و ذوي مستوى تفكير أعلى إلا أنه بدا رئيس الأركان يفوقهم جميعاً في قوة الشخصية.

(رغم كارثية عناد "شميدت" في تلك الحالة تحديداً إلا أن نفس الصفة هي التي منحته قدراً كبيراً أثناء فترة الأسر فيما بعد، و حُكماً وفق ما جاء على لسان الغير فإنه جعل من نفسه نموذجاً للجندي و الرفيق مما قاده إلى الحكم عليه بخمسٍ و عشرين سنة من العمل الإجباري، و تقتضينا العدالة أن نوجه الثناء إلى سلوكه ....الكاتب)

و بذا تمثلت نتيجة المحادثات في إعلان الجنرال "باولوس" بنفسه الإستحالة المطلقة لشق طريق الخروج و الإشارة إلى أن الإستسلام في "ستالينجراد" هو "أمر محرم بأوامر من الفوهرر".

وبينما جعلت مهمة الرائد "أيزمان" قيادة الجيش السادس على وعي تام بالموقف و بنوايا مجموعة الجيوش إلا أنها لم تحقق لم تكشف عن أفكار الجيش السادس حول المهمة الموكلة إليه، هل يمكننا توقع قيام قيادة جيش بتنفيذ مهمة بالغة الإستحالة بنجاح عندما يكون قائد الجيش و رئيس الأركان غارقين في الشكوك حول ملائمتها؟

إن مثل هذا الإختلاف في الرأي في أي وقت آخر سيكون أساساً لطلب تغيير قيادة الجيش، و لكن في موقفنا الدقيق هذا فلن يكون هناك مبرر لمثل هذا الإجراء، و سيحتاج أي خليفة للقائد أو لرئيس الأركان للوقت ليتكيف مع المنصب الجديد ، وفي موقف كل يوم يمر فيه له قدر من الحيوية سيكون ذلك غير مجدٍ، و في كل الأحوال سيكون من اليائس أن نحاول الحصول على موافقة "هتلر" على مثل هذا التغيير خاصة و أنه قد يرتبط بالرجل المصر على التمسك بـ"ستالينجراد".

و برغم كل شيء لم تكن مجموعة الجيوش "دون" راغبة في إهدار أخر فرصة متبقية لإنقاذ الجيش السادس بصرف النظر عن عن قدر الصعاب و المخاطر التي قد تتضمنها، و قد إستلزم الأمر إصدار أمراً رسمياً بإعفاء قائد الجيش من مسئوليته بتهمتي المجازفة بإخراج الجيش و ترك "ستالينجراد"، و هي الخطوة التي كنا جميعاً متأهبين لها.

و في موضع لاحق سنناقش أسباب عدم تنفيذ الجيش السادس في نهاية المطاف لهذا الأمر، و كانت تلك الأسباب محور مناقشات عديدة دارت بيني و بين "باولوس" و رؤساء الأركان التابعين لنا و تمت على تردد عالي الموجة حديث الإنشاء ، تماماً كالمناقشات بين قيادتنا و القيادة العليا.

و قد شجعنا اليوم التالي – ١٩ ديسمبر – على أن نأمل في وصول الموقف شرق نهر "دون" قريباً لمرحلة يقود فيها التعاون المزمع بين الجيشين إلى إخراج الجيش المحاصر في "ستالينجراد" بنجاح.

و في هذا اليوم تحديداً أحرز الفيلق ٥٧ بانزر نجاحاً باهراً، و عمد إلى عبور نهر "أكساي" و التوجه شمالاً نحو "ميشكوفا" و وصل رأس حربته إلى مسافة ٣٠ ميلاً من جبهة الحصار، و أخيراً حانت اللحظة التي طالما تحرّقنا لها شوقاً منذ تولينا زمام القيادة – إتاحة إقتراب قوات الإنقاذ الفرصة أمام الجيش السادس لشق طريق الخروج، فلو بدأ الجيش السادس في ذلك الآن بينما إستمر الجيش الرابع بانزر في الهجوم شمالاً أو على الأقل طرد عدد أكبر من قوات العدو من جبهة الحصار فسيجد العدو نفسه محصوراً بين نارين ، و ستتولد بالتالي إحتمالية تأسيس إتصال كافٍ لتزويد الجيش السادس بما يحتاجه من وقود و ذخيرة و غذاء لمواصلة الخروج، و لهذا الغرض قامت مجموعة الجيوش بنشر طوابير من عربات النقل محملة بـ٣٠٠٠ طن من الإمدادات خلف الجيش الرابع بانزر إضافة إلى جرارات لسحب جزء من مدفعية الجيش السادس، على أن تتدفق هذه الطوابير على الجيش المحاصر فور نجاح الدبابات في فتح الطريق أمامها و لو مؤقتاً.

و قد أظهر موقف جبهة مجموعة الجيوش غرب نهر "دون" في ١٩ ديسمبر أن القوات المتواجدة هناك يجب أن تكون قادرة على – على الأقل قدرما يحتاج الجيش السادس لشق طريقه في إتجاه جنوب غربي – على التصدي لأي تطورات تهدد بإجبارنا على وقف العملية الدائرة شرق النهر.

و في تلك الأثناء ما تزال جبهتنا على نهر "تشير السفلي" متماسكة.

و رغم أن مجموعة الجيوش رأت التدخل مع مفرزة الجيش "هوليدت" ضرورياً لحماية عملية إنسحاب الأخيرة إلا أنه وجدت إحتمالات تفيد باللجوء إلى الخطة البديلة، و من جهة أخرى ما يزال التهديد المحدق بمفرزة الجيش قائماً.

لقد وصل السباق مع الموت على ضفتي نهر "دون" لمرحلته الحاسمة.

هل ستنجح مجموعة الجيوش في تأمين الوضع في الثنية الكبيرة لنهر "دون" لأيام قليلة قادمة حتى يستفيد الجيش السادس بما كان بلا شك فرصته الأخيرة؟ بالتأكيد يمكنها ذلك فقط إن لم تُهدر لحظة واحدة.

لذا في ظهيرة يوم ١٩ ديسمبر أرسلت مجموعة الجيوش طلباً ملحاً إلى القيادة العليا تطلب السماح بإخراج الجيش السادس من "ستالينجراد" نهائياً و التوجه إلى الجنوب الغربي للإلتقاء بالجيش الرابع بانزر.

و لما فشلت هذه الرسالة أيضاً في إستثارة أي رد فوري تم إصدار أمر للجيشين الرابع بانزر و السادس في الساعة ١٨:٠٠ تضمن بدء تنفيذ الجيش السادس لعملية شق طريق الخروج.

و تمثلت المرحلة الأولى من العملية في هجوم "عاصفة الشتاء" المفصل يوم الأول من ديسمبر، و سيستمر عند الضرورة لما وراء "دونسكايا تساريتسا" بهدف تحقيق الإتصال مع الجيش الرابع بانزر و تمكين قافلة الإمداد من المرور.

و في نفس الوقت تضمن الأمر مرحلة ثانية للإختراق و التي ستكون تابعة – إن إقتضت الحاجة – لهجوم "عاصفة الشتاء" مباشرة، و ما إن يتسلم الجيش السادس الكلمة الشفرية "هزيم الرعد" حتى يبادر بتنفيذ التقدم تجاه الجيش الرابع بانزر و يبدأ تزامنياً في إخلاء منطقة "ستالينجراد" قطاعاً قطاعاً، و ينشأ تحفظ على إصدار الكلمة الشفرية من الحاجة لمزامنة العمليات الهجومية للجيشين كما ينشأ من التساؤل حول ما إن كان تنسيق ممر قافلة الإمداد ممكناً خلال تلك العمليات، و فوق كل ما سلف كان على مجموعة الجيوش أن تحاول إقناع "هتلر" التراجع عن أمره للجيش السادس بالتشبث بـ"ستالينجراد" مهما كانت التكلفة - و الذي ستقع مسئولية عدم تنفيذه على كاهل مجموعة الجيوش بمجرد إصدارها إشارة "هزيم الرعد" – و هو الأمر الذي يُشعر قائد الجيش السادس بأن يده مقيدة طالما ظل نافذاً.

ضياع فرصة إنقاذ الجيش السادس:

إن كانت ما تزال هناك فرصة لإنقاذ الجيش السادس منذ أواخر نوفمبر – حينما رفض "هتلر" طلب "باولوس" العاجل بالإذن بالخروج الفوري من "ستالينجراد" قبل أن يحكم العدو غلق حلقة حصاره حول المدينة – فقد أتت هذه الفرصة في ١٩ ديسمبر، فقد أصدرت مجموعة الجيوش أمراً يقضي بتنفيذ ذلك بصرف النظر عن الصعاب التي قد يواجهها الجيش السادس أثناء خروجه و الموقف المحفوف بالمخاطر الناشيء مؤخراً على بقية جبهة مجموعة الجيوش، و المخاطر التي تقبلناها بشأن تلك الأخيرة سنتحدث عنها لاحقاً، و كانت المشكلة الآنية – ظلت قائمة منذ ١٩ و حتى ٢٥ ديسمبر – هي ما إن كان الجيش السادس قادراً فعلياً على تنفيذ الأمر الصادر له و راغباً في ذلك.

و قد وافق "هتلر" في حقيقة الأمر على قيام الجيش السادس بشن هجوم في إتجاه جنوب غربي بغرض الإلتقاء بالجيش الرابع بانزر، و لكنه إستمر في إصراره على وجوب تشبث الجيش بجبهاته الشمالية و الشرقية و الغربية حول المدينة، و كان لا يزال آملاً في إمكانية فتح "ممر" يمكن من خلاله إيصال الإمدادات إلى الجيش السادس في "ستالينجراد" على المدى الطويل، و يوجد إعتراضان قطعيان على ذلك:

الأول هو أن مجمل موقف مجموعة الجيوش و خصوصاً بالنظر إلى التطورات الحادثة في المنطقة المحيطة بمجموعة الجيوش "ب" لم يعد يسمح بربط جيشين – السادس و الرابع بانزر – في شرق نهر "دون"، و خلال ذلك الوقت لم يكن فقط مصير الجيش السادس على المحك و لكن مصير مجموعتي الجيوش "دون" و "أ" كذلك و اللتين معرضتان - إن قام العدو بالتصرف المناسب – لقطع إتصالاتهما.

الثاني هو الإستحالة المطلقة لقيام الجيش السادس بتعبئة ما تبقى من قوته الهجومية في سبيل تنفيذ الإختراق في إتجاه جنوب غربي مع مواصلة التشبث بجبهاته الحالية حول "ستالينجراد"، و ربما يكون مفهوماً إمكانية قيامه بذلك لمدة يوم أو إثنين على أكثر تقدير - فبإنقضاء تلك المدة سيكون العدو قد إستجمع قواه – و لكن لا يمكن أبداً مطالبته بالبقاء لفترة طويلة داخل المدينة مع حماية خط الإتصال بينه و بين الجيش الرابع بانزر في نفس الوقت.

و بينما كانت الأسباب التي أوردها "هتلر" في أمره الصادر إلى مجموعة الجيوش بتاريخ ١٩ ديسمبر بخصوص معارضته لتنفيذ الخطة غير واقعية بالمرة كانت الإعتراضات المقدمة من قيادة الجيش السادس على قدر من الأهمية بحيث لا يمكن إغفالها، فقد أظهرت عِظم المخاطر الضروري مجابهتها في حال تم تنفيذ الأمر الصادر من مجموعة الجيوش.

و قد كان الجيش السادس محقاً تماماً عندما أعلن عدم قدرته على تنفيذ الخروج طالما أصر "هتلر" على الإحتفاظ بـ"ستالينجراد"، و هذا هو سبب قيام مجموعة الجيوش بأمره بإخلاء المنطقة المحصنة فور تسلمه "هزيم الرعد"، و مع ذلك يظل على قائد الجيش تحديد من تجب له الطاعة: "هتلر" أو قائد مجموعة الجيوش؟

و الأكثر من ذلك أن الجيش السادس إعتقد حاجته لستة أيام للتحضير للخروج، و هذا التقدير في رأينا مبالغ فيه جداً و لا يمكن قبوله في الموقف الراهن حتى لو تم السماح فيما بعد بمواجهة كافة الصعاب الناجمة عن خسارة هذا الجيش لحركيته، و قد بدا إنتظار ستة أيام أخرى أمراً مستحيلاً بالنسبة لنا فقط بسبب الموقف على الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش، و أهم ما في الأمر أن العدو صاحب جبهة الحصار حول المدينة لم يكن ليظل صامتاً طوال الوقت الذي تجري فيه تحضيرات عملية الخروج تحت سمعه و بصره، و قد نتمكن من إخفاء تلك التحضيرات – و التخفيف المستمر لكافة جبهات الجيش السادس – لمدة محدودة، و لكن أن تستغرق عملية نشر القوات تأهباً للخروج من الجبهة الجنوبية الغربية مدة ستة أيام فسيكون العدو بالفعل قد بدأ مهاجمة الجبهات الأخرى قبل أن يحرز الإختراق أي تقدم، و هو ما ينبغي تجنبه مهما كانت التكلفة.

و قد شك الجيش أيضاً في قدرته على سحب القوات المخصصة لتنفيذ الإختراق من جبهاتها الحالية بسبب كون الأخيرة هدفاً دائماً لهجمات محدودة، و هنا أيضاً تأتي السرعة في المرتبة الأولى، و يشترط بدء تنفيذ الجيش السادس للخروج في وقت مناسب حتى يتفادى أي مواجهة مع العدو على جبهاته الأخرى و سيحتاج فقط لمجرد معارك تأخيرية لتغطية عملية الإنسحاب التي تتم خطوة بخطوة.

و قد شدد الجيش السادس و بحق في محادثة تلغرافية بيني وبين الجنرال "باولوس" و بين رؤساء أركاننا على وجوب أن تكون الكلمة الشفرية "هزيم الرعد" رديفة لتلك الخاصة بالعملية "عاصفة الشتاء" و أن تنفيذ ذلك غير قابل للإيقاف في منطقة

"دونسكايا تساريتسا"، و كنا مجمعين بشأن تلك النقطة كلياً، و في الواقع كان الأمر الصادر من مجموعة الجيوش متنبأ بإرتباط "هزيم الرعد" مباشرة بـ"عاصفة الشتاء".

و ما كان حقيقة عبئاً ثقيلاً على قائد الجيش السادس هو أن حالة الوهن العام التي سادت القوات و إنخفاض حركية الوحدات الناجم عن ذبح الأحصنة لتناولها كغذاء أضعفا من أي إحتمالية لنجاح مثل تلك المهمة الصعبة و الخطرة و خاصةً بالنظر إلى ظروف تنفيذها تحت البرد القارس.

و قد كان وضع الوقود هو ما قرر في نهاية المطاف إقعاد الجيش السادس عن تنفيذ محاولة الخروج و أقنع كذلك مجموعة الجيوش بعدم الإصرار على تنفيذ أمرها، فقد أرسل الجنرال "باولوس" تقريراً يفيد أنه يمتلك من الوقود ما يكفي سير دباباته – و التي ما يزال أغلبها صالحاً للخدمة – لمسافة ٢٠ ميلاً، بما يعني عدم قدرة الجيش السادس على التحرك حتى تزويده بقدر مناسب من الوقود و الإمدادات الأخرى أو يتقدم الجيش الرابع بانزر لمسافة ٢٠ ميلاً داخل جبهة الحصار، و لا يمكن لأحد المنازعة حول عدم قدرة دبابات الجيش السادس على – و التي تعد قوته الهجومية الأساسية – عبور ثغرة إتساعها ٣٠ميلاً في حين أن ما لديها من وقود يكفيها لـ٢٠ ميلاً فقط، و من جهة أخرى لا يمكن للمرء تحمل الإنتظار حتى يصل مخزون الوقود لدى الجيش السادس إلى الحد المطلوب و هو ٤٠٠٠ طن بجانب إدراكنا التام لإستحالة نقل مثل تلك الكمية جواً، و أي تأخير من هذا القبيل سيعني فقط إهدار الوقت اللازم لخروج الجيش السادس.

على المرء أن يكون متأهباً للعيش على حد الكفاف و الدخول إلى المعركة بما يمتلكه فقط و الذي يتضمن بالطبع كميات الوقود التي يمكن نقلها جواً خلال الأيام القلائل القادمة في وقت لا يزال العدو فيه ينشر قواته،و لا يمكن للمرء أن يفعل أبعد من ذلك سوى تمني إستمرار إيصال الإمدادات جواً أثناء تنفيذ عملية الإختراق.

و مما يستحق الذكر في هذا المقام أن القوات عادةً ما يكون لديها في الواقع وقود أكثر مما تذكره في تقاريرها الرسمية، و لكن حتى لو لم يؤخذ ذلك في الحسبان فلا يزال على المرء أن يأمل في أن تسير الأمور على النحو التالي: في اللحظة التي يطلق فيها الجيش السادس هجومه تجاه الجنوب الغربي ستصير الأمور أسهل بالنسبة للجيش الرابع بانزر حيث لن يكون العدو قادراً على سحب أي قوات جديدة من جبهة حصار

"ستالينجراد" للإلتقاء به، و بذا سيكون الجيش الرابع بانزر – و المحدد له يوم ١٩ ديسمبر لعبور منطقة "ميشكوفا" - بلا شك قادراً على قطع مسافة الـ١٢ ميلاً المحددة له بمجرد تخفيف الضغط عنه بواسطة هجوم الجيش السادس.

و قد كان مخاطرة كبيرة قيامنا بتضمين ذلك في حساباتنا، و لكن بدون ذلك لا يمكننا ببساطة توقع إنقاذ الجيش السادس.

و لكن السبب الحقيقي وراء كون مشكلة الوقود حاسمةً في الإستقرار على بقاء الجيش السادس في "ستالينجراد" يكمن في ضابط الإتصال الذي وضعه "هتلر" داخل الجيب، فمن خلاله تمكن من العلم بإعتبار "باولوس" أن وضع الوقود يفضي إلى إستحالة قيامه ليس فقط بالبدء في تنفيذ عملية الإختراق و لكن حتى بالتحرك لخط البداية.

و قد قضيت وقتاً طويلاً على الهاتف محاولاً إقناع "هتلر" بالسماح بالجيش السادس بالخروج من "ستالينجراد"، و كان دوماً يردد: **" لا أدري ما الذي تعنيه، إن باولوس يمتلك فقط وقود كافٍ لمسافة ١٥ – ٢٠ ميلاً على أغلب الظن، و هو بنفسه قال أنه غير قادر على الخروج في الوقت الراهن".**

و لذا كان على مجموعة الجيوش أن تتعامل من جهة مع القيادة العليا التي إعتبرت أن أي هجوم ينفذه الجيش السادس نحو الجنوب الغربي يعتمد على إحتفاظه بما تبقى من جبهات "ستالينجراد"، و من جهة أخرى مع قيادة الجيش السادس و التي أعلنت أن وضع الوقود يجعلها غير قادرة على تنفيذ الأمر الصادر من مجموعة الجيوش، و لدعم تنفيذ قراره كان "هتلر" قادراً على إستدعاء أي قائد جيش يكون مسئولاً عن التعامل مع هذه المهمة الصعبة، و لو لمتكن تلك الذريعة بيده فقد يصير مدفوعاً بواسطة ضغط الأحداث إلى التخلي عن مطالبته بمواصلة التشبث بالمدينة حتى أثناء تنفيذ عملية الإختراق، و لكن حينها إطلع الجنرال "باولوس" إلى المشكلة بأكملها من زوايا مختلفة حيث إنه لم يعد يتصرف الآن بالمخالفة لأي أمر صريح من "هتلر".

و ترجع حقيقة قيامي بالحديث عن دوافع قائد الجيش السادس إلى التفريط في آخر فرصة لإنقاذ جيشه إلى إيماني بأنني أدين بهذا له بغض البصر عن أي شيء يرتبط بصفاته الشخصية أو مسلكه، و كما ذكرت بالفعل من قبل لا يمكن تجاهل أيٍ من الأسباب التي قدمها هو بإعتبارها غير مقبولة، و لكن تبقى الحقيقة متجليةً أنها كانت الفرصة الأخيرة و الوحيدة أمامنا لإنقاذ الجيش السادس، و يعني عدم إستغلالها – مهما

كانت مخاطرها جمة – التخلي عن آخر أمل في الخلاص، كما يعني إستغلالها أيضاً المخاطرة بكل شيء في ورقة لعب واحدة، و هو الأمر الذي صار الآن غير عملي من وجهة نظر مجموعة الجيوش.

من السهل توجيه النقد لمسلك الفيلد مارشال المستقبلي "باولوس" في تلك الأيام الحيوية، و بالتأكيد كان الأمر أكبر من مجرد الطاعة العمياء لـ"هتلر" حيث إنه لا يمكن أن ترد مسألة كون "باولوس" تملكته شكوك حادة أملاها عليه ضميره حول ما إن كان ينبغي عليه البدء في تنفيذ ستقود حتماً إلى – بالمخالفة لما يريده "هتلر" صراحةً – تسليم "ستالينجراد" للعدو، و يجب ملاحظة في نفس السياق أنه نظراً لكون الإستسلام نتيجة للضغط الساحق من العدو – حتى لو تم تبرير هذا الإستسلام بناء على الأمر الصادر من "هتلر" – و نظراً لكون مجموعة الجيوش قد أمرت بإخلاء المدينة فتنعقد المسئولية في رقبة هذه الأخيرة.

و بعيداً عن صراع الضمير هذا كان على قائد الجيش السادس أن يخوض مقامرة كبيرة إن أطاع الأمر الصادر من مجموعة الجيوش، ففي حين تمنح عملية الخروج فرصة حقيقة لإنقاذ الجيش إلا أنها قد تقود أيضاً إلى تدميره، ففي حالة فشل المحاولة الأولى لإختراق جبهة الحصار أو أن يعلق الجيش السادس في منتصف طريقه في وقت يكون فيه الجيش الرابع بانزر غير قادر على إحراز أي تقدم أكثر أو في حالة عمد العدو إلى مهاجمة القوات الألمانية التي تنفذ عملية الخروج من الخلف أو الأجنحة فسينحسم مصير الجيش السادس خلال وقت لا يذكر على الإطلاق، و المهمة التي تواجهه صعبة بشكل لا يصدق و شاقة إلى أقصى الحدود، فقد كان عليه أن يلتقي بالجيش الرابع بانزرمقاتلاً في شكل مربع على أربع جهات في وقت واحد و معرضاً لتهديد أن يؤدي الهجوم عليه إلى إيقاف تحركه على الإتجاه الجنوب غربي أو أن يتم تدمير خطوطه الخلفية أو أجنحته.

و علاوة على ذلك يقع تنفيذ تلك المهمة على عاتق قوات أنهكها الجوع و مقيدة الحركية، و مع ذلك كان من غير المحتمل أن يعينهم الأمل في إستعادة حريتهم و الخلاص من الموت أو الأسر في إنجاز تلك المهمة المستحيلة.

و عندما فرّط الجنرال "باولوس" في فرصته الأخيرة بتردده ثم إتخاذه القرار بعدم المغامرة فإنه بالتأكيد فعل ذلك بناء على شعوره بالمسئولية الملقاة على عاتقه، و رغم

أن مجموعة الجيوش بذلن جهوداً محمومة في سبيل إعفائه من تلك المسئولية إلا أنه ظل يشعر بعدم قدرته على إبراء نفسه منها سواء أمام "هتلر" أو أمام ضميره.

و في الأسبوع التالي لأمر مجموعة الجيوش الجيش السادس بالخروج الفوري حُسم مصير الجيش السادس.

و كانت مجموعة الجيوش لستة أسابيع كاملة قد تقبلت كل مخاطرة واردة في سبيل ترك الباب مفتوحاً أمام الجيش السادس ليشق طريق الخروج إلى الحرية بالتعاون مع الجيش الرابع بانزر، و خلال تلك الفترة كانت مجموعة الجيوش مهددة بإستمرار بخطر قيام العدو – إستغلالاً للإختراق الذي أحدثه في منطقة الجيش الإيطالي – إما بالتقدم عبر نقاط تقاطع نهر "دونتز" إلى "روستوف" – حيث يكون قادراً على ضرب شريان حياة كامل جناحنا الجنوبي – أو بالإلتفاف حول مؤخرة الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش "دون" و مفرزة الجيوش "هوليدت".

و كان علينا أن نبدأ في تنفيذ المحاولة حتى مع وجود خطر تفكك الحاجز الرفيع الذي يخدمنا على جبهة نهر "تشير السفلي" – الجيش الثالث الروماني – و في منطقة مفرزة الجيش "هوليدت".

و على الرغم من كل شيء تركت مجموعة الجيوش الجيش الرابع بانزر في موقعها المكشوف شرق نهر "دون" طالما إستمر الأمل في إستغلال الجيش السادس لآخر فرصة له في الهرب ممكناً، و قد نفد الوقت عندما لم تترك لنا تطورات حدثت على الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش أي خيار سوى نقل قوات إلى هناك من الضفة الشرقية لنهر "دون" و عندما صار من غير الممكن الدفاع عن موقع الفيلق ٥٧ بانزر في "ميشكوفا".

و الآن دعونا نتقصى بإختصار الأحداث الدرامية لذلك الأسبوع.

بدأ الأمر برمته على الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش و تحديداً على الجناح الأيسر لمفرزة الجيش "هوليدت".

و لم يكن ما حدث للإيطاليين معروفاً بالضبط، فقد بدا أن فرقة المركبات الخفيفة الوحيدة و واحدة أو أكثر من فرق المشاة قد أبديتا مقاومة تستحق أن تُذكر، و كما حدث بالفعل، في صباح ٢٠ ديسمبر أورد الجنرال الألماني الذي يقود الفيلق المتموضع على

الجناح الأيمن للإيطاليين أفاد بالإنسحاب السريع للفرقتين الإيطاليتين التابعتين له – السبب الواضح لذلك هو توغل فيلقين مدرعين للعدو عميقاً داخل أجنحتهما – و نتيجة لذلك صار جناح مفرزة الجيش "هوليدت" مكشوفاً تماماً.

و عندما تم إبلاغ قيادة مجموعة الجيوش بذلك الموقف بواسطة الجنرال "هوليدت" – و الذي صار بالفعل تحت قيادة مجموعة الجيوش "ب" – أمرته بإستخدام كل الوسائل الممكنة لوقف إنسحاب الفرقتين الإيطاليتين، كما تسلمت المفرزة التي يقودها أمراً بالتمسك بمواقعها على نهر "تشير العلوي" و تغطية جناحها الأيسر بنشر صف قوات دفاعية عليه.

و خلال ذلك اليوم تم إختراق الجبهة الرقيقة لمفرزة الجيش من جهتين، **الأولى** تمثلت في الإنسحاب الغير مصرح به للفرقة السابعة الرومانية ، أما **الثانية** فتمثلت في إخلاء قيادة الفيلق الأول الروماني مواقعها في ذعر.

و بحلول مساء ٢٠ ديسمبر صار موقف الجناح العميق لمفرزة الجيش "هوليدت" شديد الغموض، فلا يمكن لأحد القول ما إن كان الإيطاليون الذين يقاتلون بجوارها ما زالوا يبدون أي مقاومة – و إن كانوا فأين؟، و وردت تقارير تفيد وجود رؤوس حراب مدرعة للعدو في كل مكان خلف مفرزة الجيش "هوليدت" و حتى بعيداً في الخلف وصولاً إلى نقاط تقاطع نهر "دونتز" المهمة في "كامنسك – شاختينسكي".

و خلال اليومين التاليين صار موقف مفرزة الجيش "هوليدت" أكثر خطورة، فحتى مع إختراق جبهتها لك تتمكن من تصدير أي جناح أو مؤخرة يمكن حمايته لمدرعات العدو و التي تمتعت بدورها بحرية كاملة في القطاع الذي دحرت فيه الإيطاليين، و قريباً سيفضى هذا الموقف المحفوف بالمخاطر بآثاره على الجيش الثالث الروماني على نهر "تشير السفلي".

كان على مفرزة الجيش "هوليدت" أولاً أن تبذل قصارى جهدها لإنشاء جبهة جديدة قاسية المستوى ترتبط بجبهة الجيش الثالث الروماني بهدف تغطية جناح الأخير و القواعد الجوية في "موروسوفسكي" و "تاتسينيكايا" و اللتي لا يمكن الإستغناء عنها بالنسبة لجسر الإمداد الجوي إلى "ستالينجراد"، كما توجب فعل كل ما هو ممكن للإحتفاظ بنقاط العبور المهمة على نهر "دونتز" في "فورتشستادت" و "كامنسك شاختينسكي".

و كان واضحاً أن مثل تلك الوسائل الوقتية يمكنها أن تحتوي الموقف على الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش ليومين أو ثلاثة على الأكثر، و في ٢٠ ديسمبر أرسلت مجموعة الجيوش إلى *القيادة العليا للجيوش الألمانية*رسالة تلغرافية توضح أنه لو تصرف العدو بشكل جذري و حاسم عقب إختراقه للجبهة الإيطالية فسيكون قادراً على التوجه إلى "روستوف" و التمهيد لإتخاذ قرار حاسم بشأن مجموعتي الجيوش "دون"و "أ"، و قد كان من سمات الحالة السائدة لدى القيادة العليا أنه حتى رئيس هيئة الأركان العامة للجيش الألماني كان غير قادر على تسليم هذه الرسالة لـ"هتلر" في هذا اليوم تحديداً لأن هذا الأخير كان مشغولاً – برفقة ممثلين عن القيادة العامة للفيرماخت – في التفاوض مع وفد إيطالي، و تمثل الرد الوحيد الذي وصلنا في توجيه صادر من *القيادة العليا للجيوش الألمانية*بتاريخ ٢٢ ديسمبر بتعيين خط دفاعي لمفرزة الجيش "هوليدت" و الذي كان قد تجاوزته المفرزة بموجب الأحداث المتلاحقة، و في نفس اليوم بدا أنه من الممكن و لكن غير محتمل ما إن كانت التشكيلات الألمانية و بعض التشكيلات الرومانية و التي تعتمد عليها مفرزة الجيش في القتال على الجبهة ستنسحب إلى الخط الدفاعي الجديد.

و بشكل واضح لم تتمكن مجموعة الجيوش من توقع إتخاذ أي إجراءات فعالة من قبل القيادة العليا بعدف فرض حالة إستقرار في الثغرة التي إنفتحت في جبهتنا المرتبطة بجبهة مجموعة الجيوش "ب" بسبب هزيمة الإيطاليين، بل إنها رفضت حتى السماح بالنقل السريع لفرقة مشاة من مجموعة الجيوش "أ" لضمان الحماية الفورية لـ"روستوف"، و كل ما يمكننا فعله هو الإعتماد على مواردنا الخاصة – و هو القرار الأكثر إيلاماً لأنه يمكن إتخاذه فقط على حساب الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش – مثل القوات المشتبكة مع العدو شرق نهر "دون"، و لكن لا توجد أي مساحة للتأخير ففي ٢٤ ديسمبر بلغت الأزمة بالنسبة لمفرزة الجيش "هوليدت" ذروتها، فلقد تقدمت ثلاثة فيالق دبابات و ميكانكية معادية عبر الصدع الموجود في الجبهة و الذي كان يشغله الإيطاليون و الرومانيون، و قد إقترب منهم إثنان – الفيلق ٥٠ ميكانيكي و ٢٥ دبابات – من قواعد جسر الإمداد الجوي الحيوية في "موروسوفسكي" و "تاتسينسكايا" في حين إلتف الثالث – الفيلق الثامن دبابات – وراء عناصر مفرزة الجيش التي ما تزال تقاتل إما على الروافد الوسطى أو العليا لنهر "تشير".

و بينما تزايدت خطورة الموقف على الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش و خاصة الجبهة الغربية المكشوفة له إلا أننا واصلنا النضال من أجل إخراج الجيش السادس – و الذي ما يزال معتمداً على تنازل "هتلر" عن "ستالينجراد" و على جهوزية الجيش السادس للقيام بالمغامرة.

و كان في تلك الأثناء الجيش الرابع بانزر يبذل كل ما في وسعه إنجاز القفزة الأخيرة إلى "ستالينجراد" آملاً في نفس الوقت في تيسير الجيش السادس مهمته عليه عبر بدء الهجوم تجاه الجنوب الغربي.

في الأيام التي أعقبت وصول جيش الإنقاذ إلى منطقة "ميشكوفا" في ١٩ ديسمبر وجد هذا الجيش نفسه متورطاً في قتال عنيف ضد موجات غير منتهية من قوات العدو قادمة من جهة "ستالينجراد" لوقف تقدمه، و على الرغم من ذلك نجح الفيلق ٥٧ بانزر في الحصول على موطئ قدم على الضفة الشمالية للنهر و في – عقب سلسلة من القتال المتقطع – إنشاء رأس كوبري هناك، و قام العدو بهجمات مكثفة لم يجنِ منها سوى الخسائر الدموية، و كانت القوات الأمامية للفيلق بالفعل يمكنها رؤية إنعكاس النيران حول "ستالينجراد"، و قد بدا النجاح ريب المنال فقط لو قام الجيش السادس بتحويل موقفه و المشاركة في خضم الهجومو على الأقل منع العدو من مواصلة إلقاء قوات جديدة في طريق الجيش الرابع بانزر، و لأسباب سبق ذكرها لم يتم هجوم الجيش السادس أبداً.

و في يوم ٢٣ ديسمبر بعد الظهيرة إضطرت مجموعة الجيوش مع الأسف توجيه إنتباهها للجناح الأيسر – و الذي كان الموقف عليه حرجاً للغاية – فقامت بنقل قوات إلى هناك، حيث تم توجيه الجيش الثالث الروماني المتموضع على نهر "تشير السفلي" إلى تحرير قيادة الفيلق ٤٨ بانزر و الفرقة ١١ بانزر بهدف إستعادة الموقف على الجناح الغربي لمجموعة الجيوش – و في سبيل ذلك تحمل الجيش الرابع بانزر الخسارة المتمثلة في فرقة مدرعة واحدة – و الذي بدونه لا يمكن التمسك بجبهة نهر "تشير السفلي".

و قد أظهرت الأيام التالية عدم جدوى ذلك الإجراء، حيث خسرنا القاعدة الجوية في في "تاتسينسكايا" و ضاعت معها وسائل إمداد الجيش السادس جواً، و لم نتمكن من إعادة إحتلالها حتى ٢٨ ديسمبر.

و كانت مجموعة الجيوش قد إضطرت لإتخاذ ذلك القرار الموجع بحرمان مجموعة الإنقاذ التابعة للجيش الرابع بانزر من فرقة كاملة عندما تجلى أمامها بشكل واضح أن الجيش السادس لا يمكنه القيام بتنفيذ الخروج في الوقت المحدد، و حتى الآن كان يمكنها تأجيل ذلك إن كانت الفرقة ١٦ مشاة ميكانيكي متاحة بالفعل، و أقر أنه في ٢٠ ديسمبر نفذت *القيادة العليا للجيوش الألمانية*ما وعدت به قيادتنا و أصدرت أخيراً أوامرها القاضية بإنقاذ هذه الفرقة – ١٦ مشاة ميكانيكي – في "ييلستا" بواسطة فرقة "فايكنج" التابعة لمجموعة الجيوش "ب"، و لكن لسوء الحظ تحتاج هذه العملية عشرة أيام لإتمامها، و كما حدث بالفعل، إنقضت عشرة أيام بالضبط منذ الطلب الأول من مجموعة الجيوش بتحرير الفرقة ١٦ مشاة ميكانيكي، لو كانت تلك الموافقة صدرت في حينها على الفور لصارت الفرقة المعنية جاهزة للدخول في المعارك على جبهة نهر "تشير" في ٢٣ ديسمبر و لما حُرم الفيلق ٥٧ بانزر من فرقته المدرعة أبداً، و كما كان الوضع غالباً حمل القرار الطابع التوسعي لـ"هتلر".

و رغم أن "هتلر" أبرم وعداً على نفسه بالسماح لمجموعة الجيوش بالحصول على الفرقة السابعة بانزر إلا أنها وصلت متأخرةً جداً في وقتٍ كانت فيه عملية الإنقاذ قيد التنفيذ، و قد أمل "هتلر" في نفس الوقت في رؤية الأحداث تنعطف للأفضل مع قرب وصول أول كتيبة "نمر" ، و لكن ذلك لم يكن سوى وهماً، فبجانب حقيقة مرور بعض الوقت قبل وصول دبابات نمر نجد أنها لم تخضع أبداً لأي إختبار في ظروف محاكية لظروف القتال الحقيقة، كما أنها كانت مشوبة بعيوب خطيرة حالت دون تقديمها أي عون جدير بالإهتمام لنا، و تلك كانت – بدون أي مصادفة – الطريقة التي دأب "هتلر" فيها على المبالغة في تقييم قوة الأسلحة الجديدة.

و بذا حانت الآن على أرض المعركة شرق نهر "دون" لحظة إنتقال زمام المبادرة لعدونا.

في ٢٧ ديسمبر تعرض الفيلق ٥٧ بانزر للهجوم في قطاع "ميشكوفا" – حيث كانت تجري تحضيرات العدو بإستمرار – و تقهقر إلى "أكساي"، و قد بدت واضحةً في الأيام القليلة القادمة نية السوفييت لتطويق الفيلق من جهتي الشرق و الغرب.

تم التعرف على جيشين سوفييتيين – الأول و الخمسين و الحرس الثاني و المشتملين على ثلاثة فيالق ميكانيكية و فيلق دبابات و ثلاث فيالق مشاة و فيلق خيالة – على

الجبهتين الشمالية و الشرقية للجيش الرابع بانزر، و قام العدو بسحب كمية كبيرة من تلك القوات من جبهة حصار "ستالينجراد" رغم عدم توقف قدوم التعزيزات له عبر نهر "فولجا".

و في غضون يومين أو ثلاثة أجبرت جحافل القوات التي حشدها العدو الجيش الرابع بانزر على الإنسحاب بعيداً نحو "كوتلنيكوفو" – و هو المكان الذي بدأ منه زحفه على "ستالينجراد" في ١٢ ديسمبر، و ما جعل هذا الإنسحاب حتمياً لا مفر منه هو عدم قدرة وحدات الجيش الرابع الروماني التابعة له على إنجاز المهمة المتمثلة في حماية أجنحة قوات الفيلق ٥٧ بانزر في معركتها الصعبة على نهر "أكساي"، فقد فقدت القوات المنتمية لكلٍ من الفيلق السابع الروماني – مهمتها المحافظة على تماسك الجناح الشرقي للجيش ناحية نهر "فولجا" – و الفيلق السادس الروماني – المعنية بحماية المنطقية بين الفيلق ٥٧ بانزر و نهر "دون" – إرادتها على القتال، و هو ما يرجع جزئياً بلا شك إلى الجهود الضئيلة التي بذلها أيٌ من قادتها للمحافظة على روحها المعنوية، و رغم تأكيدات قائد الجيش الرابع الروماني بقيامه بكل ما هو لازم لحث قواته على المقاومة إلا أنه لم يتعامل بحسم في الواقع مع مثل هذا التفسخ، و لم نجد أمامنا من خيار سوى إخراج تلك الوحدات من المعركة و إرسالها لرومانيا.

لقد أخفقت محاولة إنقاذ الجيش السادس البادئة في ١٢ ديسمبر – على الأقل حتى اللحظة.

هل ما تزال توجد أي محاولة لإعادة الكرة بالنظر لمجريات سير الأمور منذ تاريخ البدء؟

يجب أن يكون الرد على هذا السؤال اليوم – مع القيام بإستدعاء معرفة المرء حول الأحداث الجذرية التي وقعت في منطقة مجموعة الجيوش "ب" – بالنفي، ففي ذلك الوقت لم يكن ممكناً التنبؤ بأن الكارثة التي حلت بالجيش الإيطالي ستتبعها طامّة أكبر قبل نهاية يناير تحل بالجيش المجري في قطاعه على نهر "دون".

و هكذا – و بصرف النظر عن كل الإعتراضات التي أبديت حينها – شعرت مجموعة الجيوش بأنها ما تزال غير قادرة على التخلي عن سياستها في تقديم العون للجيش السادس، و واضعةً ذلك في الإعتبار أرسلت المقترحات التالية *للقيادة العليا للجيش* في ١٦ ديسمبر.

طالبنا من أجل حماية الموقف على الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش و لو لفترة محدودة – و التي كان العدو يهدد بإختراقها عند "روستوف" – بتدخل سريع في أقرب وقت ممكن تنفذه مجموعة الجيوش الجاهزة للقتال و التي بدأت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* في نشرها في منطقة "مليروفو" خلف الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش "ب" بالضبط، و إضافةً إلى ذلك رغبنا في نقل أي فرقة مشاة من الجيش السابع عشر التابع لمجموعة الجيوش "أ" إلى "روستوف" بهدف توفير الحماية المباشرة لتلك المنطقة، كما ينبغي على الفرقة السابعة بانزر – التي وُعدت بها بالفعل مجموعة الجيوش و لكنها ستصل متأخرة جداً بحيث لا يمكن إشراكها في ما يجري شرق نهر "دون" – أن تشارك الآن في المعركة الدائرة على الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش.

و أسوأ ما يمكن توقعه بالنسبة لمجموعة الجيوش الوسطى هو الإنسحاب إلى خط "دون – دونتز"، و بجانب ذلك سادت حالة من الهدوء على نهر "تشير السفلي" في الأيام القلائل الماضية نظراً لقيام العدو قطعياً بتركيز قواته بعيداً في الغرب للسيطرة على قواعدنا الجوية في "تاتسنسكايا" و "موروسوفسكي".

و مسألة إمكانية تنفيذ محاولة ثانية لرفع الحصار عن "ستالينجراد" من عدمها تعتمد على قدرتنا على نشر قوات كافية شرق نهر "دون" لتمكين الجيش الرابع بانزر من هزيمة العدو المُطارد له الآن، و لهذا الغرض طلبت مجموعة الجيوش "دون" من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* – و هو ما فعلته تكراراً منذ ١٨ ديسمبر و حتى قبل هذا التاريخ – أن تنقل على الفور الفيلق الثالث بانزر و فرقة مشاة من الجيش الأول بانزر بهدف تعزيز الجيش الرابع بانزر، و تلك القوات ستكون كافية – عند جمعها مع الفرقة ١٦ مشاة ميكانيكي – من وجهة نظر مجموعة الجيوش لقيام الجيش الرابع بانزر بالتوجه إلى "ستالينجراد" مجدداً.

و قد إفترضنا أن تلك القوات ستكون متاحة للجيش الرابع بانزر في غضون ستة أيام، و يجب أن تكفي نفس المدة لتوصيل المتطلبات العاجلة لجيش السادس من الوقود {١٠٠٠ طن} و الغذاء {٥٠٠ طن}، و قد وعدتنا القيادة العليا في تلك الأثناء بالمزيد من أسراب طائرات النقل، و ستتحرر "تاتسينسكايا" و "موروسوفسكي" من جديد خلال يوم أو إثنين، و لا حاجة للقول بأنه في نفس الوقت دأبنا على المطالبة بمنح الجيش السادس حرية الحركة.

و حتى إن إعتبر هذا الأخير محاولة الخروج لا أمل منها في تلك اللحظة الفارقة فإن قيادة مجموعة الجيوش أصرت على عدم وجود أي بديل لإستحالة إستمرار تدفق الإمدادات على الجيش السادس في الجيب، و بالنظر للموقف العام و حالة قوات الجيش السادس فقد إعتبرنا أن آخر موعد ممكن للخروج ينبغي أن يكون مع حلول السنة الجديدة و الذي بحلوله سيكون الجيش الرابع بانزر – مع إشتراط دوماً وصول التعزيزات له – قد بدأ الهجوم على الجيش مجدداً، و أقر أنه بالكاد يمكن للجيش السادس - حتى لو تمت عملية الخروج بنجاح – أن يصل للجيش الرابع بانزر و هي في حالة سليمة، و على الرغم من ذلك فإن عدد لا يستهان من قواته ما تزال أمامها فرصة الخروج سالمة.

و أما السؤال حول ما إن كان الجيش الأول بانزر يمكنه الإستغناء عن القوات المذكورة أعلاه في ذلك الوقت فقد إعتبر كلٌ من "هتلر" و مجموعة الجيوش "أ" أن ذلك غير ممكن.

و سواء كان هذا الرفض مبرراً من عدمه يجب ترك البت فيه لآخرين، و في كل الأحوال قامت مجموعة الجيوش "دون" في ٢٧ ديسمبر بإرسال بيان مقارنة القوى *للقيادة العليا للجيش* موضحاً فيه أن نقل الفرق الثلاثة الذي طلبناه هو أمر ملائم تماماً، و وفقاً للأرقام المذكورة فيه يتبين أن نسبة القوات الألمانية مقارنةً بقوات العدو في منطقة مجموعة الجيوش "أ" أفضل بكثير من نظيرتها في منطقة مجموعة الجيوش "دون".

فلقد تورطت التشيكلات التابعة لتلك الأخيرة في معارك عنيفة في الشهر و نصف الأخير و بناءً عليه تدهورت أحوالها، و قد فُرض على مجموعة الجيوش "دون" أن تقاتل في الريف المفتوح حيث ظلت تتشبث بمواقعها هناك منذ تسبب هجوم القوقاز في تشتيت جيوش مجموعة الجيوش "أ" و بالتالي يُفترض أن تكون تلك المواقع قد زادت قوتها، و لكن حتى لو عجز الجيش الأول بانزر عن مقاومة أي هجوم قوي للعدو بعد نقل الثلاث فرق محل الكلام منه فإنه ما يزال يستطيع الإعتماد على التكتيكات المرنة بهدف تأخير تقدم العدو حتى تنحسم نتيجة معركة إنقاذ الجيش السادس، و مع ذلك لم يتقبل "هتلر" هذه الإحتمالية في ذلك الوقت رغم إشارة قيادة مجموعة الجيوش التابعة لنا تكراراً إلى أنه حتى لو تمكنا من إخراج الجيش السادس فإننا لا يمكننا بأي حال من الأحوال التمسك بجبهة القوقاز، و هذا "الحل العظيم" الذي دافعنا عنه – و الذي كان

يعني إخراج الجيش السادس من "ستالينجراد" و الإنتقال إلى عمليات حركية عبر المناطق التابعة لمجموعتي الجيوش "دون" و "أ" – كان أمراً لم يقبل به "هتلر" أبداً.

و لكن قد يكون لرفض "هتلر" إضعاف مجموعة الجيوش "أ" – بصرف النظر عن رغبته الصلبة في عدم التخلي عن أي شيء – سبب آخر، حيث كان يؤمن بشكل واضح بوجود إمكانية أخرى لتقديم العون للجيش السادس حتى و لو لم تكن في تاريخ متأخر.

و فقاً للتوجيه الصادر من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* الذي تسلمناه في ٣١ ديسمبر قرر "هتلر" تحريك الفيلق بانزر من سرايا الدفاع – و الذي كان قد أخذ راحة لفترة و أعاد شحذ قواه و إشتمل على "الليبستاندرت" - إضافة إلى فرقة "رأس الموت" و الفرقة "رايخ" بانزر غرناد من مسرح العمليات الغربي إلى الشرقي، و كان على الفيلق حشد قواته حول "خاركوف" و ينطلق من هناك منفذاً هجومه الإنقاذي تجاه "ستالينجراد"، و مع ذلك لم يكتمل إنتشاره في منطقة "خاركوف" قبل منتصف فبراير بسبب السعة المحدودة للسكك الحديدية، و لم يوضح التوجيه كيفية إبقاء الجيش السادس على قيد الحياة في "ستالينجراد"، و حتى لو لم يكن من الممكن حتى الآن التنبؤ بالطامة التي حلّت بقطاع الجيش المجري و الذي طالت الإيطاليين تواً فإن إتاحة فيلق بانزر من سرايا الدفاع ما يزال أمراً ضرورياً بالنظر لخطورة الموقف المتزايدة بإستمرار في المنطقة الممتدة بين مجموعتي الجيوش "ب" و "دون"، و مع ذلك لم يكن هناك أي أساس لإفتراض أن القوات التابعة لفيلق بانزر من سرايا الدفاع ستكون كافية لتنفيذ الهجوم على مدينة بعيدة مثل "ستالينجراد"، و ما قد يكون تحقق بالفعل خلال مسافة الـ٨٠ ميلاً القصيرة من "كوتلنيكوفو" إلى "ستالينجراد" في ديسمبر – عندما كانت التعزيزات مناسبة للجيش الرابع بانزر تماماً – لا يمكن إعتباره سوى ضرباً من الخيال الحالم في فبراير عندما تعلق الأمر بتغطية مسافة طولها ٣٥٠ ميل من "خاركوف"، و لو كان "هتلر" يصدق حقاً إمكانية مثل ذلك التقدم فهذا يجسد بالضبط ما قيل عنه في فصل سابق.

و عندما رفض "هتلر" كل طلبات مجموعة الجيوش "دون" بشأن التعزيز السريع للجيش الرابع بانزر في نهاية ديسمبر كان السيف قد سبق العذل بالنسبة لمصير الجيش السادس، عبثاً خاطرنا حتى آخر رجل و آخر طلقة في سبيل تحرير الجيش السادس! عبثاً ناضلنا حتى اللحظة الأخيرة في سبيل تنفيذ عملية الإنقاذ دون تفكير حتى في مصير مجموعة الجيوش بأكملها في سبيل ذلك!

و منذ بداية يناير فصاعداً يمكن تقسيم الأحداث في منطقة مجموعة الجيوش "دون" إلى مرحلتين متناظرتين:

١. معركة الجيش السادس الأخير حول "ستالينجراد"
٢. النضال لحماية كامل الجناح الجنوبي – و المشتمل على مجموعات الجيوش "أ" و "ب" و "دون".

و بينما يتوجب علينا الحديث مع المرحلة الثانية بشكل منفصل لأسباب تتعلق بالإستمرارية العملياتية فإن الأولى تمت تغطيتها بالفعل في الجزء الأخير من هذا الفصل، و هناك سنرى الأثر الكبير الذي تولد عن معركة الجيش السادس الأخيرة على حماية الجناح الجنوبي للجيوش الألمانية.

معركة الجيش السادس الأخيرة:

إن الصراع من أجل البقاء الذي خاضه الجيش السادس – و الذي بدأ في أواخر العام – هو عبارة عن قصة من المعاناة التي لا يمكن وصفها، فهي لم تتسم فقط باليأس و المرارة التي تملكت رجالاً خانتهم ثقتهم في قادتهم و لكن بالصمود الذي أظهروه في مواجهة مصير لا يستحقونه و لكنه حتمي، و كذلك إتسمت بشجاعتهم الفائقة و روح الزمالة و الإخلاص للواجب فضلاً عن تسليمهم الهادئ للرب و إيمانهم المتواضع به.

و إن إمتنعت عن الخوض في تلك الأمور هنا فذلك بالتأكيد ليس بسبب عدم تأثرنا في قيادة مجموعة الجيوش بها، و إحترامي للبطولة المنقطعة النظير يجعلني غير قادر على التعامل بعدالة تامة مع الأمور التي حدثت في "ستالينجراد".

يوجد سؤال واحد أشعر بأنني مجبر على الإجابة عليه و مؤهل ذلك في آن واحد بإعتباري القائد السابق لمجموعة الجيوش "دون".

هل كان من الضروري أو المبرر – و إن كان فلأي مدة – طلب هذه التضحية من جنودنا؟ بمعنى آخر هل حققت معركة الجيش السادس الأخيرة أي هدف معيد؟ و

للإجابة على هذا السؤال بشكل صحيح فعلى المرء أن يفحصه بالنظر للموقف السائد حينئذٍ بدلاً من إجابته في ضوء هزيمة ألمانيا في نهاية المطاف.

في ٢٦ ديسمبر أرسل لنا قائد الجيش السادس رسالة قمنا بتمريرها مباشرة إلى *القيادة العليا للجيوش الألمانية*و كانت سياستنا طوال الوقت تقوم على توضيح موقف الجيش بشكل غير منمق، و منذ هذه اللحظة فصاعداً كانت التقارير التي نتسلمها من داخل الجيب ترد فقط عبر اللاسلكي أو من أحد الضباط الذي يُرسل إلينا حاملاً الرسالة، و لم نكن قادرين على الإحتفاظ بخط اللاسلكي العالي التردد و الذي أمكن معه إتمام محادثات تلغرافية في وقت قصير.

و نصت رسالة الكولونيل الجنرال "باولوس" على الآتي:

" إن الخسائر البشرية و البرد و نقص المؤن خلفوا جميعاً مؤخراً آثاراً خطيرة على الكفاءة القتالية للفرق المقاتلة، و يتعين عليّ أن أذكر الآتي:

١. يستطيع الجيش مواصلة التصدي للهجمات المعادية المحدودة النطاق و التعامل مع الأزمات البسيطة لبعض الوقت بشرط رفع مستوى تدفق الإمدادات و إرسال التعزيزات في أقرب وقت ممكن.
٢. إن قام العدو بسحب أي قدر من القوات من جبهة هوث {قائد الجيش الرابع بانزر} و إستخدمها – أو غيرها – في شن هجمات ضخمة على حصن ستالينجراد فلن يتمكن الحصن من الصمود طويلاً.
٣. لم يعد من الممكن شق طريق الخروج ما لم يتم فتح ممر قبل ذلك و تزويد الجيش بالرجال و العتاد.

لذا أطلب عرض هذه الرسالة على أعلى مستوي لضمان إتخاذ تدابير نشطة في سبيل إنقاذ سريع ما لم يكن الموقف العام يتطلب التضحية بجيش بأكمله، و سوف يقوم الجيش بكل ما بوسعه من أجل التماسك حتى آخر لحظة ممكنة.

كما عليّ أن أذكر وصول ٧٠ طناً فقط من الإمدادات اليوم، و بعض الفيالق سوف ينفد مخزونها من الخبز غداً و اللحوم الليلة أو ليلة الغد، نحن بحاجة الآن لتدابير جذرية".

و يؤكد مضمون هذه الرسالة فداحة الخطأ الذي وقع فيه رئيس الأركان العامل مع "باولوس" منذ أسبوع خلا عندما أكد أن الجيش يمكنه الإحتفاظ بتماسكه حتى عيد الفصح لو تم إمداده بطريقة صحيحة.

كما أوضحت الرسالة أنه عندما أمرت مجموعة الجيوش الجيش السادس بالخروج من الجيب الأسبوع الماضي فإنها لم تكن فرصة إنقاذه الأولى – بالنظر إلى إقتراب الجيش الرابع بانزر منه – بل و الأخيرة أيضاً – بالنظر للحالة التي كان عليها ذلك الجيش.

و على خلاف ذلك ساد هدوء نسبي – بإستثناء بعض الهجمات المحدودة – على جبهات الجيش السادس في نهاية ديسمبر و بداية يناير، و يرجع هذا إما لرغبة العدو في إعادة تذخير مدفعيته تمهيداً لهجوم كبير أو لأنه كان يقوم بعزل القوات التي سيستخدمها في محاولته لتدمير الجيش الرابع بانزر و لتحقيق النجاح الذي يبغيه في الثنية الكبيرة لنهر "دون".

في ٨ يناير وصل إلى مقر قيادة مجموعة الجيوش الجنرال "هيوب" عقب زيارته لـ"هتلر"، و كان "هتلر" قد أخرج "هيوب" من "ستالينجراد" إلى "جزيسكو"[١] لإطلاعه على موقف الجيش السادس، و قد أخبرني "هيوب" بإعطائه "هتلر" صورة واضحة عما يدور داخل الجيب، و هي لا تختلف في حقيقة الأمر بأي حال عن تلك التي أوضحناها لـ"هتلر" في تقارير الموقف اليومية الصادرة عن مجموعة الجيوش، و لكن يبدو أنه لم يكن ليتقبل رؤيتنا الخاصة بدون وجود دليل يدعمها.

و على الرغم من ذلك كان واضحاً كيف أثّرت المدة التي قضاها "هيوب" في "جزيسكو" عليه و المدى الذي بلغه في التأثر بما أظهره "هتلر" من ثقة و خلافها، و قد أعلن "هتلر" فعل كل شيء في سبيل الإمداد طويل الأمد للجيش السادس و قد لفت الأنظار لخطة إنقاذه المزمع تنفيذها في وقت لاحق، و بعد أن إسترجع ثقته عاد "هيوب" إلى داخل الجيب فقط ليتم عقب ذلك إخراجه منه مجدداً بتعليمات من "هتلر" ليتولى شيءون جسر الإمداد الجوي، و مع ذلك عجز "هيوب" عن رفع مستوى الجسر و الذي يرجع إنخفاض كفاءته إلى الظروف الجوية السائدة و قلة موارد اللوفتافا فضلاً عن قصور عملية تنظيمه، و قد أثّر فيه تصريح واحد لـ"هيوب" بشكل شخصي حول رواج إشاعات وسط الجيش السادس تفيد قيامي بإرسال الإشارة "تماسكوا ، سأخرجكم:

[١] جزيسكو : مدينة تابعة لبولندا حالياً.

مانشتاين"، ففي حين لم أترك سبيلاً إلا و سلكته في سبيل إخراج الجيش السادس من "ستالينجراد" إلا أنني لم تكن من عادتي أبداً أن أعِد القوات بأمر لست متأكداً من إنجازه.

و كان الجنرال "هيوب" – والمشهود له الشجاعة – قد حاول أن يظهر لـ"هتلر" الأثر المدمر الذي يحمله حصار الجيش السادس على مظهره كرئيس للدولة، و كان يتمنى عبر تلك الوسيلة أن يقترح تسليم "هتلر" القيادة – على الأقل في الجبهة الشرقية – لأي جندي، و بالنظر لحقيقة قيام "هيوب" بزيارتنا و هو في طريقه إلى "جزيسكو" ثارت الشكوك لدى "هتلر" حول ما إن كنت أنا من ألهم "هيوب" في إقتراحه ذاك، و لكن الواقع كان غير ذلك.

و عندما إقترحت على "هتلر" بنفسي عقب سقوط "ستالينجراد" تغييراً في القيادة العسكرية العليا وجدته قد تم تحذيره من قبل و رفض تماماً حتى التفكير فيه، و على النقيض من ذلك – و خاصة أنه كان ما يزال حينها متأثراً بمسئوليته عن خسارة الجيش السادس – وجدته أظهر إحتراماً أكثر لأفكاري.

في ٩ يناير طلب العدو من الجيش السادس الإستسلام، و بأوامر من "هتلر" تم الرفض.

لا أعتقد إمكانية لومي على تبنيّ وجهة نظر غير نقدية لقرارات "هتلر" و تصرفاته في الحقل العسكري، بل إنني أؤيد تماماً القرار الذي إتخذه في تلك المرحلة و الذي قد يبدو قاسياً من وجهة النظر الإنسانية و لكنه كان ضرورياً في ذلك الوقت.

و لا أقترح أن نتصرف هنا من مطلق وجهة نظر الجندية و التي تقرر عدم إمكان إستسلام أي جيش طالما كان محتفظاً بقوته القتالية، و يعني التخلي عن ذلك نهاية الجندية، فهذا المفهوم عن الجندية يتعين الإلتزام به حتى يحل علينا ذلك العهد الجميل الذي لا تلجأ فيه الدول إلى الأسلحة و لا يصير هناك وجود لأي جنود، و حتى الرغبة في تجنب معركة يائسة بواسطة الإستسلام لا تبرر ذلك الأخير.

و لو قرر كل قائد عام الإستسلام بمجرد شعوره أن الوضع ميئوس منه فلن يربح أحد في الحرب أبداً، و حتى في المواقف التي يبدو الأمل مفقوداً فيها لو تمكن من العثور على طريق النجاة في نهاية المطاف، و في كل الأحوال كانت وجهة نظر الجنرال "باولوس" تقضي بأن واجب جنديته يحتم عليه رفض الإستسلام، و يستثنى من ذلك

حالة إفتقار الجيش لأي دور يقوم به و عدم وجود أي غرض مفيد يحققه إستمراره في القتال، و هذا يقودنا بدوره إلى النقطة الحاسمة التي تبرر قرار "هتلر" رفض إستسلام الجيش و تحرم مجموعة الجيوش من التدخل في جانب مثل هذا الفعل في تلك اللحظة الفارقة، و لايهم عدم جدوى مواصلة الجيش السادس في القتال على المدى الطويل فهو ما يزال أمامه دوره هام يقوم به – طالما إعتُبر إستمرار القتال ضرورياً – بالنظر للموقف الإستراتيجي الشامل، فكان عليه أن يقيد قوات العدو المواجهة له لأطول فترة ممكنة.

في بداية ديسمبر تم الكشف عن وجود قرابة الستين تشكيلاً من قوات العدو – فرق مشاة و ألوية مدرعة و ميكانيكية – في حلقة الحصار حول الجيش السادس، و بلا شك تم إبعاد بعضاً منها بفعل هجمات الجيش الرابع بانزر و لكن العدو جلب قوات جديدة و حلت محلها، و في ١٩ يناير أفادت تقارير نشر العدو تسعين تشكيلاً من أصل ٢٥٩ مواجهة لمجموعة الجيوش "دون" على حول الجيش السادس، و ما كان سيحدث لو تم تحرير الكتلة الرئيسية لتلك التشكيلات التسعين عقب إستسلام الجيش السادس في ٩ يناير هو أمر واضح بما فيه الكفاية في ضوء ما قيل بالفعل عن موقف مجموعة الجيوش و التهديد المستمر للجناح الجنوبي بأكمله.

و قد كان الجيش السادس ما يزال قادراً قادراً على القتال حتى و لو كان ذلك عقيماً من وجهة نظره الخاصة، و لكن قدرته على التماسك كانت ذات أهمية حاسمة بالنسبة للموقف على الجناح الجنوبي، فكل يوم إضافي يستطيع الجيش السادس فيه تقييد قوات العدو المحاصرة له و ربطها يتمتع بقدر عالٍ من الحيوية بالنسبة إلى كامل الجبهة الشرقية.

من غير المفيد أن نشير اليوم إلى هزيمتنا في الحرب في نهاية المطاف و إلى أن نهايتها المبكرة كانت ستجعلنا نعيش في تعاسة غير محدودة، قد يكون ذلك حكيماً عقب هذا الحدث، و لكن خلال تلك الأيام لم يكن أحد متأكداً بأي حال من خسارة ألمانيا للحرب من الناحية العسكرية، حيث كانت هناك إحتمالية كبيرة أن يستقر الموقف في حالة جمود عسكري – و التي ربما تقود لحالة مماثلة في الحقل السياسي – لو تمت إستعادة الموقف على الجناح الجنوبي للجيوش الألمانية بشكلٍ ما، و مع ذلك فإن هذا يعتمد أولاً و آخراً على مواصلة الجيش السادس للقتال و ربط قوات العدو المحاصرة له طالما ظل ممتلكاً لأقل قدر من القدرة على المقاومة، و قد كانت الضرورة الملحة للحرب هي ما

دفعت القيادة العليا إلى أن تطلب تضحية واحدة أخيرة من القوات الباسلة في "ستالينجراد"، و حقيقة كون القيادة العليا مسئولة عن مأساة الجيش السادس هي أمر غير ذي صلة بهذا السياق.

و عُقيب رفض الجيش السادس الإستسلام في ٩ يناير إنطلق الهجوم السوفييتي – ممهداً له بقصف مدفعي عنيف و مدعوماً بأعداد ضخمة من الدبابات – على كل الجبهات، و كان الضغط الرئيسي للهجوم واقعاً على المنطقة الناتئة غرب "مارينوفكا" و التي تمكن العدو من إختراقها في نقاط عدة.

في ١١ يناير صار الموقف أكثر حرجاً و لم يتمكن الجيش السادس من إسترجاعه بسبب نقص الوقود و الذخيرة، و قد حرمت خسارة القوات على الجبهة الغربية لمواقعها في وادي "كاربوفكا" – و على الأخص المناطق المأهولة بالسكان – من الحماية التي كانت تتمتع بها حتى اللحظة ضد البرد، و الأدهى من ذلك أن ظروف الطقس قد عصفت بأي أمل في إقامة جسر إمداد جوي.

و قد وضح جلياً هذا السوء في وضع الجيش السادس في تقرير خاص بتاريخ ١٢ يناير و الذي قامت مجموعة الجيوش بتمريره على الفور *للقيادة العليا للجيش*.

و قد نص على:

" على الرغم من المقاومة البطولية لقواتنا إلا أن القتال العنيف في الأيام الأخيرة تسبب في إختراقات معادية عميقة و التي لا يمكن إحتواؤها إلا بشق الأنفس، كما قد نفدت الإحتياطات، و تعطلت أسلحتنا الثقيلة، و تسببت الخسائر الفادحة و نقص الإمدادات إضافة إلى البرد في تقليص قدرة القوات على المقاومة، و لو حافظ العدو على نفس المستوى من قوة هجماته فلن تتمكن جبهة الحصن من التماسك لأكثر من أيام قليلة ، و حينئذٍ ستقصر المقاومة نفسها على أفعال محدودة"

و في ١٢ يناير أوقف الطقس مجدداً جسر الإمداد الجوي كما حرم اللوفتافا من تنفيذ أي طلعات دعماً للجيش السادس في معاركه الدفاعية الصعبة.

و في ذلك المساء خرج الجنرال "بيكرت" – و هو المسئول عن الجزء الذي تتولاه اللوفتافا من جسر الإمداد – من الجيب، و قد رسم صورة مفزعة عن الوضع و حدد قدرة الجيش السادس على مواصلة المقاومة بيومين أو أربعة و هو التقييم الذي ثبت

خطؤه على يد بسالة قواتنا و جودها بنفسها، و قد رأى "بيكرت" أن رفع مستوى جسر الإمداد الجوي لن يُحدث فرقاً كبيراً منذ الآن فصاعداً نظراً لأن موارد الجيش لم تعد تكفي تغطية المواضع التي إخترقها العدو.

و قد ظهرت من التقرير الذي جلبه لنا "بيكرت" من "باولوس" – و الذي ترقى فيتلك الأثناء إلى كولونيل جنرال - المعلومة التالية عن الموقف التكتيكي داخل الجيب:

هاجم العدو على الجبهة الشمالية الغربية بقوات تتراوح بين عشر و إثني عشر فرقة، و تم تطويق جزء من الفرقة الثالثة و ٢٩ مشاة ميكانيكي من جهة الشمال و تحطيمه، مما أدى لعدم القدرة على تشييد أي خط دفاعي هناك، و قد دمرت الفرقتان الشجاعتان مئة دبابة معادية، و لكن ما يزال العدو يمتلك خمسين أخرى بحالة سليمة.

على الجبهة الجنوبية للجيب – و برغم المقاومة البطولية للفرقة ٢٩٧ مشاة – نجح العدو في الإختراق عقب يومين من القصف المدفعي المكثف، و هناك أيضاً لم تتوفر أي قوت لازمة لسد الفجوة، و تم تدمير أربعين دبابة سوفييتية من أصل مئة مشاركة في الهجوم.

و أما الجبهة الشرقية للجيب فما تزال متماسكة حتى اللحظة برغم وقوعها تحت ضغط هائل من العدو.

و قد توغل العدو عميقاً عقب إختراقه الجبهة الشمالية الشرقية في عدة مواضع، و إستُنزفت الكفاءة القتالية للفرقة ١٦ بانزر.

و قد ذكر "باولوس" أن الجيش سيظل يقاتل حتى الطلقة الأخيرة، و سيؤدي أي تقليص لحجم الجيب وفق ما إقترح "هتلر" على "هيوب" (في الوقت الذي كان فيه تجهيز قوات للخروج أمراً حيوي الضرورة و أصدر "هتلر" أمراً يحرم أي فعل من هذا القبيل ... الكاتب) فقط إلى تسريع إنهيار الجيش السادس نظراً لعدم إمكان تحريك أي أسلحة ثقيلة، و بالنظر لكون جسر الإمداد الجوي غير كافٍ طوال الوقت فلن يؤدي أي تحسين فيه إلى إحداث أي فرق الآن، و صارت المدة التي يظل الجيش السادس فيها قادراً على المقاومة معتمدة كلية على مدى كثافة هجمات العدو.

و في نفس اليوم خسرنا قاعدة "بيتومنك" الجوية، و بذا صارت القاعدة الوحيدة المتبقية لنا داخل جيب "ستالينجراد" هي "جومراك".

و مع ذلك أرسل "باولوس" لنا خلال المساء تقريراً يفيد أنه ما تزال هناك إمكانية لإستمرار الدفاع عن المدينة لو تم إرسال بعض الكتائب جواً لها و هي بكامل أسلحتها، و كان قد طلب منا بالفعل مراراً إرسال بضعة آلاف من المقاتلين جواً لتعويض خسائره، و لكن عجزت مجموعة الجيوش عن إجابة طلبه لعدم حيازتها للتعزيزات المطلوبة و لا لكتيبة واحدة جاهزة.

و قد صارت المجموعة عاجزة في كل الأحوال عن تحقيق مطالب الجيش السادس عندما تحطمت محاولة الإنقاذ التي نفذها الجيش الرابع بانزر و بالتالي صار من المبرر عدم إرسال أي تعزيزات إلى داخل الجيب منذ ذلك الوقت فصاعداً، و قد كان الأمر في غاية السوء لقيامنا بإعادة قادة الوحدات و ضباط هيئة الأركان إلى داخل الجيب فور عودتهم من إجازاتهم، و لكن بصرف النظر عن حقيقة حاجة الجيش السادس الماسة إليهم فإن أولئك الضباط – و بعض منهم يحمل أسماءً عسكرية قديمة مثل "بسمارك" و "بيلو" – أصروا بأنفسهم على العودة إلى قواتهم مؤكدين بذلك على قدرة التقليد المتمثل في إنكار الذات على مجابهة أصعب الإختبارات.

في ١٣ يناير طار النقيب "بيهر" مساعد الكولونيل جنرال "باولوس" – و هو ضابط صغير حائز على وسام صليب الفارس – لمقابلتنا محضراً معه دفتر اليوميات الحربية للجيش، و قد حدثنا عن البسالة التي أبدتها القوات في القتال و الجَلَد الذي أظهره الضباط من كل الرتب في التعامل مع وحشية مصيرهم.

و قد حمل "بيهر" رسائل من "باولوس" و رئيس الأركان التابع له إليّ و إلى "شولز"، و هي رسائل حملت أسمى معاني الشجاعة و النزاهة و الأخلاق التي يتحلى بها الجندي الألماني في تفكيره، و ما تم إدراكه جيداً هو أن مجموعة الجيوش قامت بكل شيء إنساني ممكن في سبيل إخراج الجيش السادس، و من جهة أخرى بالطبع تتوضح للمرء المرارة التي يشعرون بها إزاء الوعود المحنوث بها حول تقديم الإمدادات الجوية، و كل ما أستطيع قوله بخصوص هذا هو أنه لا أنا ولا الكولونيل جنرال "فون ريتشهوفن" قد أبرما تلك الوعود، و المسئول عنها هو "جورينج".

في ١٦ يناير تجدد القتال العنيف على كل جبهات الجيش السادس، و كان من المستحيل لفترة من الوقت أن تهبط أي طائرة هناك نظراً للخسائر الفادحة التي أوقعها العدو بنا بواسطة دفاعاته الأرضية و مقاتلاته، و بشكل رئيسي لم نتمكن سوى من إرسال

الإمدادات جواً مساءً أو إلقائها من الطائرات، و حتمياً ضاع قدراً كبيراً مما أرسلناه بالطريقة الأخيرة.

و في نفس اليوم عين "هتلر" الفيلد مارشال "ميلخ" مسئولاً عن جسر الإمداد الجوي، و في ١٧ يناير أخبرنا الجيش السادس لاسلكياً أن قاعدة "جومراك" الجوية صارت متاحة للإستخدام مجدداً، و لكن رفضت اللوفتافا ذلك، و مع ذلك أصرت مجموعة الجيوش على وجوب تنفيذ محاولة للهبوط هناك.

في ١٩ يناير أجريت أول محادثة لي مع "ميلخ" و الذي كان مصاباً حينها على إثر إصطدام السيارة التي كانت تقله بجرار أحد القطارات يوم أمس، و قد شرحت له الحاجة الماسة لتحسين جذري لمستوى جسر الإمداد الجوي بصرف النظر عن الوضع الميئوس منه للجيش السادس، و قد قلت له أنه بصرف النظر عن حقيقة كوننا مدينين بالعرفان إلى رفقائنا في الجيش السادس بشأن صونهم لمؤنهم حتى آخر لحظة فإن الجيش السادس ينفذ مهمة عملياتية حيوية هدفها الإبقاء على تسعين تشكيلاً معادياً مربوطاً به، و بالنظر للموقف الحرج على بقية جبهات مجموعة الجيوش و جناحها المكشوف و المقابل لمجموعة الجيوش "ب" فإن كل يوم إضافي نتمكن فيه من الإحتفاظ بالجيش السادس في المعركة قد يكون ذا قيمة حاسمة، و قد وعد "ميلخ" بنحرير كل الموارد الممكنة من الجبهة الداخلية بما فيها آخر إحتياطات طائرات النقل و فنيي أعمال الصيانة و الإصلاح، و هؤلاء الأخيرون لهم أهمية خاصة الآن نظراً لسقوط القواعد الجوية في "موروسوفسكي" و "تاتسينسكايا" في ذلك الوقت بيد العدو مما إضطر الجسر الجوي للعمل بين "نوفوتشيركاسك" و "روستوف" و غيرها من القواعد الجوية الأكثر بُعداً في المؤخرة.

و إتضح مما أخبرني به "ميلخ" أنه لو تم إستدعاؤه في موعد أبكر من هذا لربما صار قادراً على تيسير الأمور بشكل أكثر نظراً لسيطرته على كثير من الموارد داخل الوطن بشكل يفوق "فون ريتشهوفن"، و هذا يعني أن "جورينج" هو المسئول عن عدم ضمان وصول الموارد محل الطلب في وقتها.

في ٢٤ يناير تمت الإتصالات التالية بيننا و بين رئيس أركان الجيش السادس "زيتزلر":

تسلمنا عبر اللاسلكي الرسالة الآتية:

"يمكن التمسك بالحصن لأيام قليلة فقط، لقد أرهِقت القوات و تعطلت الأسلحة بسبب عدم وصول الإمدادات، و الخسارة الوشيكة لآخر قاعدة جوية ستقلص الإمدادات لأدنى حد، و لا يوجد أي أساس ننفذ عليه مهمة الإحتفاظ بستالينجراد، فالروس صاروا قادرين بالفعل على إختراق جبهات متفردة و هي إمتدادات كاملة لما تم فقده بواسطة هلاك الرجال، و على الرغم من ذلك أبدى الضباط و المجندون بطولة منقطعة النظير، و بهدف إستخدامها للهجوم الأخير يتوجب إصدار الأوامر إلى كل العناصر بالقتال جهة الجنوب الغربي في مجموعات منظمة قبيل التفكك النهائي لها، و بعضها سيتمكن من الإختراق و لكنها سيلتبس عليها الأمر وراء خطوط الروس، و أي فشل في التحرك سيعني نهاية الجميع ، فمن سيقع في الأسر سيلحق بمن مات من البرد و الجوع، و أقترح إخراج عدد قليل من الرجال – ضباط و غيرهم - لإستخدامهم كمتخصصين في أي عمليات مستقبلية، يجب إصدار الأمر المناسب قريباً بسبب أن تسهيلات الهبوط لن تكون متوفرة لمدة أطول، رجاء ذكر الضباط بالإسم مع إستثنائي قطعاً.

باولوس"

و كان الرد المرسل هو:

" وصلتنا رسالتكم، و هي متطابقة مع التوصية التي وضعتها بنفسي منذ أربعة أيام، و بعد إعادة تقديمها قرر الفوهرر بخصوص:

١. الخروج: يحتفظ الفوهرر بنفسه بالحق في إصدار القرار النهائي، رجاء إرسال إشارة جديدة في حالة مماثلة.
٢. إخراج بعض الأفراد بالطائرات: رفض الفوهرر هذا الطلب في الوقت الحاضر، رجاء إرسال زيتزفيتز إلى هنا لإعادة تأكيد الحالة، و سأصطحبه لزيارة الفوهرر.

زيتزلر"

و أود أن أعرض التعليق التالي بخصوص طلب الكولونيل جنرال "باولوس" إخراج بعض أفراد جيشه بالطائرات:

يمكن أن نرى بوضوح من وجهة نظر الحاجة العسكرية أنه سيكون من مرغوب فيه بشكل طبيعي إنقاذ أكبر عدد ممكن من المتخصصين الأساسيين – واضعين دوماً في الإعتبار بالطبع وجوب أن يكون إختيارهم على أساس الرتبة، و أما من وجهة النظر الإنسانية فلا حاجة للقول بوجوب أن يبذل المرء كل ما في وسعه لإخراج كل فرد، و لكن يوجد أيضاً مجال لأخلاقيات الجندية و التي يجب وضعها في الإعتبار و هو ما يتطلب أن يكون المصابون هم أول المخرجين، و هو ما نجحنا في الواقع في إنجازه إلى حدٍ مقبول، و يمكن إنجاز إخراج المتخصصين فقط بتكلفة تتمثل في ترك المصابين، و بجانب ذلك فإن أغلب المتخصيين المخرجين سيكون أساساً من الضباط و هو ما يرجع لكون تدريب الضابط أكثر يمنحه أهمية أكبر وقت الحرب من الجندي العادي ما لم يبدو أن الأخير يمتلك مؤهلات خاصة كما لو كان عالماً أو فنياً، و لكن في موقف مماثل لموقف الجيش السادس فإن القانون العسكري الألماني يقرر وجوب أن يأتي الضباط في مرتبة تالية للجنود عندما تكون حيواتهم على المحك، و لهذا السبب لم تقم مجموعة الجيوش بأي خطوة لدفع "هتلر" للموافقة على طلب قائد الجيش السادس.

و أما بخصوص محاولة إختراق خطوط العدو في مجموعات صغيرة فلم يصدر قرار "هتلر" بشأنها أبداً.

و على الرغم من ذلك حاولت مجموعة الجيوش خلق قاعدة تحيا عليها مجموعات الهاربين بإلقاء الغذاء في نقاط مختلفة خلف جبهة العدو و إرسال طائرات إستطلاع تتعقبهم، و لكن لم تصل أي منها جبهة مجموعة الجيوش و لم يرَ الطيارون أياً منها.

و في كل الأحوال أظهرت رسالة "باولوس" أنه حتى تلك العناصر الأخيرة من الجيش السادس و التي ما تزال لديها قدر من القوة لم تفقد إرادتها في القتال، و بالفعل كنا على علم بأن بعض الضباط و المجندين الشبان – و الذين لم تنفد قدرتهم على المقاومة بعد – قرروا محاولة شق طريقهم عبر حلقة الحصار التي فرضها العدو مهما حدث عندما يحين وقت ذلك، و لهذا السبب إتخذنا الإجراءات الآنف ذكرها، و التي أثبتت عدم جدواها.

في ٢٢ يناير وصل الروس لقاعدة "جومراك" الجوية مما أدى لإستحالة تسليم الإمدادات بواسطة الطائرات، و بعد أن أرسل "باولوس" تقارير تفيد أنه لم يعد بمقدوره غلق الثغرة التي حدثت في الجبهة و أن مؤنه و ذخيرته قد شارفت على النفاد بات

يسعى الآن إلى أن يأذن له "هتلر" بالدخول في مفاوضات الإستسلام، و في تلك المناسبة دخلت في محادثة هاتفية طويلة مع "هتلر"، و طلبت منه أن يأذن بالإستسلام فالوقت قد حان الآن لوقف ذلك النضال الأشوس، و كان تفكيري يتمحور حول أن كل يوم يمر يؤدي لتقليل قدرة الجيش السادس على المقاومة و بالتالي زيادة موقف مجموعة الجيوش بأكمله سوءً، و قد إستهلك الجيش السادس في قتال مرير آخر أونصة طاقة تسمح له بالتماسك في مواجهة عدو يفوقه قوة مجاهداً في سبيل إنقاذ الجبهة الشرقية في ذلك الشتاء، و منذ الآن فصاعداً لن تكون هناك أي مقارنة بين آلام الجيش السادس و أي ميزة يمكن تحقيقها بواسطة مواصلة ربط قوات العدو.

و بعد نقاش طويل و حاد رفض "هتلر" الطلب المقدم مني و من "باولوس" و أمر الجيش السادس بمواصلة القتال حتى النهاية، و كان يستند في أمره ذاك على فكرة أن كل يوم تُشغل فيه فرق العدو في المشاركة في حصار "ستالينجراد" بدلاً من أي مكان آخر هو في حقيقة الأمر عملية إنقاذ مهمة، و لكن صار الموقف الآن حرجاً كفاية لأن الروس تمكنوا من إكتساح الجيش المجري على نهر "دون" و مسحوا مجموعة الجيوش "ب" عملياً من على الخريطة، فحدثت ثغرة تمتد من "فوروشيلوفجراد" على نهر "دونتز" حتى "فورونيز" على نهر "دون" تمكن العدو من التقدم خلالها بقوة و تمتع فعلياً بحرية حركة كاملة، و كان أمراً مشكوكاً فيه تماماً إمكانية إنقاذ مجموعة الجيوش "دون" و مجموعة الجيوش "أ" - و التي كانت تنسحب حينها من القوقاز – في هذا الموقف.

و قد إعتبر "هتلر" أنه حتى لو لم يعد الجيش السادس قادراً على تشكيل جبهة متماسكة فيمكن للقتال أن يستمر في جيوب صغيرة لفترة من الوقت، و أخيراً أعلن أن الإستسلام غير مجدٍ لأن الروس لا يوفون بإتفاقاتهم أبداً.

و هذا التوقع الثاني كان صحيحاً في جوهره – إن لم يكن حرفياً – فقد تجلى في حقيقة أنه من بين تسعين ألف أسير وقعوا في يد الروس آنذاك لا يعيش سوى بضعة آلاف منهم اليوم، و يجب التشديد هنا على أن السوفييت كانوا يمتلكون خطوط سكك حديدية سليمة تصل حتى قرب "ستالينجراد" و هو ما يعني – مفترضين حسن النية - أنه كان يمكنهم إطعام الأسرى و إجلائهم، و رغم حتمية خسائر الأرواح الناجمة عن البرد و الإعياء إلا أن معدل الموت في هذه الحالة – أي حالة الأسرى – تبدو أكبر من المنطقي.

و عندما رفض "هتلر" طلبي إستسلام الجيش السادس واجهتني بشكل طبيعي مسألة ما إن أعلن إختلافي معه عبر تقديم إستقالتي من قيادة مجموعة الجيوش.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي فكرت فيها في ذلك، و كانت المشكلة التي أرهقتني في تلك الأيام من عيد الميلاد عام ١٩٤٢ هي إخفاقي في إقناع "هتلر" بالسماح بخروج الجيش السادس، و هو ما واجهني مرات عدة في الأشهر التالية.

و أعتقد أنه من الممكن فهمه أن يرغب المرء في إعفائه من المسئولية و التي صارت لا تُحتمل بسبب المعارك اللانهائية و المرهقة للأعصاب التي توجب خوضها مع القائد الأعلى قبل أن تتفهم الحاجة لأي عمل عسكري على وجه الإستعجال، و المدى الذي بلغته تلك الرغبة المتمكنة مني في ذلك الوقت واضح من ملحوظة قدمها العقيد "بوس" إلى رئيس سلاح مهندسي الجيش السادس عُقيب عيد الميلاد ١٩٤٢، و وفقاً لما أخبرني به الأخير كانت كلمات "بوس" : **إن لم أظل أتوسل له – مانشتاين – أن يبقى لأجل القوات لكان قد إستقال من تلك الوظيفة منذ زمن طويل"**، و هذا الكلام الوجيز من رجل كان حينها أقرب مساعديّ إليّ هو أفضل شرح لإتجاهي و موقفي.

و لكن دعوني الآن أذكر بعض الملاحيظ العامة حول مسألة إستقالة أحد القادة الكبار في ميدان المعركة، و أول نقطة أذكرها هي أن أي قائد كبير ليست لديه القدرة على حزم أغراضه و العودة للوطن أكثر من أي جندي آخر، في وقتٍ لم يكن "هتلر" فيه مضطراً لقبول الإستقالة و بالكاد كان يحبذ فعل ذلك بخصوص حالتنا هذه، و الجندي في ميدان المعركة لا يكون في الموقف السارّ الذي يكون فيه السياسي و المتمتع دوماً بحرية تتيح له التهرب من المسئولية عندما لا تسير الأمور على ما يرام أو لا يروق له النهج الذي تسير عليه الحكومة، فالجندي عليه أن يقاتل أينما و أيّانما أمِر.

و أقر بوجود بعض الحالات التي لا يمكن فيها للقائد الكبير مناغمتها مع مسئولياته عن تنفيذ أي أمر أصدره، و من ثم يكون عليه أن يقول – مثل "سيدليتز"[1] في معركة "زورندوف" **:" بعد المعركة يمكن للملك قطع رأسي، أما أثناء المعركة فسيسمح لي في لطفٍ بإستعمالها"**، و لا يمكن لأي جنرال تبرير خسارته في أي معركة بالإدعاء بأنه كان مجبراً – ضد إرادته – على تنفيذ أمراً قاد إلى الهزيمة، و في هذه الحالة يتمثل

[1] فريدريك فيلهلم فون سيدليتز : هو عسكري ألماني عاش بين ١٧٢١ – ١٧٧٣ و هو من أعظم قادة سلاح الخيالة في تاريخ ألمانيا.

الباب الوحيد المفتوح أمامه في العصيان و الذي سيكون ثمنه رقبته، و النجاح فقط هو ما يقرر كونه محقاً أو مخطئاً.

و كان هذا هو السبب الذي دفعني في ١٩ ديسمبر لإعطاء الجيش السادس ذلك الأمر القاضي بالخروج الفوري في إتجاه الجنوب الغربي بالمخالفة لتوجيهات "هتلر" الصريحة، و حقيقة عدم تحقيق الأمر لأي نتيجمة ترجع إلى إخفاق قيادة الجيش السادس في تنفيذه، و من الصعوبة بمكان تقرير بشكل قاطع ما إن كانت تلك الأخيرة محقةً في الإمتناع عن تنفيذه و إهدار آخر فرصة متبقية للخلاص، كما لا يمكن لأي شخص أن يقرر ما إن كان الخروج سينجح أم لا.

و كنت قد تصرفت في مناسبات لاحقة أيضاً بالمخالفة لأوامر "هتلر" عندما كانت الضرورة تقتضي ذلك على نحو قطعي، و كان النجاح هو ما يثبت أنني محق و يدفع "هتلر" للتسامح مع عصياني له، و مع ذلك فإن أي فعل غير مصرح به كان غير مقبول إن كان سيورط مجموعات الجيوش المتاخمة في المشاكل.

و لمسألة الإستقالة تلك جانب آخر إضافة لما ذُكر آنفاً، و أعني هنا الإحساس بالمسئولية الذي يشعر به أي قائد كبير تجاه جنوده.

فخلال ذلك الوقت محل الكلام لم يكن أمامي فقط الجيش السادس للتعامل معه، بل إن مصير مجموعة الجيوش بأكملها كان على المحك تماماً كمجموعة الجيوش "أ"، و التخلي عن مسئوليتي في تلك اللحظة – مهما كانت الدوافع الإنسانية الناجمة عن قرار "هتلر" بشأن إستسلام الجيش السادس مبررة لذلك الفعل – يُظهرني بمظهر الخائن لتلك القوات الباسلة و التي كانت أيضاً متورطة في صراع من أجل البقاء خارج جيب "ستالينجراد".

و حقيقة كون نجاح مجموعة الجيوش "دون" في التعامل مع أحد أصعب الموقف يخدم في رأيي تبرير قراري ذلك اليوم بعدم الإستقالة هي أمر بعيد عن الإشمئزاز بالمرة.

ويمكن إستبيان حيوية المقاومة الشرسة للجيش السادس من عرض وجيز لتطورات الأحداث في مناطق مجموعات الجيوش "دون" و "أ" و "ب" في يناير ١٩٤٣.

في ٢٩ ديسمبر إستسلمت أخيراً *القيادة العليا للجيوش الألمانية* لإلحاح مجموعة الجيوش "دون" و أمرت بإنسحاب مجموعة الجيوش "أ" من القوقاز بداءةً عبر إعادة جناحها

الأيسر – الجيش الأول بانزر – إلى خط "كوما – بياتيجورسك – براسكوفيا" على بعد ١٥٥ ميل جنوب شرق "سالسك"، و نظراً للوقت الذي إستغرقته عملية سحب المعدات بدت وتيرة سير عملية الإنسحاب بطيئة بشكل إستثنائي و لم تُتح أي قوات خلال ذلك الوقت.

في ٩ يناير – و هو تاريخ رفض الجيش السادس لنداء الإستسلام – لم يكن الجيش الأول بانزر قد وصل بعد لخط "كوما".

تم إجبار الجيش الرابع بانزر – و الذي كانت مهمته حماية مؤخرة مجموعة الجيوش "أ" جنوب نهر "دون" مع إبقاء إتصالاتها مفتوحة عبر "روستوف" - على التقهقر غرباً عبر "كوتلنيكوفو" عقب قتال عنيف ضد قوات معادية تفوقه قوةً {ثلاث جيوش} جنوب نهر "دون"، و بحلول ٩ يناير كان يخوض معارك دفاعية ضارية على طول نهر "كوبيرل" – بين نهري "سال" و "مانتش" – و تمكنا من إدراك نية العدو تطويقه من جانبيه كليهما، فكان فيلق الحرس الثالث دبابات – على نهر "دون" حول "كونستانتينوفكا" – يتحرك في إتجاه الجنوب الغربي و يتقدم نحو "بروليتارسكايا" في مؤخرة الجيش الرابع بانزر، و بشكل مماثل على طول نهر "مانيتش" كان الجيش الثامن و العشرين السوفييتي – الواصل حديثاً من سهوب "كالميك" – يحاول تنفيذ حركة إلتفاف في جهة الجنوب.

و أما عن مفرزة الجيش "هوليدت" فقد إضطرت عقب قتال عنيف في الثنية الكبيرة لنهر "دون" إلى الإنسحاب إلى قطاع "كاجالنيك"، و حتى هنا تمكن العدو متمثلاً في قوات قليلة عبرت نهر "دون شمال شرق "نوفوتشيركاسك" – مقر قيادة مجموعة الجيوش - من التوغل داخل الجناح الجنوبي لمواقعها في ٧ يناير، و على الجناح الشمالي لمفرزة الجيش كانت الفرقة السابعة بانزر تحاول جاهدةً تأخير إقتراب العدو من نقاط تقاطع نهر "دونتز" في "فورتشستادت" عبر اللجوء إلى تكتيكات الصدمة المحدودة[١]، و أما عن نقاط العبور في "كامنسك" فأمكن حمايتها بواسطة وحدات الطوارئ و عدد قليل من القوات الرومانية و التي لم تختفِ من ميدان المعركة.

[١] تعني اللجوء إلى أسلوب الهجمات المتقطعة المحدودة في أماكن متعددة لإستنزاف قوى العدو وتشتيت إنتباهه و تأخير تقدمه.

و شمال غرب تلك النقطة توجد الثغرة الضخمة التي خلفها تحطم الجيش الإيطالي، في حين كانت المجموعة القتالية "فريتر-بيكو" الضعيفة و المنتمية إلى مجموعة الجيوش "ب" تقاتل و هي محاصَرة معظم الوقت حول "ميلروفو".

في ٢٤ يناير – و هو اليوم الذي إنقسم فيه الجيش السادس لثلاث مجموعات داخل "ستالينجراد" و حولهاو لم يعد قادراً على ربط أي قوات سوفييتية تُذكر – كان الموقف على بقية الجبهات على النحو التالي:

كان الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش "أ" ما يزال حول "بيلايا جلينا" و شرق "أرمافير" بعيداً في الجنوب، بما يعني أنه على بعد ١٠٠ – ١٢٥ ميل من "روستوف"، و أخيراً وافقت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* على إنسحاب الكتلة الرئيسية للجيش الأول بانزر عبر "روستوف".

و من مجموعة الجيوش "دون" كان الجيش الرابع بانزر يقاتل في يأس جنوب شرق "روستوف" من أجل الإبقاء على نقاط تقاطع نهر "دون" آمنة لمرور الجيش الأول بانزر - و الذي أتصور أن نشره على الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش التي أقودها غرضه التمسك بجبهة نهر "دونتز" بدءً من "فوروشيلوفجراد" فأعلاها.

و أما عن مفرزة الجيش "هوليدت" فكانت تتولى الدفاع عن نهر "دونتز" في منطقة تقاطعه مع نهر "دون" وصولاً إلى نقطة ما شمال "فورتشستادت".

في حين كانت المجموعة القتالية "فريتر-بيكو" – قوامها فرقتان مهلهلتان – تقوم بحراسة نهر "دونتز" على جانبي "كامنسك".

و كانت هناك ثغرة بعرض ٢٠٠ ميل تمتد من "فرورشيلوفجراد" على نهر "دونتز" حتى "فورونيز" على نهر "دون" منذ ١٩ يناير و ترجع إلى تحطم الجيشين الإيطالي و المجري – الأخير إكتسحه العدو على نهر "دون"، و في ٢٣ يناير تم مد نطاق قيادة مجموعة الجيوش "دون" حتى الجبهة الموجودة بعيداً في "ستاروبيلسك"، و عملياً كانت القوات الوحيدة الموجودة هناك هي الفرقة ١٩ بانزر و التي تضررت بالفعل عقب تسليم "ستاروبيلسك" لقوات العدو المكونة من ثلاثة فيالق.

و عندما توقفت آخر أعمال مقاومة من جانب الجيش السادس في الأول من فبراير ظل العدو يهدد بعبور نهر "دونتز" في منطقة "فوروشيلوفجراد" بمجموعة تشتمل على

ثلاثة فيالق دبابات و فيلق ميكانيكي و فيلق مشاة ، كما بدا أنه ألقى بمجموعة أخرى من ثلاثة أو أربعة فيالق دبابات و فيلق مشاة في مواجهة خط النهر بين "ليسيتشانسك" و "زلافيانسك".

و قد تبدو هناك نقطة صغيرة في النقاش حول كيف تطور الموقف بين التاسع من يناير و الأول من فبراير أو ما الذي كان محتملاً حدوثه فيما بعد لو لم يظل العدو مربوطاً في "ستالينجراد" بفعل المقاومة البطولية التي أبداها الجيش السادس.

و الآن دعونا نعد إلى النضال الأخير للجيش السادس.

في ٢٤ يناير إنقسمت الجبهة إلى ثلاث جيوب صغيرة: واحدة في وسط "ستالينجراد" و الأخريتان في المنطقتين الشمالية و الجنوبية للمدينة.

و مع ذلك في ٣١ يناير وقع قائد الجيش السادس – و المُرقى في تلك الأثناء لرتبة فيلد مارشال – في الأسر هو و طاقمه.

في الأول من فبراير إنتهت آخر معركة عندما إستسلم ما تبقى من الفيلق الحادي عشر شمال المدينة.

إنتهى نضال الجيش السادس.

إن الوقوع في أسر السوفييت هو خاتمة عملية إنهيار بدأتها ضراوة القتال و قسوة الجوع و زمهرير برد السهوب الروسية، و قد إستسلم الجنود اللذين عانوا كل ذلك فقط عندما صارت أيديهم أضعف من أن تحمل السلاح و من أن تشغله – عندما تركهم نفاد الذخيرة عُزلاً في مواجهة عدو يفوقهم قوة، و مع ذلك بفضل التضحية بالذات التي أبدتها طواقم الطائرات الألمانية تمكنا من إجلاء ٣٠ ألف مصاب من داخل الجيب.

و سيجد كل ساعٍ وراء الحقيقة حول على من تقع المسئولية عن فاجعة "ستالينجراد" الإجابة في شفاه "هتلر" نفسه، ففي ٥ فبراير تم إرسالي لمقر القيادة العليا ، و كانت كل إلتماساتي لـ"هتلر" تتمحور حول قيامه بزيارة الجبهة و الإطلاع على الموقف عليها بنفسه، أو على الأقل يقوم بإرسال رئيس هيئة الأركان العامة أو الجنرال "جودل"، و كلها باءت بالفشل.

و قد بدأ "هتلر" اللقاء متحدثاً بحدة ناطقاً بهذه الكلمات:

"أنا لوحدي أتحمل المسئولية عما حدث في ستالينجراد، و ربما أتوجه ببعض اللوم إلى جورينج لقيامه بإعطائي صورة غير صحيحة عن إمكانيات اللوفتافا، و لكنني قمت بتعيينه خليفةً لي و بذا أصير غير قادر على إتهامه بالمسئولية عما حدث في ستالينجراد"

من المؤكد أن قيام "هتلر" بتحمل المسئولية في تلك المرحلة دون أي تحفظات و دون أي محاولة للعثور على قارب نجاه راجع إلى رغبته في صيانة سمعته، و من جهة أخرى بِتنا الآن نواجه إخفاقه المؤسف في إستخلاص أي دروس من الهزيمة من أجل المستقبل و التي يُلقى اللوم بشأنها على أخطائه القيادية فقط.

و لكن تظل هناك حقيقة واحدة تلقي بظلالها على مسألة المسئولية و كل ما قد يؤثر على موقف العديد من أفراد الجيش المضحى به من قسوة الأسر و عمليات غسيل المخ إضافة إلى الشعور بالمرارة، و هي:

لقد جعل ضباط الجيش السادس و جنوده بشجاعتهم منقطعة النظير و إخلاصهم للواجب من أنفسهم نصباً تذكارياً مشرفاً لكافة الأسلحة الألمانية و الذي – على الرغم من كونه ليس من الحجارة أو البرونز – سيخلد عبر الأزمان و ذلك ، و هذا النصب التذكاري غير مرئي و حُفرت عليه كلمات تروي تلك الرواية من أفجع محن الجنود.

و ما يلي هي طواقم القيادات و التشكيلات التي إختفت في "ستالينجراد":

قيادات الفيلق الرابع و الثامن و الحادي عشر، و قيادة الفيلق ١٤ بانزر، و الفرق ٤٤ و ٧١ و ٧٦ و ٧٩ و ٩٤ و ١١٣ و ٢٩٥ و ٢٩٧ و ٣٠٥ و ٣٧١ و ٣٧٦ و ٣٨٤ و ٣٨٩ مشاة ، و الفرقة ١٠٠ "ياجر" مشاة و الفوج الكرواتي ٣٦٩، إضافة إلى الفرق ١٤ و ١٦ و ٢٤ بانزر، و الفرق ٣ و ٢٩ و ٦٠ مشاة ميكانيكي.

إلى جانب عدد مهول من قوات الجيش السادس و مجموعة الجيوش فضلاً عن وحدات مضادات الطائرات و الوحدات الأرضية التابعة للوفتافا.

و أخيراً الفرقتان الأولى خيالة و ٢٠ مشاة الرومانيتين.

١٣

حملة شتاء ٤٣/١٩٤٢ في جنوب روسيا

"الإستراتيجية هي نظام يشتمل على بدائل سد الثغرات"

مولكته

في حين كانت الأعين في شتى أقطار ألمانيا موجهة صوب "ستالينجراد" في أواخر العام ١٩٤٢ و بدايات ١٩٤٣ ، و كانت القلوب موجهة صوب السماء تصلي لأجل فلذات أكبادها المقاتلين هناك، كان الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية تزامناً مع ذلك مشهداً لنضال أعظم من ذلك المستعر في سبيل أرواح و حرية المئتي ألف مقاتل الشجعان من الجيش السادس.

لم تعد القضية مجرد مصير جيش واحد و إنما مصير كامل الجناح الجنوبي للجبهة، بل و جميع الجيوش الألمانية في الشرق.

هذا النضال توجته فاجعة الهزيمة رغم أنه في نهاية المطاف ظل معروفاً حتى نهاية الحرب العالمية الثانية بأنه ومضة من النصر، و لكنه تضمن – بصرف النظر عن التجارب الأولية التي خاضها الجيش السادس – ثروة ضخمة من التوترات غير المسبوقة و الأزمات المصيرية بما يدفع لإعتبار هذه الحملة الأكثر إثارة في الحرب برمتها، و لا يمكن أن يُثار أي سؤال حول تلك المحاولة الأخيرة لإحراز النصر، و قطعاً بات الهدف الرئيسي – على الأقل في بداية الأمر – منحصراً فيما وصفه "شليفن" بأنه "تركيع الهزيمة" و ذلك بسبب الأخطاء التي إرتكبتها القيادة في حملات صيف و خريف ١٩٤٢، و بالنظر لمواجهة عدو متفوق أضاعاً مضاعفة بما يمنحه كل فرص النصر اللازمة إضطرت القيادة الألمانية مراراً و تكراراً لإنتهاج نهجاً إرتجالياً و إضطرت القوات للإستبسال شكل منقطع النظير.

و رغم أن نهاية هذه المركة لم تحددها صيحات النصر و لا دوي طبول الحرب المصاحب لزحف الجيش السادس نحو الفناء إلا أنها ما تزال تستحق الحديث عنها، و لكونها تمثلت أساساً في عملية إنسحاب فلا يمكن إعتبارها حتماً من قبيل المجد، و لكن تظل الحقيقة راسخة – بصرف النظر عن إنتهائها بهزيمتنا – بأنها أتاحت للقيادة العليا فرصاً لفرض حالة الجمود العسكري أكثر من تحقيق النصر الإعتيادي.

الأسس الإستراتيجية لحملة الشتاء:

بهدف تقييم جلل أهمية هذه الحملة الحاسمة على للجناح الجنوبي و هول المخاطر التي تضمنتها ينبغي علينا أن نستهل الحديث عنها بالكلام عن الوضع الميداني بإختصار.

في شتاء ٤٢/١٩٤١ كانت الموارد الروسية بالكاد كافية لإيقاف التقدم الألمانية نحو "موسكو" – و معه الحملة الألمانية بأكملها، ثمّ في صيف ١٩٤٢ إندفع تيار الغزو تجاه الشرق مجدداً واصلاً أخيراً إلى جزره على نهر "فولجا" و في منطقة القوقاز.

و لكن الآن – في شتاء ٤٣/١٩٤٢ – بات العدو يشعر أخيراً بأنه قوي كفايةً لأخذ زمام المبادرة منّا، و هنا يدور السؤال حول ما إن كان هذا الشتاء سيحمل في طياته الخطوة الحاسمة نحو هزيمة ألمانيا في الشرق، و رغم فجاعة كارثة "ستالينجراد" إلا أنها لا يمكنها أن تمثل ضربة قاضية في حد ذاتها وفقاً لمنظور الأمور في الحرب العالمية الثانية بينما تعد إبادة كامل الجناح الجنوبي للجيوش الألمانية هي ما يمهد الطريق لإحراز النصر المبكر على ألمانيا، و ترجع رغبة القيادة العليا السوفييتية في تحقيق هذا الهدف في جنوب الجبهة الشرقية إلى سببين: **الأول** هو التفوق العددي الإستثنائي للقوات الروسية، و أما **الثاني** فيتمثل في أنها وجدت نفسها في وضع لصالحها بسبب أخطاء القيادة الألمانية المرتبطة بإسم "ستالينجراد"، و بلا شك ناضلت القيادة السوفييتية في تحقيق هذا الهدف رغم أنها لم تتمكن من بلوغه.

و الآن لنلقي نظرة سريعة على الموقف الإستراتيجي في بداية حملة الشتاء جنوب روسيا.

إتخذت الجبهة الألمانية في نوفمبر ١٩٤٢ شكل قوس واسع يصل إنحناؤه شرقاً حتى منطقة القوقاز و شرق أوكرانيا، و تلامس الجناح الأيمن لهذا القوس مع البحر الأسود في "نوفوروسيسك"[١] و يستمر ممتداً على طول جبهة مجموعة الجيوش "أ" – الجيش السابع عشر و الجيش الأول بانزر – عبر شمال القوقاز بدون أي إتصال فعلي مع بحر قزوين في الشرق.

و قد تم نشر الفرقة ١٦ مشاة ميكانيكي على الجناح البعيد المكشوف لهذه الجبهة و المواجهة للجنوب و ذلك في إتجاه نهر "فولجا السفلي" شرقاً، و تموضعت هذه الفرقة في سهوب "كالميك" شرق "ييلستا".

و تبدأ الجبهة الممتدة لمجموعة الجيوش "ب" في نقطة ما جنوب "ستالينجراد"، و من هناك تنحدر نحو نهر "دون" و تمتد على طوله بعيداً على "فورونيز"، و عليها تموضعت الجيوش الرابع الروماني و الرابع بانزر و السادس و الثالث الروماني فضلاً عن جيش إيطالي و آخر مجري و الجيش الثاني الألماني، و كانت الكتلة الرئيسية للجيوش الألمانية قد تم توجيهها نحو "ستالينجراد" منذ شهور مضت حيث إنتشرت حولها، في حين تم وضع بقية القوات على الجبهة – خصوصاً تلك التابعة لمجموعة الجيوش "دون" – تحت قيادة الجيوش الحليفة، و لك تكن تتواجد أي إحتياطات تستحق الذكر خلف جبهتي مجموعتي الجيوش "أ" و "ب".

و لم يكن العدو – و الذي شكلت جيوشه جبهات القوقاز و الجنوب الغربي و "فورونيز" - ممتلكاً فقط لقوات متفوقة عددياً على خط المواجهة و لكن أيضاً إحتياطات ضخمة خلف مجموعات الجيوش تلك و في القطاع المركزي { قطاع "موسكو"} على الجبهة الشرقية إضافة لما يمتلكه داخل الوطن نفسه.

و بهدف إدراك الخطر الحقيقي لهذا الموقف و إلى أي مدى كان مفيداً للعدو يتوجب على المرء وصف أبعاد الخطورة الإستراتيجية له.

فقد بلغت المسافة إلى نقاط تقاطع نهر "دون" في "روستوف" من قطاع "دون" الذي تم فيه إكتساح الجيش الثالث الروماني في ١٩ نوفمبر – قبالة و غرب رأس كوبري الروس "دون" في "كريمنسكايا" – و من القطاع المتموضع فيه الجيش الإيطالي على جانبي "كاسانسكايا" قرابة الـ١٨٥ ميل، و عبر "روستوف" إمتدت منطقة الإتصالات

[١] نوفوروسيسك: مدينة تابعة لروسيا حالياً تقع على البحر الأسود.

الخلفية الخاصة ليس فقط بمجموعة الجيوش "أ" و إنما بالجيش الرابع بانزر و الجيش الرابع الروماني كذلك، و قد بلغت المسافة على الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش "أ" على الأقل ٣٧٥ ميل من "روستوف" في حين كان الجيش الرابع بانزر – المتموضع جنوب "ستالينجراد" – على بعد ٢٥٠ ميل.

و بعيداً إلى الوراء إمتدت خطوط الإتصالات الخاصة بالجناح الجنوبي للجيوش الألمانية عبر نقاط تقاطع نهر "دون" في "زابوروزهي" و "دنيبروبتروفسك"، و لم يكن الإتصال الممتد عبر شبه جزيرة القرم و خلال مضايق "كيرتش" فعّالاً بما فيه الكفاية، و كانت نقاط تقاطع نهر "دنيبر" الحيوية في مؤخرة الجناح الجنوبي الألماني تقع على بعد ٤٤٠ ميل من "ستالينجراد" و ما يفوق الـ٥٦٠ ميل من الجناح الأيسر لجبهة القوقاز، و من جهة مقابلة بلغت المسافة على جبهة العدو على نهر "دون" ٢٥٠ ميل فقط سواء بدأ إحتسابها من "كاسانسكايا" حتى "زابوروزهي" أو من "سفوبودا" حتى "دنيبروبتروفسك".

و قد علمت من خلال خبرتي الشخصية ما يعنيه هذا الموقف – بإعتباري تمكنت في صيف ١٩٤١ من تغطية مسافة ١٩٠ ميل من "تلسيت" حتى "دواغافبيلس" خلال أربعة أيام بواسطة الفيلق ٥٦ بانزر، وأكثر من هذا أنني فعلت ذلك في مواجهة عوائق أصعب مما واجهه الجيشان الإيطالي و المجري و لم يستطيعا تحمله على نهر "دون"، و في ذلك الوقت كانت لدى الروس إحتياطات أكبر بكثير خلف جبهتهم مما هي متاحة لنا في شتاء ١٩٤٢.

و بالإضافة لهذه الميزة الإستراتيجية تمتع الروس أيضاً بالتحضير العددي المهول، و تم الحديث سابقاً عن النسبة المقارنية للقوات في بداية نضال مجموعة الجيوش "دون" في الفصل الخاص بـ"ستالينجراد"، و أما عن تطور تلك النسبة خلال الشتاء فيمكن إستخلاصه من رقمين، ففي مارس ١٩٤٣ بلغ عدد الفرق التي يحوزها مجموعة الجيوش الجنوبية "دون" و الممتدة لمسافة ٤٣٥ ميل من بحر آزوف وصولاً إلى شمال "خاركوف" ٣٢ فرقة، و في مواجهة هذا القطاع – سواء على خط المواجهة أو خلفه – إمتلك العدو ٣٤١ تشكيل مكونة من فرق مشاة و ألوية مدرعة و ميكانيكية و فرق خيالة.

و بذا صارت الظروف الواجب على مجموعة الجيوش "دون" القتال في ظلها محكومة بعاملين:

أولاً: التفوق العددي الكاسح، و حتى عندما تم تعزيز مجموعة الجيوش بالجيش الرابع بانزر و قوات جديدة بواسطة *القيادة العليا للجيوش الألمانية* مشتملة على ثلاثة – صار العدد أربعة فيما بعد – جيوش ألمانية ظلت نسبة القوات الألمانية إلى قوات العدو ١ : ٧ ، و هذه النسبة تتضمن بعض التشكيلات الروسية الأقل عدداً من التشكيلات الألمانية.

ثانياً: كان هناك خطراً إستراتيجياً كامناً في حقيقة أن العدو الأقوى منا و الذي تمتع بحرية كاملة في الحركة لبعض الوقت أعقبت إنهاير الجيوش الحليفة كان عليه أن يقطع مسافة أقصر كي يصل إلى شرايين حياة الجناح الجنوبي الألماني – "روستوف" و نقاط تقاطع نهر "دنيبر" – مما نقطعها نحن.

و بالنظر لهذين العاملين معاً نجد أنهما تضمّنا خطراً محدقاً تمثل في إحتمال إجبار الجناح الجنوبي على التقهقر بعيداً عن ساحل بحر آزوف أو البحر الأسود و من ثم تدميره في نهاية الأمر – نظراً لقدرة أسطول البحر الأسود السوفييتي على فرض حصار - بمجرد قطع خطوط إمداده، و عقب تدميرمجموعتي الجيوش "دون" و "أ" سيكون مصير كامل الجبهة الشرقية قد تحدد على نحو عاجل أو آجل.

أسس السياسة العملياتية:

بحكم الموقف الإستراتيجي الأولي المشروح آنفاً تمحورت المعركة بأكملها على الجناح الجنوبي في شتاء ١٩٤٢/٤٣ – و التي قُدّر لها أن تكون المعركة في الشرق ذاك الشتاء – حول نفس السؤال ذي الشقين: هل سينجح السوفييت في الإيقاع بالجناح الجنوبي الألماني و بذا يصيرون قادرين على القيام بخطوتهم الحاسمة نحو النصر النهائي؟ أم ستكون القيادة الألمانية قادرة على تجنب مثل تلك الكارثة؟

لقد كانت خطة العمليات التي تبناها الروس قاطعة بشكل كافٍ، فقد قُدّمت لهم على طبق من فضة عندما تسببت القيادة العليا الألمانية في شلّ الجبهة في المرحلة الأخيرة لهجوم

الصيف، و ليس من غير الطبيعي أن يعمد السوفييت بداءةً إستغلال فرصتهم في حجز الجيش السادس المكبل حول "ستالينجراد".

و في مراحل بعيدة من العمليات توقعنا قيام العدو بإستثمار نجاحاته الباهرة في القطاعات الروماني و المجري و الإيطالي، و بمحاولة تطويق الجناح الجنوبي الألماني في الشمال و الغرب بواسطة ضربات متكررة متتابعة بقوة متزايدة، و يجب أن يكون هدفه هو حرمان هذا الجناح من منطقة إتصالاته و حجزه في نهاية المطاف على ساحل البحر، فقط الفكر الإستراتيجي هو ما يمكنه إستنباط كل أمر تشجيعي من موقف وجد الجناح الجنوبي الألماني نفسه فيه لفترة طويلة بفعل القيادة العليا.

و ثارت على الجانب الألماني مشكلة عسيرة إلى حد كبير تتمثل في إتخاذ القرار بشأن كيفية الإفلات من الخطر الذي وقعنا في دائرته بفعل أخطائنا و فوقها النجاحات الأولى غير المتوقعة للعدو على جانبي "ستالينجراد"، و مع ذلك فبالنظر للموقف الإستراتيجي الشامل يتوجب أن تكون قيادتنا العليا قد أدركت من اليوم الأول لهجوم العدو كيف يمكن أن تتطور الأحداث و على وجه الخصوص كيف صارت مجموعة الجيوش "أ" مكشوفة بشكل خَطِر في القوقاز.

و بوجه عام كان على القيادة العليا الألمانية أن تختار بين أمرين: **أولهما** سحب الجيش السادس من منطقة نهر "فولجا" عُقيب بدء تعرضه للهجوم و قبل إتمام عملية تطويقه، و من ثم يحاول إستعادة الموقف على الثنية الكبيرة لنهر "دون" بمساعدة تعزيزات قوية، و من الضروري قطعياً في نفس الوقت دعم القطاعات التي تحتلها الجيوش الحليفة على نهر "دون" بقوات ألمانية، و مع ذلك يبدو بشكل واضح أن القيادة العليا لم تكن تمتلك القوات اللازمة لإختيار هذا الحل و لا يمكنها – بالنظر إلى السعة المحدودة لخطوط السكك الحديدية المتواجدة آنذاك – جلبها في الوقت المحدد، كما أن سحب الجيش السادس من "ستالينجراد" كان أمراً مستبعداً من التفكير فيه، و بالفعل لم يكن واضحاً عقب أسابيع عدة من بدء الهجوم السوفييتي على "ستالينجراد" أن الجيش السادس سيضيع للأبد و أن أفضل ما يمكنه فعله خلال الإطار العام للعملية برمتها هو التقوقع داخل كتلة قوية من القوات لأطول فترة ممكنة، و قد كانت تلك مهمة أتمها ذاك الجيش الباسل حتى النهاية و حتى إضطر للتضحية بنفسه في نهاية المطاف.

و على الرغم من ذلك و حتى بعد أن إتخذت الأمور منحىً خطيراً نتيجةً للطريقة المتعنتة التي تمسك بها "هتلر" بـ"ستالينجراد" و عقب أن أثبتت جميع الآمال في تخليص الجيش السادس أنها مجرد أوهام ما زال هناك حلاً **ثانياً** متاحاً أمام القيادة العليا، فقد كان بالإمكان تحويل أزمة خطيرة إلى نصر مقابل ثمن يتمثل في التنازل عن المساحة من الأرض التي كسبناها في حملة الصيف – و التي كان من غير الممكن التمسك بها في جميع الأحوال، و لتحقيق ذلك كان ضرورياً إنسحاب قوات مجموعتي الجيوش "دون" و "أ" من النتوءات الشرقية للجبهة في توقيتات محددة سلفاً و سحبها بداءةً إلى خلف نهر "دون السفلي" أو "دونتز" و تبعاً إلى نهر "دنيبر السفلي".

و خلال تلك الأثناء يجب حشد كافة القوات الممكن إتاحتها – بما فيها تلك الفرق المسحوبة من أيٍ من مجموعتي الجيوش لتقليص الجبهة – بكثافة حول "خاركوف"، فعلي عاتقها يمكن إلقاء مهمة التقدم نحو جناح قوات العدو أثناء قيامه بملاحقة مجموعتي الجيوش المنسحبتين أو محاولة إعتراض طريقهم إلى نقاط تقاطع نهر "دنيبر"، و بمعنى آخر إن الفكرة تتمثل في تحويل عملية الإنسحاب واسعة النطاق إلى عملية تطويق تهدف إلى إجبار العدو المُلاحق لنا على التقهقر تجاه البحر و تدميره هناك.

و كانت مجموعة الجيوش "دون" قد إقترحت هذا الحل على *القيادة العليا للجيوش الألمانية* عندما لم تعد هناك أي إمكانية لإنقاذ الجيش السادس بمجرد أن تبدّى بوضوح أن موقف مجموعة الجيوش "أ" في القوقاز بات من غير الممكن الدفاع عنه و أن إختراق العدو للجبهة الإيطالية صار يهدد بتطويق كامل الجناح الجنوبي.

و لكن "هتلر" لم يكن بالرجل الذي ليسلك طريقاً يتطلب منه بداءةً التنازل عما غزاه في صيف ١٩٤٢ و يتضمن مصاعب عملياتية شديدة، فمثل تلك الخطوة لا محل لها في نية شخصية سبق أن تناولناها بالتحليل في فصل سابق عن "هتلر" كقائد أعلى، و ربما يكون قد دفعه نقص خبرته الميدانية في أن يأمل في إستعادة الموقف على الجناح الجنوبي بواسطة الإستعانة بفيلق بانزر من سرايا الدفاع و الذي كان متوجهاً حينها إلى "خاركوف".

و بالنسبة لقيادة مجموعة الجيوش "دون" فقد كان الحل **الأول** غير وارد بالمرة نظراً لأن الجيش السادس تم تطويقه بالفعل، و لم تكن بقايا القوات و لا التعزيزات الهزيلة

التي مُنحت لنا بإعتبارنا مجموعة الجيوش "دون" كافية لخوض أي معركة على الثنية الكبيرة لنهر "دون" يُحتمل نجاحها فيها – و حتى تلك التعزيزات تم إستبقائها لمصلحة مجموعة الجيوش "ب" عقب هزيمة الجيش الإيطالي، و أما بالنسبة للحل **الثاني** – تحويل عملية الإنسحاب واسعة النطاق إلى هجوم مضاد على الجناح الشمالي للعدو المكشوف بفعل ملاحقته لنا – لم تكن مجموعة الجيوش "دون" ممتلكة للسلطة التي تسمح لها بذلك، فالقيام بذلك يحتاج لإمتلاكنا للسلطة على كامل الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية و فوقها حرية التصرف في إحتياطات *القيادة العليا للجيش*.

و بدلاً عن ذلك إضطرت مجموعة الجيوش إلى التعامل بدورها مع المهام الممكنة في نطاق قيادتها، و كان عليها أن تبتكر بدائل متعددة لسد الثغرات الواحدة تلو الأخرى للتعامل مع الخطر الناجم عن الموقف الإستراتيجي الأصلي و ينمو بشكل متزايد بمرور الوقت و هو خطر تطويق الجناح الجنوبي بأكمله.

و قد كان إنقاذ الجيش السادس هو أول مهمة تواجهها مجموعة الجيوش، و بداءةً كان لزاماً أن تكون لهذه المهمة الأولوية على سائر الإعتبارات العملياتية.

و ما إن أثبتت تلك المهمة إستحالتها للأسباب الواردة في الفصل الخاص بـ"ستالينجراد" كان على مجموعة الجيوش أن تتعامل مع مسألة الحيلولة دون وقوع طامّة أكبر متمثلة في خسارة كامل الجناح الجنوبي، و نظراً لعدم كفاية القوات المتاحة كإحتياطات لدى *القيادة العليا للجيوش الألمانية*لتأمين خطوط إتصالات الجناح الجنوبي على نهري "دون السفلي" و "دنيبر" صار السبيل الوحيد المتاح لنا سلوكه هو أن نجمع القوات في الجناح الشرقي لمجموعة الجيوش و نرسل القوات المُحررة تواً إلى الجناح الغربي، و من ثم يعتمد كل شيء على تفكيرنا بعيد النظر بشكل دائم في نقل قوات من جناحنا الشرقي إلى الغربي في وقت محدد بهدف سد الطريق أمام قيام العدو بحركة تطويقية نظراً لزيادة عدد القوات تدريجياً في الغرب، و قد كانت تلك مهمة شاقة بكل ما تحمله الكلمة من معنى بسبب حقيقة أن التشكيل المجاور في الشمال {مجموعة الجيوش "ب"} كان يختفي ببطء من المشهد نتيجة لخسارة الجيوش الحليفة، و من جهة أخرى كان من غير الممكن القيام بنقل أعداد كافية من القوات إلى الجناح الغربي دون إستدعاء أي قوات من مجموعة الجيوش "أ" و التي لم تكن لتتلقى أوامرها من مجموعة الجيوش "دون".

و على الرغم من إمتداد تلك المهمة بالنسبة للجيش السادس إلى نطاق أوسع و حاجتها لفترة زمنية أطول إلا أنها كانت الوحيدة الملقاة على عاتقه بين ١٩ و ٢٣ نوفمبر، ففي هذا الوقت أيضاً كان الأمر متمحوراً حول نقل القوات فوراً و بصرف النظر عن عواقب ذلك المحدودة إلى الأماكن التي يعتمد عليها بقاء إتصالاتنا الخلفية عاملة و معه بشكل متزامن صون حركيتنا العملياتية، و الفرق الوحيد كان أنه في حالة الجيش السادس صدر القرار في غضون أيام – و ربما ساعات – قلائل و لم يكن بالتالي ممكناً أن يعوّل على أي وصول أي تعزيزات ليبدأ التنفيذ، أما في حالتنا الخاصة فقد هيمنت هذه الفكرة كليةً على تصورنا للعمليات و أدخلتنا في صدام دام لأشهر مع القائد الأعلى.

مبدئياً إن فكرة تنفيذ قفزة ضفدع من الشرق إلى الغرب لإحباط محاولات العدو لتطويق الجناح الجنوبي كانت في منتهى البساطة، و مع ذلك ففي الحرب عادةً ما تثبت أبسط الأفكار أنها أصعبها تنفيذاً حيث إن الصعوبات الحقيقية لا تقبع عادةً في إتخاذ القرار بشأنها و إنما في إتمام تنفيذها على إكمل وجه، و في مثالنا الراهن هذا أي إنسحاب لقوات من الشرق إلى الغرب سيوّلد خطراً لا يضمن أحد تفاديه، و فوق كل ما سبق لو أثبتت عمليات نقل القوات تلك جدواها لفترة فيجب أن يكون هناك بعض الوقت – إن لم يمتد لأسابيع عدة – قبل أن يصير خطر التطويق داهماً بحيث يدركه "هتلر"، و أخيراً و ليس آخراً حالت تطورات الأحداث في قطاع مجموعة الجيوش "أ" – كما سنرى لاحقاً – دون قيامنا بتنفيذ خطة "قفزة الضفدع".

و هكذا و برغم البساطة و الوضوح الذي كان عليه تصورنا الأساسي ذاك إلا أنه أثبت صعوبة دائمة في تنفيذه في مواجهة خطورة الموقف المتزايدة، و ذات الصعوبة واجهناها في إقناع القائد الأعلى – على الأقل في الوقت الذي كان تصورنا مثمراً فيه – بالموافقة عليه نظراً لتعارض وجهة نظر الخير جذرياً مع وجهة نظرنا الخاصة، و قد أصر "هتلر" على تمسكه بمبدأ التمسك المطلق بمكاسبه بينما إعتبرنا من جهتنا حركيتنا العملياتية – و التي تتميز بها طواقمنا و قواتنا متفوقةً على العدو - هي مفتاح النصر.

و قد قاد الموقف الذي واجهته مجموعة الجيوش "دون" لدى توليها زمام الأمور – إضافة إلى القيود المفروضة بواسطة القيادة العليا و إعتمادها بعيد المدى على تصرفات و مواقف مجموعات الجيوش المجاورة – إلى تبني نظام من بدائل سد الثغرات بدون في نفس الوقت التضحية بتصورها الأساسي.

و في ضوء ما تقدم يمكن تقسيم حملة شتاء ٤٣/١٩٤٢ التي نفذتها مجموعة الجيوش "دون" – الجنوبية فيما بعد – إلى أربعة مراحل رئيسية:

١. النضال في سبيل إنقاذ الجيش السادس و الذي خاطرت مجموعة الجيوش من أجله بكل شيء ممكن.
٢. النضال في سبيل إبقاء مؤخرة مجموعة الجيوش "أ" متحررة أثناء إنسحاب المجموعة من القوقاز
٣. المعركة الفعلية للإبقاء على خطوط إتصالات الجناح الجنوبي للجيوش الألمانية مفتوحة و الحيلولة دون تطويقه
٤. شن هجوم مضاد بلغ ذروته في معركة "خاركوف"، و هي المرحلة التي نجحت فيها مججموعة الجيوش إلى حدٍ ما.

المرحلة الأولى: النضال لتحرير الجيش السادس:

تم الحديث بالفعل عن محاولة إنقاذ الجيش السادس أو على الأقل تمكينه من الخروج من جيب "ستالينجراد" في موضع سابق.
و بَذلاً منها لأقصى جهد ممكن في سبيل إنجاح هذه المحاولة ذهبت مجموعة الجيوش "دون" إلى أبعد حدود الخطر، و لما حان الوقت الذي حُسم فيه مصير الجيش السادس – نهاية ديسمبر ١٩٤٢ تقريباً – سعت إلى العمل بحد أدنى من القوات في منتصف جبهة مجموعة الجيوش و يسارها و التي صارت فعلياً مجرد حاجز دفاعي هزيل، و كان الهدف الذي سعت إليه هو تأخير أي تطورات جذرية في تلك القطاعات حتى تنجح معركة الجيش الرابع بانزر شرق نهر "دون" في فتح طريق الجيش المحاصِر إلى الحرية.
فقط بعد التخلي عن كل الآمال بشأن إقامة الإتصال بين الجيشين الرابع بانزر و السادس و بعد أن أضعفت الهزيمة المتزامنة للجيش الإيطالي الجناح الغربي لمجموعة الجيوش "دون" و فتحت الطريق أمام العدو إلى "روستوف" منحت مجموعة الجيوش الأولوية لمسألة حماية كامل الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية.

و كل ما ينبغي عليّ فعله في هذا المقام هو التحدث بإيجاز عن كيفية تدهور موقف مجموعة الجيوش "دون" كنتيجة – من ناحية – لقرار الجيش السادس بعدم تنفيذ محاولة شق طريق الخروج و – من ناحية أخرى – للطريقة التي تطورت بها الأحداث على الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش "ب" {الجيش الإيطالي}.
و سبق و أن أوضحنا الموقف السيئ الذي صار فيه الجيش الرابع بانزر على الجناح الشرقي لمجموعة الجيوش بسبب قيام العدو بنقل مزيد من القوات بشكل مستمر من جبهة حصار "ستالينجراد" إلى طريقه لتلقي به، و كان الفيلق ٥٧ بانزر قد عانى خسائر فادحة في المعارك التي وقعت بين نهر "أكساي" و "كوتلنيكوفو" – و كذلك في القتال من أجل الأخيرة بإعتباره منصة وثب ينطلق منها الجيش الرابع بانزر في تنفيذ عملية الإنقاذ - عقب تركه وحيداً في ميدان المعركة بعد تخلي الرومانيين عنه، و قد تضررت على وجه الخصوص الفرقة ٢٣ بانزر بشدة – و التي تم إضعافها بشدة قبل ذلك، و قد بدا واضحاً أن الجيش الرابع بانزر لن يتملك القوة اللازمة لمنع العدو من توجيه قوات كبيرة نحو مؤخرة الجيش الأول بانزر و ذلك لعدم وصول التعزيزات من مجموعة الجيوش "أ".
و لم تكن الحوادث على بقية جبهة مجموعة الجيوش أقل خطورةً، ففي ما كان سابقاً قطاع الجيش الثالث الروماني فقد أتاحت حقيقة تقهقر الجيش الرابع بانزر شرق نهر "دون" للعدو عبور النهر المكسو بالجليد حول "بوتمكنسكايا" – و لاحقاً بقليل في "تسيمليانسكايا" – و تهديد مواقعنا على نهر "تشير" في صفوفها الخلفية و أجنحتها، و على تلك الجبهة كان الجنرال "ميث" قد تولى في تلك الأثناء القيادة بدلاً من قيادة الجيش الثالث الروماني، و نظراً لقدوم الروس عبر نهر "دون" من جهتي الشرق و الجنوب لم يكن أمامنا خيار مبدئياً سوى إصدار الأوامر لمجموعة "ميث" بخوض قتال إنسحابي إلى ما خلف نهر "كاجالنيك".
و على الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش بدا الوضع أكثر حرجاً، و إقراراً بالحق أقول أن مفرزة الجيوش "هوليدت" نجحت في سحب قواتها جنوباً من نهر "تشير العلوي" و ذلك بصرف النظر عن خسارة الفرق الرومانية، و بدون أي مبررات قام فرقة حديثة التشكيل – و التي تولت حماية جناح المفرزة في "بيستريايا جنيلايا" – بتسليم نقطة العبور في "ميليوتنسكي" للعدو، و هو ما فتح الطريق أمام العدو إلى جناح مفرزة الجيوش "هوليدت" و كذلك إلى القاعدة الجوية المهمة في "موروسوفسكي".

و الحقيقة الأكثر خطورةً كانت أن العدو صار قادراً – نظراً لإنهيار الجيش الإيطالي و الإبادة التامة للقوات الرومانية في المعركة { الفيلقين الأول و الثاني على ما كان سابقاً الجناح الأيسر لمفرزة الجيوش "هوليدت"} – السعي للإستيلاء على نقاط تقاطع نهر "دون" في "فورتشستادت" و "كامنسك" و "فوروشيلوفجراد" بدون مقاومة تقريباً، و فقط في "ميلروفو" واجه العدو مقاومة حيث كانت تتموضع هناك مجموعة "فريتر-بيكو" المشكلة حديثاً على الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش "ب" و وقفت صامدة كجزيرة منعزلة وسط فيضان أحمر، و على أي حال تمتع العدو بحرية التوجه شرقاً نحو مؤخرة مفرزة الجيوش "هوليدت" أو مجموعة "ميث" أو حتى مواصلة التقدم إلى "روستوف" جنوباً بدلاً عما سبق.
و بالتالي كان موقف مجموعة الجيوش "دون" خطراً بمعنى الكلمة، و لعل الحل الوحيد الصحيح لإنهاء الأزمة – لو كانت مجموعة الجيوش تتمتع بالإستقلال في التصرف – كان وضع فكرة "قفزة الضفدع" محل التنفيذ بغض النظر عن أي إعتبارات أخرى، و كان سيُمكن حينها سحب الجيش الرابع بانزر إلى "روستوف" في خطوة واحدة على أن يُستخدم بعد ذا في مواجهة التهديد المحدق بالجناح الأيسر لمجموعة الجيوش و خطوط إتصالاتها إلى الغرب، كما يجب أن تُسحب قوات مجموعة "ميث" و مفرزة الجيش "هوليدت" – و التي ما تزال تقاتل في الثنية الكبيرة لنهر "دون" – إلى نهر "دونتز".
و قد يثور إعتراض على هذا الحل يتمثل في حقيقة أن مجموعة الجيوش "أ" ما تزال متمسكة برسوخ شديد بمواقعها في القوقاز، و القيام بكشف خطوطها الخلفية بواسطة نقل قوات مجموعة الجيوش "دون" إلى الجناح الغربي كان أمراً غير وارد بالمرة، و على النقيض من ذلك لم يكن واجب مجموعة الجيوش "دون" فقط القيام بتغطية الخطوط الخلفية لمجموعة الجيوش "أ" فقط و لكن أن تُبقي على خطوط إتصالاتها مفتوحة خلال "روستوف".
و من ثم كانت فكرة إقامة عمليات مجموعة الجيوش على مبدأ نقل مجهودها الرئيسي غرباً لإحباط محاولات العدو تطويق كامل جناح الجيوش الجنوبية ما تزال خارج حيز التنفيذ في ذلك الوقت، و خلال الأسابيع الأولى القليلة عقب تولي مجموعة الجيوش زمام الأمور قامت المجموعة بتكريس جهودها لمصلحة الجيش السادس، و الآن وجدت نفسها – في المرحلة الثانية – مدفوعةً لخوض نضال يائس لحماية مؤخرة مجموعة الجيوش "أ" بالرغم من الخطر المتنامي على جناحها الغربي.

المرحلة الثانية: القتال من أجل حماية الخطوط الخلفية لمجموعة الجيوش "أ" :

كان يجب أن تكون القيادة العليا الألمانية واعيةً من البداية بأن مجموعة الجيوش "أ" لا يمكنها البقاء في القوقاز في حال عدم تحقيق معركة تحرير الجيش السادس نجاحاً فوراً - و بمعنى آخر إن لم تكن هناك أي إمكانية واضحة بإنشاء وضع آمن على الثنية الكبيرة لنهر "دون" بطريقة ما، و لكن لما كان العدو قد أحدث ثغرة على الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش "ب" فتحت له الطريق إلى "روستوف" كان لزاماً أن يكون واضحاً بجلاء لأي شخص أنه لم تعد مسألة التمسك بجبهة القوقاز واردة، و ذلك ما لم يكن "هتلر" قادراً على سحب الكتلة الرئيسية للقوات من المسارح الأخرى أو راغباً في ذلك.
و تماماً كما حدث في ٢٠ ديسمبر – و هو اليوم الذي كشف فيه هروب الفرق الإيطالية جناح مفرزة الجيوش "هوليدت" و فتح الطريق أمام الروس إلى نقاط تقاطع نهر "دونتز" – أوضحت للجنرال "زيتزلر" أن الفرصة ستكون متاحة أمام العدو لتوجيه ضربته القاضية إلى الجناح الجنوبي الألماني بأكمله بتقدمه في إتجاه "روستوف".
في ٢٤ ديسمبر قمت بلفت الإنتباه إلى حقيقة أنه ليس فقط مصير مجموعة الجيوش "دون" بات على المحك بل و مجموعة الجيوش "أ" أيضاً.
و قد أشرت سابقاً لرفض طلبي بتحرير قوات من مجموعة الجيوش "أ" و توجيهها نحو "روستوف" و الجيش الرابع بانزر، و حتى لو لم يعد ممكناً للمرء أن يتصور إعادة القيام بمحاولة إنقاذ الجيش السادس فإنه ما يزال من مصلحة مجموعة الجيوش "أ" تعزيز الجيش الرابع بانزر بإعتبار أن هزيمته ستسمح للعدو بالوصول للخطوط الخلفية للمجموعة، و حيث أن مجموعة الجيوش "أ" – لسبب غير معروف – لم تقبل سحب أي قوات منها صارت مسألة إصدار الأمر بمساواة مجموعتي الجيوش في القوات على وجه السرعة بيد القيادة العليا، و يحتمل أن يكون سبب رفض مجموعة الجيوش "أ" منحِنا الفرق التي طلبناها – إنظر الفصل الخاص بـ"ستالينجراد" – هو درجة الإرتباك الشديدة التي بلغتها تشكيلاتها و وحداتها بسبب عمليات الدمج التي خضعت لها.
و بلا شك إن سحب القوات الأكبر من مجموعة الجيوش "أ" سيكون صعباً و سيستهلك من الوقت الكثير، و هذه الحالة هي في جزء منها النتيجة الحتمية – في ظل غياب إحتياطات كافية – للحاجة إلى سد الثغرات التي أحدثتها إختراقات العدو، و مع ذلك

فإنها ترجع أيضاً إلى كون مجموعة الجيوش "دون" بلا قائد منها يدبر لها أمورها في الشهور الأخيرة ، و في أفضل الأوقات يكون كثير من القادة العسكريين عاجزين عن تقدير أن الوحدات يجب تركها في وضعها القتالي العادي في حال إستهداف الوصول بها لأقصى كفاءة و الحفاظ على قدرتها على المناورة، و عندما – كما في حالتنا هذه – ينعدم وجود القائد المسئول من أي مستوى لفترة ما سيكون من غير الداعي للتعجب سقوط القوات في حالة من اللا نظام.
و تجاوباً مع إلحاح مجموعة الجيوش "دون" قرر "هتلر" أخيراً في ٢٩ ديسمبر إصدار أوامره بشأن إنسحاب الجناح الشرقي المكشوف لمجموعة الجيوش "أ" {الجيش الأول بانزر} إلى قطاع "كوما" في "بياتيجوسك-براسكوفيا"، و لكنه ما يزال لا ينتوي التخلي عن جبهة القوقاز بأسرها، و يبدو واضحاً أنه ظل يأمل في أنه سيكون قادراً على مَحْورة الجناح الشرقي لمجموعة الجيوش "أ" حول مسطحات "مانيتش" بواسطة سحبه إلى منطقة "كوما" و بذا فرض حالة إستقرار على المنطقة بين "مانيتش" و نهر "دون" و تزامناً مع ذلك الإبقاء على خطوط إتصالات الجناح الجنوبي مفتوحة عبر نهر "دنيبر السفلي"، و لذا لم يتم تدمير "الشرفة" التي تشكلت في نوفمبر بدفع الجبهة إلى داخل القوقاز و شمالاً حتى نهر "فولجا" و التي قادت إلى الموقف السيئ الذي نعانيه الآن و إنما تقلص حجمها فقط، و قد ظل المكان الذي تُرسل إليه القوات المخصصة لتعويض خسارة الجيوش الرومانية و الإيطالية – و قبلها الجيش المجري – غامضاً تماماً، و هو ما سبب في وقت لاحق التخلي عما تبقى من جبهة القوقاز.
و قد واجهت مجموعة الجيوش "دون" في مرحلتها الثانية هذه المهام التالية:
بدلاً من التصرف وفق ما يمليه الموقف حقيقةً و نقل نقطة تركيز الجهد الرئيسية جذرياً إلى الجناح الغربي للقضاء على خطر التطويق كانت مجموعة الجيوش مجبرة – في مواجهة الأزمة المتصاعدة – على القتال لفترة من الوقت.
و كان عليها في جنوب نهر "دون السفلي" أن تتولى حماية مؤخرة مجموعة الجيوش "أ" {خطوطها الخلفية} و أن تسعى جاهدة في نفس الوقت للإبقاء على خطوط إتصالاتها عبر "روستوف" مفتوحة، و قد كان هذا مهمة مزدوجة لا تتمكن القوات الضعيفة للجيش الرابع بانزر من إتمامها بالنظر إلى التمدد الواسع لمساحة الأرض التي كان على تلك القوات أن تسيطر عليها بين القوقاز و نهر "دون" و إلى قوة العدو الموجود هناك.

و في الثنية الكبيرة لنهر "دون" و أمام نهر "دونتز" كانت مهمة مفرزة الجيش "هوليدت" هي تعطيل تقدم العدو شمال نهر "دون السفلي" إلى الحد الذي يمنعه من تطويق الجيش الرابع بانزر – و معه مجموعة الجيوش "أ" – و ذلك بواسطة الزحف بسلاسة نحو "روستوف" من جهة الشرق، و إضافة إلى ما سبق كان عليها الحيلولة دون عبور العدو لخط نهر "دونتز"-"فورتشستادت-كامنسك-فوروشيلوفجراد" و بحيث تحرم العدو من الوصول إلى "روستوف" من جهة الشمال.
و أخيراً كان على مجموعة الجيوش الإبقاء على خطوط الإتصالات الممتدة إلى نهر "دنيبر السفلي" في الغرب مفتوحة سواء بمواردها الخاصة أو بمساعدة ما تكون *القيادة العليا للجيوش الألمانية*قادرة على إرساله من إحتياطات.
يجب القيام بكل ذلك بالإستعانة قوات تعرضت للضغط الشديد لفترة طويلة و تواجه عدواً أقوى منها أضعافاً مضاعفة.
و رغم الصعوبة التي تتضمنها تلك المهمة – أو السلسلة من المهام – إلا أن الخطر الرئيسي يقبع في عدم قدرة مجموعة الجيوش "أ" على الإنسحاب بسلاسة من القوقاز، و قد كان هذا مثالاً آخر على الصعوبة المتزايدة للعملية التي تضمنها الصراع الحركي المتحول إلى صراع ساكن {إستاتيكي}، و لو إستهدفنا فقط الإقتصاد في القوات التي نملكها ينبغي علينا حفر تمركزات لأسلحة غير قابلة للحركة و ما يرتبط بها من مؤن و ذخيرة، كما يجب تشييد منشآت أخرى لتخفيف كثافة القوات – و هو إجراء ذو أهمية خاصة عندما يحول نقض الإحتياطات دون خلود القوات لقسط من الراحة، و نظراً لعدم إمكانية إطعام الأحصنة في أرض معركة الصراع الساكن عادةً فيجب تخصيص مكان لها بعيداً في الخلف و هو ما يؤدي بدوره إلى إرتخاء القوات المقاتلة، و يضاف إلى تلك الصعاب حالة الطرق في ظل الشتاء الروسي خصوصاً في الأرياف الجبلية.
و كانت النتيجة دوماً هي فقدان القوات و طواقم قيادة التشكيلات مقدرتها على التكيف السريع مع التغيرات الطارئة على الموقف التي تحدث بشكل يومي في حرب الحركة، فكان للهمود و الجمود اليد العليا بشأن أي تغيير يتضمن حداً من الصعوبة و حركة القوات إضافةً إلى العقبات و المخاطر، و عملية تكدس الأسلحة و المعدات و جميع أنواع المؤن الحتمية كانت مكبلةً بها أصول و مواد شعر المرء بعدم القدرة على التخلي عنها حتى نهاية الحرب، و كانت النتيجة هي أنه عندما شعرت القيادة المعنية بضرورية الإنسحاب وجدناها تبدأ بطلب فترة زمنية طويلة للتضير للإخلاء، بل إنها قد ترفض فكرة الإنسحاب بسبب المعدات و المؤن التي تعتبرها لا يمكن الإستغناء عنها، و سيظل

من المتذكر دوماً أنه عندما وصل الهجوم الألماني لمرحلة الركود في ١٩١٨ لم يتمكن قائد مهيب مثل "لودندروف"[١] من دفع نفسه لتقبل فكرة حرب الحركة – متمثلةً في تنفيذ عملية إنسحاب جريئة - التي كان آخر أمل لألمانيا في الفوز بالحرب حينئذٍ يقبع فيها، فلعله شعر بأنه غير قادر على إحصاء كل المواد الموجودة على الجبهة الألمانية و خلفها في تحليل مفصل شامل أو لم يكن ليتقبل فكرة التخلي عن الأراضي التي ضُحّي بالكثير في سبيل السيطرة عليها.

و مماثلاً لذلك كان الموقف على جبهة مجموعة الجيوش "أ"، فقد كشفت محادثة لي مع رئيس أركان الجيش الأول بانزر أن هذا التشكيل لم يتمكن من بدء التحرك منسحباً حتى الثاني من يناير، و بعد إمدادنا له بالوقود بدأ التحرك فعلياً في عيد رأس السنة، و حتى ذلك الحين أعلنت مجموعة الجيوش "أ" بعد ذلك بأيام قلائل أن الجيش الأول بانزر سينفذ إنسحابه إلى قطاع خط "كوما" تدريجياً قطاعاً قطاعاً بهدف التمكن من إجلاء سائر المعدات و الجرحى من المنتجعات الجبلية القوقازية، و في سبيل ذلك – كما صرحت المجموعة بذلك – بأن الجيش الأول بانزر يحتاج إلى ١٥٥ قطار – ٢٠ للفرقة الواحدة – و لن يبلغ مواقعه على طول خط "كوما" قبل ٢٥ يوماً نظراً للسعة المحدودة للسكك الحديدية، لذا و على الرغم من أنه كان من الواجب منذ أواخر نوفمبر إدراك أنه على الأقل مؤخرة مجموعة الجيوش "أ" ستكون معرضة للخطر عاجلاً أو آجلاً إلا أنه يبدو بشكل قطعي أنه لم يتم فعل أي شيء في سبيل التحضير لأي إجلاء، و أحد أسباب ذلك الإهمال كان بلا شك تحريم "هتلر" لأي عمل يعد من قبيل تلك الإستعدادات أو كان من المتوقع قيامه بذلك إن علم بشأنها، و لكن يوجد سبب آخر يعادل سابقه في الأهمية و هو – و أنا متأكد منه – غياب القائد المسئول عن مجموعة الجيوش "أ" في الأشهر الأخيرة.

و قد كانت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* تفكر جدياً في وضع مجموعة الجيوش "أ" – و التي صار قائدها الآن الكولونيل جنرال "فون كليست" – تحت قيادتي، و بشكل عام أرى أنه من غير الحصيف وضع أي مجموعة الجيوش أو جيش تحت قيادة طاقم قيادة من نفس المستوى، و مع ذلك قد يكون لهذا محاسنه في موقفنا الدقيق الحالي بشرط عدم وجود أي قيود بالطبع، و أي إمكانية للتدخل من جانب "هتلر" أو تدفعه مجموعة الجيوش "أ" لإتخاذ قرار معارض لآخر سبق و أن إتخذته يجب منعها صراحةً، و مع ذلك كان "هتلر" لا يرغب في قبول شروطي فظلت مجموعة الجيوش "أ" تبعاً لذلك

[١] إريتش لودندروف : قائد عسكري و سياسي ألماني عاش بين ١٨٦٥ – ١٩٣٧.

مستقلة بذاتها، و كل ما كان بإمكان مجموعة الجيوش "دون" أن تفعله هو مواصلة الضغط في سبيل إتخاذ تدابير إجلاء سريعة من جانب مجموعة الجيوش "أ" و ذلك بهدف تحرير القوات التي سيكون تدخلها جنوب نهر "دون" و لاحقاً على الجناح الغربي لمجموعة الجيوش "دون" ذا أهمية حاسمة في أقرب وقت ممكن، و قد كان كل شيء يعتمد على تقليص هذه المرحلة الثانية من حملة الشتاء إلى أقصر مدة ممكنة لكي الوصول بالجناح الجنوبي الألماني أخيراً إلى حالة الإستقرار، و يكمن الأمل الأخير لتحقيق ذلك في تحطيم قوات العدو التي تحاول تطويق ذلك الجناح من جهة الغرب، و في حالتنا تلك ثبتت إستحالة تقليص المواعيد النهائية لعملية الإنسحاب من القوقاز.
إن العوائق سالفة الذكر كانت راجعةً في جزء منها إلى ما بدت وأنها النتيجة الحتمية لظروف الصراع الساكن و الصعوبات المواجَهة في مسرح العمليات الجبلي، و في جزء آخر إلى تعنت القيادة العليا إزاء التخلي عن أي شيء طواعيةً، و حقيقة أن تلك القيادة قد ورطت مجموعة الجيوش "دون" في معركة بمنطقة نهر "دون" دامت من نهاية ديسمبر حتى أوائل فبراير ترجع إلى – بالنظر إلى ما كان يحدث لمجموعة الجيوش "ب" – قد أدت إلى تكثيف خطر تطويق كامل الجناح الجنوبي.
و من الصعوبة بمكان العثورعلى شرح أفضل لتعريف "مولتكه" للإستراتيجية في مكان آخر غير هذه المعركة التي خاضها جيشان من مجموعة الجيوش "دون"، و سبب نجاحنا – بصرف النظر عن سلسلة من الأزمات – في إتمام المهام الموكلة إلينا و السالف ذكرها يكمن في تمسك طواقم الجيش و مجموعة الجيوش الراسخ بمبدأي القيادة الألمانيين المعروفين:

١. وجوب تنفيذ العمليات دوماً بأسلوب مرن و بدهاء شديد.
٢. وجوب الإهتمام التام بتمتع القادة من كل المستويات بسمات المبادرة و الكفاية الذاتية.

و كلا المبدأين – إقراراً للحق – كان لهم معنى مختلف تماماً في فكر "هتلر"، ففي حين سيتم التحدث عن الأول في الموضع الخاص بالمعركة التي خاضها الجيشان، أود أن أتحدث بإيجاز عن الثاني الآن.

لقد كانت القيادة الألمانية بارعة دوماً في الإهتمام إلى حد كبير بسمة الإعتماد على الذات لدى القادة التابعين لها – بمعنى تكليفهم بمهام تاركةً لهم تقرير أسلوب التنفيذ، و منذ زمن بعيد – خاصةً منذ أيام "مولتكه" الأكبر – كان هذا المبدأ هو ما يميز القيادة العسكرية الألمانية عن غيرها من قيادات الجيوش الأخرى، فقد عكفت الأخيرة – و

البعيدة تماماً عن سلوك نفس النهج بالنسبة للقادة التابعين لها على المستوى التكيتكي – على توضيح طرق و أساليب تنفيذ الأوامر أو التأكيد على تنفيذ أي عمل تكتيكي بأسلوب معين بواسطة ما تصدره من وسائل توجيهية طويلة و مفصّلة، و لكن على الجانب الألماني إعتُبر هذا النظام سيئاً، و إقراراً للحق أقول أنه قد إتضح أن هذا النظام يقلل من مخاطر الفشل في حالة القادة متوسطي القدرات، و لكنه يقود بسهولة شديدة إلى قيام المنفذ بتصرف لا يتفق مع ما يمليه الموقف السائد، و أسوأ ما في الأمر أنه يؤدي لإضاعة أي فرصة تلوح في حالة تصرف القائد التابع بشكل مستقل و تسمح له بالإستغلال الجرئ لأي موقف يبدو في صالحه في أي لحظة حاسمة، و يجد هذا الأسلوب الألماني حقيقةً جذوره في الشخصية الألمانية و التي – على النقيض من كل الهراءات حول إتسامها بـ"الطاعة العمياء" – تتسم بقدر كبير من التفرّد و - ربما تأثراً بميراثها الجرماني – كانت تشعر بسرور بالغ في تقبل المخاطر، و إن منح هذا الإستقلال للقادة التابعين يتطلب بداءةً أن يكون جميع أعضاء الهيئة العسكرية مشبعين تماماً بقدر أكيد من الثوابت التكتيكية أو العملياتية، و فقط مدرسة الأركان العامة الألمانية – إفتراضاً مني – هي التي أنتجت مثل هذا الإتساق في آفاق المستقبل، و على الرغم من ذلك كانت هناك مناسبات كثيرة تعرض فيه القائد الميداني لمشكلة ما إن يتدخل في سير العمليات التي تنفذها الجيوش أو التشكيلات العاملة تحت إمرته أو لا، و كلما زاد تعقيد هذا الموقف و قلّ حجم القوات التي يقودها كلما زاد رغبته في التدخل في ما ينفذه تابعيه.

و فيما يتعلق بقيادة مجموعة الجيوش الخاصة بنا أعتقد أن بإمكاني قول أننا كنا نتدخل في سير العمليات التني تنفذها جيوشنا فقط عندما كانت الضرورة تقتضي ذلك، و كان هذا حقيقياً على وجه الخصوص في أي وقت تضمنت فيه النوايا العملياتية لمجموعة الجيوش تحمل مسئوليات من المتوقع ألا تقبلها قيادة الجيش المعنية، و من جهة أخرى كنا نمتنع عن توجيه ما يسمى بـ"النصيحة" و التي تقتل أي شعور بالمبادرة و المسئولية لدى من صدرت إليه.

و قد تحدثنا في مواضع سابقة عن فهم "هتلر" الضحل لمبدأ القيادة الألمانية القديم و سعيه المتكرر للتدخل في العمليات التي تنفذها القيادات التابعة عبر إصدار أوامر معينة من قبله، و لم يكن في المقدور فعل شيء إزاء تلك الأوامر عندما تتعلق بتحركات مجموعات جيوش متاخمة لنا أو بأعمال تتولى تشكيلات الإحتياط الموجودة لدى *القيادة*

العليا للجيوش الألمانية تنفيذها، و مع ذلك في مناسبات عدة عندما صدرت أوامر لتلك التشكيلات بالتمسك بخطٍ ما حتى آخر رجل و آخر طلقة كانت الظروف السائدة تثبت أنها الأقوى في نهاية المطاف.

و مما ناقشناه سابقاً و كان في حقيقته من الأمور الصعب التغلب عليها هو تعنت "هتلر" إزاء إتخاذ القرارات العاجلة، و نحن لا يمكننا بأي حال إجباره على إصدار أي أمر، و في مثل تلك الحالات لم يكن أمامنا من خيار سوى إيراد تقرير يفيد أنه بموجب توجيه *القيادة العليا للجيوش الألمانية* الصادر في يوم كذا توجب علينا التصرف بناء على تصورنا الخاص.

و على نقيض ما تقدم أشعر بالشك حول ما إن كان أي من الجيوش العاملة تحت قيادتنا خلال هذه الحملة أو تابعاتها قد إشتكى من تباطؤنا في إتخاذ القرارات، ففي كل مرة قدم أحدها إستفساراً أو توصية إلى مقر قيادتي كان يتسلم رداً فورياً، و فقط في المواقف الصعبة كانت مجموعة الجيوش تتأخر في إصدار أي قرار لفترة محدودة من الوقت – بلغ أقصاها بضعة ساعات أو حتى الصباح التالي.

و بشكل عام – و بصرف النظر عن "ستالينجراد" – كانت مجموعة الجيوش تعمد دائماً إلى إتخاذ التصرف المطلوب مواجهةً لتدخل "هتلر" أو مماطلته في إصدار القرار المناسب.

معارك الجيش الرابع بانزر جنوب نهر "دون السفلى":

تم تكليف الجيش الرابع بانزر بمهمتين مختلفتين ينبغي إتمامها بغرض حماية مؤخرة مجموعة الجيوش "أ" و إبقائها حرة.

فقد كان عليه الحيلولة دون تحرك العدو المواجه له نحو مؤخرة الجيش الأول بانزر ريثما ينهي الأخير إنسحابه من القوقاز إلى جبهة تواجه الشرق.

و في نفس الوقت كان عليه ضمان عدم زحف العدو نحو الروافد السفلية لنهر "دون" في إتجاه "روستوف" و بالتالي قطع كلاً من الجيش الرابع بانزر و مجموعة الجيوش "أ" عن مناطق إتصالاتها.

و كان من الواضح عدم إمتلاك الجيش قوات كافية تسمح له بمنع وصول العدو للمنطقة الواقعة بين الروافد السفلية لنهر "دون" و المرتفعات الشمالية لمنطقة القوقاز بأسرها، و كان جلّ ما يمتلكه الجيش الرابع بانزر في المنطقة المحيطة بـ"كوتلنيكوفو" عقب خسارة القوات الرومانية هو الفيلق ٥٧ بانزر – قوامه فرقتين ضعيفتين و هما ١٧ و ٢٣ بانزر، و لم تكن حينئذٍ الفرقة ١٥ لوفتافا ميدانية جاهزة للدخول في المعركة بعد، و ما تزال الفرقة ١٦ مشاة ميكانيكي عالقة في "ييلستا" و لم تقم قوات مجموعة الجيوش "أ" بإنقاذها بعد.

و قد باءت كل جهود مجموعة الجيوش "دون" لإيصال التعزيزات للجيش الرابع بانزر في توقيت مناسب بالفشل، فقد رفضت *القيادة العليا للجيوش الألمانية*طلب مجموعة الجيوش "أ" للفيلق الثالث بانزر ، و بذا صارت الفرقة السابعة بانزر – و التي كانت مجموعة الجيوش "دون" تنتوي تعزيز الجيش الرابع بانزر بها – محجتزة في "روستوف" بأوامر من "هتلر" لحماية نقطة العبور هناك شمالاً عقب إنهيار الجيش الإيطالي، و هي في جوهرها فكرة ليست سيئة بإستثناء أن فرقة المشاة التي طلبناها من مجموعة الجيوش "أ" – من الجيش السابع عشر تحديداً – كانت ما تزال بكامل قواها، و لكن "هتلر" رفض – كما ذكرت آنفاً – السماح لنا بإمتلاكها لأنه خشي من أن يؤدي إنسحابها من قطاع "نوفوروسيسك" إلى إستسلام الفرق الومانية.

كما تبدى للعيان تهديد خطير في مؤخرة الجيش الأول بانزر عندما تحولت عناصر قوية من قوات العدو كانت بالأصل تلاحق الجيش الرابع بانزر جنوباً ناحية الأول أثناء إنسحابه، و رغم أن الفرقة ١٦ مشاة ميكانيكي كانت قادرة على شن هجوم ناجح و قطع طريق العدو خلف مسطحات "مانيتش" إلا أنها ما تزال متأخرة على المشاركة في نضال الجيش الرابع بانزر و التي لم تنضم له حتى منتصف شهر يناير.

و قد أحبط العدو تدبيراً إنتوت مجموعة الجيوش تنفيذه في منطقتها لتعزيز الجيش الرابع بانزر، فقد رأينا إخراج الفرقة ١١ بانزر من الثنية الكبيرة لنهر "دون" و إلحاقها بهذا الجيش، و ما إن شارفت على عبور نهر "دون السفلي" حتى وجدت العدو قام

بعبور النهر فعلياً من جهتين مختلفتين بهدف التقدم من جهتي الجنوب و الجنوب الشرقي نحو الخطوط الخلفية لمجموعة "ميث" – و التي ما تزال متشبثةً بنهر "تشير السفلي" بجبهة مواجهة للشمال، و لدحر تقدم العدو و تمكين مجموعة "ميث" من التراجع إلى جبهة مواجهة للشرق خلف نهر "كاجالنيك" كان لزاماً على الفرقة ١١ بانزر أن تنتشر شمال نهر "دون" و أن تنضم للجيش الرابع بانزر تبعاً لذلك.

و في نهاية المطاف كانت القوات الوحيدة التي شاركت الفرقتين المدرعتين سالفتي الذكر للفيلق ٥٧ بانزر هي الفرقة "فايكنج" من سرايا الدفاع و التي تحررت من قبل بواسطة مجموعة الجيوش "أ"، إضافة إلى الفرقة ١٦ مشاة ميكانيكي في منتصف يناير.

و في تلك الأثناء كان الجيش الرابع بانزر يتعرض لضغط كبير بواسطة جيشين سوفييتيين خلال "كوتلنيكوفو" و هما الحرس الثاني و الحادي والخمسين و يشتملان على ثلاثة فيالق مشاة و فيلق دبابات و ثلاثة فيالق ميكانيكية و فيلق خيالة، و عُقيب ذلك ظهر جيش ثالث {الثامن و العشرين} جنوباً في سهوب "كالميك".

و يمكن إفتراض أن تلك الجيوش الثلاثة لم تتمكن من مجرد تقييد الجيش الرابع بانزر من الأمام و إنما من تجاوزه من جهتي الجنوب و الشمال بغرض تطويقه تماماً في نهاية المطاف.

و لو كان "هتلر" قد إعتقد أن بإمكانه أن يأمرنا – في مواجهة قوات معادية تفوقنا عدداً و مع شساعة الأرض الواجب حمايتها – بتكليف الجيش بالتمسك بـ"خط" أو آخر أو بوجوب الحصول على موافقته قبل تنفيذ أي إنسحاب فهو بالتأكيد مخطئ، و قد كان الخط السريع الإنشاء المتماسك عقبةً أمام الجيش الرابع بانزر في حقيقة الأمر حيث إنه كان بمثابة بيت العنكبوت في وهنه، و على الرغم من ذلك ظل "هتلر" يحاول تكراراً تقييد حريتنا العملياتية بواسطة إصدار أوامر من هذا النوع و التعنت في رفض تعزيز الجيش الرابع بانزر، و لذا شعرت بحلول الخامس من يناير بوجوب تقديم طلب إعفائي من قيادة مجموعة الجيوش "دون" و أرسلت برقية إلى رئيس هيئة الأركان العامة مما ورد فيها:

"إن لم تتم الموافقة على هذه الإقتراحات و إستمرت هذه القيادة مقيدةً بالشكل الحالي فأنا لا يمكنني أن أرى أي غرض مفيد يمكن تحقيقه من إستمراري كقائد لمجموعة

الجيوش دون، و في هذه الظروف يبدو من الأكثر ملاءمة أن يحل محلي أي نائب من النوع الذي يعمل مع ضابط المؤن"

(إن نواب ضابط المؤن في أي مجموعة جيوش يترأسهم أحد ضباط طواقم القيادة القدامى الذين أحسنوا في تدبير مؤنهم و إمداداتهم طبقاً للتعليمات المباشرة من إدارة التموين و الإمداد المركزية).

و كما حدث فعلاً، لم يكن هدف الجيش الرابع بانزر تنفيذ عمليات مقاومة مناسبة على طول الخط الممتد لمسافة بعيدة و إنما جعل قواته قريبة من بعضها على مسافة قليلة ثابتة، و هكذا فقط يمكنه تشكيل نقاط مقاومة قوية في مناطق حيوية أو توجيه ضربة مباغتة للعدو حينما تحين فرصة القيام بذلك، و في نفس الوقت سيكون عليه إخلاء أجزاء بعينها من منطقته تماماً و التركيز على تغطية أجزاء أخرى عبر تشييد حاجز دفاعي قوي فيها.

و قد قدم الكولونيل جنرال "هوث" – يدعمه رئيس الأركان المعجب به الجنرال "فانجوهر" – حلاً عملياً لتلك المهمة الصعبة نابعاً من سماته القيادية، فقد نجح بمهارة فائقة في إبطاء تقدم العدو الذي يضغط بقوة على جبهته بدون تعريض نفسه للخطر بالتمسك بموقع واحد لفترة طويلة، و الأكثر من ذلك أنه تمكن – بواسطة سرعة نشر القوات على جناحيه كليهما - من التعامل مع ضربات العدو القوية المرتبطة بمحاولات الأخير تطويقه.

و على الرغم من عدم قدرة مجموعة الجيوش على توفير القدر الكافي من القوات للجيش الرابع بانزر لتنفيذ مهمته الصعبة تلك فقد إحتفظت المجموعة لنفسها بالحق في الإعفاء من المسئولية لمواجهة أكثر مشاكلها تعقيداً عبر إصدار أوامر معينة، و كما قلت آنفا كان على الجيش الرابع بانزر حقيقةً التعامل مع مهمتين في وقت واحد، فقد كان عليه منع أيٍ من جيوش العدو الثلاثة الملاحقة له من مهاجمة مؤخرة الجيش الأول بانزر قبل أن يتم إنسحابه من القوقاز إلى جبهة تواجه الشرق و قبل أن يصير جاهزاً ليتولى الدفاع عن نفسه، و في نفس الوقت كان عليه إحباط أي محاولة من قبل العدو للتوجه نحو "روستوف" على طول اللسان السفلي الممتد من نهر "دون"، فإن نجح في ذلك فستقع الجيوش الثلاثة العاملة جنوب نهر "دون السفلي" في الفخ و ينطبق عليها الحصار.

و قد كان الجيش الرابع بانزر قادراً فقط على التعامل مع واحدة فقط من هاتين المهمتين، و تحديد أي منهما تكون لها الأولوية كانت مسألة يقع تقريرها ضمن إختصاص مجموعة الجيوش فقط، و إقراراً للحق أقول أن التهديد المحدق بـ"روستوف" أثبت أنه الأخطر على المدى الطويل، و لكن إن نجح العدو في تطويق الجيش الأول بانزر إثناء إنسحابه لمواقعه الجديدة فلن يكون هناك أمل في التمسك حتى بـ"روستوف" و ستتعرض ثلاثة جيوش ألمانية جنوب نهر "دون" للدمار، و إن – من جهة مقابلة – نجح إنسحاب الجيش الأول بانزر فسيتم إيجاد وسائل و سبل لتفادي أي أزمة في "روستوف".

و قد حاول العدو إستغلال الفرصتين السابق توضيحهما، و قد سبق و أوضحنا أن الفرقة ١٦ مشاة ميكانيكي قد وصلت في وقتها بالضبط لإعتراض العناصر السوفييتية التي إنطلقت صوب مؤخرة الجيش الأول بانزر، و لكن قام العدو – بالنظر لنفس الهدف العملياتي – بمحاولات متكررة لتطويق الجيش الرابع بانزر من جهة الجنوب بحيث يتمكن من تثبيت قدمه بين هذا الأخير و الجيش الأول بانزر، و في نفس الوقت قام العدو بحركة إلتفافية و تحول للتقدم على طول نهر "دون السفلي" عبر "كونستانتينوفكا" تجاه "روستوف"، و في السابع من يناير تحركت مجموعة ضئيلة من قوات العدو على الضفة الشمالية لنهر "دون" على بعد حوالي ١٢ ميلاً من موقع مقر قيادة مجموعة الجيوش في "نوفوتشيركاسك" و ذلك عقب إستسلام القوزاق و قوات خط المواجهة التي كانت تتولى حراسة النهر، و قد إضطررنا لمواجهة ذلك الغازي صاحب الأرض بعدد قليل من الدبابات تم إخراجها من الورش لهذا الغرض خصيصاً، و فيما بعد تحول فيلق الدبابات الذي كانت مجموعة القوات المعادية الضئيلة ضمن تشكيله متحركاً نحو "بروليتارسكايا" في مؤخرة الجيش الرابع بانزر، و هو ما يعني أننا تخلصنا من التهديد المحدق بـ"روستوف" على الأقل لأيام قليلة قادمة، و قد صار الجيش الرابع بانزر قادراً في وقت لاحق على التعامل مع هذا التهديد على جناحه الشمالي.

و بحلول ١٤ يناير أتمّ الجيش الأول بانزر تحركه الإنسحابي و الذي صار قادراً على الإسراع منه في ذلك الوقت، و الآن صار جناحه الأيسر ممتداً على خط يجري من "تشيركاسك" إلى "بتروفسكويي"، و يعنى هذا أنه على الأقل صار أحد إجراءات التعاون العملياتي ممكناً الآن بين الجيشين الأول بانزر و الرابع بانزر، حتى لو ظلت

الثغرة الواسعة بين "بتروفسكويي" و "بروليتارسكايا" موجودة، و هي كانت في الواقع مغطاة بمسطحات "مانيتش" الطينية.

و هكذا تم إتمام الجزء الأول من مهمة الجيش الرابع بانزر- حماية مؤخرة مجموعة الجيوش "أ" في المنطقة الواقعة جنوب نهر "دون"، و لكن ما يزال هناك الجزء الثاني – الإبقاء على خطوط إتصالات مجموعة الجيوش "أ" مفتوحة خلال "روستوف".

و في مواجهة العدو الذي يفوقنا قوة عدة أضعاف كان تنفيذ الجزء الثاني معقداً بسبب الحقيقة المتجلية في أنه كان على الجيش الأول بانزر أن يبقى أياماً عدة في الخط الذي بلغه لكي يتحضّر لإخلاء مناطق خطوطه الخلفية، و بالطبع كانت مهمة الجيش الرابع بانزر قد تكون قريبة إلى الفشل نظراً لأن "هتلر" حتى الآن لم يحزم أمره بشأن الإنسحاب من القوقاز تماماً، و مسألة ما إن كان سيتم سحب الجيش الأول بانزر إلى الضفة الشمالية لنهر "دون" أو ستبقى مجموعة الجيوش "أ" بأسرها في منطقة "كوبان" ما تزال قيد الدراسة.

<u>معارك مفرزة الجيش "هوليدت":</u>

بينما كان الجيش الرابع بانزر منهمكاً في تنفيذ المهمة المكلف به جنوب نهر "دون" خلال النصف الأول من يناير كانت أمام مفرزة الجيش "هوليدت" مهمة لا تقل صعوبة عن مهمة الأول في منطقة الثنية الكبيرة لنهر "دون"، و كما ذكرنا في الفصل الخاص بـ"ستالينجراد" فقد إنهمك العدو في الأسابيع القلائل الماضية في شن هجمات متكررة بقوة تفوقنا كثيراً على جبهة مفرزة الجيش "هوليدت" على طول نهر "تشير".

و على جبهة تمتد قرابة الـ١٢٥ ميل من نهر "دون" في "نيزهني تشيرسكايا" بعيداً إلى "كامنسك-شاختينسكي" كان الجنرال "هوليدت" يمتلك – بما في ذلك مجموعة "ميث" – الآن تحت قيادته أربع فرق مشاة {٦٢، ٢٩٤، ٣٣٦ و ٣٨٧} و التي كانت منخرطة بشكل سيئ في القتال حتى اللحظة، إضافة إلى بعض وحدات الإنذار و الوحدات المضادة للطائرات يقودها الجنرال "شتاهل" و ذلك بهدف المساعدة في تماسك الجبهة، كما تملكت مفرزة الجيش "هوليدت" فرقتي لوفتافا ميدانية – ما تبقى منهما تم دمجه في

تشكيلات الجيش، و كانت القوة الرئيسية لمفرزة الجيش "هوليدت" تتمثل في الفرق ١١ و ٦ و ٧ بانزر – الأخيرة وصلت حديثاً، و أما عن الفرقة ٢٢ بانزر فقد تم حلّها لسوء حالتها.

و إعتماداً على تلك القوات كان على الجنرال "هوليدت" منع العدو الموجود شمالاً من التحرك نحو الروافد السفلية لنهر "دون" – إلى مؤخرة الجيش الرابع بانزر تحديداً – و – و هو الأهم على الإطلاق – منعه من الإختراق وصولاً إلى "روستوف" طالما ظل الجيش الرابع بانزر و مجموعة الجيوش "أ" موجودين في المنطقة الواقعة جنوب نهر "دون"، و علاوة على ذلك كان على مفرزة الجيش التأكد دوماً من أن العدو المواجه لجناحها الأيسر لم يتحرك نحو نقاط تقاطع نهر "دونتز" بين "فورتشستادت" و "فوروشيلوفجراد" و بالتالي ينفتح له الطريق إلى "روستوف" من جهة الشمال الغربي، و مع ذلك وجدت مفرزة الجيش نفسها في ذات الوقت مهددة على كلا جناحيها – في الغرب نتيجة لإختفاء الإيطاليين من أرض المعركة و الذين خاضت مجموعة "فريتر-بيكو" قتالاً بطيئاً لشق طريقها رجوعاً من منطقة "مليروفو" إلى نهر "دونتز" و في الشرق نتيجة لعبور عدة فيالق معادية نهر "دون" أولاً في "بوتمكنسكايا" ثم في "تسيمليانسكايا"، و كان يمكن إيقافهم فقط – كما ذكرنا من قبل – بإلقاء الفرقة ١١ بانزر في مواجهتهم و نقل مجموعة "ميث" للوراء إلى جبهة تواجه الشرق خلف نهر "كاجالنيك".

و كما هو الحال بالنسبة للجيش الرابع بانزر عكست مفرزة الجيش "هوليدت" نموذجاً قيادياً فريداً في التعامل مع مهمتها وسط قتال كثيف و أزمات متصاعدة، و هنا أيضاً نفذت مجموعة الجيوش مسئوليتها بإصدار أوامرها للمفرزة – مع تقبل عظيم المخاطر – بتوجيه مدرعاتها مجتمعةً لشن هجمات قصيرة الأمد.

و يجب أولاً و أخيراً أن تُعزى حقيقة نجاح مفرزة الجيش "هوليدت" في وقف العدو على نهر "دونتز" و من ثم إنقاذ مجموعة الجيوش "أ" و الجيش الرابع بانزر من خطر التطويق جنوب نهر "دون" إلى الشجاعة و الإستبسال الذين أبدتهما فرق المشاة و كافة الوحدات المساعدة في التمسك بالخط المتموضعين عليه في مواجهة هجمات العدو المتكررة – و ذلك دون إغفال أسلوب تنفيذ طواقم قيادتها للعمليات، و لكن لا يمكن صون دفاعهم للأبد في حال عدم ظهور مدرعاتنا المرة تلو الأخرى في مواقع الخطر في التوقيت المناسب، فمن جهة سيحبط تدخلها تطويق العدو للجناح الأيمن لمفرزة

الجيش أثناء إنسحابها لنهر "كاجالنيك" كما ستقوم لاحقاً بمنع أي إختراق محتمل في هذا القطاع، و من جهة أخرى ستقوم بمباغتة العدو بالتقدم مباشرة صوب مناطق إحتشاده و هو على وشك مهاجمة الجبهة الشمالية لمفرزة الجيش أمام نهر "دونتز"، و في حين كان القيام بهجمات مضادة قريبة من إختصاص مفرزة الجيش نفسها بإعتبارها جزءً من الدور الدفاعي المسئولة عنه كانت المسئولية الحقيقية عن المخاطرة بشن تلك الهجمات تقع عادةً على مجموعة الجيوش، حيث كان على الأخيرة أن تعفي مفرزة الجيش من المسئولية عن أي أحداث طارئة تقع طالما قامت بتركيز مدرعاتها في نقطة واحدة بناء على تعليمات من مجموعة الجيوش و تعرّض بالتالي بقية قطاعات الجبهة للخطر.

المرحلة الثالثة: النضال في سبيل الإبقاء على إتصالات الجناح الجنوبي مفتوحة:

الموقف العملياتي في منتصف يناير ١٩٤٣:

بحلول منتصف يناير بلغ الموقف العملياتي على الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية ذروته، و كانت بذور هذا الموقف تم غرسها في أواخر خريف ١٩٤٢ عندما سمح قائدنا العسكري بتجميد الجبهة في خط لا يمكن من الناحية العملياتية الدفاع عنه على المدى الطويل، و ما كان آخذاً في التشكل منذ أسبوع عيد الميلاد ١٩٤٢ – عندما تم إهدار آخر فرصة لخروج الجيش السادس – بدأ يتجلى الآن على الساحة، و فقط النضال اليائس الذي خاضته القوات الألمانية و طواقم قيادتها هو ما درأ إلى حدٍ بعيد أزمات أسوأ.

لقد وقع الجيش السادس في هوة الضياع، و أفضل ما بإمكانه فعله الآن هو – بالنظر للقوة الضئيلة التي صار يمتلكها – تقديم آخر خدمة لرفقائه في ثنية نهر "دون" و القوقاز بتقييد قوات العدو القوية لبرهةٍ أطول.

و كان واضحاً أنه عقب خسارة الجيش السادس لم يعد من الممكن التمسك بمنطقة القوقاز.

و مع ذلك فقد ظهرت هناك فرصة أخيرة الآن بفضل صلابة الجيش الرابع بانزر و براعته في القتال تجسدت في أنه رغم ضياع القوقاز إلا أن لا يجب التفريط في مجموعة الجيوش "أ" معها، فقد تم سحب جناحها الشرقي بأمان بعد أن معرضاً لأكبر خطر ممكن، و حتى بالرغم من كون الجيش الأول بانزر ما يزال على بعد ١٩٠ ميل من نقطة تقاطع النهر في "روستوف" إلا أنه كان على الرغم من ذلك خارج الجبال و لم يعد مهدداً في خطوطه الخلفية، و لو بلغت الأمور أقصى مدى في السوء فسيكون قادراً على القتال ليشق طريق الرجوع منذ الآن فصاعداً.

في المنطقة بين نهري "دون" و دونتز" كان من الممكن إلى حد بعيد منع العدو من الوصول إلى "روستوف" و الحيلولة دون قيامه بإطباق الفخ من جهة الشمال خلف الجيوش الثلاثة المنتشرة جنوب اللسان السفلي لنهر "دون".

و لكن كان واضحاً أنه لا مفرزة الجيش "هوليدت" و لا مجموعة "فريتر-بيكو" – و التي تقاتل الآن حول "مليروفو" و تتشكل من قيادة الفيلق الثلاثين و الفرقة الثالثة مشاة جبلي و الفرقة ٣٠٤ مشاة – قادرتين على منع العدو من عبور نهر "دونتز" في "كامنسك-شاختينسكي" بمجرد إمتلاكه لقوات كافية للتوغل غرباً، و منذ حينها فصاعداً سيتقدم بحرية نحو "روستوف" من جهة الشمال الغربي أو جنوباً نحو بحر آزوف.

و الأسوأ من كل ذلك أنه بحلول ذلك الوقت إنهار القطاع من مجموعة الجيوش "ب" الذي يسيطر الجيش المجري على نهر "دون الأوسط" على يد هجوم معادي جديد، و كذلك حلّت كارثة على الجبهة الرابطة في الشمال، و قد رغبت مجموعة الجيوش "ب" في سحب قواتها لما وراء نهر "أيدر" بعيداً عند "ستاروبيلسك" و هو ما يعني ترك نهر "دون" مكشوفاً من جهة "فوروشيلوفجراد"، و مع ذلك و في سبيل أغراض عملياتية سيختفي من الوجود هذا الجناح من مجموعة الجيوش خلال أيام قلائل، و قد إنفتحت ثغرة واسعة من جهة "فوروشيلوفجراد" شمالاً تواجدت فيها مجموعة قتالية منعزلة تابعة لمجموعة الجيوش "ب" و كانت تبدي في يأس مقاومة محدودة، و قد إختفى المجريون – كالإيطاليين – من أرض المعركة.

و قد بدا مؤكداً أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية*لم تكن تأمل في سد تلك الثغرة بواسطة الإحتياطات و التي في طريقها الآن لتنفيذ ذلك.

و على أي حال ففيما يتعلق بمجموعة الجيوش "دون" كان الوقت قد حان قطعاً لتنفيذ القوات القوية لـ"قفزة الضفدع" من المنطقة الواقعة جنوب نهر "دون" إلى نهر "دونتز" الأوسط إن أرادت منع العدو من ربط مجموعتي الجيوش "دون" و "أ".

و مع ذلك ما تزال القيادة العليا الألمانية غير موافقة، إما لأنها كانت غير قادرة على التنبؤ بالمسار الذي ستأخذه الأحداث حتمياً لو لم يتم القيام بأي شيء فعّال لتقويتنا في المنطقة الحرجة بين نهري "دونتز" و "دنيبر السفلي" أو أنها ببساطة لم تكن ترى المخاطر المحيطة بالموقف.

كما أن "هتلر" ما يزال متعنتاً في رفض الإنسحاب من القوقاز، فهو ما زال يعتقد بقدرته على حماية الجبهة الممتدة جنوب نهر "دون" و التي على الأقل ستقوم بحماية إمتلاكه لحقول النفط "مايكوب"، فكان أدنى ما يطلبه هو التمسك برأس كوبري مركز في منطقة "كوبان" و الذي إقترح أن يتم إنطلاقاً منه تجديد قبضته على النفط القوقازي.

و هكذا، في الأسابيع التي تلت ذلك إضطرت مجموعة الجيوش التابعة لنا مواصلة نضالها الميئوس منه على جانبي نهر "دون" و في سبيل تنفيذ مجموعة الجيوش "أ" لعملية إنسحاب منظم، و قد خاضت خلال ذلك الوقت نزاعاً ضارياً مع القيادة العليا حول فكرة "قفزة الضفدع" إلى منطقة نهر "دونتز"، و لم يتضمن هذا النزاع الموافقة على المبدأ فقط و لكن المسألة المتعلقة بعدد القوات الواجب سحبها خلال "روستوف" من مجموعة الجيوش "أ" إلى أرض المعركة الحاسمة، و في رأينا إن ربط عناصر كبيرة من مجموعة الجيوش "أ" في رأس كوبري "كوبان" كان ناجماً عن فكر آمل للغاية من وجهة نظر العمليات ككل.

<u>المعارك الدائرة في النصف الثاني من يناير:</u>

بحلول ١٤ يناير – و هو اليوم الذي وصل فيه الجيش الأول بانزر خط "تشيركاسك-بتروفسكويي" و أنشأ جبهة مواجهة للشرق – بدأت في الظهور أزمة أخرى في منطقة مفرزة الجيش "هوليدت".

ففي ذلك اليوم نجح فيلق دبابات معادي في الإختراق ناحية نهر "دونتز" على الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش "ب" – في منطقة مجموعة "فريتر-بيكو" جنوب "مليروفو"، و رغم أن *القيادة العليا للجيوش الألمانية* زودت هذه المجموعة بفرقة مشاة جديدة {٣٠٢} إلا أن هذا لم يكن كافياً لوحده لفرض الإستقرار على الموقف على النهر.

و عندما قامت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* في ١٦ يناير بوضع مجموعة "فريتر-بيكو" تحت قيادة مجموعة الجيوش "دون" – مع مدّ جبهة الأخيرة بشكل متزامن إلى نهر "أيدار" – فإنها لم تكن متأكدة من مدى قدرة المجموعة على الإنسحاب لما وراء نهر دونتز" على الإطلاق، و قد تبدّى واضحاً للعيان في تلك الأثناء أن العدو ينتوي توجيه ثلاثة أو أربعة فيالق ميكانيكية نحو نهر "دونتز" على أيٍ من جانبي "كامنسك-شاختينسكي" في المنطقة الخاضعة لمجموعة "فريتر-بيكو".

و لحسن الحظ و بفضل النجاح الذي حققته مفرزة الجيش "هوليدت" منذ أيام قليلة مضت عندما شنت فرقتان مدرعتان تابعتان لها هجوماً مفاجئاً على نهر "كالتيفا" مما أدى لإحباط هجوم للعدو كان في مرحلة التحضير هناك.

و لذا أصدرنا أوامرنا للمفرزة بتنفيذ إنسحابها المخطط له نحو المواقع المحددة على نهر "دونتز" بالطريقة المقررة بحيث يمكن إتاحة فرقة مدرعة في أقرب وقت ممكن للدفاع عن قطاع نهر "دونتز" في "فورتشستادت-كامنسك"، و مع ذلك لم تكن هناك أي قوات في متناول الأيدي لتنفيذ أي عمليات في قطاع "كامنسك-فوروشيلوفجراد" الجديد بإستثناء الإيطاليين الذين هربوا للوراء كالمتشردين، و بمعنى آخر كان هناك خطراً كامناً يتجسد في إحتمال تعرّض جبهة مجموعة الجيوش "دون" على نهر "دونتز" للتطويق من جهة الغرب في وقتٍ قريب.

و في نفس الوقت بدا واضحاً كذلك أن العدو ينتوي تطويق مفرزة الجيش "هوليدت" من جهة الشرق، حيث تم الكشف عن فيلقين للعدو في الزاوية الممتدة أنهار "سال" و "دون" و "مانيتش" و ذلك ضمن الثغرة المفتوحة بين الجناح الأيمن للمفرزة – التي يتلاقى عندها نهرا "دونتز" و "دون" – و الجيش الرابع بانزر – و الذي ما يزال يتوجب عليه حماية الجناح الشمالي للجيش الأول بانزر ضد عدو متفوق أمام منطقة "سالسك" على نهر "مانيتش"، و يُتوقع أن يحاول هاذين الفيلقين عبور نهر "دون" للتقدم نحر

"روستوف" أو للزحف على الخطوط الخلفية لمواقع مفرزة الجيش "هوليدت" على نهر "دون".

و قد إقترحت مجموعة الجيوش "دون" أن يتم السماح الآن بنقل الجيش الرابع بانزر إلى جناحها الغربي مع ترك فرقة واحدة مؤقتاً أمام "روستوف" للإبقاء على نقطة العبور مفتوحة أمام الجيش الأول بانزر، و هو ما يستلزم إصدار *القيادة العليا للجيوش الألمانية* أوامر متزامنة بإنسحاب مجموعة الجيوش "أ" عبر تراجع الجيش الأول بانزر إلى "روستوف" و الجيش السابع عشر إلى منطقة نهر "كوبان".

و مجدداً ثبتت إستحالة الحصول على قرار سريع من "هتلر"، و لا هو أصدر أمراً متعارضاً مع إقتراح مجموعة الجيوش بشأن حشد الفرق المدرعة التابعة لمجموعة الجيوش "أ" في منطقة الجيش الرابع بانزر للقيام بشن ضربة هجومية قصيرة تيسّر على الجيش الأول بانزر عملية إنسحابه و بالتالي الإسراع في تحرير الجيش الرابع بانزر.

لم تمنح *القيادة العليا للجيوش الألمانية* أخيراً حرية الحركة للجيش الرابع بانزر حتى ١٨ يناير إلى الحد الذي لم يعد الأخير مضطراً معه لتغطية الجناح الشمالي للجيش الأول بانزر على نهر "مانيتش" شمال شرق "سالسك"، و من ناحية أخرى ما يزال يتوجب على مجموعة الجيوش "دون" حماية إستخدام مجموعة الجيوش "أ" لخط السكك الحديدية "روستوف-تيخورتس" حتى أتم ٨٨ قطاراً مرورهم بأمان نحو رأس الكوبري عند نهر "كوبان"، و أما عمّا إن كان سيتم سحب الجيش الأول بانزر الآن إلى "روستوف" أو إلى منطقة نهر "كوبان" فهو ما يزال أمراً في علم الغيب.

لم يستفد بالطبع من الوقت المستنفد في إتخاذ القرار بشأن السماح للقوات بتنفيذ "قفزة الضفدع" أم لا سوى العدو، فقد تمكن خلاله من إستغلال إنهيار القطاعين الإيطالي و المجري من جبهة مجموعة الجيوش "ب" و نشر قوات قوية للتقدم عبر نهر "دونتز الأوسط" تجاه ساحل بحر آزوف أو نقاط تقاطع نهر "دنيبر" في وقتٍ كان ما نمتلكه من قوات غير كافٍ لإبداء أي مقاومة، كما حاز العدو على فرصة لحشد تشكيلاته بشكل مركز من أجل شن هجوم مباشر على "روستوف" و تطويق الجناح الغربي لمفرزة الجيش "هوليدت" عبر "فوروشيلوفجراد".

في ٢٠ يناير شن العدو هجوماً في منطقة الجيش الرابع بانزر عابراً نهر "مانيتش السفلي" نحو "روستوف" بأربعة فيالق حشدها مسبقاً لهذا الغرض، و قد وصلت دباباته للقاعدة الجوية في "روستوف"، و رغم إنكباب الفرقة ١٦ بانزر – و التي نشرها الجيش الرابع بانزر على جناحه الشمالي - على إبطاء تقدم العدو بين نهري "دون" و "مانيتش" بواسطة الهجوم بشكل متكرر على جناحه من جهة الضفة الجنوبية لنهر "مانيتش" إلا أنها بدت طبيعياً غير قادرة على وقف الأربعة فيالق المعادية.

و عبر الهجوم بشكل متزامن على الفيلق ٥٧ بانزر – و الذي كان حينئذٍ يتراجع تدريجياً إلى "روستوف" من نهر "مانيتش الأوسط" – سعى العدو إلى إحتجاز القوات الرئيسية للجيش الرابع بانزر أمام "روستوف" حتى يتمكن من السيطرة على نقاط العبور في "روستوف" الواقعة خلف تلك القوات.

و الأكثر من ذلك، كان العدو يوجه ضربات قوية إلى جبهة مفرزة الجيش "هوليدت"، و هنا أيضاً إستهدف العدو إحتجاز قواتنا حتى يتم تطويقه لها بواسطة السيطرة على "روستوف" و القيام بحركة تطويقية عبر نهر "دونتز الأوسط"، و من المفترض أنه كان يحاول عبر شن هذه الهجمات على فيلق الجنرال "ميث" في الزاوية بين نهري "دون" و "دونتز" و كذلك على أيٍ من جانبي "كامنسك" الحيلولة دون تحرير أي قوات من هذه الجبهة بحيث يمكن إلقائها في مواجهته على نهر "دونتز الأوسط".

و مرةً أخرى تبدّت أمام مجموعة الجيوش المشكلة عينها: أي التهديدات يجب التعامل معه أولاً؟ فقد كان هناك فرقتان مدرعتان {٧ و ١١بانزر} متموضعتين بجوار منطقة مفرزة الجيش "هوليدت" و ذلك بهدف نقلهما إلى الجناح الغربي على نهر "دونتز الأوسط"، و لكن مهما بلغت كان الخطر الذي قد يتعرضان له على المدى الطويل جللاً شعرت مجموعة الجيوش أنه الأولى و بشكل عاجل تفادي التهديد المحدق بـ"روستوف"، و يبنغي القيام بكل ما هو ممكن لسحب ليس فقط الجيش الرابع بانزر و و إنما الجيش الأول بانزر بأسره عبر هذه المدينة، و إلا فلن يكون هناك أي أمل في نشر قوات كافية على الجناح الغربي لمجموعة الجيوش لمواجهة خطر تطويق كامل الجناح الجنوبي على سواحل البحر.

و لهذا السبب قررت مجموعة الجيوش – بغرض الحيلولة دون سقوط "روستوف" – وجوب إستخدام الفرقتين المدرعتين سابقتي الذكر في المقام الأول في توجيه ضربة

قوية للعدو المهاجم عبر نهر "مانيتش السفلي" في إتجاه المدينة، و مع ذلك لم تدخل هذه الضربة في حيز التنفيذ و لم تنل سوى القبول على طاولة الكلام بسبب نقص الوقود – حيث كانت كل قطارات التموين تتوجه إلى رأس كوبري "كوبان" بجوار طريق "روستوف" – و إستحالة الحصول على دعم جوي لهجومنا في ظل ظروف الطقس السائدة، و بمرور الوقت زاد الوضع تأزماً، و مع قرب إنهيار مقاومة الجيش السادس حينئذٍ كان علينا أن نتوقع أننا سنجد أغلب قوات العدو الموجودة في "ستالينجراد" على مرأى منّا خلال أسبوعين أو ثلاثة، و كنت قد أخبرت بالفعل الجنرال "زيتزلر" في ٢٢يناير أنني لن أكون متفاجئاً عند رؤية قوات العدو تظهر في منطقة "ستاروبيلسك" – وتحديداً في الثغرة الواسعة بين مجموعتي الجيوش "دون" و "ب".

و في نفس اليوم قرر "هتلر" أخيراً عدم توجيه جزء – على الأقل – من الجيش الرابع بانزر إلى رأس الكوبري في منطقة نهر "كوبان" و لكن يتم سحبه عبر "روستوف" – و هي ما ستكون فيما بعد ميدان المعركة الحاسمة، و هذا و على الرغم من كونه حلاً توفيقياً من وجهة نظرنا إلا أنه تم الترحيب به بالنظر لمفهوم العمليات الخاص بمجموعة الجيوش.

و مع ذلك فقد كان أمراً ذا أهمية قصوى وجوب تنفيذ هذا الإنسحاب بأقصى سرعة ممكنة بحيث يتمكن بدوره الجيش الرابع بانزر من الإنتقال إلى الجناح الغربي في أقرب وقت ممكن، و تعتمد سرعة إنسحاب الجيش الأول بانزر عبر "روستوف" كليةً على قدرة العناصر الأخرى من مجموعة الجيوش "أ" في تكييف سرعة حركتها بما يتوافق مع حركة الأول، و لكن كان من الواضح أن مجموعة الجيوش ما تزال حتى الآن عاجزة عن زيادة سرعتها إلى الحد الذي يتطلبه الموقف، و لم أستطع أبداً العثور على سبب مُرضي لهذا، و في كل الأحوال فإن الجيش الأول بانزر تمكن في ظل قيادتي من عدم تعرضه للتوقف بشكل متكرر بناء على تعليمات عليا و لكنه في الواقع تحرك بشكل أكثر دهاءً مما كان عليه الوضع في البداية، و قد نازع كلٌ من *القيادة العليا للجيوش الألمانية*و مجموعة الجيوش "أ"، ومهما كان الرد علهم تبقى الحقيقة المتجلية هي أن مجموعة الجيوش "أ" قد بالغت في تحديد توقيت تحرك جناحها الأيسر – و الذي كان ما يزال في ٢٣ يناير حول "بيلايا جلينا" على بعد ٣٠ ميلاً من "تيخوريتس" – بحيث أنه لن يبلغ "تيخوريتس" حتى الأول من فبراير.

في ٢٣ يناير واجهت مجموعة الجيوش "دون" عملية "توريث" أخرى – و هذه المرة تمثلت في الجزء الجنوبي من جبهة مجموعة الجيوش "ب" بين نهر "دونتز" و "ستاروبيلسك"، و كالعادة كان الحمل ثقيلاً، فقد إشتمل على جبهة تمتد لـ٤٠ ميلاً إضافياً و على الأقل ثلاثة فيالق معادية في طريقها الآن نحو هذا القطاع – أحدها كان مدرعاً و الآخران ميكانيكيان، و تمثلت القوات الوحيدة المتاحة لنا – خاصة و أنه بات من غير الممكن التعويل على الإيطاليين – في الفرقة ١٩ بانزر و الموجودة في لحظته حول "ستاروبيلسك"، و في اليوم التالي أجبِرت على تسليم "ستاروبيلسك" للعدو، و قد كان إنجازاً إستثنائياً حققته هذه الفرقة الباسلة بقيادة اللفتنانت جنرال "بوستل" تمكنها من شق طريقها بالقتال نحو الغرب، و لكنها لم تتمكن من الحيلولة دون تحرك العدو جنوباً عبر نهر "دونتز".

في ٢٤ يناير قرر "هتلر" البدء في تنفيذ إنسحاب الجيش الأول بانزر بأكمله إن أمكن عبر "روستوف" منذ الآن فصاعداً، و لمّا كان جناحه الجنوبي ما يزال في "أرمافير" فقد عنى ذلك بشكل طبيعي تقييد الجيش الرابع بانزر جنوب نهر "دون" لمدة أطول بهدف الإبقاء على "روستوف" مفتوحة، و قد تزايد الشك حول ما إن كان ما يزال يمكن نقل الجيش إلى الجناح الغربي لمجموعة الجيوش في الوقت المحدد من عدمه.

و على الرغم من ذلك كانت هناك حقيقتان داعيتان للسرور يجب ذكرهما.

إن مجموعة الجيوش "أ" – و التي كانت رافضة بشكل مفهوم رؤية أحد جيوشها يختفي عبر نهر "دون" – قد أدركت في نهاية الأمر أن مصيرها أيضاً سيتحدد على نهر "دونتز" لا "كوبان"، و بجانب ذلك بدا من غير المحبذ أكثر فأكثر القيام بتزويد أي قوات متواجدة في "كوبان" بالإمدادات عبر مضايق "كريتش"، و لذا إرتأت مجموعة الجيوش "أ" تأييد فكرة إنسحاب أكبر عدد ممكن من القوات عبر "روستوف".

أما الحقيقة الثانية فكانت هي أن الهجوم المشار إليه سلفاً بواسطة الفرقتين المدرعتين على العدو المتقدم عبر نهر "مانيتش السفلي" قد حقق أخيراً في ٢٥ يناير النجاح الذي كنا نصبو إليه، و بذلك تم القضاء على التهديد المحدق بنقاط العبور في "روستوف" لذلك الوقت.

و بدلاً عما سبق إتخذ الموقف على الجناح الجنوبي للجيش الرابع بانزر منعطفاً خطيراً آخر، فبإحضار العدو لقوات جديدة و التي يبدو أنه قد سحبها من الجيوش السوفييتية

الملاحقة لمجموعة الجيوش "أ" حاول حشر نفسه بين الجيش الرابع بانزر و الجناح الشمالي للجيش الأول بانزر بهدف تطويق الأول من جهة الجنوب و إجبار الأخير على الإبتعاد عن "روستوف"، و بناء على ذلك قدمت مجموعة الجيوش "دون" طلباً أخيراً إلى مجموعة الجيوش "أ" بأن تشارك في هذه المعركة بفرقة مدرعة و الشروع في تنفيذ إنسحاب الجيش الأول بانزر من "روستوف" بشتى الوسائل الممكنة.

و أخيراً في ٢٥ يناير تم وضع على الأقل النصف الشمالي من الجيش الأول بانزر تحت قيادة مجموعة الجيوش "دون"، بما قاد الأخيرة إلى أن تكون قادرة على إصدار الأوامر بشأن التدابير و الإجراءات السابق الإشارة إليها.

و في نفس الوقت و حيث أن الجيش الرابع بانزر ما يزال عليه العمل على إبقاء نقاط العبور في "روستوف" مفتوحة في ذلك الوقت قررت مجموعة الجيوش "دون" أن تكون قيادة الجيش الأول بانزر – و التي ستتحرر قريباً جنوب نهر "دون" – أول من يتحرك إلى نهر "دونتز الأوسط" على أن تتبعها إلى هناك الفرق الخاضعة لها أثناء إنسحابها من "روستوف" إضافة إلى ما يمكن إتاحته من قوات تابعة للجيش الرابع بانزر.

و بحلول ٣١ يناير بلغت الأمور مدى أمكن معه توقع إنسحاب الجيش الأول بانزر عبر "روستوف" على الرغم من كون مدى قدرته على الوصول إلى نهر "دونتز" في الوقت المحدد بحيث يوقف إقتحام العدو للنهر إلى ساحل البحر شأناً آخر، و الأمر السيئ كان أنه حتى الآن لا يمكن إشراك القدر الأكبر من قوات ذلك الجيش في ميدان المعركة الحاسمة، و بسبب تردد "هتلر" في تقرير ما إن كان سيتم سحب الجيش الأول بانزر نحو "روستوفط أو إلى منطقة نهر "كوبان" لم تتمكن الفرقة ٥٠ بانزر – و هي من أفضل فرق جيش القرم السابق – من الوصول في الوقت المناسب للإنضمام إلى التحرك تجاه "روستوف" و تم نقلها إلى الجيش السابع عشر، و الأكثر من ذلك أن "هتلر" – و بعد أيام من تأخير إصدار القرار – قام بإعادة تخصيص الفرقة ١٣ بانزر جاعلاً إياها من نصيب مجموعة الجيوش "أ" كي تستخدمها عند نهر "كوبان" بعد أن ناضلنا حتى النهاية في سبيل الحفاظ على ثغرة تنزلق هذه الفرقة خلالها نحو "روستوف"، و هكذا تم إبعاد هاتين الفرقتين عن ميدان المعركة الحاسمة بينما يوجد ٤٠٠ ألف رجل عالقين فعلياً في منطقة نهر "كوبان"، و أقر بأن أولئك الرجال قد نجحوا في ربط قوات العدو القوية التي كانت تناضل سدىً للتخلص من رأس الكوبري

هناك، و لكنهم لم يحققوا أبداً الأثر العملياتي الذي كان "هتلر" يبغيه، و في نهاية المطاف تم ترك للعدو حرية تقدير حجم القوات الواجب عليه تركها هناك، و حتى تحجج "هتلر" بوجوب الإبقاء على قدر ضخم من القوات عند نهر "كوبان" لحرمان العدو من ميناء "نوفوروسيسك" لم يثبت نجاحه، فقد إضطر للتخلي عنه في النهاية.

في ٢٩ يناير إنتقل مقر قيادتنا من "تاجانروج" – حيث إستقر منذ ١٢ من الشهر ذاته – إلى "ستالينو" نظراً لإنتقال النقطة الرئيسية لجهود مجموعة الجيوش من نهر "دون" إلى "دونتز".

و خلال المعارك في الثنية الكبيرة لنهر "دون" و جنوبها كان الهدف هو تغطية إنسحاب مجموعة الجيوش "أ" من القوقاز و لكن كانت القضية الأكبر تتعلق بمدى القدرة على حماية الجناح الجنوبي الألماني بأكمله من عدمها، و هنا بدأت تتبلور مشكلة جديدة يتمحور سؤالها الأساسي حول مدى قدرة هذا الجناح الجنوبي على الإحتفاظ بالسيطرة على منطقة نهر "دونتز".

و تلك المنطقة القابعة بين بحر آزوف و مصب نهر "دون" و نهري "دونتز الأوسط" و "دونتز السفلي" يحدّها من الغرب بشدة خط "ماريوبول-كراسنوارميسكويي-إسيوم" لعبت دوراً هاماً في حسابات "هتلر" العملياتية كما كان الحال عام ١٩٤١، حيث إعتبر السيطرة عليها أمراً ذا أهمية حيوية بالنسبة لنتيجة الحرب، فمن جهة إعتبر "هتلر" أنه لا يتوجب علينا مواصلة الحرب إقتصادياً بدون إحتياطات الفحم الهائلة الموجودة في تلك المنطقة، و من جهة أخرى إعتبر أن خسارة تلك الإحتياطات كانت ضربة قاصمة للمجهود الحربي السوفييتي، فقد أعلن "هتلر" أن فحم "دونتز" هو النوع الوحيد الذي يملكه الروس – على الأقل في الجزء الأوربي من روسيا – و الصالح للإستخدام في صناعاتهم الحربية و سيؤدي نقصه عاجلاً أو آجلاً إلى إصابة صناعة الدبابات و الذخائر لديهم بالشلل، و في حين أقترح شخصياً عدم الخوض في النقاش حول ما يؤيد ذلك التقدير و ما يعارضه تبقى الحقيقة متجليةً في أن الروس قد عمدوا لإنتاج آلاف الدبابات و ملايين القذائف في عامي ١٩٤٢/٤٣ بدون الإستعانة بهذا الفحم الدونتزي.

و السؤال الحقيقي يدور حول ما إن كنا نحن من سيكون سيد الموقف عسكرياً في حوض نهر "دونتز" أم لا، و مما هو مرغوب فيه بدون حاجة للسؤال عنه هو أن نحصل عليه لسبب واحد و هو أنه في حين قمنا بإستخراج كميات كبيرة من فحم

"دونتز" لإستخدامنا الخاص إلا أن كامل الفحم المستخدم في القطارات التي تعمل على خطوط السكك الحديدية المسئولة عن إيصال الإمدادات لهذه الأرض الواسعة كان يتم جلبه من ألمانيا و ذلك لعدم ملاءمة فحم "دونتز" لتشغيل القاطرات الألمانية، و نظراً لقيام هيئة سكك حديد الرايخ بتسيير العديد من القطارات الناقلة للفحم يومياً لتغطية إحتياجاتها الخاصة فقد تقلصت نسبة قطارات نقل القوات نتيجةً لذلك.

و كما حدث بالفعل، فقد رأى "هتلر" أن الإقتصاد الحربي الألماني لا يمكنه العمل بدون حوض نهر "دونتز" – و قد صرّح في العام التالي بنفس الشيء بالضبط عن منجنيز "نيكوبول"[1] – و لكن سيطرتنا على تلك المنطقة باتت أمراً مشكوكاً فيه عقب إنهيار الجبهة المجرية جنوب "فورونيز" فاتحةً الطريق أمام العدو نحو نهر "دنتز" و عبره إلى تقاطعات نهر "دنيبر" مع بحر آزوف.

و قد وردت لأول مرة على البال مسألة القتال للتشبث بحوض نهر "دونتز" في محادثة هاتفية لي مع الجنرال "زيتزلر" في ١٩ يناير، فقد أراد هو سماع وجهة نظري حول هذه المسألة و التي كان قد ناقشها مع "هتلر" – قطعاً بدون نتيجة – في اليوم السابق، و كان هذا هو اليوم الذي ظهر فيه خطر حدوث صدع في الجبهة بين "فوروشيلوفجراد" و "فورونيز"، و قد أخبرت "زيتزلر" أنه مهما بلغت أهمية تلك المنطقة – و لو حتى من وجهة النظر الإقتصادية – فالإجابة على هذه المسألة بسيطة، و هي أنه لو أردنا التشبث بتلك المنطقة كلياً فيتعين علينا نشر قوات ضخمة بدون أدنى تأخير و إلى أقصى إمتداد ممكن تجاه الشرق – حول "خاركوف" إن أمكن، و لو لم نتمكن من القيام بذلك بسبب الإعتقاد السائد بعدم قدرة مجموعتي الجيوش الوسطى و الشمالية على فصل أي قوات منها أو لعدم جاهزية مشاريع القرارات بشأن تلك الخطوة في الوطن، أو لأن *القيادة العليا للفيرماخت* لن تقوم بتحرير أي قوات من الجبهات الأخرى ، أو – و أخيراً – لأن الحالة الحالية للقطارات لن تسمح بتنفيذ مثل هذا التموضع المفاجئ، فإننا ببساطة علينا تقبل النتائج، و لن يتمكن الجناح الجنوبي للجيوش الألمانية من سد الثغرة بقواته الحالية إن بقي على نهر "دون السفلي".

كما أن هذا الجناح لن يتمكن من مواصلة القتال هناك بشكل منفرد إن إستغرقت التعزيزات المتوقعة في وصولها وقتاً طويلاً و تم نشرها بعيداً عن خطوطه الخلفية، و يجب التنويه إلى أهمية الربط مكانياً بين المعركة التي خاضها الجناح الجنوبي و نشر

[1] نيكوبول : مدينة أوكرانية على الضفة اليمنى لنهر "دنيبر".

قوات جديدة لتحقيق التناسق و التناغم، و سواء تقرر نشر القوات الجديدة بسلاسة بعيداً في الشرق بحيث يمكن في هذه الحالة لمجموعة الجيوش أن تبقى على نهري "دون السفلي" و "دونتز" أو تعذر إتمام هذا النشر و إضطرت مجموعة الجيوش للإنسحاب للخلف كي تنضم لتلك القوات الجديدة، و إن لم يتم سلوك أيٍ من السبيلين السابقين ستكون أمام العدو فرصة تطويق الجناح الجنوبي بأسره قبل تظهر على الساحة أي تعزيزات، و قد إتفق معي الجنرال "زيتزلر" في ذلك.

و قد كان من المؤكد في أي حال أن فيلق بانزر من سرايا الدفاع و المزمع نشره حول "خاركوف" في منتصف فبراير لن يكون بالقوة اللازمة لسد الثغرة المفتوحة بين "فوروشيلوفجراد" و "فورونيز"، كما أنه لا يمكنه أن يصير جاهزاً من الناحية العملياتية في الوقت المحدد لشن أي هجوم شمال نهر "دونتز" من أجل تحرير جانب الجناح الجنوبي في حال بقائه على نهري "دون السفلي" و "دونتز".

و قد أسهمت الأيام القليلة التالية في زيادة تنبه مجموعة الجيوش لمجريات الأمور على جناحها العميق.

و كما حدث باكراً في ٢٠ يناير لاحظنا قيام فيلقين معاديين بمحاولة تطويق الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش – مجموعة "فريتر-بيكو" في "كامنسك" – بالتحرك في إتجاه "فوروشيلوفجراد"، و في نفس الوقت كان العدو يتحسس طريقه للأمام نحو بقايا الجيش الإيطالي خلف نهر "دونتز" شرق "فوروشيلوفجراد"، و على خلاف ذلك بدا أن قواته الرئيسية تهدف إلى التقدم غرباً نحو "ستاروبيلسك"، و قطعاً إن الهدف الرئيسي لذلك هو الحصول على بعض المساحة التي تضمن لها حرية الحركة مبدئياً، و بمجرد تحقيق العدو لتلك الأهداف سيمكن إفتراض أنه لن يسعى فقط لتطويق مجموعة "فريتر-بيكو" و لكن للتقدم عبر نهر "دونتز" تجاه نقاط تقاطع نهر "دنيبر" أو ساحل بحر آزوف و ذلك بواسطة توجيه قوات أكبر ناحية الغرب.

و عقب ذلك بأربعة أيام فقط – أي في ٢٤ يناير – وردت تقارير بالفعل تفيد وجود قوات خيالة معادية جنوب نهر "دونتز" في إقليم "فوروشيلوفجراد" – على الرغم من أنه كان من المحتمل دوماً أن يكون الإنذار كاذباً و تم إطلاقه من إحدى المدن الرئيسية في المؤخرة.

في ٣١ يناير أرسلت برقية إلى *القيادة العليا للجيوش الألمانية* تضمنت مجدداً وجهة نظري حول مسألة التشبث بحوض نهر "دونتز".

و قد ذكرت فيها أن الشرط الأول للإحتفاظ به يتمثل في القيام بمحاولة وقتية إنطلاقاً من "خاركوف" لتخفيف الضغط علينا مع وجوب هزيمة العدو في المنطقة الواقعة شمال شرق المدينة قبل حلول الموسم الموحل[١]، و لو ثبت إستحالة أيٍ من الشرطين عملياً – نظراً لسوء الحظ الذي بدا لصيقاً بهذه الحالة – فلن تكون هناك أي إمكانية للتشبث بالحوض أو على الأقل لن يمكن التشبث به كاملاً نحو الشرق، و أي محاولة للبقاء على نهري "دون السفلي" و "دونتز" لن تكون إلا خطأً من وجهة النظر العملياتية.

و هناك عامل آخر يجب عدم إغفاله و هو أن قواتنا الحالية لن تكون كافية لوحدها للتشبث بكامل منطقة نهر "دونتز" إن قام العدو – كما بدا مؤكداً – بجلب تعزيزات أكثر من القوقاز و "ستالينجراد"، و ليس من حسن التصرف أبداً أن يعلق المرء آمالاً على إحتمالية إصابة العدو بالإرهاق رغم الفداحة التي بلغتها خسائره من الهجمات التي شنها على القوات الألمانية أو على إحتمالية وصول عملياته لنقطة التوقف مبكراً بسبب صعوبات الإمداد، و قد كانت هاتين النقطتين هما الدفوع التي تحجج بها "هتلر" بإستمرار أمام الجنرال "زيتزلر" في أي وقت لفت الأخير نظره إلى التفوق العددي الكاسح للعدو و ذلك بناء على ما نورده من تقارير إستخباراتية دقيقة، و لا يوجد أي شك يثور حول وجود بعض من التبرير لما قاله "هتلر"، و لكن يتوجب الأخذ في الإعتبار دائماً أن هجمات العدو على الجيوش الحليفة لم تكبده سوى القليل من الخسائر و أنه كان أقل إعتماداً على الإمداد و النقل بكثير مما كان عليه الألمان في أراضيه، و لم تحمل الأيام القلائل التالية في جعبتها سوى تأكيد تقدير مجموعة الجيوش لنوايا العدو، فقد بدا واضحاً أنه ينتوي تحطيم جبهتنا على نهر "دونتز" تزامناً معقيامه بتطويقنا إلى جهة الغرب.

في الثاني من فبراير عبر العدو نهر "دونتز" شرق "فوروشيلوفجراد" بدون مواجهة أي مقاومة حقيقية من الإيطاليين هناك، و قد إشتملت مجموعة الهجوم التي كونها لهذا الغرض على ثلاثة فيالق دبابات و فيلقين ميكانيكي و مشاة، و بالطبع كان جزء من تلك

[١] يقصد به أواخر الشتاء و بدايات الربيع حين تذوب الثلوج الموجودة على الطرق و تتحول الأرض إلى أوحال طينية تعيق سير المركبات سواء المجنزرة أو العادية.

القوات قد قام سابقاً بدحر الإيطاليين على نهر "دون"، و قد يكون هدف تلك المجموعة إما "روستوف" أو "تاجانروج".

و بعد إخراج الفرقة ١٩ بانزر من "ستاروبيلسك" قام العدو بتحريك قوات قوية قوامها ثلاة أو أربعة فيالق دبابات و فيلق مشاة في إتجاه جنوب غربي تجاه خط "سلافيانسك-ليسيتشانسك"، و كان واضحاً أنه يخطط لتنفيذ حركة تطويقية ضد جناحنا بعيداً في الغرب، و هذا – إن تجاهل المرء بقايا الإيطاليين – كان ما توقع العدو إيجاده حول "فوروشيلوفجراد" أو حتى شرقها.

و بإستثناء الإجراءات التي كانت مجموعة الجيوش قادرة على إتخاذها لكونها داخلةً في نطاق نفوذ قيادتها لتحقيق الهدف النهائي المتمثل في نقل الجيش الأول بانزر إلى نهر "دونتز الأوسط" شهدت الفترة التي أعقبت نهاية شهر يناير سجالات كلامية عديدة بين مجموعة الجيوش و *القيادة العليا للجيوش الألمانية*حول كيفية إدارة العمليات ككل.

و كما ذكرنا من قبل ، كنت بالفعل قد شددت للجنرال "زيتزلر" في ١٩ يناير على أن التبث بحوض "دونتز" غير ممكن إلا إن تدخلت قوات قوية بسلاسة و فاعلية من جهة "خاركوف"، و نظراً لإنعدام أي إمكانية لذلك طلبت الإذن بتقليص صف جناحنا الغربي على الأقل بالقدر اللازم لتحرير القوات التي ستحتاجها مجموعة الجيوش إن سعت إلى الحيلولة دون قطع الموارد و التعزيزات عن الجناح الجنوبي.

و قمنا بالفعل بإرسال الجيش الأول بانزر إلى نهر "دونتز الأوسط" للقضاء على التهديد بالتطويق الذي صار أمراً واقعاً هناك.

و ما كان ينبغي فعله الآن هو إخراج الجيش الرابع بانزر من "الشرفة" الواقعة على نهري "دون السفلي" و "دونتز"، و تلك كانت الطريقة الوحيدة المتاحة حينئذٍ للتعامل مع خطورة محاولات العدو قطع طريقنا نحو نقاط تقاطع نهر "دنيبر" بواسطة التقدم خلال خط "إسيوم-سلافيانسك"، و بعيداً شمال نهر "دون" يجب أن نتوقع على الدوام قيام العدو بإحضار قوات أكثر عدداً عبر النهر نحو نهر "دنيبر السفلي" مما وردت تقارير عنه في "سلافيانسك"، و لم تكن هناك أي قوات بجانب الفرقة الأولى من فيلق بانزر من سرايا الدفاع – و الذي وصل لتوه "خاركوف" – سوى بقايا قوات ضعيفة لتقاوم العدو في أي منطقة تابعة لمجموعة الجيوش "ب"، و تلك القوات لوحدها لا يمكنها منع العدو من التقدم نحو جناحنا العميق، و لكن يمكن تحرير الجيش الرابع بانزر فقط إن تم

تقليص طول جبهة مجموعة الجيوش بقدر كبير، و بدلاً من مواصلة التمسك بقوس ممتد بجوار نهري "دون السفلي" و "دونتز" من "روستوف" إلى غرب "فوروشيلوفجراد" كان من الواجب سحب الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش إلى حبل القوس، و كان هذا "الحبل" يتمثل في نظام دفاعي ظل الجناح الجنوبي الألماني متمسكاً به منذ ١٩٤١ عقب إنسحابه من "روستوف" لأول مرة – و هو عبارة عن خط يمتد خلف نهر "ميوس" و يستمر شمالاً حتى نهر "دونتز الأوسط"، و سحب الجبهة للوراء حتى هذا الموقع يعني بشكل طبيعي التخلي عن الجزء الشرقي من حقول الفحم الدونتزية.

و لتبرير هذا الإنسحاب قمت بمحاولة عرض مفهومي عن الإدارة طويلة الأمد للعمليات العسكرية للقيادة العليا، و فيما يلي بيان الرسالة التي أبرقتها لـ"هتلر" و حملت توضيحي لهذا المفهوم:

إن التشبث بنتوء"دون- دونتز" غير ممكن لأي فترة زمنية – حتى و لو بإسلوب دفاعي بحت – بإستخدام ما تحوزه حالياً مجموعة الجيوش من قوات، و في حالة إصرار القيادة العليا على البقاء في الوضع الدفاعي في ١٩٤٣ بسبب خسارة الجيش السادس بفرقه العشرين فإن أي محاولة للدفاع عن الحوض بأكمله تعني إشراك كافة القوات الممكن إتاحتها هناك، و مع ذلك قد يمنح هذا العدو الحرية في شن الهجوم بإستخدام قوات كثيرة في أي نقطة يقرر ضرب ما تبقى من الجبهة عندها، و في حين لم يكن الخطر الراهن متمثلاً في إحتمال قمع مجموعة الجيوش "دون" على ساحل بحر آزوف – و بالتالي ضياع مجموعة الجيوش "أ" في منطقة نهر "كوبان" – أمكننا إفتراض إمكانية تفادي حدوث ذلك و مواصلة التشبث بكامل منطقة نهر "دونتز"، و سيكون حينها هدف العدو هو تطويق الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية بأكمله على البحر الأسود.

و من ناحية أخرى إن شعرت القيادة العليا بقدرتها على السعي لحل الموقف بواسطة القيام بعملية هجومية جديدة في ١٩٤٣ فيمكنا القيام بها مجدداً على الجناح الجنوبي و لكن دون الأخذ في الحسبان نتوء"دون- دونتز" بسبب مشاكل الإمداد المعتادة و خطر التطويق المعرّض له منذ البداية أي هجوم من هذه "الشرفة"، و الوسيلة الوحيدة لإنجاز أي حل هجومي – مع إفتراض إمكانيتها دوماً – تتمثل في المقام الأول في سحب العدو ناحية الغرب نحو نهر "دنيبر السفلي" على جناحنا الجنوبي، و بمجرد تحقيق ذلك ينبغي علينا شن هجوماً قوياً من "خاركوف" و تحطيم الجبهة الروسية هناك بهدف الإنعطاف جنوباً و تطويق العدو على بحر آزوف.

و مع ذلك بدا واضحاً أن "هتلر" لم يكن راغباً في تقبل أي فكرة من هذا النوع، و كان "زيتزلر" قد أخبره بالفعل بأن السؤال الوحيد الآن يدور حول إما التخلي عن منطقة نهر "دونتز" أو خسارتها و معها مجموعة الجيوش "دون".

و كانت إجابة "هتلر" على الرغم من من صواب رأي رئيس هيئة الأركان العامة من وجهة النظر العملياتية هي إستحالة التخلي عن منقطة نهر "دونتز" لأسباب إقتصادية – ليس في واقع الأمر بسبب فداحة خسارتنا للفحم و إنما لأن أي إنسحاب ألماني سيعيد للعدو سيطرته على الإمدادات فائقة الحيوية لصناعاته الصلبة، و كل وسطي قرر "هتلر" قيام الفرقة "رايخ" من سرايا الدفاع – أول من بلغ "خاركوف" من تشكيلات فيلق بانزر من سرايا الدفاع – بشن هجوماً من تلك المنطقة نحو الخطوط الخلفية لقوات العدو المتقدم تجاه جبهتنا على نهر "دونتز".

و بصرف النظر عن حقيقة المتجلية بعدم كفاية هذه الفرقة لوحدها لمثل تلك العملية واسعة النطاق – كان عليها بداءةً أن تتغلب على ست فرق معادية – و لن يكون بالتالي هناك أي قوات تتولى حماية جبهتها الشمالية بالغة الإمتداد حيث إن إشراكها في المعركة سيعني فصل القوة الضاربة الوحيدة {فيلق بانزر من سرايا الدفاع} و الممكن توقع إنضمامها لنا في المستقبل القريب، و إن وصل الأمر إلى هذا الحد فلن تكون الفرقة "رايخ" جاهزة لشن هذه العملية و ستقوم مجموعة الجيوش "ب" بتوجيهها لمواجهة تقدم السوفييت السريع نحو "خاركوف"، و في تلك اللحظة يتم ربطها في عمل دفاعي ميئوس منه في "فولتشانسك" - شمال شرقها تحديداً.

و خلال زوج الأيام التالي {٤و ٥ فبراير} تدهور الوضع على جبهة مجموعة الجيوش "دون" بشكل ملحوظ،فقد مارس العدو ضغطاً رهيباً على الجيش الرابع بانزر أثناء تغطية الأخير لمرور الجيش الأول بانزر خلال"روستوف"، و كان قد إنضم جيشان {٤٥ و ٥٨} من جبهة العدو السابقة في القوقاز إلى الثلاثة جيوش المواجهة للجيش الرابع بانزر بالفعل، و هو ما كان أمارة واضحة على أن التهديد المحدق بالجيش السابع عشر التابع لمجموعة الجيوش "أ" في منطقة نهر "كوبان" و المفترض كمونه في جناح القوات الروسية لم يمنعهم من نقل قوات كبيرة إلى ميدان المعركة الحاسمة، و كانت مجموعة الجيوش "دون" قد توقعت منذ زمن هجوماً معادياً ضخماً على جانبي "روستوف" ذاتها و جبهة نهر "دون" على جانبي "نوفوتشيركاسك".

و إضافة لما تقدم تم الكشف عن تحرك قوات مشاة ميكانيكي قوية من "ستالينجراد" تجاه نهر "دون".

و كذلك على الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش تزايدت خطورة الوضع حيث لم تنجح الفرقة السادسة بانزر – و التي أرسلتها على وجه السرعة مفرزة الجيش "هوليدت" إلى نهر "دونتز الأوسط" بأوامر من مجموعة الجيوش في ١٤ يناير - شرق "فوروشيلوفجراد" في إجبار العدو على التقهقر عبر النهر، و كل ما أمكنها فعله خلال ذلك الوقت هو إحتجازه في رأس الكوبري الذي حصل عليه هناك.

و بعيداً في الغرب تمكن العدو من عبور نهر "دونتز" على جبهة واسعة خلت تقريباً من أي قوات تدافع عنها، و بذا صار العدو الآن خارج "سلافيانسك" كما إستولى على "إسيوم".

و لذا و حتى الآن ما زال الشك حائماً حول ما إن كان إنسحاب مفرزة الجيش "هوليدت" ما يزال مجدياً، و قد إنتوت مجموعة الجيوش نشرها على خط "نوفوتشيركاسك- كامنسك" في الخامس من يناير و لكن في الواقع تسبب رفض "هتلر" السماح لنا بسحب الجبهة للوراء حتى نهر "ميوس" في تقييدها على نهري "دون" و "دونتز"، و لو قرر العدو التقدم بسلاسة في إتجاه جنوبي شرقي من "سلافيانسك" فسيتمكن من تدمير دفاعات نهر "ميوس" منذ البداية.

و رغم كون قيادة الجيش الأول بانزر و ما خصصناه لها من قوات في تلك الأثناء على الطريق من "روستوف" إلى نهر "دونتز الأوسط" إلا أنه قد تمر أيام عدة قبل أن يصير هذا الجيش جاهزاً للعمليات هناك، و ما زاد الطين بلةً هو أن الطرق الموحلة في المنطقة الساحلية تسببت بشكل كبير في إعاقة تقدم الفرق المدرعة في حين كانت الأرض شمالاً متجمدة صلبة و لم تؤثر بأي شكل على حركة الروس.

و بالنظر لهذه التطورات الباعثة على التشاؤم لم تقم مجموعة الجيوش فقط بتجديد ندائها بالإنسحاب الفوري لجناحها الأيمن نحو نهر "ميوس" و لكنها قدمت *للقيادة العليا للجيوش الألمانية* سلسلة من الطلبات إستهدفت التأكيد على خطورة الموقف، كما طالبت بحشد الفرقة السابعة المضادة للطائرات – و التي كانت تشارك في أعمال الدفاع الجوي في منطقة الإتصالات – لكي تزود طريق الإمداد المارّ عبر "دنيبروبتروفسك" بالحماية

الجوية و الأرضية كلتاهما، و فضلاً عما تقدم طالبت مجموعة الجيوش أيضاً بالتجهيز الفوري لجسر إمداد جوي في حالة سعي العدو لتطويق منطقة إتصالاتها الخلفية.

و مما طالبت به كذلك هو تحقيق زيادة جذرية في قدرة السكك الحديدية على النقل على حساب تدفق الإمدادات لمجموعة الجيوش "ب" و التي بالكاد صارت تمتلك قواتاً ينبغي إمدادها.

و طلبت أنه إن لم يحقق الهجوم المرتقب الذي ستشنه الفرقة "رايخ" من سرايا الدفاع نجاحاً كاملاً – يعني وصولها لـ"كوبيانسك" – بحلول السادس من فبراير فينبغي على فيلق بانزر من سرايا الدفاع الهجوم جنوب نهر "دونتز" تجاه "إسيوم" بمجرد تمكين الزيادة في قطارات نقل القوات له من الإنتشار حول "خاركوف".

و أخيراً طالبت مجموعة الجيوش بالنقل الفوري لقوات الفرقة ١٣ بانزر و فرقتي مشاة من الجيش السابع عشر إلى نهر "دنيبر السفلي" حيث يتم تزويدها بأسلحة جديدة و تتولى السيطرة على طوابير النقل و الإمداد الموجودة هناك و التابعة للجيش السادس.

و حتى لو أغلق "هتلر" عينيه أمام وجهة نظرنا بعيدة الأمد حول العمليات فإن تلك المطالب ستوضح له كيف أن الموقف طارئ و عاجل.

و نتيجة للرسالة سالفة الذكر حطّت في المطار التابع لنا في السادس من فبراير طائرة "كوندور" لتقلّني للمقر العام لمقابلة "هتلر"، و ربما يرجع قراره في الإستماع إلي مباشرة إلى قيام مساعده العسكري الأعلى "شمندت" بزيارتنا في نهاية يناير و قد شرحنا له ما نراه حول الموقف الراهن و طريقة التعامل مع الأمور في القمة.

و قد فتح المؤتمر المنعقد بيني و بين "هتلر" في السادس من فبراير ١٩٤٣ المجال أمام إمكانية القضاء على التهديد الكارثي المحدق بالجناح الجنوبي الألماني و منحت القيادة العليا فرصة أخرى على الأقل لفرض حالة الجمود في الشرق.

و قد إستهل "هتلر" كلامه – كما ذكرت من قبل في الفصل الخاص بـ"ستالينجراد" – بإعتراف صريح بمسئوليته الحصرية عن مصير الجيش السادس الذي لاقى فاجعته منذ أيام قليلة خلت، و تولد لدي إنطباع في هذا الوقت بأنه متأثر بشدة بالفاجعة ليس فقط لأنها مثّلت إخفاقاً ذريعاً لقيادته و لكن لأنه مكتئباً بحس نقي للمصير الذي لاقاه الجنود الذين قاتلوا ببسالة و إخلاص للواجب حتى النهاية.

و لكن ثارت لدي الشكوك فيما بعد حول ما إن كان في قلب "هتلر" أي محل للجنود الذين وضعوا فيه ثقتهم اللامحدودة و ظلوا أوفياء له حتى النهاية، ثم تساءلت ما إن كان لم يعتبرهم - بدءً بالفيلد مارشال و حتى أصغر جندي – مجرد أدوات تخدم أهدافه الحربية.

و كما قد يبدو، فإن في قيام "هتلر" بالإعتراف فوراً بالمسئولية التامة عما حدث في "ستالينجراد" دلالة على شهامة الفروسية، و سواء كانت متعمدةً أو تلقائيةً شعرنا في الطريقة التي إفتتح بها المناقشة معنا بمهارة نفسية جديرة بالإعتبار، فلقد كان دوماً متمتعاً بتلك الموهبة البارعة في تكييف أسلوبه بما يتلاءم مع محاوريه.

و من جانبي قررت مناقشة مسألتين معه.

الأولى تتعلق بإدارة العمليات مستقبلاً في منطقتي و التي كانت تعتمد على دفع "هتلر" للموافقة على التخلي عن الجزء الشرقي من حوض نهر "دونتز"، و كان لازماً تحقيق هذا ذاك اليوم.

الثانية تتعلق بالقيادة العليا ذاتها و تحديداً الأسلوب الذي إتبعه "هتلر" منذ إقالة الفيلد مارشال "فون براوخيتش"، و ما دفعني لإثارة هذه المسألة هو النتيجة التي قاد إليها هذا الأسلوب من القيادة و هي "ستالينجراد".

و بشأن المسألة الثانية إسمحوا لي أن أقول بإيجاز أنني لم أحصل على أي نتيجة شافية، و إدراكاً مني بإستحالة قيام دكتاتور مثل "هتلر" بالإستقالة كما فعل القائد العام للقوات المسلحة حاولت جاهداً إقناعه بقبول حلاً لن يضر بمظهره و في نفس الوقت يضمن قيادة عسكرية ناجحة في المستقبل، فطلبت منه تأكيد نظامية هذه القيادة بواسطة تعيين رئيس واحد لهيئة الأركان العامة يكون محل ثقته الدائمة و في نفس الوقت يكون مخولاً بممارسة السلطة و المسئولية اللازمة.

و لكن "هتلر" كان بشكل واضح غير راغب في التعامل مع الأمور بنزاهة، فظل يلجأ للجوانب الشخصية للقضية متباكياً من الإحباطات التي عاناها بفعل وزير الحربية "فون بلومبرج" و حتى مع "فون براوخيتش"، و الأكثر من ذلك أنه أعلن بصراحة أنه لن يضع أي شخص في موقع يجعله أعلى من "جورينج" و الذي بدوره سيرفض إخضاع نفسه لأي رئيس أركان و لو كان الأخير يتصرف بإسم "هتلر" شخصياً، و لا أستطيع

أن أحدد ما إن كان "هتلر" حقاً كارهاً لإغضاب "جورينج" أو كان ببساطة يستخدم كلامه السابق كحجة.

و هذا يعيدنا إلى المسألة الأولى المتعلقة بمستقبل العمليات في منطقة مجموعة الجيوش "دون".

و قد بدأت بمنح "هتلر" صورة للموقف الحالي لمجموعة الجيوش و إستطردت في سرد النتائج التي نستخلصها منه، و أوضحت أن قواتنا لا يمكن أن تكون بأي شكل كافية للتمسك بمنطقة نهري "دونتز" و "دون"، و مهما كان إهتمام "هتلر" بالغاً بتلك المنطقة بشطريها يظل السؤال الحقيقي متمحوراً حول – و ذلك في سبيل محاولة التشبث بكامل حوض نهر "دونتز" – ما إن كنا نريد خسارة الحوض و معه مجموعة الجيوش "دون" – و ستلحقها مجموعة الجيوش "أ" كذلك – أو نريد تفادي الكارثة التي تتهددنا بواسطة التخلي عن الحوض في الوقت المناسب.

و إنتقالاً من تلك الجوانب الجلّية للموقف الحالي سعيت لجعل "هتلر" يرى ماذا يمكن أن يحدث حتمياً فيما بعد إن واصلنا البقاء في "شرفة دون– دونتز"، فالعدو سيصير حراً – مع صيرورة مجموعة الجيوش "ب" غير صالحة للخدمة - في توجيه القوات القوية المتقدمة خلال منطقة تلك الأخيرة نحو نهر "دنيبر السفلي" أو الساحل و بالتالي يقوم بتطويق كامل الجناح الجنوبي، و قد شددت على أن ما سيحدث على هذا الجناح الجنوبي سيقرر النتيجة النهائية للحرب في الشرق بأكملها، و كان من المؤكد أن العدو سيستمر في جلب إحتياطاته القوية – على الأخص من محيط "ستالينجراد" – لضمان تحقيق صراعه في سبيل تطويق الجناح الجنوبي للجيوش الألمانية هدفه بشكل تام، و لهذا السبب لا يمكن إعتبار أي هجوم مضاد ينفذه الفيلق بانزر من سرايا الدفاع ملائماً لإعتراض حركة التطويق واسعة النطاق التي سينفذها العدو الذي بدوره سيكون قوياً كفايةً لتنفيذ ذلك التطويق و حمايتها من جهة الغرب حول "خاركوف" في وقت متزامن، و حتى المجموع الكلي للتعزيزات الألمانية الممكنة لن يكون كافياً لوقف هجوم العدو، لذا فقد كان من الأساسي على مطلقه وجوب قيام الجيش الرابع بانزر باللحاق بالجيش الأول بانزر – و الذي في طريقه الآن نحو نهر "دونتز الأوسط" – على الفور لإعتراض التهديد المحتمل حتماً لقيام العدو بحركة تطويقية بين نهري "دونتز" و "دنيبر"، و حينئذٍ فقط سيكون من الممكن بالإستعانة بالتعزيزات القريبة إستعادة الموقف على الجناح الجنوبي الألماني من الجبهة الشرقية و تحديداً كامل الإمتداد من الجبهة بين

ساحل بحر آزوف و الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش الوسطى، و إن لم يتم سحب الجيش الرابع بانزر من نهر "دون السفلي" فلن يكون ذلك ممكناً، و لكن إبعاده من هناك سيمثل تطبيقاً آلياً للإنسحاب من نتوء "دون- دونتز" إلى مواقعه على نهر "ميوس"، و يجب ألا نهدر يوماً واحداً فيما يتعلق بذلك.

و كان من المشكوك فيه بالفعل – بسبب التأخر في إتخاذ أي قرار – ما إن كانت مفرزة الجيش "هوليدت" – المكلفة الآن بالدفاع كامل الجبهة من الخط الساحلي حتى نهر "دونتز الأوسط" لن ترجع أبداً إلى نهر "ميوس" في الوقت المحدد، و نتيجة لذلك كان علي أن أنتظر ذلك اليوم إذناً بالتخلي عن الجزء الشرقي من منطقة نهر "دونتز" حتى نهر "ميوس".

و هذا التصريح الخاص بي – و الذي إنصت إليه "هتلر" مصادفةً بأقصى إهتمام – تبعه جدل دار لساعات عدة حول قضية حوض نهر "دونتز"، و حتى خلال الجزء الثاني من حديثنا – عندما ناقشت مع "هتلر" على إنفراد مشكلة القيادة – ظل "هتلر" يعود للكلام عن الحوض بشكل متكرر.

و كما شهدت في مناسبات مماثلة لقد تحاشى "هتلر" أي مناقشة حقيقية حول أي مما قلته عن الأمور العملياتية، و هو حتى لم يحاول تقديم أي خطة أفضل من بنات أفكاره أو تفنيد الأسس التي إستندت إليها فيما أقول، كما أنه لم ينازع في توقعاتي حول الطريقة التي ستتطور بها الأحداث، و قد تعامل مع كل تصريح لي دون الإلتفات للحاجة التي تفرضها اللحظة الفارقة و كأنها مجرد إفتراضات قد تصدق و قد لا، و في حالتنا تلك كانت كل الإعتبارات ذات الطبيعة العملياتية تستند في الواقع – خصوصاً عندما تكون أمام المرء آخر فرصة لتولي المبادرة – إلى تقديرات أو إفتراضات مرتبطة بالطريقة المتوقع أن يتصرف على نحوها العدو، و بينما لا يمكن لأي شخص أن يثبت مسبقاً تطور الموقف بشكل معين إلا أن القائد العسكري الناجح فقط هو من يمكنه أن يكون فكره متعدياً، فيجب أن يكون قادراً على الرؤية خلال الستار الذي تختبئ خلفه تصرفات العدو المستقبلية دائماً – على الأقل إلى الحد الذي يمكنه من تقدير الإمكانات المتاحة له و للعدو بشكل صحيح، و كلما تعاظم نفوذ قيادة المرء كلما صار تفككيره أكثر تعدياً بالطبع، و كلما زادت المسافات الواجب تغطيتها و التشكيلات الواجب تحريكها كلما طالت المدة الفاصلة الواجب إنقضاؤها قبل أن يؤتي القرار الذي إتخذه نتائج ملموسة، و لكن هذا التفكير بعيد الأمد لم يكن محل تقبل "هتلر" على الأقل في الحقل العملياتي، و

ربما لم يكن يحب وجود إحتمالية أن تأتي النتائج عكس رغباته، و إن كان من غير الممكن دحض تلك النتائج فإن "هتلر" يتحاشى التورط فيها بشتى الطرق الممكنة.

و هكذا نجده في هذه المناسبة أيضاً يستعين بتحججات و دفوع من حقول آخرى، فقد بدأ بالحديث عن رفضه المتفَهم لأي إستسلام طوعي للمناطق التي ربحناها بصعوبة طالما لم يُثبت إمكان اللجوء لبدائل أخرى- كما إعتقد هو، و قد كانت تلك وجهة نظر يقدّرها أي جندي، و لكن بالنسبة لي أنا على وجه الخصوص سارت الأمور عكس ذلك تماماً في تلك الحالة و حالات أخرى لاحقة توجب علي فيها دفع "هتلر" إلى التخلي عن مناطق ما، و كان علي أن أقترح خططاً أفضل بشأن هجمات ناجحة بدلاً عن تلك المتعلقة بالإنسحاب الحتمي، و لكن من المعروف جيداً عن الحرب أن من يحاول التمسك بكل شيء في وقت واحد سيخسر كل شيء في وقت واحد.

و كان مما تحجج به "هتلر" بإستمرار القول بأن أي تقصير للجبهة كالذي إقترحته يستهدف إتاحة عدد أكبر من القوات سيؤدي إلى تحرير نسبة معادلة من قوات العدو سيتم إلقاءها في ميزان المواجهة حينئذٍ في أي بقعة حرجة، و هذا في مجمله قول سديد، و مع ذلك فإن العامل الحاسم دائماً في أي عملية نقل للقوات يتمثل في أيٍ من الطرفين ستكون له الغلبة – بمعنى آخر أيٍ منهما ستتاح له فرصة [بناء على تصرفه في الوقت السليم] تولي المبادرة في تلك البقعة الحرجة و بالتالي يمكنه فرض شروطه على العدو بطئ الحركة حتى لو كان ذلك الأخير أقوى إجمالاً، و في حالة القيام بأي محاولة للتشبث بنتوء "دون- دونتز" فإن طول الجبهات الزائد سيلغي إفتراضياً التفوق في ميزان القوى الذي يتمتع به المدافع في مواجهة عدوه، و في تلك الظروف ستتاح للمهاجم فرصة إختراق الجبهة بالغة الإمتداد في النقطة التي يختارها هو مستخدماً القليل من القوات و معانياً القليل من الخسائر، و نظراً لنقص إحتياطات المدافع سيتمكن المهاجم من تدمير كامل البنيان الدفاعي له.

و تحجج "هتلر" أيضاً بأن المرء لو قاتل بضراوة في سبيل كل شبر من الأرض جاعلاً العدو يدفع ثمناً باهظاً مقابل كل خطوة يتقدمها فإن القوة الهجومية للجيوش السوفييتية ستُستنزف لا محالة يوماً ما، و الآن ما يزال العدو يهاجم منذ شهرين و نصف بلا توقف، و كانت خسائرة فادحة و قريباً سيصل إلى نهاية ذلك، كما أنه مع إبتعاده أكثر عن خطوط بدايته فإن صعوبات الإمداد التي سيواجهها ستكون كفيلة بوقف أي حركة تطويقية واسعة النطاق ربما يخطط لها.

بالتأكيد كان هناك قدراً كبيراً من الحقيقة في كل ما قاله "هتلر"، فبلا شك عانى العدو خسائر جمّة – على الأقل في هجماته على القطاعات المتمسك بها الألمان – و سيكون لذلك آثار كبيرة على قوته الهجومية، و لكنه تمكن تزامناً مع ذلك من تحقيق نجاحات سهلة في القطاعات التي خلت من المقاومة العنيدة للقوات الألمانية، و كان أيضاً من الحقيقة أن خسائر القوات السوفييتية – من المشاة أولاً و أخيراً – قادت إلى تخفيض جودتها بشكل كبير و إلا لما تمكنا من التماسك أمامها، و لكن مهما قادت خسائر فرق العدو لتخفيض كفاءتها القتالية إلا أنه سرعان ما تحل محلها فرق جديدة، و أما بالنسبة إلى صعوبات الإمداد التي يواجهها السوفييت فمن المتوقع أن تؤدي لزيادة المدى الذي يبلغه العدو في عملياته، و لكن في عصر المواصلات ذات المحركات هذا فإن المسافة بين مراكز السكك الحديدية الرئيسية للجيوش و بحر آزوف أو نهر "دنيبر السفلي" لن تكون كبيرة كفاية لذبذبة التقدم السوفييتي الدائر تحضيره لتطويق الجناح الجنوبي الألماني.

و قد كان متقبلاً خلال الحرب العالمية الأولى عدم قدرة أي جيش على التقدم لأبعد من ٩٥ ميلاً من مركز السكك الحديدية الخاص به، و لكن هذا الرقم لم يظل متمسكاً به في الحرب العالمية الثانية و هو ما أثبتته عملياتنا في كلٍ من الغرب و الشرق، و إضافة إلى ذلك كان الروس سادة الإنشاء السريع لخطوط السكك الحديدية و التي أظهرت مشاكل هندسية قليلة نسبياً في تلك المساحة الشاسعة، و على أية حال كان من الخطأ تماماً أن نُسند التدابير التي نتخذها على الأمل الزائف في وصول العدو قريباً لنهاية لقوته أو حركيته، و أهم ما في الأمر أن الفرق التابعة لنا – و المنهكة بشدة – كانت هي الأخرى على وشك الإستنزاف، و بهذا الخصوص ينبغي عليّ التشديد على وعي "هتلر" التام بحالة قواتنا و خسائرها، و ما لم يهتم بالإعتراف به هو الفرق المشكلة حديثاً عليها بداءةً أن تدفع ثمناً باهظاً من دمائها نظراً لقلة خبرتها القتالية، و من جهة أخرى وافق "هتلر" على الفشل الذريع لفرق اللوفتافا الميدانية بل إنه إعترف بأن إنشاء تلك الفرق أصلاً يرجع لتعطش "جورينج" للمظهرية.

و كل ما كان حقيقةً على "هتلر" أن يقوله عن الوضع العملياتي هو التعبير عن إعتقاده بقدرة فيلق بانزر من سرايا الدفاع على القضاء على التهديد المحدق بجبهة نهر "دونتز الأوسط" بواسطة هجوم في إتجاه الجنوب الشرقي إنطلاقاً من إقليم "خاركوف" نحو "إسيوم"، و التحفظ الوحيد الذي أبداه كان أنه لدى وصول فرقة الفيلق الثانية

{"الليبستاندرت"} سيكون على الفرقة "رايخ" أن تتعامل مع العدو في "فولتشسانك"، و هناك فرقة ثالثة لم تتمكن من الوصول إلا في وقتٍ لاحق، و قد كان إيمانه بالقدرة الإختراقية لدى فيلق بانزر من سرايا الدفاع المشكل حديثاً راسخاً، و مع ذلك نمّت تصريحاته عن أنه لا يزال لا يدرك المخاطر المستقبلية القريبة خاصة تظهر في ميدان المعركة تشكيلات العدو التي كانت في "ستالينجراد".

و لكن كان أهم دفع لدى "هتلر" و الذي تحجج به بشكل متكرر هو أن الإستحالة الراهنة – في رأيه هو – في التخلي عن منطقة نهر "دونتز"، فكان يخشى من تداعيات الأمر على تركيا، و أهم ما في الأمر أنه شدد على أهمية فحم "دونتز" بالنسبة لإقتصادنا الحربي و تأثيره من جهة حرمان العدو منه بإستمرار، و قال أنه فقط بإستعادة السيطرة على هذا الفحم سيتمكن الروس من صيانة صناعاتهم الصلبة و بالتالي مواصلة إنتاج الدبابات و المدافع و معهما الذخيرة، و عندما ذُكّر بأنهم أنتجوا عدداً وفيراً من الدبابات حتى اللحظة برغم خسارتهم لحوض نهر "دونتز" رد "هتلر" بأنهم ببساطة يعيشون على مخزونهم الحالي من الصلب، و أصر على أنهم إن لم يستعيدوا حقول النفط فلن يتمكنوا من المحافظة على المستوى السابق من الإنتاج و هو ما سيقود بدوره لى حرمانهم من القيام بأي هجمات كبيرة أخرى، و الآن بات من غير الممكن لأي شخص إنكار معاناة العدو لمشاكل إنتاجية نتيجة لخسارة الفحم و الصلب و غيرهما مما يحويه حوض نهر "دونتز"، و من دلائل ذلك في رأيي حقيقة عدم تمكن العدو على تعويض ما خسره من مدفعية كثيرة العدد في ١٩٤١، و هذا بالأخص هو ما مكننا من الدفاع عن جبهة نهر "تشير" في وقت مبكر، و في الواقع كان العدو في ذلك الشتاء يمتلك مدافع كافية لتركيز عدد ساحق منها على قطاعات ضيقة من الجبهة – كما حدث في إختراقه لنهر "دون" ثلاث مرات بنجاح – و لكنه بالقطع ما يزال لا يمتلك ما يكفي لتجهيز كل الفرق التابعة له بقطع مدفعية متحركة، و بالمناسبة لقد منحت هذه المناقشة حول الأهمية الإقتصادية لمنطقة نهر "دونتز" لـ"هتلر" فرصة عرض معرفته المدهشة عن أرقام الإنتاج و إمكانيات الأسلحة.

و في خضم صراع الأفكار هذا حول إستحسان أو عدم إستحسان محاولة التشبث بحوض نهر "دونتز" لم أجد أمامي في نهاية المطاف سوى ورقة رابحة واحدة في يدي، فقبل سفري إلى "جزيسكو" بقليل قام "باول بليجر" رئيس هيئة فحم الرايخ بزيارتنا، و عندما سؤل حول أهمية منطقة نهر "دونتز" بالنسبة للإقتصادين الحربيين الألماني و

الروسي أكد لي أن الحقول الموجودة حول "شاختي" – في الجزء من الحوض الواقع شرق نهر "ميوس" – ليست لها أي حيوية نظراً لعدم ملاءمة الفحم الموجود فيها لعمليات الإحتراق التي تدير القاطرات، و تلك النقطة كانت جوهر إعتراضات "هتلر" المتعلقة بالحرب الإقتصادية.

و لكن أي شخص يفترض أنه سيعترف بهزيمته إنما هو يستهين بعناد هذا الرجل، فقد لجأ في نهاية الأمر إلى الطقس كوسيلة على الأقل لتأخير إخلاء نتوء "دون- دونتز"، فلعلها ضربة حظ فقد حدث ذوبان غير معتاد و مبكر للثلوج خلال الأيام القليلة الماضية، و بات من غير الممكن إستخدام الطريق الجليدي عبر خليج "تاجانروج" في أمان تام، و على الرغم من أن نهري "دون" و "دونتز" ما يزالا متجمدين إلا أنه ظل من الممكن بدء تكسر ذلك الجليد إن إستمر الطقس المعتدل.

و الآن لقد إستخدم "هتلر" كل ما يحوزه من بلاغة لإقناعي بصيرورة وادي نهر "دون" الواسع خلال أيام قلائل فقط عقبة لا يمكن تغلبها مما يجعل العدو لن يفكر في مهاجمتها قبل الصيف، و على العكس فإن جيشنا الرابع بانزر سيعلق في الطين إن تحرك غرباً، كما قال "هتلر" أن أقل ما يمكنني فعله في تلك الظروف هو الإنتظار لوقت أطول قليلاً.

و لما كنت ما أزال رافضاً المخاطرة بمصير مجموعة الجيوش في سبيل الأمل في تغير غير موسمي لحالة الطقس وافق "هتلر" أخيراً على إنسحاب الجبهة الشرقية لمجموعة الجيوش إلى نهر "ميوس"، و إن ضمّن المرء الحسبة المناقشة حول مسألة القيادة فأقول أننا ظللنا في المؤتمر لمدة أربع ساعات كاملة.

و المدى الذي بلغه "هتلر" في عناده إتضح عندما حدث أمر صغير عُقيب مغادرتي له، فبعد منحه إياي الموافقة النهائية على نواياي العملياتية إستدعاني مجدداً و أنا على وشك مغادرة الغرفة، و قال أنه على الرغم من عدم رغبته بشكل طبيعي في العدول عن قرار سبقت الموافقة عليه إلا أنه ما يزال يجادلني حول التفكير لمرة أخرى حول ما إن كنت غير قادر على الإنتظار على الأقل لبرهة أطول، خاصة و أن ذوبان الجليد في حوض نهر "دونتز" قد يمكننا من البقاء في نتوء "دون- دونتز"، و مع ذلك ظللت راسخاً على موقفي، و كل ما وعدته به هو عدم إصداري أي أمر بالإنسحاب حتى أصل لمقر قيادتي ظهيرة اليوم التالي بشرط ألا يتضمن تقرير الموقف المسائي ضرورة القيام بأي عمل فوري.

و قد منحت كل تلك المساحة لمقابلتي مع "هتلر" ليس فقط بسبب الأثر الحاسم لها على نتيجة حملة ذاك الشتاء و لكن لأنني وجدته كذلك من نواحٍ عدة مطابقاً لموقفه و صعوبة دفعه للموافقة على أي شيء لا يتوافق و رغباته الخاصة.

تطورات الأحداث حتى نهاية فبراير:

سيكون من الخطأ إفتراض – فقط لأننا نجحنا و بعد جهد مضنٍ في الحصول على موافقة "هتلر" على إخلاء شرق حوض نهر "دونتز" و هو ما مكننا بدوره من نقل الجيش الرابع بانزر إلى جناحنا الغربي – أن التهديد المحدق بالجناح الجنوبي الألماني بأكمله تم القضاء عليه، فعملية "قفزة الضفدع" من الشرق إلى الغرب سيستغرق تنفيذ الجيش الرابع بانزر لها بالنظر إلى المسافة التي تشملها و حالة الطرق حوالي أسبوعين، و علاوة على ذلك لم يكن من المؤكد بأي وسيلة ما إن كانت مفرزة الجيوش "هوليدت" ستبلغ مواقعها على نهر "ميوس" في أمان خاصة و أن العدو المتقدم نحو جناحها العميق حول "فوروشيلوفجراد" قد صار بالفعل جنوب نهر "دونتز"، كما سيظل من غير المؤكد ما إن كان الجيش الأول بانزر قادراً على التمسك بالجبهة على نهر "دونتز الأوسط" أو إستعادتها إلى أي مدى، و فوق كل ما سبق كان الموقف في منطقة مجموعة الجيوش "ب" – إقليم "خاركوف" تحديداً – يتشكل على نحو ينذر بالشؤم حيث كانت كافة أنواع الفرص متاحة للعدو، فهو لم يعد قادراً فحسب على التقدم تجاه نقاط تقاطع نهر "دنيبر" في "دنيبربتروفسك" و "زابوروزهي" و قطع خطوط إتصالات مجموعة الجيوش "دون" هناك بل إنه كان من الممكن له عبور النهر و سد مجراه من جهة الغرب، وبالتالي سيصير من الضروري إلى جانب نقل الجيش الرابع بانزر إلى الجناح الغربي لمجموعة الجيوش تشكيل مجموعة جديدة للقوات تحل محل الجيوش الحليفة التابعة لمجموعة الجيوش "ب" و التي تحول معظمها الآن إلى أشلاء.

في ظهيرة يوم السابع من فبراير وصلت إلى مقر قيادتي في "ستالين"، و كان الموقف على نهر "دون" قد تزايدت خطورته عقب سيطرة العدو على "باتايسك" – حي في "روستوف" على ضفة الجنوبية للنهر، و فوراً بمجرد عودتي أصدرت مجموعة الجيوش أمراً يقضي بالإنسحاب لما وراء نهر "دون" و بدء تحرك قيادة الجيش الرابع

بانزر – و معها ما تستطيع إتاحته من فرق – إلى الجناح الغربي، كما تسلمت مفرزة الجيش "هوليدت" تعليمات بالتراجع حتى خط "نوفوتشيركاسك-كامنسك".

في الثامن من فبراير أعلنت الطوارئ في "روستوف" و "فوروشيلوفجراد" – التي كان العدو قد خرج من رأس الكوبري الذي حصل عليه عندها - و دوت صافرات الإنذار فيهما، و صار موقف الجيش الأول بانزر – المنخرط الآن في القتال على نهر "دونتز الأوسط" - حرجاً بنفس الدرجة التي لم يتحقق بها النجاح الذي تمنيناه من هذا الجيش ضد العدو المتقدم عبر إمتداد النهر بين "ليسيتشانسك" و "سلافيانسك".

و حول "خاركوف" – في منطقة مجموعة الجيوش "ب" – كان يجري تشكيل مفرزة جيش جديدة بقيادة الجنرال "لانز"، و وُضع فيلق بانزر من سرايا الدفاع – و الذي ما يزال في طريقه للوصول – تحت إمرتها، و قد علمنا أن فرقة "رايخ" من سرايا الدفاع – و المفترض أن عليها تدمير العدو في "فولتشانسك" تحضيراً للهجوم جنوب غرب "إسيوم" – كانت في الواقع لم تحقق أي شيء من هذا القبيل، بل إنها على النقيض من ذلك تراجعت لما وراء نهر "دونتز"، و في تلك الظروف كان مؤكداً أنه لن يتم تنفيذ أي شيء من الهجوم الذي إقترح "هتلر" شنه بواسطة فيلق بانزر من سرايا الدفاع – و الذي كانت الفرقة "رايخ" هي التشكيل الوحيد المتاح له – بهدف تخفيف الضغط على جناحنا الغربي.

في التاسع من فبراير إستولى العدو على "بلجورود" و "كورسك" في منطقة مجموعة الجيوش "ب" شمال "خاركوف"، كما أنه كان يتقدم غرباً من جهة ثنية نهر "دونتز" حول "إسيوم"، و في الثغرة بين نهر "دنيبر" و الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش الوسطى – و التي كانت على بعد يسير شمال "كورسك" – بل يكن هناك فعلياً سوى مفرزة الجيش "لانز" – و التي كان إنتشارها في "خاركوف" محفوفاً بالمخاطر – و الجيش الثاني من مجموعة الجيوش "ب" بحالته السيئة غرب "كورسك".

و بالنظر لحقيقة أن العدو يمكنه الآن تنفيذ حركة تطويق واسعة النطاق عبر نهر "دنيبر" من جهة "دنيبروبتروفسك" كان من الواضح أنه بالرغم من الخطوات التي تم إتخاذها لنقل الجيش الرابع بانزر إلى الجناح الغربي إلا أن مجموعة الجيوش "دون" لن تكون قادرة على المدى الطويل على ضمان أمن خطوط إتصالاتها الخلفية بقواتها فقط، لذا يجب القيام بأمر جذري، و وفقاً لذلك أرسلت إلى الجنرال "زيتزلر" رسالة عبر

التلغراف طالبته فيها بنشر جيش جديد من خمس أو ست فرق على الأقل شمال "دنيبروبتروفسك" خلال الليلة القادمة و كذلك جيش آخرخلف جبهة الجيش الثاني – غرب "كورسك" تحديداً – للقيام بهجوم جنوباً، و قد قلت له أنه في سبيل إتمام ذلك يجب أن يحدث هناك تحسين جذري في كفاءة النقل نظراً لعدم قدرة التدفق البطئ للفرق الواصلة حتى تاريخه على تقديم أي شيء مفيد للموقف الحالي.

و صار الجنرال "زيتزلر" متمسكاً بإحتمال قدوم مساعدة حقيقية فعالة منذ الآن فصاعداً، فقد أمل في أن يتمكن في نهاية الأمر من تحرير ست فرق أخرى من مجموعتي الجيوش الشمالية و الوسطى و إرسالها إلينا بشكل أسرع مما كان عليه الحال حتى اللحظة، و كان العدد اليومي المتصور للقطارات هو ٣٧ بما يعني أنه صار بإمكاننا التعويل على إمتلاكنا لفرقة من الست الموعودة كل يومين، و بالنظر إلى إتساع الثغرة الحادثة في الجبهة الألمانية فإن تلك القوات لن تكون أكثر من بديلاً لسد الثغرة يجعلنا نتماسك في مواجهة أسوأ المخاطر حتى حلول موسم الطين – يعتمد وصولها في الوقت المحدد على تطورات الأحداث حول "خاركوف" – و الذي لا تمتلك مجموعة الجيوش أي تأثير عليه.

و في حين مثّل الجناح العميق لمجموعة الجيوش المصدر الرئيسي للقلق كان مجرى الأمور على جبهتيها كذلك غير مشجع بالمرة.

و قد كان على الجيش الأول بانزر – بقيادة الجنرال "فون ماكنسن" و رئاسة أركان العقيد "وينك" و مهمته إجبار العدو الذي عبر نهر "دونتز الأوسط" على التراجع – التعامل مع قوتين متفوقتين للعدو: **الأولى** و التي أتت عبر نهر "دونتز" في "فوروشيلوفجراد" كانت تحاول التقدم بين مفرزة الجيش "هوليدت" أثناء إنسحابها لنهر "ميوس" و الجيش الأول بانزر أثناء تقدمه تجاه نهر "دونتز" من جهة الجنوب، أما **الثانية** فكانت القوة التي عبرت نهر "دونتز" على طول خط "ليسيتشانسك- سلافيانسك" و تسعى الآن لنقل جهدها الرئيسي إلى جناحها الغربي على جانبي نهر "كرفوي تورتس"، و كان على الجيش الأول بانزر – و الذي كان معرضاً للتطويق من كلا جانبيه – التعامل مع المجموعتين المعاديتين بنجاح، و كانت وجهة النظر الخاصة بمجموعة الجيوش هو أنه يجب عليه توجيه الضربة الأولى على جناحه الغربي و هزيمة العدو في "سلافيناسك" قبل تحويل قوته نحو "فوروشيلوفجراد"، و لسوء الحظ تم إجبار الجيش الأول بانزر في بداية الأمر على ربط جزء من قواته بالمجموعة

الأخيرة و بالتالي لم يعد قوياً كفايةً لهزيمة العدو في "سلافيانسك"، و هذا بدوره عنى عدم إمكان وجود قوات كافية جنوب "فوروشيلوفجراد" لإعتراض تقدم العدو نحو جنوب الغرب.

و كما هو الغالب عادة في أوقات الأزمات تم تكثيف حالات الطوارئ واسعة النطاق بواسطة أي حالات هياج يتعرض لها شخص محدد، و على أساس القيام بعملية إستطلاعية قبل توجيه الفيلق ٤٠ بانزر لتدمير قوات العدو المتقدم من "سلافيانسك" قرر هذا الجيش أنه من المستحيل على الدبابات تطويق العدو في المنطقة غرب نهر "كريفوي تورتس" نظراً لأن الممرات المتقاطعة المشقوقة في ذلك الريف قد دفنتها الثلوج، و نتيجة لذلك قام الفيلق ٤٠ بانزر بزيادة أو تقليل هجماته على طول وادي النهر و شرقه، و نظراً لأن برد شتاء روسيا القارس يجعل من المستحيل فعلياً على القوات البقاء في الريف المفتوح ليلاً دار القتال في أغلبه حول المناطق المأهولة بالسكان في وادي نهر "كريفوي تورتس" و كان هدفه الأساسي السيطرة على مدينة "كراماتورسكايا" الصناعية، و مع ذلك فإنه لا يوجد أمل في معركة من هذا النوع في الحصول على القرار العاجل الذي كنا نحتاجه ضد العدو في "سلافيانسك" و تقدمت الفرقة ١١ بانزر – و التي كانت تقود الهجوم – بصعوبة شديدة.

و في حين إعتُبرت نية مجموعة الجيوش قطع طريق العدو من جهة نهر "دونتز" باوسطة تطويقه من جهة الغرب من قبيل السخف قام العدو بدفع قوات مدرعة قوية خلال الريف المزعوم عدم إمكان تخطيه غرب نهر "كريفوي تورتس" ليلة ١١ فبراير مخترقاً عند "جريشينو"، و مرة أخرى يتبين أن المفهوم الغربي لعدم إمكانية التخطي محدود الصلاحية عندما يتعلق الأمر بالروس – لأن السيور العريضة للعربات المدرعة الروسية سهّلت عليها التعامل مع الطين أو الثلج العميق الذين علقت بهما دباباتنا، و في "جريشينو" لم يكن العدو الآن فقط قد توغل عميقاً في جناح الجيش الأول بانزر و لكنه سدّ خط السكك الحديدية الرئيسي لمجموعة الجيوش من "دنيبروبتروفسك" إلى "كراسنوارميسكوي" كذلك، فقط خط السكك الحديدية إلى "زابوروزهي" ظل مفتوحاً و حتى في هذه الحالة تقلصت كفاءته بفعل حقيقة أن الجسر الكبير على نهر "دنيبر" و الذي دمره العدو في ١٩٤١ ما يزال مغلقاً أمام المرور، و نتيجة لذلك توجب علينا إعادة تحميل كل البضائع و لم تتمكن ناقلات الوقود من الوصول إلى الجبهة.

و في حين باتت الإمدادات إلى الجبهة و خاصة الوقود معرضة للخطر و واجه الجيش الأول بانزر تهديد تعرضه للتطويق من جهة الغرب حاول العدو في وقت متزامن تحويل جناحه من جهة الشرق بالقوات التي نفذت الإختراق قرب "فوروشيلوفجراد"، و بالأخص عمدت فرقة خيالة معادية إلى الإختراق عند تقاطع السكك الحديدية المهم في "دبالتسيفو" و الذي يقع ليس فقط بعيداً عن مؤخرة الجناح الأيمن للجيش الأول بانزر و إنما خلف الموقع الذي ستحتله مفرزة الجيش "هوليدت" على نهر "ميوس"، و على الرغم من إمكانية محاصرة هذا الفيلق في "دبالتسيفو" إلا أن تدميره أثبتت أنها مسألة صعبة و تستغرق وقتاً طويلاً على حساب المقاومة الضارية التي أبدتها المفرزة في القرى، و نتيجةً لذلك ظلت الفرقة ١٧ بانزر – و المطلوبة على وجه السرعة على الجناح الأيسر لهذا الجيش – مقيدة هنا لذلك الوقت.

على الجبهة الشرقية عادت لتوها القوات المدرعة السوفييتية من راحتها و إنهمكت في ملاحقة مفرزة الجيش "هوليدت" أثناء إنسحابها لنهر "ميوس"، و نتيجة لذلك صرنا بشكل مؤقت عاجزين عن سحب الفرق المدرعة العاملة مع المفرزة، و على الرغم من ذلك نجحت المفرزة في بلوغ مواقعها على نهر "ميوس" في ١٧ فبراير و من ثم تنظيم الدفاع هناك.

و على الجناح الغربي تبدت واضحة للعيان إمكانية وقف مدرعات العدو في "جريشينو" عبر توجيه الفرقة "فايكنج" لملاقاته بمجرد وصولها من نهر "دون"، و مع ذلك كانت تلك الأخيرة غير قادرة على القضاء على العدو بأي سرعة، و بصرف النظر عن تعرضها لإضعاف ملحوظ بفعل القتال الكثيف الذي خاضته مؤخراً فإنها كانت تعاني من نقص حاد في الضباط، و كانت هذه الفرقة تتكون من متطوعي سرايا الدفاع من بلدان البلطيق و بحر الشمال نظراً لفداحة خسائرها و التي قادت بدورها لضباط كافين حاملين للغات المناسبة، و بشكل طبيعي كان لذلك أثر سيئ على الكفاءة القتالية لما كان جوهر الجزء المفيد من القوات.

و في تلك الأثناء كان الجيش الرابع بانزر ما يزال يتحرك على الطريق و السكك الحديدية من نهر "دون السفلي" إلى الجناح الغربي و قد تعرض تقدمه للتأخير بشكل ملحوظ بفعل الحالة السيئة للطرق، و هكذا - و بصرف النظر عن حقيقة كون العدو موجوداً بالفعل على الجناح العميق للجيش الأول بانزر في "جريشينو" و قادراً على إرسال قوات جديدة لتعزيز تلك المتواجدة هناك – ظل الخطر المتمثل في الثغرة

الواسعة بين الجناح الأيسر للجيش الأول بانزر و إقليم "خاركوف" ميئوساً منه للأبد، ففي هذه المنطقة تمتع العدو بحرية حركة كاملة.

و قد كانت هذه التطورات الجذرية في منطقة مجموعة الجيوش بالأساس نتاج الطول المفرط للوقت الذي إضطرت فيه لترك قواتها أمام نهري "دون" و "دونتز" لتغطية إنسحاب مجموعة الجيوش "أ"، و منذ الآن فصاعداً أخذت قيادة مجموعة الجيوش التابعة لنا تراقب قطاع مجموعة الجيوش "ب" بحذر متزايد.

و العدو كان قادراً على – أثناء تأكده من حمايته في إتجاه "خاركوف" – التحرك جنوباً صوب "بافلوجراد" بالقوات التي أفادت التقارير عن تقدمها غرباً من "إسيوم"، و من "بافلوجراد" يمكنه مواصلة التقدم حتى نقاط تقاطع نهر "دنيبر" في "دنيبروبتوفسك" و "زابوروزهي" و بموجبه يقطع خطوط إتصالات مجموعة الجيوش عبر النهر، و الأكثر من ذلك أنه يمكنه السعي لتدمير مفرزة الجيش "لانز" و هي ما تزال قيد الإنتشار، و إن نجح في ذلك فسينفتح له الطريق عبر نهر "دنيبر" على كلا جانبي "كريمنتشج" و تبعاً لذلك سيتمكن من قطع الطرق الواصلة إلى شبه جزيرة القرم و نقاط تقاطع نهر "دنيبر" في "خيرسون"، و النتيجة المتمخضة عن ذلك ستكون تطويق الجناح الجنوبي الألماني بأكمله، و حتى لو حلّ موسم الطين – في نهاية شهر مارس عادة - معطلاً مثل تلك العملية واسعة النطاق فما يزال من المتوقع للعدو أن يستمر في السعي لتحقيق ذاك الهدف بمجرد إنتهاء هذا الموسم.

و في ضوء ما تقدم أرسلت إلى *القيادة العليا للجيوش الألمانية* في ١٢ فبراير تقديراً جديداً للموقف كي يتم تمريره إلى "هتلر"، و مستنداً إلى الإعتبارات الميدانية سالفة الذكر قمت بالتشديد على نقطتين:

الأولى تتمثل في النسبة و التناسب بين القوات، فقد أوضحت أنه على الرغم من محاولة العدو لمدة ثلاثة أشهر في إحداث أي تغيير على الجبهة الشرقية إما عبر تدمير الجناح الجنوبي أو عزله إلا أن توزيع القوات من جانبنا لا يزال بعيد عن النظر إلى تلك الحقيقة، و حتى لو نظر المرء إلى الأعداد الكبيرة من الفرق المرسلة إلى مجموعة الجيوش "دون" في الشهور الأخيرة إلا أن نسبة القوات الألمانية إلى السوفييتية في منطقة مجموعة الجيوش "ب" ما تزال ١ : ٨ على الأقل في حين أنها في منطقتي مجموعتي الجيوش الشمالية و الوسطى ثابتة عند ١ : ٤ ، و الآن من المفهوم جيداً أنه

على *القيادة العليا للجيوش الألمانية* التروي قبل أن تخلق نقاط أزمة جديدة بواسطة سحب قوات من هاتين المجموعتين الأخيرتين، و علاوة على ذلك كانت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* محقة عندما أوضحت – في ردها على مقترحاتي السابقة بشأن ذات الموضوع – أن كامل التعزيزات المتاحة من القوات و الأسلحة تقريباً يُرسل إلى مجموعة الجيوش "دون" نظراً لأن إحتماليات إندلاع القتال في مجموعتي الجيوش الشمالية و الوسطى أقل منها، و مع ذلك يمكننا أن نرد بحسم على كل ذلك بأن الفرق التابعة لمجموعة الجيوش دون قد خاضت قتالاً كثيفاً و مريراً لأشهر كاملة و هو ما لا ينطبق على مجموعتي الجيوش الأخرتين شمالاً، و بجانب ذلك كانت فرقنا تقاتل في الريف المفتوح في حين تشكلت مجموعتي الجيوش الوسطى و الشمالية أصلاً في أماكن مهيئة لذلك.

و على أية حال كان العامل الحاسم هو أن الجهد الرئيسي للعدو كان موجهاً ليس نحو القطاعين الشمالي و الأوسط للجيوش الألمانية و إنما نحو جناحها الجنوبي ، و بذا صار من غير المقبول تركنا في مواجهة هذا التفوق العددي للعدو.

و يمكن إعتبار أنه حتى لو نجحنا في تفادي خطر التطويق من جهة نقاط تقاطع نهر "دنيبر" فإن العدو سيظل لم يفقد ذرة واحدة من هدفه البعيد المتمثل في تدمير الجناح الجنوبي عبر تطويقه من جهة ساحل البحر أمراً مفروغاً منه، و لهذا السبب يجب العمل مهما كانت التكاليف على تحسين نسبة القوات على الجناح الجنوبي الألماني حتى لو لزم الأمر تقديم تنازلات من جانب الأجزاء الأخرى للجبهة أو مسارح الحرب الأخرى.

و إلى جانب التشديد على تلك المسألة الهامة المتعلقة بتوزيع القوات أوضحت كذلك *للقيادة العليا للجيوش الألمانية* وجهة نظري بشأن الإدارة اللاحقة سير العمليات على الجناح الجنوبي الألماني، و هو ما سنتعرض له في الفصل الخاص بالعملية "قلعة".

خلال ليلة ١٢ فبراير نقلت مجموعة الجيوش – و التي تمت تسيمتها في تلك الأثناء مجموعة الجيوش الجنوبية – مقر قيادتها إلى "زابوروزهي" لكي تمتلك أفضل رقابة ممكنة على المعركة التي ستصير قريباً نقطة حاسمة.

و في ليلة ١٣ فبراير تسلمنا توجيهاً من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* كان بمثابة تتمة لما قدمته من مقترحات في التاسع من فبراير، و قد أفاد – متوافقاً مع تلك المقترحات – بتموضع جيش جديد على خط "بولتافا- دنيبروبتروفسك" و آخر خلف الجناح الجنوبي

للجيش الثاني، و مع ذلك لم يتشكل أيٌ من الجيشين أبداً، كما أن الجيش المفترض تموضعه خلف الجيش الثاني لم يصل على الإطلاق، و في حين تسلم الجيش الثاني القليل من التعزيزات إلا أنه جرى تسليمها له مقابل التعزيزات الموعود بها أصلاً، و أما الجيش المفترض تموضعه على خط "بولتافا- دنيبروبتروفسك" فكان هو مفرزة الجيش "لانز" و المشتركة في القتال بالفعل في "خاركوف"، و تم وضعها فيما لاحقاً تحت قيادة مجموعة الجيوش الجنوبية و معها القطاع المتضمن لـ"بلجورود" من مجموعة الجيوش "ب"، و تم نقل الجيش الثاني إلى مجموعة الجيوش الوسطى و إنسحبت قيادة مجموعة الجيوش "ب" أخيراً من العمل في الجبهة الشرقية.

المرحلة الرابعة: الهجوم الألماني المضاد:

و هكذا بلغت الأزمة في منطقة مجموعة الجيوش الجنوبية – حوالي نصف فبراير ١٩٤٣ - ذروتها مجدداً، و حلّ معها خطر تطويق الجناح الجنوبي الألماني بأكمله بحركة تطويقية واسعة النطاق من القطاع المجاور في الشمال مهدداً بالتشكل عاجلاً أو آجلاً، و لكن – و بشكل متناقض – ففي تلك التربة المخصبة بالأزمة غُرست جذور الهجوم المضاد.

بداءةً ما تزال الصورة تغلب عليها الكآبة.

لقد كانت و بلا شك خطوة إنسحاب مجموعة الجيوش "ب" في تلك اللحظة الفرقة من القيادة على الجبهة بالغة الصعوبة، و برغم عدم إمتلاكها أي قوات – بصرف النظر عن الجيش الثاني – سوى بقايا محطمة من وحدات متنوعة إلا أنها ما تزال تمثل رابطاً أساسياً في تسلسل القيادة على الجبهة الشرقية، و إبعادها تسبب في إحداث صدع مفتوح في الجبهة بين مجموعتي الجيوش الوسطى و الجنوبية.

و الأكثر من ذلك أن قيادة مجموعة الجيوش الجنوبية لم تتولّ بعد مسئولية قطاع "خاركوف" الذي صار في عهدتها الآن – تحتله مفرزة الجيش "لانز" – نظراً لعدم تأسيس أي قنوات إشارة و إتصال، و كان قطاع "خاركوف" على وشك الضياع قبل أن نتولى المسئولية عنه، و حقيقة سرعة إتمام عملية تولي المسئولية ترجع إلى الأداء

المرتفع المستوى و المتواصل لفوج الإشارة التابع لمجموعة الجيوش فضلاً عن الطريقة المتأنية التي أدار بها ضابط الإشارة التابع لنا الجنرال "ميولر" إتصالاتنا، ناهيك عن المساعدة المعتادة من صديقي الجنرال "فلجيبل"[1] ضابط الإشارة المسئول عن الفيلق.

و لكن على الرغم من أن إزالة قيادة مجموعة الجيوش "ب" قد قاد إلى تعقيد إدارة العمليات في تلك البقعة الدقيقة من الجبهة الشرقية إلا أنها ترتب عليها غرض مفيد وحيد، فقد مكّن وضع مفرزة الجيش "لانز" تحت قيادة مجموعة الجيوش الجنوبية قيادتنا من ممارسة القيادة الحصرية في ذلك المكان الحاسم و الوقت الحاسم، و قد ساهمت هذه الإزالة في الواقع في النجاح النهائي الذي أحرزته حملة شتاء ١٩٤٢/٤٣.

و في تلك الأثناء صارت منطقة "خاركوف" مصدر قلق لمجموعة الجيوش حتى و لو بقيت مجموعة الجيوش "ب" في القيادة هناك لأيام قليلة أخرى.

و كان "هتلر" قد أمر مفرزة الجيش "لانز" بالتمسك بـ"خاركوف" مهما كانت التكلفة — و هو الأمر الذي صار يهدد بالتحول لمسألة مظهر كما كان الحال في "ستالينجراد" من قبل، و الأكثر من ذلك أنه كان على المفرزة أن تتقدم في إتجاه "لوسوفايا" برفقة الفيلق بانزر من سرايا الدفاع بغرض تخفيف الضغط عن الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش الجنوبية، و كان الفيلق بانزر يمتلك فرقتين إثنتين متبقيتين له من أصل ثلاثة فرق.

و بشكل واضح كان بمقدور مفرزة الجيش "لانز" إتمام مهمة واحدة فقط من الإثنتين المكلفة بهما بما في حوزتها من قوات، فهي يمكنها فقط إما القتال حول "خاركوف" أو تقديم المساعدة للجناح الأيسر لمجموعة الجيوش الجنوبية، و حينئذٍ إقترحت على "هتلر" أن تبتعد المفرزة عن "خاركوف" في ذلك الوقت و تحاول بدلاً عن ذلك هزيمة العدو جنوب المدينة، و بهذه الوسيلة يمكن القضاء مؤقتاً على خطر تطويق مجموعة الجيوش عبر نهر "دنيبر" على جانبي "كريمنتشج" كليهما، و من جهة أخرى كان من المنطقي أن نفترض أنه يمكننا أن نعتمد على أنفسنا في التعامل مع العدو الساعي نحو نقاط تقاطع نهر "دنيبر" في "دنيبروبتروفسك" و "زابوروزهي" بواسطة تحريك الجيش الرابع بانزر، و بمجرد أن تنتهي مفرزة الجيش "لانز" من أمر العدو جنوب "خاركوف" يمكنها أن تهتم حينئذٍ بإعادة إحتلال المدينة.

[1] إريتش فلجيبل : عسكري ألماني عاش بين ١٩٠٥ — ١٩٤٤، و كان ممن شاركوا في محاولة إغتيال "هتلر" في ٢٠ يوليه ١٩٤٤ و أعدم بسبب ذلك عقب محاكمة عسكرية.

و مع ذلك لم يناسب هذا الحل "هتلر" و الذي صارت "خاركوف" بالنسبة له – و هي رابع أكبر مدينة في الإتحاد السوفييتي – رمزاً لمظهره، و في ١٣ فبراير أصدر أمراً صارماً لمفرزة الجيش "لانز" – عبر مجموعة الجيوش "ب" – بالتمسك بـ"خاركوف" مهما كانت التكلفة.

و بناء عليه طلبت من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* أن تخبرني ما إن كان سيستمر سريان هذا الأمر بعد صيرورة "لانز" تحت قيادتي و ما إن كان يتوجب علينا التمسك به حتى لو كان فيلق بانزر من سرايا الدفاع مهدداً بالتطويق في "خاركوف"، كما طلبت الرد منها على تقدير العام الذي أرسلته إلى "جزيسكو" اليوم الماضي، و قد أخبرني في هذا الرد الجنرال "زيتزلر" أن "هتلر" قد وصف التقدير سالف الذكر بأنه "مبالغ فيه بصورة كبيرة" مما دفعني للرد بحزم بأنني أرى من الصواب لأي مجموعة جيوش أن يمتد تفكيرها من أربعة إلى ثمان أسابيع مقبلة و ذلك على عكس القيادة العليا التي بدا أنها لا تفكر فيما يبعد عن ثلاثة أيام قادمة.

و بالنسبة للموقف في "خاركوف" فقد أثبتت الظروف السائدة أنها أقوى من إرادة "هتلر" حيث أخلى فيلق بانزر من سرايا الدفاع المدينة – و الذي كان مهدداً بالتطويق فيها – في ١٥ فبراير بالمخالفة لأوامر "لانز"، و كانت مجموعة الجيوش "ب" – و التي كانت قد أبعِدت عن القيادة في ذاك الوقت - هي من أخبرنا بتلك الحقيقة المفروغ منها، و لو كان الإخلاء تم بأمر من أحد جنرالات الجيش لكان أحاله "هتلر" فوراً إلى محاكمة عسكرية، و لكن لكون هذا التصرف قد وقع من الفيلق بانزر من سرايا الدفاع لم يحدث أي شيء على الإطلاق، و على الرغم من ذلك تم إستبدال قائد المفرزة بالجنرال "كامف" إستناداً لكون "لانز" منتمياً إلى المشاة الجبليين أما "كامف" فهو ضابط دبابات متخصص.

و بينما كان الموقف حول "خاركوف" يتدهور بشدة خلال فترة تسليم مجموعة الجيوش "ب" المنطقة لمجموعة الجيوش الجنوبية قويت كذلك إحتمالية تطويق تلك الأخيرة و قطعها عن خطوط إتصالاتها عبر نهر "دنيبر".

و كان قد تم إبلاغنا في العاشر من فبراير أن العدو – تماماً كما كنا نتوقع منه منذ زمن خلا – يتقدم بقوة صوب "بافلوجراد" و "دنيبروبتروفسك" من المنطقة الواقعة غرب "إسيوم"، و إن نجح في بلوغ تقاطع "لوسوفايا" أو "بافلوجراد" – أو بدلاً عنهما محطة

"سينسينيكوفو" جنوب غرب "بافلوجراد" – فسينطق خط السكك الحديدية المار عبر "بولتافا".

و في نفس الوقت تقلصت سرعة وصول التعزيزات التي وعدت بها *القيادة العليا للجيوش الألمانية* مجدداً، فبدلاً عن ٣٧ قطار نقل القوات يومياً صار العدد ستة فقط في ١٤ فبراير.

و علاوة على ذلك أعلنت مجموعة الجيوش الوسطى معاناتها في الوقت الحالي من نقص القوات الضرورية للقيام بأي محاولة تعاون جدية مع مجموعة الجيوش الجنوبية على طول الصدع الموجود بيننا، و هي ستكون أكثر من سعيدة بشكل واضح إن نجحت في إيقاف الجيش الثاني و الذي كان يهوي في هوة ممتدة لمسافة بعيدة غرب "كورسك".

و قد صار الموقف حرجاً جداً مما دفع "هتلر" إلى أن يقرر زيارتي في مقر قيادتي، و ربما تكون تعليقاتي المتنوعة قد لفتت إنتباهه، و بقدر ما كنت مسروراً لعرض أفكاري في حضرته شخصياً و إطلاعه على خطورة موقفنا إلا أنه كان من الصعب بمكان ضمان أمنه الشخصي في مدينة "زابوروزهي" الصناعية المحتلة و التي كان العدو يتقدم صوبها خاصةً و أن "هتلر" قد عبّر عن رغبته في البقاء لبضعة أيام، و قد أقام برفقة طاقمه – المكون من رئيس هيئة الأركان العامة و الجنرال "جودل" إضافة إلى طاهيه الخاص – في المبنى الرئيسي لقيادتنا و الذي تم إغلاق المنطقة المجاورة له بإحكام، و حتى بعد ذلك لم يكن الموقف مطمئناً بدرجة كبيرة و لم يمر وصول "هتلر" في سرية فقد تعرف عليه كل الجنود و موظفو الحزب أثناء مروره بالسيارة من المطار إلى "زابوروزهي"، و كانت القوات الوحيدة التي نمتلكها فعلياً هي سرية دفاعية و عدد قليل من الوحدات المضادة للطائرات، و كان العدو قد شارف على الإقتراب من المدينة في زمن مضى بحيث أمكنه قصف المطار الواقع شرق نهر "دنيبر".

وصل "هتلر" مقر قيادتي ظهيرة ١٧ فبراير، و قد بدأت مقابلتي معه بمنحه العرض التالي للموقف:

وصلت مفرزة الجيش "هوليدت" في نفس اليوم لمواقعها على نهر "ميوس"، و العدو يلاحقها عن قرب.

أوقف الجيش الأول بانزر العدو في "جريشينو" و لكنه لم ينته منه بعد، و لم تنحسم بعد المعركة الدائرة ضد قوات العدو في خط "ليسيتشسانسك- سلافيانسك" في منطقة "كراماتورسكايا".

إنسحبت مفرزة الجيش "لانز" في إتجاه جنوب غربي نحو قطاع "موش" عقب إخلاء "خاركوف".

و بعد ذلك أخبرت "هتلر" بنواياي حول إخراج فيلق بانزر من سرايا الدفاع من "خاركوف" تاركاً مفرزة الجيش "لانز" فقط للسيطرة على المدينة.

و كان على فيلق بانزر من سرايا الدفاع التقدم في إتجاه جنوب غربي من منطقة "كراسنوجراد" في الإتجاه العام نحو "بافلوجراد" و بالتالي يلتقي بالجيش الرابع بانزر أثناء تقدمه هناك، و ستكون مهمة تلك القوات تدمير العدو المتقدم عبر الثغرة الواسعة بين الجيش الأول بانزر و مفرزة الجيش "لانز"، و بمجرد إتمامها تلك المهمة و إنعدام أي خطر بتطويق الجيش الأول بانزر و مفرزة الجيش "هوليدت" علينا أن نتوجه للهجوم على منطقة "خاركوف".

و قد رفض "هتلر" في بداية الأمر مناقشة تسلسل العمليات الذي كنت أقترحه، فهو لم لكن ليتقبل وجود قوات قوية تتقدم خلال المنطقة الواقعة بين الجيش الأول بانزر و مفرزة الجيش "لانز"، كما أنه خشي من أن تعلق القوات المشاركة في العمليات التي إقترحتها بين نهري "دنيبر" و "دونتز" في الطين، و لما كان فصل الشتاء قد شارف على الإنتهاء كان ذلك إعتباراً يجب وضعه في الحسبان، و لكن يكمن السبب الرئيسي في رد الفعل السلبي لـ"هتلر" في الرغبة في إعادة إحتلال "خاركوف" في أقرب وقت ممكن – و الذي أمِل في أن يكون وقت نشر الفيلق بانزر من سرايا الدفاع لكامل فرقه، و في الواقع كان الموقف يقتضي أن يسبق أي هجوم تجاه "خاركوف" عملية إزالة التهديد المحدق بنقاط تقاطع نهر "دنيبر".

و إن لم يتم الإبقاء على خطوط الإتصالات عبر النهر مفتوحة فلن يستمر أيٌ من الجيش الأول بانزر أو مفرزة الجيش "لانز" في الوجود، و الأكثر من ذلك أن أي هجوم على "خاركوف" يحتاج لتعاون مع جزء من الجيش الرابع بانزر على الأقل، و حيث أنه من المؤكد أنه حينما يضع ذوبان الثلوج حداً للعمليات فإن ذلك سيحدث في المنطقة الواقعة بين نهري "دونتز" و "دنيبر" قبل المنطقة الريفية الواقعة حول "خاركوف" و شمالها، و

من ثم يمكن للمرء منطقياً أن يأمل في أن نكون ما نزال نمتلك الوقت للهجوم على "خاركوف" بعد أن ندحر العدو المتقدم الآن بين الجيش الأول بانزر و مفرزة الجيش "لانز"، و من جهة مقابلة كان من المشكوك فيه ما إن كان من الممكن تنفيذ العمليتين بطريقة عكسية.

و بسبب العناد الذي أضفاه "هتلر" على وجهة نظره فقد تلت ما سبق مناقشة أخرى غير قابلة للإنهاء، و قد وضعت أخيراً حداً لها عندما ذكرت أنه طالما يتوجب أولاً و في كل الأحوال على الفيلق بانزر من سرايا الدفاع التموضع على طريق"خاركوف-كراسنوجراد" – و هو ما لن يتم حتى ١٩ فبراير – فلا ينبغي إتخاذ القرار النهائي بشأن التوجه شمالاً أو جنوباً قبل هذا التاريخ، و ربما يكون هذا الحل المتلكئ من طرفي ناجماً عن معرفتي بأن الجيش الرابع بانزر لن يكون متاحاً قبل ١٩ فبراير، كما أنني شعرت بالإنصاف في إفتراضي أن "هتلر" سيلجأ للمنطق بفعل سير الأحداث التي يراها بنفسه الآن.

في ١٨ فبراير قابلت "هتلر" مرة أخرى، و كان العدو قد هاجم بقوة على نهر "ميوس" و إخترق جبهة مفرزة الجيش "هوليدت" و هي قيد الإنشاء في نقاط عدة، و الأكثر من ذلك ما يزال من غير الممكن تدمير فيلق الخيالة المعادي المحاصر خلف هذه الجبهة في "دبالتسيفو"، و قد إقترحت على "هتلر" أنه بدلاً عن القيام بذلك فإنه ما يزال من الضروري على وجه عاجل إنسحاب وحدات المشاة الميكانيكي من هنا إلى الجناح الغربي حتى لو لم يكن ذلك ممكناً في تلك اللحظة تحديداً، كما أن الفيلق الميكانيكي المعادي الموجود في الجناح العميق للجش الأول بانزر لم ينهزم بعد لذا ما تزال القوات الموجودة هناك مقيدة، و من ناحية أخرى لم يكن هناك أي دليل قاطع على أن العدو الموجود في الثغرة الواسعة بين الجيش الأول بانزر و مفرزة الجيش "لانز" كان يتحرك بقوة صوب نقاط تقاطع نهر "دنيبر"، فقد تم التعرف على فرقته ٢٦٧ مشاة جنوب "كراسنوجراد" كما أنه إستولى على "بافلوجراد" بواسطة الفرقة ٣٥ حرس – و المتضمنة لكتيبة دبابات، و كانت هناك فرقة إيطالية متواجدة هناك – متبقية من الجيش الإيطالي السابق – ما لبثت أن هرعت إلى الإنسحاب بمجرد إقتراب العدو.

و قد أوردت مفرزة الجيش "لانز" تقارير تفيد أن وحدات المركبات غير المجنزرة التابعة لفرقة "رأس الموت" من سرايا الدفاع قد علقت تماماً بين "كييف" و "بولتافا"، و هو ما قاد إلى عدم القيام بالهجوم شمالاً لإستعادة "خاركوف" و الذي كان إهتمام "هتلر"

الأول، و إن لم يكن الفيلق بانزر من سرايا الدفاع قادراً حتى على التمسك بالمدينة بدون فرقة "رأس الموت" فسيكون من الصعب إعادة إحتلال المدينة عندما يكون الوقت الذي ستكون تلك الأخيرة متاحة فيه لا يمكن توقعه خلال الوقت الحالي، و الشيء الوحيد الذي يمكننا فعله بناء على ذلك هو الهجوم جنوباً و تدمير العدو المتقدم عبر الثغرة بين مفرزة الجيش "لانز" و الجيش الأول بانزر، و لما كان من الواجب توقع حدوث الذوبان في تلك المنطقة في المستقبل القريب جداً لم يكن أمامنا أي وقت لنخسره، و في تلك الظروف وافق "هتلر" على فكرتي بشأن توجيه الفرقة "رايخ" فوراً – بإعتبار أول تشكيل متاح تابع للفيلق بانزر من سرايا الدفاع – في إتجاه "بافلوجراد"،و كان على فرقة "الليبستاندرت" تزويد الجيش الرابع بانزر بالحماية من أي هجوم معادي في إتجاه الجنوب إنطلاقاً من "خاركوف"، و في كل الأحوال كان علينا أن نأمل الآن في تمكن الجيش الرابع بانزر – المدعم بالفرقة "رايخ" – من النجاح.

و عقب هذا القرار عرضت على "هتلر" رؤيتي حول الموقف بشكل هام، و أوضحت له أننا حتى لو عمدنا إلى – و هو ما لم يكن ينبغي علينا فعله – تفادي أي تطورات ليست في صالحنا ريثما يحل موسم الطين فإنه ما يزال علي التفكير بشكل متعدي، فالطين لن يعطينا أي فسحة من الوقت أكثر من أسابيع قليلة، و بعدها ستجد مجموعة الجيوش نفسها أمام جبهة طولها ٤٧٠ ميل عليها التمسك به و التي يوجد لها – بما فيها القوات التابعة لمفرزة الجيش "لانز" – ٣٢ فرقة فقط متاحة، و على اليد الأخرى فإنه يعد أمراً مفروغاً منه أنه بمجرد إنتهاء موسم الطين سيقوم العدو مجدداً بتوجيه جهده الرئيسي ضد الجناح الجنوبي الألماني ساعياً لتطويقه على البحر الأسود.

و قد أخبرت "هتلر" أن أي جبهة بطول ٤٧٠ ميل تدافع عنها ٣٢ فرقة فقط يمكن إختراقها بواسطة عدو أقوى في أي نقطة يريد، و فوق كل ذلك لن يتمكن أحد من منعه من التطويق التدريجي لمجموعة الجيوش إلى جهة الشمال حتى بلوغه بحر آزوف أو البحر الأسود.

و هكذا ما إن ينتهي موسم الطين ينبغي على مجموعة الجيوش ألا تظل جامدة في مكانها حتى ينجح العدو في الإختراق في أي مكان أو يطوقها في الشمال، و يمكنها أن تظل في مكانها فقط إن كانت *القيادة العليا للجيوش الألمانية* قادرة على شن هجوم في توقيت مناسب لتخفيف الضغط على الجبهة الممتدة بعيداً في الشرق.

و كان غرضي من وراء عرض تلك الأفكار على "هتلر" هو إقناعه بإسناد العمليات إلى أسس بعيدة الأمد لمرة واحدة، و مع ذلك كان قطعياً أنه لم يكن يمتلك أي نوايا لإتعاب نفسه بفعل ذلك، و بينما كان معترفاً بأن مجموعة الجيوش أضعف من أن تدافع عن تلك الجبهة في العام التالي إلا أنه لم يتقبل نسبة القوات التي عرضتها له، و هو لم ينازع في وجود ٣٤١ تشكيل معادي مواجه لنا و لكنه إعتبر أنها لم تعد ذات قيمة، و عندما إعترضت بأن فرقنا أيضاً بلغت منتهاها في القوة ردّ عليّ بأنه سيتم إعادة شحذ قواها و إمدادها بأسلحة جديدة خلال موسم الطين – و هو ما حدث جزئياً، و مع ذلك لم يعرف "هتلر" أنه خلال ذات الفترة سيقوم العدو بإحضار نصف مليون رجل للجبهة و معهم ١٩٢٦ دبابة.

لم يعترف "هتلر" بأن العدو بهذا الرقم من الدبابات القادر على إنتاجه في شهرين – و هي المدة التقريبية لموسم الطين – سيكون قادراً على إعادة تجهيز ٦٠ لواءً مدرعاً، و بدلاً عن ذلك شعر "هتلر" بالإهتمام تجاه التشديد على الأهمية الحاسمة لمنطقة نهر "دونتز" بالنسبة لإنتاج الدبابات السوفييتية إن سقطت في يد العدو، و بالنسبة لإدارة الألمان للعمليات في الشرق في ١٩٤٣ فقد رأى "هتلر" لا يمكنه سحب أي قوات من المسارح الأخرى للقيام بهجوم واسع النطاق، و لا يمكنه إيجادها من الوحدات المنقولة حديثاً، و من جهة أخرى إعتقد "هتلر" أنه بالإمكان القيام بعمليات محدودة و محددة النطاق بمساعدة الأسلحة الجديدة، و هذا قد أعاد "هتلر" لموضوع الأسلحة و إنتاجها و ثبتت إستحالة دفعه للكلام عن نواياه بشأن حملة الصيف.

و قد بدا و كأننا نعيش في عالمين مختلفين.

في ١٩ فبراير تم عقد مؤتمر آخر و هذه المرة طُلب من الفيلد مارشال "فون كليست" الحضور، و قد بدا أن إقامة "هتلر" في مقر قيادتي قد أثر عليه إلى حدٍ ما بعد كل ما سبق بشأن الأخطار المحدقة بالجناح الجنوبي الألماني حيث أنه أعلن عن نقل مجموعة الجيوش "أ" منذ الآن فصاعداً لكل ما يمكنها فصله من قوات لصالح مجموعة الجيوش الجنوبية، و مما قاله أنه منذ الآن فصاعداً يتم إعتبار مجموعة الجيوش "أ" مخزن قوات مجاور لجبهة مجموعة الجيوش الجنوبية و هو ما يعني فرضاً أن خطته بشأن إعادة رأس كوبري "كوبان" للصورة تم وضعها على الرف، و لسوء الحظ كشف المستقبل عن أن هذا "المخزن" لن يُستغلّ كأي شيء متاح آخر مما سمحت به إمكانات النقل

خلال شبه جزيرة القرم، و سيستمر رأس كوبري "كوبان" في عزلته تلك، و قد علمتنا التجارب أنه لا شيء أصعب من تحرير القوات من أي مكان صارت مقيدةً فيه بالخطأ.

و قد زاد التوتر في ذلك اليوم عندما وصل العدو محطة السكك الحديدية في "سينسينوكوفو" بقوات كبيرة، و نتيجة لذلك لم يغلق العدو مؤقتاً خط الإمداد الرئيسي للجناحين الأوسط و الأيمن لمجموعة الجيوش و حسب بل إنه صار على بعد أقل من ٣٥ – ٤٠ ميلاً من مقر قيادتي حيث يقيم فوهرر الرايخ كذلك، و نظراً لعدم وجود أي قوات للتدخل على الأرض شعرت بالراحة إزاء رحيل "هتلر" عائداً للوطن في ظهيرة نفس اليوم، و كان من المقنع حرمان دبابات العدو لنا في اليوم التالي من إستخدام مطارنا القابع شرق نهر "دنيبر".

و آخر نقطة أوضحتها لـ"هتلر" كانت حاجتي لكافة الفرق المدرعة من أجل الضربات التي أنتوي توجيهها على الجناح الغربي، و هو ما عنى وجوب نقلها من مواقعها على نهر "ميوس"، و إن كان ممكناً التمسك بتلك الأخيرة حتى التو فالسبب الوحيد لذلك هو أن الكتلة الرئيسية لقوات العدو المتقدمة تجاهها و الواجب عليها إجتياز عنق زجاجة "روستوف" لم تصل بعد، و كان من غير الممكن إغفال إحتمالية مهاجمة العدو لمنطقة نهر "دونتز" من جهة الشرق، و لا يمكن القيام بأي شيء للحيلولة دون حدوث ذلك حتى نزيل أولاً خطر تطويق مجموعة الجيوش و قطعها عن خطوط إتصالاتها الخلفية، و قد بدا "هتلر" متفهماً لتلك النقطة.

و على أية حال، كان لدي إنطباع بأن زيارة "هتلر" لمقر قيادتي قد ساعدت في إحاطته علماً بخطر التطويق المحدق بالجناح الجنوبي للجبهة الشرقية، و على الرغم من ذلك فقد رُويت قصة بعد ذلك بفترة وجيزة بواسطة *القيادة العليا للفيرماخت* أو الجنرال "شمندت" أن الغرض الحقيقي من رحلة "هتلر" كان "إبداء الدعم لمجموعة الجيوش"، و لا أعتقد أن مقر قيادتي كان في حاجة لذلك، و حتى لو كنا غير مستعدين لتنفيذ ما طلبه "هتلر" و قاتلنا بضراوة من أجل كل شبر من الأرض بصرف النظر عن عواقب "التماسك مهما كانت التكلفة" فلا أعتقد أنه سيكون من السهل إيجاد قيادة أخرى ستتشبث بشكل أكثر صلابة مما فعلناه – و هي بين فكي ضرغام أزمات عديدة – بإرادتها في تحقيق النصر، و من هذه الناحية لم يكن هناك أي إختلاف بيني و بين طاقم القيادة العامل معي.

المعركة بين نهري "دونتز" و "دنيبر":

في ١٩ فبراير أمرت مجموعة الجيوش الجيش الرابع بانزر بالإنتشار تمهيداً لشن هجوم مضاد على العدو الذي إجتاز خط "بريشتشبينو- بافلوجراد-جريشينو" لتطويق مجموعة الجيوش من جهة نهر "دنيبر".

في ٢٠ فبراير صارت صورة نوايا العدو العملياتية واضحة تماماً و أثبتت أنها كما توقعت بالضبط.

فقد هاجم العدو على جبهتنا الشرقية مواقع مفرزة الجيش "هوليدت" على نهر "ميوس" مخترقاً إياها في ثلاث نقاط رئيسية.

و قد بدا أنه قام بإشراك جيش قزامه ثلاث فرق مشاة و فيلقي دبابات و بعض الخيالة إضافة إلى قواته في "جريشينو" و "كراماتورسكايا" في سبيل قطع خطوط إتصالات عبر نهر "دنيبر".

و بشكل متزامن كان العدو يحاول إختراق الجبهة الضعيفة لمفرزة الجيش "كامف" – تم إستبدال الجنرال "لانز" بالجنرال "كامف" – من جهتي غرب و جنوب غرب "خاركوف"، و علاوة على ذلك كان يحاول تطويق هذه المفرزة على جناحها الشمالي الغربي – بالتقدم نحو الشمال – و ذلك بغية تطويقها كليةً.

و في مواجهة تلك التطورات كان على مجموعة الجيوش إتمام أمرين مختلفين، فعليها محاولة التمسك بالجبهة الشرقية على نهر "ميوس" بأقصى ما يمكنها بالرغم من أن مسألة ما إن كانت قادرة على ذلك بالقوات المحدودة التي تمتلكها و بدون أي إحتياطات مفتوحة بلا حل.

ثانياً كان عليها أن تستخدم الجيش الرابع بانزر لإلحاق الهزيمة بالعدو بسرعة في المنطقة بين الجيش الأول بانزر و مفرزة الجيش "كامف" للحيلولة دون عزلها عن نقاط تاقطع نهر "دنيبر"، و إن أخفقت في هذا فستتعطل أغلبية قوات مجموعة الجيوش بسبب نقص الوقود.

و بمجرد أن تصير هزيمة العدو ممكنة بين نهري "دونتز" و "دنيبر" فسيكون ممكناً لمجموعة الجيوش أن تعتمد على كيفية تطور الموقف في ذات التوقيت سواء أمكننا التقدم على الفور شمالاً بكامل قواتنا المتحركة لإستعادة الموقف بالنسبة لمفرزة الجيش "كامف" أم لا، و من جهة أخرى قد يكون ضرورياً بداءة للجيش الرابع بانزر أن يخوض قتالاً آخر في منطقة الجيش الأول بانزر إن كان الأخير ما يزال لم ينجح في التعامل بنفسه مع العدو في "جريشينو" و "كراماتوسكايا".

و على أية حال ينبغي علينا التماسك على جبهتنا الشمالية – تحديداً منطقة مفرزة الجيش "كامف" – خلال هذا الوقت، و كل ما يمكن تكليف الأخيرة تلك بالقيام به في الوقت الراهن هو سد الطريق الواصل إلى نهر "دنيبر" – و ليكن الجزء الممتد خلال"كراسنوجراد" إلى "دنيبروبتروفسك" أو خلال "بولتافا" إلى "كريمنتشج" – بإبداء أشد مقاومة ممكنة، و لو سعى العدو لبلوغ "كييف" إن سنحت له الفرصة – و هو ما زاد من قلق "هتلر" – فلن يمكننا سوى أن نتمنى له رحلة سعيدة، فمثل تلك الحركة التطويقية واسعة النطاق بالكاد يمكنها تحقيق أي نتيجة إيجابية قبل حلول موسم الطين.

و قد حمل لنا يوم ٢١ فبراير أولى أمارات التخفيف عما كان أكثر مناطق جبهة مجموعة الجيوش حيوية.

و قد تماسكت الجبهة الشرقية على نهر "ميوس"، كما تم تطويق بقايا فيلق خيالة العدو خلفها في "دبالتسيفو" حتى أجبِرت على الإستسلام، إضافة إلى فيلق دبابات تم إحاطته و تدميره عقب إختراق جبهة نهر "ميوس" في "ماتفيفكورجان" كذلك.

و على الجناح الأيمن للجيش الأول بانزر واصل العدو ضغطه على مجموعة "فريتر-بيكو" و هدفه قطعاً تدمير جبهة نهر "ميوس" أو تطويق الجبهة الشمالية للجيش الأول بانزر، و قد ساد الهدوء في المنطقة المقابلة لذلك الأخير، و قد كشفت رسائل لاسلكية معادية كنا نراقبها بوضوح أن القوة السوفييتية المشتبكة على الجناح الغربي للجيش الأول بانزر في "جريشينو" و منطقة "كراماتورسكايا" – مجموعة "بوفوب" تحديداً – كانت تتراجع بشكل سيئ، من الواضح أن خطوط إمداداتها إنقطعت.

إستولى الجيش الرابع بانزر على "بافلوجراد" فتولد الأمل في إقتراب آخر تشكيلاته من الكتلة الرئيسية قبل أن يلين الطريق بفعل الطين، و قد باتت حقيقة أنه لم تتقدم أي قوة قوية للعدو نحو "زابوروزهي" لا تعني ضمنياً أي خطر، فقد نفد الوقود منها و هي

على بعد ١٢ ميلاً من المدينة و تدمرت تدريجياً، و لسوء الحظ تم تحويل فرقة جديدة مخصصة لـ"بافلوجراد" {٣٣٢} بواسطة *القيادة العليا للجيوش الألمانية* إلى الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش الوسطى بينما كانت في طريقها إلينا بالفعل، و برغم من أن الموقف لم يكن وردياً تماماً بالنسبة للجيش الثاني إلا أن مجموعة الجيوش الجنوبية كان لها إدعاء ذو أولوية الآن فنحن صرنا أخيراً على طريق إستعادة زمام المبادرة، و لم تكن لمسألة مدى تقدم العدو نحو "كييف" أهمية في الوقت الحالي.

و قد كُشف عن نوايا العدو المخفية تلك بواسطة الحقيقة المتجلية في تقدم القوات السوفييتية بقوة واضحة من جهة "بلجورود" تجاه "أختيركا" مما يشير بوضوح إلى نيته الإلتفاف حول الجناح الشمالي لمفرزة الجيش "كامف".

و في الأيام القلائل التالية حقق الهجوم المضاد للجيش الرابع بانزر النجاح الذي كنا نتمناه، و بهذا عادت المبادرة في هذه الحملة أخيراً للجانب الألماني.

فبادئ ذي بدء حطم الجيش الرابع بانزر القوات المتقدمة صوب نقاط تقاطع نهر "دنيبر" – تحديداً تلك الواقعة في المنطقة المحيطة بـ"بافلوجراد" و جنوبها، و صار الآن ما رفضه "هتلر" من قبل واقعاً مسبباً فقد كان هناك فيلقين دبابات و فيلق واحد مشاة و آخر خيالة، و عُقيب ذلك صار ممكناً بالتعاون مع الجيش الأول بانزر إلحاق الهزيمة بأربعة فيالق دبابات و ميكانيكية معادية مواجهة لجبهته الغربية.

بحلول الأول من مارس بدا واضحاً أن العدو بسبب هزائمه بين نهري "دونتز" و "دنيبر" سيبدأ في الإنسحاب من أمام الجبهة الشمالية للجيش الأول بانزر و أن الأخير سيستعيد خط نهر "دونتز" في هذا القطاع، و قد شعر المرء بإغراء شديد تجاه مطاردة العدو عبر النهر المتجمد و مهاجمته من الخلف في غرب "خاركوف".

و لكن تكون لنا حرية التقدم عبر نهر "دونتز الأوسط" كان من الضروري بداءة تحطيم الجناح الجنوبي للمجموعة المعادية في "خاركوف" - و التي كانت حاضرة بقوة عند نهر "بريستوفوي" – جنوب غرب المدينة، و سواء كان فعل ذلك ما يزال ممكناً مع الأخذ في الإعتبار حدوث الذوبان أم لا كان أمراً مشكوكاً فيه، و نتيجة لذلك كان على مجموعة الجيوش أن تنكب على مطاردة العدو و هزيمته في "خاركوف" غرب نهر "دونتز".

و في الشريط الجنوبي للمنطقة العملياتية لمجموعة الجيوش – قريباً من الساحل – كان الذوبان قد بدأ،و في نهاية فبراير تخلى العدو على جبهة نهر "ميوس" عن محاولته الإختراق بتشكيلات مدرعة و متحركة أخرى و أرسل بدلاً منها فرق مشاة، و قد بدا واضحاً أنه يريد إمتلاك بعض رؤوس الكباري غرب النهر قبل حلول موسم الطين، و حتى بعد فشل هذا الهجوم الواسع تحلل هجوم العدو أخيراً إلى هجمات محدودة غير مثمرة.

و بحلول الثاني من مارس كانت مجموعة الجيوش قادرة على تقصي نتائج هجومها المضاد الأول الذي نفذاه الجيش الرابع بانزر و الجناح الأيسر للجيش الأول بانزر ضد العدو بين نهري "دونتز" و "دنيبر"، و خلال هذا الهجوم و الدفاع الناجح لمفرزة الجيش "هوليدت" على نهر "ميوس" تسلمت الجبهة الجنوب غربية لجيوش العدو هزيمة جعلتها غير قادرة على شن أي هجوم آخر.

و على وجه الخصوص تم توجيه لكمة ثقيلة للقوات المتقدمة تجاه الجناح الأيسر للجيش الأول بانزر و إلى داخل الثغرة بين الأخير و مفرزة الجيش "كامف" – و هي الجيش السادس السوفييتي و مجموعة "بوبوف" المقاتلة في "جريشينو" إضافة إلى جيش الحرس الأول، و تم دحر الفيلق ٢٥ دبابات و معه ثلاث فرق مشاة تماماً في حين تعرض الفيلقان ٣ و ١٠ دبابات و الفيلق الرابع حرس و لواء مدرع مستقل و لواء ميكانيكي و فرقة مشاة و لواء مشاة على زلاجات لدمار شديد، كما عانى الفيلق الأول دبابات حرس و الفيلق ١٨ دبابات و كذلك لوائي مشاة على زلاجات من خسائر فادحة.

و وفقاً لما تسلمناه من تقارير من قواتنا فقد ترك العدو ٢٣ ألف قتيل في ميدان المعركة بين نهري "دونتز" و "دنيبر" و تضمنت الغنائم ٦١٥ دبابة و ٣٥٤ قطعة مدفع ميدانية فضلاً عن ٦٩ مدفع مضاد للطائرات و أعداد كبيرة من المدافع الرشاشة و مدافع المورتر، و قد بدا الرقم ٩ آلاف للأسرى ضئيلاً عندما يقارن بالأرقام الأخرى، و يكمن سبب ذلك في أن قواتنا – أغلبها مدرعات – لم تكن قادرة على تشكيل حلقة مغلقة حول العدو، و بسبب البرد – خاصة ليلاً – عمدت القوات للبقاء معاً داخل القرى و حولها مما نتج عنه ترك مساحة كبيرة لأعداد كبيرة من الأفراد السوفييت و الوحدات السوفييتية الذين تركوا مركباتهم كي تنسحب عبر المناطق الريفية الفاصلة، و لم يكن ممكناً سد نهر "دونتز" في مؤخرة العدو لكونه ما يزال مغطى بالجليد و يمكن للقوات خفيفة التسليح أن تعبره على الأقدام.

و بجانب خسائر العدو المذكورة تم تدمير الفيلق الرابع ميكانيكي حرس – و الذي تعرض للتطويق خلف جبهة نهر "ميوس" – و الفيلق السابع خيالة حرس كذلك.

معركة "خاركوف":

و هكذا و بعد إستعادة المبادرة بواسطة النصر المتحقق بين نهري "دونتز" و "دنيبر" سعت مجموعة الجيوش الجنوبية لتوجيه ضربة لجبهة "فورونيز" – تحديداً قوات العدو المتمركز في منطقة "خاركوف" – وفقاً للأمر الصادر بتاريخ ٢٨ فبراير، و كانت النية تتجه لمهاجمة الجناح الجنوبي لتلك القوات بهدف إما تدمير ذلك الجناح أو – إن أمكن – التقدم فيما بعد نحو مؤخرة العدو من جهة الشرق، و لم يكن هدفنا السيطرة على "خاركوف" و إنما هزيمة – و تدمير إن أمكن – وحدات العدو المتمركزة هناك.

و لذا كانت الأولوية لتحطيم الجناح الجنوبي للعدو و المكون من الجيش الثالث دبابات السوفييتي على نهر "بريستوفوي" جنوب غرب المدينة، و قد حقق ذلك الجيش الرابع بانزر بحلول الخامس من مارس، فتم تمزيق الفيلقين ١٢ و ٤ دبابات و فيلق الخيالة و ثلاث فرق مشاة إلى أشلاء من الجيش الثالث دبابات كما تم إجتجازها جميعاً في جيب صغير في "كراسنوجراد"، و في حين كان هناك عدد قليل نسبياً من الأسرى ألحقت قواتنا بالعدو الخسائر التالية: ١٢ ألف قتيل و غنائم تتمثل في ٦١ دبابة و ٢٢٥ مدفع إضافة إلى ٦٠٠ عربة.

و قد منع تبدل حال الطقس مجموعة الجيوش منذ الآن فصاعداً من التحرك ضد مؤخرة قوات العدو المتحرشة بمفرزة الجيش "كامف" في "أختيركا" و "بولتافا" لكي تجبره على خوض معركة بدون جبهة معكوسة، و كان هذا ضرورياً لعبور الجيش الرابع بانزر نهر "دونتز" من "خاركوف" و لكن كان الجليد قابلاً للتكسر في أي وقت و لن يتمكن أي جسر عائم من التماسك أمام الجليد العائم، و حتى القيام بحركة تطويقية أضيق نطاقاً بواسطة عبورنهر "موش" و السيطرة على المدينة – من خلال المنطقة التي تمتد فيها خطوط إتصالات العدو – من الخلف بدا الآن أمراً غير ملائم نظراً لبدء

ذوبان التربة، و هكذا فإن من الواجب القيام بمحاولة للإلتفاف حول العدو من الجناح و إجباره على الإبتعاد عن "خاركوف".

و بالنظر لهذا الهدف هاجم الجيش الرابع بانزر – متضمناً فيلق بانزر من سرايا الدفاع و الذي وصلت آخر تشكيلاته {فرقة "رأس الموت"} تواً – في إتجاه شمالي من منطقة "كراسنوجراد" في السابع من مارس، و قد إنضمت له مفرزة الجيش "كامف" ما إن بدأ العدو يخفف ضغطه على جبهتها.

و قد أحرز العدو تقدماً جيداً في الأيام التي أعقبت ما سبق، و مع ذلك إكتشف العدو في هذا الوقت التهديد المحدق بجبهة "فورونيز"، و قد أكد مراقبونا على اللاسلكي أنه كان يحرك ما بدا و أنه عدة فيالق دبابات و ميكانيكية من منطقة "فوروشيلوفجراد" إلى "إسيوم" – من المفترض لإستخدامها ضد جناح الجيش الرابع بانزر أثناء تقدمه شمال "خاركوف"، و مع ذلك لم تحقق تلك القوات أي أثر ملحوظ إما لأنها قد إستنفدت قوتها الهجومية في المعارك الولية حول "فوروشيلوفجراد" أو على نهر "ميوس" أو لأن الذوبان في منطقة نهر "دون" أعاق تدخلها، و كل ما أمكن للعدو القيام به كان الفوز برأس كوبري صغير شمال غرب "إسيوم" على الضفة الجنوبية للنهر، كما أنه أرسل الفيلق الثاني دبابات حرس إلى "خاركوف" من جهة الشرق و سحب عدداً من قواته التي كانت تتحرش بالجناح الشمالي لمفرزة الجيش "كامف" و الجيش الثاني إلى "بوجودوخوف"، و لكون الجيش الثاني أضعف من أن يقوم بالهجوم بنفسه فقد بدا من المشكوك فيه ما إن كنا سننجح في منع القوات التي تم دفعها على طول الطريق غرباً تجاه "أختيركا" و شمالها من الهروب شرقاً، و مهما حدث كان ما نريده هو محاولة إجبار العدو المواجه لمفرزة الجيش "كامف" على الإبتعاد جنوباً بعيداً عن "خاركوف" أو قطع طريقه إلى نقاط تقاطع نهر "دونتز" شرق النهر بدلاً عن ذلك، و إن تم ذلك فيمكن حينئذٍ الإستيلاء على "خاركوف" عبر القيام بتحويل مسار القوات بشكل مفاجئ تجاهها، و تمنت مجموعة الجيوش تحاشي صيرورة "خاركوف" "ستالينجراد" جديدة تعلق فيها قواتنا مهما كانت التكاليف.

و مع ذلك كان من الحتمي أن يكون إسم "خاركوف" أثر ساحر على القوات و قادتها.

كان الفيلق بانزر من سرايا الدفاع – و المتمنَي منه السيطرة على المدينة و تقديمها للفوهرر كهدية النصر – متحمساً لإتخاذ أقصر طريق هناك بحيث يكون على مجموعة

الجيوش أن تتدخل بحيوية في أكثر من مناسبة للتأكد من عدم شن الفيلق هجوماً أمامياً على "خاركوف" و يتم تقييده بالتالي هناك في حين ما تزال عناصر قوات العدو تقاتل غرب المدينة قادرة على الهروب، و في النهاية بات ممكناً إلتفاف فيلق بانزر من سرايا الدفاع لشرق المدينة، و قد سقطت المدينة دونما صعوبة و نجحنا في قطع طريق إنسحاب أعداد كبيرة من قوات العدو عبر نهر "دونتز".

و كما رأينا من قبل، تم إجبار العدو بواسطة التطورات الحادثة في المنطقة المحيطة بـ"خاركوف" و جنوبها على تنحيل خط دفاعه المواجه لمفرزة الجيش "كامف" عندما صارت قواته بالفعل على مقربة من "بولتافا" و سيطرت على "أختيركا" شمالاً، و تبعاً لذلك إضطر العدو لسحبها نحو "خاركوف" و "بلجورود" تلاحقها عن قرب مفرزة الجيش "كامف".

في العاشر من مارس قام "هتلر" بزيارة مقر قيادتنا، و إلى جانب إطلاعه على الموقف الحالي تحدثت على وجه الخصوص عن رؤيتنا حول كيفية إدارة العمليات في نهاية موقف الموسم و الذي بدأ في الحلول، و هو ما سنتعرض له في الفصل التالي.

في ١٤ مارس سقطت "خاركوف" بيد فيلق بانزر من سرايا الدفاع، و في نفس الوقت تحركت فرقة "جروس-داتشلاند" – على الجناح الشمالي لمفرزة الجيش "كامف" – بسلاسة صوب "بلجورود"، و مجدداً يلقي العدو بقوات مدرعة قوية لمواجهتها و لكن تم تدميرها عند "جايفورون".

و قد علّمت السيطرة على "خاركوف" و "بلجورود" نتيجة الهجوم الثاني لمجموعة الجيوش نظراً لعدم سماح الطين المتزايد بأي عمليات أخرى، و في الحقيقة حبّذت مجموعة الجيوش أن تنهي عملها بتطهير النتوء المعادي الممتد لمسافة ما غرب "كورس" بهدف تقصير الجبهة الألمانية و ذلك بمساعدة مجموعة الجيوش الوسطى، و مع ذلك تم هجر تلك الفكرة نظراً لأن مجموعة الجيوش الوسطى أعلنت عن عدم قدرتها على التعاون، و نتيجة لذلك إستمر النتوء في تشكيل مشكلة لجبهتنا خلفت بعض الفتحات للعدو و في نفس الوقت ضايقت عملياتنا، و على الرغم من ذلك صارت سيطرة مجموعة الجيوش على كامل جبهة "دونتز" مؤمنة من "بلجورود" إلى مواقع نهر "ميوس" المتفرعة منها، و قد شكلت جبهتي نهري "دونتز" و "ميوس" معاً نفس الخط الذي تمسكت به القوات الألمانية في شتاء ٤٢/١٩٤١.

نظرة للماضي:

إن قمنا – في عجالة – بإلقاء نظرة سريعة على كامل أحداث و نتائج حملة شتاء ٤٣/١٩٤٢ في جنوب روسيا علينا أن نبدأ بإقرار النجاحات المحققة على الجانب السوفييتي بضخامتها غير القابلة للطعن فيها، فقد أبدع الروس في حصارهم للجيش السادس الألماني و تدميره و هو أقوى ما كنا نمتلكه في الميدان، و أكثر من ذلك أنهم إكتسحوا أربعة جيوش حليفة و محوها من على الخريطة تماماً، و قد سقط كثيرون في البواسل من تلك الجيوش في أرض المعركة و أعداد أكبر في الأسر، و ما بقي من القوات الحليفة تفسخ و إنسحب عاجلاً أو آجلاً من مناطق العمليات، و حتى لو كان من الممكن إعادة تشكيل أغلب فرق الجيش السادس من الوحدات المتبقية و تعزيزات مفرزة الجيش "هوليدت" لتحمل إسم الجيش السادس في مارس ١٩٤٣ فإن خسارة الكتلة الرئيسية من القوات المقاتلة المكونة من عشرين فرقة بجانب نسبة كبيرة من مدفعية الجيش و مهندسيه كانت أمراً يتعذر إصلاحه، و على الرغم من محدودية الكفاءة القتالية للجيوش الحليفة إلا أن خسارتها ما تزال طامة كبرى حارمةً إيانا من دعم القوات الألمانية في قطاعات منعزلة من الجبهة.

و لكن بالرغم من إختفاء خمسة جيوش كاملة من نظام المعركة الألماني إلا أنه لا يمكن لأي شخص أن يقول أن هذا فقط له تأثير حاسم على نتيجة الحرب، بل إنه كان مصحوباً بخسارة أقاليم كاملة بما تتضمنه من موارد طبيعية كنا قد ربحناها في هجوم صيف ١٩٤٢، فقد أخفقنا في التمسك بحقول النفط القوقازية – و هي أحد الأهداف الرئيسية لذلك الهجوم – و هنا نذكر أن هذا الهدف الإقتصادي الذي كان "جورينج" مصراً عليه قد ساهم بشكل حاسم في ضعضعة الهجوم، فقد نسي و هو بصدد السعي وراء هذا الهدف الإقتصادي أن تحقيقه و الإحتفاظ به يعتمدان دوماً على هزيمة الجزءالأساسي من قوات العدو، و على الرغم من ذلك كان من الممكن التمسك بالجزء الضروري لإدارة الحرب من حوض نهر "دونتز".

و على الرغم من كون أهداف الروس عظيمة بلا شك إلا أنهم ما يزالون لم ينجحوا في تحقيق النصر الحاسم على الجناح الجنوبي الألماني و الذي لا يمكننا تعويضه إن تدمر أبداً، و في نهاية حملة الشتاء عادت المبادرة لأيدي الألمان و تلقى الروس هزيمتين

إثنتين، و على الرغم عدم كونهما حاسمتين إلا أنهما قادتا إلى فرض حالة الإستقرار على الجبهة و منحت القيادة الألمانية إمكانية مواصلة الحرب في الشرق حتى النهاية، و على الرغم من ذلك إلا أننا أمكننا دفن أي أمل في تغيير سير الحرب بهجوم نشنه في صيف ١٩٤٣حيث كانت خسارتنا في جانب القوة القتالية كبيرة جداً و تمنع القيام بأي شيء من هذا القبيل.

و التدخل القطعي الواجب على القيادة العليا القيام به هو أن تسعى بكل ما في حوزتها في وسائل في سبيل التفاوض مع واحد على الأقل من أعداء ألمانيا، و بشكل مماثل عليها أن تدرك الحاجة لإسناد إدارتها اللاحقة للحرب في الشرق إلى سياسة من شأنها أن تنجي قواتها – و على الأخص لا تقود لخسارة جيوش بأكملها كما حدث في "ستالينجراد" – بينما تسعى لإضعاف القدرة الهجومية للعدو، و في سبيل ذلك يتعين عليها – و بصرف النظر تماماً عن طموحاتها الثانوية – نقل الجهد الرئيسي للمسرح الشرقي طالما أن أعداء ألمانيا الغربيين عاجزون عن الإنزال البري في فرنسا أو توجيه ضربة قوية من جهة البحر المتوسط.

و إن عدنا الآن لهجوم شتاء ٤٣/١٩٤٢ و نتيجته فإن السؤال التالي سيكون لماذا لم تحقق القيادة السوفييتية – على الرغم من نجاحاتها الكبيرة في هذه الحملة – النجاح الحاسم المتمثل في إبادة كامل الجناح الجنوبي الألماني؟ و عقب كل ما تقدم كان لدى تلك القيادة كل الأوراق الرابحة بما إمتلكته منذ البداية من أعداد ضخمة من التشكيلات و مزايا ميدانية.

و يجب التشديد منذ البداية على أن القيادة السوفييتية لم تظهر أي نقص في الروح العدوانية و أشركت قواتها بدون أدنى إعتبار لأي خسائر في سبيل تحقيق أهدافها، و قد قاتلت القوات نفسها – و التي تشكلت من الروس الحقيقيين – ببسالة شديدة و صنعت تضحيات خيالية في مناسبات عديدة، و على الرغم من ذلك كان هناك نقصاً لا يمكن الخطأ فيه في جودة المشاة كما أن خسائر المدفعية في ٤٢/١٩٤١ لم يتم تعويضها بعد، و منذ بداية الحرب تعلم القادة السوفييت قدراً كبيراً من الدروس خصوصاً فيما يتعلق بالتنظيم و إستخدام تشكيلات مدرعة ضخمة، و على الرغم من إمتلاك العدو أعداد مهولة من الدبابات في عام ١٩٤١ إلا أنه لم يكن يعرف كيف يستخدمها كأجزاء منفردة ضمن كتلة موحدة، أما الآن فقد بات العدو ممتلكاً لتلك التشكيلات منظمة في فيالق دبابات و مكيانيكية كما أنه تفوق على الأسلوب الألماني في الإختراق متوغلاً داخل

العمق، و برغم ذلك تمكننا دوماً من إحراز النجاح – بإستثناء ما حدث في نوفمبر ١٩٤٢ – و من تدمير تشكيلات الدبابات و الميكانيكية تلك أو هزيمتها في نهاية المطاف حتى عندما توغلت عميقاً داخل المناطق الأمامية الألمانية، و من ناحية أخرى و عقب تطويق الجيش السادس لم تكن تلك التشكيلات قادرة مجدداً على التقدم إلى النقاط الحيوية بالسرعة و القوة اللازمتين لتحقيق الهدف المتمثل في تطويق الجناح الجنوبي الألماني سواء على نهر "دون" أو ساحل بحر آزوف أو على نهر "دنيبر السفلي"، و بإستثناء "ستالينجراد" – عندما منح "هتلر" العدو الفرصة – لم تكن القيادة السوفييتية قادرة على فرض معركة تطويقية كما فعلنا نحن في مناسبات عدة في ١٩٤١ موقعين بعدة آلاف من الأسرى، و قد أثبت هذا نجاعه على الرغم من التفوق العددي الهائل للسوفييت في حملة ٤٣/١٩٤٢ بجانب حقيقة أن الموقف الأولي و إنهيار الجيوش الحليفة قد منحهم ممراً مفتوحاً إلى الخطوط الخلفية للجبهة الألمانية، و كان علينا من جهة أخرى أن نخوض معركة أمامية في ١٩٤١.

و الآن دعونا نلق نظرة على القيادة السوفييتية في القمة، فبالنظر للموقف العملياتي الذي ساد في نهاية حملة الصيف الألمانية كان الهدف الإستراتيجي المتمثل في تطويق الجناح الجنوبي الألماني على قدرٍ من الوضوح بشكل لا يمكن غض الطرف عنه، كما كانت فكرة إختراق جبهات الجيوش الحليفة قطعية كذلك، بمعنى آخر لم تكن الكثير من العبقرية مطلوبة من الجانب السوفييتي في إعداد خطة العمليات في أواخر خريف ١٩٤٢.

و قد كانت الضربة الأولى – تطويق الجيش السادس – بلا ريب صحيحة، فإن نجحت – و قد تسببت القيادة الألمانية بأفعالها في ذلك – سيتم القضاء على أقوى قوة ضاربة للألمان.

و كانت الأمور ستسير بشكل أحسن لو تم تنسيق تلك الضربة الأولى مع الهجوم على جبهتي الجيشين الإيطالي و المجري و هو ما يتطلب أن تكون الجهود مبذولة منذ البداية في سبيل تطويق القوات الألمانية في "روستوف" أو على بحر آزوف في عملية موحدة واسعة النطاق، و قد كانت المدفعية المتاحة غير كافية لإنجاز تلك المهمة بشكل واضح و لهذا السبب – على سبيل الإفتراض – تهاوت عملية الإختراق، و من المقنع كذلك أن حالة النقل لم تسمح بنشر العدد الكامل من القوات المشاركة في الهجوم و لا بتموينها أيضاً.

و مع ذلك فقد عوّض الإنهيار التام السلس و غير المتوقع للجيوش الحليفة على جانبنا السوفييت بدرجة كبيرة عن العوائق التي قابلتها عمليات الإختراق الثلاثة، و عندما أخفقت القيادة السوفييتية في إتمام مهمتها المتمثلة في تطويق الجناح الجنوبي الألماني على نهر "دون السفلي" أو بحر آزوف أو على نهر "دنيبر" فإن سبب ذلك لا يكمن بالتأكيد في أن هجومه تعطل بفعل شساعة منطقة العمليات، و عندما ننظر للأمر من زاوية مقاييس الصراع الحديث لم تكن المسافات المتعين على القوات السوفييتية تغطيتها زائدة بشكل مفرط مقارنة بالأهداف المتنوعة المبتغى تحقيقها، كما أن الإحتياطات الألمانية الموجهة لملاقاتها قوية بدرجة تفرض حالة الجمود على الهجوم السوفييتي و هوعلى مقربة من تحقيق أهدافه الحاسمة و تُنهيه إلى نتيجة عكسية خطيرة.

و على النقيض، ينبغي على المرء أن يقول أن القيادة السوفييتية – بإستثناء مسألة "ستالينجراد" – لم تعمد أبداً للتنسيق بين القوة و السرعة أثناء الهجوم على أي نقطة حاسمة.

ففي المرحلة الأولى من حملة الشتاء ربطت تلك القيادة بلا شك و بشكل غير ضروري قوات كبيرة مواجهةً للجيش السادس ليس لهدفٍ سوى زيادة فرصة حصولها على الجائزة بقدر الضعف، و بفعل هذا أهدرت فرصة قطع خطوط إمداد الجناح الجنوبي الألماني على نهر "دون السفلي"، و أما عن القوات المهاجمة لجبهة نهر "تشير" فقد كانت قوية حقاً و لكنها كانت في غير محلها.

و بعد إختراق الجبهة الإيطالية أخفقت القيادة السوفييتية بشكل مماثل في المخاطرة بكل شيء عبر العبور السريع لنهر "دونتز" و بلوغ "روستوف"، و بالنظر لتلك الأهداف البعيدة كان هناك بلا شك خطراً يتمثل في تعرض الروس فيما بعد للهجوم من الجانب و لكن كان عليهم أن يتوقعوا إشتقاق الحماية المطلوبة هنا من الهجوم المزمع شنه على الجبهة المجرية قريباً، و أنا أقر بخطورة ذلك و لكن أي شخي غير متأهب لتقبل المخاطر لن يحقق أبداً أي نتائج سريعة و حاسمة.

و حتى عقب الإختراق الناجح للجيش المجري – و الذي فتح ثغرة في الجبهة الألمانية بين نهر "دونتز" و "فرورنيز" – ما تزال القيادة السوفييتية فاشلة في التقدم بسرعة و قوة كافيتين في الإتجاه الحاسم – تجاه نقاط تقاطع نهر "دنيبر"، و بدلاً عن وضعها كل البيض في سلة واحدة و ترك مجموعة صدمة قوية و مركزة لتوفير الحماية الهجومية

في الغرب نجدها قامت بتجزأة قواتها إلى سلسلة من الهجمات بعيدة المدى و غير المنسقة على "أختيركا" و "بولتافا" على طريق "كورسك" ضد نهر "دنيبر" و عبر خط "دونتز- سلافيانسك- ليسيتشانسك- فوروشيلوفجراد"، و بهذه الطريقة مكّنت القيادة الألمانية من أن تصير أقوى في النقاط الحاسمة عندما حان الوقت المناسب.

و قد قال "شليفن" ذات مرة أن كلا الطرفين في أي حملة أو معركة - الخاسر كالرابح تماماً – يساهمان في إحداث النتيجة بواسطة التصرفات المتنوعة التي يقومان بها، و قد أوضحنا بوضوح تحمل القيادة العليا الألمانية المسئولية عن خسارة الجيش السادس – و بالطبع عن كامل الأزمة التي تصاعدت على الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية في حملة شتاء ١٩٤٢/٤٣، و هكذا يكون من الإنصاف الإشارة إلى المساهمة التي قدمها الجانب الألماني في إخفاق الروس في نهاية الأمر في تطويق الجناح الجنوبي الألماني.

و في هذا الخصوص نحتاج لقول شيء واحد: لولا الإنجازات الخارقة للقوات الألمانية و قادتها في مواجهة عدو يتفوق عليها عددياً أضعافاً مضاعفة لما تمكنت مجموعة الجيوش أبداً من النجاح في "تركيع هزيمتها"، و لم يكن من الممكن الدخول في حملة الشتاء أبداً إن لم تقف فرق المشاة الباسلة التابعة لنا – على عكس الجيوش الحليفة و غالباً بدون دفاعات مضادة للدبابات – في ثبات و رسوخ أمام هجمات التشكيلات المدرعة للعدو و لا ضمان تدمير تلك التشكيلات نهائياً بواسطة غلق الجبهة خلف دباباتها لدى إختراقها للجبهة، و ندين أيضاً لفرق البانزر التابعة لنا و التي قاتلت بطلاقة منقطعة النظير و ضاعفت من كفاءتها عبر أسلوب تحركها من مكان لآخر، و قد وقفت القوات المقاتلة الألمانية – و المقتنعة بتفوقها كجنود - في ثبات في أكثر المواقف الداعية لليأس و قد قدمت شجاعتهم و تضحيتهم بالذات الكثير للتعويض عن تفوق العدو عددياً.

و هناك أمر يتوجب علينا عدم نسيانه، إن الجيش السادس الباسل هو من – بواسطة القتال بولاء حتى النهاية – أطار النصر الشامل على الجناح الجنوبي الألماني من يد العدو، و إن كان قد تخلى عن نضاله – بدلاً من مواصلة المقاومة – بمجرد صيرورة وضعه ميئوساً منه لتمكن الروس من إلقاء حمل أثقل من القوات في النقاط الحاسمة بحيث يكون هدفهم المتمثل في تطويق الجناح الجنوبي من الجبهة الألمانية بأكمله قد أوشك على التحقق، و هكذا كان الإسهام الهام الذي قدمه الجيش السادس في سبيل نجاحنا في فرض حالة الإستقرار على جبهة الشرقية في مارس ١٩٤٣، و على الرغم

من ضياع تضحية رجال الجيش السادس بذواتهم سدى بالنظر إلى النتيجة النهائية للحرب إلا أن هذا لا يمكنه الإنتقاص من قيمة ما قدموه أبداً.

و هذا هو سبب – و نحن الآن قد وصلنا نهاية هذا الفصل – كون إسم الجيش السادس لامعاً لمرة أخيرة، فهذا الجيش أتمّ أقصى ما قد يُطلب من جندي القيام به – و هو القتال حتى النهاية في ظل موقف ميئوس منه في سبيل رفقائه.

١٤

العملية "قلعة"

لقد أظهر الفصل السابق أن حملة شتاء ٤٣/١٩٤٢ – و التي بدأت بإختراق الروس لنهري "دون" و "فولجا" على جانبي "ستالينجراد" كليهما – لم تمنح القيادة السوفييتية النجاح العملياتي الحاسم التي ربما أملت فيه.

و السؤال الآن يدور حول كيف يتعين على الجانب الألماني مواصلة الصراع في الصيف القادم، و قطعاً و بعد خسارة كثير من التشكيلات الرئيسية لم تعد هناك قوات متاحة للقيام بهجوم حاسم آخر على غرار ما تم في العامين ١٩٤١ و ١٩٤٢، و ما يزال يبدو ممكناً – مع إفتراض وجود قيادة حكيمة في الجانب الألماني – هو أن إمكان إنهاك الإتحاد السوفييتي لدرجة تدفعه لقبول حالة جمود على الجبهة، و في الوقت محل الكلام كان هذا أبعد ما يكون عن التفكير الحالم، و من جهة أخرى فإن مثل هذا الهدف لا يمكن إدراكه بالإنتقال لحالة دفاعية صرفة {صراع ساكن} لسبب أول و هو عدم وجود فرق ألمانية كافية للدفاع عن الجبهة بالغة الإمتداد من بحر البلطيق شمالاً وصولاً إلى البحر الأسود جنوباً، و آخر يتمثل في أنه من غير المرجح أن يقوم السوفييت بأي فعل حتى قيام الحلفاء الغربيين بإنزال بري في أوربا – لقد صار الخطر المتعلق بذلك واقعاً في ضوء الأحداث الأخيرة في شمال أفريقيا.

و بذا لم يكن أمام القيادة الألمانية متسع من الوقت لفرض حالة الجمود في الشرق، و يمكنها إنجاز ذلك فقط إن نجحت – عملاً داخل إطار إستراتيجية دفاعية – في التعامل

مع ضربات العدو القوية بحيث تستنزف قواته إلى حد خطير – أولاً و أخيراً عبر إيقاع أكبر عدد من الأسرى، و تلك المرونة العملياتية المفترضة من جانبنا و التي ستمنح الجودة المتفوقة للقيادة الألمانية و القوات المقاتلة أقصى فاعلية ممكنة.

و كان لزاماً علينا بشكل طبيعي أن نضع في الحسبان التصرف الذي ستتخذه القيادة السوفييتية بمجرد إنتهاء موسم الطين، هل سينتظر "ستالين" حتى يلبي حلفاؤه مطالبه المتكررة بالإنزال في أوربا؟ و على الرغم من أن طلبه هذا يبدو طبيعياً إلا أنه ما تزال توجد خلافات بشأنه، فقد تزايدت ثقة السوفييت بنفسهم بلا ريب منذ النجاحات الكبيرة المتحققة في الخريف الماضي، هل يمكن للقادة السوفييت أن يتحملوا – من وجهة نظر نفسية – طلب وقف ما أعلنوه من "تحرير تراب روسيا المقدس"؟ هل ينبغي على الكريملين عدم القلق من هزيمة حلفائه في البلقان – و هي الهدف التقليدي لأي توسع روسي؟

و إفتراضاً أن العدو قد إستأنف هجومه بمجرد تعويضه لخسائره فقد بدا مؤكداً أنه سيواصل توجيه ضغط هجماته الرئيسي ضد الجناح الجنوبي للجبهة الألمانية – مجموعة الجيوش الجنوبية تحديداً.

و كان من الواجب سد الثغرة في الجبهة الألمانية – و التي تمتد عبر نهري "دونتز" و "ميوس" من نقطة أسفل "خاركوف" مشتملة على حقول الفحم و المنطقة الصناعية الهامة جنوب هذه المدينة، فإن نجح العدو في الإختراق حول "خاركوف" أو حتى عبر نهر "دونتز الأوسط" فما يزال من الممكن له تحقيق هدفه المبتغى في الشتاء الماضي و تدمير الجناح الجنوبي الألماني على ساحل البحر الأسود، و في ذلك الوقت ما تزال مجموعة الجيوش "أ" في رأس كوبري "كوبان"، و في نفس الضربة سيستعيد العدو السيطرة على منطقة نهر "دونتز" الهامة و مخازن الغلال الأوكرانية إضافة إلى فتح طريقه نحو حقول النفط البلقانية و الرومانية بكل ما يعني هذا من آثار سياسية فيما يتعلق بتركيا، و لم تكن هناك فرص بهذا القدر معروضة على السوفييت في أي قطاع آخر من الجبهة الشرقية سواء من الناحية العسكرية أو الإقتصادية أو السياسية، و من ثمّ سيتم توجيه الهجوم الحاسم ضد مجموعة الجيوش الجنوبية – و هي حقيقة [بالنظر للتفوق العددي للروس] تتضمن إحتمالية القيام بهجمات ضيقة النطاق على الأجزاء الأخرى من الجبهة.

و في مناسبات عدة لفتت مجموعة الجيوش الجنوبية إنتباه "هتلر" و *القيادة العليا للجيوش الألمانية* لتلك الإعتبارات، و ما كان على "هتلر" أن يقرره في هذا الخصوص في نهاية المطاف هو ما إن كان الموقف العام يسمح لنا بإنتظار الروس حتى يبدؤوا هجومهم و من ثمّ نضربهم بشدة "من الخلف" في أول فرصة تسنح لنا أو ما إن كان يتوجب علينا الهجوم بأنفسنا بأبكر ما يمكن مع توجيه – و نحن ما نزال في إطار الإستراتيجية الدفاعية – ضربة محدودة "من الأمام".

و قد فضلت مجموعة الجيوش الحل الأول بإعتباره الأفضل عملياتياً و قامت بتقديم الخطة الأولية لـ"هتلر" في فبراير، و قد تضمنت أنه لو فعل الروس ما توقعناه منهم و شنوا هجوم على شكل كماشة على منطقة نهر "دونتز" من جهتي الشمال و الجنوب – و هي العملية التي سيصحبها عاجلاً أو آجلاً هجوم على "خاركوف" – فسيتراجع قوسنا من الجبهة الممتد على طول نهري "دونتز" و "ميوس" وفقاً لجدول زمني محدد يستهدف سحب العدو غرباً تجاه نهر "دنيبر السفلي"، و بشكل متزامن يتم نشر كل الإحتياطات الممكن تحريرها – على الأخص كتلة المدرعات – غرب "خاركوف" لكي – أولاً – تحطم قوات العدو المهاجمة التي نتوقع العثور عليها هناك و بالتالي التقدم داخل جناح تلك المتقدمة في إتجاه نهر "دنيبر السفلي"، و بهذه الطريقة سيتعرض العدو لنفس المصير البائس على ساحل بحر آزوف نظراً لحصارنا له على البحر الأسود.

و مع ذلك لم يوافق "هتلر" على الخطة ، فهو ما يزال تتملكه الجوانب الإقتصادية لحوض نهر "دونتز" و ما يزال قلقاً بشأن التداعيات المحتملة المترتبة عن أي إخلاء و لو مؤقت على تركيا و رومانيا، و لكن ما أسهم بشكل أبر في تصلب موقفه كان إعتقاده بوجوب أن نقاتل في سبيل كل شبر من الأرض مما أخذه من "ستالين" في شتاء ١٩٤١ و الذي أنقذ – من وجهة نظره – الجيش الألماني من "إنسحاب نابليوني"، و بجانب ما تقدم قام "هتلر" بلا ريب بالتقليل من المخاطر التي ألمحت إليها الخطة المقترحة، و ربما يكون مفتقداً لثقته بنفسه بشأن التعامل مع تلك المخاطر فهو ما يزال مفتقداً لقدرات القبطان العظيم.

و نتيجة لذلك تحولت ألبابنا صوب فكرة الضربة "من الأمام"، و هي تتضمن وجوب توجيه ضربة محدودة النطاق للعدو قبل أن يتعافى من خسائره في حملة الشتاء و يعيد شحذ قوى قواته المنهزمة.

و قد قدم النتوء السوفييتي البارز إلى داخل جبهتنا حول مدينة "كورسك" هدفاً مناسباً، و كان الروس المواجهين للحدود بين مجموعتي الجيوش الوسطى و الجنوبية قادرين على الإحتفاظ بهذا النتوء عند حلول موسم الطين و بات الآن يشكل نقطة فقز لأي هجمات قد يشنوها على أجنحة مجموعتي الجيوش الألمانيتين، و إن نجح هجومنا فسيتم تطويق قدر كبير من القوات السوفييتية داخل هذا النتوء و بشرط أن نقوم بشن هذا الهجوم باكراً بحيث نباغتها و هي في حالة عدم إستعداد، و تحديداً سيضطر العدو لإشراك وحداته المدرعة المتضررة بشدة في نهاية حملة الشتاء و بموجبه سيمنحنا فرصة معاقبتها أجمعها.

و هكذا نصل إلى العملية "قلعة" – آخر عملية هجومية كبيرة ينفذها الألمان في الشرق، و قد قامت مجموعة الجيوش الجنوبية في سبيل هذا الهجوم على ثغرة "كورسك" بتوفير جيشين {الرابع بانزر و مفرزة الجيش "كامف"} مشتملين على أحد عشر فرقة مدرعة و غرناد بانزر و خمس فرق مشاة، و للقيام بذلك كان عليها بالطبع تنحيل جبهتي نهري "دونتز" و "ميوس" بشكل ملحوظ.

و للهجوم من جهة الشمال قامت مجموعة الجيوش الوسطى بتوفير الجيش التاسع – قوامه ست فرق مدرعة و غرناد بانزر و خمس فرق مشاة، و يكمن الخطر الأساسي هنا في إضطرار الجيش للتموضع في النتوء البارز إلى الشرق حول "أوريل" حيث قد يهاجمه العدو من الخلف من جهتي الشمال و الشرق.

و قد تحدد النصف الأول من شهر مايو موعداً إنطلاق العملية "قلعة" – و هو الموعد المتوقع أن تكون الأرض قد جفت فيه بشكل كافٍ و لم يكن العدو قد أنهى إعادة شحذ قواه و خاصةً المدرعات بعد.

و مع ذلك قرر "هتلر" في بداية مايو – بالمخالفة لنصيحة قادة مجموعتي الجيوش – تأجيل العملية "قلعة" حتى شهر يونيه حيث يأمل فيه أن تكون مدرعاتنا أقوى عقب تزويدها بدبابات جديدة، و قد تمسك بقراره حتى عقب تنبيهه إلى ما يمكن أن تعنيه التطورات التي في غير صالحنا في تونس إن تم تأجيل "قلعة" لأي مدة أطول – حيث سيتجلى هناك خطر إشتباك قواتنا مع أي عدو يقوم بإنزال بري على أرض القارة، و لكنه لم يدرك أنه كلما إنتزر المرء فترة أطول كلما زاد عدد ما يمتلكه الروس من مدرعات – خصوصاً بالنظر إلى تفوق إنتاجهم للدبابات عن إنتاج الألمان، و نتيجة

للتأخير في تسليم دباباتنا الجديدة لم تتمكن مجموعة الجيوش من بدء العملية "قلعة" في نهاية امطاف حتى بداية يوليه حينما كانت ميزة توجيه ضربة للعدو "من الأمام" قد ضاعت، فالفكرة بأكملها كانت تتمحور حول شن الهجوم قبل أن يعيد العدو شحذ قواته و التعافي من خسائر الشتاء، و في نفس الوقت كان من المؤكد أنه كلما إستغرقنا وقتاً أطول في إنطلاق العملية كلما تعاظم التهديد المحدق بجيوش مجموعة الجيوش الجنوبية في نتوء "دونتز- ميوس" و التي قامت بتسليم جميع قواتها المتاحة لمنطقة ثغرة "أوريل" بإعتبارها نقطة قفز الجيش التاسع التابع لمجموعة الجيوش الوسطى.

في الخامس من يوليه صارت الجيوش الألمانية أخيراً جاهزة للهجوم، و على الرغم من إتخاذ كافة تدابير الخداع و التمويه إلا أننا لم يعد بإمكاننا أن نتوقع أخذ العدوعلى حين غفلة بعد كل هذا التأخير.

و على جبهة هجوم مجموعة الجيوش الوسطى نجح الجيش التاسع في إختراق تحصينات العدو إلى عمق حوالي تسعة أميال في أول يومين، و عقب قتال عنيف عمل فيه على دحر هجمات معادية مضادة شنتها إحتياطات العدو عمد هذا الجيش لتعميق الإختراق لأميال قليلة أخرى حتى التاسع من يوليه، و لكن تلك العملية توقفت قبل أن يتم إنشاء سلسلة من المواقع على المرتفعات المطلة على مؤخرة الجبهة، و قد أطاح العدو بنية هذا الجيش في مواصلة الهجوم في أيام قليلة قادمة حيث هاجم ثغرة "أوريل" بقوة من جهتي الشمال و الشمال الشرقي في التاسع من يوليه، و لدعم تماسك الجيش الثاني على جبهته وجدت مجموعة الجيوش نفسها مضطرة إلى نقل قوات متحركة قوية من الجيش التاسع إلى معركة "أوريل".

و قد تطور الهجوم في منطقة مجموعة الجيوش الجنوبية بشكل في مصلحتنا، و هنا أيضاً كان إختراق صفوف العدو الدفاعية صعباً و تقدم الهجوم ببطء، و مع ذلك ففي التاسع من يوليه كان من الممكن إختراق آخر موقع معادي في منطقتي "بروخوروفكا" و "أوبويان"، و خلال ذلك الوقت تم صد هجمات مضادة ركيكة شنتها إحتياطات العدو و تعرضت خلالها عشرة فيالق دبابات أو ميكانيكية إما للتدمير أو للضرر الشديد، و بحلول ١٣ يوليه كان العدو المواجه لمجموعة الجيوش الجنوبية قد خسر ٢٤ ألف رجل وقعوا في الأسر إضافة إلى ١٨٠٠ دبابة و ٢٦٧ مدفع ميداني فضلاً عن ١٠٨٠ مدفع مضاد للدبابات.

في ١٣ يوليه – عندما حمي وطيس المعركة و بدت الأمور في صالحنا – تم إرسال قائدي مجموعتي الجيوش المعنيتين لـ"هتلر" الذي إفتتح المؤتمر بإعلان قيام الحلفاء الغربيين بإنزال بري في جزيرة صقلية ذاك اليوم و أن الموقف هناك قد إتخذ منعطفاً خطيراً، و لم يكن الإيطاليون يحاولون حتى القتال و بدت الجزيرة على وشك السقوط، و لمّا كانت الخطوة التالية قد تتمثل في الإنزال في البلقان أو جنوب إيطاليا كان ضرورياً أن يتم تشكيل جيوش جديدة في إيطاليا و غرب البلقان، و يتوجب العثورعلى هذه القوات ضمن ما يتواجد في الجبهة الشرقية لذا يجب عدم الإستمرار في العملية "قلعة".

و هكذا نجد أن ما حذرت "هتلر" منه في مايو قد حدث بالفعل.

و قد أبلغ قائد مجموعة الجيوش الوسطى الفيلد مارشال "فون كلوج" أن الجيش التاسع لم يحرز أي تقدم أبعد مما أنجزه و أنه سيسحب منه الوحدات المتحركة لمواجهة ضربات العدو الموجهة ضد نتوء "أوريل"، و بذا لم يعد هناك محل لمسألة متابعة العملية "قلعة" أو إستئنافها في وقت لاحق.

و نيابة عن مجموعة الجيوش الخاضعة لي أوضحت أن المعركة الآن صارت في مرحلتها الحاسمة و أن وقفها في تلك اللحظة ما هو إلا تخلٍ عن النصر، لذا لا يوجد ما يدعو أبداً للإبتعاد عن العدو حتى تنهزم تماماً كل الإحتياطات المتحركة المشاركة.

و على الرغم من ذلك قرر "هتلر" إلغاء العملية "قلعة" بالنظر للموقف في البحر المتوسط و حالة مجموعة الجيوش الوسطى، و التنازل الوحيد الذي قدمه تمثل في أن تواصل مجموعة الجيوش الجنوبية هجومها حتى تحقيق هدفها المتمثل في تدمير إحتياطات العدو المدرعة، و من الحقيقة أن نقول أنه حتى ذلك الهدف لم يتحقق ففي خلال أيام قليلة تالية صدرت أوامر لمجموعة الجيوش بتسليم عدة فرق مدرعة لمجموعة الجيوش الوسطى، و إنسحبت المجموعات الهجومية لكلا المجموعتين لخط البداية.

و هكذا إنتهى آخر هجوم ألماني في الشرق سدىً حتى على الرغم من معاناة العدو المواجه لجيشي مجموعة الجيوش الجنوبية المهاجمين أربعة أضعاف خسائرهما من حيث الأسرى و القتلى و الجرحى.

١٥

المعارك الدفاعية في عامي ١٩٤٣/٤٤

عندما تم إلغاء العملية "قلعة" إنتقلت المبادرة في المسرح الشرقي للحرب إلى الروس، و الآن و مع إخفاقنا في تطويق قوات العدو القوية في نتوء "كورسك" و أوقفنا مبكراً العمليات ضد إحتياطاته المتحركة قبل تحقيق أي شيء حاسم بدأ تفوقه العددي يُظهر نفسه على الساحة، و قطعاً كان هجومه على ثغرة "أوريل" مجرد تمهيد لما هو أعظم.

و منذ الآن فصاعداً وجدت مجموعة الجيوش الجنوبية نفسها تخوض نضالاً دفاعياً و الذي لا يمكنه أن يكون أكثر من سلسلة من الأعمال الإرتجالية و بدائل سد الثغرات، و لكونها صارت أضعف بكثير – على تلك الجبهة بالغة الإمتداد – من أن تدافع عن نفسها أمام عدو أقوى منها بمراحل إضطرت المجموعة لتركيز جهودها – حتى مع المخاطرة بتقبل التداعيات الأقل تهديداً لها – على النشر الدقيق لقواتها في أي مكان يحدث فيه إختراق سوفييتي تعترضه أو تسنح فيه فرصة بتوجيه ضربة للعدو، و ما كان ينبغي تفاديه مهما كانت التكلفة هو أن تتعرض أي عناصر تابعة لمجموعة الجيوش للتطويق خلال إختراقات عميقة ينفذها العدو و معاناة عين المصير الذي لاقاه الجيش السادس في "ستالينجراد"، و صار جوهر النضال متجسداً في أن نبقى في أرض المعركة بما يعنيه من إضعاف لقدرة العدو الهجومية إلى أقصى درجة.

المعركة الأولى على نهر "دونتز":

كما كان متوقعاً تم توجيه ضربة العدو الأولى ضد منطقة نهر "دونتز" التابعة للجبهة.

في ١٧ يوليه تم شن هجوم قوي على الجيش السادس على نهر "ميوس" و الجيش الأول بانزر على نهر "دونتز الأوسط"، و مع ذلك بينما كان العدو يحقق إختراقات ملحوظة إلا أنه ما يزال غير قادر على إتمام إختراق الجبهة.

تمكن الجيش السادس – بإشراك كلا تشكيليه الميكانيكيين المتبقيين كإحتياط في منطقة نهر "دونتز" – من وقف الهجوم بعد أن ظفر العدو برأس كوبري بعرض ١٢ ميلاً و عمق عشرة أميال على الضفة الغربية لنهر "ميوس" شمال "كيوبيشيف".

و أما عن الجيش الأول بانزر فقد نجح العدو في عبور نهر "دونتز" جنوب شرق "إسيوم" على جبهة وعرة تمتد لـ٢٠ ميلاً، و لكن مع إلقاء كلا فرقتي الفيلق ٢٤ بانزر المتحركتين من "خاركوف" في أتون المواجهة صار من الممكن منع العدو من إكتساب مساحة أكبر من الأرض جنوب النهر.

و حتى برغم من تمكننا من وقف تلك الهجمات السوفييتية بحلول نهاية شهر يوليه إلا أن الموقف في منطقة نهر "دونتز" ما يزال بالكاد يمكن الدفاع عنه من وجهة النظر بعيدة الأمد.

و هكذا و مع إلغاء مجموعة الجيوش الجنوبية العملية "قلعة" في ١٧ يوليه بناء على أوامر من "هتلر" قررت هذه المجموعة سحب الجزء الرئيسي للمدرعات من ذاك الجناح في تلك الأثناء لتدعيم الدفاعات في منطقة نهر "دونتز"، و قد أملنا في أن نكون قد لقّنا العدو درساً قاسياً إبان العملية "قلعة" بحيث يمكننا الآن التعويل على وجود فترة إلتقاط للأنفاس في ذلك الجزء من الجبهة.

و قد كان هذا القرار بلا شك كارثياً بالنظر لما أعقبته من أحداث على الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش حيث قام العدو بالهجوم عليه أبكر مما توقعنا، و لكن على الرغم من إثبات تلك الحركة خطئها تظل الحقيقة متجلية في أنها كانت ناجمة عن إصرار "هتلر" على التمسك بمنطقة نهر "دونتز"، و الأكثر من ذلك كان الإضعاف المؤقت للجناح الشمالي في الواقع محدوداً بإنسحاب قيادة الفيلق الثالث بانزر و الفرقة الثالثة بانزر نظراً لوضع "هتلر" مجدداً فيلق بانزر من سرايا الدفاع – المتجه الآن نحو إيطاليا – تحت تصرف مجموعة الجيوش لهذا الهجوم المضاد الوحيد في منطقة نهر "دونتز".

و بالنظر لحقيقة أن قيادتي الفيلقين و الأربع فرق مدرعة المخصصات لمنطقة نهر "دونتز" لا يمكنها الوصول إلا تقاطراً الواحدة تلو الأخرى إقترحت مجموعة الجيوش أن تقوم الفرقتان المتقدمتان من فيلق بانزر من سرايا الدفاع بتوجيه ضربة قصيرة و حادة بهدف إستقامة وضع الجيش الأول بانزر جنوب نهر "دونتز"، و بناء عليه يتم إستخدام كامل مدرعاتنا لتدمير رأس الكوبري الضخم المعادي في قطاع الجيش السادس و إستعادة السيطرة على جبهة نهر "ميوس"، و مع ذلك فقد حرّم "هتلر" القيام بأي عمل في قطاع الجيش الأول بانزر على الرغم من عدم وجود أقلّه سبب لإحتياج ذلك لإستمرار بقاء الفيلق التابع لسرايا الدفاع، و لمّا حدث و تدخل "هتلر" في إدارة مجموعة الجيوش للعمليات – عندما أوقف "هتلر" إستخدام مفرزة الجيش "كامف" للفيلق ٢٤ بانزر تحديداً – شعرت بضرورة الإحتجاج لدى *القيادة العليا للجيوش الألمانية* ، و ما يلي هو ما كتبته للجنرال "زيتزلر":

"إن تم تجاهل هواجسي بشأن التطورات القادمة، و إن إستمر غض الطرف عن نواياي كقائد – و التي تستهدف ببساطة إزالة المصاعب التي لست أنا المسئول عنها – فإنني لن يكون أمامي من خيار سوى إفتراض إفتقاد الفوهرر للثقة اللازمة في هذه القيادة، و أنا بعيد تماماً عن أن أعتقد أنني معصوم من الخطأ، فكل إبن آدم خطّاء – بما في ذلك القادة العظام مثل فريدريك و نابليون، و في نفس الوقت أشير إلى فوز الجيش الحادي عشر في حملة القرم في ظل ظروف صعبة للغاية و إلى أن مجموعة الجيوش الجنوبية و برغم مواجهتها لأشد المواقف إفقاداً للأمل في نهاية العام الماضي إلا أنها ظلت سيدة الموقف.

إن كان الفوهرر يعتقد أن بإمكانه أن يجد أي قائد مجموعة جيوش أو طاقم قيادة ذات أعصاب أكثر تماسكاً من خاصتنا خلال الشتاء الماضي و ذات مبادرة أكثر مما أظهرناه في شبه جزيرة القرم أو على نهر "دونتز" أو عند "خاركوف" و ذات مواهب إرتجالية أقوى مما أبرزناه في حملتي القرم و الشتاء أو ذات قدرة على التنبؤ بما هو حتمي بشكل أوضح مما فعلناه فأنا على إستعداد تام بتسليم القيادة لهم.

و مع ذلك طالما بقيت في هذا المنصب فيجب أن أظل متمعاً بفرصة إستخدام عقلي الخاص".

و قد شهد يوم ٣٠ يوليه بداية الهجوم المضاد الذي تم شنه في منطقة الجيش السادس باوسطة ما تم جلبه من مدرعات من الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش، و تمخض عن هذا الهجوم إستعادة كاملة للموقف على جبهة نهر "ميوس"، و كانت نسبة القوات المشاركة فيه دالّة ليس فقط على الموقف السائد حينئذً و لكن على التفوق النوعي للقوات الألمانية كذلك، حيث إن العدو كان يمتلك في رأس الكوبري ما لا يقل عن ست عشرة فرقة مشاة و فيلقين ميكانيكيين و لواء مدرع و لوائين مضادين للدبابات، و قد شنت الهجوم المضاد الألماني أربع فرق مدرعة و فرقة غرناد بانزر واحدة إضافة إلى فرقتي مشاة.

و قد خسر العدو السوفييتي إبان هذا الهجوم المضاد و هجماته السابقة عليه ١٨ ألف رجل أسير و ٧٠٠ دبابة و ٢٠٠ مدفع ميداني و ٤٠٠ مدفع مضاد لدبابات.

معركة غرب "بلجورود" و القتال في سبيل "خاركوف":

برغم من نجاحنا في إستعادة الموقف في قطاع الجيش السادس إلا أننا ما نزال نعاني من جرح دامٍ على جبهة الجيش الأول بانزر على نهر "دونتز"، و لم يعد بالإمكان كيّ هذا الجرح حيث صارت العاصفة الآن مختمرة فوق الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش.

و منذ اللحظة التي تم فيها سحب مفرزة الجيش "كامف" و الجيش الرابع بانزر إلى مواقعهم قبل إنطلاق العملية "قلعة" قام العدو بوضعهما تحت ضغطه التدريجي، و بحلول نهاية الشهر أظهر مراقبونا على اللاسلكي و طلعات الإستطلاع الجوي أن العدو يقوم بنشر حشود مدرعة قوية في نتوء "كورسك" – قطعاً بإحضار قوات جديدة إلى منتصف الجبهة الشرقية، كما تم أيضاً رصد تحضيرات هجومية في ثنية نهر "دونتز" جنوب شرق "خاركوف".

في الثاني من أغسطس أبلغنا *القيادة العليا للجيوش الألمانية* أننا نتوقع هجوم قريب على الجبهة الشمالية لمجموعة الجيوش غرب "بلجورود"، و هذا – حسبما إعتقدنا – قد يكون مدعوماً بهجوم جنوب شرق "خاركوف" يستهدف وضع قواتنا حول المدينة بين شقي رحى مع فتح طريق العدو إلى نهر دنيبر"، و قد طلبنا إعادة الفرقتين المدرعتين

اللتين سبق تسليمهما لمجموعة الجيوش الوسطى و الإذن بالإحتفاظ بالفيلق بانزر من سرايا الدفاع لإستخدامه على جناحنا الشمالي، و بجانب ذلك إقترحنا توجيه الفيلق الثالث بانزر و الفرقة الثالثة بانزر من منطقة نهر "دونتز" إلى "خاركوف".

في الثالث من أغسطس بدأ هجوم الأول للعدو على الجيش الرابع بانزر و جبهة مفرزة الجيش "كامف" غرب "بلجورود"، و قد عمد العدو لإحداث إختراق في الحدود بين الجيوش مع توسيع هذا الإختراق في الأيام القليلة التالية بشكل ملحوظ من حيث العرض و العمق، و قد تقهقر الجيش الرابع بانزر للغرب و مفرزة الجيش "كامف" في إتجاه جنوبي صوب "خاركوف"، و حتى بحلول الثامن من أغسطس كانت هناك ثغرة كبيرة بعرض ٣٥ ميلاً بين كلا الجيشين في المنطقة الواقعة شمال غرب المدينة، و قد بدا أن العدو يمتمع بحرية التقدم إلى "بولتافا" ثم إلى نهر "دنيبر".

و قد أمرت مجموعة الجيوش الفيلق الثالث بانزر (قوامه فرقتي سرايا الدفاع المدرعتين اللتين سمح لنا "هتلر" أخيراً بالإحتفاظ بهما إضافة إلى الفرقة الثالثة بانزر... الكاتب) بالتحرك صوب "خاركوف" حتى تتمكن مفرزة الجيش "كامف" من توجيهه نحو الجناح الشرقي لرأس حربة إختراق العدو، و تزامناً مع ذلك كان على الجيش الرابع بانزر الهجوم على الجناح الغربي لرأس الحربة بالفرقتين المدرعتين العائدتين من مجموعة الجيوش الوسطى و فرقة غرناد بانزر أخرى.

و مع ذلك كان واضحاً بجلاء عدم إمكان تقديم أي فعل تنفذه هذه القوات – و لا حتى كامل قوات مجموعة الجيوش – أي إجابة طويلة الأمد للمسألة الراهنة، فقد كانت خسائر فرقنا عالية بشكل ينذر بالخطر و تعطلت فرقتان تماماً عن الخدمة بسبب إستمرار الضغط عليها، و الأكثر من ذلك أنه خلال التقدم السريع للعدو تم فقدان عدد كبير من دباباتنا و هي ما تزال في الورش.

و على النقيض لكل ما سبق بدا بشكل واضح أن العدو أتم تعويض كافة خسائره في العملية "قلعة" بشكل أسرع مما كنا نتوقع، و فوق كل ذلك قام العدو بسحب قوات جديدة قوية من جبهات أخرى.

و كما قد يكون المرء توقع بدا أنه من المستبعد الشك فيه أن العدو قرر الآن بدء هجوم جديدة ضد الجناح الجنوبي الألماني، فهو لم يكتفِ بجلب قوات جديدة لجبهة الإختراق و حسب و إنما كان هناك هجوم تحت التحضير على جبهتنا شرق و جنوب شرق

"خاركوف"، و في نفس الوقت كانت هناك أمارات على أن هناك هجوماً جديداً مخططاً له على جبهة "دونتز- ميوس".

و عندما قدم لزيارتنا رئيس هيئة الأركان العامة في الثامن من أغسطس أخبرته بوضوح تام أنه منذ الآن فصاعداً لم يعد بإمكاننا تقييد أنفسنا بتلك المسائل المنعزلة المتعلقة بمدى إمكان فصل الفرق كذا و كذا من مجموعة الجيوش الجنوبية أو سواء كان يتوجب إخلاء رأس الكوبري في منطقة نهر "كوبان" أم لا، حيث كان الأمر الحيوي يتمحور حول وجوب قيامنا بكل شيء نقدر عليه لإحباط ما كان قطعاً محاولة العدو تدمير الجناح الجنوبي الألماني، و قد كانت هناك طريقتان ممكنتان لإتمام ذلك: **الأولى** تتمثل في إخلاء منطقة نهر "دونتز" لتحرير القوات لصالح الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش و على الأقل التمسك بنهر "دنيبر" في الجنوب، أما **الثانية** فكانت أن تنقل بسلاسة *القيادة العليا للجيوش الألمانية* على الأقل عشر فرق من الجبهات الأخرى لتلك المنضمة للجيش الثاني من مجموعة الجيوش الوسطى و الجيش الرابع بانزر في الشمال و تقوم بتوجيه عشر أخريات صوب نهر "دنيبر"، و لكن في ذاك الوقت أيضاً – و برغم المطالب المتكررة لمجموعة الجيوش – لم يتم إتخاذ أي قرار فعال.

و في تلك الأثناء كان الموقف يزداد سوءً تدريجياً، فبينما أجبر العدو الجيش الرابع بانزر على التقهقر غرباً بدا من الواضح أن ينتوي تزامناً مع ذلك تطويق مفرزة الجيش "كامف" من خلال الثغرة التي فتحها و محاصرتها في "خاركوف"، و في ١٢ أغسطس هاجم العدو كذلك جبهتنا شرق المدينة و جنوب شرقها، و قد لحقت الهزيمة بالفرق المتموضعة هناك – و المنتشرة على مسافة كبيرة الإمتداد – و بات خطر تطويق المفرزة حول المدينة واقعاً حالاً.

و كالمعتاد – و لكن لأسباب سياسية هذه المرة – طلب "هتلر" التشبث بالمدينة مهما كانت التكاليف مشيراً إلى أن سقوطها سيكون له مردود في غير صالحنا لدى بلغاريا و تركيا، و برغم الصواب الذي بدا عليه ذلك إلا أن مجموعة الجيوش لم تكن لديها أي نية للتفريط في أي جيش في سبيل "خاركوف".

في ٢٢ أغسطس تم إخلاء "خاركوف" للحصول على القوات اللازمة للجناحين المهددين من مفرزة الجيش "كامف" و الحيلولة دون تطويقها، و في نفس الوقت تم تحويل المفرزة لتكون الجيش الثامن و تولى قيادته رئيس أركاني السابق الجنرال

"فولر"، و على الرغم من أن تكيفت مع الجنرال "كامف" إلا أنني لم أعارض التغيير – المقترح من "هتلر" – خاصة و أن تحوط "فولر" و رباطة جأشه – و التي تصدت لإختبارات صعبة عديدة في شبه جزيرة القرم – سيكونان ذَوَي قيمة خاصة في الموقف الحالي.

و خلافاً لما سبق كان يوم ٢٢ أغسطس يوم أزمات بمعنى الكلمات، فقد هاجم العدو مجدداً في منطقة نهر "دونتز"، و على الرغم من قدرة الجيش السادس على وقف أي تهديد بالإختراق إلا أن قواته لم تكن بالقدر الكافي لإستعادة الموقف، و قد تمكن الجيش الأول بانزر من التصدي لهجوم كبير آخر و لكنه كذلك كان قد بلغ منتهاه في القوة، و بينما كان الجيش الثامن قادراً على الخروج من "خاركوف" سالماً كان على الجيش الرابع بانزر خوض قتال ثقيل برغم نجاحه في عمل دفاعي واحد على جناحه الجنوبي.

و على الرغم من ذلك كان ممكناً بحلول ٢٣ أغسطس – بإستخدام المدرعات المنسحبة من منطقة نهر "دونتز" و مجموعة الجيوش الوسطى – وقف إختراق العدو تجاه "بولتافا" لبعض الوقت، و تم إعادة تشكيل جبهة – مهما كانت نحيلة و غير مكتملة – في قطاعات الجيشين الرابع بانزر و الثامن بدءً من نقطة جنوب "خاركوف" إلى جنوب غرب "أختيركا"، و بينما كان الجيش الرابع بانزر قادراً على حفظ الإتصال مع الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش الوسطى إلا أنه ما تزال هناك ثغرة واسعة في جبهة هذا الجيش جنوب غرب "أختيركا"، و هي ما تم إغلاقه في نهاية الشهر ذاته إبان هجوم يستهدف تعديل وضع الجبهة.

و تظهر الصورة الإستخباراتية ليوم ٢٣ أغسطس المعوقات الوامتعين على كلا الجيشين التعامل معها، حيث كان العدو قد أشرك في مواجهة الجيش الرابع بانزر جبهة "فورونيز" بأكملها – قوامها ثلاثة جيوش تتأهب للهجوم { إثنان مشاة و واحد دبابات} و رابع في طريقه للحاق بها، و أما الجيش الثامن فكانت تقابله جبهة "السهوب" المكونة مما لا يقل عن ستة جيوش أحدها مدرع.

و يمكن الحصول على فكرة أوضح حول وضع مجموعة الجيوش بأكملها من مقارنة القوات – مشتملة على إتساع الجبهات العاملة عليها – التي قدمناها *للقيادة العليا للجيوش الألمانية* في٢٠/٢١ أغسطس، و هي:

تشكيلنا	إتساع الجبهة	عدد الفرق	القوة القتالية التقريبية	عدد تشكيلات العدو مستن منها ما إنسحب حتى تار
الجيش السادس	١٥٥ ميل	١٠ مشاة ١ مدرعة	تعادل ٣.٥ فرقة. تعادل نصف فرقة.	٣١ فرقة مشاة ٢ فيلق ميكانيكي ٧ ألوية مدرعة ٧ أفواج مدرعة (ما مجموعه ٤٠٠ دباب
الجيش الأول با	١٥٥ ميل	٨ مشاة ٣ مدرعة أو غرناد بانزر	تعادل ٥.٥ فرقة . تعادل ١.٢٥ فرقة.	٣٢ فرقة مشاة ١ فيلق دبابات ١ فيلق ميكانيكي ١ لواء مدرع ٦ أفواج مدرعة ١ فيلق خيالة (ما مجموعه ٢٢٠دبابة)
الجيش الثامن	١٣٠ ميل	١٢ مشاة ٥ مدرعة	تعادل ٥.٧٥ فرقة. تعادل ٢.٣٣ فرقة.	٤٤-٤٥ فرقة مشاة ٣٣ فيلق ميكانيكي ٣ فيالق دبابات ١١ ألوية مدرعة ١٦ فوج مدرع (ما مجموعه ٣٦٠دبابة)
الجيش الرابع بانزر	١٧٠ ميل	٨ مشاة ٥ مدرعة	تعادل ٣ فرق. تعادل ٢ فرقة.	٢٢-٢٥ فرقة مشاة ١ فيلق ميكانيكي ٥ فيلق دبابات ١ لواء مدرع ١ فوج مدرع (ما مجموعه ٤٩٠دبابة)
مجموعة الجيوش الجنو	٦١٠ ميل	٣٨ مشاة ١٤ مدرعة	تعادل ١٨ فرقة. تعادل ٦ فرق.	

و عند تقييم القوة القتالية لقوات العدو إفترضنا أنها بالنسبة لأغلب التشكيلات المدرعة و تشكيلات المشاة ستتراوح بين ٣٠ – ٥٠ %، أما بالنسبة للعدد الضئيل من الفرق جديدة و فيالق الدبابات أو الميكانيكية المنفردة ستكون قرابة ٧٠ أو ٨٠%، و من ثمّ كان العدو بلا شك يعاني خسائر كبيرة نظراً لحدوث إنخفاض في قوته القتالية يفوق ما تعرضنا له أو يقل عنه.

و ما عجزنا عن التعامل معه كان العدد المهول للتشكيلات السوفييتية و خصوصاً أن العدو دأب في الأيام القلائل التالية على جلب قوات جديدة من جبهة "أوريل".

و تظهر أيضاً المقارنات السابقة المدى الذي بلغه العدو في تركيز قواته – المدرعة أولاً و أخيراً – ضد الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش، حيث كشفت الطريقة التي إتبعها بشأن حشد قواته أمام الجيش الثامن و الجناح الأيمن للجيش الرابع بانزر بوضوح عن نيته الإختراق في إتجاه نهر "دنيبر"، و تبعاً لذلك تجاوز العدو ذلك – بواسطة جلب تعزيزات أكبر – لمحاولة تطويق الجيش الرابع بانزر في الشمال و دفعه للإبتعاد عن "كييف".

و ما يظهر أيضاً من مقارنتنا للقوى أنه و على عكس الهيكل البنائي للعدو منذ العملية "قلعة" – ٥٥ فرقة مشاة و فيلقين دبابات أو ميكانيكية و عدد مهول من الألوية المدرعة – كانت الزيادة الحادثة في عدد تشكيلات مجموعة الجيوش الجنوبية طفيفة – تسعة فرق مشاة و فرقة مدرعة حتى نهاية أغسطس، و من بين الأخيرة تلك تم ضم أربع فرق مشاة للفيلق السابع الذي تم نقله من الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش الوسطى للجيش الرابع بانزر، و نظراً للزيادة في إمتداد جبهة هذا الجيش بما يساوي ٧٥ ميلاً لم تُعتبر الأربع فرق سالفة الذكر زيادة حقيقية.

و على الرغم من ذلك كان لدينا خمس فرق مشاة إضافية و واحدة مدرعة، و لو كنا تسلمنا إياها قبل العملية "قلعة" لربما تمكنت من تسريع نجاح الهجوم الأول لمجموعة الجيوش و أثّرت في سير المعركة بشكل كبير بما يصب في مصلحتنا، و للا محل للشك في أن تحرير تلك القوات كان ليكون أسهل إن تم قبل "قلعة" مما لو تم بعدها – حينما صار الموقف أكثر إرهاقاً.

الأجيج ينتشر:

و بينما تولد عن إعادة تشكيل جبهة متواصلة بقدرٍ ما من "خاركوف" إلى "سومي" في ٢٧ أغسطس إرتخاء – و إن كان وجيزاً – في التوتر المشهود على الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش صار الوضع في منطقة نهر "دونتز" أكثر خطورة مما سبق.

نتيجة لذلك قدمت مجموعة الجيوش طلباً قاطعاً بأن يتم إما تزويد جناحها الجنوبي بعدد أكبر من القوات – بدون أي تغيير في المهام المكلفة بها المجموعة – أو منحها حرية الحركة بهدف إيقاف العدو على خط أبعد.

و نتيجة لذلك قرر "هتلر" زيارة جنوب روسيا و عقد مؤتمر هناك، و هو ما حدث في "فينيستا"[١] حيث كان مقره السابق.

و خلال المحادثات قمت و معي قادة الجيوش و قائدي فيلق و فرقة عاملين معي بمنح "هتلر" صورة واضحة للغاية عن الموقف مع الإشارة بشكل خاص إلى حالة القوات التي باتت تعاني من الإرهاق، و قد لفت إنتباهه إلى حقيقة أنه تم تعويض ٣٣ ألف رجل فقط من خسائر قدرها ١٣٣ ألف، و حتى بالرغم من كون قوة العدو القتالية قد ضعفت بقدرٍ ما إلا أن القدر المهول الذي يمتلكه من القوات ما يزال يسمح له مواصلة إلقاء فرقٍ قادرة على القيام بعمل هجومي في أتون المعركة، و بجانب ذلك واصل العدو جلب قوات جديدة من القطاعات الأخرى للجبهة الشرقية.

و تلخيصاً للموقف الحالي أصررت على أنه في حين بات من غير الممكن التمسك بمنطقة نهر "دونتز" بما هو متاح حالياً من القوات فإن الخطر الأكبر المحدق بالجناح الجنوبي الألماني بأسره يقبع في الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش التابعة لنا، حيث إن الجيشين الثامن و الرابع بانزر لن يكونا قادرين في المدى الطويل على منع العدو من الإختراق صوب نهر "دنيبر".

و قد قدمت لـ"هتلر" الحل التالي:

---

[١] فينيستا : مدينة غرب أوكرانيا.

١. إما تزويد مجموعة الجيوش بقوات جديدة على وجه السرعة – بما لا يقل في كل الأحوال عن إثني عشر فرقة – و تبديل فرقنا المنهكة بأخرى من الأجزاء الأخرى من الجبهة.
٢. أو التخلي عن منطقة نهر "دونتز" لتحرير القوات خلال مجموعة الجيوش.

و قد وافق "هتلر" – و الذي بقي ظل على موضوعيته طيلة هذه المناقشة و برغم إصراره على محاولة الخوض في كل أنواع التفاصيل الفنية – على وجوب تقديم الدعم الحيوي لمجموعة الجيوش و وعد بتوفير كل ما يمكن فصله من قطاعات مجموعتي الجيوش الوسطى و الشمالية من تشكيلات، و قد قال إن إمكانية إستبدال فرق منهكة بأخرى أفضل حالاً من قطاعات أخرى سيتم البت فيها في غضون يومين على الأكثر.

و قد أظهر اليوم التالي أن شيئاً من تلك الوعود لن ينفذ.

هاجم الروس الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش الوسطى {الجيش الثاني} محققين إختراقاً محدوداً دفع هذا الجيش للتراجع غرباً، و حدثت أزمة أخرى في ذات مجموعة الجيوش بسبب هجوم سوفييتي ناجح في قطاع الجيش الرابع.

و بعد زيارة الفيلد مارشال "فون كلوج" لمقر القيادة العام في ٢٨ أغسطس لم يُسمع أي نبأ حول تحرير أي قوات من هذا القطاع، و قد إدعت مجموعة الجيوش الشمالية أيضاً أنها لا يمكنها فصل أي فرقة عنها، و فيما يتعلق بمسارح الحرب الأخرى كان "هتلر" يريد بداءةً الإنتظار و ترقب أي تطورات تحدث ليرى ما إن كان البريطانيون سيقومون الآن بإنزال بري في "أبيولا" أو البلقان أو بتقييد قواتهم في سردينيا – و هو الإحتمال غير المتوقع و غير المهم كذلك.

و لسوء الحظ لم يعر الروس أدنى بال لرغبة "هتلر" تلك في تأجيل قراره، فقد واصلوا الهجوم و صار الموقف حرجاً بشكل أكثر تزايداً.

تم إختراق الجيش السادس و بات الفيلق المقاتل على الساحل مهدداً بتطويق العدو له، و نظراً لعدم كفاية الفرق التي أرسلتها *القيادة العليا للجيوش الألمانية* لمنطقة نهر "دونتز" على عكس رغبة مجموعة الجيوش التي أرادتها على الجناح الشمالي لها كافية لإستعادة الموقف فقد صدرت أوامر في ٣١ أغسطس للجيش السادس بالتراجع لموقع مجهز كدرع لحمايته في الخطوط الخلفية، و كان هذا يعني أن الخطوة الأولى للإنسحاب من

منطقة نهر "دونتز" تم إتخاذها بالفعل، و في ذات المساء منح "هتلر" أخيراً لمجموعة الجيوش الحرية في الإنسحاب التدريجي للجيش السادس و الجناح الأيمن للجيش الأول بانزر و ذلك على حد قوله :**"بشرط أن يكون الموقف متطلباً لذلك بشكل مطلق و عدم وجود أي بديل ممكن آخر"**، و في نفس الوقت صدرت تعليمات بتدمير كل المنشآت ذات الأهمية العسكرية في منطقة نهر "دونتز".

و لو كان تم منح حرية الحركة تلك منذ أسابيع قليلة لصارت مجموعة الجيوش في موضع يمكنها من خوض معركة على جناحها الجنوبي بشكل أكثر إقتصادية، و لأمكنها تحرير تشكيلات من أجل الجناح الشمالي الحيوي الذي ما يزال يوقف تقدم العدو على جبهة تم تقصيرها – ربما حتى أمام نهر "دنيبر"، و مع ذلك فقد خدمت الآن حرية الحركة فقط في درء الهزيمة عن الجناح الجنوبي، و حتى إن بقي مشكوكاً فيه ما إن كان ما يزال من الممكن تشكيل جبهة سليمة أمام النهر.

و في حين كان الجيش الأول بانزر – بإستثناء الجزء الموجود على جناحه الأيمن الذي تم سحبه تزامناً مع إنسحاب الجيش السادس لموقع جديد – قادراً على التماسك على نهر "دونتز الأوسط" كان الموقف على الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش يتدهور من جديد.

و قد كان الجيش الثامن – المهاجَم من الشمال و الشرق في المنطقة الواقعة جنوب "خاركوف" قادراً على الحيلولة دون إتمام العدو لأي إختراق فقط بواسطة الإنسحاب – و لحسن الحظ ليس لمسافة بعيدة – و تقصير جبهته.

أما بالنسبة للجيش الرابع بانزر فقد تم إجباره بفعل إنسحاب جاره الشمالي {الجيش الثاني من مجموعة الجيوش الوسطى} على سحب جناحه الأيسر، و هو ما قاد إلى مدّ جبهته – و التي صارت الآن نحيلة جداً - لأبعد مما سبق، و قد تسببت الحقيقة المتجلية في ضعف قيادة الفيلق الجنوبي من الجيش الثاني {الفيلق الثالث عشر} و التي أمرت بإنسحابه إلى منطقة الجيش الرابع بانزر في إثقال كاهل الأخير ليس فقط بأربع فرق سيئة الحالة و لكن بإضافة ٥٦ ميلاً من الجبهة مواجهة للشمال، و يمكن للمرء أن يتنبأ بأنه بمجرد إستئناف العدو لهجومه – و الذي تقلصت قوته الهجومية مؤقتاً – فمن غير المحتمل أن يتمكن الجيش الرابع بانزر من التصدي له، و قد تفاقمت شدة الخطر بفعل التهديد الجديد المحدق بالجناح الشمالي لهذا الجيش.

و قد دفعتني خطورة الموقف المتزايدة – فضلاً عن غياب أي قرار من "هتلر" متعلق بالتعزيزات – إلى الطيران صوب مقر القيادة العامة في بروسيا الشرقية في الثالث من سبتمبر، و قد طلبت من الفيلد مارشال "فون كلوج" مصاحبتي حيث تمنيت في أن نقوم معاً بتوزيع قواتنا وفقاً لطريقة تضع في حسبانها ما يفكر فيه العدو، و في نفس الوقت تمنينا فتح باب الحديث حول الحاجة إلى ترشيد القيادة العامة – و بالأخص القضاء على إزدواجية *القيادة العليا للجيوش الألمانية* و *القيادة العليا للفيرماخت* في مسرح الحرب الشرقي، و كنت قد كتبت في اليوم السابق للجنرال "زيتزلر" خطاباً طلبت فيه القيام في نهاية المطاف بأي شيء في سبيل تركيز حقيقي للجهد على النقطة الحاسمة للجبهة الشرقية، و قد قلت أنه بالنظر للتطورات على الأجنحة المتاخمة من مجموعتي الجيوش الوسطى و الجنوبية يكون من الضروري أن نأخذ إحتياطنا و ننشر جيشاً أمام "كييف"، فإن تأخر وصول التعزيزات من المسارح الأخرى حتى يقوم أعداؤنا الغربيون بإنزال بري على أرض القارة فسيكون الأوان قد فات في الشرق، و على أي حال يجب ألا يكون من العسير أن نخمن النوايا العامة للقوى الغربية بالنظر إلى قواتها البحرية بما تملكه من سعة نقل، و قد أخبرني "زيتزلر" أنه عندما أظهر لـ"هتلر" الخطاب تملكه الغضب و جزم بأن كل ما أهتم بفعله هو القيام بعمليات مبتكرة و تبرير موقفي في يومياتي الحربية، و هو الأمر الذي شعرت بسذاجته.

و أشعر بأسف حين أقول أن محادثتي و "فون كلوج" مع "هتلر" كانت بلا طائل، حيث أعلن "هتلر" أنه لن يتم فصل أي قوات سواء من المسارح الأخرى أو مجموعة الجيوش الشمالية، كما كان رد فعله سلبياً إزاء فكرة إنشاء قيادة موحدة عبر نقل المسئولية عن كل المسارح الحربية إلى رئيس هيئة الأركان العامة و كان رأيه يتمحور حول أنه حتى تأثير رئيس الأركان لن يقدم أي شيء مختلف أو تحسين بشأن الإدارة العامة للحرب، و بالطبع كان "هتلر" على وعي تامٍ بأن الهدف النهائي وراء تقديم رئيس أركان مسئول عن كل مسارح العمليات الحربية يتمثل في أن يتخلى "هتلر" عن إدارة العمليات مع الإحتفاظ بأن تكون له الكلمة الأخيرة بشأنها، و قد كان معارضاً لتلك الفكرة لأنها تقود لإبعاده عن القيادة في الشرق بتعيين قائد عام حقيقي لهذا المسرح.

و نظراً لعدم إتخاذ أي إجراء بواسطة *القيادة العليا للجيوش الألمانية* في الأيام القليلة القادمة لإطلاع نفسها على الموقف في مجموعة الجيوش الجنوبية قمت بإرسال رسالة تلغرافية أخرى في السابع من سبتمبر عرضت فيها مجدداً الوضع على جبهة مجموعة

الجيوش، و قد أوضحت أن العدو قد أشرك بالفعل ٥٥ فرقة و فيلقين دبابات...إلخ ضدنا، و أن تلك القوات لم تأت فقط من إحتياطاته و لكن بشكل كبير من القطاعات الأخرى للجبهة الشرقية، و الأكثر من ذلك أن هناك أخريات كن على الطريق، و مرة أخرى أبديت إصراراً على وجوب إتخاذ أي تصرف حاسم بشكل عاجل إن إبتُغي أن تظل مجموعة الجيوش مسيطرة على الموقف.

و نتيجة ذلك تمثلت في زيارة "هتلر" لمقر قيادتنا في "زابوروزهي" في اليوم التالي مباشرة مرسلاً كذلك كلاً من الفيلد مارشال "فون كليست" قائد مجموعة الجيوش "أ" و الجنرال "روف" - و الذي ما يزال الجيش السابع عشر الخاضه له في منطقة نهر "كوبان" – إلى هناك لملاقاته.

و كل ما أمكنني فعله في هذا المؤتمر هو التشديد مجدداً على خطورة موقف مجموعة الجيوش و حالة قواتها إضافة إلى ما قد تتخمض عن هزيمة الجناح الشمالي من نتائج تتعلق ليس فقط بنا و إنما بمجموعة الجيوش "أ" أيضاً.

و قد شددت أيضاً على عدم غمكان إستعادة موقف الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش أمام نهر "دنيبر"، فقد نجح العدو على الجناح الشمالي للجيش السادس في إحداث ثغرة بعرض ٢٨ ميلاً في جبهتنا ما تزال تقاتل فيها بقايا فرقتين تابعتين لنا، و لم يكن ممكناً لنا أن نأمل بالنظر للمقدار الضئيل من المدرعات التي في حوزتنا في أن شن هجوم مضاد يغلق هذه الثغرة، و لذا – و سواء أحببنا ذلك أم لا – يتعين علينا الإنسحاب لما وراء نهر "دنيبر" – على الأخص بالنظر للتداعيات المحتملة للتوتر الإستثنائي للموقف على الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش.

و الآن قبِل "هتلر" من حيث المبدأ الحاجة إلى سحب الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش إلى خط "مليتوبول- دنيبر" على الرغم من كونه ما زال آملاً في تجنب القيام بذلك بإستخدام كتائب المدافع الهجومية "ستورم تايجر" الجديدة، و كالمعتاد إعتقد "هتلر" أن إستخدام الموارد الفنية كافٍ لوقف أي تقدم يستوجب في واقع الأمر لتجنبه الإستعانة بعدة فرق.

و مع ذلك قال "هتلر" فيما يتعلق بالحصول على قوات من مجموعة الجيوش الوسطى بواسطة سحبها إلى نهر "دنيبر العلوي" أنه من المستحيل الإنسحاب لكل تلك المسافة بدون أن يلحظ العدو ذلك، حيث سيحل علينا موسم الطين قبل إتمام أي تحرك من هذا

القبيل و ستضيع الكثير من المعدات – كما حدث بالفعل في إخلاء نتوء "أوريل" – في تلك العملية، و أفضل ما يمكن للمرء تمنيه هو الإنسحاب لخط متوسط الموقع، و هذا بالطبع لن يحقق الإقتصاد في القوة البشرية الذي كنا نبغيه.

لقد كانت المسألة برمتها متعلقة بالمرونة العملياتية و هذا كان شيئاً إختلفت حوله وجهات نظرنا – المبنية على الخبرات التي جمعناها من تجاربنا في شبه جزيرة القرم و حملة شتاء ١٩٤٢/٤٣ – جذرياً مع *القيادة العليا للجيوش الألمانية* و حتى مع بقية مجموعات الجيوش، ففي خلال الحملات محل الكلام كان علينا دوماً أن نعمل في سرعة و حركية و لم نتملك أبداً الوقت للتخطيط و التجهيز طويل الأمد، و من ناحية أخرى لم يؤمن "هتلر" و بقية مجموعات الجيوش أنه من المسموح به القيام بتحركات لمسافات بعيدة للقوات في سلاسة و رشاقة، و إقراراً للحق أقول أن الإخلاء السريع للجبهات و الذي يعد أمراً ستاتيكياً {ساكناً بطيئاً} منذ زمن طويل زادت من تعقيده أوامر "هتلر" بوجوب أن تقوم كل الجيوش بتكديس و إدخار مخزون ثلاثة أشهر من المؤن و الذخيرة بحيث تتمكن من الثبات في رسوخ في أي وقت يتعذر وصول الإمدادات لها مؤقتاً.

و لكن على الرغم من أنه لم يكلف نفسه الموافقة على أي شيء جذري مثل مقترحي بشأن تقصير جبهة مجموعة الجيوش الوسطى إلا أن "هتلر" أدرك ضرورية التقوية الجذرية لمجموعة الجيوش الجنوبية.

و بناء على إقتراح من رئيس هيئة الأركان العامة أمر "هتلر" مجموعة الجيوش الوسطى بنشر فيلق قوامه فرقتي مشاة على الفور على حدودها مع الجيش الرابع بانزر، و الغرض من ذلك كان وقف عملية تطويق جناحنا الشمالي.

و بالإضافة لما تقدم وعد "هتلر" بالإستجابة لمطالبي بشأن منحي قوات أكبر عدداً لحماية نقاط تقاطع نهر "دنيبر"، و أخيراً – و بغرض إتاحة تلك القوات – قرر "هتلر" إخلاء رأس كوبري "كوبان" و الذي ظل لمدة طويلة بدون أي قيمة عملياتية، و وفقاً لما قاله الفيلد مارشال "فون كليست" فإن هذه العملية ستكتمل بحلول ١٢ أكتوبر.

و لسوء الحظ لم نتمكن من إستصدار الأوامر المناسبة بطريقة مستقيمة – من مقر قيادتي تحديداً، و لكن عندما قابلت "هتلر" في مهبط الطائرات كرر لي وعده بشأن التعزيزات قبل أن يستقل طائرته.

في ظهيرة نفس اليوم أصدرنا أوامر للجيشين السادس و الأول بانزر بالإنتقال لوضع الدفاع النشط ممارسين إياه بأسلوب يضمن حفظ إستقرار القوات لأطول فترة ممكنة في سبيل إتمام الإنسحاب.

و فيما يتعلق بجبهتي الجيشين الرابع بانزر و الثامن كانت مجموعة الجيوش تأمل في أنه بمجرد وفاء "هتلر" بوعوده سيكون من الممكن إستعادة الموقف على الجناح الشمالي للجيش الرابع بانزر عبر شن هجوم مضاد بواسطة الفيلق المزمع أن تنقله مجموعة الجيوش الوسطى إلينا، و يتعين علينا أن نكون قادرين على دعم الجبهة بالفرق المتحركة الآن صوب نهر "دنيبر"، و من ثمّ سيكون ما يزال من الممكن وقف العدو أمام النهر – في مكان ما حول "بولتافا".

و لسوء الحظ حلّ اليوم التالي حاملاً لنا إحباطاً جديداً، حيث لم يتم إصدار الأمر القاضي بتحرك الأربع فرق نحو خط نهر "دنيبر" – الذي وعد به "هتلر" قبل مغادرته، و الأدهى من ذلك أنه حدث تأخير في نشر مجموعة الجيوش الوسطى لفيلق على جناحنا الأيمن، و ما تزال هناك شكوك تحوم حول مدى ما يمكن إتاحته من قوات و متى و بأي قوة؟

و قد سألت رئيس الأركان العامة أن يخبر "هتلر" أنه في تلك الظروف علينا أن نتقبل إحتمالية قيام العدو بالإختراق في إتجاه نقاط تقاطع نهر "دنيبر" بما فيها تلك الواقعة في "كييف"، و بالنظر لحقيقة التأجيل المتكرر من القيادة العليا لإصدار القرارات و إخفاقها في الوفاء بوعودها التي إستندت عليها مجموعة الجيوش في ما تتخذه من تدابير و إجراءات فقد إعتبرت أنه من الضروري أن أورد فقرة يتم تسليمها لـ"هتلر" كتابةً بسبب شدة أسلوبها، و أورد نصها في هذا المقام لأنها تكشف بوضوح عن هوة الإختلاف في وجهات النظر بين القيادة العليا و مجموعة الجيوش الجنوبية:

"إن مجموعة الجيوش عكفت منذ نهاية معارك الشتاء على إبلاغكم بأنها لن تكون قادرة على الدفاع عن جبهتها بالقوات التي في حوزتها كما طالبت تكراراً – بلا جدوى – بتنظيم جذري لنشر القوات في الجبهة الشرقية أو بين الأخيرة تلك و مسارح الحرب الأخرى، و بالنظر لأهمية الأراضي التي تتولى مجموعة الجيوش الجنوبية الدفاع عنها و الحقيقة الواضحة بجلاء المتمثلة في أن الروس سيوجهون الجهد الرئيسي لهجومهم ضد هذه المجموعة نجد أن هذا التنظيم بات أمراً ملحاً.

و بدلاً عن ذلك تم تجريد مجموعة الجيوش من بعض القوات بعد العملية قلعة و لم يتم تزويدها بالتعزيزات المناسبة عندما تعرضت للأزمة.

إن دافعي للإدلاء هذا التصريح لا يكمن في التهرب بأثر رجعي من المسئولية عن التطورات في الشرق و لكن في ضمان إتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب مستقبلاً"

و لكن "هتلر" بوضوح لم يتقبل ما نعتبره الآن حتمياً و إنسحاب مجموعة الجيوش الوسطى لخط نهر "دنيبر" و هو ما يتضمن سحب القوات الكافية لإستعادة السيطرة على الموقف على الجناح الجنوبي الألماني.

لم تنجح حجج رئيس هيئة الأركان العامة و لا المذكرة الجديدة المقدمة من مجموعة الجيوش الجنوبية في دفعه للقيام بأي شيء، و في تلك المذكرة الأخيرة عبّرنا عن وجهة النظر التي تقضي بأن الهجوم السوفييتي الوشيك على مجموعة الجيوش الوسطى و الذي يخشاه "هتلر" لن يقتصر فقط على شن هجمات تستهدف منع أي نشر جذري للقوات على جناحنا الشمالي، و قد أضفنا أنه لا العمليات و لا الإقتصاد الحربي سيتأثران بشكل خطر بإنسحاب مجموعة الجيوش الوسطة لخط نهر "دنيبر".

و عندما لم يتم إتخاذ أي تصرف يؤكد قيام مجموعة الجيوش الوسطى بتجميع القوات التي وُعدنا بها على جناحنا الشمالي – و الذي كان العدو يجلب قوات جديدة ضده – ظهر خطر يتمثل في إحتمال تعرض الجيش الرابع بانزر للتطويق من جهة الشمال و إبعاده عن "كييف" في إتجاه جنوبي، و مثل هذا التطور لن يعيق فحسب تشييد جبهة جديدة خلف نهر "دنيبر" و لكن سيضع مجموعة الجيوش في خطر التطويق.

و في تقرير أرسلناه *للقيادة العليا للجيوش الألمانية* حول الموقف أعلنت مجموعة الجيوش في ١٤ سبتمبر أنها ستضطر في اليوم التالي لأن تأمر جناحها الشمالي بالإنسحاب لما وراء النهر على جانبي "كييف"، و كان قد تم منح تعليمات بالفعل للجيش الثامن بالإنتقال للتكتيكات الحركية، و قد فقدت فكرة إيقاف العدو أمام نهر "دنيبر" على جبهة أقصر في مكان ما حول "بولتافا" فاعليتها بسبب إهمال "هتلر".

و رداً على ذلك تسلمنا رسالة تتضمن تعليمات لنا مفادها عدم إصدار أي أمر حتى يتم إجراء محادثة مع "هتلر" في ١٥ سبتمبر، و ردي على ذلك تمثل في أن هذا اللقاء لن يكون له جدوى ما لم أتمكن من الحديث معه على إنفراد و معنا فقط رئيس الأركان.

و في تلك المنسبة أخبرت "هتلر" مجدداً كيف تدهورت الأمور على جبهتنا منذ زيارته الأخيرة و شددت على أن الأزمة التي ظهرت على مجموهة الجيوش قد تكون مصيرية ليس فقط بالنسبة لنا و لكن بالنسبة للجبهة الشرقية بأسرها في نهاية المطاف، و أضفت أن هذه الأزمة هي نتيجة إخفاق مجموعة الجيوش الوسطى في تسليم القوات لنا، و بالنظر لحقيقة أن مجموعة الجيوش الجنوبية قد دأبت دوماً على طاعة أي أوامر من هذا النوع صادرة عن *القيادة العليا للجيوش الألمانية* في ولاء تام فإننا لا نرى مجموعات الجيوش الأخرى تحذو حذونا – و خاصة أن القوات محل السؤال لن تساعد مجموعة الجيوش الوسطى في التشبث بجبهتها في حال إنهار الجيش الرابع بانزر، و قلت أنه يبدو بالنسبة لي أنه من غير المطاق ألا يتم تنفيذ أي نقل للقوات أقرت القيادة العليا بنفسها ضرورته الملحة، و لنرَ ما يمكن أن يحدث إن لم ينفذ قادة الجيوش التابعين لمجموعتنا ما أمِروا به؟ و قد كنت واثقاً على أي حال من قدرتي على ضمان تنفيذ أوامري، و بالطبع يكمن السبب في عدم قدرة "هتلر" على فعل هذا مع مجموعة الجيوش الوسطى في الحالة الراهنة في فشله في منح الإهتمام المؤقت للحاجة إلى تقصير الجبهة هناك و لم يطلب تنفيذ ذلك بصرف النظر عن كل الإعتراضات المثارة.

و قد أنهيت ملاحظاتي بقول أنه من المشكوك فيه بدرجة كبيرة في اللحظة الراهنة مدى قدرة الجيش الرابع بانزر على التراجع عبر نهر "دنيبر"، و في حين كانت مجموعة الجيوش لتقوم بشكل طبيعي بكل ما هو ممكن لضمان التنفيذ السلس لهذه العملية كان علينا أن نصرّ على وجوبية إستخدام الأربعة خطوط سكك حديدية المتاحة بشكل متزامن لجلب كل فرقة على حدة من مجموعة الجيوش الوسطى إلى جناحنا الشمالي طالما ظل من الضروري العمل على إستعادة الموقف هناك، و هذا يستلزم إنسحاب مجموعة الجيوش الوسطى إلى خط نهر "دنيبر" حتمياً، و قد قلت إن مصير كامل الجبهة الشرقية صار على المحك هنا و الحل الوحيد الممكن يتمثل في جلب قوات قوية عبر منطقة "كييف" حالاً.

و على الرغم من تقبل "هتلر" في هدوء لنقدي الضمني لقيادته إلا أنه بلا شك شعر بقليل من الرضا عن المقابلة، و على الرغم من ذلك نجم عن هذا الإجتماع الإصدار

الفوري لأمر إلى مجموعة الجيوش الوسطى بتحريك أربع فرق بأقصى سرعة إلى مجموعة الجيوش الجنوبية بدءً من ١٧ سبتمبر و بإستخدام الأربعة خطوط سكك حديدية في الوقت ذاته، كما وعُدنا أيضاً بتزويدنا بفرق مشاة و تعزيزات من الغرب لشحذ قوى فرقنا – بما مجموعه ٣٢ كتيبة.

و إبان عودتي لمقر قيادة مجموعة الجيوش صدر أمر لكل الجيوش التابعة لنا في مساء ١٥ سبتمبر بالإنسحاب إلى خط يمتد من "مليتوبول" على طول نهر "دنيبر" إلى نقطة فوق "كييف" و من ثمّ على طول نهر "دسنا".

و ربما يتولد لدى القارئ إنطباع أنه خلال الأسابيع التي كانت تقاتل خلالها مجموعة الجيوش أمام نهر "دنيبر" كانت كل الأنشطة التي تمارسها قيادتها مكرسة تماماً للخلاف مع "هتلر"، و بالطبع كلّفتنا مجهوداتنا في سبيل إقناع القيادة العليا بإتخاذ الإجراءات الضرورية في الوقت المناسب – و قبل فوات الأوان – طاقة عصبية كبيرة و جهد وفير، و كانت قيادتي تشتمل على طاقم معتاد على إتخاذ القرارات السريعة و أنا شخصياً لم أكن أحبذ أبداً تكرار ما هو قطعي، و في كلمة أخيرة أقول أن هذا النضال في سبيل إبراز الحاجات الميدانية في الوقت المناسب كان سمةً حاسمةً لدى الجانب الألماني في حملة شتاء ٤٣/١٩٤٢.

<u>الإنسحاب لما وراء نهر "دنيبر":</u>

تضمن الأمر الصادر من مجموعة الجيوش بتاريخ ١٥ سبتمبر عقب عودتي من مقر القيادة العامة وجوب إخضاع معدل إنسحاب الجيوش لنهر "دنيبر" كليةً للحاجة إلى صون القدرة القتالية للقوات، و قد نصّ صراحةً على **"وجوب أن تمنح كل الأوامر و القرارات الأولوية للمبدأ المتمثل في طالما ظلت القوات سليمة فهي قادرة على تخطي كل الصعاب حيث إنه من غير الممكن تنفيذ أي إنسحاب بقوات فاقدة لقدرتها القتالية أو إستقرارها"** ، و ستقوم القوات بالسماح للعدو بتبديد طاقاته في الهجوم لكي تكسب الوقت اللازم للإنسحاب أينما كان هذا ممكناً.

و قد كان على الجيش السادس سحب فيلقيه إلى المواقع المجهزة بين "مليتوبول" و ثنية نهر "دنيبر" جنوب "زابوروزهي"، و إقتضى ذلك أن ينسحب فيلقه الشمالي إلى رأس كوبري "زابوروزهي"، و لمّا صار قطاع هذا الفيلق خاضعاً الآن ظلوامر الجيش الأول بانزر تم نقل بقية الجيش السادس لمجموعة الجيوش "أ" و التي كان جيشها السابع عشر يتم سحبه من منطقة نهر "كوبان" إلى شبه جزيرة القرم.

و كان على الجيش الأول بانزر عبور نهر "دنيبر" في "زابوروزهي" و "دنيبروبتروفسك" بغرض تولي أمر الجبهة بدءً من "زابوروزهي" وصولاً إلى نقطة على بعد ٢٠ ميلاً شرق "كريمنتشج"، و بمجرد إتمام العبور من الشرق للغرب يتم إخلاء رأس الكوبري في حين يتوجب التمسك بـ"زابوروزهي" بناء على أوامر من "هتلر"، و تم وضع الجناح الأيمن من الجيش الثامن – و الذي تقرر إنسحابه بطريقة مماثلة إلى "دنيبروبتروفسك" – تحت قيادة الجيش الأول بانزر.

كما تم إصدار تعليمات للجيش الأول بانزر بأخذ خطوات فورية لنشر الفيلق ٤٠ بانزر – قوامه فرقتان مدرعتان و فرقة غرناد بانزر و فرقة خيالة من سرايا الدفاع – جنوب نهر "دنيبر" بغية نقله للجناح الأيسر لمجموعة الجيوش، و مع ذلك تم إلغاء هذا الإجراء بفعل الأمر الصادر من "هتلر" بالتمسك برأس كوبري "زابوروزهي"، و سنتعرض لاحقاً لنتائج ذلك.

و كان على الجيش الثامن أن يغير مواضعه في القطاع المحوط برأسي الكباري في "كريمنتشج" و "تشيركاسي" – مستولياً على نقطة تقاطع الأخيرة بتركيز قوات مدرعة قوية على جناحه الأيسر، و حيث إنه يتوجب على الجيش التمسك بجبهة وراء نهر "دنيبر" تصل لنقطة على بعد ٢٠ ميلاً من "كييف" فقد تولى قيادة الفيلق ٢٤ بانزر التابع للجيش الرابع بانزر ما إن عبر الأخير النهر.

و كانت مهمة الجيش الرابع بانزر هي تمكين الفيلق المذكور من عبور نهر "دنيبر" في "كانيف" و الكتلة الرئيسية للجيش ذاته في "كييف" إلى جانب ضمان إعادة تشييد الإتصال وراء النهر إلى الشمال مع الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش الوسطى.

و يجسد الإنسحاب إلى مواقع "مليتوبول- دنيبر" و الذي بُدء في تنفيذه بناء على هذا الأمر و تم هذا التنفيذ في مواجهة ضغط متواصل من عدو يفوقنا قوة بمراحل أصعب عملية نفذتها مجموعة الجيوش خلال حملة ٤٤/١٩٤٣.

و قد أنجِزت المناورة على الجناح الأيمن في منطقة الجيش السادس بسهولة نسبية نظراً لقيام هذا الجيش بسحب قواته بواجهة أمامية إلى المواقع المجهزة شمال "مليتوبول" و رأس الكوبري في "زابوروزهي"، و كان الخطر الرئيسي في هذا القطاع يكمن في القوة المتفوقة للمُلاحِق – و على الأخص مدرعاته و التي كانت قادرة على التوغل وسط قواتنا و هي تتحرك بالفعل.

و على اليد الأخرى وُوجهت صعوبة إستثنائية في سحب الجيوش الثلاثة الأخرى لما وراء النهر، فمن جبهة طولها ٤٤٠ ميل كان على تلك الجيوش أن تجتمع على نقاط تقاطع نهر "دنيبر" و عددها الأقصى خمسة نقاط، و مع ذلك بمجرد عبورها نهر "دنيبر" عليها أن تشكل جبهة دفاعية أخرى بعرض سابقتها و إتمام عملية التموضع مجدداً قبل أن يتمكن العدو من الحصول على موطئ قدم على الضفة الجنوبية، و قد كانت تلك العملية المتمثلة في حشد كامل قوات كل جيش على واحدة أو إثنتين من نقاط التقاطع هي ما منح العدو فرصته الكبرى حيث كان يمكنه – و بصرف النظر عن أي شيء آخر – إستغلال الفترة التي سيستغرقها الألمان في الإنسحاب خلال نقاط التقاطع الموجودة في "دنيبروبتروفسك" و "كريمنتشج" و "تشيركاسي" و "كانيف" و "كييف" في سبيل القيام بخطوة واسعة لعبور النهر.

و ما زاد في تعقيد الإنسحاب كان عدم قدرة أيٍ من العناصر المركزية لمجموعة الجيوش – و هي الجيش الثامن و الجناح الأيسر للجيش الأول بانزر – على الإنسحاب على محور متعامد على نهر "دنيبر"، و بدلاً عن ذلك توجهت تلك العناصر إلى شمال النهر لبلوغ نقاط التقاطع الواجب عبورهم خلالها.

و قد إضطر الجيش الثامن في الواقع للقتال شاقاً طريقه لنقطة عبوره الخاصة {"تشيركاسي"} في حين كان هناك خطراً على الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش متمثلاً في إمكان إجبار الجيش الرابع بانزر على التقهقر بعيداً عن "كييف" كنتيجة للتطورات الحادثة على الجناح الجنوبي لمجموعة الجيوش الوسطى.

و حقيقة نجاح هذا الإنسحاب إستثنائي الصعوبة على الرغم من الأزمات المحدودة الكثيرة ترجع إلى القيادة البارعة لقادة الجيش و الموقف الرائع للقوات، و فقط القادة و طواقم قيادات التشكيلات الذين شعروا بالتفوق على نظرائهم لدى العدو و فقط القوات التي لم تشعر بالهزيمة أبداً حتى و هي تنسحب من أمام العدو هم أجمعون من حققوا تلك

النتيجة، و لم يعمد العدو إلى وقف تحرك القوات صوب نقاط العبور القليلة المتاحة لها، كما أنه لم يكن بمقدوره – على الرغم من قوته – الإستفادة من ميزة إحتشاد تلك القوات على نقاط التقاطع {العبور} تلك في دفع قوات قوية عبر النهر في أي نقطة أخرى و من ثمّ ضعضعة دفاعاتها منذ البداية، و حقيقة نجاحه في الوصول للضفة الغربية من نهر "دنيبر" في مكان أو إثنين كانت أمراً لا مفر منه بالنظر إلى غياب أي قوات ألمانية تتولى حماية النهر مسبقاً، و سأتعرض لهذا في موضع لاحق.

سياسة الأرض المحروقة:

إن الظروف بالغة الصعوبة التي تم تنفيذ تلك التحركات في ظلها جعلت من المجدي أن نتخذ كل إجراء ممكن يُحتمل أن يعيق العدو، و كان من الأساسي التأكد من أنه لدى وصوله نهر "دنيبر" لن يكون قادراً على مواصلة هجومه فوراً و هي ما يزال يتمتع بمزايا الملاحقة.

و نتيجة لذلك صار ضرورياً الآن للألمان كذلك أن يلجأوا لسياسة "الأرض المحروقة" التي تبناها السوفييت خلال إنسحابهم في الأعوام السابقة.

و في منطقة بعرض ١٥ ميلاً أمام نهر "دنيبر" تم تدمير كل شيء قد يمكّن العدو من التقدم عبر النهر على جبهة عريضة أو إخلاؤها، و قد تضمن هذا أي شيء يوفر حماية أو إقامة للقوات السوفييتية في أي منطقة تموضع قبالة دفاعاتنا على نهر "دنيبر" و أي شيء قد ييسر عليعا صعوبات الإمداد خصوصاً تلك المتعلقة بالغذاء.

و في ذات الوقت – عملاً بتعليمات صادرة خصيصاً من الطاقم الإقتصادي لـ"جورينج" – تم تفريغ المنطقة من كل المؤن و البضائع الإقتصادية و الماكينات التي يمكن أن تساعد في الإنتاج الحربي السوفييتي، و في حالة مجموعة الجيوش التابعة لي إقتصر هذا الإجراء أساساً على الماكينات و الأحصنة و الماشية، و بشكل طبيعي لم يكن هناك محل لمسألة قيامنا بـ"نهب" المنطقة، فقد كان هذا شيئاً لم يتسامح معه الجيش الألماني

على عكس غيره، حيث تم إنشاء نقاط تفتيش صارمة لضمان عدم حمل أي مركبة لبضائع غير مناسبة ، و أما بالنسبة لمخزونات المصانع و المستودعات و منشآت السوفخوز[١] فقد كانت أجمعها ملكية دولة لا ملكية خاصة بالأفراد.

و حيث إنها كانت سياسة سوفييتية تلك المتجسدة في أنه عندما تُستعاد السيطرة على أي إقليم يتم على الفور ضم كل الرجال القادرين ممن هم دون الستين عاماً للقوات المسلحة و تسخير البقية للأعمال ذات الأهمية العسكرية التي غالباً ما تكون في ميدان المعركة نفسه أصدرت القيادة العيا توجيهاً مفاده إجلاء كامل السكان المدنيين أيضاً، و في الواقع تم تطبيق هذا الإجراء القسري فقط على الرجال في سن الخدمة العسكرية و الذين يمكن ضمهم لها فوراً.

و من ناحية أخرى إنضمت لنا نسبة كبيرة من السكان الروس في إنسحابنا طواعية للهروب من السوفييت الملاعين مشكلين طوابير طويلة تماثل ما رأيناه لاحقاً في ألمانيا الشرقية، و بعيداً عن كونهم مختطفين قسراً كان أولئك السكان يتسلمون كل مساعدة ممكنة من الجيوش الألمانية و تم توطينهم في مناطق غرب نهر "دنيبر" عمدت فيها السلطات الألمانية على توفير الإقامة و الغذاء لهم، كما تم السماح لهم بأن يأخذوا معهم كل شيء – بما فيها الأحصنة و الماشية – يمكن أن يصحبهم و قد كنا نمنحهم مركباتنا لخدمتهم أينما كان ذلك ممكناً، و على الرغم من جلب الحرب الكثير من سوء الحظ و المشقة لأولئك الناس إلا أن معاناتهم لا تُقارن أبداً بما حدث لاحقاً في أراضي ألمانيا الشرقية، على أي حال كانت كل الإجراءات المُتخذة من الجانب الألماني مرهونة بالحاجة العسكرية.

و قد يساعد رقم أو إثنان في إظهار قدر الإنجاز الفني المتجسد في تلك العملية الإنسحابية، و بداية أقول أنه كان هناك ٢٠٠ ألف جريح يتعين إجلاؤهم، و إقتضت عملية نقل المعدات و المؤن الألمانية إضافة إلى الممتلكات السوفييتية المصادرة توفير ٢٥٠٠ قطار، كما بلغ عدد المدنيين الروس الذين ألحقوا أنفسهم بنا مئات الآلاف، و على الرغم من الصعوبات الإضافية المتمثلة في وجود نقاط عبور قليلة في حوزتنا تم الإنسحاب في وقت قصير نسبياً و هو ما يثبت – على نقيض ما قد يعتقده آخرون – أنه حتى هذا النوع من العمليات يمكن تنفيذه بسرعة.

---

[١] سوفخوز : هي الحقول المملوكة للدولة في الإتحاد السوفييتي السابق.

بحلول ٣٠ سبتمبر كان كل جيش تابع لمجموعة الجيوش قد تراجع لخط "مليتوبول-دنيبر".

القتال على خط نهر "دنيبر":

بعبور نهر "دنيبر" وضعت مجموعة الجيوش بلاشك مانعاً طبيعياً قوياً بينها و بين العدو – على الأقل طالما ظل فصل الصيف حليفاً لنا، و لكنها لم يمكنها توقع إنخفاض توتر الموقف للنهاية.

فقد كنا مقتنعين بأن العدو سيستمر في في سعيه لخوض مواجهة حاسمة في هذا القطاع من الجبهة الشرقية و ليس أي مكان آخر، فلأسباب إقتصادية و سياسية و عملياتية تقبع هنا أكثر الجوائز إغراءً له، و نتيجة لذلك يمكن توقع إستغلاه لإمكانية إمداد جناحه الجنوبي إلى أقصى درجة و ذلك بغرض الإستمرار في إلقاء قوات جديدة – إما من إحتياطه أو من القطاعات الأخرى للجبهة – في الصراع ضد مجموعة الجيوش الجنوبية، و بالقطع لن يكون هناك ما يمنعه من شن هجمات واسعة أو محدودة في الأجزاء الأخرى للجبهة، و لكنها حتى و إن حققت بعض النجاحات المحدودة فإنها لن تكون ذات أهمية حاسمة لدى مقارنتها بالأحداث الواقعة على الجناح الجنوبي.

و لكن ما الفرص التي تمتلكها مجموعة الجيوش الجنوبية بشأن التمسك بما تحتله من أرض؟ هل هناك فرصة لقيام العدو بإستنزاف نفسه في هجمات يشنها على خط نهر "دنيبر"؟

كان من الممكن الإجابة على تلك الأسئلة بثقة أكبر بكثير فقط في خريف ١٩٤٣ إن كان تم تجهيز خط نهر "دنيبر" بسلسلة تحصينات قوية، و هذا و لسوء الحظ لم يحدث.

صحيح أنه مبكراً في شتاء ٤٣/١٩٤٢ طالبت مجموعة الجيوش *القيادة العليا للجيوش الألمانية* بتحصين خط نهر "دنيبر" بأقل تأخير ممكن، و لكنها عجزت عن القيام بذلك لأن النهر في ذلك الوقت كان ما يزال خارج نطاق العمليات، و مع ذلك رفض "هتلر" الطلب – يرجع في جزءٍ منه لرفضه فكرة الدفاع في منطقة خلفية بإعتباره تشجيعاً

على الإنسحاب و في جزء آخر لرغبته في تخصيص كل إمكاناته من العمّال و الموارد لتشييد جدارالأطلنطي[١]، و نظراً لإقتراب القتال من نهر "دنيبر" في الشهور الأولى من عام ١٩٤٣ شرعت مجموعة الجيوش في تنفيذ مبادرة تقشي بتحويل "زابوروزهي" و "دنيبروبتروفسك" و "كريمنتشج" و "كييف" لرؤوس كباري بحيث يتم منع العدو في كل الأحوال من قطع خطوط الإتصالات الواقعة خلف نقاط التقاطع الحيوية، و مع التحول الأخير إلى الحرب الدفاعية عقب العملية "قلعة" عملنا على توسعة و تضخيم تحصينات نهر "دنيبر" بمساعدة العمالة المدنية المصادرة، و حتى حينئذٍ أمكن بناء عدد قليل من التحصينات بسبب إعتماد مجموعة الجيوش على *القيادة العليا للجيوش الألمانية* في ما يحتاجه التشييد من الماكينات و الخرسانة و الصلب و الأسلاك الشائكة إضافة إلى الألغام و على مفوضي الرايخ في أوكرانيا في الحصول على الخشب في وقت ظل "هتلر" فيه يمنح الأولوية لجدار الأطلنطي، لذا و على الرغم من إمكان إعتبار نهر "دنيبر" عقبة منيعة طالما لم يتجمد بعد إلا انه لن يكون فاعلاً إلا في حال تموضعت في دفاعاته قوات كافية تعوض ضعف بنيانها.

و لكن لم يكن هذا محل ضعفنا الوحيد، فقد إضمحلّت قوة التشكيلات الألمانية لدرجة مرعبة بفعل القتال الكثيف المتواصل لمدة شهرين و نصف، كما أن التعزيزات من الرجال و العتاد لم تكن كافية لسد الثغرات في أي مكان، و يرجع هذا في أغلبه – كما قلت سابقاً – لإصرار "هتلر" على تشكيل فرق جديدة داخل أرض الوطن.

و حتى قبل إتمام الإنسحاب أعطت مجموعة الجيوش *القيادة العليا للجيوش الألمانية* صورة واضحة عن الموقف من حيث القوى بدا منها أنه من المشكوك فيه مدى القدرة على التمسك بخط نهر "دنيبر" لأي فترة من الوقت، و قد أوضحنا وجوب أن تتولى فرق المشاة الدفاع عن النهر في حين تُستبقى المدرعات كإحتياط متحرك جاهز للتدخل أينما يحاول العدو العبور بالقوة.

وفي نفس السياق أبلغناها بأنه للدفاع الفوري عن جبهة نهر "دنيبر" الممتدة ٤٤٠ ميل كانت الجيوش الثلاثة المتروكة لمجموعة الجيوش تمتلك ٣٧ فرقة مشاة، و هذا الرقم يتضمن ثلاثة ما تزال في طريقها إلينا ، و خمس منه إستُنزفت قواها كلية و تحللت إلى

[١] جدار الأطلنطي: هو سلسلة من التحصينات الساحلية شيدتها ألمانيا النازية على ساحل المحيط الأطلنطي و تمتد من سواحل النرويج شمالاً حتى سواحل فرنسا جنوباً لصد أي غزو بحري محتمل من الحلفاء، و يسمى أحياناً بجدار الأطلسي.

تشكيلات، و بمعنى آخر ستكون كل فرقة مسئولة عن قرابة إثنى عشرة ميلاً من الجبهة، و في مقابل ذلك بلغ متوسط عدد الجنود الملائمين للواجب على خط الجبهة قرابة الألف لكل فرقة – و هو الرقم الذي لم يصل أبداً للألفين حتى بعد وصول التعزيزات الموعود بها، و قطعاً لا يمكن إستناد أي دفاع فعّال على هذا الرقم كأساس حتى وراء نهر "دنيبر".

و قد قلنا أنه بالنسبة للسبعة عشر فرقة مدرعة أو غرناد بانزر المتاحة الآن لمجموعة الجيوش فبالكاد ما تزال أي واحدة منها تمتلك أي قوة كما تساقط عدد ما تمتلكه أفواج الغرناد بانزر من الدبابات إضافة إلى القوة البشرية.

طبقاً لذلك طلبت مجموعة الجيوش وجوب إرسال فرق مشاة أكثر تبعاً للثلاثة المتحركة صوبها في الوقت الراهن، و قد كان هذا مبرراً – كما شعرنا – بحقيقة تقلص جبهة مجموعة الجيوش الوسطى بمقدار الثلث نتيجة لإنسحابها إلى نهر "دنيبر"، و الأكثر من ذلك أن مجموعة الجيوش الوسطى – أو جناحها الجنوبي – كانت بعيدة عن إحتمال كونها هدفاً لأي هجوم شامل لأن العدو سيورط نفسه في مستنقعات "بينسك" إن قام بذلك.

و بإجراءات مناسبة شددنا على أهمية إعطاء الأولوية لتشكيلات مجموعة الجنوب الجنوبية بالنسبة لتعزيزات الرجال و العتاد نظراً لأنها هي التي ستتولى حمل عبء القتال على الجبهة الشرقية – تماماً كما هو حادث حتى اللحظة، كما يجب ألا يحدث أي نقص في الذخيرة كذلك الذي حدث خلال الإنسحاب.

و قلنا أنه مدى القدرة على دحر هجوم العدو في الصراع على نهر "دنيبر" من عدمها تعتمد قطعاً على تحقيق تلك المطالب.

و بالتالي ينصب السؤال في نهاية المطاف على ما إن كانت القيادة العليا الألمانية ما تزال تمتلك القوات و الوسائل المتاحة لكسب الصراع في هذا الجزء من الجبهة الشرقية الذي كان العدو عازماً فيه على حمي وطيس المعركة في ١٩٤٣.

و في ذلك الوقت لا يمكن للمرء أن يقول أن ذلك مفقود الأمل منه منذ البداية بالنظر إلى التفوق العام للقوات السوفييتية، و حتى لو كان العدو يرغب في المخاطرة بكل شيء ذلك العام في سبيل تحقيق النصر الحاسم على الجناح الجنوبي فإن مشكلة الإمداد ستظل

تفرض حدوداً معينة على عدد القوات الذي يمكنه إشراكه في هذا الجزء من الجبهة، و لذا كان من الأهمية بمكان أن تتوقع القيادة العليا الألمانية الهجوم الإنقضاضي المعادي الذي بدا و أن العدو سيشنه هنا لقيامه بحشد قوات كبيرة و في توقيت ملائم في نفس المنطقة، و قطعاً يمكنه القيام بذلك فقط إن إعتزم تقبل المخاطر المرتبطة في القطاعات الأخرى من الجبهة الشرقية و مسارح العمليات الأخرى، و بشرط إتخاذ التصرف السابق فإن أي هجوم سوفييتي فاشل على مجموعة الجيوش الجنوبية سيؤدي إحتمالاً إلى إنهاك القوة الهجومية للعدو بدرجة كبيرة – و هو نجاح قد يؤثر جذرياً على سير الحرب فيما بعد.

و تلك المسألة المتعلقة بالدعم المناسب و السريع للجناح الجنوبي للجيوش الألمانية إستمرت في كونها موضع الخلاف بين مجموعة الجيوش الجنوبية و القيادة العليا الألمانية، و لأنني لن أخوض في تفاصيل المناقشات التي لا حصر لها الناجمة عن تلك المسألة سأقتصر على مجرد الإشارة إلى أن رئيسي هيئة الأركان العامة و فرع العمليات كانا يتفقان معنا تماماً، فعلى سبيل المثال أخبرني الجنرال "هسينجر" في الثالث من أكتوبر أنه إقترح إخلاء شبه جزيرة القرم و إنسحاب مجموعة الجيوش الشمالية إلى خط قصير من أجل تحرير قوات لصالح مجموعة الجيوش الجنوبية خلال إطار العمل المتبنى في الجبهة الشرقية، كما أنه إقترح أيضاً إنشاء جدار شرقي {أوست وول} – سلسلة من التحصينات مماثلة لخط "سيجفريد" على الجبهة الغربية – قوي في مكان ما في مؤخرة الجبهة.

(و كان "هتلر" يستخدم إصطلاح جدار شرقي للتعبير عن التحصينات المنشأة على نهر "دنيبر" على غير رغبته)

و قد رفض الفوهرر كلا الإقتراحين، و برغم أن إمكانية جلب تشكيلات من المسارح الأخرى كانت محل دراسة – على حد قول "هسينجر" – إلا أنها لن تشكل أكثر من بضعة فرق كأقصى تقدير.

و الآن لنعد إلى الوضع على نهر "دنيبر".

بحلول نهاية سبتمبر بدا واضحاً إنتواء العدو تنفيذ هجومه عبر النهر و ورائه.

و قد تبعت الجيش السادس – بقيادة مجموعة الجيوش "أ" منذ منتصف الشهر – قوات قوية أثناء تراجعه إلى مواقع "مليتوبول- دنيبر".

و كانت هناك ثلاثة جيوش معادية – إثنان في الطريق و الثالث في الإحتياط و مشتملون في مجموعهم على عشرين فرقة مشاة و فيلقين دبابات أو ميكانيكيين – تلاحق الجيش الأول بانزر صوب رأس كوبري "زابوروزهي".

كما كان هناك جيشان قوامهما خمس عشر فرقة – يتبعهما جيش دبابات مكون من ثلاثة فيالق – يتقدمان تجاه نهر "دنيبر" بين "دنيبروبتروفسك" و "كريمنتشج".

كما كان يتحرك جيشان مكونان من إثنى عشر فرقة مشاة و فيلقين دبابات و فيلق ميكانيكي – يتبعهما جيش دبابات قوامه ثلاثة فيالق – صوب نهر "دنيبر" بين "تشيركاسي" و "رزهيشتشيف".

و على الجهة الأخرى إقتصرت القوات السوفييتية المُتعرف عليها باكراً و هي تتحرك من "كييف" و القطاع الواقع شمال المدينة من النهر على ثلاثة فيالق مشاة و فيلق ميكانيكي، و بالقطع أراد العدو توجيه الجهد الأساسي لعملياته ضد ثنية نهر "دنيبر"، و في الحقيقة كان القطاع الواقع شمال "كييف" و جنوبها من النهر هو المكان الذي يمكنه فيه بالضبط تحريك قواته بأقصى سرعة من الجبهة الوسطى.

و على الرغم من أن مجموعة الجيوش قد نجحت – في ظل الظروف الصعبة السابق شرحها – في سحب قواتها عبر نهر "دنيبر" بحلول ٣٠ سبتمبر إلا أنها ما تزال غير قادرة على الحيلولة دون حصول العدو على موطئ قدم على الضفة الجنوبية في مكانين.

فقد عمد العدو في منتصف الطريق بين "دنيبروبتروفسك" و "كريمنتشج" متسخدماً الجزر هناك إلى عبور النهر على كلا جانبي حدود الجيش الأول بانزر و الجيش الثامن، و كانت الضفة البعيدة أضعف من أن توقف العدو، و لسوء الحظ لم يكن حينئذٍ الفيلق ٤٠ بانزر – و الذي أمرته مجموعة الجيوش من قبل بالإنتشار جنوب نهر "دنيبر" كإحتياط – في متناول اليد لإجبار العدو على التراجع عبر النهر بواسطة هجوم مضاد فوري، حيث كان ما يزال في رأس كوبري "زابوروزهي"، و كما ذكرنا من قبل أصدر "هتلر" أوامره خلال الإنسحاب بوجوب التمسك برؤوس الكباري في

"زابوروزهي" و "دنيبروبتروفسك" و "كريمنتشج" و "كييف"، و قد كان هذا إجراءً لا يمكن الإعتراض عليه فقط إن كانت مجموعة الجيوش تمتلك قوات كافية للتمسك بها، و لمّا كان الوضع على خلاف ذلك فقد أعدت مجموعة الجيوش ترتيباً من أجل إخلاء رؤوس الكباري تلك بمجرد إتمام العبور من الشرق للغرب و هو ما سيتقبله "هتلر" من الناحية التكتيكية فيما يتعلق برؤوس الكباري الثلاثة الأخيرة، و من الجهة الأخرى – و برغم كل الإقتراحات المعارضة – أصدر "هتلر" أوامر صريحة بالتمسك برأس الكوبري في "زابوروزهي" و الذي سيتم تضخيمه فيما بعد، و بجانب إشارته للحاجة إلى مواصلة السيطرة على السد الكبير الواقع على نهر "دنيبر" و محطة الطاقة الملحقة به أوضح "هتلر" أن العدو لن يجرؤ على مهاجمة جبهة الجيش السادس في "مليتوبول" طالما ظللنا محتفظين برأس الكوبري، و قد بدت وجهة النظر تلك من الناحية العملياتية عقلانية بإستثناء قيام "هتلر" مجدداً بتحديد عدة أهداف في وقت واحد، و تجسدت نتيجة الأمر القاضي بالتمسك بـ"زابوروزهي" في عدم قدرة الجيش الأول بانزر على تحرير الفيلق ٤٠ بانزر في الوقت المحدد، و هو ما قضى على أي إمكانية لشن هجوم مضاد لتدمير العدو بين "دنيبروبتروفسك" و "كريمنتشج" قبل أن يعبر النهر بقوات كافية لإنشاء رأس كوبري عريض.

كما قام العدو في نهاية سبتمبر بتنفيذ عملية عبور للنهر مستغلاً الحلقة الضيقة لنهر "دنيبر" جنوب "بيرياسافل" – غرب جسر "كانيف"، و بدا بشكل واضح أنه يخطط لعملية عبور كبيرة في تلك النقطة خاصة و أنه قد أحضر ما يربو عن الأربعة فيالق دبابات و فيلق ميكانيكي واحد إلى النهر على كلا جانبيه، و مع إلقائه ألوية مظليين كثيرة جنوب نهر "دنيبر" صار لديه في وقت قصير ثمان فرق مشاة و فيلق دبابات داخل الحلقة ذاتها.

و حدثت حالة طارئة أخرى على طرف الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش حيث تمكن العدو هناك – على الحدود بين الجيش الرابع بانزر و مجموعة الجيوش الوسطى – من عبور نهر "دسنا" و هو ما كان يتوجب التمسك به، و وفقاً للأوامر الصادرة من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* يتعين على الجيش الثاني نشر قوات للتعامل مع تلك الحالة الطارئةو لكن هذا النشر لم يحدث أبداً.

و قد كانت مجموعة الجيوش قد نقلت في منتصف سبتمبر مقر قيادتها من "زابوروزهي" إلى "كيروفوجراد" – و هي مدينة ذات أهمية صناعية إذ تعد مركز

المنطقة الصناعية الموجودة على ثنية نهر "دنيبر"، و من هناك قمت بزيارة مناطق الأزمة المتصاعدة على جبهة نهر "دنيبر" التي يتولاها الجيشان الأول بانزر و الثامن و كذلك الجبهة في "كييف"، و تولد لدي إنطباع ذلك الوقت أنه في حين يمكن التمسك بجبهة الجيش الرابع بانزر إلا أنه من المحتمل عدم إمكان القضاء على المشكلة الموجودة على الحدود بين الجيشين الأخريين تماماً.

و في بداية أكتوبر إنتقلت مجموعة الجيوش لما كان سابقاً مقر القيادة العامة في "فينستا" و التي كانت مكاناً أفضل لإدارة العمليات على كامل جبهة مجموعة الجيوش، و كانت تقع في غابة و التي كان قد تم حلّ مشكلات إمدادات المياه و الطاقة و الضوء من قبل لمصحلة "هتلر" و طاقم *القيادة العليا للفيرماخت*.

و كانت المكاتب و غرف الإقامة في أكواخ خشبية بسيطة البناء و لكن مرضية التأثيث، و إحدى السمات المدهشة لهذا المكان تتمثل في شبكة من الأنفاق تمتد عبر الغابة بأكملها، و واضح ان "هتلر" كان يريد حراسة دائمة له و لكنه فضّل أن يكون أولئك المتولون لحراسته غير مرئيين، و لسوء الحظ لم نستمتع نحن بنفس إحتياطات الأمن، و قد كان "فينيستا" منتجعاً صحياً كبيراً يقبع وسط الطبيعة الخلابة المطلة على نهر "بج"، و باتت كل مستشفياتها و منشآتها الأخرى الآن مستخدمة كمستشفيات عسكرية دأبت على زيارتها كلما سمح لي عملي بذلك.

و قد عثر شهر أكتوبر ١٩٤٣ على مجموعة الجيوش و هي متورطة بالفعل في صراع حاسم على خط نهر "دنيبر"، و في حين عصف الخريف الأخير بالقطاعات الشمالية للجبهة الشرقية مورطاً إياها في فترة من الأمطار و الطين جعلت من الصعب حتى على السوفييت القيام بأي عمليات هجومية كبيرة لم يكن هكذا الحال في الجنوب حيث إستمر القتال بلا توقف.

وفقاً لترتيب المعركة الخاص بالعدو الذي تعرفنا عليه في نهاية سبتمبر كانت هناك أربعة أهداف لضغط العدو تقع ضمن منطقة مجموعة الجيوش و هي :

١. رأس كوبري "زابوروزهي" و الذي يعد القضاء عليه ضرورة أولية للعدو كي يواصل هجومه على الجيش السادس المجاور في الجنوب.
٢. و ٣. قطاعي نهر "دنيبر" و اللذين نجح العدو فيهما في الحصول على موطئ قدم على الضفة الجنوبية.

٤. الجناح الشمالي للجيش الرابع بانزر شمال "كييف".

و على الرغم من قدرة رأس كوبري "زابوروزهي" على التصدي لهجمات السوفييت القوية في بداية أكتوبر – بما عنى بالطبع أن الفيلق ٤٠ بانزر لم يصبح حراً في الوقت المناسب للقضاء على رأس كوبري العدو بين "دنيبروبتروفسك" و "كريمنتشج" – إلا أن العدو توقف فقط لإحضار التعزيزات قبل تجديد هجومه، و بقصف مدفعي مكثف أضخم من أي شيء كنا قد رأيناه حتى تاريخه – حيث ظهرت هنا فرق مدفعية جديدة لأول مرة – و إستخدام ما لا يقل عن عشر فرق قوية مدعومة بالمدرعات نجح العدو في إختراق رأس الكوبري، و عقب قتال عنيف تم التخلي عن رأس الكوبري، و برغم أننا ما زلنا نعمد إلى سحب القوات المدافعة عبر النهر و تفجير كلٍ من طريق السد و جسر السكك الحديدية التي أنهينا إصلاحها منذ أشهر قلائل خلت إلا أن الفرق المقاتلة في رأس الكوبري تعرضت لإنهاك شديد و بدا من المشكوك فيه ما إن كانت ملائمة للدخول في أي قتال دفاعاً عن النهر ذاته، و على أية حال لقد دفعنا ثمناً باهظاً بسبب إصرار "هتلر" على التمسك برأس الكوبري.

و بينما كان من الممكن إجبار العدو على التوقف مؤقتاً في نقطة إختراقه في منتصف الطريق بين "دنيبروبتروفسك" و "كريمنتشج" بإستدعاء الإحتياطات المتحركة التابعة للجيش الأول بانزر و الجيش الثامن لم يمكن دفعه لتخفيف قبضته على الضفة الجنوبية للنهر و كان يجهز قواته هناك تدريجياً لتوسعة رأس الكوبري من حيث العرض و العمق، و سنذكر المزيد لاحقاً حول التطورات في تلك المنطقة و التي سيكون لها تأثير جذري على العمليات المستقبلية في ثنية نهر "دنيبر".

و في نفس الوقت كان العدو يبذل ما في وسعه من جهد في سبيل تضخيم رأس الكوبري الذي حصل عليه على الجناح الأيسر للجيش الثامن في حلقة نهر "دنيبر" في "بيرياسلافل"، و مع ذلك نجحت قوات متحركة من الجيشين الرابع بانزر و الثامن في إحباط محاولاته لعبور النهر على جبهة عريضة و تدمير القوات الموجودة هناك، و قد واجهت ألوية المظليين السوفييتية الملقاة في تلك المنطقة و جنوب غرب "تشيركاسي" ذات المصير، و لذا ظل العدو في رأس الكوبري الضيق هذا جنوب "بيرياسلافل" – و الذي كان الخروج منه أمراً شاقاً للغاية – تحت سيطرتنا إلى حد كبير.

و قد نجح العدو خلال شهر أكتوبر في منطقة الجيش الرابع بانزر في الحصول على موطئ قدم له لعى الضفة الغربية لنهر "دنيبر" شمال "كييف"، كما تمكن كذلك من العبور بجبهة عريضة قبالة الفيلق الشمالي لهذا الجيش عقب إحرازه نجاحاً ضد الجناح الأيمن من الجيش الثاني المجاور، و في تلك النقطة ظهر خطر يقبع دائماً في الفروقات بين مناخي قيادة مختلفين، فكما حدث من قبل لم يتم تنفيذ الإجراءات التي أمرت بها مجموعة الجيوش على حدودها مع جارها الشمالي بسبب إخفاق الجيش الثاني في تنفيذ أوامر *القيادة العليا للجيوش الألمانية* بنشر قوات و نقلها لهذا الغرض، و حتى بعد أن سلمت إحتجاجاً حاداً *للقيادة العليا للجيوش الألمانية* ظلت غير قادرة على ضمان تنفيذ أوامرها، و على الرغم من ذلك عمد الجيش الرابع بانزر إلى التمسك بقمة الجبل الواقعة على بعد أميال غرب نهر "دنيبر" في منطقة الفيلقين العاملين شمال "كييف"، و لكل ما تقدم ظل الموقف خطراً و توقعنا إلتفاف العدو حول "كييف" من جهة الشمال بمجرد حصوله على التعزيزات.

و أبرز سمات ما سبق تتمثل في أن هذا القتال المبدئي قادنا بالفعل لإشراك كامل التشكيلات المتحركة التابعة لمجموعة الجيوش، و قد تدهورت بشدة كفاءتها القتالية بذات السرعة التي تدهورت بها كفاءة فرق المشاة المنتشرة على خط الجبهة، و هذا قاد إلى تزايد صعوبة تشكيل إحتياطات متحركة جديدة و وضعنا في حاجة أكثر إلحاحاً للتعزيزات.

معركة ثنية نهر "دنيبر":

كان على مجموعة الجيوش مواصلة إعتبار جناحها الشمالي أهم جناحيها حيث لو تمكن العدو من تحطيمه أخيراً فسيكون حراً في تنفيذ حركة تطويق واسعة النطاق ضد كلٍ من مجموعتي الجيوش الجنوبية و "أ"، و مع ذلك ففي واقع المر سخّر العدو جهده الرئيسي في أكتوبر في إحراز النجاح في ثنية نهر "دنيبر" ذاتها، و هذا – بجانب حقيقة إصرار "هتلر" على التشبث بشبه جزيرة القرم لأسباب سياسية – دفع مجموعة الجيوش لقبول خوض معركة فاصلة هنا.

و خلال أكتوبر دفعت جبهة "السهوب" – التي بدت مقر قيادتها متمركزاً في أكثر أماكنها نشاطاً- بمزيد من القوات لرأس الكوبري جنوب نهر "دنيبر" على حدود الجيش

الأول بانزر و الجيش الثامن، و بحلول نهاية الشهر كان لديها أكثر من خمسة جيوش – أحدهما كان مدرعاً بالكامل – بما مجموعه ٦١ فرقة مشاة و سبعة فيالق دبابات و ميكانيكية بقوة تُقدر بـ٩٠٠ مركبة قتالية، و من غير الممكن لأيٍ من جناحي الجيش الألماني التماسك في مواجهة تلك القوات و إضطر كلاهما للتراجع تجاه الشرق أو الغرب إن أمكن، و إنفتحت ثغرة واسعة بين الجيشين تاركةً للعدو حرية التقدم عميقاً إلى داخل ثنية نهر "دنيبر" تجاه "كريفوي روج" و التي إعتبر "هتلر" الإحتفاظ بها ضرورياً للمجهود الحربي الألماني.

و أسوأ ما في الأمر أن أي تقدم آخر من جانب العدو قاد إلى عزل الجيش الأول بانزر في الجزء الشرقي من ثنية نهر "دنيبر"، و هذا الخطر الأخير كان الأعظم في أعين مجموعة الجيوش و التي لم تكن متأهبة لترك هذا الجيش يُطوق.

و في تلك الأثناء دفعت مطالباتنا المستمرة بالتعزيزات *القيادة العليا للجيوش الألمانية* على الأقل لتزويدنا بفرقتين مدرعتين معاد شحذ قواهما {١٤ و ٢٤} و فرقة مشاة، كما وُعدنا بثلاثة فرق مدرعة أخرى – الأولى بانزر و "الليستاندرت" و كليهما عائدتين من إستراحة و معاد شحذ قواهما إضافة للفرقة ٢٥ بانزر – على الرغم من أنه لم يتحدد بعد تاريخ و مكان وصولهما.

و كم كانت الأمور لتختلف لو كانت تلك التشكيلات المدرعة الخمسة في حوزة مجموعة الجيوش أبكر من ذلك بأربعة أسابيع عندما بلغت نهر "دنيبر"! و حتى لو لم يكن تحقيق ذلك ممكناً لأسباب تتعلق بإعادة شحذ قواها فماذا ستكون الفرص المختلفة المتاحة أمام مجموعة الجيوش عملياتياً إن كانت تعتمد على تلك القوات مسبقاً و تتمتع بحرية الحركة على جناحها الجنوبي.

و مع ذلك و مع جريان الأمور على نحو ما كان لم يمكننا حتى الإنتظار ريثما تصل كل الفرق المدرعة الخمسة حيث كان في ذلك الوقت مصير الجيش الأول بانزر قد حُسم بالفعل.

لذا كان علينا أن نُشغل أنفسنا بتوجيه ضربة مضادة بما في حوزتنا حالياً من القوات – و هي الفرقتيان الأولى مشاة و الثانية بانزر، و كان على تلك القوات أن – عبر التقدم تحت قيادة الفيلق ٤٠ بانزر من المنطقة التي إنسحب منها جناح الجيش الثامن – تتحرك من جهة الغرب إلى داخل جناح العدو المتقدم في إتجاه "كريفوي روج" و خطوطه

الخلفية، و قد إستخدم الجيش الأول بانزر من جانبه كل المشاة و المدرعات المتاحة له بغرض الإبقاء على مناطق الإتصالات الحيوية الخاصة به خلال "كريفوي روج" مفتوحة، و لتمكينه من القيام بذلك أمرته مجموعة الجيوش بترك حواجز أمنية على طول نهر "دنيبر" في المنطقة التي كان الفيلق الثلاثون يتمسك بالنهر على كلا جانبي "دنيبروبتروفسك"، و تقرر سحب الكتلة الرئيسية لقوات هذا الفيلق إلى جبهة قصيرة تمتد من شمال "زابوروزهي" إلى شمال "كريفوي روج" بهدف تحرير تشكيلات للقيام بمهام في النقطة الحاسمة، و قد إضطر "هتلر" لتقبل التخلي عن هذا الجزء من ضفة نهر "دنيبر" سواء أحب ذلك أم لا.

و بفضل الأسلوب المثالي الذي تعاون به الجيشان – الفيلق ٤٠ بانزر تم نقله للجيش الأول بانزر أثناء تنفيذ العملية – تم تنفيذ الهجوم المضاد في نهاية أكتوبر شمال "كريفوي روج" – و التي كان العدو قد بلغ مشارفها بالفعل – و إنتهت بنجاح باهر، و قد عاني العدو من التراجع بدلاً عن قيامه بتطويق الجيش الأول بانزر في الجزء الشرقي من ثنية نهر "دنيبر" كما إنتوى، و وفقاً لما أوردته الجيوش من تقارير تم قتل ١٠ آلاف جندي من العدو بجانب ٣٥٠ دبابة و عدد أكبر من المدافع و قرابة الخمسة آلاف أسير، و تلك الأرقام تُظهر لدى مقارنتها بالسجلات المبكرة للغنائم و الأسرى الزيادة الإستثنائية في معدات الجيش الأحمر مقارنةً بأفراده، و في كل الأحوال من الجائز إفتراض تعرض فيلقين أو ثلاثة دبابات أو ميكانيكيين و ثمان فرق مشاة لدمار بالغ فضلاً عن تضرر عدد آخر بشكل كبير، و علاوة على ذلك كان من الممكن إعادة تشييد جبهة متواصلة بين الجيشين الأول بانزر و الثامن.

و مع ذلك و إزاء كل المعوقات التي ما تزال أمامنا لم تكن قواتنا كافية لإجبار العدو على التقهقر إلى الضفة الشمالية لنهر "دنيبر"، و قد كان هذا شيئاً دفعنا لإنتظار وصول الفرق المدرعة الثلاث التي وُعدنا بها من قبل – مع إفتراض دائماً عدم حدوث أي حالات طوارئ في أي مكان في ذلك الوقت، و لكن هذا ما حدث حقيقة و في وقت واحد.

فبينما تم التخلص من التهديد المحدق بالجيش الأول بانزر ظهر تهديد جديد و ربما أكثر خطورة في مؤخرة هذا الجيش، ففي ٢٨ أكتوبر هاجم قوات معادية كبيرة العدد الجيش السادس و الذي كان متولياً الجبهة بين نهر "دنيبر" و ساحل بحر آزوف في منطقة مجموعة الجيوش "أ"، و قد تم الإختراق بعمق كبير مما قاد الجيش السادس إلى

الإنسحاب غرباً من تأثير المباغتة، و في تلك العملية تراجه جناحه الشمالي {الفيلقين الرابع و التاسع و العشرين} إلى رأس كوبري موسع جنوب نهر "دنيبر" – و هو ما عنى توفير غطاء مؤقت لمؤخرة الجيش الأول بانزر و كذلك منطقة "نيكوبول" على الأقل لذلك الوقت، و قد إنسحبت بقية الجيش إلى الغرب في إتجاه نقاط تقاطع نهر "دنيبر" في "بيريسلاف" و الروافد السفلى للنهر – على الرغم من عدم توفير في الواقع سهوب "نوجايسك" لأي أساس تُنشأ عليه جبهة جديدة بسرعة.

و قد شكّلت التطورات الحادثة في منطقة الجيش السادس تهديداً خطيراً للجيش الأول بانزر في الجزء الشرقي من ثنية نهر "دنيبر" على الرغم من أنه كان من الممكن فرض الإستقرار على موقف الجيش الأخير عبر قيام الفيلق ٤٠ بانزر بشن هجوم مضاد ضد القوات السوفييتية المتقدمة في "كريفوي روج" إلا أن العدو لم يكن ليعاني أي خسائر فادحة، و لم يكن ممكناً تنفيذ الهجوم الرئيسي الذي خططت له مجموعة الجيوش قبل منتصف نوفمبر نظراً لأن هذا هو أقرب تاريخ نتوقع فيه وصول الفرق المدرعة الثلاث، و في ذلك الوقت من المحتمل أن يكون الجناح الجنوبي للجيش السادس قد صار بعيداً خلف نهر "دنيبر السفلي" و أن يكون تم تطويق الجيش السابع عشر في شبه جزيرة القرم و سيكون العدو قادراً على التحرك ضد الخطوط الخلفية للجيش الأول بانزر – و التي كانت محشورة حينئذٍ في منطقة ضيقة تأخذ شكل خرطوم تصل حتى "زابوروزهي" بجبهة مواجهة للشمال و الشرق – و ستصير بدورها في وضع أكثر مأزقية، و إن لم يتم منع تلك التطورات فلن يكون أمامنا خيار إزائها سوى سحب الجيش الأول بانزر إلى الغرب من الجزء الشرقي من ثنية نهر "دنيبر"، و سيعني ذلك التخلي هن تلك المنطقة الأخيرة – و في أي حال خسارة "نيكوبول" بمخزونها من المنجنيز الخام و ترك القرم تواجه مصيرها.

و لوقف مثل هذا التطور – و تحديداً لتحاشي أي تهديد لمؤخرة الجيش الأول بانزر – إقترحت الوسيلة العملياتية التالية على *القيادة العليا للجيوش الألمانية* :

وجوب قيام الفيلق ٤٠ بانزر فور الإنسحاب من المعركة الدائرة شمال "كريفوي روج" بشن هجوم مفاجئ بفرقتيه – أو الثلاث إن أمكن – المدرعتين إنطلاقاً من رأس الكوبري الذي مازال تحت سيطرة الجيش السادس جنوب "نيكوبول" ثم التقدم داخل جناح قوات العدو التي سوف تلاحق الجيش السادس خلال سهوب "نوجايسك" تجاه نهر "دنيبر السفلي"، و يكمن الغرض وراء هذا الهجوم في تمكين الجيش السادس من بناء

جبهة أمام نهر "دنيبر" و صون الإتصال مع الجيش السابع عشر في القرم، و في نفس الوقت سيتم القضاء على التهديد المحدق بؤخرة الجيش الأول بانزر.

و بحلول ١٢ نوفمبر على أقصى تقدير يجب أن يكون الفيلق مجدداً متاحاً شمال نهر "دنيبر" للقيام بدور في الهجوم المخطط له في منطقة الجيش الأول بانزر و معه الفرق المدرعة الثلاث المزمع وصولها، و إن حقق هذا النجاح الحاسم الذي نأمله فسيكون من الممكن القيام بتدخلات أكثر في منطقة الجيش السادس مستهدفةً إعادة السيطرة على جبهة "مليتوبول- دنيبر".

و قد لقى هذا المقترح قبولاً حماسياً من "هتلر" لتضمنه إمكانية الإحتفاظ بالقرم و "نيكوبول".

و على الرغم من ذلك لم يتم تنفيذ تلك الوسيلة لأن إنسحاب الجيش السادس تم بسرعة حالت دون تحقيق أي هجوم مفاجئ يشنه الفيلق ٤٠ بانزر من رأس كوبري "نيكوبول" لأي نجاح، و عقب ذلك أطاحت الأحداث الواقعة على الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش بأي إمكانية لإستخدام الفرق المدرعة الثلاث التي ما تزال في طريقها إلينا على ثنية نهر "دنيبر".

و سيكون من غير المفيد على الإطلاق أن نشير إلى هذه الخطة هنا لعدم تضمنها أي دروس مهمة – حتى عندما إضطررنا للجوء للوسائل العملياتية يجب ألا يتجاهل المرء للحظة الفكرة الأساسية التي إستندت إليها إدارتنا للعمليات.

و قد كانت مجموعة الجيوش تشدد بإستمرار على الأهمية الحاسمة لجناحها الشمالي حيث كان العدو متوقَعاً لشن هجوم كبير في المستقبل القريب، لذا كان واجباً علينا أن نتخذ خطوات تحول دون تحقيق العدو لأي نجاح في تلك المنطقة، و لتحقيق ذلك تحتم علينا أن نُخرج الفيلق ٤٠ بانزر من ثنية نهر "دنيبر" بعد هجومه الناجح في "كريفوي روج" و وضعه خلف الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش و الذي يتم إتخذا ترتيبات عليه لإشراك الفرق المدرعة الثلاث التي ما تزال في طريقها.

و مع ذلك فبالنظر للموقف في منطقة الجيش السادس كان ما سبق يعني حتمياً إنسحاب الجيش الأول بانزر من الجزء الشرقي لثنية نهر "دنيبر" و الذي يستلزم بدوره التخلي عن "نيكوبول" و إخلاء شبه جزيرة القرم.

و من المؤكد بشكل كبير أن "هتلر" – الذي سمح لمجموعة الجيوش بإمتلاك خمس فرق مدرعة للغرض الصريح الكامن في إستعادة الموقف في ثنية نهر "دنيبر" – لن يوافق أبداً على مثل تلك النمط من العمليات، و سيستمر في إصراره على وجوب القيام بأي محاولة للتمسك بنهر "دنيبر" و القرم، و هذا لا يغير شيئاً من الحقيقة المتجلية أنه ما يزال واجباً على مجموعة الجيوش أن تتصرف وفقاً للأسلوب السابق شرحه.

و على الرغم من ذلك كان المقترح المقدم من طرفي – برغم كونه مبرراً بالنظر للتهديد المحدق بالجيش الأول بانزر – خطأً بالنظر إلى عمليات مجموعة الجيوش في مجملها، و نتيجة لذلك تم ترك الفيلق ٤٠ بانزر مربوطاً في ثنية نهر "دنيبر".

و هناك سببان دفعاني للعمل على خلاف مفهومي الخاص لطريقة إدارة العمليات، **أحدهما** كان الأمل في أن نتمكن من التعامل مع هجمات العدو المباغتة محرزين نجاحاً سريعاً على كلا ضفتي نهر "دنيبر" و – إن نجح ذلك – إستعادة الموقف على الجناح الجنوبي مع مواصلة التمسك بخط النهر على جانبي "نيكوبول" كليهما، أما **الآخر** فكان أننا إن لم نغامر بالقيام بتلك العملية فلن يكون أمامنا من خيار سوى التخلي عن شبه جزيرة القرم – و هو الإحتمال شديد الألم بالنسبة لأولئك الذين قاتلوا هناك ضمن الجيش الحادي عشر، و مع ذلك سيظل من الصواب عدم تجاهل المبدأ القاضي بكون الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش هو الأكثر أهمية عملياتياً.

<u>المعركة من أجل "كييف":</u>

في بداية نوفمبر هاجم العدو مجدداً الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش - جبهة الجيش الرابع بانزر على نهر "دنيبر – بقوات قوية، و لم يكن واضحاً ما إن كان هذا الهجوم ذي أهداف بعيدة أو ما إن كان العدو ينتوي أولاً إكتساب المساحة الضرورية للإنتشار غرب النهر، و صار واضحاً قريباً أن تشكيلات الجيش الرابع بانزر لن تكون قادرة على التمسك بنهر "دنيبر" في مواجهة التشكيلات الروسية الأقوى بكثير، و بحلول الخامس من نوفمبر بات واضحاً أن "كييف" ستضيع.

و قد إستخلصت مجموعة الجيوش مما سبق أنه من الضروري الآن توجيه كل ما يمكن إتاحته من قوات في منطقتها – على الأخص الفرق المدرعة الثلاث التي ما تزال في طريقها – لجناحها الشمالي، و نظراً لقيام "هتلر" بتحرير تلك القوات صراحة لإستخدامها في منطقة نهر "دنيبر السفلي" توجب الحصول على موافقة *القيادة العليا للجيوش الألمانية*، و إن لم تتمكن الأخيرة تلك من دعم الجيش الرابع بانزر بقوات قوية أكبر فلن يكون هناك بديل سوى التخلي عن ثنية نهر "دنيبر"، و لمّا لم يصدر أي قرار بشأن هذه المسألة الأساسية فقمت بالطيرن إلى مقر القيادة العامة في السابع من نوفمبر.

و أثناء الإجتماع أعلن "هتلر" أنه لم يكن مستعداً للتفريط في "تلك الفرصة الفريدة" التي أتاحها إقتراح مجموعة الجيوش بتنفيذ عمليات في منطقة الجيش السادس في سبيل الإحتفاظ بالقرم، كما قال أنه من غير المحتمل ألا يكون أي نجاح نحرزه في "كييف" فعالاً بدرجة تجعل المدرعات الموجودة هناك حرة في الوقت المناسب لتقديم المساعدة للجناح الجنوبي، فلا القرم و لا الدفاعات الموجودة على نهر "دنيبر السفلي" يمكنها التماسك لحين تحقيق ذلك.

و قد رددت على ذلك بأنه وفقاً للخطة الموضوعة للعمليات في ثنية نهر "دنيبر" و منطقة الجيش السادس فإننا يتوجب علينا القيام بمخاطرة كبيرة على جناحنا الشمالي و التي ستؤثر بدورها على وضع مجموعتي الجيوش الجنوبية و "أ" بأكمله، و بقدر ما كنت كارهاً لمواصلة الهجوم جنوب نهر "دنيبر السفلي" صار الآن أساسياً بشكل مطلق أن نتدخل في "كييف" بالفرق المدرعة الثلاث الواصلة الآن.

و قد ردّ "هتلر" عليّ متحججاً بوجود أسباب سياسية و عسكرية تفسر وجوبية تحقيقنا للنجاح المتاح أمامنا الآن في منطقة نهر "دنيبر السفلي"، و ترجع تلك الأسباب في جانب منها إلى أن الجيش يجب أن يكون واعياً بأنه ما يزال قادراً على توجيه ضربات ناجحة، و في آخر إلى أنه كان من الضروري لإقتصادنا الحربي أن نحتفظ بمخزون المنجنيز في الموجود في "نيكوبول"، و يُضاف إلى ما سبق وجوب عدم السماح للعدو بإستعادة شبه جزيرة القرم كي كون قاعدة لحرب جوية ضد حقول النفط الرومانية.

و في حين كنت مقدراً دوافع "هتلر" إلا أنني أصررت على أن الخطر المحدق بالجناح الشمالي بات الآن في تزايد، و إن سارت الأمور في غير المسار السليم بالنسبة للجيش

الرابع بانزر فسينحسم مصير كلٍ من مجموعة الجيوش "أ" و مجموعة الجيوش الجنوبية عاجلاً أو آجلاً.

و قد إعترف "هتلر" بعِظَم الخطر و لكنه أعلن وجوب تقبله في ظل موقفنا الراهن مع إستعداده الشخصي لتحمل المسئولية.

و على الرغم من ذلك نجحت في دفعه للموافقة على إرسال الفرقة الرابعة بانزر من الجيش الثاني الموعود بها – لم تصل مصادفةً - و لواء "نوردلاند" من سرايا الدفاع – في تاريخ لاحق – و الفرقة الثانية مظليين إلى جناحنا الشمالي، أكثر من ذلك أنه في وقت لاحق تقبل إستخدام ليس فقط فرقة من الثلاث المدرعة الجديدة {٢٥ بانزر} لصالح الجيش الرابع بانزر بدلاً من إستخدامها في ثنية نهر "دنيبر" و لكن الفرقتان الأخريتان كذلك، و من جهة أخرى ظلت الفرقتان المدرعتان التابعتان للفيلق ٤٠ بانزر {١٤ و ٢٤} مع الجيش الأول بانزر و الذي كان الباب أمامه ما يزال مفتوحاً لشن هجوم في منطقة الجيش السادس فيما بعد، و على أية حال لم يكن من الممكن سحبهما طالما ظل "هتلر" غير مستعد لسحب الجيش الأول بانزر إلى الغرب من موقعه الخطر في ثنية نهر "دنيبر" متخلياً بموجبه عن القرم و "نيكوبول".

و في الأيام القليلة التالية إتخذ موقف الجيش الرابع بانزر منعطفا سريعاً للأسوأ، حيث باتت فرقه الإحدى عشر من المشاة – أغلبها صار في قوة الأفواج - غير مؤهلة لمواجهة عدو أشرك ما بين سبعة عشر و عشرين فرقة مشاة بكامل عددها و معها ثلاثة أو أربعة فيالق دبابات و فيلق خيالة واحد في الموجة الأولى من هجومه فقط، و حتى الفرقتين المدرعتين اللتين يمتلكهما ذلك الجيش كإحتياط متحرك كانت أضعف من أن توقفا إختراقات العدو.

و عقب قتال كثيف تم إخلاء "كييف" كي لا يتعرض الفيلق السابع للتطويق داخل المدينة، و تم توجيه هذا الفيلق للجنوب و تمكن من وقف تقدم العدو على بعد ثلاثين ميلاً فقط، و على الجناح الغربي للفيلق السابع – قرابة الأربعين كيلومتر جنوب غرب "كييف" – سقطت نقطة تقاطع خطوط السكك الحديدية الحيوية في "فاستوف" – و الضرورية جداً لإيصال التعزيزات و الإمدادات للجيش الثامن – بيد الروس.

تم سحب كلا الفيلقين المتواجدين على نهر "دنيبر" شمال "كييف" تجاه الغرب – الفيلق الثالث عشر إلى "زيتومير" و التاسع و الأربعين إلى "كوروستن"[1]، و كل من التقاطعين – و كلاهما مهم للإتصال مع مجموعة الجيوش الوسطى و إمداد الجيش الرابع بانزر – بلغهما العدو.

و الآن صار الجيش الرابع بانزر منقسماً على ثلاث مجموعات منفصلة عن بعضها البعض، و تمثل شعاع الأمل الوحيد في ظل هذا الموقف حالك الظلمة في حقيقة تفرق هجوم العدو في إتجاهين مختلفين – أحدهما للجنوب و الآخر للغرب ، و لن تكون هناك أي تبعات مباشرة تنجم عن القوات السوفييتية المتوجهة غرباً طالما بقيت غير قادرة على التحرك جنوباً و تنفيذ حركة تطويقية واسعة النطاق حول مجموعة الجيوش، و لمنعها من القيام بذلك ريثما تحصر مجموعة الجيوش التعزيزات عبر قيامها بالتدخل كانت وظيفة الفيلقين الذين تم سحبهما للغرب.

و لكننا كنا على وشك إجتياز بضعة أيام حرجة قبل أن تؤتي الإجراءات المضادة التي تتخذها مجموعة الجيوش ثمارها منذ منتصف نوفمبر فصاعداً، و تتكون تلك الإجراءات من هجوم مضاد تشنه الفرق المدرعة الثلاث الجديدة – ٢٥ و الأولى و "الليبستاندرت" بقيادة الفيلق ٤٨ بانزر و الذي حررته مجموعة الجيوش لهذا الغرض – ضد مدرعات العدو المتقدمة في إتجاه جنوب غربي من "كييف"، و في تلك اللحظة كانت تلك أكبر قوات العدو العاملة خطورة علينا، و عقب ذلك كان على فيلق البانزر التقدم غرباً و تحطيم العدو الملاحق للفيلق الثالث عشر صوب "زيتومير".

و عقب إحراز النجاح في ذلك يكون من الممكن التقدم صوب مؤخرة العدو المهاجم في الجنوب على طول نهر "دنيبر"، و بغرض تعزيز الجيش الرابع بانزر الذي ما زال بعيداً قامت مجموعة الجيوش بتحريك فرقتين مدرعتين إضافيتين { ٣ و ١٠} و الفرقة ١٩٨ مشاة و فرقتي غرناد بانزر {٢٠ و "رايخ" من سرايا الدفاع} من الجيش الثامن، و برغم إقراري أن ذلك أضعف إلى حد كبير جبهة الجيش الثامن إلا أن مجموعة الجيوش لم يكن أمامها سبيل سوى تنحيل القطاعات الأقل أهمية من الجبهة بشكل مؤقت لصالح البقعة الحاسمة في تلك اللحظة.

[1] زيتومير و كوروستن : مدينتان شمال أوكرانيا.

و لسوء الحظ فنظراً لعدم تمكن الفيلق ٤٨ بانزر من الإنتشار قبل منتصف نوفمبر و تزايد خطورة الموقف جنوب غرب "كييف" إضطرت مجموعة الجيوش لتحرير أولى الفرق المدرعة المتاحة لها { ٢٥ بانزر } إستثنائياً لشن هجوم محدود على "فاستوف" يستهدف الإبقاء على منطقة إنتشار فيلق البانزر خالية، و مجدداً نشهد على الثمن الذي تدفعه فرقة جديدة بسبب دخولها في الحرب في الشرق، و فوق ما تقدم تمت إصابة قائد الفرقة – و الذي إستعجل التقدم بكتيبته الإستطلاعية – في لحظة الإشتباك مع العدو، و بالتالي و بدلاً من أن تقود تلك العملية لإستعادة نقاط تقاطع السكك الحديدية في "فاستوف" فقد تسببت في إحباط القوات التي تخوض أول قتال لها في الشرق معنوياً، و على الرغم من ذلك كان من الممكن – عبر شن الهجوم فعلياً بواسطة القوات القادمة من الجيش الثامن – وقف العدو على جبهة جنوب "كييف" و الحيلولة دون تطويق جبهة نهر "دنيبر".

في ١٥ نوفمبر كان الفيلق ٤٨ بانزر قادراً على شن الهجوم المضاد المخطط له، و تم إنجاز أول الأهداف بهزيمة فيلق الدبابات المعادي المتقدم في إتجاه جنوب غربي من "كييف"، و بهذا تم تخفيف الضغط الواقع على الفيلق الثالث عشر بحركة غلى الغرب و تمت إستعادة السيطرة على "زيتومير"، و مع ذلك علق تقدم فيلق البانزر شرقاً على طول طريق "زيتومير- كييف" الكبير صوب الخطوط الخلفية للجبهة السوفيتية جنوب "كييف" في الطين بشكل محزن، و لكن حتى على الرغم من كون ذلك يعني أنه لن يتم طرد العدو من الضفة الغربية لنهر "دنيبر" إلا أنه ما يزال من الممكن بداءةً التغلب على أزمة الجيش الرابع بانزر بحلول بداية شهر ديسمبر، و هذا الجيش يتولى الآن أمر جبهة تمتد من نقطة على بعد ٢٥ ميلاً جنوب "كييف" وصولاً إلى المنطقة الواقعة شمال "زيتومير"، و كان الفيلق التاسع و الأربعون – و الذي ما يزال في موقعه المنعزل حول "كوروستن" – قادراً على إعادة إحتلال المدينة و بموجبه تطهير خط السكك الحديدية المتصل بمجموعة الجيوش الوسطى، و وفقاً لما أورده الجيش الرابع بانزر خسر العدو قرابة الـ٢٠ ألف قتيل، و تُظهر حقيقة أن عدد الأسرى كان خمسة آلاف فقط مقابل ٦٠٠ مدفع و ٣٠٠ مدفع ميداني و ما يزيد عن ١٢٠٠ مدفع مضاد للدبابات إما غنيمة او مدمرة مجدداً الزيادة التدريجية في ميزان معدات الجيش الأحمر.

(بالقطع تقبل تلك الأرقام الزيادة أضعافاً، و لكن حتى عندما تم السماح بذلك لاحقاً ظلت تعطي صورة مجسدة لما قيل .... الكاتب)

و من كل القوات السوفييتية المشاركة على جبهة "كييف" تم إضعاف ثلثي فرق المشاة بجانب أربعة فيالق دبابات و فيلق مكيانيكي و فيلق خيالة بشكل كبير.

و لسوء الحظ منح الإنسحاب المبدئي السريع لفيالق الجيش الرابع بانزر إلى الجنوب و الغرب "هتلر" فكرة وجوب تولية آخرين قيادة هذا الجيش، و برغم إصراري على أن خسارة جبهة نهر "دنيبر" ترجع إلى التفوق الهائل للعدو و الحالة المتدنية للفرق أكثر من الأخطاء المُعزاة لقيادة الجيش رأى "هتلر" أن الكولونيل جنرال "هوث" يحتاج للراحة عقب الإجهاد الكبير الذي عاناه السنوات القليلة الماضية و تم نقله بناء على ذلك للإحتياط، و قد شعرت ببالغ الأسف إزاء إقالته و لكنني على الأقل حصلت على تطمينات تفيد بأنه سيتولى جيشاً في الغرب عقب عودته من الإجازة، و قد خلف "هوث" في منصبه ضابط نمساوي سابق و هو الجنرال "راوس" الذي برز إسمه في مجموعة الجيوش كقائد للفرقة السادسة بانزر و فيما بعد للفيلق الحادي عشر.

<u>المعركة الثانية في ثنية نهر "دنيبر":</u>

بينما ما يزال القتال دائراً على جبهة الجيش الرابع بانزر كان العدو قد تعافى في منتصف نوفمبر من تراجعاته في "كريفوي روج"، و قد شن هجوماً كبيراً بمساعدة قوات جديدة في ثنية نهر "دنيبر" على الجبهة الشمالية للجيش الأول بانزر و الجناح الأيمن – على جبهة تواجه الشرق – للجيش الثامن المتاخم له، كما حاول على الجبهة الشرقية للجيش الأول بانزر عبور النهر جنوب "زابوروزهي" و هاجم جبهة الجيش الثامن على نهر "دنيبر" على كلا جانبي "تشيركاسي"، و فيما بعد قام بتوسيع هجومه أكثر بهجوم شنه من جهة الشمال على رأس الكوبري في "نيكوبول"، و كان قد تم وضع الفيلق التابع للجيش السادس هناك تحت قيادة الجيش الأول بانزر، و كانت نية العدو القطعية تتجه أخيراً إلى تطويق الجيش الأول بانزر في شرق ثنية نهر "دنيبر" و تدميره هناك.

و هذا المنعطف الذي إتخذته الأمور في النصف الثاني من نوفمبر دفع مجموعة الجيوش للإستعانة *بالقيادة العليا للجيوش الألمانية* بشأن الإدارة الأبعد للعمليات.

كانت المذكرة التي قدمناها بتاريخ العاشر من نوفمبر تستند إلى فرضية أنه على الرغم من إنخراط حشود ضخمة من قوات العدو في القتال على جبهة مجموعة الجيوش إلا أنه ما يزال يمتكل إحتياطاً إستراتيجياً قوياً، فوفقاً للتقارير الإستخباراتية أشرنا إلى إمتلاك السوفييت ٤٤ فرقة مشاة و عدد ضخم من الألوية المدرعة في ١٩٤٣ لم تدخل بعد في أي معركة، و إضافة لذلك يمكن إفتراض وجود ٣٣ فرقة مشاة و ١١ فيلق دبابات أو ميكانيكي في راحة و تمت إعادة شحذ قواها خلف جبهة العدو، لذا يتوجب توقع إستمرار العدو في هجومه على الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية خلال الشتاء مُركزاً ضغطه الرئيسي على الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش الجنوبية، و حتى لو إنتهت ضربتنا المضادة الموجهة في منطقة الجيش الرابع بانزر بنتيجة في صالحنا فسيظل العدو قادراً على حماية منقطة إنتشار مناسبة غرب نهر "دنيبر" ينطلق منه مستئنفاً هجومه فيما بعد، و لهذا السبب لا محل لمسألة تحرير أي قوات من الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش و المهم عملياتياً لدعم أي قتال يقع في ثنية نهر "دنيبر".

و قد قلنا أنه إن كان على الرغم من ذلك ممكناً الآن دحر هجوم العدو بحركة كاملة في منطقة هذا الأخير و فرض الإستقرار على الموقف في قطاع الجيش الرابع بانزر بشكل متزامن فستتطور الأمور على النحو التالي:

سيكون على مجموعة الجيوش أن تجتاز فصل الشتاء و هي متمسكة بالجبهة و هو أمر يفوق موارد فرقها المنهكة تماماً في أغلبها، حيث لن يكون بحوزتها إحتياطات كافية إتخاذ أي تصرف فعال ضد أي هجمات معادية كبيرة ــو تحديداً إن إستدعيت للقيام بذلك في مناطق متعددة في ذات الوقت.

و هكذا ستظل مجموعة الجيوش من الناحية العملياتية تحت رحمة العدو تماماً – و هو الحالة شديدة الخطورة بالنظر للقوة القتالية المتقلصة لتشكيلاتها، و لن يكون لأي معركة تخوضها على هذا الأساس أي أثر في تقليص القدرة الهجومية للعدو، و حقيقة أن السوفييت سيكونون بإستمرار في وضع يمكّنهم من إملاء تصرفاتنا علينا - بينما نحن غير قادرين على تشكيل أي إحتياطات في الوقت المناسب للتصدي لهجماته أو لتوقعها – ستؤدي لزيادة فداحة خسائرنا ليس فقط من الأرض و إنما من الأسلحة و القوة البشرية أيضاً.

و قد أصررنا على أن الشرط الأساسي لخوض هذا الصرا بنجاح هو كفاية الإحتياطات ذات القوة الضاربة، فإن لم يتم نقل تلك الإحتياطات من المسارح الأخرى فيتعين الحصول عليها بتقصير الجبهة جذرياً على الجناح الجنوبي الألماني – بما فيه القيام بعملية إنسحاب عبر البحر للجيش السابع عشر من شبه جزيرة القرم، فمجموعة الجيوش لا يمكنها إجتياز الشتاء إن إضطرت للقتال بدون أي إحتياطات.

و قد تطور الموقف على الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية حتى نهاية نوفمبر على النحو التالي:

في جنوب نهر "دنيبر السفلي" {مجموعة الجيوش "أ"} إختفى الجناح الأيمن للجيش السادس وراء الرافد السفلي للنهر تاركاً رأس كوبري ضيق في "خيرسون"، كما تم تطويق الجيش السابع عشر في القرم و غلق الطرق الواصلة إلى شبه الجزيرة.

و من ناحية أخرى ثبت أنه من الممكن الإحتفاظ برأس الكوبري أمام "نيكوبول" بكامل إتساعه بصرف النظر عن حقيقة إشراك الجبهة الأوكرانية الرابعة – و هي التشكيل السوفييتي المسئول في الجنوب – قواتها الرئيسية – ١٨ فرقة و مدرعات قوية – في الهجوم هنا.

و في ذلك الوقت أوقف العدو العمليات أمام الرافد السفلي لنهر "دنيبر" و مداخل شبه جزيرة القرم.

و في ثنية نهر "دنيبر" كان العدو قادراً على عبور النهر بجبهة ضيقة جنوب "زابوروزهي" و إقامة رأس كوبري صغير له، و على خلاف ذلك أثبتت تكتيكات الجيش الأول بانزر الدفاعية نجاعاً باهراً على الرغم من أنه تراجع قليلاً للوراء في بعض الأماكن نتيجة لهجمات العدو غير المنقطعة، و لم يتمكن العدو من الإختراق في أي مكان، و على الرغم من ذلك أجبر القتال الجيش الأول بانزر على إشراك آخر إحتياطه، و في نهاية نوفمبر بات متسكاً بجبهة متواصلة تمتد من شمال "زابوروزهي" إلى شمال غرب "كريفوي روج" حيث تنحني هناك نحو الشمال للإلتقاء مع الجيش الثامن.

و كان موقف الجيش الثامن قد حرجاً للغاية – و هو ما يرجع في جزء منه بالطبع لفرقة المشاة و الأربع فرق متحركة التي كان على هذا الجيش تسليمها للجيش الرابع بانزر

للتعامل مع الموقف في "كييف" في بداية نوفمبر، و كان العدو قادراً على توسعة قاعدته القوية جنوب نهر "دنيبر" في قطاع "كريمنتشج" لكونه الآن مسيطراً على نقطة تقاطع "كريمنتشج"، و أكثر من ذلك أنه أحدث ثغرة جنوب غرب المدينة – مهما كانت ضيقة في تلك اللحظة – في جبهة الجيش المواجهة للشرق.

و قد أتم العدو على الجبهة الشمالية للجيش الثامن عبوراً ناجحاً لنهر "دنيبر" على كلا جانبي "تشيركاسي"، و لعدم إمتلاكه أي إحتياطات متبقية إضطر هذا الجيش للتخلي عن قرابة الستين ميلاً من ضفة النهر و تأسيس جبهة دفاعية جديدة – و لكنها نحيلة جداً – وراء المجرى المائي ذي المستنقعات الذي يجري موازياً لنهر "دنيبر" على بعد ٣٠ ميلاً جنوبه.

و على الرغم من سماح مجموعة الجيوش للجيش الثامن بإمتلاك تشكيلين متحركين من كلٍ من الجيشين الأول بانزر و الرابع بانزر ما إن يسمح وضعهما بذلك إلا إنه كان من المشكوك فيه مدى قدرة مجموعة الجيوش على غلق الثغرة الحادثة في جبهتها الشرقية و إستعادة السيطرة على الموقف في "تشيركاسي"، و هذا يعطي فكرة عن المدى الذي بلغته مجموعة الجيوش في تحريك تشكيلاتها المدرعة ذهاباً و إياباً، و كانت كل محاولة لإستعادة الموقف في نقطة واحدة بإستخدام الفرق المتحركة تثير أزمة في منطقة الجيش التي أتت منه تلك التشكيلات.

و في كل الأحوال فبحلول نهاية نوفمبر كان خط نهر "دنيبر" بدءً من شمال "زابوروزهي" إلى غرب "تشيركاسي" و كذلك من جنوب "كييف" و حتى قطاع مجموعة الجيوش الوسطى قد سقط بيد العدو.

و على الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش الجنوبية – في منطقة الجيش الرابع بانزر – حدث بعض الإرتخاء المؤقت عقب الهجوم المضاد الناجح للفيلق ٤٨ بانزر، و لكن لا يمكن وجود أي شك حول ما إن كان العدو سينشر قوات جديدة هنا ثم بتوجيه الهجوم الحاسم إلى الجناح العميق لمجموعة الجيوش، و برغم ذلك فإن الحاجة الملحة لمواصلة الصراع على ثنية نهر "دنيبر" قد جعلت من المجدي إعادة التشكيلين المتحركين سالفي الذكر إلى الجيش الثامن.

و في بداية ديسمبر كان الجيش الرابع بانزر ما يزال جناحه الأيمن على نهر "دنيبر" حيث كان الفيلق ٢٤ بانزر التابع له على إتصال بالجناح الأيسر للجيش الثامن في نقطة تقاطع "كانيف".

(في ذلك الوقت لم تكن فيالق البانزر التابعة لنا تشتمل كليةً على المدرعات، بل إنها تكونت من قيادة فيلق بانزر و تحت قيادتها إما فرق مشاة أو مدرعة وفقاً للموقف السائد ... الكاتب)

و على بعد قرابة ٣٠ ميلاً جنوب "كييف" إبتعدت الجبهة بشكل حاد عن النهر تجاه الغرب و شكلت خط متواصل – من الفيالق ٤٨ بانزر و السابع بانزر و الثالث عشر – يمتد بعيداً حتى شمال "زيتومير"، و ليس ببعيد عن ذلك تواجد الفيلق التاسع و الخمسون حول "كوروستن" بجبهة مواجهة للشرق.

معركة على طول الخط:

إستمرت المحاولات السوفييتية في سبيل فرض أمر واقع في ثنية نهر "دنيبر" خلال شهر ديسمبر، فقد أخضع العدو ذلك المعقل الشرقي التابع لنا لهجمات متواصلة لا نهائية – بإستثناء بعض الوقفات التي تهدف لإستبدال قوات جديدة بتلك التي أنهكت في المعركة أو لإلقاء قوات جديدة في خضم الصراع – تسبب في تكبده خسائر فادحة.

و على الثنية الحقيقية للنهر هاجمت الجبهة الثالثة الأوكرانية بشكل متكرر الجبهة الشمالية للجيش الأول بانزر {الفيلق الثلاثون و الفيلق ٥٧ بانزر} و لكن على الرغم من تفوقها العددي لم تحقق أي نجاح يستحق الذكر.

و بشكل متزامن وضعت الجبهة الثانية الأوكرانية – المعروفة حتى اللحظة بجبهة "السهوب" – ما لا يقل عن ست فرق مشاة و جيش دبابات واحد بغرض إكتساح الجناح الأيسر للجيش الأول بانزر و جبهة الجيش الثامن المواجهة للشرق، و قد إنتوى العدو بوضوح – بواسطة توظيف حشود مدرعة ضخمة – الإختراق نحو الجنوب الغربي في المنطقة الواقعة شمال غرب "كريفوي روج" على الحدود بين الجيشين الألمانيين، و

بمجرد إنجاز ذلك سيكون قادراً على تطويق الجيش الأول بانزر في شرق ثنية نهر "دنيبر" عبر التقدم صوب الرافد السفلي للنهر، و منطقة أخرى بدا الهجوم مركزاً عليها كانت الجزءالشمالي من الجبهة الشرقية للجيش الثامن جنوب نهر "دنيبر"، و هدف العدو هنا يتمثل في إتمام تطويق الجيش الثامن تزامناً مع هجوم مباغت من رأس الكوبري الذي ظفر به في "تشيركاسي".

و في نفس الوقت هاجم ثلاثة جيوش من الجبهة الرابعة الأوكرانية رأس كوبري "نيكوبول" – و المتضمن تلقائياً مؤخرة الجيش الأول بانزر – من الجنوب.

و بينما تم التصدي لتلك الهجمات جلب التفوق الكاسح لهجوم الجبهة الثانية الأوكرانية على الجناح الأيسر للجيش الأول بانزر حتمياً النجاح المؤكد للعدو ضد الجيش الثامن، ففي مناسبتين نجح العدو في الإختراق لعمق كبير في النقطتين الرئيسيتين لجهده سالفتي الذكر، و نتيجة لذلك إضطرت جبهتنا للتراجع تدريجياً بين "كريفوي روج" – و التي ظلت متمَسكاً بها – و نهر "دنيبر".

في كلتا الحالتين كانت مجموعة الجيوش قادرة على – على الرغم من الإضعاف المؤقت للقطاعات الأقل تعرضاً للتهديد – نشر فيلق بانزر مكون من عدة فرق في البقعة محل الكلام و الحيلولة – بشن هجوم مضاد على العدو المخترق – دون أن يكون للإختراق أي تأثير على العمليات في مجملها، و لكن كان مما لا يمكن تفاديه في هذا القتال الكثيف أن تظهر على التشكيلات الألمانية علامات الإرهاق المتولد عن المعركة بوتيرة متزايدة، و لم تنل فرق المشاة أي قسط من الراحة و كان يتم نقل القوات المدرعة بسرعة بين قطاعات الجبهة كرجال الإطفاء بالضبط، و بينما كانت خسائر العدو من حيث العدة و العدد بلا شك تفوقنا بمراحل إلا أنه ما يزال قادراً على تعويضها، و من الجهة الأخرى لم تؤت أي محاولة نفذتها مجموعة الجيوش لإقناع القيادة العليا بأنه من الخطأ عملياتياً إستخدام قواتنا في ثنية نهر "دنيبر"، و لم تتمكن *القيادة العليا للجيوش الألمانية* من إيجاد التعزيزات اللازمة من الأفراد و المواد لتعويض الخسارة الحادثة في القوة البشرية، كما رفض "هتلر" التخلي المؤقت عن هذا المعقل بغرض إستخلاص قوات تُستخدم على الجناح الشمالي الأكثر أهمية من الناحية العملياتية، و كل تحذيراتنا بخصوص أن النجاح الراهن في الدفاع عن ثنية نهر "دنيبر" لن يزيل خطر تعرض الجيش الأول بانزر للتطويق في نهاية المطاف طالما إستمر العدو في جلب التعزيزات لاقت آذاناً صمّاء، و ذات المصير لاقته محاولاتنا في سبيل

إبراز الحاجة العاجلة لتشكيل إحتياطات في الجنوب بواسطة تقصير الجبهة، و على النقيض لم يكن أمامنا خيار في نهاية المطاف – كما أشرت من قبل – سوى إلقاء فرقتين في ثنية نهر "دنيبر" من الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش الذي كانتا لتكونا أكثر إفادةً عليه.

و قد إحتاج المر حدوث أزمة مفقدة للأمل على الجناح الشمالي حتى يفيق "هتلر" و يتعامل مع تلك الضرورات العملياتية.

و كان السبب الذي تذرع به بإستمرار للتمسك بثنية نهر "دنيبر" هو الأهمية التي تمثلها "نيكوبول" و القرم لمجهودنا الحربي، و حتى الآن لم يكن قد تخلى عن الأمل في أنه بمجرد التصدي لهجمات العدو على ثنية نهر "دنيبر" سيكون من الممكن توجيه ضربة أخرى في إتجاه الجنوب لتحرير شبه جزيرة القرم، و ما أُثّر فيه أيضاً في هذا المقام كان بلاشك الإعتقاد بأن العدو سيظل ينزف حتى الموت طالما أصر هو – أي "هتلر" – على اتشبث بكل شبر من الأرض كما فعل بالضبط خارج "موسكو" في ١٩٤١، و الأكثر من ذلك أنه كل مرة يُدافع فيها عن فكرة تقصير الجبهة يعود "هتلر" بشكل متكرر فيها لتلك الحجة المُفحمة بأن هذا سيحرر قوات العدو كذلك، و ما إختار "هتلر" غض الطرف عنه كان أنه على الرغم من أي مهاجم قد ينزف حتى الموت أمام أي جبهة دفاعية معادلة له في القوة إلا أن أي محاولة للتمسك بجبهة مجهزة لتكون حاجزاً آمناً في أحسن الأحوال ستؤدي ببساطة إلى تبديد قوى القوات المدافعة بمعدل مبالغ فيه، مع إفتراض عدم قيام العدو بإكتساحها من الأساس.

و أقر أنه على الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش أتاحت هجمات الفيلق ٤٨ بانزر التابع للجيش الرابع بانزر مساحة لإلتقاط الأنفاس و لكنه لا يوجد أدنى شك حول أن العدو سيستأنف هجومه هناك بمجرد تعويضه لخسائره، و يجب أن تكون مهمة الجيش الرابع بانزر تأخير تلك اللحظة لأطول فترة ممكنة عبر الإستمرار في إضعاف عدوها، و علاوة على ذلك و نظراً لإنتشار القوات الرئيسية لهذا الجيش الآن على طول جبهة مواجهة للشمال بين نهر "دنيبر" و شمال "زيتومير" كان هناك خطراً يتمثل في محاولة العدو تطويق جناحه الغربي – و هي المناورة التي لم يكن الفيلق التاسع و الخمسون المعزول حول "كوروستن" ليقدر على منعها.

و لمّا كانت قوات الجيش الرابع بانزر في أي حال غير كافية لطرد العدو تماماً من الضفة الغربية لنهر "دنيبر" بهجوم تجاه "كييف" شعرت مجموعة الجيوش أنه يتعين عليها على القل محاولة خلق هامش من الأمن للجناح الغربي لهذا الجيش، و كلما طالت مدة إحتفاظها بالمبادرة التي إستعادتها هناك بواسطة الفيلق ٤٨ بانزر كلما تم تنفيذ ذلك بصورة أفضل.

و بموجب ذلك تم توجيه الجيش الرابع بانزر لإستغلال الموقف على الجناح الغربي المكشوف الآن في منطقة "زيتومير- كوروستن" بهدف شن هجمات أخرى ضد أهداف محدودة، و بتعليمات من مجموعة الجيوش تم إخراج الفيلق ٤٨ بانزر من الجبهة المواجهة للشمال و تحرك بحلول المساء – مستخدماً كافة تكتيكات التمويه و الخداع – إلى الجناح الغربي المكشوف من الجيش السادس عشر المعادي شمال "زيتومير"، و في الهجوم المفاجئ الذي أعقب ذلك تم طرد هذا الأخير من الغرب، و بعد ذلك على الفور وجه هذا الفيلق ضربة أخرى لقوات معادية تتجمع جنوب شرق "كوروستن" و هو ما تم إصابة ثلاثة فيالق ميكانيكية خلاله بضرر بالغ.

و أخيراً بات من الممكن ليس فقط تدمير أجزاء من المجموعة الهجومية الجديدة قبل أن تنهي تكونها غرب نهر "دنيبر" و لكن إعادة تشييد درجة واضحة من السيطرة على المنطقة المقابلة للجناح الأيسر للجيش الرابع بانزر.

و لكن هذا لم يغير الحقيقة المتجلية أن هناك عاصفة هوجاء أخرى ستعصف بذات الجناح من مجموعة الجيوش، و قد هبت في ٢٤ ديسمبر.

فقد تسلمت أولى التقارير عن بدء هجوم معادي على كلا جانبي طريق "كييف- زيتومير" أثناء زيارتي للفرقة ٢٠ غرناد بانزر و التي كانت ضمن الإحتياط خلف الجبهة المهددة، و كنت هناك لأحضر إحتفالات ليلة عيد الميلاد مع أفواجها، و في بداية الأمر لم تُظهر الأخبار أية خطورة حيث كانت المنطقة الوحيدة التي بدت الأمور فيها متزعزعة هي تلك المتموضع فيها الفرقة ٢٥ بانزر جنوب الطريق، و مع ذلك أوضحت التقارير المسائية التي تسلمتها لدى وصولي لمقر القيادة في "فينيستا" أن العدو كان يحاول تنفيذ إختراق واسع النطاق تجاه "زيتومير".

و قد أظهرت التقارير الإستخباراتية في الأيام القليلة التالية الصورة التالية:

قامت الجبهة الأولى الأوكرانية في قطاع "كييف" بحشد قوات قوية للغاية غرب المدينة للقيام بعملية إختراق واسعة على طول طريق "زيتومير" و جنوبه، و تضمنت المجموعة الهجومية الرئيسية تلك الجيوش الثلاثة التالية: الثامن و الثلاثين و الأول حرس و معهما الأول دبابات بما مجموعه قوابة الثمان عشر فرقة مشاة و ستة فيالق دبابات أو ميكانيكية، و خلال الأيام القليلة التالية تم الكشف عن الجيش الثامن عشر أيضاً.

و قد تم تمديد هذا الهجوم الرئيسي جنوباً بالجيش الأربعين جنوب "فاستوف".

و على الجناح الشمالي لجبهة الهجوم كان الجيش السادس عشر المهزوم مؤخراً – و الذي أعيد شحذ قواه – و في الشمال الجيش الثالث عشر يتقدمان نحو "كوروستن" بما لا يقل عن أربعة عشر فرقة مشاة و فيلق خيالة واحد، و في حين تم إضعاف بعض تلك القوات بشدة في الهجوم السالف الذكر على يد الفيلق ٤٨ بانزر إلا أن الجيش الثالث حرس – قوامه ستة فيالق دبابات أو ميكانيكية – ظهر منشغلاً بالتموضع خلف الجيشين السابقين، و أقر أن ثلاثة أو أربعة من تلك الفيالق كانت قد تعرضت لهزيمة ثقيلة في القتال الأخير، و لكن سرعان ما ينبت العدار[١] رؤوساً جديدة!! و على أي حال كان هذا الحشد للتشكيلات المتحركة يعني أن العدو ينتوي تعزيز الإختراق صوب "زيتومير" بحركة تطويقية واسعة النطاق بجانب "كوروستن".

صحيح أن الفيلق ٤٨ بانزر – مكون من فرقتين مدرعتين قويتين و الفرقة ١٦٨ مشاة و الفرقة ١٨ مدفعية المشكلة حديثاً في منطقة مجموعة الجيوش – كان على أهبة الإستعداد حول "زيتومير" خلف أكثر قطاع تعرضاً للتهديد من الجبهة – يقوده الآن الفيلق الثاني و الأربعون، و مع ذلك فإنه من المشكوك فيه مدى كفاية تلك القوات لوقف أي هجوم يشنه عدو يفوقها قوةً بمراحل، و حتى إن كان يتوجب عليها ذلك فلن تكون هناك قوات كافية للتعامل مع التهديد المتمثل في تقدم العدو خلال "كوروستن" المتبوع بتطويق الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش.

و لذا أرسلت مجموعة الجيوش في ٢٥ ديسمبر *للقيادة العليا للجيوش الألمانية* رسالة تلغرافية توضح فيها أن وضعنا مقارنة بوضع العدو و توضح كذلك ما يمكن إستشفافه

[١] العدار : أو الهيدرا هو حيوان من الجوفمويات يعيش في المياه العذبة و هو إسطواني الشكل و له عدة لوامس طويلة و في الأساطير الإغريقية جاء أن حيوان الهيدرا كانت تعيش في المستنقعات بالقرب من مدينة تسمى ليرنا بالقرب من أرجوليس وكان لديها جسم ثعبان والعديد من الرؤوس و إذا قطعت لها رأس فإنها ينموا لها رأس آخر ولا يؤثر فيها سلاح مهما كان لأنها قادرة على معالجة نفسها.

من إستدلالات، و قد قلنا أن الجيش الرابع بانزر لن يمكنه بالقوات التي يمتلكها في الوقت الراهن وقف هجوم العدو - و هو ما يعني عدم إتمامه لمهمته المتمثلة في حماية الجناح العميق لمجموعتي الجيوش الجنوبية و "أ"، و نتيجة لذلك يجب تعزيز هذا الجيش جذرياً، و إن لم تكن *القيادة العليا للجيوش الألمانية* قوات لهذا الغرض فستضطر مجموعة الجيوش لفصل على الأقل خمس أو ست فرق من جناحها الأيمن، و في هذه الحالة عدم إمكان بقاء هذا الجناح في موقعه الحالي في ثنية نهر "دنيبر" و وجوب أن نطلب منحه حرية التصرف.

و في نفس الوقت تم توجيه الجيش الرابع بانزر كي يستخدم كل قواته المتاحة لوقف إختراق المجموعة الهجومية السوفييتية الرئيسية صوب "زيتومير" في قطاع الفيلق الثاني و الأربعين، و تم إخبار الجيش أنه يتوجب عليه على جناحه الشمالي {الفيلقين الثالث عشر و التاسع و الخمسين} الإشتباك مع العدو بطريقة تمنعه من الإنعطاف نحو "زيتومير"، و قد تم تحرير الفرقة ١٧ بانزر بالفعل من الجيش السادس – و الذي عاد مؤقتاً ليصير تحت قيادة مجموعة الجيوش – على نهر "دنيبر السفلي" و من ثم نقلها للجيش الرابع بانزر.

و في رد على إستفسار مقدم من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* و التي توجهت – بناء على طلب من "هتلر" بالتأكيد – للحصول على حل توفيقي في ثنية نهر "دنيبر" و قد أوردت مجموعة الجيوش تقريراً نصه **" إن الوقت المناسب لمحاولة السيطرة على الموقف على الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش عبر تلك الإجراءات المنفردة مثل نقل فرقة واحدة قد بات الآن من الماضي".**

و قد قلنا أنه للحكم على الموقف بالنظر لحجم القوة التي أشركها العدو في العمليات هناك نخلص إلى أن لا يمكن لأي وقف مؤقت لهجومه إحداث أي فرق الآن و خاصةً لأنه سيقوم بإلقاء عناصر أكثر من إحتياطات الشتاء في أتون المعركة، و في الحقيقة كان الموقف في مجمله يتمثل في أن التطورات الواقعة في منطقة "كوروستن- زيتومير- بيرديشيف- فينيستا- جنوب كييف" في الأسابيع القليلة الماضية هي التي ستقرر ما إن كان الجناح الجنوبي للجيوش الألمانية في الشرق سيتم تطويقه و إجباره على التقهقر نحو جنوب الغرب من عدمه.

و قد كان من المجدي إتخاذ إجراءات حيوية للتصدي لهذا الخطر، و قد كان الموقف مماثلاً لذلك الذي وجدت مجموعة الجيوش نفسها فيه خلال شتاء ٤٣/١٩٤٢ عندما كانت الوسيلة الوحيدة الممكنة لإصلاح الجبهة تتمثل في تنفيذ الجيشين الأول بانزر و الرابع بانزر لـ"قفزة ضفدع" من الجناح الأيمن للأيسر، و يتوجب الآن تحرير الجيش الأول بانزر من ثنية نهر "دنيبر" و توجيهه صوب "بيرديشيف" بخمس أو ست فرق على الأقل، و سيتحقق هذا فقط بالتخلي عن الجزء الشرقي من ثنية نهر "دنيبر"و سحب الجبهة من هناك إلى مواقع مجهزة على خط يمتد من إنحنائة نهر "دنيبر" غرب "نيكوبول" إلى "كريفوي روج".

و بتقصير الجبهة بهذه الطريقة سيتم توفير ١٢ فرقة يتم إرسال ست منها للجيش الأول بانزر على الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش، أما البقية فتترك للجيش السادس – و الذي سيتولى ما كان حتى اللحظة قطاع الجيش الأول بانزر – لغرض تشييد دفاعات على نهر "دنيبر السفلي".

و سيتم توجيه الفرق المزمع نشرها على الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش من الشرق نحو رأس حربة العدو المخترق إلى "زيتومير".

و إضافة لما تقدم ستقوم *القيادة العليا للجيوش الألمانية* بإرسال قوات أكثر للجناح الشمالي لمجموعة الجيوش لإعتراض الحركة التطويقية التي يقوم بها العدو المهدد بها هناك، و فيما بعد – إن أمكن – ستنتقل تلك القوات من الغرب لدعم هجوم الجيش الأول بانزر على المجموعة الهجومية الرئيسية.

كما أوضحنا أيضاً أنه في حين يسمح الموقف الحالي في ثنية نهر "دنيبر" – و التي توقفت عندها هجمات العدو بشكل مؤقت – بإعادة التجمع تلك بدون أي مخاطر كبيرة إلا أن الإنسحاب المقترح للجبهة سيكون صعباً إن إنتظرنا ريثما يتأهب العدو لمعاودة الهجوم هناك.

و بالنظر لما تقدم إلى جانب وضع الجيش الأول بانزر خلصنا إلى أنه من الضروري قيام القيادة العليا بإتخاذ قرار سريع.

و عندما كان لم يتم إتخاذ أي قرار بشأن هذا الإقتراح – برغم ما قدمناه من توضيحات - بحلول ٢٨ ديسمبر بإستثناء مجرد الوعد بفرقة أو إثنتين للجيش الرابع بانزر أصدرت

مجموعة الجيوش الأوامر المناسبة في ٢٩ ديسمبر، و تضمنت أن تسلم قيادة الجيش الأول بانزر قطاعها الحالي للجيش السادس في الأول من يناير و أن تتولى في الثالث من يناير على أقصى تقدير مسئولية جبهة الجيش الرابع بانزر الممتدة من نهر "دنيبر" إلى نقطة على بعد ٢٧ ميلاً جنوب غرب "بيرديشيف" – تحديداً الفيلق ٢٤ بانزر و الفيلق السابع، و أن يتموضع الفيلق الثالث بانزر خلف الجناح الأيسر لتلك الجبهة بأربع فرق منسحبة من ثنية نهر "دنيبر" أو الجيش السادس – و هي السادسة بانزر و ١٧ بانزر و ١٦ غرناد بانزر و ١٠١ مركبات خفيفة "جاجر" على أن تتبعها فرق أخرى فيما بعد، و من أسباب عدم تنفيذ هذا الإنتقال للجيش الأول بانزر على نطاق أوسع محدودية وسائل النقل المتاحة، و مع ذلك هناك سبب آخر هو عدم إمكان قيام مجموعة الجيوش بإصدار الأمر بإخلاء الجزء الشرقي من ثنية نهر "دنيبر" بدون موافقة "هتلر" – نظراً لترتيب ذلك الإخلاء تداعيات مباشرة على موقف مجموعة الجيوش "أ"، و حتى على مستوى مجموعة الجيوش – لسوء الحظ – كانت إمكانية إتخاذ القرارات إستقلالاً عن القيادة العليا تنتهي حيث تبدأ سلطة تنسيق العمليات بين مجموعات الجيوش.

و أما بالنسبة للإمتداد من الجبهة المتبقي للجيش الرابع بانزر فتقرر نشر القوات التي خصصتها له *القيادة العليا للجيوش الألمانية* – و هي قيادةالفيلق السادس و الأربعين و الفرقة ١٦ بانزر و الفرقة الأولى مشاة والفرقة الرابعة مشاة جبلي.

و مع ذلك ظلّ من المكشوك فيه ما إن كانت تلك القوات كافية للهجومين المضادين المخطط لهما على أجنحة المجموعة الهجومية الرئيسية للعدو المتقدمة صوب الجنوب الغربي، و على أي حال فإن هدفها الأول هو وقف تقدم العدو.

في ٣٠ ديسمبر أبلغت مجموعة الجيوش *القيادة العليا للجيوش الألمانية* بالخطوات المتخذة، و قد وصلتنا موافقة "هتلر" في اليوم التالي، و من جهة أخرى إستمر "هتلر" في تأجيل إتخاذ القرار العاجل الضروري بشأن التخلي عن الجزء الشرقي من ثنية نهر "دنيبر" و معه رأس كوبري "نيكوبول".

و بينما تم البدء في تنفيذ نقل القوات الذي أمرت به مجموعة صار الموقف في قطاع الجيش الرابع بانزر أكثر إنذاراً بالتشاؤم بحلول ٣١ ديسمبر.

وقد نفذت المجموعة الهجومية الرئيسية للعدو إختراقاً واسعاً في إتجاه الجنوب الغربي صوب "فيتيستا"، و على الرغم من كون جبهة الجيش جنوب "كييف" {الفيلقان ٢٤ بانزر و السابع} ما تزال متماسكة إلا أنها إضطرت لسحب جناحها الغربي بشكل ملحوظ، و خلفها – في المنطقة المفترض إنتشار الفيلق الثالث بانزر فيها – كانت هناك ثغرة عرضها ٥٠ ميلاً تقريباً، و ليس حتى نقطة تبعد ٣٠ ميلاً جنوب غرب "بيرديشيف" تبدأ في الإمتداد جبهة أخرى نحيلة تابعة للجيش الرابع بانزر – و حتى تلك الممتدة شرق الطريق من "بريديشيف" إلى "زيتومير" تهلهلت مجدداً شمال تلك الأخيرة، و كان الفيلق الثالث عشر يقاتل حول "زيتومير" بجبهة تواجه الشمال و الغربي، و بينه و بين الفيلق التاسع و الخمسين – و الذي تراجع إلى غرب "كوروستن" – حدثت ثغرة أخرى بعرض ٥٠ ميلاً كان من المفترض أن يتم في مؤخرتها حشد الفيلق ٢٦ بانزر.

و لحسن الحظ إشتبكت القوات المعادية مؤقتاً مع المجموعات المنفردة من الجيش الرابع بانزر سالفة الذكر، و أما بالنسبة للثغرات الواسعة بينها فلم يحسن العدو إستغلال الفرص – أو أخفق كليةً في تقديرها – التي أتاحتها تلك الثغرات لتشكيلاته المتحركة كي تتقدم مباشرة صوب المناطق الخلفية لمجموعة الجيوش أو تطويق الجيش الرابع بانزر.

في بداية يناير كان موقف مجموعة الجيوش في مجمله يتطور للأسوأ.

ففي ثنية نهر "دنيبر" – و هو ما ينطبق أيضاً على رأس كوبري "نيكوبول" – كان يجري التحضير لهجوم جديد على الجيشين السادس و الثامن، و إن بُدء فيه قبل إتمام إخلاء الجزء الشرقي من ثنية النهر كما طلبت مجموعة الجيوش فسيصير موقف هذا الجناح بالغ الخطورة، و أسوأ ما في الأمر أنه لن يعد ممكناً سحب الفرق المدرعة الواجب عليها إتباع قيادة الفيلق الأول بانزر للجناح الشمالي بإعتبارها موجة ثانية و الفرق التي أمرت مجموعة الجيوش بتحريرها، و قد شن العدو هجوماً كبيراً في الثالث من يناير شرق "كيروفوجراد" و علقت هناك الفرقتان لفترة من الزمن.

و خلال ذلك الوقت كله صار عاجلاً على نحو متزايد أن يتم تزويد الجناح الشمالي بقوات أكبر عدداً – في تلك الأثناء كان العدو قد أدرك الفرصة الكبيرة المتاحة أمامه المتجسدة في الثغرات المفتوحة في جبهة الجيش الرابع بانزر.

و فيما كانت في تلك اللحظة منطقة الجيش الأول بانزر – و الذي تولت قيادته مسئولية القطاع الواقع جنوب و جنوب غرب "كييف" فعلياً منذ الثالث من يناير – تقدم العدو جنوباً إلى نقطة على بعد ٣٠ ميلاً شمال "أومان"[١]، و هناك تم إيقاف تقدمه مؤقتاً بوصول العناصر الأمامية للفيلق الثالث بانزر.

و قد حدث موقف ذو خطورة خاصة في الجيش الرابع بانزر، فلمواجهته خطر تطويق كلا جناحيه إضطر للتراجع بحلول الرابع من يناير إلى جبهة تبدأ على بعد أقل من ٤٠ ميلاً شرق "فينيستا" و تمتد شمالاً نحو "بيرديشيف" – و الذي كانت المعركة عليها دائرة بالفعل – منتهية أخيراً على بعد قرابة الأربعين ميلاً غرب المدينة على الحدود السوفييتية البولندية السابقة.

و كان الفيلق التاسع و الخمسون في الثغرة الواسعة بيننا و بين مجموعة الجيوش الوسطى قد تراجع لجبهته السابقة على طول الطريق السريع بين "زيتومير" و "روفنو" و شماله.

و تلك التطورات الواقعة خلال الأيام الأولى من الشهر دفعتني للطيران لمقر قيادة "هتلر" في الرابع من يناير لمحاولة إقناعه لمرة واحدة بالحاجة لتغيير جذري في مواقع القوات من الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش إلى جناحها الأيسر.

و قد بدأت بوصف الخطر الجديد الذي يتهددنا في ثنية نهر "دنيبر" و الحالة شديدة الحرج السائدة في منطقة الجيش الرابع بانزر.

ثم شرحت تفصيلاً خطتنا لمهاجمة العدو المتحرش بهذا الجيش من الأجنحة بواسطة هجوم يشنه الفيلق الثالث بانزر التابع للجيش الأول بانزر من الشرق و الفيلق ٢٦ بانزر – الواصل الآن خلف الجناح الشمالي للجيش الرابع بانزر – من جهة الشمال الشرقي.

("هتلر" أظهر حسن التقدير في تلك المناسبة لأنه شكّ في قدرتنا على توجيه ضربة على جناحي الجيش الرابع بانزر كليهما، و قد أثبتت الأحداث اللاحقة أنه على صواب ...الكاتب)

و في نفس الوقت حذرت "هتلر" أن أقصى ما يمكن لتلك الهجمات المضادة المخطط لها تحقيقه هو التخفيف الحقيقي المؤقت من خطورة التهديد الحالي، و من وجهة النظر

---

[١] أومان : مدينة وسط أوكرانيا.

بعيدة الأمد لا تحمل تلك الهجمات في طياتها أي حل للموقف على الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش، و إن لم يتم ضبط الوضع هنا نهائياً و على نحو حاسم فسيكون كامل الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية في خطر داهم و ستلقى مجموعة الجيوش الجنوبية و مجموعة الجيوش "أ" نهايتهما في رومانيا أو على البحر الأسود.

و بالتالي إن لم تقم القيادة العليا بتوفير التعزيزات الضرورية فلن يكون ممكناً تأجيل إنسحاب الجناح الجنوبي لمجموعة الجيوش – وهو ما يعني التخلي عن "نيكوبول" و بطبيعة الحال شبه جزيرة القرم – و ذلك بغرض توفير قوات للجناح الشمالي حاسم الأهمية.

و يتعين على أن أوضح في هذه المرحلة أن مجموعة الجيوش كانت قد إعتبرت أي إنسحاب من شرق ثنية نهر "دنيبر" هو الخطوة الأولى فقط نحو نقل الجهد الرئيسي إلى الجناح الشمالي بمعدل ثابت وفقاً للموقف الراهن إجمالاً.

و كان من الضروري بغية إعادة التجميع لهذا الحد أن يتم تقصير الجبهة في الجنوب بشكل أكثر جذريةً.

و لهذا السبب إتخذت مجموعة الجيوش بالفعل الإجراء الإحتياطي المتمثل في إصلاح الخط الدفاعي الموجود في الغرب و تطويره – و هي الحقيقة التي كان "هتلر" على علمٍ تامٍ بها، و كان هذا الخط يمتد في إتجاه شمالي أو شمال غربي من الروافد السفلى لنهرٍ "بج" إلى الأطراف الجنوبية للمنطقة المسعرة فيها معارك الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش – مستفيداً من ميزة الإمتدادات التي في صالحنا من النهر، و سيقلص هذا الخط بمقدار النصف طول الجبهة المسيطر عليها الجيشان السادس والثامن و التي تمتد بطول ٥٦٠ ميل بسبب مواصلة التمسك بثنية نهر "دنيبر"، و بتقليص جبهتنا بهذه الطريقة و توفير قوات ضرورية حقاً – إضافة إلى نقل الجيش السابع عشر من القرم إلى الأرض الرئيسية – سنكون قادرين في نهاية الأمر على نقل جهدنا الرئيسي للجناح الشمالي، و في نفس الوقت ستظل هناك قوات كافية تُترك على الجناح الجنوبي للتمسك بالخط سالف الذكر في مواجهة أي عدو متفوق، و من الجهة الأخرى و بالنظر للضرر الذي أحدثناه بشبكة السكك الحديدية خاصته لن يكون العدو قادراً على نقل قوات من جناحه الجنوبي للمنطقة الواقعة غرب "كييف" بنفس سرعة قيامنا بهذا.

و يجب بداءة خلق أساس تتم عليه عملية الإنسحاب الواسعة تلك للجناح الجنوبي الألماني يتمثل في إخلاء ثنية نهر "دنيبر"، و طلب هذا الأمر مباشرة أمر شاق بالنظر لموقف "هتلر" بشأنه، فهو لم يكن بالرجل الذي يعي الحاجة لسياسة عملياتية بعيدة النظر.

و على النقيض ظل "هتلر" حتى الآن رافضاً بشكل قاطع إخلاء ثنية نهر "دنيبر" أو التخلي عن "نيكوبول" لكونه إعتبر أن الخسارة الناجمة عن ذلك لشبه جزيرة القرم مثيرة لأي تغيير في قلب تركيا و كذلك بلغاريا و رومانيا.

و قد ذهب "هتلر" إلى حد أنه أعلن أنه ليس في موقف يمكنه من السماح لمجموعة الجيوش بإمتلاك قوات أكثر من أجل جناحها الشمالي حيث أنه سيكون قادراً على أقصى تقدير على سحبها من مجموعة الجيوش الشمالية و هذا فقط عبر سحبها إلى بحيرة "بيبوس"، و هذا قد يؤدي إلى إنقلاب موقف فنلندا و هو ما يؤدي بدوره إلى فقدنا السيطرة على الموقف في بحر البلطيق، و عقب ما تقدم لن يظل من الممكن الحصول على الحديد الخام من السويد كما ستُحرم غواصات "يو بوت" خاصتنا من ساحة تدريب مهمة.

كما قال "هتلر" أنه بالنسبة لمنحنا قوات مسحوبة من الغرب فهو غير قادر على القيام بذلك حتى يتم التصدي أولاً لأي إنزال معادي أو سار البريطانيون على النهج الذي توقعه و ربطوا أنفسهم في البرتغال، و ما كان يتعين عليه فعله هو العمل على كسب الوقت ريثما تتضح الأمور في الغرب و تصير تشكيلاتنا الجديدة مستعدة للقتال، و أكثر من ذلك أنه منذ شهر مايو فصاعداً ستبدأ حرب الغواصات إتيان ثمارها.

و أضاف "هتلر" أنه توجد هناك خلافات كثيرة لدى الجانب المعادي ستقود إلى إنهيار التحالف يوماً ما، لذا تبدو مسألة كسب الوقت ذات أهمية خاصة، و في حين شعر "هتلر" بخطورة التهديد المحدق بمجموعة الجيوش كما شعرت أنا إلا أنه إضطر لتقبل الخطر هنا ريثما يزيد عدد القوات التي في حوزته، و قد كان من العبث محاولة تفنيد حجج "هتلر" نظراً لأنه سيرد – كالمعتاد منه في مثل تلك الحالات – بإفتقادي للرؤية من منظور شامل، و كل ما أمكنني فعله كان مواصلة الإشارة إلى خطورة الموقف على جناحنا الشمالي مع التشديد على أن الإجراءات المضادة المتخذة من قبَل مجموعة الجيوش لن توفر حلاً نهائياً للأزمة، و قد كان من العملي قطعياً أن يتم نشر جيش جديد

بسلاسة خلف الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش بطريقة أو بأخرى – و تحديداً في منطقة "روفنو" – للتعامل مع تهديد العدو بتنفيذ حركة تطويق واسعة النطاق.

و نظراً لعدم وجود أي إمكانية لإطالة أمد هذه المناقشة مع "هتلر" أمام العدد الكبير من البشر الذي حضر المؤتمر اليومي طلبت أن ألتقي به على إنفراد – في حضور رئيس الأركان فقط، و لتعجبه الشديد مما عرضته ذلك الوقت وافق "هتلر" على مطلبي على مضض، و غادر المكان مندوبو *القيادة العليا للفيرماخت* و "جورينج" و بقية المساعدين إضافة إلى المؤرخ الخاص بـ"هتلر" و كاتبين إثنين.

(الوضع الطبيعي أن يدون الكاتبان كل كلمة تُقال في تلك الإجتماعات اليومية، و نظراً لعدم وجود خرائط أمامهما لم يفهما كل ما تم قوله)

و كنت قد توجهت لمقر القيادة العامة بنية راسخة لإثارة مسألة القيادة العسكرية العليا مجدداً إلى جانب مناقشة وضع مجموعة الجيوش.

و ما إن غادر الجميع بإستثناء الجنرال "زيتزلر" الغرفة طلبت الإذن لي بالحديث بحرية.

رد "هتلر" : **"تفضل رجاء"** في نبرة – إن لم تكن باردة – غير ودية على الإطلاق.

فقلت :**"هناك شيء علينا أن نكون واضحين بشأنه سيدي الفوهرر و هو أنه لم يعد بإمكاننا أن نعزي الموقف الحرج الذي نعانيه الآن إلى تفوق العدو فقط بالرغم من عِظم هذا التفوق، بل إنه راجع أيضاً للطريقة التي تتم بها قيادتنا"**

و لما تفوهت بتلك الكلمات إحتدت ملامح وجه "هتلر"، و حدّق في بنظرة أشعرتني برغبة في عدم مواصلة ما أفعله، لا أستطيع تذكر أي حملقة إنسان قادرة على إبراز مثل قوة الإرادة تلك، و في وجهه القاسي هذا كانت العينان أكثر سمة معبرة و جذابة و هما الآن تنصبان عليّ و كأنهما ستجبرانني على الركوع، و في نفس اللحظة ومضت في عقلي فكرة مروض الأفاعي[١] و أدركت أن تلك العينين قد أرهبتا كثيرين قبلي، و مع ذلك واصلت الحديث و أخبرت "هتلر" ببساطة أنه لا يمكن أن تستمر الأمور في ظل هذا الأسلوب من القيادة، و قلت أنه يتوجب علي الإشارة إلى المقترح الذي قدمته له

[١] مروض الأفاعي: هو من يمتلك مهارة إستدراج الأفعى بإستخدام أداة موسيقية معينة للرقص و تحريكها كما يشاء و ينتشر في الهند و البلدان الآسيوية.

بالفعل مرتين من قبل، و هي الحاجة في سبيل إدارة إستراتيجية كبيرة لرئيس أركان مسئول تماماً يعتمد تماماً على نصيحته بشأن كل الأمور المتعلقة بالسياسة العسكرية، و يجب أن يكون الأثر المنطقي لهذا الترتيب على الجبهة الشرقية – كما كان بالضبط في حالة إيطاليا و الغرب – تعيين قائد عام يتمتع بإستقلال تام خلال الإطار العام لإستراتيجية كبيرة.

و كما حدث في المناسبتين السابقتين عندما أوضحت لـ"هتلر" الحاجة إلى تغيير جذري في إدارته للشيءون العسكرية – و خاصة أسلوبه في القيادة – كانت ردة فعله سلبية تماماً، و أكد على أنه هو فقط القادر على تحديد القوات المتاحة للمسارح الحربية المتنوعة و السياسات الواجب إتباعها هناك، و قال أنه في كل الأحوال لن يقبل "جورينج" الخضوع لأوامر أي شخص آخر.

و بالنسبة للمقترح بشأن تعيين قائد عام للمسرح الشرقي من الحرب ذكرت بالفعل رد "هتلر" بأنه لن يوجد أي شخص يمارس ذات سلطته العسكرية، و قد قال بتأثر: **"أنا لا أستطيع حتى إجبار الفيلد مارشالات على طاعتى! هل تتخيلان مثلاً أنهم سيُظهرن لكما إستعداداً أكبر للطاعةً؟ و في أسوأ الأحوال أستطيع إقالتهم، و لن يكون هناك من يمتلك هذه السلطة غيري".**

و عندما رددت بأن أوامري دوماً كانت تنفذ لم يقم بالتعليق و قرر إنهاء الإجتماع.

ها أنا أخفق مرة أخرى في محاولة إقناع "هتلر" بتغيير نظام القيادة في القمة بطريقة تتماشى مع ضرورات الحرب بدون التأثير على مظهره، و ربما تكون عدم رغبته في تسليم الأمور لجندي راجعة إلى إيمانه المبالغ فيه في قواه الخاصة، فهو لم يعترف بأخطائه حتى عند الحديث معه على إنفراد أو بالحاجة لمستشار عسكري، و سبب محتمل آخر يتمثل في الشعور بعدم الثقة الذي جعل الدكتاتور مصمماً على إبقاء الجيش تحت رقابته ضد أي مؤامرة.

و من ناحية أخرى كنت على وعي تام بأن أي محاولة لتسوية تلك المسألة بالقوة ستقود إلى إنهيار جيوشنا في الميدان، و بالنسبة لي فقد إستبعدَت إحتمالية دخول الروس ألمانيا

إستخدام الوسائل العنيفة وهو ما ينطبق أيضاً على طلب الأنجلو-ساكسونيين[1] الإستسلام غير المشروط.

و هكذا إضطررت للعودة إلى مقر قيادتي بدون أن أتمكن من تحسين وضع مجموعة الجيوش أو الحصول على تنظيم أفضل للقيادة في القمة، و مع ذلك فإننا لن نقوم بالتفريط في أي حالة في جهودنا الرامية لإكتساب حرية الحركة من أجل جناحنا الأيمن في ثنية نهر "دنيبر" و لتعزيز جناحنا في الشمال.

و بالنظر للنتيجة السلبية للمؤتمر المنعقد في مقر قيادة "هتلر" لم تجد مجموعة الجيوش أمامها خياراً سوى مواصلة الصراع في ثنية نهر "دنيبر"، فتمت إدارة العمليات على جناحها الشمالي بطريقة تهدف لمنع العدو من تطويق الجيش الرابع بانزر و الإختراق نحو الجنوب – و الذي سيؤدي إلى قطع الإتصالات الخلفية لكامل الجناح الجنوبي.

و قد إستمر العدو خلال شهر يناير في ثنية نهر "دنيبر" في تركيز كامل قواه على المعقل الذي ما زال يتوجب علينا التمسك به هناك، و في قيامه بذلك هاجم العدو الجيش الثامن صابّاً جام غضبه عليه – رغم أن القطاع الذي يتولاه الجيش السادس الآن قام بالتصدي لهجمات متعددة كذلك، و كانت تلك الهجمات موجهة ليس فقط ضد الجبهة المواجهة للشمال داخل ثنية النهر و لكن من جهة الجنوب ضد رأس كوبري "نيكوبول" كذلك.

و قد حقق العدو في هذه المنطقة نجاحاً محدوداً بفضل بطولة القوات الألمانية و بدائل سد الثغرات الكثيرة المبتكرة بواسطة قادة الجيشين – بصرف النظر عن حقيقة أنه صار الآن أقوى بمراحل في العدد و العدة، و على الرغم من أنه تم إجبار جبهة الجيش الثامن على التراجع للوراء قليلاً للغرب و أنه تم التخلي عن "كيروفوجراد" إلا أن العدو ما يزال لم يحقق إختراقه الحاسم المستهدف الإيقاع بقواتنا في ثنية نهر "دنيبر".

من جهة أخرى صار الموقف على الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش أكثر صعوبة.

فقد وجد الجيش الرابع بانزر – و الغير قادر على تحمل الضغط المكثف للعدو – نفسه مجبراًعلى التخلي عن "بيرديشيف" و التراجع – بهدف الحفاظ على أدنى درجة ممكنة

[1] أنجلو-ساكسوني: هم أجداد البريطانيين و الأمريكيين.

من الإستمرارية على الجزء الرئيسي من جبهته – للغرب و جنوب الغرب، و لكن هذا لم يكن أسوأ ما في الأمر.

فما شكّل الخطر الأكبر كان ما حدث في السادس من يناير من إدراك العدو للفرص المتاحة له بواسطة الثغرة بين الجيش الأول بانزر و الجناح الأيمن للجيش الرابع بانزر و كذلك المساحة المفتوحة الواسعة التي ظهرت بين الجيش الرابع بانزر و مجموعة الجيوش الوسطى، و في تلك الأخيرة كان هناك الفيلق التاسع و الخمسون الضعيف المنعزل يقاتل منسحباً صوب "روفنو".

و قد صار واضحاً أن العدو قد أوقف الآن نشاطه لعى طول جبهة الجيش الرابع بانزر لكي يستغل فرصته بالنسبة لأجنحة الجيش المكشوفة.

و في حين سعى العدو لتدمير الجناح الشمالي للجيش الرابع بانزر بثلاثة جيوش {١٨ و الأول حرس و الأول دبابات حرس} قام بإرسال جيشيه الستين و الثالث عشر في مطاردة تجاه "روفنو" شمالاً.

و في نفس الوقت تقدمت قوات سوفييتية قوية {الجيش الأول دبابات و الجيش الأربعين} جنوباً في الثغرة بين جيشينا الأول بانزر و الرابع بانزر، و قد بلغت رؤوس حربة قوات العدو ٢٠ ميلاً شمال "أومان" – قاعدة إمداد الجيش الأول بانزر – و قريباً من "فينيستا" – التي كان فيها سابقاً مقر قيادة مجموعة الجيوش، و كان قد تم نقل مقر القيادة إلى "بروسكروف" قبل أيام قليلة عندما ظهرت أولى أمارات تعرض الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش للخطر متجسدةً في الهجوم السوفييتي المفاجئ، و قد نجحت مدرعات العدو أخيراً في قطع خطوط السكك الحديدية الحيوية لإمداد مجموعة الجيوش في "زميرينكا".

(تلك الخطوط الممتدة في الأراضي الرومانية جنوباً كانت أقل كفاءة)

و في خضم هذا الموقف كان على مجموعة الجيوش أن تختار بين: إما إتخاذ خطوات مضادة للتعامل مع هجوم معادي آخر في جناحها الشمالي المكشوف تقريباً حيث كانت هناك إحتمالية كامنة بتنفيذ العدو لحركة تطويق واسعة النطاق حول جناحها الشمالي فيما بعد، أو أنه من الأكثر أهمية الحيلولة دون قيام العدو بالإختراق في الثغرة بين

الجيش الأول بانزر و الجيش الرابع بانزر، و لم تكن هناك هناك قوات كافية متاحة لتنفيذ كلتا المهمتين في وقت واحد.

و على عكس ذلك لن يشكل إستمرار العدو في التقدم في الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش تهديداً مباشراً لوجودنا لبعض الوقت، و هنا سيتم أخيراً توفير تخفيف من حدة الوضع بواسطة القوات التي سيضطر "هتلر" لإرسالها عاجلاً أو آجلاً.

و إن – من جهة أخرى – تم تطويق جيشي الجناح الجنوبي مرة واحدة فلن تكون هناك أي إمكانية لتخليصهما، و قد كان الحل الصائب الوحيد المتمثل في إنسحاب مكثف للجناح الجنوبي لمجموعة الجيوش من أجل توفير قوات للتغلب على الأزمة الحادثة على الجناح الشمالي ما يزال معتَرَضاَ عليه بواسطة "هتلر".

و في ضوء تلك الإعتبارات قررنا بداءة تجميع كل القوات التي يمكن فصلها لشن هجوم على العدو المتقدم جنوباً في الثغرة بين الجيش الأول بانزر و الجيش الرابع بانزر.

و كانت تلك الثغرة تعتبر الأشد خطورة لحقيقة أن إختراق العدو في إتجاه "أومان" أجبر الجيش الأول بانزر على سحب جناحه الغربي في المنطقة الواقعة جنوب غرب "كييف" للجنوب، و هو الآن يقف ظهره لظهر الجيش الثامن – و الذي تواجه جبهته الشرق في ثنية نهر "دنيبر"، و نظراً لأن الأجنحة الداخلية لكلا الجيشين ما تزال متمسكة بنهر "دنيبر" على جانبي "كانيف" فقد إتخذت المواقع الألماني شكل كيس قمته مربوطة بنهر "دنيبر" في الشمال و جانبيه يشكلان الجبهتي المذكورتين من الجيشين مواجهتين الشرق و الغرب، و إن حقق العدو في الثغرة شمال "أومان" النجاح فسيكون من السهل عليه عزل هذا "الكيس" في الجنوب، و كان أكثر الأمور عقلانية بالطبع هو إخلاؤه نظراً لكون القوات مستخدمة بلا طائل فيه، و لكن هنا أيضاً لم يكن "هتلر" مستعداً لرؤية ضفة نهر "دنيبر" يُتخلى عنها طواعية، فهو ما يزال يأمل في أنه قد يتمكن يوماً ما بواسطة إستخدام هذا النتوء كرأس حربة من إعادة إحتلال الجزء الشرقي من ثنية نهر "دنيبر"، و هكذا ظل "الكيس" موجوداً، و بعد ذلك بفترة ليست بالكبيرة صار جيب "تشيركاسي".

و قد إنتوت مجموعة الجيوش أن الضربة الموجهة إلى العدو المتقدم بين الجيشين الأول بانزر و الرابع بانزر يجب أن تأخذ صورة هجوم كماشة ثلاثية الأطراف.

فمن الشرق – خارج قطاع الجيش الأول بانزر – يتحرك الفيلق السابع صوب جناح العدو، و كان قد تم تحرير هذا الفيلق من النتوء المذكور سلفاً بأمر من مجموعة الجيوش يقضي الإبقاء على حاجز دفاعي نحيل فقط على نهر "دنيبر"، و هذا الإجراء آتى أكله فيما بعد عندما نجا هذا الفيلق من التطويق داخل جيب "تشيركاسي".

أما من الغرب فكان على الفيلق ٤٦ بانزر التقدم صوب الجناح الآخر للعدو، و قد كان هذا الفيلق في تلك اللحظة ما يزال في طريقه قادماً من فرنسا.

و من الجنوب يتقدم الفيلق الثالث بانزر – المحرر بواسطة مجموعة الجيوش من ثنية نهر "دنيبر" – لملاقاة العدو ، و كانت مهمته هي توريط العدو في قتال حركي ريثما يصير الفيلقان الآخران جاهزين للهجوم.

و بحلول النصف الثاني من يناير تم إنهاء كل الإستعدادات الخاصة بالهجوم المضاد، و مع ذلك فنظراً لقلة عدد التشكيلات المتاحة كان لزاماً علينا أن ننجزه على مرحلتين، و في فس الأثناء إتسعت الثغرة بين الجيشين الأول بانزر و الرابع بانزر لقرابة ٤٥ ميلاً.

و بداءة تمكن الفيلقان السابع و الثالث بانزر من هزيمة الجيش الأربعين السوفييتي في الجزء الشرقي من الثغرة، و من ثم – نتيجة لهجوم مركز آخر شنه الفيلقان الثالث و ٤٦ بانزر و لعبت فيه الفرق الأولى مشاة و الرابعة مشاة جبلي و ١٨ مدفعية دوراً رئيسياً – تم تطويق أعداد كبيرة من عناصر الجيش الأول دبابات المعادي و تحطمت في الجزء الغربي من الثغرة، و خلال هذا الهجوم الأخير – لا أمتلك صراحة أرقاماً تتعلق بالهجوم الأول – تم قتل قرابة خمسة آلاف جندي سوفييتي و أسر ٥٥٠٠ آخرين كما خسر العدو ٧٠٠ دبابة و أكثر من ٢٠٠ مدفع ميداني و قرابة ٥٠٠ مدفع مضاد للدبابات، و قد تضررت بفعل الهجومين أربعة عشر فرقة مشاة و خمسة فيالق دبابات أو ميكانيكية سوفييتية – برغم أن العدو عمد بلا شك إلى إنقاذ جزء من تلك القوات من التطويق.

و في حين كانت تلك الأحداث مستعرة إستمر بالطبع الخلاف بين مجموعة الجيوش و *القيادة العليا للجيوش الألمانية* على مسألة العمليات المستقبلية، و مرة تلو الأخرى شددنا على أهمية منح حرية الحركة لجناحنا الأيمن و التوقف عن تقييده في ثنية نهر "دنيبر" في نهاية المطاف – و هو ما كان سياسة غير مجدية من وجهة النظر العملياتية، و في خطاب قدمنا لـ"هتلر" عبر رئيس هيئة الأركان العامة لفت نظر "هتلر" للحجج التي

أوردها لي في الرابع من يناير من أجل التشبث بثنية نهر "دنيبر"، و أخبرته أن مواقف و إتجاهات تركيا و بلغاريا و رومانيا تعتمد على القرم بشكل أقل من إعتمادها على سلامة الجناح الجنوبي الألماني أمام الحدود الشرقية للدولتين الأخيرتين، كما أنه يتعين على الجيش التشديد على أن القضية الأهم لكامل الجناح الجنوبي الألماني تعتمد على نشر جيش قوي حول "روفنو" خلف الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش في وقت مناسب – سواء تم هذا بواسطة فصل قوات من الجناح الأيمن بعد سحبه إلى جبهة قصيرة بنقل تشكيلات من مجموعة الجيوش الشمالية أو إجلاء الجيش السابع عشر من شبه جزيرة القرم ، و قلنا أنه فقط إن تمكنا من نشر هذا الجيش في التوقيت المناسب حول "روفنو" سيُمنع العدو من تنفيذ حركة تطويقية واسعة النطاق على جناحنا الشمالي و بموجبه يُمنع من إجبار الجناح الجنوبي لجبهتنا الشرقية بأكمله من التراجع إلى رومانيا، و بينما كان رئيس الأركان العامة متفقاً تماماً مع وجهة نظرنا و بذل محاولات حثيثة لإقناع "هتلر" بالإنصات إليها إلا أن الأخير أصر على مبدئه المتعنت القاضي بالتشبث مهما كانت التكلفة، و بدا أنه من المستحيل الحصول على توجيه منه بشأن إدارة العمليات على أساس بعيد الأمد – و تحديداً لأبعد من التماسك لمدة أربع وعشرين ساعة قادمة.

و ما جعل هذا النوع من القيادة أشد تعنتاً مما كانت عليه يتمثل في حقيقة أنه حتى *القيادة العليا للجيوش الألمانية* إعتبرت أن العدو الذي ما يزال ممتلكاً إحتياطات إستراتيجية قوية يجب أن يُتوقع منه إشراكها عاجلاً أو آجلاً، كيف يمكن لأي شخص ممارسة قيادة رشيدة في الميدان عندما لا يكون "هتلر" قد أخبر حتى مجموعات الجيوش برؤيته لمستقبل العمليات عموماً؟ كيف – إن كانت تلك الإحتياطات موجودة لدى العدو بالفعل – يكون تدخلها متوقعاً بأي درجة من البصيرة؟ إن تلك الحالة المستحيلة كانت جوهر خطاب كتبت فيه الآتي:

"إن أي قيادة تسعى للنجاح يجب أن تقوم على التنسيق المتناغم للسياسة على كل المستويات و هو ما يعتمد على التوجيهات الواضحة من القمة و التقدير المتوافق للموقف على جانب العدو، و لا يمكن لمجموعة الجيوش مجرد أن تفكر يوماً بيوم، كما أنها لا يمكنها التصرف وفق توجيه يقضي بالتماسك صارفاً النظر في نفس اللحظة عن العدو الذي يجهز لحل القضية بواسطة حركة تطويق لا تمتلك مجموعة الجيوش سبل منعها.

لذا يتوجب عليّ أن أطلب من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* إما الموافقة على آراء مجموعة الجيوش على أساس التقديرات التي تم تقديمها بالفعل أو تفنيدها عبر عرض تقديرها الخاص للتطورات المستقبلية.

و إن ظلت القيادة العليا بكماء و صمّاء بالنسبة لما خلصت إليه مجموعة الجيوش من إستدلالات في نطاق نفوذ نشاطها فستكون مسألة السياسة المنسقة غير واردة بالمرة"

و لمّا لم يرد أي رد بشأن هذا الخطاب قمت بكتابة آخر لـ"هتلر" شخصياً، و مجدداً أوضحت موقف مجموعة الجيوش و الإمكانات العملياتية المتاحة للعدو إضافة إلى حالة قواتنا، و لم أترك أي مساحة للشك بشأن كيفية تطور الموقف العام في حالة عدم إتخاذ أي تصرف يتوافق مع توصيات مجموعة الجيوش، و على وجه مخصوص قمت بالتشديد على الضرورة الحيوية لنشر قوات خلف الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش بدون أدنى تأخير لإحباط محاولات العدو تطويقه بكل ما يترتب على ذلك من نتائج بعيدة المدى، و قد إختتمت خطابي ملفتاً إلى الحاح ذلك و كذلك الخطر الكامن في عزل الجناح الجنوبي لمجموعة الجيوش في نهاية المطاف في ثنية نهر "دنيبر" بالكلمات التالية:

"أطلب السماح لي بقول ذلك في النهاية سيدي الفوهرر: بالنسبة لنا إن الأمر لا يتعلق فقط بالقضاء على خطر و إنما بإتخاذ خطوات للتغلب على خطر سنضطر لمواجهته قريباً"

و قد لعب هذا الخطاب دوراً هاماً في الصدام الذي خضته في مواجهة "هتلر" في غضون أيام قليلة قادمة.

ففي ٢٧ يناير إستدعى "هتلر" كل قادة مجموعات الجيوش و الجيوش العاملة في الجبهة الشرقية – بالإضافة إلى عدد كبير من كبار الضباط – إلى مقر القيادة العامة، و كان يتمنى إطلاعنا بشكل شخصي على الحاجة لتدريس الإشتراكية القومية داخل الجيش، و كلما صار الموقف العسكري أصعب كلما زادت أهمية عامل "الإيمان" من وجهة نظره في ضمان تحقيق النصر، و هو الإتجاه الذي عمل على تطبيقه أكثر فأكثر فيما يتعلق بإختيار الضباط الكبار للمناصب حتى قادة الفرق.

و حتى في تحيته أثناء الغداء البسيط الذي سبق الإجتماع شعرت أنه لم يسامحني عن النقد المتضمَن في تعليقاتي بتاريخ الرابع من يناير.

و الآن – في خطابه – تجده يلقي الكلمات التالية في وجوه الرجال الذين حققت جيوشهم الكثير:

"إن أتت النهاية يوماً ما .... فستكون نهاية الفيلد مارشالات و الجنرالات الواقفين بجانب الرايات حتى النهاية"

لم أتعود يوماً على تقبل الإهانة، و علاوة على ذلك إن كلماته تلك ستؤذي الجنود بإعتبارها إزدراء متعمداً لقادة الجيش الذين يستلزم الأمر إستدعاء شجاعتهم و تصميمهم على إتمام واجب الجندية.

و لتعودهم على الإنصات لمن هو أعلى في صمت فقد ظل الحاضرون هادئين و كأن على رؤوسهم الطير، و لكنني شخصياً شعرت بالإهانة الخفية بقوة جعلت الدم يغلي في عروقي، و عندما كرر "هتلر" ملاحظاته – بتبعاً أسلوب التشديد – صرخت قائلاً : **"و هذا ما يبغونه سيدي الفوهرر!"**

و هذا الهتاف من جانبي لم يكن ليؤثر بشكل طبيعي على موقفي من النظام الإشتراكي القومي، فكان يهدف ببساطة لإظهار أننا لن نتقبل أي إهانة من هذا القبيل من أي شخص - بما في ذلك "هتلر"، و قد أخبِرت فيما بعد أن زملائي – الذين إستفزتهم إهانة "هتلر" مثلي تماماً – شعروا بإرتياح لما قلته.

و مع ذلك لم يتعرض "هتلر" من قبل لمثل تلك المقاطعة أثناء إدلائه بحديث بصفته رئيس الدولة – و في تلك الحالة بصفته القائد العسكري الأعلى أيضاً، فقد إنقضت منذ زمن طويل تلك السنون التي كان يُقاطع فيها و هو يخطب في إجتماعات عامة، و قطعاً فقد "هتلر" حبل أفكاره و بنظرة باردة لي قال: **"شكراً أيها الفيلد مارشال فون مانشتاين"**، و من ثمّ وصل بشكل مفاجئ لخاتمة حديثه.

و بينما كنت أشرب الشاي مع "زيتزلر" وردت مكالمة هاتفية مفادها أن "هتلر" يريد رؤيتي بصحبة الفيلد مارشال "كايتل"، و قال لي "هتلر" عندما قابلته : **"لا يمكنني السماح لك بمقاطعتي أثناء حديثي مع الجنرالات، أنت نفسك لن تتسامح مع مثل هذا التصرف إن وقع من أيٍ من تابعيك"**.

و حيث أنه لا يوجد ما يُرد به على ذلك لم أرد، ثم وقع "هتلر" – و الذي كان متضايقاً للغاية – في الخطأ.

و قال: **"بالمناسبة ، كنت قد أرسلت لي منذ أيام قليلة ورقة بشأن الموقف، و أفترض أن ما تبغيه هو تبرير موقفك في يومياتك {مذكراتك} الحربية"**

يا إلهي هذا كثير**!** فرددت : **"إن الخطابات التي أكتبها إليك بصفة شخصية لا تّذكر في اليوميات الحربية، و عليك أن تعذرني عندما أستخدم تعبيراً إنجليزياً في هذا السياق، و لكن كل ما يمكنني قوله رداً على تعبيرك عن دوافعي بأنني رجل مهذب"**

فساد الصمت لبرهة، ثم قال "هتلر" : **"أشكرك بشدة"**

و في المؤتمر المسائي – و الذي دُعيت لحضوره بشكل شخصي – كان أسلوب "هتلر" معي لطيفاً مرة أخرى، بل إنه إستشارني بشأن إمكانية الدفاع عن القرم و التي كان يتحدث عنها في تلك اللحظة الجنرال "جيانكيك"[١] قائد الجيش الحادي عشر، و قد عرفتأنه لن يسامحني عن الرد الذي قلته باكراً، و لكنني لدي أمور أهم بكثير لأقلق بشأنها من علاقاتي الشخصية مع القائد الأعلى.

و خلال شهر فبراير تصدرت المشهد ثلاثة قطاعات على وجه الخصوص، سيتم التمييز بينها بأسماء "نيكوبول" و "تشيركاسي" و "روفنو".

فقدان "نيكوبول":

منذ السادس من فبراير تم نقل الجيش السادس لمجموعة الجيوش "أ" بأوامر من "هتلر"، و كان السبب الذي أخبر به الجنرال "زيتزلر" لذلك مميزاً حقاً، فقد أراد "هتلر" إرسال فرقتين من الجيش السادس لشبه جزيرة القرم – و هو ما كان حينئذٍ أملاً بائساً، و قد شرح "هتلر" أنه وضع الجيش السادس تحت قيادة مجموعة الجيوش "أ" لأنه لن يحصل على هاتين الفرقتين من مجموعة الجيوش الجنوبية.

[١] إروين جيانكيك : ضابط ألماني عاش بين ١٨٩٠- ١٩٦٠.

و قد إعتبرت مجموعة الجيوش الجنوبية تسليم الجيش السادس تخفيفاً مرغوباً نظراً لمعاناتنا من قلق جمّ في كل الأحوال، و مع ذلك عنى ذلك خسارة مخزون من القوات كنا قادرين إعتماداً عليه على الإنسحاب إن كنا أحراراً في سحب العدو لخارج شرق ثنية نهر "دنيبر" و رأس كوبري "نيكوبول" في وقت مناسب، و لكن هذا كان ما منعه "هتلر" بالضبط، و الآن بات العدو على وشك إجباره على التخلي عن المناطق محل الكلام.

في ٣١ يناير بدأت هجمات قوية جديدة للعدو ضد الجبهة الشمالية للجيش السادس شرق "كريفوي روج" و ضد رأس كوبري "نيكوبول" من جهة الجنوب، و غنتهى ذلك بإختراق رأس الكوبري، و عقب ثلاثة أيام من القتال أنجز العدو إختراقاً هاماً للجبهة الشمالية لهذا الجيش حيث – برغم حقيقة أن النسبة بين الفرق كانت ٢ : ١ لصالح السوفييت – تلقى الفيلق الثلاثون ضربات موجعة من إثني عشر فرقة مشاة و فيلقين دبابات، و على الرغم من وجود ست فرق مشاة على خط المواجهة و خلفها فرقتان مدرعتان فقد عانى هذا الفيلق نقصاً من التعزيزات و الأسلحة لدرجة أنها لم تكف لغير مجموعات قتالية فقط في حين إمتلكت الفرقتان المدرعتان خمس دبابات صالحة للخدمة فقط، و حتى بالنسبة لتلك القوات الباسلة سيقول الإرهاق المتواصل كلمته عاجلاً أو آجلاً.

و بإعتبار الجيش السادس خارج الآن عن سيطرة مجموعة الجيوش الجنوبية لم يعد بإمكاني التعامل مع سير القتال في هذا القطاع، و في كل الأحوال تبقى الحقيقة متجلية و هي أنه بمجرد إختراق العدو الجبهة الشمالية للجيش السادس تم تطويق الفيلقين المقاتلين هناك – كما هو الحال بالنسبة للآخرين الموجودين في رأس كوبري "نيكوبول"، و هو التطور الذي توقعته مجموعة الجيوش في مناسبات عدة، و قد إضطر "هتلر" هذه المرة لقبول التخلي عن الجزء الشرقي من ثنية نهر "دنيبر" و رأس كوبري "نيكوبول"، و كان الجيش السادس في واقع الأمر قد عمد لتخليص فيالقه من حبل المشنقة و لكن مقابل خسارة فادحة في المعدات، و لو كان قد تم التخلي عن هذا المعقل في الوقت المناسب فإنه لن يكون من الممكن فقط سحب كل الوقات الموجودة داخله في الوقت المناسب و لكن تحرير الفرق من أجل الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش فائق الأهمية، و بدلاً عن ذلك تم تبديد تشكيلات الجيش السادس في المكان الخطأ عملياتياً و من ثمّ يمكن للمرء الشك في ما إن كانت قادرة في نهاية المطاف على مقاومة ضغط العدو الملاحق لها.

جيب "تشيركاسي":

في منتصف جبهة مجموعة الجيوش و بعد أن أنجزت التشكيلات المتحركة من الجيش الأول بانزر هجومها المضاد بنجاح ضد الجيش الأربعين السوفييتي في شرق الثغرة الموجودة هناك إنتقلت تلك التشكيلات للجزء الغربي من الثغرة، و فور مغادرة فرقنا المدرعة لميدان المعركة الأول أنبت العدار المعادي رؤوساً أكثر.

و بحلول نهاية يناير قامت قوات معادية قوية – تتضمن عدة فيالق دبابات و ميكانيكية – بإختراق القطاع الشمالي الغربي من القوس المتوقع إنشاؤه من الجبهة حيث ما تزال الأجنحة الداخلية للجيشين الأول بانزر و الثامن متمسكة بمجرى النهر في "تشيركاسي"، و قد إشتمل هجوم العدو على تحريك قواته المتواجدة بين الفيلقين السابع و الثاني والأربعين جنوباً نحو منطقة "زفينجورودكا"[١].

و بشكل متزامن هاجم العدو جبهة الجيش الثامن المواجهة للشرق في المنطقة الواقعة جنوب غرب "تشيركاسي" و نجح في إختراقها بقوات جديدة تابعة للجيشين الرابع حرس و الخامس دبابات حرس، و نجحت تلك القوات في التقدم بعيداً للغرب بحيث صارت قادرة على الإلتقاء بالقوات المعادية التي إخترقت الجيش الأول بانزر من جهة الشمال الغربي صوب "زفينجورودكا"، و عنى ذلك أن النتوء الموصوف سلفاً تم تطويقه و معه الفيلق الثاني و الأربعين من الجيش الأول بانزر و الفيلق الحادي عشر من الجيش الثامن.

و هكذا كان الموقف الذي كان ينتظرني عندما وصلت لمقر قيادة مجموعة الجيوش في ٢٨ يناير، و على الفور تم إتخاذ إجراءات جذرية لتمشيط طريق هروب من أجل الفيلقين المحاصرين.

و قد تسلم الجيش الول بانزر أوامر تقضي بإنهاء المعركة مع قوات الجيش الأول دبابات السوفييتي على جناحه الأيسر في أقرب وقت ممكن و بتحرير الفيلق الثالث بانزر بأقصى سرعة، و قد وجهت لمنطقة الأزمة الجديدة الفرق ١٦بانزر و ١٧ بانزر

[١] زفينجورودكا: مدينة بوسط أوكرانيا.

و "الليبستاندرت" و فوج "بايك" بانزر الثقيل و الذي أظهر نفسه بوضوح في المعركة سالفة الذكر، و تتبع ما سبق الفرقة الأولى بانزر في أقرب وقت ممكن.

و صدرت تعليمات للجيش الثامن بتحرير قيادة الفيلق ٤٧ بانزر و الفرقة الثالثة بانزر من جبهته و تشكيل جبهة في إتجاه النقطة التي تم عندها الإختراق، كما أمِرت الفرقة ٢٤ بانزر بالإنتقال من الجيش السادس لدعم تلك مجموعة، و مع ذلك عندما وصلت أمر "هتلر" بإعادتها لمجموعة الجيوش "أ" لأن الموقف في رأس كوبري "نيكوبول" شرع في التحول بشكل خطير، و في الحقيقة وصلت تلك الفرقة هناك بعد فوات الأوان و لم يمكنها القيام بأي فعل مفيد.

و كانت أوامر مجموعة الجيوش أن يهاجم الفيلقان – التابع للجيش الأول بانزر من الغرب و التابع للجيش الثامن من الجنوب – جناح قوات العدو و خطوطها الخلفية المطوقة للفيلقين الثاني و الأربعين و الحادي عشر.

و قد كان عدد الفرق التي خصصتها مجموعة الجيوش لإخراج الفيلقين كبيراً نسبياً، و مع ذلك بدا ذلك ضرورياً بالنظر لحقيقة أن العدو قام بحشر ما لا يقل عن ٢٦ فرقة مشاة و ما بين سبع و تسع فرق دبابات أو ميكانيكية في أرض تلك المعركة من جهتي الشمال الغربي و الشرق، ويكمن السبب الصحيح وراء كثرتها في إنخفاض قوة الفرق السوفييتية ذلك الوقت إلا إذا تعلق الأمر بتشكيلات جديدة أو معاد شحذ قواها.

و كانت مهمة المجموعتين المهاجمتين هي أولاً قطع خطوط الإتصالات الخلفية لتلك التشكيلات المعادية المهولة ثم تدميرها بواسطة هجمات مركزة.

و لسوء الحظ تم تأجيل نشرهما أولاً بسبب الثلوج و ثانياً بسبب الطين الذي أعقبه، و مع ذلك بمجرد تمكنهما من التحرك نجحتا في إنزال العقاب الشديد بالكتلة الأكبر من قوات العدو التي عزلت جيب "تشيركاسي"، و في ذلك الهجوم أورد الفيلقان أنهما غنما أكثر من ٧٠٠ دبابة و ٦٠٠ مدفع مضاد للدبابات و قرابة ١٥٠ مدفع ميداني و لكن عدد الأسرى كان ألفين فقط، و هذا يوضح أن قوات العدو تتشكل في أغلبها من تشكيلات ميكانيكية، و في نهاية المطاف كتب الطين أو الثلج غير القابل للإختراق على التقدم النهاية، و قد بلغت رأس حربة الفيلق الثالث بانزر بُعد ثمانية أميال من الجبهة الجنوب غربية من الجيب، في حين أتم الفيلق السابع و الأربعون تدمير عدد كبير من قوات العدو.

و قد ذهب طاقم العمليات التابع لمجموعة الجيوش إلى "أومان" في قطار قيادتنا للإشراف على التعاون بين الجيشين في تلك المعركة، و كان مقر قيادة الجيش الأول بانزر في "أومان" ذاتها و كان الوصول لمقر قيادة الجيش الثامن سهلاً للغاية من نفس المكان، و في حين قمت في "أومان" بمحاولتين لبلوغ جبهتي المجموعتين الهجوميتين إلا أن سيارتي كانت تعلق كل مرة في الثلج أو الطين، و قد تنوع الطقس من يوم لآخر بين العواصف الثلجية و الذوبان، ومرة أخرى يثبت أن السيور العريضة للدبابات السوفييتية جعلتها أفضل من دباباتنا في التحرك عبر الأرض المغطاة بالثلج أو التربة الموحلة.

و نظراً لعدم وجود أي فرصة أخرى لإيصال المدرعات للجيب أصدرت أوامر للفيلقين المحاصرين بشق طريق الخروج نحو الجنوب الغربي، و في نفس الوقت وجد الفيلقان نفسيهما مزدحمين من كل الجهات بفعل هجمات العدو المتواصلة و بلغت المساحة المتروكة لهما ٣٠ ميلاً من الشمال للجنوب و ١٠-١٢ ميلاً من الشرق للغرب، و قد طالبهما الروس بالإستسلام في الرابع من فبراير.

و في ظل قيادة قائديهما العامّين "ستيمرمان" و "ليب" بدأ الفيلقان تنفيذ عملية شق الطريق خلال ليلة ١٧/١٦ فبراير، و بمجرد إنطلاقهما صوب الفيلق الثالث بانزر قام الأخير بمحاولة أخيرة لإدخال على الأقل عدد ضئيل من الدبابات عبر الطين غير المستوي للإلتقاء بهما، و كانت لدى الفيلقين داخل الجيب تعليمات من مجموعة الجيوش بإستخدام كامل مدفعيتهما و ذخيرتهما لدعم عملية شق طريق الخروج، و لعدم قدرة بطاريات المدفعية على التقدم عبر الطين العميق على الطرق الريفية غير الممهدة إضطرت للبقاء في مكانها بعد أن إتنفدت كل ذخيرتها،و قام حراس المؤخرة المسلحون بعدد قليل من المدافع بحماية عملية شق طريق الخروج ضد العدو المتقدم الآن من جهتي الشمال الشرقي و الجنوب.

من الممكن تخيل قدر المشعر المختلطة بين الأمل و القلق التي خالجت صدورنا و نحن جالسين في قطار قيادتنا منتظرين سماع أي أنباء بشأن مدى نجاح الخروج، و في الساعة ١:٢٥ صباح يوم ١٧ فبراير وصلتنا أخباراً سارة عن تأسيس أول إتصال بين القوات الهاربة و رؤوس حربة الفيلق الثالث بانزر، كما تم إكتساح العدو بينهما تماماً، و بحلول ٢٨ فبراير علمنا بأنه سيتم خروج ما يترواح بين ٣٠ ألف و ٣٢ ألف رجل

من الجيب، و مع أخذ في الإعتبار إنهيار قوة الجبهات و حقيقة أنه تم تطويق ست فرق و لواء واحد يجب إعتبار هذا الرقم نامّاً عن الكتلة الرئيسية للقوات المقاتلة.

(كان عدد القوات قبل التطويق ٥٤ ألف رجل، و قد تجنبت بعض وحدات المؤخرة الوقوع في الشرك .. الكاتب)

و أكثر حقيقة مؤلمة كانت عدم إمكان إخراج أغلب الجرحى، كما قُتل الجنرال "ستيمرمان" خلال القتال.

و هكذا كان من الممكن حماية كلا الفيلقين من المصير الذي لاقاه الجيش السادس في "ستالينجراد"، و في هذه الحالة أيضاً طالب "هتلر" التشبث بالجيب و لكنه في النهاية وافق بأثر رجعي على تحضيرات عملية شق طريق الخروج التي أمرت بها مجموعة الجيوش، و من ثمّ أصدرت مجموعة الجيوش الأمر القاضي بالتنفيذ الحقيقي للخروج بدون لفت إنتباه "هتلر" مسبقاً لتفادي أي إحتمالية إصدار أمر مضاد.

بشكل طبيعي علقت الكتلة الرئيسية من المدافع و الأسلحة الثقيلة بسرعة في الطين على طريق الخروج – تم إستخلاص عدد ضئيل منها نتيجة للجهود الخارقة المبذولة بواسطة القوات، و قطعاً توجب علينا سحب الست فرق و نصف المحررة إلى خارج خط المواجهة ذلك الوقت، و مع ذلك كانت تلك الخسارة من القوة القتالية – برغم أنها زادت من تعقيد موقف مجموعة الجيوش – إلى حد كبير معوَضة بواسطة فرحة إنقاذ أفراد الفيلقين.

و لكن ما يزال أمام الجيشين الأول بانزر و الثامن مهمة توحيد جبهتيهما و تحرير المدرعات من أجل إحتياطي المركبات في أقرب وقت ممكن.

و بعد أن قمت بزيارة وحدات من الفرق المشاركة في عملية الخروج عاد طاقم العمليات لـ"بروسكروف"، و كان هذا ضرورياً على نحو عاجل بسبب الموقف على الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش.

"روفنو":

للأسباب سالفة الذكر قامت مجموعة الجيوش بكل ما أمكنها فعله خلال شهر فبراير في سبيل منع العدو من الإختراق عبر منتصف جبهتها، و كانت قادرة على وقف التهديد بعزل جناحها الأيمن عندما كان الأخير ما يزال في ثنية نهر "دنيبر"، و بناءً عليه واجهت مجموعة الجيوش ضرورة إخراج الفيلقين المحاصرين من جيب "تشيركاسي"، و بمجرد تحقيق ذلك سنتحول حتمياً للإهتمام بالتطورات الحادثة في شمال منطقة مجموعة الجيوش.

في ذلك الوقت كان الجيش الرابع بانزر متموضعاً على جبهة مواجهة للشمال الشرقي و تمتد فعلياً على نحو متواصل من شمال شرق "فينيستا" إلى غرب مدينة "شبيتوفكا" الصغيرة، و تقع تلك الأخيرة على بعد ٥٠ ميلاً شمال "بروسكروف" التي كان فيها مقر مجموعة الجيوش، و في "شبيتوفكا" وُضعت نهاية تلك الجبهة المتواصلة، فمن أجل جبهة طولها قرابة ١٥٠ ميل إنتشرت فقط تسع فرق ضعيفة و لكنها كانت ذات قيمة ميدانياً تحت قيادة ثلاثة فيالق – منها خمس مشاة و إثنتان مدرعتان و إثنتان غرناد بانزر، و كان الضغط على جبهة هذا الجيش قد خفت وطأته تلك اللحظة – من المفترض أن يكون العدو قد أوقف هجومه، و على الرغم من ذلك كان من الواضح أن الجيش الرابع بانزر بالكاد سيكون قادراً على التماسك بالقوات المذكورة أمام عدو يفوقه بمراحل.

و لكن كان هناك خطر آخر ذو تداعيات أخطر على وضع مجموعة الجيوش ككل.

أمام الجناح الغربي للجيش الرابع بانزر – الممتد حتى الحدود الجنوبية لمجموعة الجيوش الوسطى شمالاً – كانت هناك مساحة مكشوفة واسعة خالية واقعياً من أي قوات ألمانية، و كان العدو قادراً إنطلاقاً من تلك المنطقة عاجلاً أو آجلاً تنفيذ حركة تطويقية واسعة النطاق ضد الجيش الرابع بانزر – و التي ستكون مردافة لتطويق كامل مجموعة الجيوش الجنوبية، و حتى برغم كون الجزء الشمالي من هذا الفرغ – مستنقعات "بنسك" – مستبعداً تلقائياً من إستغلاله في أي عمليات كبيرة إلا أنه كان هناك جسراً برياً للعبور من الشرق للغرب بعرض ٤٠ ميلاً فوق جبهة الجيش الرابع

بانزر مباشرة، و من خلال يجري الطريق السريع من "كييف" إلى "روفنو" عبر "زيتومير" و من ثمّ غرباً صوب "لفيف" و "لوبلين" في الحكومة العامة[1] .

و لسد هذا الجسر البري نقلت مجموعة الجيوش الفيلق الثالث عشر إلى أقصى جناحها الشمالي، و هذا الجناح خضع لقيادة بارعة بواسطة رئيس الأركان العامل معي سابقاً في الفيلق الثامن و الثلاثين { الجنرال "هوف" } و الذي لقي مصرعه لسوء الحظ و هو على مقدمة قواته في مارس ١٩٤٤، و كان "هوف" قد تماسك بالقوات القليلة التي في حوزته أمام تقدم العدو على جانبي الطريق السريع خلال شهري فبراير و مارس متفادياً المرة تلو الأخرى إتمام عدوه المتفوق عليه حركة كماشة ضده، و في الشمال – في منطقة مستنقعات "بينسك" – تولت مجموعة من وحدات الشرطة حراسة خط السكك الحديدية الكبير من "كييف" إلى بولندا.

و في مواجهة تلك الصعوبات لم يتمكن الفيلق الثالث عشرالمنعزل من فعل أكثر من تأخير تقدم العدو، و في بداية فبراير كنا قد فقدنا مدينة "روفنو" و هو ما دفع الفيلق الثالث عشر للإنسحاب غرباً صوب "دوبنو".

من الطبيعي أن يهرع مفوض الرايخ الجاولايتر "كوتش" – و الذي كان مقيماً في "روفنو" – للسعي للهرب بالرغم من أن ذلك لم يكن قبل ضم الموظفين المدنيين و قوات الشرطة لسلطانه للقتال حتى النهاية، و سيهرب من بروسيا الشرقية بنفس الطريقة التي سلكها "هتلر" فيما بعد، و من جهة أخرى إعتبر "هتلر" أن الجنرال مسئول عن خسارة المدينة، و طبقاً لـ"زيتزلر" حتى "كايتل" دافع عن إعدام الضابط الألماني كبير المقام هناك رمياً بالرصاص فوراً، و عندما عارض "زيتزلر" ذلك بقوة – جازماً أن "هتلر" يريد الإستماع في أي حال لرأي الجنرال – علّق "جورينج" قائلاً :**"لا! لا تفعل ذلك، كيف سيكون الوضع إن حدث ذلك كل وقت؟ و على أية حال ليست هذه من وظيفة رئيس الدولة"** و بصرف النظر عن حقيقة كون المسالة لا تخص "جورينج" أصلاً بأي شكل من الأشكال إلا أنه كان آخر شخص له حق لوم الآخرين بشأن أي إهمال للواجب، و كان حديثه مثالاً آخر على كراهيته المتقدة للجنرالات و الجيش في مجمله، و في الواقع لم يتقبل "هتلر" توصيات كلٍ من "جورينج" و "كايتل" بل إنه أمر بمحكمة تحقيق – و هي ما يترتب عليها عدم صدور أي حكم بالإعدام على الضابط المتهم أساساً و لكن على قائد الفرقة المسئول عن منطقة "روفنو"، و قد تم إلغاء هذا

[1] الحكومة العامة : هي نظام حكم فرضته ألمانيا النازية على الجزء الخاضع لها من بولندا منذ ١٩٣٩ حتى ١٩٤٥.

تبعاً لذلك بواسطة "هتلر" و الذي قبل الدفوع المقدمة من طرفي و قائد الجيش بالنظر للأسباب التي قادت إلى خسارة "روفنو"، و لم تكن في أيامي تلك قد ظهرت للوجود "المحكمة العسكرية المتنقلة" و التي تمتلك سلطة إصدار أحكام على القادة المحليين.

و لكن دعونا نعد للجيش الرابع بانزر.

كما قلت مسبقاً أنه على الرغم من عدم وجود أي تهديد حال لجبهة هذا الجيش إلا أنه كان من الواضح تماماً أن تلك الأرض الواسعة الممتدة في الشمال – التي تتولى حراستها قوات خفيفة – ستكون عما قريب قاعدة ينطلق منها هجوم معادي، و هذا الهجوم قد يكون موجهاً صوب "لفيف" في الغرب أو الجيش الرابع بانزر في الجنوب في صورة حركة تطويقية واسعة النطاق حول جناحه الغربي.

و مما نستدعي تذكره في هذا المقام تسبب توقع هذا الخطر في قيام مجموعة الجيوش في مناسبات عدة بالمطالبة بنشر جيش في منطقة "روفنو"، و هو ما لم يحدث أبداً، حيث لم تحرر القيادة العليا أي قوات في مكان آخر لهذا الغرض – و تحديداً عبر فصلها من مجموعة الجيوش الشمالية أو إخلاء شبه جزيرة القرم – و لا مكنت مجموعة الجيوش الجنوبية من القيام بذلك عبر منحها حرية الحركة على جناحها الجنوبي.

و غني عن القول أنه عقب إنتهاء معركة "تشيركاسي" قامت مجموعة الجيوش بسحب قوات مدرعة قوية من منتصف جبهتها إلى الجناح الأيسر حيث بلغت مواقعها في ١٥ مارس، و لكننا أكدنا *للقيادة العليا للجيوش الألمانية* أن تلك القوات تكفي في أحسن الأحوال لحفظ درجة معينة من الإستقرار على جبهة الجيش الرابع بانزر في حالة وقوع أي هجوم كبير آخر، و لكنها لن تكون في أي حال مناسبة للتعامل مع حركة تطويق واسعة النطاق ضد الجناح الغربي لهذا الجيش، و لأنه تقرر أن تُسوى قضية الجناح الشمالي كان أساسياً أن يتم تزويد هذا الأخير بقوات إضافية، و مع ذلك لا يمكن في الوقت الحالي قيام القيادة العليا بأي شيء حاسم في هذا الخصوص.

و قد إفترض "هتلر" صراحة أن القوة الهجومية للعدو قد إستُنزفت، و فوق ذلك كان يتوقع حلول موسم الطين قريباً بما يضع حداً لأي نشاط واسع النطاق من جانب السوفييت.

صحيح أن الهجوم الذي أطلقناه في منتصف فبراير لتحرير الفيلقين من جيب "تشيركاسي" بلغ نهايته بفعل الطين و ما هبّ من عواصف ثلجية كذلك، و لكنه ما يزال من المبكر جداً الإعتماد على حلول موسم الطين فعلياً.

و أما بالنسبة للإستنزاف المنتظر لقوة العدو الهجومية فقد كان من المسموح وضع ذلك في الإعتبار فقط في سياق القدرات المتقلصة لتشكيلنا، و كانت مجموعة الجيوش قد قدمت *للقيادة العليا للجيوش الألمانية* سلسلة من الأرقام التي تمنح صورة مجسمة للخسائر و التعزيزات الخاصة بكلا جانبي الجبهة.

و قد خلصنا من الإستجوابات العديدة لأسرى الحرب أنه في الفترة من يوليه ١٩٤٣ إلى يناير ١٩٤٤ تلقت قوات العدو المواجهة لجبهتنا قرابة ١٠٨٠٠٠٠ رجل كتعزيزات، و هذا الرقم يجب أن يكون معادلاً تقريباً لخسائر العدو في نفس الفترة، و من الناحية الأخرى بلغت خسائر مجموعة الجيوش الجنوبية من قتلى و جرحى و مفقودين في نفس الفترة الزمنية ٤٠٥٤٠٩ رجل، و كان رقم التعزيزات في هذه الحالة ٢٢١٨٩٣ رجل، لذا بالرغم من معاناة تشكيلات العدو خسائر أثقل بكثير مما عانيناه نحن فضلاً عن إنخفاض القيمة القتالية للمشاة خصيصاً بمعدل متزايد في إطراد فإنه ما يزال من الواضح من الأرقام المذكورة أن نسبة القوات و تناسبها قد باتت في غير مصلحتنا إلى حد كبير.

و كان الموقف الراهن بالنسبة للتشكيلات المدرعة يتمثل في إمتلاك فيالق الدبابات السوفييتية على خط المواجهة متوسط ٥٠ – ١٠٠ دبابة لكل واحد منها بإستثناء حالة وحيدة كان الرقم فيها ٢٠ دبابة و كان المخطط أن يبلغ الرقم ٢٠٠ – ٢٥٠ دبابة، و على النقيض كان متوسط ما تملكه فرقنا المدرعة من دبابات في أفضل الأحوال ٣٠ دبابة، و فقط الفرق المدرعة المرسلة حديثاً لمجموعة الجيوش كانت أفضل حالاً أما بالنسبة للأخرى فكان الوضع أكثر سوءً، و إجمالاً تسلم العدو المواجه لجبهتنا تقريباً ٢٧٠٠ دبابة جديدة خلال الفترة قيد التحقيق في حين تسلمنا نحن فقط ٨٧٢ – يشتمل هذا الرقم المدافع ذاتية الحركة الهجومية كذلك، و في تلك الأرقام لم نذكر العدد الضخم من تشكيلات الإحتياط التي يحوزها العدو.

و صورة واضحة أخرى تمنحنا إياها البيانات المقدمة من الجيوش العاملة تحت قيادتنا، و ربما تحدث بعض الإزدواجية بين الحين و الآخر خاصةً بالنسبة للدبابات المدمرة،و وفقاً لتلك البيانات كانت خسائر العدو ما يلي:

	أسرى	دبابات	مدافع ميدانية	مدافع مضادة للدبابات
يناير	١٧٦٣٥	٢٨٣٧	٥٨٨	٢٤٨١
فبراير	٧٧٠٠	١٠٥٥	٢٠٠	٨٥٥

و تُظهر تلك الأرقام القدر الهائل الإستثنائي من المعدات الذي إمتلكه الجيش الأحمر في تلك المرحلة، و قد إنقضى الزمن الذي كان فيه هذا الجيش مضطراً لإلقاء حشود من الرجال في المعركة، و على اليد الأخرى تكشف تلك الأرقام عن الفرق الصادم بين عدد الأسرى و عدد المعدات التي أخذت كغنيمة أو دمرت، و يرجع ذلك لإما أن السوفييت كانوا قادرين على تجنب الوقوع في الأسر بواسطة الهرب و ترك معداتهم الثقيلة – و هو ما يُظهر إنهياراً في الروح المعنوية – أو أنهم عانوا من خسائر بشرية فادحة.

بالنسبة لموقف "هتلر" – في ضوء الأرقام السابقة – بشأن الإدارة المستقبلية للعمليات و إحتمالية دخول الأحداث على الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش منعطفاً خطيراً فقد حملت محادثة هاتفية لي مع الجنرال "زيتزلر" معلومات أكثر.

توضيحاً للخطر المتوقع على جناحنا الشمالي قمت بلفت الإنتباه لنسبة القوات و ألمحت إلى أن الأرقام بالنسبة لحالتنا ما تزال في غير صالحنا مقارنة بمجموعات الجيوش الأخرى، و سأذكر الآن بعض من تلك المحادثة :

- زيتزلر : **"لقد دخلت مع الفوهرر في مناقشة طويلة أخرى بشأن هذا الموضوع و كذلك بشأن ما يتضمنه من نتائج و لكن بلا جدوى"**
- أنا : **"و كيف يتصور هو عملياتنا المستقبلية إذن؟"**
- زيترلر : **"يقول أن الروس مجبرون على وقف الهجوم في وقت ما، فهم يهاجمون بلا توقف منذ شهر يوليه و لا يمكنهم الإستمرار فيه للأبد ، فرددت عليه : سيدي**

الفوهرر لو كنت روسياً الآن ماذا ستفعل؟ فقال : لا شيء على الإطلاق، فرددت: حسناً بالنسبة لي سأقوم بالهجوم صوب لفيف"

قطعاً واصل "هتلر" التعويل على الإنهاك و الطقس لوضع نهاية لعمليات العدو الهجومية، و ستكون هناك بحلول مايو – كما أخبرني هو من قبل – فرق جديدة في حوزته، و لو كان فقط قد وضع الأفراد و العتاد الذي تتطلبه فرقنا الخائضة للمعركة تحت تصرفها لربما أخذت الأمور منعطفاً مختلفاً تماماً.

يوم الحساب:

في مارس ١٩٤٤ حان وقت دفع فاتورة خطأ القيادة العليا الفادح المتمثل في الرفض القاطع للتخلي عن أي شيء – سواء في الشرق أو مسارح العمليات الآخرى – في سبيل أن نصير أقوى من العدو في النقطة الحاسمة، و ما كان علينا ندفع ثمنه هو إخفاق ألمانيا في المخاطرة مطلقاً بكل شيء للوصول للمواجهة الحاسمة في الشرق عام ١٩٤٣ في سبيل فرض حالة الجمود على الأقل أو إستنزاف القوة الهجومية للروس قبل أن تظهر للوجود جبهة ثانية حقيقية في الغرب.

و من ثمّ كان هناك الخطأ المتمثل في الإستمرار حتى النهاية في ربط الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية بمعاقل بعيدة في الشرق – أولاً في حوض نهر "دونتز" و منطقة نهر "كوبان" ثم في ثنية نهر "دنيبر" و شبه جزيرة القرم – مانحين العدو بموجبه فرصة تطويق تلك القوات، و للقيام بذلك تغافلت القيادة العليا عن حقيقة أن تلك القضية لن تُحسم في نهاية المطاف وفقاً لنتيجة الصراع على تلك المعاقل و لكن في المكان الذي يمكن للعدو إنطلاقاً منه دفع كامل الجناح الجنوبي للجيوش الألمانية نحو البحر الأسود أو رومانيا، و منذ العملية "قلعة" كانت تلك النقطة الحاسمة هي الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش الجنوبية.

و الآن لقد فات الأوان! فقد رحل العام الحاسم ١٩٤٣ بدون تحقيق الجمود المبتغى، و بات تحقيق ذلك معتمداً الآن على نتيجة الغزو القادم مؤكداً في ١٩٤٤.

و لكن يجب أولاً تسوية الحساب على الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية!

و قد أثبت "هتلر" الآن أنه سابق لعصره – و هو أقل ما يمكن قوله عنه – في تحدثه عن الأمل في أنه بحلول نهاية شهر فبراير سيوقف إستنزاف القوة الهجومية السوفييتية و حلول موسم الطين هجوم العدو.

و كان حقيقي تماماً أن مكاسب العدو قد كبدته الإستثنائي من التضحيات بفضل الروح القتالية للقوات الألمانية ، كما كان واضحاً أيضاً أن جودة المشاة – الذين دمج فيهم العدو كل الرجال القادرين من سكان المناطق المأهولة – في تدهور مستمر، و لكن تبقى الحقيقة الواضحة و هي أن العدو ما يزال يمتلك تشكيلات وافرة مشتملة على قوات جديدة أو معاد شحذ قواها يمكنها جلبها للمواجهة، و حتى لو تناقص عدد الدبابات العاملة ضمن فيالق الدبابات أو الميكانيكية التابعة له نتيجة للخسائر الثقيلة المذكورة سلفاً فإنه ما يزال أكبر بمرات من نظيره لدى الفرق المدرعة الألمانية، و على الجانب الألماني حتى النقل التدريجي الدقيق للوحدات العاملة على الخطوط الخلفية للجبهة لم يُجد نفعاً في تعويض نقص التعزيزات، و كنا بالفعل قد دمجنا مئات الآلاف من المتطوعين من السكان الأصليين للمناطق التي دخلناها في وحدات الخلفية و طوابير الإمداد، و هؤلاء الرجال – أساساً أوكرانيون و قوقازيون – قاموا بواجبهم على أتم وجه و بأكبر درجة ممكنة من الولاء مفضلين القتال ضمن الجيش الألماني – على الرغم من السياسة التي فرضتها في أراضيهم المحتلة سلطات الحزب – على العودة للعيش في ظل الهيمنة البلشفية.

و قد حلّ موسم الطين – تخللته بعض موجات الجليد – في بداية مارس، و مع ذلك أثّر علينا هذا الموسم مبدئياً بأسوأ مما أثر في الروس، و قد ذكرنا سلفاً أن الدبابات السوفييتية كانت أكثر حركية من دباباتنا على الثلوج و الطين بفضل سيورها العريضة، و في ذات الوقت ظهرت لدى العدو أعداد كبيرة من الدبابات الأمريكية، و نظراً لكون تلك الدبابات قادرة على التقدم في الطرق الريفية المفتوحة في وقت كانت دباباتنا فيه عالقة في طرق ضيقة كان العدو قادراً أيضاً على تحريك عناصر المشاة التابعين لفيالق الدبابات و المكيانيكية بسرعة، و إضافة لما سبق كلما زاد الطين سوءً كلما شعرنا بنقص الجرارات في الجانب الألماني، و نتيجة لذلك لم تتمكن تشكيلاتنا المتحركة من التحرك لمسافة طويلة إلا بتكلفة قدرها تأخيرات كبيرة و خوض صراع مع عدو أكثر حركية بمساوئه.

و لحين حلول الوقت الذي يوقف فيه الطين مؤقتاً هجوم العدو عمليات العدو الهجومية و كذلك لحين حلول الوقت الممكن فيه إستئناف النضال واجهت مجموعة الجيوش ضرورة الإحتفاظ بجناح شمالي قوي.

و سيواصل العدو بالطبع مهاجمة مجموعة الجيوش "أ" – الجيش السادس تحديداً – و جيشنا الثامن، و هو الآن لديه فرص كبيرة لتحطيم هذا الجناح - و الذي ما يزال ممتداً تجاه الشرق – و دفعه للتقهقر إلى البحر الأسود أو في كل الأحوال للظفر بنقاط عبور نهر "بج" و فيما بعد نهر "دنيستر"، و هنا تقبع فرصة إستعادة "بيساربايا" و فتح الطريق إلى رومانيا و بقية البلقان، و هي المنطقة التي كان "روزفلت" مهتماً بمنحها إلى "العم جو"[١].

و على الرغم من ذلك ما يزال الجانب الألماني قادراً على تنفيذ إنسحاب مرن على هذا الجناح و توفير قوات كبيرة من جبهة الجيش السادس – و التي يمكن تقصيرها بدرجة كبيرة خلال تلك العملية، و سيظل من الممكن فرق التوقف على العدو على جبهة مجهزة بشكل ملائم للمهام الدفاعية – إما وراء نهر "بج" أو نهر "دنيستر السفلي" و في الحالتين أمام الحدود الرومانية السابقة.

لذا عندما لوحظت علامات التحضيرات الهجومية قبالة الجناح الجنوبي للجيش الثامن في ٢٢ فبراير طلبت مجموعة الجيوش منح هذا الجيش حرية إتخاذ تصرف مراوغي، و نحن لم نكن قادرين على و لا ميالين إلى إمداد هذا الجزء من الجبهة بقوات كانت هناك حاجة ماسة لوجودة على الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش، و قد إعتمدت قدرة الجيش الثامن على تبني تكتيكات مرنة بالطبع على مدى قدرة جاره الجنوبي – و هو الجيش السادس الممتد إلى الشرق – على التعاون في تنفيذ التحرك المقترح من طرفنا، و كان هذا هو سبب سعينا إلى الموافقة المسبقة *للقيادة العليا للجيوش الألمانية*.

و من غير المفاجئ أن "هتلر" لن يمنح موافقته على ذلك، و على النقيض أمِرت مجموعة الجيوش بتسليم قوات أكثر {الفرقتان الثالثة بانزر و ٢٤ بانزر} لشن هجوم داعم للجيش السادس عندما حدث تراجع جديد على جبهته بالغة الإمتداد.

[١] العم جو : لقب أطلقه الرئيس الأمريكي "فرانكلين روزفلت" على القائد السوفييتي "جوزيف ستالين" لتوثيق عرى التحالف بينهما ضد ألمانيا النازية.

و مع ذلك ستُتاح للعدو من الناحية العملياتية فرص أكثر بكثير من تلك المتاحة له عبر التقدم على طول ساحل البحر الأسود ضد مجموعة الجيوش "أ" إن تمكن من تحقيق النجاح الحاسم في مواجهة الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش الجنوبية، و إن عمد – بواسطة إستخدام أقصى تركيز للقوات – إلى إكتساح جبهة الجيش الرابع قبل حلول موسم الطين فسيتمكن بداءةً من السيطرة على خط السكك الحديدية الممتد من "لفيف" خلال "زميرينكا" إلى جنوب أوكرانيا و المهم لإمداد كامل الجناح الجنوبي الألماني، و تبعاً لذلك سيتوغل العدو داخل الجناح العميق للجناح الجنوبي و خطوطه الخلفية بمواصلته التقدم جنوباً.

و فوق ما تقدم كان من المؤكد أن العدو سيستغل الثغرة المفتوحة بين الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش الجنوبية و الجناح الجنوبي لمجموعة الجيوش الوسطى بغية نشر قوة هجومية أخرى، و كانت مهمته الإلتفاف حول الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش أو القيام بالتقدم نحو "لفيف" و الذي كان الجنرال "زيتزلر" قد تنبأ به أمام "هتلر" من قبل، و قد قدم ظهور لقيادة الجبهة الأولى البيلاروسية في هذه المنطقة مؤشراً قوياً على تلك النوايا، و بتطويق جناح مجموعة الجيوش الأيسر على هذا النحو ستُجبر المجموعة حتمياً على التقهقر للجنوب – ربما حتى شرق ممرات "كارباثيا"، و من جهة أخرى سيكون السوفييت أحراراً في التقدم إلى "جاليسيا" أو بولندا عبر "لفيف".

يجب إيقاف أي تطور من هذا القبيل مهما كانت التكاليف.

و بمجرد إنتهاء النضال في سبيل تحرير الفيلقين المحاصرين قرب "تشيركاسي" و تمام إعادة تأسيس الإتصال بين جبهتي الجيشين الأول بانزر و الثامن في تلك المنطقة أمرت مجموعة الجيوش بنقل جذري للقوات إلى جناحها الأيسر، و في قطاعات الجيشين الأول بانزر و الثامن تم تحرير قيادة الفيلق الثالث بانزر و معها الفرق الأولى بانزر و ١١ بانزر و ١٦ بانزر، و ذلك على أن تتبعها في أقرب وقت ممكن الفرقة ١٧ بانزر و فرقة المدفعية إلى منطقة تموضع حول "بروسكروف" خلف الجيش الرابع بانزر، و كذلك نُقلت للمنطقة الأخيرة من الجيوش المذكورة أعلاه الفرقة السابعة بانزر و "الليبستاندرت" و كتيبة دبابات ثقيلة {٣٠٥}، و كان على الجيش الرابع بانزر نشر تلك التشكيلات الأخيرة حول "تارنوبول" تحت قيادة الفيلق ٤٨ بانزر، و بينما كانت مهمة الفيلق الثالث بانزر إحباط أي محاولة إختراق معادية للجبهة شمال شمال "بروسكروف" كانت مهمة الفيلق ٤٨ بانزر الحيلولة دون إتمام أي تطويق للجناح الغربي قرب طريق

"تارنوبول"، كما تم تحريك ثلاث فرق مشاة ممنوحة من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* {٦٨، ٣٥٧ و ٣٥٩} أيضاً لمنطقة الجيش الرابع بانزر.

إن سحب تلك القوات من جبهات الجيوش التابعة لها يستغرق وقتاً ، و فوق كل ذلك لم تكن حالة الطرق و وسائل النقل لتسمح بأي تحركات سريعة، و نتيجة لذلك لم تصل تلك القوات لوجهاتها قبل منتصف مارس.

في بداية هذا الشهر أمرت مجموعة الجيوش كذلك بتوسعة مناطق جيوشها تجاه الجناح الأيسر، و غرض ذلك يتمثل في تمكين الجيش الرابع بانزر من تولي مسئولية المنطقة الحائزة لأهمية خاصة الآن و الواقعة بين "تارنوبول" و "دوبنو"، و قد سلم هذا الجيش جبهته الحالية – و التي تنتهي عند "شبيتوفكا" – للجيش الأول بانزر و تولى القيادة في المنطقة الممتدة من شرق "تارنوبول" إلى "دوبنو"، و القوات الوحيدة المتاحة هناك في ذلك الوقت كانت الفيلق ٤٨ بانزر – و المنشغل بالتموضع حول "تارنوبول" – و الفيلق الثالث عشر – و المشتبك مع العدو حول "دوبنو" – إضافة إلى مجموعة من وحدات الشرطة في "كوفيل".

و قد سلم الجيش الأول بانزر بدوره قطاعه من الجبهة الواقع شمال "أومان" للجيش الثامن، و بأوامر من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* إنتقل الفيلق الموجود على الجناح الأيمن لذلك الأخير للجيش السادس.

و في بداية شهر مارس نقلت مجموعة الجيوش مقر قيادتها أولاً إلى "كامنك-بولدولسك" ثمّ إلى "لفيف" – كي تكون وراء الجناح الأيسر الحيوي، و كانت لدينا تعليمات من "هتلر" بعدم دخول الأراضي الرومانية – و التي ستكون أفضل نقطة لنا داخلها خلف منتصف جبهة مجموعة الجيوش.

و كان ما يزال من القابل للمناقشة مدى كفاية الإجراءات سالفة الذكر لإعتراض أي هجوم يشنه العدو قبل حلول موسم الطين، و للمدة التي أعقبت ذلك – و كما أكدت مجموعة الجيوش *للقيادة العليا للجيوش الألمانية* تكراراً – كان أساسياً في كل الأحوال جلب قوات تعادل قوتها قوة جيشين مشتملين على ١٥ – ٢٠ فرقة إلى "لفيف"، و حينها فقط يمكننا منع إتمام أي تطويق واسع النطاق للجناح الأيسر لمجموعة الجيوش بكل ما يترتب على ذلك من نتائج سبق شرحها، و مع ذلك من الممكن إفتراض أن القوات الواصلة حديثاً مما وعد به "هتلر" من قوات – و التي لم تُخبر مجموعة الجيوش أي

شيء عن عددها – لن تكون مناسبة لهذا الغرض، و كان من المجدي عملياً الحصول على قوات بواسطة تقصير جبهات كلٍ من مجموعة الجيوش الشمالية و الجيش السادس إضافة إلى إخلاء شبه جزيرة القرم.

و غني عن القول أن تحرير قوات في منطقة مجموعة الجيوش بالقدر الموضح يتضمن خطراً كبيراً بالنسبة للجيشين الثامن و الأول بانزر نظراً لأن العدو سيواصل هجومه عليهما طالما سمحت له أحوال الطقس و التربة القيام بذلك، و سيكون هدفه في هذه الحالة الإختراق ف إتجاه نهر "بج الأوسط" و نقاط تقاطعه في "فينيستا" و "فوزنيسينسك".

و مع ذلك و بالنظر لما جرت عليه الأمور كان على مجموعة الجيوش أن تتخير بين شرّين، و بالنظر للموقف العام نجد أن أهون الشرّين كان و بلا شك هو تقدم العدو للمنطقة الواقعة أمام منطقة الجيش الول بانزر و قبالة الجيش الثامن، و الأثر العملياتي الناجم عن مثل هذا التقدم سيظل ممكناً التعامل معه بسحب الجيش السادس المجاور لما وراء نهر "بج" أو وراء نهر "دنيستر" في أسوأ الحالات، و من الجهة الأخرى ستكون نتائج أي نجاح حاسم يحققه العدو ضد الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش مما يتعذر تجاوزه، و الحيلولة دون وقوع ذلك – و لقطع طريق الروس إلى الجناح العميق لمجموعة الجيوش الجنوبية أو إلى "لفيف" مهما كانت التكاليف – يتوجب الآن أن يكون ذلك هو هدف العملياتي لمجموعة الجيوش ريثما يصير موسم الطين فعالاً تماماًن و إحتمالية إجبار جناحها الأيمن – و تبعاً له مجموعة الجيوش "أ" بأكملها – على الإنسحاب غرباً كانت خطراً تعين عليها تقبله.

النضال يستمر برغم الطين:

على الرغم من أن حالة الطقس منعت قوات الإستطلاع الجوي التابعة لنا من إخبارنا بأي تحركات أو عمليات تجميع معادية تحدث على الجانب الآخر إلا أن مجموعة الجيوش كانت قادرة على تقييم نوايا العدو في نهاية فبراير على النحو التالي:

١. ستنشر الجبهة الأولى البيلاروسية المتعرف عليها حديثاً قوات في منطقة "روفنو" لتطويق الجناح الغربي لمجموعة الجيوش.

٢. من المتوقع أن تشن الجبهة الأولى الأوكرانية هجوماً على الجبهة المواجهة للشمال على كلا جانبي "بروسكروف" الخاضعة الآن لقيادة الجيش الأول بانزر.

٣. إفترضنا أن الجبهة الثانية الأوكرانية ستجدد هجماتها على الجيش الثامن و الجناح الأيمن للجيش الأول بانزر و تتقدم – إن نجحت في عبور نهر "بج" – صوب "تشيرنفيستي"[١].

٤. ستستمر الجبهتان الثالثة و الرابعة الأوكرانية في محاولاتهما لتحقيق النجاح على الجيش السادس و الجناح الأيمن للجيش الثامن.

في الثالث من مارس بدأ الهجوم على الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش في منطقة الجيشين الرابع بانزر و الأول بانزر، فقد هاجمت قوات معادية متفوقة – تتضمن فيالق دبابات – الفيلق الثالث عشر و قامت بتقييده بغية تطويقه، و قد إستهدف هذا الهجوم الرئيسي – الذي نفذه جيشا دبابات و الجيش الستون السوفييتي – الإختراق جنوباً عبر خط "بروسكروف- تارنوبول"، و كانت نية العدو قطعياً هي قطع أهم خط إتصالات لمجموعة الجيوش و – بشرط سماح الطقس بذلك – التقدم إلى نهر "دنيستر"، و بشكل متزامن كان الجيش الثامن عشر السوفييتي يحاول إجبار الجناح الأيمن للجيش الأول بانزر على الإبتعاد في إتجاه جنوب غربي.

و يعطي التحليل التالي فكرة عن القوى النسبية خلال تلك الفترة:

قوات العدو في التاسع من مارس ١٩٤٤	قواتنا في ٢٩ فبراير ١٩٤٤	القطاعات التي تسيطر عليها قواتنا
قبالة الجيش السادس {مجموعة الجيوش "أ"}: ٦٢ فرقة مشاة ٣ فيالق دبابات أو ميكانيكية فيلق خيالة واحد	١٨ فرقة مشاة تقريباً ٣ فرق مدرعة	

[١] تشيرنفيتس: مدينة غرب أوكرانيا.

فيلق دبابات واحد في راحة		
قبالة الجيش الثامن: ٥٧ فرقة مشاة ١١ فيلق دبابات أو ميكانيكية	٥ فرق مشاة ٤ فرق مدرعة أو غرناد بانزر	٩٥ ميلاً
قبالة الجيش الأول بانزر: ٣٧-٤٠ فرقة مشاة ١١ فيلق دبابات أو ميكانيكية	٨ فرق مشاة فرقة مدفعية واحدة فرقة مدرعة واحدة	١١٢ ميل
قبالة الجيش الرابع بانزر: ١٨ فرقة مشاة ٥ فيالق دبابات أو ميكانيكية فيلق خيالة واحد	٨ فرق مشاة فرقة دفاعية واحدة تشكيل شرطة واحد ٩.٥ فرق مدرعة أو غرناد بانزر	٣٢٠ ميل

و قد تسبب نقل حدود الجيش غرباً داخل مجموعة الجيوش في نهاية مارس عمليات نقل القوات التالية:

من	إلى	القوات المنقولة	طول الجبهة
الجيش الأول بانزر	الجيش الثامن	٣ فرق مشاة	٣٧ ميلاً
الجيش الرابع بانزر	الجيش الأول بانزر	٥ فرق مشاة ٣.٥ فرقة مدرعة أو غرناد بانزر	١٢٥ ميل

عندما قمت بزيارة خط الجبهة في "شبيتوفكا" في الرابع من مارس وجدت أن موقف الفيلق التاسع و الخمسين هناك خطراً للغاية، فقد إخترق العدو جبهاتنا على جانبيها و كان يحضر للإيقاع بالفيلق عبر وسائل الهجمات التطويقية من الشرق و الغرب، و

للقضاء على هذا الخطر تعين سحب هذا الفيلق للوراء – و هي المناورة التي ستنجح بفضل القيادة المتزنة و العقلانية للقائد العام { رئيس أركاني السابق "شولز" } و بفضل تدخل الفرقة الأولى بانزر و التي وصلت تواً، و على الرغم من ذلك إستمر العدو في مجهوداته الرامية لتطويق هذا الفيلق بواسطة ملاحقته صوب "بروسكروف".

كلا فيلقي البانزر اللذين تم جلبهما خلف هذا الجناح من مجموعة الجيوش دخلا الآن في العمليات، حيث تم توجيه الفيلق الثالث بانزر لشمال غرب "بروسكروف" لتحطيم العدو المتقدم في الثغرة بين الجيشين الأول بانزر و الرابع بانزر، و أما الفيلق ٤٨ بانزر فتم توجيهه لمهاجمة مدرعات العدو المتقدمة نحو "تارنوبول".

و بحلول السابع من مارس كان العدو قد أشرك ما مجموعه ٢٢ – ٢٥ فرقة مشاة و سبعة فيالق دبابات أو ميكانيكية في هذا القطاع.

و كان العدو قد شرع في بداية مارس في شن هجوم على الجناح الأيسر للجيش الثامن – عامداً في إسبوعين إلى تعويض ما لحقه من خسائر على يد فيلقي البانزر التابعين لنا المتقدمين إلى جيب "تشيركاسي" لتحريره، و ما إن قمنا بسحب الفيلقين من ذلك القطاع لجلبهما خلف الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش حتى بدأ العدو هجومه في إتجاه "أومان"، و بعد مقامرته بإلقاء ما لا يقل عن عشرين فرقة مشاة في هذا الإختراق نجح العدو في تحطيم الفيلق السابع و بحلول التاسع من مارس صار أمام بوابات المدينة.

في منطقة مجموعة الجيوش "أ" {الجيش السادس} إستأنف العدو هجومه و أنجز إختراقاً تجاه "نيكولاييف" عند مصب نهر "بج".

و في تقرير عن الموقف أرسل *للقيادة العليا للجيوش الألمانية* بتاريخ السابع من مارس أوضحت مجموعة الجيوش أنه لا يوجد من خيار أمامها سوى مواصلة القتال ريثما يضع موسم الطين حداً لعمليات العدو، و مع ذلك أكدت في نفس الوقت على الأهمية الحاسمة لإمتلاك قوات كافية متاحة في منطقة "تارنوبول- لاك- لفيف" في نهاية موسم الطين للحيلولة دون حدوث أي إختراق تجاه المدينة المذكورة أخيراً أو للتقدم إلى جناح العدو إن حاول التقدم جنوباً من "تارنوبول".

و بالتالي كان الإعتبار الرئيسي الذي وضعته مجموعة الجيوش في حسبانها الآن هو وجوب القتال لكسب الوقت و القيام بذلك بأقصى جهد ممكن – حتى لو تكلّف الأمر

التخلي عن أراضٍ أكثر – للإبقاء على تشكيلاتها في حالة قتالية ريثما يجبر الطين العدو على وقف هجماته، و لسوء الحظ يوجد زمن طويل لينقضي قبل أن يحدث ذلك.

و في تلك المرحلة من العمليات إعتقد "هتلر" أنه عثر على سبل جديدة لوقف تقدم العدو، و من هنا تم إعلان كل الأماكن ذات الميزة التكتيكية المعتبرة نقاط عقدية من طريق أو سكة حديدية "معاقل"، و تم تخصيص قائد لكل منها تحت مسمى "كامفكوماندانت" و الذي صار شرفياً مسئول الدفاع عن المنطقة المعنية و عقوبة التخاذل عن ذلك الإعدام، و كانت الجيوش الواقع في مناطقها تلك "المعاقل" التي إختارها "هتلر" شخصياً مسئولة عن شحذها بالعتاد و الرجال اللازمين للدفاع عنها في أقرب وقت ممكن، و قد إفترض "هتلر" أن سد الطرق المهمة أو تحويل القوات السوفييتية عنها سيخدم في تأخير تقدمها، و في الواقع كان من الواضح منذ البداية أن تلك "المعاقل" لن تقدم أي مفيد، بل إنها تطلبت عملياً قوات أكبر للدفاع عنها مما هو كافٍ للإحتفاظ بها، و حيث أن أي "معاقل" بدون تحصينات مناسبة أو حراسة ملائمة مصيرها الحتمي هو السقوط بيد العدو عاجلاً أو آجلاً قبل أن تحقق الغرض منها فقد عمدت مجموعة الجيوش في كل حالة للتخلي عنها بإستثناء واحدة قبل أن تتم محاصرتها ، و هذا الإستثناء كان "تارنابول" و التي تمكن قدر يسير من حراسها من الخروج منها في نهاية الأمر، و فيما بعد في ١٩٤٤ قادت هذه الوسيلة التي إبتكرها "هتلر" لخسائر كبيرة.

و تماشياً مع سياستها المتمثلة في القتال لكسب الوقت و حماية الجيوش من التطويق إضطرت مجموعة الجيوش في التاسع من مارس لأن تأمر الجيش الثامن بالتحرك بعد أن إخترق العدو الجبهة على جناحه الأيسر، و بعد ذلك بيومين و لنفس السبب تم سحب الجناح الأيمن للجيش الأول بانزر لما وراء نهر "بج".

على جناحه الأيسر كان على الجيش الأول بانزر مواصلة القتال في منطقة "بروسكروف" لإستعادة الإتصال مع الجيش الرابع بانزر و تخفيف الضغط على جناحه الأيمن.

و كانت مهمة الجيش الرابع بانزر هي منع مدرعات العدو شرق "تارنابول" من الإختراق تجاه نهر "دنيستر" في الجنوب و إجبار الجيش الأول بانزر على الإبتعاد نحو جنوب الشرق، و في نفس الوقت كان عليه – بإستخدام الفرق القادمة من *القيادة العليا*

للجيوش الألمانية المشار إليها باكراً – تمشيط خطوط الإتصالات الممتدة من "لفيف" إلى "بروسكروف" عبر "تارنابول".

و مع ذلك سارت الأمور بسرعة متزايدة منذ الآن فصاعداً، فبحلول ١٥ مارس نجح العدو في التدمير الكامل للجناح الأيسر للجيش الثامن مُحدثاً ثغرة عريضة بين "أومان" و الجيش الأول بانزر في "فينيستا"، و مع إستمراره في تقدمه الجنوب غربي صار قادراً على إتمام عبور نهر "بج" بواسطة العناصر الأمامية لخمسة جيوش – أحدها مدرع – في منطقة الجيش الثامن، و في حين إستعان هذا الأخير بكل القوات القابلة للفصل من جناحه الأيمن موجهاً إياها للجناح الأيسر لمهاجمة العدو العابر الآن للنهر كان من الواضح أنها لن تتمكن إلا من إبطاء تقدمه بدون أي أمل في الظفر بنهر "بج" كخط دفاعي لقطاع بهذا الإتساع أو في إستعادة الإتصال مع الجيش الأول بانزر، و لعى النقيض ستكون قوات العدو القوية العابرة للنهر في وضع يمكنها من إجبار الجيش الثامن على التقهقر جنوباً و الوصول لنهر "دنيستر"قبله.

و كذلك على الجناح الأيمن للجيش الأول بانزر حقق العدو إختراقاً قاده إلى نهر "بج" جنوب "فينيستا"، و على الرغم من إعلان "هتلر" فوراً أن المدينة "معقل" إلا أنه لم يكن هناك إمكانية لتشييد دفاع منيع لكون ذلك يحتاج إلى ثلاث فرق على الأقل، و أين يمكن العثور عليها؟

وعلى الجناح الأيسر لهذا الجيش غرب "بروسكروف" ظهرت دلائل تفيد قيام العدو بحركة تطويق بواسطة الجيش الثالث دبابات حرس و الممتلك ثلاثة فيالق دبابات.

في قطاع الجيش الرابع بانزر جعل هجوم ناجح شنته فرق المشاة مدعومة من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* من الممكن إستعادة الموقف في منطقة "تارنابول" لتلك الفترة من الوقت، و على عكس ذلك كان الفيلق الثالث عشر مُهدداً بالتطويق أثناء إنسحابه في إتجاه "برودي".

و قد كان واضحاً من الصورة العامة أنه لا توجد أي إمكانية لإستعادة السيطرة على نهر "بج" و التشبث به على الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش، و في ١٦ مارس ظهر أن قوات العدو التي عبرت النهر تتقدم غرباً بجبش دبابات صوب أقرب نقاط تقاطع لنهر دنيستر"، و كانت جيوشها الثلاثة – أحدها مدرع – تنعطف جنوباً ضد الجناح الشمالي للجيش الثامن، و في نفس الوقت تعرض كلا جناحي الجيش الأول بانزر لخطر

التطويق، و برغم النجاح المحقق في "تارنابول" بدا أنه من المشكوك فيه ما إن كان الجيش الرابع بانزر قادراً على المدى الطويل على منع العدو من التقدم تجاه "لفيف" أو الإنعطاف جنوباً.

و هذا هو الموقف المتوتر السائد عندما إستدعيت للبرجستادين، و منذ أيام قلائل زارني مساعد "هتلر" العسكري الجنرال "شمندت" للحصول على توقيعي على وثيقة خطيرة الشأن، و قد كانت تلك الوثيقة عبارة عن إعلان الولاء لـ"هتلر" بواسطة كل الفيلد مارشالات بالنسبة للدعاية المنشورة بواسطة "فون سيدليتز" – و هو الجنرال الذي سقط أسيراً في "ستالينجراد"، و كانت الفكرة نابعة من عقل "شمندت" نفسه ظنّاً منه أنها ستقوي ثقة "هتلر" في الجيش، و لمّا كان كل الفيلد مارشالات قد وقعوا ما عدا أنا لم يكن أمامي خيار سوى التوقيع، و رفض القيام بذلك يعني أنني أتعاطف مع أنشطة "سيدليتز"، و على الرغم من ذلك أخبرت "شمندت" أنني أعتبر هذا الإعلان غير ضروري من وجهة نظر الجندي لأنه من القطعي أن القوات الألمانية لن تعر أي إنتباه لدعاية "اللجنة الوطنية لألمانيا الحرة"[١]، و أود أن أشير في هذا المقام أن المنشورات الملقاة من قبل العدو على جيب "تشيركاسي" من قبل لم تحقق غرضها – بما فيها خطاب أرسله "سيدليتز" للجنرال "ليب" متولي زمام القيادة هناك، و في نفس الوقت وصل مكتبي خطاب من نفس النوع، و قد تم تسليمه لنا بعد أن إلتقطه بارتيزان أوكراني.

(في حين لم تكن هناك أي إشارة لوجود بارتيزان في شرق أوكرانيا – حيث كانت الإدارة بيد السلطات العسكرية الألمانية فقط – كانت تلك الحركة نشطة أكثر في الأقاليم الغربية، و من أسباب ذلك إنتشار الغابات الضخمة التي منحت مجموعات البارتيزان الغطاء الآمن و يسرت عليها مهاجمة الطرق و خطوط السكك الحديدية، و سبب آخر يكمن في أن حكم مفوض الرايخ "كوتش" قاد السكان المدنيين لحمل السلاح، و قد كان هناك ثلاثة أنواع من البارتيزان :

١. البارتيزان السوفييت: قاتلوا ضد الألمان و قاموا بترويع السكان المسالمين.
٢. البارتيزان الأوكرانيون: قاتلوا البارتيزان السوفييت و جرت عادة الألمان على إطلاق سراحهم عقب نزع سلاحهم.

[١] اللجنة الوطنية لألمانيا الحرة : هي منظمة معادية للنظام النازي عملت في الإتحاد السوفييتي خلال الحرب العالمية الثانية تأسست في يوليه ١٩٤٣ برئاسة الشيوعي الألماني "إريتش فنيرت" و ضمت قيادتها ٣٨ فرداً منهم ٢٨ ضابط ألماني أسير لدى السوفييت و البقية من الشيوعيين الألمان في المنفى.

٣. البارتيزان البولنديون: قاتلوا كلاً من الألمان و الأوكرانيين، و هو ما حدث تماماً في ضواحي "لفيف" التي كانت تابعة لـ"جاليسيا" حيث كانت أغلبية سكان الحضر من البولنديين و الريف من الأوكرانيين، و كانت تتم إدارة منطقة "لفيف" بحكمة على عكس بقية المناطق الخاضعة للحكومة العامة، و في حين كانت تتم معاملة الأوكرانيين بأفضلية ظل الرجل المسئول و هو مفوض المقاطعة "واتشتر" يحمي مصالح الأقلية البولندية، و ي نهاية المطاف تمكن من تشكيل فرقة خالصة من متطوعين أوكرانيين..... الكاتب)

في ١٩ مارس تم تسليم الوثيقة المشار إليها سلفاً إلى "هتلر" بواسطة الفيلد مارشال "فون رندستيدت" في حضور عدد كبير من رجال الأفرع الثلاثة للقوات المسلحة، و قد بدا "هتلر" متاثراً بعمق بتلك المناسبة، و لكن ما أضأل توافقها مع قيم الجندية!

و بالنظر لرد "هتلر" السلبي على كل توصيات الماضي و إصراره على رفض الإقرار بالضرورات الراسخة فإن تلك المطالبة بمظاهرة إثبات الولاء تلك تجعل التساؤل بشأن سبب إستمراري في منصبي وثيق الصلة بهذا المقام.

و فيما يتعلق بالتلميحات العامة الأكثر التي يتضمنها هذا المقام فيمكنني فقط أن أقول أنه لم يكن من السهل لي – بإعتباري شخصاً قضى سنوات من عمره منهمكاً في تأدية واجباته على الجبهة – تقصي حقيقة طبيعة "هتلر" أو التدهور الأخلاقي لنظام حكمه للدرجة التي يمكنني فعلها اليوم، و أي إشاعات من هذا النوع تتفشى داخل الوطن تجد طريقها للجبهة – على الأقل لنا نحن القادة، فقد تركت لنا المشكلات و المخاوف التي جلبها لنا القتال وقتاً ضئيلاً لتقصي الأمور الحاظية بإهتمام أوسع، و في هذا الخصوص كان وضعنا مختلفاً كليةً عن وضع الجنود أو الساسيين في ألمانيا أو الأقاليم المحتلة حيث لا يقع أي قتال.

و مع ذلك لم يمكنني في نطاق نفوذي العسكري التغاضي عن أخطاء قيادة "هتلر"، و قد سبق توضيح أسباب عدم إيماني بإمكانية التخلص منه بوسائل عنيفة في وقت الحرب.

و أما بالنسبة للأسباب التي دفعتني للبقاء في منصبي الذي طالما تمنيت تركه، ففي مناسبات عدة رفض "هتلر" فيها توصياتي أو حاول التدخل في شئون قيادتي أخبرت رئيس هيئة الأركان العامة بأنه من الأفضل لـ"هتلر" أن يجد شخصاً آخر ليتولى قيادة مجموعة الجيوش الجنوبية، و لكن بجانب ترجيات طاقمي كان ما يُرجعني دوماً عن

الإستقالة لا يكمن في الرغبة – التي تكون لها دوافع خاصة في مثل تلك الحالات – "الحيلولة دون وقوع الأسوأ" و إنما في إقتناعي بعدم وجود قيادة غير قيادتنا قادرة على التعامل مع المهام التي تواجه أي قائد في المنطقة الحاسمة من الجبهة، و ستعني مغادرتي لهذا المنصب تغييراً يشمل أكثر من شخص قائد مجموعة الجيوش.

شيء ما أخبرني أنني ليس لي الحق في ترك قواتي في مثل تلك السفينة المترنحة ما لم تحدث بالطبع أي كارثة تجبرني على تقديم إستقالتي كملجأ أخير بهدف إجبار "هتلر" على الكشف عن نواياه، و تلك المؤامرة ستظهر للوجود عما قريب في سياق مصير الجيش الأول بانزر.

و قد أتاح لي الإجتماع المنعقد في البرجستادين فرصة تقديم المقترحات التالية لـ"هتلر" بسبب الخطورة مضطردة الزيادة للموقف:

١. الإنسحاب الفوري للجيش السادس لما وراء نهر "دنيستر"، و كان هذا التشكيل ما يزال متموضعاً في النتوء الممتد غرباً شرق نهر "بج السفلي" متطلباً الكثير من القوات، و نفس المقترح قدمه قائد مجموعة الجيوش "أ" الفيلد مارشال "فون كليست".
٢. النقل السريع شمالاً للقوات القوية المحررة من الجيش السادس للمنطقة الواقعة بين نهري "دنيستر" و "بروت" – و التي كانت الحدود الرومانية السابقة – للحيلولة دون إبعاد الجيش الثامن عن نهر "دنيستر" نحو الجنوب الشرقي.
٣. إصدار قرار سريع يقرر أن تكون مهمة حماية رومانيا – سواء على نهر "دنيستر" أو نهر "بروت" – ملقاة على عاتق مجموعة الجيوش "أ" بالتعاون مع القوات الرومانية.
٤. تقديم المساعدة السريعة للجناح الشمالي لمجموعة الجيوش الجنوبية لمنع العدو من إجباره على التقهقر لممرات "كارباثيا" أو التقدم صوب "لفيف".

و قد أضفت أن هذا الحل يتضمن بداءة فتح ثغرة بين مجموعة الجيوش "أ" و مجموعة الجيوش الجنوبية إن أردنا تشييد جبهة قوية شمال ممرات "كارباثيا"، و إن حاول العدو لاحقاً إختراق تلك الثغرة صوب البلقان مروراً بالمجر فسنكون قادرين على التقدم نحو مؤخرته من جهة الجنوب بمجرد تسلمنا التعزيزات التي وعدنا "هتلر" بإمتلاكها في شهر مايو.

و مع ذلك رفض "هتلر" تقبل أي وجهات نظر بعيدة المدى مثل تلك، و أصدر توجيهاً يقضي بأن تبقى مجموعة الجيوش "أ" على نهر "بج" و أعلن عن تقديم مساعدة محدودة النطاق للجناح الشمالي لمجموعة الجيوش الجنوبية.

و في تقدير مفصل عن الموقف أرسلته للجنرال "زيتزلر" في ٢٢ مارس كررت المقترحات المذكورة أعلاه مُقيماً إياها على كلٍ من حالة القوات المقاتلة و حقيقة أن الموقف الحالي لم يعد يسمح لنا بغلق الجبهة بين الجيشين الثامن و الأول بانزر، و قلت أنه من المهم لأقصى درجة أن تقوم مجموعة الجيوش "أ" – الواجب أن تأخذ الجيش الثامن تحت قيادتها الآن – بحماية رومانيا في حين تقوم مجموعة الجيوش الجنوبية بمنع تقدم العدو غرباً في المنطقة الواقعة شمال ممرات "كارباثيا"، و لتحقيق ذلك يكون من الأساسي أن يتمكن الجيش الرابع بانزر من التمسك بمواقعه الحالية – و هو ما يعني وجوب تزويده بالتعزيزات مهما كانت التكاليف، و يجب أن تكون مهمة الجيش الأول بانزر الأولى هي الإتصال مجدداً بالجيش الرابع بانزر و الحيلولة دون تقهقره جنوباً، و تتولى القوات المجرية أمر حماية ممرات "كارباثيا" بين مجموعتي الجيوش.

ما يزال المجريون – الذين أجبِروا على دخول الحرب – واضعين أعينهم على "ترانسلفانيا" و التي ضمتها رومانيا في ١٩١٨ ، وكان معروفاً أمر عدم الثقة المتبادلة بين حلفائنا المجريين و الرومانيين لدرجة أنهم كانوا يحتفظون بقوات كبيرة جاهزة داخل أراضيهم لإستخدامها ضد بعضهم البعض إن إقتضت الحاجة ذلك، و عقب الهزائم على نهر "دون" في شتاء ٤٣/١٩٤٢ تم إخراج الجيشين الرومانيين – و تبعهما المجري في وقت لاحق – من الجبهة.

و مع ذلك أتاح المارشال "أنتونيسكو" مرة أخرى قوات لتتولى مهام الدفاع الساحلي على بحر آزوف، كما أنه سمح للتشكيلات الرومانية التابعة للجيش السابع عشر بالبقاء في رأس كوبري "كوبان" و لاحقاً في شبه جزيرة القرم، و هو الآن يجهز جيوشاً جديدة للدفاع عن رومانيا كجزء من مجموعة الجيوش "أ".

بعد إنسحاب الجيش المجري من جبهة القتال ترك المجريون فرقاً قليلة وراءهم في أوكرانيا، و تقرر صراحة وجوب عدم إشراك تلك الفرق في أي قتال ضد السوفييت، لذا كلما كان خط الجبهة يقترب أكثر كلما نقوم بسحبها في وقت مناسب، و إقتصرت

واجباتها على حراسة الطرق وخطوط السكك الحديدية ضد أي بارتيزان في مناطق الإتصالات.

و الان أخذ الموقف يزداد حرجاً بالنسبة للمجر أيضاً و التي نحتاج لجيشها السليم الموجود في أرضها للدفاع عن ممرات "كارباثيا" و المنطقة القريبة من نهر "دنيستر"، و مع ذلك صار موقف حكومتها داعياً للشك في نفس الوقت و في ١٥ مارس حمل الجنرال "ليندمان" تعليمات من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* تقضي بنزع سلاح القوات المجرية الموجودة خلف جبهتنا في حال إنشقاق المجر و تغير موقفها، و لحسن الحظ تم إستبعادنا من تنفيذ تلك المهمة، و عقب زيارة "هورتي"[١] للبرجستادين تم وضع الجيش الأول المجري تحت إمرتنا في ٢٣ مارس، و قد إشتمل كلٌ من فيلقيه على فرقة مشاة ميكانيكي واحدة و أربع فرق مشاة، و لكن يتوجب تعبئتها جميعاً أولاً! و بصرف النظر عن ذلك لم يكن كم و جودة الأسلحة المجرية للتوافق مع متطلبات الحرب ضد الوحدات المدرعة السوفييتية، و على الرغم من ذلك كان من المتوقع أن تتماسك تلك القوات ضد السوفييت في ممرات "كارباثيا" حيث أننا شعرنا أن الروس لن يتمكنوا من إستخدام مدرعاتهم إلا على نطاق محدود في الأراضي الجبلية، و تم تدعيم إعتقادنا هذا بواسطة ذكرى دفاع "الهونفيد"[٢] الباسل عن ممرات "كارباثيا" ضد أمام الروس في الحرب العالمية الأولى، و يعتمد كل شيء بالطبع على القيادة النشيطة على الجانب المجري، و في هذا الخصوص لم نجد ما يشجعنا في زيارة أدلاها لنا الجنرال "لاكاتوس" – و هو الذي كان على ما أذكر رئيس الأركان العامة بوزارة الحربية - في ٢٨ مارس و قائد الجيش الأول المجري، فكل ما فعله الرجلان رداً على طلباتنا هو التحجج بعد جهوزية قواتهما – في مارس ١٩٤٤!!!- و نقص ما تمتلكه من الأسلحة المضادة للدبابات، و لم نتمكن من تفادي أن يتملكنا إنطباع بأن هناك دوائر معينة عالية الرتبة في الجيش المجري لا تتحمس للدفاع عن حدود وطنها بأي غيرة حقيقية.

ما الذي كانوا يتوقعونه من الروس؟

و كان واضحاً بالفعل من التقرير المسائي للموقف المرسل إليّ في البرجستادين في ١٩ مارس أن موقف مجموعة الجيوش الجنوبية قد إتخذ منحىً آخر للأسوأ.

---

[١] ميكلوش هورتي: ضابط في الجيش المجري عاش بين ١٨٦٨ – ١٩٥٧.
[٢] الهوفنيد: هي تشكيل عسكري مجري تابع للإمبراطورية النمساوية المجرية منذ ١٨٦٧ حتى ١٩١٨.

فقد ظهر أن الجيش الثامن – برغم نقله كل القوات المدرعة المتاحة لجناحه الأيسر – لم يعد قادراً على الحيلولة دون تطويق الأخير للغرب و إجباره على الإبتعاد في إتجاه جنوبي، و لأن "هتلر" لم يوافق على الحل الذي إقترحناه – و تحديداً نقل قوات من الجناح السادس لتلك النقطة الحاسمة تزامناً مع إنسحابه – كل ما يمكننا فعله هو محاولة إقناع المارشال "أنتونيسكو" بمنحنا قوات في هذه المرحلة المبكرة بهدف إطالة جبهة الجيش الثامن ناحية الشمال الغربي، و في الواقع كان المارشال يتصور فقط إستخدامها للدفاع عن نهر "بروت"

و بجانب هذا التداعي في وضع الجيش الثامن حدث تطور آخر ينذر بالشؤم على الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش.

و هنا و مع عدم القدرة على حماية جناحه الأيمن على نهر "بج" صار الجيش الأول بانزر متمسكاً الآن بجبهة تواجه الشمال الشرقي و تمتد من نهر "دنيستر" – شمال غرب "موجيليف- بودولسك" – إلى نهر "زابروتش" – و الذي كان الحدود السابقة مع بولندا.

و بعيداً في الغرب – كما سبق ذكره – تمكن الجيش الرابع بانزر من إستعادة الموقف مؤقتاً شرق "تارنابول" عبر شن هجوم مضاد مستخدماً بعض الفرق الواصلة مؤخراً.

و مع ذلك، في ٢٠ مارس و بعد إستخدام جيشي دبابات { الأول و الرابع} لذلك الغرض حقق العدو إختراقاً على كلا جانبي الحدود بين الجيشين و تقدم جنوباً في إتجاه نهر "دنيستر العلوي"، و في ٢٣ مارس صارت رؤوس حربة الجيشين الأول و الرابع بالفعل قريبة من نقاط تقاطع نهر "دنيستر" شمال "تشيرنفيستي" و جنوب "كامنسك-بودولسك"، و هذا وضع العدو مباشرةً عبر خطوط الإتصالات الخاصة بالجيش الأول بانزر، و في اللحظة التي تبدى الخطر فيها للعيان أمرت مجموعة الجيوش الجيش الأول بانزر بسحب جبهته إلى خط قصير بغية الحصول على قوات تقاتل بها خطوطه الخلفية، كما مُنح هذا الجيش قيادة مجموعة تابعة للجيش الرابع بانزر تحت قيادة الجنرال "ماوس" و التي ظلت واقفة كالجبل الصامد المنعزل في مؤخرة الجيش الأول بانزر بعد طرد كل شيء آخر من تلك المنطقة على يد جيشي العدو، و كانت مهمة مجموعة الجنرال "ماوس" هي وقف الكتلة الرئيسية للقوات المعادية خلف رؤوس الحربة المدرعة و هو ما يعني قطع الأخيرة عن إمداداتها.

قطعاً لا يمكن لتلك الإجراءات إستعادة الموقف على الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش، و على الرغم من كون العدو لا يمتلك في تلك اللحظة سوى قوات مدرعة تقطع خطوط الإتصالات عميقاً داخل مؤخرة الجيش الأول بانزر – و هو ما نجم عنه ترتيب قيادته لجسر إمداد جوي – إلا أنه لا توجد أي دلالة على أن هذا الجيش سيتم تطويقه في وقت قريب بكل ما تحمله الكلمة من معنى، و إن كان من اللازم تأسيس جبهة بأي درجة من المتانة شمال ممرات "كارباثيا" فيسكون من العملي سحب الجيش الأول بانزر منذ الآن فصاعداً.

في ٢٣ مارس طلبت مجموعة الجيوش من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* الإمداد السريع بالقوات المطلوبة لتحرير خطوط الإتصالات الخلفية للجيش الأول بانزر (و تلك القوات يمكن تحريرها كما تصورنا من المجر و التي كانت محتلة في تلك الأثناء)

في ٢٤ مارس تلقينا رداً يتضمن ليس فقط تشبث الجيش الأول بانزر بجبهته الممتدة و لكن إطالتها حتى "تارنابول" في الغرب أيضاً و كذلك تمشيط منطقة الإتصالات الخاصة بالعدو.

و بناء عليه أرسلت مجموعة الجيوش تقريراً في ظهيرة نفس اليوم بأنه ستأمر الجيش الأول بانزر بالتوجه غرباً إن لن تتسلم التوجيه المناسب بشأن طلبها السابق بحلول الساعة ١٥:٠٠.

و في الساعة ١٦:٠٠ تسلمنا رداً إنتظرناه كما إنتظر "سليمان" رد الهدهد بموافقة الفوهرر على الفكرة الأساسية المتضمنة تمشيط الجيش الأول بانزر منطقة إتصالاته إلى الغرب و لكنه ما يزال مصراً على وجوب مواصلة هذا الجيش التشبث بجبهته الحالية بين نهر "دنيستر" و "تارنابول".

و مسألة أين يجد هذا الجيش القوات اللازمة للتقدم غرباً و تمشيط منطقة إتصالاته من أي وجود معادي كانت خارج إختصاصنا، و هو ذات ما حدث بخصوص "ستالينجراد" في ديسمبر ١٩٤٢ عندما كان "هتلر" مستعداً بطريقة مماثلة للسماح للجيش السادس بمحاولة شق الطريق الخروج في إتجاه الجيش الرابع بانزر، و في تلك الحالة أيضاً طلب مواصلة الإحتفاظ بالمدينة بما يعني ببساطة أن الجيش السادس لن يكون قادراً على نشر أي قوات لتنفيذ عملية شق طريق الخروج.

و عندما إتصلت هاتفياً بالجنرال "زيتزلر" مرة أخرى لإيضاح إستحالة تنفيذ طلب "هتلر" رد بأن الأخير لم يدرك الخطورة الكاملة للموقف، و على الرغم من ذلك ما زلت أتلقى دعوات للحضور متأخراً هذا المساء لمقر القيادة العامة في اليوم التالي.

و تزامناً مع هذا الجدل التناقضي بدأ آخر في الظهور بيني و بين قائد الجيش الأول بانزر الكولونيل جنرال "هيوب".

(تولى "هيوب" – كان من المشاة في الحرب العالمية الأولى – القيادة خلفاً للكولونيل جنرال "ماكنسن" في أكتوبر ١٩٤٣ عندما أعطِي الأخير جيشاً في إيطاليا، و كان قد قاد من قبل فيلق بانزر في "ستالينجراد"، و قد لقي مصرعه في حادث تحطم طائرة في ١٩٤٤)

و بينما كان "هيوب" متفقاً معنا على أن موقف الجيش الأول بانزر بات من غير الممكن الدفاع عنه و أنه من الواجب تفادي التطويق المهدد به الآن إلا أنه لم يكن يريد أن يخترق هذا الجيش تجاه الغرب و لكن سحبه جنوباً عبر نهر "دنيستر".

و هذا كان الطريق الأسهل في تلك اللحظة تحديداً، فإن إتخذ الطريق الغربي فسيضطر للقتال شاقاً طريقه للحرية في مواجهة جيشي دبابات سوفييتيين في حين أنه يمكنه الهرب عبر نهر "دنيستر" بدون أن يتورط في أي قتال خطِر حقيقي.

و مع ذلك ظللت غير مؤمن بوجهة نظر الكولونيل جنرال "هيوب"، فأولاً مما لا غنى عنه قيام الجيش الأول بانزر بإعادة تأسيس إتصال مع الجيش الرابع بانزر في الغرب، و إلا كيف يمكن منع العدو من الإختراق صوب "جاليسيا" شمال ممرات "كارباثيا"؟و أفضل ما يمكن حدوثه إن إتخذ هذا الجيش الطريق الجنوبي هو تفادي إمكان إجباره على الإبتعاد نحو الجبال، و لكن حتى هذا كان غير مؤكد، فظاهرياً بدا الطريق المارّ عبر نهر "دنيستر" أقل خطورة من الإثنيين الآخرين، و لكن النظرة الفاحصة القريبة تظهر أنه يقود إلى كارثة، فالجيش لا يمتلك أي معدات إنشاء كباري من أجل عبور النهر بجبهة عريضة، و أي محاولة للعبور بواسطة الكباري القليلة المؤمنة الموجودة حالياً ستعرضه للهجوم عليه بواسطة قوات العدو الجوية بما يفضي إلى خسارة أغلب المعدات الثقيلة، و أسوأ ما في الأمر أن العدو كان بالفعل يتقدم من جنوب شرق نهر "دنيستر" و بالتالي سيقع الجيش الأول بانزر عجلاً أو آجلاً بين شقي رحى متمثلين في

النهر و جيشي الدبابات اللذين كانا يتحضران – عقب قطع خطوط إتصالات الجيش الأول بانزر – لعبور النهر خلفه.

و هكذا أوضحت للكولونيل جنرال "هيوب" أن مجموعة الجيوش لن تسمح لجيشه بالإنسحاب نحو الضفة الجنوبية لنهر "دنيستر" و لكنها ستأمر بالإختراق إلى الغرب، و حتى قبل أن أتوجه للبرجستادين تم منحه أمر تحذيري يقضي بالإتصال مبدئياً بمجموعة القوات الألمانية المتواجدة على نهر "زابروتش" عبر التقدم غرباً.

و بإقلاعي باكراً من "لفيف" صباح يوم ٢٥ مارس وصلت البرجستادين في وقت مؤتمر منتصف اليوم.

و إبان وصفي لموقف الجيش الأول بانزر لـ"هتلر" أكدت على أن جبهتيه الغربية و الشرقية تتعرضا لضغط قوي من العدو و هو ما لا تقدر على تحمله الفرق المنهكة – خاصة بالنظر لعدم مناسبة جسر الإمداد الجوي – على المدى الطويل،و أضفت أنه في الجناح الغربي العميق لهذا الجيش عبر العدو منطقة إتصالاته الخلفية بروؤس حربة مكونة من جيش دبابات متخذاً طريقه عبوراً لنهر "دنيستر" نحو ضفته الغربية و جيش دبابات آخر يتقدم في إتجاه جنوب شرقي عند "كامنسك-بودولسك" في مؤخرة هذا الجيش، و كان العدو أيضاً يتقدم جنوب النهر من جهة الشرق لقطع نهر "دنيستر" في مؤخرة الجيش الأول بانزر.

و قلت أنه في هذا الموقف لا يوجد بديل أمامنا سوى توجيه ضربة نحو الغرب بتشكيلات الجيش من الدبابات بغية تمشيط خطوط إمدادها و إستعادة الإتصال مع الجيش الرابع بانزر، و سيكون من الممكن بواسطة هذه التكتيكات قطع خطوط إمداد جيشي العدو العاملين في مؤخرة الجيش الأول بانزر، و هذا الهجوم الغربي يجب أن تتم تغطيته من ناحية الشرق و شمال الشرق بما يتبقى من قوات الجيش الأول بانزر، و برغم كونها غير قادرة على القيام بذلك على جبهاتها الممتدة حالياً إلا أنه يجب الإبقاء على الجناح الجنوبي لهذا الجيش على نهر "دنيستر".

كما قلت أنني لا يمكنني بأي حال الموافقة على مقترح الكولونيل جنرال "هيوب" بسحب جيشه للضفة الجنوبية لنهر "دنيستر"، فأولاً لأن العمليات جعلت من الضروري تركيز الجيشين الأول بانزر و الرابع بانزر شمال ممرات "كارباثيا"، و ثانياً لأن أي

إنسحاب لجنوب النهر سيؤدي إلى تطويق الجيش الأول بانزر و من ثم إبادته في نهاية المطاف.

و أضفت أن نجاح الإختراق المقترح يعتمد على تقدم متزامن ينفذه الجيش الرابع بانزر من الغرب، و لهذا السبب يجب تعزيز هذا الأخير حالاً.

و رد "هتلر" بأنه غير قادر على تحرير أي قوات لهذا الغرض، و قال أنه طالما ظل من المتوقع وقوع غزو في أوربا الغربية فيجب عدم سحب أي تشكيلات من ذلك المسرح، و قد إعتبر أن فرقنا في المجر لا يمكن سحبها من هناك لأسباب سياسية، و علاوة على ذلك ظل "هتلر" رافضاً الإعتراف بأن أي إختراق نحو الغرب ينفذه الجيش الأول بانزر يستلزم حتماً إنسحاب جبهته في الشرق.

و حدث تغير حاد في علاقتي بـ"هتلر" عندما حاول إلقاء المسئولية عن الوضع السيئ الذي صارت فيه مجموعة الجيوش الجنوبية على كاهلي، و كنت قد علمت منذ أيام قليلة خلت من الجنرال "زيتزلر" أن "هتلر" يتهم مجموعة الجيوش بإهدار الكثير من القوات التي تم تزويدها بها في فترة أشهر، و طلبت من "زيتزلر" إخبار "هتلر" نقلاً عني أن مجموعة الجيوش لم يكن أمامها خيار سوى إشراك تلك الفرق في المعمعة خاصة و أنها وصلت في أغلب الأحيان متأخرة جداً، و لو كان "هتلر" قد أجاب مطلبنا مرة واحدة و منحنا القوات القوية المطلوبة في أغلب الأحيان للجناح الشمالي – حتى لو في وقت ما مستقبلاً – أو منحنا الحرية العملياتية على جناحنا الجنوبي لما كان هناك ما يشكو منه اليوم! و قد إتفق معي "زيتزلر" تماماً، و هذا العامل بالطبع هو ما أثر في مجريات الأمور أكثر من أي شيء آخر منذ العملية "قلعة".

و الآن "هتلر" يؤكد أننا كلنا – مجموعة الجيوش تحديداً – جلّ ما إهتممنا به هو "اللعب على التكتيكات الكبيرة".

و قال أنه في الخريف الماضي أخبِر بأنه سيتم التمسك بنهر "دنيبر"، و بالكاد منحنا موافقته مكرهاً على الإنسحاب لما وراء النهر عندما ظهرت الحاجة لإنسحاب آخر على إثر حدوث إختراق في "كييف"، فرددت بأن الأمور كانت حتماً ستسير في هذا المسار، و هو – أي "هتلر" – الذي إحتجز قواتنا على الجناح الجنوبي للتمسك بمنطقتي نهري "دونتز" و "دنيبر" بدلاً من السماح لنا بتقوية جناحنا الشمالي.

ثمّ أعلن "هتلر" أنه وفقاً لما ورد عن اللوفتافا كان يوجد عدد قليل من دبابات العدو هربت من أمامها جميع الوحدات الألمانية مما تسبب في سحب الجبهة، و لمّا كانت تقارير اللوفتافا تصل لـ"هتلر" بواسطة قائدها الأعلى إفترضت أن "جورينج" ينفس عن كراهيته للجيش مجدداً.

فرددت ببعض الحدة بأنه إن لم يعد ممكناً للقوات التماسك في بعض الأماكن فهذا يُعزى إلى الإرهاق المستمر و الإنهاك الجسدي و المدى الذي بلغه خوار قواها، و إن كانت هناك حاجة لدليل يثبت أن الإفراط في التراخي لم يكن من عيوبنا فيمكن العثور عليه في عدد القادة الكبار الذين إستبدلناهم، و قد أكدت على أن كل أولئك الرجال كانوا بواسل حقاً و جنوداً محنكين و لكن لم يكن ممكناً لأي شخص تقصي الإنهيار في قدرة القوات على المقاومة، و حقيقة إكتساح دبابات العدو للفرقتين الجديدتين المرسلتين للجيش الرابع بانزر ما هي إلا نتيجة التدريب غير المناسب و نقص خبرات المعارك، و قد كان هذا جانباً قمنا بتغطيته في تقاريرنا.

و نظراً لإنعدام أي فائدة من وراء هذا الجدال سعيت إلى حسمه بقول أنني أفترض إتفاقنا جميعاً على حاجة الجيش الأول بانزر إلى حشد مدرعاته و الإختراق صوب الغرب بغية إستعادة الإتصال مع الجيش الرابع بانزر و تحرير منطقة إتصالاته الخلفية، كما أفترض أن مقدار ما يمتلكه هذا الجيش من قوات كافٍ لتغطية العملية للشمال و الشرق – برغم أن تحديد الخط الذي سُينفذ عليه ذلك تم في وقت لاحق، و أصررت على أن وجوب إصدار الأمر للجيش الأول بانزر في نفس اليوم مكرراً أنه لا يمكن توقع تحقيق أي نجاح إن لم يتم وضع الجيش الرابع بانزر في موقع يمكنه من التقدم تجاه الجيش الأول بانزر من الغرب.

و مع ذلك رفض "هتلر" هذا الطلب مجدداً و أمر بإستئناف المحادثات في المؤتمر المسائي، و برغم حدة ردودنا غير المتفقة معه واصل "هتلر" لهجته اللطيفة العادية.

و عقب مغادرتي غرفة الإجتماعات المعتادة المتسمة بإطلالتها الرائعة على "سالزبرج" أرسلت رسالة للجنرال "شمندت" تفيد رغبتي في الحديث معه في الخارج، و طلبت منه إخبار "هتلر" بأنني أعتبر بقائي في قيادة مجموعة الجيوش غير مجدٍ ما لم يوافق على توصياتي، و قلت أنه إن لم يتقبل الموافقة على تصرفاتي فأتمنى أن تُسند قيادة مجموعة الجيوش الجنوبية إلى شخص آخر.

و في عصر هذا اليوم تم توصيل مكالمة هاتفية من رئيس الأركان الجنرال "بوس" لمكتبي في البرجستادين، و قد أبلغني طلب الكولونيل جنرال "هيوب" مرة أخرى على وجه الإستعجال بالإذن له بالتقدم جنوباً عبر نهر "دنيستر" بدلاً عن الإخترق غرباً، و و في المساء تلقيت إشارة أخرى من الجيش الأول بانزر وصف فيها الإختراق غرباً بأنه غير مجدٍ و أصرّ على أن الحل الصحيح هو التوجه جنوباً، و قد طلب مني الآن الجنرال "بوس" – و الذي كان رده سلبياً على الطلب السابق – قراري النهائي، فأمرت بتنفيذ الإختراق كما هو مخطط له.

و عندما ظهرت في المؤتمر وجدت أن مزاج "هتلر" نحوي قد تغير تماماً، و قد إفتتح المؤتمر بالكلمات التالية: **"لقد عكفت على التفكير في الأمر و أوافق على خطتكم المتضمنة أن يقاتل الجيش الأول بانزر شاقاً طريقه إلى الغرب، كما قررت أيضاً بتوفير فيلق بانزر من سرايا الدفاع المكون من الفرقتين التاسعة بانزر و العاشرة بانزر و الذي نشرناه تواً في الغرب إضافة إلى الفرقة ١٠٠ مركبات خفيفة و الفرقة ٣٦٧ مشاة من أجل المجموعة الهجومية المقترحة للجيش الرابع بانزر"**

و قد قلت أنني رفضت في تلك الأثناء طلباً من الكولونيل جنرال "بوس" بالتوجه جنوباً و أصررت على وجوب أن يتوجه جيشه نحو الغرب، و قلت أنني أعتقد إمكان نجاح التقدم لأنه يبدو أن جيشي دبابات العدو قد بعثرا قواتهما في إتجاه نقاط تقاطع نهر "دنيستر"، و بعد ذلك قرأ على الملأ ضابط العمليات العامل معي العميد "شولز-بتجر" نص أمر العملية الذي أصدرته للجيش الأول بانزر.

و بالنظر للتغير غير المتوقع في موقف "هتلر" أردفت ما سبق بفكرة أو إثنتين بشأن الإدارة المستقبلية للعمليات، و قلت أن مهمة مجموعة الجيوش الجنوبية يجب أن تكون إنشاء جبهة مستقرة بين ممرات "كارباثيا" و مستنقعات "بريبت" – في هذا السياق أمرنا الجيش الأول المجري بالتموضع في منطقة "ستيرج" لحراسة التلال الريفية الواقعة بين سلسلة الجبال و نهر "دنيستر العلوي".

و تابعت كلامي قائلاً أنه يتعين منذ الآن فصاعداً وضع الجيش الثامن تحت قيادة مجموعة الجيوش "أ" و التي ستتولى حماية رومانيا، و أما بالنسبة للثغرة بين مجموعتي الجيوش فهي أمر يجب أن نتقبله، و يمكن غلقها عند ممرات "كارباثيا" بواسطة القوات الموجودة في المجر.

ثمّ إقترحت إنشاء قيادة موحدة لتغطية كل القوات الموجودةعلى الجناح الجنوبي بما فيها جيوش الدول الحليفة، و أما فيما يتعلق بالدفاع عن رومانيا فرأيت أنه من حسن التدبير أن يتولى ذلك الأمر المارشال "أنتونيسكو" بالتعاون مع رئيس أركان ألماني، و مع ذلك لم يتقبل "هتلر" تلك الفكرة متعللاً ببساطة أن المارشال سيرفض ذلك لأسباب سياسية.

و عقب تلك المحادثة التي دارت في تناغم – على عكس تلك المنعقدة في منتصف اليوم – و خرج "هتلر" معنا لغرفة الجلوس مستفسراً ما إن كانت هناك وجبة معدة لنا أم لا، و قد إرتسمت على وجهه كل تعابير الرضا الممكنة و هو يقرأ عليّ تعليقاً من الصحافة التركية مفاده أن ألمانيا لم تتدخل بعد في المجر و هي البلد – على حد قول الصحيفة – التي سارت الأمور فيها على غير ما يريده شعبها.

باكراً في صباح ٢٦ مارس حلقت عائداً لمجموعة الجيوش، و كان الجيش الثامن في تلك الأثناء تم وضعه تحت قيادة مجموعة الجيوش "أ".

و في اليوم التالي قمت بزيارة الجيش الرابع بانزر لمناقشة التقدم الذي سينفذه نحو الجيش الأول بانزر بالقوات الجديدة التي وعد بها "هتلر"، و كان الجنرال "راوس" واثقاً من قدرته على إتمام الإتصال بالجيش الآخر على الرغم من أنه لم يكن سعيداً كليةً لما يحدث من أمور على جبهته، فقد تمت محاصرة "تارنابول" التي أعلنها "هتلر" "معقلاً"، و على الجناح الأيسر لهذا الجيش أخذ مصير مماثل يهدد الفيلق الثالث عشر في "برودي" و لكنه عمل على التخلص منه.

و مع ذلك و مع رضوخ "هتلر" لمطالبنا أمكننا أن نتوقع بثقة إخراج الجيش الأول بانزر و جمعه بالجيش الرابع بانزر شمال ممرات "كارباثيا"، و لكن برغم من أن نجاحي في محادثات البرجستادين في ٢٥ مارس ضمن بقاء الجيش الأول بانزر على قيد الحياة إلا أنه ظهر في وقت قريب أن الضغط الذي مارسته على "هتلر" في تلك المناسبة قد جعله كارر للعمل معي، و هو ذات ما ينطبق على الفيلد مارشال "فون كليست" و الذي وصل للبرجستادين بعدي بيومين ساعياً للحصول على أي قرار قاطع بشأن سحب مجموعة الجيوش التي يقودها لنهر "دنيستر السفلي".

في صباح ٣٠ مارس إستيقظت على أنباء بأن الطائرة الـ"كوندور" الخاصة بـ"هتلر" – و التي إلتقطت من قبل "فون كليست" من مقر قيادته – ستحطّ قريباً في "لفيف" لتحمل كلينا إلى البرجستادين، و بينما كنت أنتظر وصولها برفقة "شولز بتجر" و "ستاهلبرج"

في مطار "لفيف" تحدث رئيس الأركان العامل معي مع "زيتزلر" على الهاتف، و قد أفصح الأخير له عن أن "هتلر" سيقرر إعفاء كلٍ منّي و "كليست" من القيادة.

و لما وصلنا البرجستادين تحدثنا أولاً مع "زيتزلر" – حيث لم يرغب "هتلر" في مقابلتنا حتى قبيل المؤتمر المسائي، و أخبرنا "زيتزلر" أنه بعد محادثات البرجستادين الأخيرة بدأ "جورينج" و "هيملر" و ربما "كايتل" يوغرون صدر "هتلر" ضدي، و هذا هو ما أدى – على حسب إعتقاده – إلى قرار "هتلر" بإقالتي أنا و "كليست"، و لمّا أخبره "هتلر" بنيته قدم "زيتزلر" على الفور إستقالته مسبباً إياها بأنه دائماً ما كان يتفق معي و لن يتمكن من الإستمرار في منصبه بعد رحيلي، و قد تم رفض طلبه رغم تكراره في صورة مكتوبة رفضاً قاطعاً، و هذا الموقف الفوري منه يستحق الإثناء عليه.

و وصفاً لآخر مقابلة لي مع "هتلر" أود أن أذكر نص ما كتبته في يومياتي في اليوم التالي :

"قابلت الفوهرر في المساء، و عقب تسليمه إياي وسام صليب الفارس مع السيوف أعلن أنه قرر وضع قيادة مجموعة الجيوش في أيدٍ أخرى "موديل"[1]– حيث أنه قد فات أوان القيام بأي عمليات كبيرة في الشرق و التي كنت مؤهلاً لها، و قال كل ما نبغيه الآن هو التشبث بصلابة شديدة بما نمسك به، و هذا النوع الجديد من القيادة يجب أن يُدشَن بإسم جديد و رمز جديد، لذا فالتغيير سيكون في قيادة مجموعة الجيوش – و التي إنتوى هو تغيير إسمها أيضاً.

و قد رغب "هتلر" صراحة في قول أنه لا يوجد أدنى مشكلة ثقة بيني و بينه كما هو الحال بالنسبة لبقية الفيلد مارشالات الذين ذكر أسماءهم قبلي،و هو ما يزال يؤمن تماماً بي بصرف النظر طبعاً عن النقد الذي وجهته حول أسلوب قيادة مجموعة الجيوش، فهو كان على إتفاق تام معي، و مع ذلك أدرك "هتلر" في نفس الوقت أن مجموعة الجيوش وقع عليها عبء مسئولية مبالغ فيه خلال فترة عام و نصف و يبدو الآن أنها في حاجة للراحة، و هو يعلم أنني أكثر قادته قدرة و لهذا السبب كان قد إنتوى منحي منصباً آخر منذ زمن طويل، و مع ذلك لك يكن هناك أي مجال لي في تلك اللحظة في الشرق، و قد إعتبر أن "موديل" هو الأنسب لتولي شئون المهام المُحضر

[1] فالتر موديل: ضابط ألماني عاش بين ١٨٩١ – ١٩٤٥.

لها هناك – و كان "موديل" هذا قد أوقف تراجعاً صعباً في مجموعة الجيوش الشمالية،و مجدداً بعد طمأنتي بعدم وجود أي أزمة ثقة بيننا أضاف الفوهرر أنه لن ينسى الفترة السابقة على الحملة على الغرب حين كنت الرجل الوحيد الذي نصحه بإمكانية حسم القضية برمتها في الغرب بواسطة الإختراق في سيدان.

و رداً علي الفوهرر أخبرته أنني لا يمكنني الإعتراض إن ظن هو أنه سيكون قادراً على العمل على نحو أفضل مع قائد آخر لمجموعة الجيوش في الموقف الراهن، و فوق ذلك لا أظن أن هناك ضرراً كبيراً سيلحق بي جرّاء تسليم القيادة لـ"موديل" الآن خاصة و أنه تم إتخاذ القرارات المتعلقة بتحرير الجيش الأول بانزر بالفعل – جزء منها بقرار "هتلر" بجلب فيلق بانزر من سرايا الدفاع من الغرب و جزء آخر بالأمر الصادر مني لهذا الجيش بأن يقاتل ليشق طريقه للخروج شمال نهر "دنيستر"، و قلت أن ذلك يتضمن على العموم ما يتوجب على مجموعة الجيوش فعله في التو و اللحظة، و المهمة الوحيدة المتبقية أمامها هي أن تساعد القوات المقاتلة و تمنحها الدعم المعنوي، و "موديل" هذا سيكون قادراً على ذلك.

و قد إتفق الفوهرر تماماً على أن "موديل" هذا مناسب على وجه خاص في هذا المجال بإعتباره سيقوم بالدوران حول الفرق مُخرجاً أفضل ما لدى القوات، و قد رددت على هذا بأن فرق مجموعة الجيوش تقدم أفضل ما لديها منذ زمن و لا يمكن لأي شخص أن يُخرج منها أكثر مما فعلت أنا"

و مهما كان ما يعتقده المرء حول ملاحظات "هتلر" المتنوعة بشأني خلال ما قُدّر أن يكون آخر لقاء لي له إلا أنه إختار أن يعطينيها على نحو متدرج، و هذا يرجع في جزء منه لإصرار "زيتزلر" على أن "هتلر" مدين بأن يخبرني و "كليست" على إنفراد بدوافعه لإعفائنا من القيادة، و كنت على وعي تام بسعي "جورينج" و "هيملر" منذ الزمن للتخلص مني، و لكن السبب الرئيسي لقرار "هتلر" هو حقيقة أنه إضطر للرضوخ لي في ٢٥ مارس عندما رفض بالفعل مقترحاتي أمام حضور حاشد، و أثناء مصافحته لي قبل مغادرتي قلت له : **"أنا واثق سيدي الفوهرر أن الخطوة التي إتخذتها اليوم لن تترك أي آثار غير مرغوبة"**

تمت إقالة الفيلد مارشال "فون" كليست" بعدي بطريقة مماثلة، و أثناء مغادرتنا البرجستادين وجدنا خلفاؤنا ينتظرون بالفعل وراء الباب – و هم الكولونيل جنرال

"موديل" و الذي سيتولى قيادة مجموعة الجيوش الجنوبية (تم تغيير إسمها لمجموعة جيوش شمال أوكرانيا) و الجنرال "شورنر"[١] الذي سيحل محل "كيست".

و في الصباح التالي طرت عائداً إلى "لفيف" على متن طائرتي الـ"يانكر يو ٥٢"، و قد أجبرت عاصفة ثلجية خليفتي على أن يهبط إضطرارياً في "كراكوف" و نتيجة ذلك تمكنت من إصدار آخر أمر لمجموعة الجيوش لضمان التعاون بين جيشي البانزر في عملية الإختراق التي بدأت تواً، و في عصر ذلك اليوم قمت بزيارة الجيش الرابع بانزر لمناقشة توظيف فيلق بانزر من سرايا الدفاع مع قائد الجيش و لوداعه أيضاً، و أما وداعي لبقية قادة الجيش فكان كتابةً.

و في عصر الثاني من أبريل سلمت زمام القيادة لخليفتي و الذي وصل تواً إلى "لفيف"، و كما يمكن لأي شخص أن يرى، تم ضمان تنفيذ التدابير الخاصة بتخليص الجيش الأول بانزر و تجميع كلا الجيشين – و هو الأمر الحاسم بالنسبة للموقف العام – بين ممرات "كارباثيا" و مستنقعات "برايبت" حتى لو ظل يتضمن خوض بعض القتال المرير.

و في الخامس من أبريل بدأ الجيش الرابع بانزر تحركه إلى الشرق طبقاً لما هو مقرر و بحلول التاسع من أبريل تم تحرير الجيش الأول بانزر.

و ما يزال عليّ أن ألقي تحية الوداع على طاقمي و لم أكن الوحيد الذي يشعر بصعوبة الفراق، فقد رافقوني أولئك الرفقاء في السلاح خلال إنتصارات معارك القرم كما عايشوا معي النجاح النهائي لحملة شتاء ٤٣/١٩٤٢ الشاقة و وقفوا بجانبي أثناء الشهور الحرجة في عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٤، و مما يثير عميق الحزن معرفة مدى قوة الثقة بيننا التي ترعرعت في تلك السنين و الحزن الشديد الذي يشعرون به و قد إنتهى عملنا معاً، و أشعر بأني مخول لقول ذات ما قاله قادة الجيش الذين خدموا تحت قيادتي.

لقد صُعق طاقمي بنبأ إقالتي، و قدم معاونيّ الأقربون – رئيس الأركان و رئيس العمليات و مساعد ضابط المؤن و مساعد القائد العام – طلبات لنقلهم، و قد تمت الموافقة على طلباتهم برغم أن الجنرال "بوس" إستمر لفترة لحفظ دوام العمل.

[١] فرديناند شورنر: ضابط ألماني عاش بين ١٨٩٢ -١٩٧٣.

و بالنسبة لي كانت إقالتي تحريراً لي من مسئولية ما إنفك تحملها يزداد صعوبة في ظل الظروف التي شرحتها من قبل.

و ما كان حملاً أثقل عليّ و على طاقمي – لن أخوض في الحديث عن قادة و طواقم الجيوش التابعة لنا – هو الصراع المستديم الذي إضطررنا لخوضه مع القيادة العليا لجعلها على وعي بالضرورات العملياتية.

إن طلباتنا المتكررة بشأن إنشاء نقطة تركيز واضحة للمجهود في النقطة الحاسمة لهذه الحملة – تحديداً الجناح الشمالي لمجموعة الجيوش – و حرية الحركة العملياتية ما هي إلا تجسيداً ظاهرياً بسيطاً لهذا الصراع، أما القضية الرئيسية فتكمن في الإختلاف بين مفهوميّ الإستراتيجية و التكتيكات الكبيرة غير المترادفين لدى كلٍ من:

١. "هتلر" و الذي نبت مفهومه حوليهما من سماته الشخصية و آرائه التي ناقشناها بالفعل في فصل يتعلق به كقائد أعلى.
٢. قيادة مجموعة الجيوش الجنوبية التي تستند في مفهومها عنهما إلى المبادئ التقليدية و الآفاق التي تؤمن بها هيئة الأركان العامة الألمانية.

فمن ناحية نجد هناك دكتاتوراً يؤمن بقوة إرادته ليس فقط في توجيه جيوشه حيثما يريد و لكن في إبقاء العدو تحت السيطرة أيضاً، و مع ذلك فإن هذا الدكتاتور الذي كان يخجل من تقبل أي مخاطر لتأثيرها السلبي على مظهره و الذي – برغم مواهبه أجمعها – كان يفتقر للأساس الذي تقوم عليه القدرة العسكرية الحقيقية.

و من ناحية أخرى نجد وجهات نظر قادة عسكريين و الذين بحكم دراستهم و تدريبهم ظلوا يؤمنون في رسوخ بأن الحرب ما هي إلا "فن" يشكل وضوح التقدير و جرأة القرار عنصريه الأساسيين، و هو "فن" يكمن مفتاح نجاحه فقط في العمليات الحركية – لأنه فيها فقط تحصل القيادة و القوات الألمانية على تفوقها بكامل تأثيره.

و مع ذلك فمن المنصف أن نضيف أن ذلك راجع إلى أن نوع العمليات التي تفكر فيها مجموعة الجيش كان ليدفع "هتلر" إلى تقبل مخاطر كبيرة في مسارح الحرب الأخرى و قطاعات الجبهة الشرقية الأخرى إلى جانب تداعيات خطيرة تحدث في المناخ السياسي و الإقتصادي، و على الرغم من ذلك فإن هذا كان هو الطريق الوحيد

لإستنزاف القوة الهجومية السوفيية في ١٩٤٣ و بالتالي تمهيد الطريق لفرض حالة الجمود السياسي على المشهد في الشرق.

و حتى لو لم تكن مجموعة الجيوش ناجحة بشكل كبير في نضالها للوصول لسياسة عملياتية مختلفة – و بالتالي إنخدعت في في إيمانها بقدرتها على التعامل مع العدو – إلا أنها ما تزال تمتلك إنجازاً واحداً في رصيدها، فالعدو لم يفلح في تطويق كامل الجناح الجنوبي و هو الأمر الذي أتاح الموقف العملياتي و التفوق العددي الهائل فرصاً كبيرة له أمام العدو، فمجموعة الجيوش الجنوبية قد حافظت على وجودها في الميدان برغم نزيفها المتدفق من آلاف الجرحي.

و أعظم إنجاز مرضي على الإطلاق لي و لطاقمي هو أننا ظللنا في هذا الصراع غير المتكافئ مع عدو متفوق – و كذلك مع قيادة عليا لم تكن تعي ما كان متوقعاً بشكل واضح – متمكنين من تجنيب القوات العاملة تحت قيادتنا مصير "ستالينجراد"، فقد ظل من الممكن في "تشيركاسي" – و الآن بالنسبة للجيش الأول بانزر – حرمان العدو من فريسة إطمأن لوقوعها في قبضته.

و ما جعل أمر تسليم القيادة عليّ شاقاً هو حقيقة أنني لم أعد قادراً على مساعدة القوات التي كانت دوماً تثق بقيادة مجموعة الجيوش.

و قدغادرت مقر القيادة في "لفيف" في الثالث من أبريل ١٩٤٤، و قد توافد على المحطة كل الرفقاء المخلصين لوداعي، و ما إن بدأ القطار بالتحرك حتى ناداني شخص ما هو قائد الطائرة الخاص بي الملازم "لانجر" – و هو الرجل الذي طار بي في أمان في ظل ظروف جوية لا يمن تخيلها، و هو الآن تطوع كمقاتل حامل للسلاح – و هو ما سيكلفه حياته عن قريب، و بالنسبة لي كانت كلناته آخر تحية من رفقائي.

باكياً قال: **"سيدي الفيلد مارشال! اليوم ننزع درع القرم[١] عن الطائرة"**

[١] درع القرم : هو شارة صدرت عن ألمانيا النازية تكريماً للقوات التي عملت في حملة القرم و عددها قرابة ٢٥٠ ألف ضابط و صف و جندي، صدر في يوليه ١٩٤٢.

ملاحق

١

محطة جومارك

من قائد الجيش السادس ٢٦ نوفمبر ١٩٤٢

(كُتبت على يد ضابط)

الفيلد مارشال فون مانشتاين

قائد مجموعة الجيوش دون

عزيزي الفيلد مارشال:

أود أن أعلمكم بإحاطتنا بإشارتكم المرسلة بتاريخ ٢٤ نوفمبر و أشكركم على المساعدة التي عرضتم منحنا إياها.

و لمساعدتكم في صدد تقدير وضعي أذكر التالي:

١. عندما بدأت الهجمات الروسية واسعة النطاق على ميمنة الجيش و ميسرته في ١٩ نوفمبر تم كشف كلا الجناحين في غضون يومين و إخترقتهما بسرعة قوات سوفييتية متحركة، و عندما تم سحب تشكيلاتنا المتحركة {الفيلق ١٤ بانزر} غرباً عبر نهر دون إمتدت رؤوس حربتها لتجد نفسها أمام قوات معادية متفوقة غرب النهر، و هذا وضعها في موقف بالغ الصعوبة و خصوصاً بالنظر لكون حركتها قد صارت مقيدة لنقص الوقود، و بشكل متزامن تحرّك العدو صوب مؤخرة الفيلق الحادي عشر و الذي تمسك بمواقعه تجاه الشمال بناء على أوامر، و حيث أنه لم يعد من الممكن سحب أي قوات من

الجبهة لمواجهة هذا الخطر لم يكن أمامي خيار سوى سحب الجناح الأيسر للفيلق الحادي عشر جنوباً و سحب الفيلق بأكمله تبعاً لذلك لرأس كوبري غرب نهر دون كي لا تنفصل العناصر الموجودة على هذا الجانب عن جسدها الرئيسي.

و إثناء تنفيذ تلك الإجراءات تسلمنا أمراً من الفوهرر يقضي بشن هجوم على دوبرينسكايا بالجناح الأيسر للفيلق ١٤ بانزر، و هذا الأمر تغلبت عليه الأحداث و لم يتوافق معها.

٢. باكراً في صباح ٢٢ نوفمبر تم وضع الفيلق الرابع – و الذي كان تابعاً حتى اللحظة للجيش الرابع بانزر – تحت قيادتي، و كان جناحه الأيمن ينسحب من الجنوب إلى الشمال عبر بوزنوفكا و هو ما يعني إنكشاف كامل الجناحين الجنوبي و الجنوب شرقي، و لمنع الروس من التقدم بأمان خلال مؤخرة الجيش تجاه ستالينجراد لم يكن أمامي خيار سوى سحب قوات من المدينة و الجبهة الشمالية، و كانت هناك إحتمالية أن تصل تلك القوات في موعدها في حين أنها لا يمكنها القيام بذلك إن تم سحبها من المنطقة الواقعة غرب نهر دون.

و قد نجح الفيلق الرابع مستخدماً القوات المزود بها من جبهة ستالينجراد في بناء جبهة جنوبية ضعيفة بجناحه الغربي في مارينوفكا، و مع ذلك تم إختراقها عدة مرات في ٢٣ نوفمبر و ما تزال النتيجة غير مؤكدة، و في عصر يوم ٢٣ نوفمبر تم الكشف عن مدرعات معادية قوية – تتضمن فقط ١٠٠ دبابة – في المنطقة الواقعة غرب مارينوفكا، و في المنطقة بين مارينوفكا و نهر دون بأسرها إنعدم تواجد أي شيء بإستثناء حواجز ألمانية هشة، و يقع الطريق إلى ستالينجراد أمام الدبابات الروسية و المشاة الميكانيكية مفتوحاً و هو ما ينطبق كذلك على الجسر الواقع على نهر دون في بيستكوفاتكا.

لم أتسلم خلال الستة و ثلاثين ساعة الماضية أي أوامر أو تعليمات من المستويات العليا، و خلال ساعات واجهت الموقف التالي:

أ. إما أن أظل في موقعي على الجبهتين الغربية و الشمالية و أرى عما قريب الجيش يُهاجم من الخلف – و هي الحالة التي أكون فيها ملتزماً بالأمر الصادر لي – أو،

ب. أقوم بإتخاذ القرارالوحيد الممكن بالإلتفاف لمواجهة العدو الموشك على طعن الجيش في الظهر، و في هذه الحالة الأخيرة – بوضوح – لن يعد من الممكن التمسك بالجبهتين الشرقية و الشمالية إلا بتنفيذ إختراق في إتجاه جنوب غربي.

و في الحالة (ب) يتعين عليّ أن أقرّ أنني سأكون منصفاً وفقاً لما يتطلبه الموقف و لكنني سأكون مذنباً بعصيان أمر للمرة الثانية.

٣. و في هذا الموقف الصعب أرسلت إشارة للفوهرر أطلب منه منحي حرية القيام بهذا القرار النهائي إن إقتضت الضرورة ذلك، و أريد الحصول على هذه السلطة للتحوط من حدوث إتخاذ القرار الممكن الوحيد و لكن بعد فوات الأوان.

لا أمتلك وسائل إثبات أنني سأصدر هذا القرار في حالة الطوارئ القصوى فقط و أستطيع فقط طلب موافقكتم على ذلك.

و لكنني لم أتسلم أي رد مباشر على تلك الإشارة، و من جهة أخرى تسلمنا اليوم الإشارتين المرفقتين (لم تعدا متاحتين ....الكاتب) من *القيادة العليا للجيوش الألمانية* و اللتين تقيدانني أكثر.

و في هذا السياق أذكر أنني و كل قادة التشكيلات عازمون على التماسك حتى النهاية، و مع ذلك فبالنظر إلى مسئوليتي أمام الفوهرر عن الثلاثمائة ألف رجل المعهود لي قيادتهم سيكون من المُقدّر سبب طلبي هذا الإذن بإتخاذ التصرف المناسب في حالة الضرورة، و هذا الموقف المشروح أعلاه يمكنه أن يظهر مجدداص في أي يوم أو ساعة.

موقف اليوم يُعرض أمامكم الآن بالخريطة، و حتى لو كان من الممكن تحريك قوات أكثر إلى الجبهة الجنوبية الغربية فسيظل الموقف هناك متوتراً، و قد خففت الجبهة الجنوبية {الفيلق الرابع} بشكل ما من حدته و دحرت هجمات مشاة العدو و دباباته خلال الأيام القليلة الماضية برغم من تكبدها خسائر كبيرة و إهدار كبير للذخيرة.

إن جبهة ستالينجراد تقاوم يوماً بيوم ضغط العدو القوي، فعلى الجبهة الشمالية توجد مشكلة في الركن الشمالي الشرقي {الفرقة ٩٤ مشاة} و على الجناح الغربي {الفرقة ٧٦ مشاة}، و كما أرى فإن الهجمات الرئيسية على الجبهة الشمالية لم تصل بعد بإعتبار أن

العدو يمتلك هناك طرقاً و سكك حديدية لجلب التعزيزات، و ستكون مشكلتي في الأيام القليلة القادمة إيصال التعزيزات للجبهة الشمالية من جهة الغرب.

و قد أحضر جسر الإمداد الجوي في الثلاثة أيام الماضية فقط جزءً من أدنى حد مطلوب (٦٠٠ طن على متن ٣٠٠ طائرة يانكر)، و قد تقود الإمدادات في الأيام القليلة القادمة إلى أزمة بالغة الخطورة.

و مع ذلك ما أزال أؤمن بقدرة الجيش على التماسك لبعض الوقت، و من جهة أخرى و حتى لو تم فتح مجرد ممر لي فلا يزال من غير الممكن الفصل في ما إن كان الضعف المتزايد يومياً بجانب نقص المواد الخام و الخشب اللازم لأعمال البناء و التدفئة سيسمح بالتمسك بالمنطقة المحيطة بستالينجراد لأي فترة من الوقت.

و لكوني أتعرض لسيل جارف يومياً من الإستفسارات بشأن المستقبل فسأكون ممتناً إن زودتموني بمعلومات أكثر مما هو متاح حتى اللحظة لكي أزيد من الثقة لدى رجالي.

و إسمحوا لي بالقول سيدي الفيلد مارشال أنني أعتبر قيادتكم ضمان بالقيام بكل شئ ممكن لمساعدة الجيش السادس، و من جانبهم ينضم قادتي و قواتي الباسلة في القيام بأي شيء يبرر ثقتكم بنا.

المخلص لكم

باولوس

رجاء، أتمنى منكم في ظل الظروف الحالية التغاضي عن قلة الورق و حقيقة أن هذا الخطاب كُتب بخط اليد.

٢

سري للغاية

على يد ضابط فقط ٩ ديسمبر ١٩٤٢

إلى: رئيس أركان القيادة العليا للجيوش الألمانية

رئيس فرع العمليات بالقيادة العليا للجيوش الألمانية

تقدير للموقف

١. معلومات عن العدو:

لقد أشرك العدو قوات أكثر قوة ضد مجموعة الجيوش في الأيام العشرة الأخيرة، و يشتمل هذا أساساً على الإحتياطات المتوقعة من جانبنا في ٢٨ نوفمبر، بل يتضمن ايضاً قوات إضافية، و مجموع القوات التي تعرفت عليها مجموعة الجيوش هو:

٨٦ فرقة مشاة

١٧ لواء مشاة

٥٤ لواء دبابات

١٤ لواء مشاة ميكانيكي

١١ فرقة خيالة

بما مجموعه ١٨٦ تشكيل.

و بالإضافة لتلك القوات تعرفنا على ١٣ فوج دبابات و كتيبة دبابات و ألوية مضادة للدبابات مستقلة.

و فيما يلي وضع قوات العدو تلك:

أ. المحاصرة لمنطقة حصن ستالينجراد:

- جبهة نهر فولجا: الجيش الثاني و الستون (ثمان فرق مشاة و ثلاث ألوية مشاة و لواء دبابات، و في الإحتياط لوائي دبابات و لوائي مشاة ميكانيكي)

- الجبهة الشمالية: الجيشان السادس و الستون و الرابع و العشرون (١٧ فرقة مشاة و لواء مشاة ميكانيكي، و في الإحتياط أربعة ألوية مشاة و أربعة ألوية دبابات)

- الجبهة الغربية: الجيشان الخامس و الستون و الحادي و العشرون (عشر فرق مشاة و سبعة ألوية دبابات و لوائي مشاة ميكانيكي و خمسة أفواج دبابات و لواء مضاد للدبابات، و في الإحتياط أربعة ألوية دبابات)

- الجبهة الجنوبية: الجيشان الخامس و السبعون و الرابع و الستون (سبع فرق مشاة و ستة ألوية مشاة و ستة ألوية دبابات و ستة ألوية مشاة ميكانيكي و فوجا دبابات، و في الإحتياط فرقتا مشاة و لوائي مشاة و خمسة ألوية دبابات و لواء مشاة ميكانيكي، و في الإحتياط خمسة أفواج مشاة ميكانيكي)

في الأيام العشرة الأخيرة هاجم العدو الجبهات الجنوبية و الشمالية و الغربية، و كان ضغطه الرئيسي واقعاً بلا شك على الجبهة الغربية حيث كان ضعيفاً نسبياً على الجنوبية.

ب. يتم تغطية الهجوم السوفييتي على ستالينجراد في الجنوب الغربي – تحديداً غرب نهر دون - على جبهة نهر تشير بواسطة الجيش الخامس دبابات (١٢ فرقة مشاة و خمس فرق خيالة و فرقتا خيالة محمولة و أربعة ألوية دبابات و فوج دبابات و لوائي مشاة ميكانيكي، و في الإحتياط فرقتا مشاة و أربعة ألوية دبابات و لواء مشاة ميكانيكي)، و في الشمال – مواجهة لمجموعة هوليدت – توجد ثلاث فرق مشاة أخرى.

مغطياً الهجوم في إتجاه جنوبي – شرق نهر دون – يوجد الجيش الخامس و الخمسون (أربعة فرق مشاة و أربعة فرق خيالة و لواء دبابات و لواء مشاة ميكانيكي، و في الإحتياط لواء دبابات و لواء مشاة)، و لا يزال سبب حشده قوات ميكانيكية أكثر خلف هذه الجبهة غير واضح.

ج. كشفت الإستطلاعات خلال الأيام الأخيرة عن عملية إنزال قوات شرق ستالينجراد و تحركات قوات عبر نهر دون صوب الجنوب أمام الجبهة الشرقية لمجموعة هوليدت، و في حين ظلت الجبهة السوفييتية المغطية شرق نهر دون خاملة – ربما بسبب عدم إكتمال الحشود الميكانيكية في المؤخرة بعد – هاجم العدو عبر نهر تشير بقوة رأس كوبري تشير و غرب محطة السكك الحديدية، و بناء على التحركات من الشمال للجنوب التي تتم أمام مجموعة هوليدت ينبغي علينا أن نتوقع تمديد هذا الهجوم أبعد نحو الغرب.

د. لقد خسر العدو بلا شك في القتال حتى تاريخه قدر كبير من مدرعاته و لكنه ما يزال قادراً حتى اللحظة على سد الثغرات بواسطة جلب أفواج دبابات جديدة ....إلخ،و ظلت القوة الهجومية لمشاته منخفضة و تزايد تأثير مدفعيته بدرجة ملحوظة خاصة على الجبهة الشمالية لستالينجراد.

٢. معلومات عن قواتنا الخاصة:

أ. الجيش السادس : تصدى الجيش لكل هجمات العدو بالرغم من تكبده خسائر فادحة، و تم تقديمتقرير خاص بشأن قوته القتالية الحالية، و فيما يلي نسبة المخزون من الذخيرة بأنواعها في الخامس من ديسمبر:

نوع الذخيرة حسب العيار	نسبة المخزون منها
٥ سم، للمدافع التي تجرها مركبات	٥٩ %
٧.٥سم، للمدافع التي تجرها مركبات	٣٩.٤ %
٨ سم ، مورتر	٣٠.٨ %
مدفع خفيف للمشاة	٢٨ %
مدفع ثقيل للمشاة	٢٥ %
١٥ سم، مورتر	٢٥ %
هاوتزر خفيف	٣٤ %
١٠ سم، للمدفع ١٩	٢١.٦ %
هاوتزر ثقيل	٣٦ %

إن المؤن بمخزونها الحالي ستكفي – مع إنخفاض نصيب الفرد لمستوى ٢٠٠ جرام من الخبز- حتى ١٤ ديسمبر بالنسبة للخبز و ٢٠ ديسمبر بالنسبة لوجبة منتصف اليوم و ١٩ ديسمبر بالنسبة لوجبة المساء.

و برغم الجهود النموذجية للوفتافا إلا أن أكبر جسر إمداد وصلنا حتى تاريخه بلغ ٣٠٠ طن و ذلك في السابع من ديسمبر بسبب الطقس السيئ، و من بين ١٨٨ طائرة مستخدمة ذاك اليوم تم إسقاط إثنتين و أخفقت تسع في العودة، و في كل الأيام الأخرى تباين قدر حمولة الإمدادات المنقولة بين ٢٥ طن (في ٢٧ نوفمبر) و ١٥٠ طن (في الثامن من ديسمبر) في حين أن الحد الأدنى للمطلوب يومياً هو ٤٠٠ طن.

ب. الجيش الرابع بانزر: إن نشر الفيلق السابع و الخمسين لم يكتمل حقيقة حتى العاشر من ديسمبر بدلاً من الثالث من ديسمبر كما كان مأمولاً بسبب تعطل العناصر المتحركة التابعة للفرقة ٢٣ بانزر، و تم إلقاء الفيلق ٤٨ بانزر (الفرق ٣٣٦ مشاة و ١١ بانزر و الثالثة لوفتافا ميدانية) بداءة على جبهة نهر تشير لإستعادة الموقف هناك، و ما تزال المعركة جارية.

ج. التشكيلات الرومانية: ما زال الجيش الرابع الروماني – الموجود شمال الفرقة ١٦ مشاة ميكانيكي – متماسكاً، و مع ذلك لا يمكن توقع مقاومته هجوماً من أي قوة من جهة الشمال خاصة و أنه امره المارشال أنتونيسكو بتفادي التعرض للتطويق، و بالنسبة للجيش الثالث الروماني - بصرف النظر عن الفيلق الأول الروماني التابع لمجموعة هوليدت حالياً – لم تتعد القوة القتالية لبقايا الفرق الرومانية قوة كتيبة واحدة أو إثنتين، و لا توجد أي مدفعية تستحق الذكر، و لنقص الأسلحة لم تتمخض عن إعادة تكوين التشكيلات في المناطق الخلفية أي نتائج جيدة، و يجب كذلك مواجهة أن طواقم التشكيل الروماني لا يعملون بنشاط، و هم يعزون هزيمتهم للقوة القاهرة و التي يعتبرون القيادة الألمانية من ضمنها، أما بالنسبة للبقية فتتولى وحدات طوارئ التمسك بكامل جبهة الجيش الثالث الروماني،و بالنظر إلى غياب المدفعية و المدافع المضادة للدبابات يجب ألا يكون هناك أي إلتباس حول قدرة هذه الجبهة على التماسك لأي فترة من الوقت إن هاجمها العدو بقوة – بقوات مدرعة تحديداً، و هذا التشكيل المتنافر من القوات- و التي لا يوجد ما يربطها معاً من الداخل – يجب أن يتم إحلاله بوحدات قتالية مناسبة في وقت قريب حيث أنه لا تكوينه و لا كفاءته القتالية تؤهله للدفاع عن الجبهة، و بجانب ذلك لا

يمكن مواصلة إبعاد تلك الوحدات المتخصصة من مناطق الإتصالات عن وظيفتها الصحيحة بدون المساس بالوضع العام من حيث الإمدادات.

٣.نوايانا:

إنتوت مجموعة الجيوش - كما تم الإبلاغ عنه بالفعل – الهجوم في أقرب وقت ممكن بواسطة الجيش الرابع بانزر لإنشاء الإتصال مع الجيش السادس، و مع ذلك تمنع في ذلك الوقت ليونة التربة أي تقدم ينفذه الفيلق ٥٧ بانزر، و ما يزال من غير المؤكد مدى إمكان تحرير الفيلق ٤٨ بانزر على جبهة نهر تشير، و سيكون من الضروري إستخدام الفرقة ١٧ بانزر في الهجوم و قد أعطيت أوامر لتحقيق ذلك، و نظراً لكونه أمراً واجباً أن يُتوقع تمديد العدو هجماته في وقت قريب على جبهة نهر تشير في الإتجاه العام نحو موروسويفسكايا يتعين على مجموعة هوليدت التعاون لتخفيف الضغط على جبهته سواء بالهجوم تجاه بيريلاسوفسكي أو تسليمه فرقة ألمانية واحدة.

٤. نتائج عامة:

إن حجم القوات التي أحضرها العدو ضد مجموعة الجيوش دون يجعل من الواضح أنه يرى نقطة تركيز جهده الرئيسي هنا، و سيقوم بمواصلة الصراع في هذا القطاع لأطول فترة ممكنة بجلب قوات من الجبهات الأخرى.

و بغض النظر عن الكيفية التي قد يتطور بها وضع الجيش السادس في المستقبل القريب إلا أنه ما يزال ضرورياً المحافظة على تدفق ثابت من التعزيزات لمجموعة الجيوش دون، و مما هو حاسم الهمية في هذا السياق هو القيام بكل شيء لرفع معدل وصولها، فوفقاً للمعدل الحالي سنظل دائماً خلف الروس، و أنا أعتبر أنه من الأساسي القيام بكل شيء في سبيل إستعادة منفعة الجيش الروماني خصوصاً بالنظر إلى رغبته في القتال و ثقته في القيادة الألمانية.

و أما بالنسبة لمسألة ما إن كان يتوجب إخراج الجيش السادس من الجيب بمجرد إعادة إنشاء الإتصال من عدمه فأنا أعتبر أنه من الواجب مراعاة العوامل التالية:

أ. إن تم ترك الجيش في منطقة الحصن فمن الممكن تماماً أن يربط الروس أنفسهم هنا مستنزفين تدريجياً قوتهم البشرية في هجمات لا طائل منها، و في نفس الوقت يجب مواجهة أنه يتوجب إستمرار حياة الجيش السادس و أن يقاتل في ظل ظروف ليست في

صالحه في الحصن و أنه إن ظلت النسبة الحالية للقوات كما هي لفترة أطول فسيتم فقدان الإتصال مجدداً، و في أحسن الظروف يتعين علينا إفتراض عدم وقوع أي تغيير جذري في الأسابيع القليلة القادمة.

ب. من ناحية أخرى يجب على المرء أن يسمح بإمكانية إتخاذ الروس للقرار المناسب و – أثناء صيانتهم لتطويقهم ستالينجراد – شن هجمات قوية ضد الجيشين الثالث و الرابع الرومانيين مستهدفين بلوغ روستوف، و إن حدث هذا فستصير غالبية قواتنا الحيوية بلا جدوى عملياتياً داخل الحصن أو مكبلة للإبقاء على الرابط به مفتوحاً في حين ستكون للروس حرية التصرف على طول الجبهة الباقية لمجموعة الجيوش، و إستمرار ذلك الموقف خلال الشتاء يبدو لي أمراً غير مناسب.

ج. إن لازمة أي قرار بإستبقاء الجيش السادس في ستالينجراد يجب أن تكون قراراً بأن يخوض معركته حتى النهاية، و هذا سيستلزم:

١. تزويد الجيش السادس بقوات إضافية للإبقاء على قدرته – في صورة فرق لوفتافا ميدانية و التي ستكون مدمجة في تشكيلاته الحالية.

٢. التعزيز المبدئي للجبهات المرتبطة للجيشين الثالث و الرابع الرومانيين بقوات ألمانية بإعتبار أن تلك الجبهات لا يُضمن التمسك بها بواسطة بقايا القوات الرومانية و الوحدات المخصصة لهذا الغرض.

٣. شن هجوم شامل بمجرد سماح حالة قواتنا بذلك.

و مدى القدرة على إتاحة القوات المطلوبة في وقت قصير هي أمر لا أستطيع البت فيه.

فون مانشتاين

فيلد مارشال

قائد مجموعة الجيوش دون

٣

على يد ضابط فقط

تم إصدار ثلاث نسخ

النسخة رقم ٣

سري للغاية

١٩ ديسمبر، الساعة ١٤:٣٥

إلى رئيس أركان الجيش

تقدم فوراً إلى هتلر

بالتزامن مع التطورات الحادثة في مجموعة الجيوش ب و نتيجة لحقيقة إيقاف هذه التطورات وصول أي قوات أخرى فإن موقف مجموعة الجيوش دون الآن هو أنه لا يمكن توقع إنقاذ الجيش السادس في المستقبل القريب.

و حيث أن جسر الإمداد الجوي صار غير ممكن بسبب حالة الطقس و عدم مناسبة القوات المتاحة (و هو ما يعني – كما أظهرته أسابيع الحصار – أنه لا يمكن الحفاظ على الجيش وهو في منطقة الحصن) و بإعتبار أن الفيلق ٥٧ بانزر لا يستطيع قطعاً الإتصال بنفسه بالجيش السادس على الأرض – بتكليفه لوحده بالإبقاء على الممر مفتوحاً – فأنا أرى الأن الخروج إلى الجنوب الشرقي هو آخر وسيلة ممكنة للحفاظ على الأقل على الكتلة الرئيسية من القوات و العناصر المحتفظة بحركيتها من الجيش السادس.

و يمكن أن يحدث الإختراق – هدفه الأول يجب أن يكون تأسيس الإتصال مع الفيلق ٥٧ بانزر في قطاع بيريك ميشكوفا – فقط بواسطة نقل قوات من الجيش السادس بالقوة تجاه الجنوب الغربي و التخلي عن الأرض قطاعاً قطاعاً في شمال منطقة الحصن أثناء تنفيذ هذه العملية.

و طالما ظلت هذه العملية قيد التنفيذ يكون من اللازم حماية جسر الإمداد الجوي بغطاء توفره المقاتلات و القاذفات.

و حيث أنه توجد حتى الآن علامات ضغط العدو على الجناح الشمالي للجيش الرابع الروماني يكون من الحيوي كذلك جلب قوات على وجه السرعة من جبهة القوقاز لحماية تنفيذ الفيلق ٥٧ بانزر لمهمته بتغطية جناحه الأيمن العميق.

و في حال وقوع تأخير فمن المحتمل أن يعلق الفيلق ٥٧ بانزر على نهر ميشكوفا أو شماله أو يتم تكبيله بهجمات على جناحه الأيمن.

و في نفس الوقت يحتاج الجيش السادس أياماً قليلة لإعادة التجمع و التزود بالوقود قبل التحرك.

و ستدوم المؤن في الجيب إلى ٢١ ديسمبر، القوات تم إضعافها لدرجة سيئة (فقط ٢٠٠ جرام يومياً في الليلة السابقة)، و وفقاً للجيش السادس خرجت أغلبية الأحصنة من الخدمة بفعل الإعيار أو تم ذبحها لتناولها كغذاء.

فون مانشتاين

فيلد مارشال

قائد مجموعة الجيوش دون

٤

سري للغاية تم إصدار خمس نسخ

على يد ضابط فقط نسخة رقم ٤

١٩ ديسمبر، الساعة ١٨:٠٠

إلى الجيش السادس ، الجيش الرابع

١. هزم الجيش الرابع بانزر (الفيلق ٥٧ بانزر) العدو في منطقة فيرخني كيمسكي و بلغ نهر ميشكوفا عند نيزه كيمسكي، كما تم شن هجوم على تجمع معادي قوي في منطقة كامنكا و شمالها، و ما يزال يُتوقع قتال شرس.

لم يسمح الموقف على جبهة نهر تشير للقوات غرب نهر دون بالتقدم تجاه كالاتش، و وقعت تشيرسكايا في يد العدو.

٢. الجيش السادس سيبدأ هجوم "عاصفة الشتاء" في أقرب وقت ممكن، و سيكون الهدف هو الإتصال مع الفيلق ٥٧ بانزر و إن لزم الأمر يتم التقدم وراء دونسكايا تساريتسا بغرض تمرير القافلة عبرها.

٣. أي تطور للموقف سيجعل من الضروري تمديد المهمة الواردة في الفقرة الثانية إلى نهر ميشكوفا، الكلمة الشفرية هي "هزيم الرعد"، في هذه الحالة الهدف هو تأسيس إتصال مع الفيلق ٥٧ بانزر كذلك كي يتم تمرير القافلة و من ثمّ بواسطة تغطية الأجنحة على نهر كاربوفكا السفلي جلب الجيش نجو نهر "ميشكوفا" تزامناً مع إخلاء قطاع قطاع من منطقة الحصن.

من الضروري أن تتبع العملية "هزيم الرعد" فوراً هجوم "عاصفة الشتاء"،و يجب تنفيذ الإمداد جواً مباشرة دون أي تخزين سابق، و من المهم التمسك بمهبط الطائرات في بيتومنيك لأطول فترة ممكنة.

سيتم أخذ كل المدفعية و الأسلحة الممكن نقلها – للمدافع الأولوية لمتابعة القتال و كذلك الأسلحة التي يصعب إستبدالها، و لتحقيق ذلك يتعين تحريكها في وقت مناسب إلى جنوب غرب الجيب.

٤. يتم إتخاذ كل التحضيرات الضرورية للقيام بما هو مبين في الفقرة الثالثة، و لا يتم التنفيذ إلا عند الإصدار الصريح لـ"هزيم الرعد"

٥. يرجى الإبلاغ باليوم و الوقت الذي تكونان فيه قادرين على الهجوم طبقاً للفقرة الثانية.

فون مانشتاين

فيلد مارشال

النسخة رقم ١: ملف ضابط الإشارة

النسخة رقم ٢: الأسطول الرابع الجوي

النسخة رقم ٣: فرع العمليات

النسخة رقم ٤: اليوميات الحربية

النسخة رقم ٥: مسودة

عن الكاتب

هو "إريتش فون مانشتاين" المولود في برلين في ٢٤ نوفمبر ١٨٨٧، و إسمه الأوسط الأصلي هو "فون ليفينسكي"، و والده هو "إدوارد فون ليفينسكي" ضابط مدفعية ظل يترقى حتى صار قائداً لفيلق من الجيش، و حصل على إسم "فون مانشتاين" عقب تبني الجنرال "فون مانشتاين" صهر والدته لـ"إريتش".

إرتاد "إريتش فون مانشتاين" مدرسة "ستراسبورج" ثم قضى سبع سنوات في مدرسة عسكرية للصبيان، و عقب تخرجه في ١٩٠٦إلتحق بالفوج الثالث حرس، و قضى عاميّ ١٩١٣ و ١٩١٤ في الأكاديمية الحربية.

و قد خدم لدى إندلاع الحرب العالمية الأولى كمساعد للفوج الثاني حرس الإحتياطي في بلجيكا و بروسيا الشرقية و جنوب بولندا، و منذ مايو ١٩١٥ و عقب إصابته بشدة في نوفمبر ١٩١٤ خدم بنجاح ضمن طواقم الجيوش التي يقودها الجنرالات "فون جالفيتز" و "فون بيلو"، و في صيف ١٩١٥ شارك في الهجوم الواقع شمال بولندا، و قاتل في صربيا منذ خريف ذات العام حتى ربيع العام التالي، و في ربيع ١٩١٧ كان في "فيردن" في معركة السوم و في القتال على نهر "آن"، و في خريف ذلك العام تم تعيينه ضمن طاقم قيادة الفرقة الرابعة خيالة في "كورلاند" و في مايو ١٩١٨ تم نقله لقيادة الفرقة ٢١٣ مشاة في الغرب، كما شارك في هجمات على "ريمس" في مايو و يوليه ١٩١٨ و ظل يخدم في فرنسا حتى توقيع الهدنة.

خلال سنوات ما بعد الحرب تولى "فون مانشتاين" مناصب ضمن طواقم و أفواج متنوعة، و في١٩٣٤ صار رئيس أركان المنطقة العسكرية الثالثة في "برلين"، و في ١٩٣٥ رئيس فرع العمليات التابع لهيئة الأركان العامة للجيش، و في أكتوبر ١٩٣٦ تمت ترقيته لرتبة ميجور جنرال و صار رئيس فرع التموين و الإمداد مما جعله نائباً للجنرال "بيك" رئيس أركان الجيش.

و إبان إقالة "بارون فون فريتش" في فبراير ١٩٣٨ تم إعفاؤه من منصبه و نقله إلى "ليجنيتز" لقيادة الفرقة الثامنة عشر، و في نفس العام شارك في إحتلال أرض السوديت بإعتباره رئيس أركان أحد الجيوش.

و لدى إعلان التعبئة العامة في ١٩٣٩ صار "فون مانشتاين" رئيس أركان مجموعة الجيوش الجنوبية التي يقودها "فون رندستيدت" و مارس عمله بها خلال الحملة في بولندا، و في أكتوبر ١٩٣٩ تم نقله و "فون رندستيدت" بنفس الصفة إلى مجموعة الجيوش "أ" على الجبهة الغربية، و هنا تورط في صراع على خطة العمليات و التي لم يتبناها "هتلر" إلا بعد إبعاد "فون مانشتاين" عن مجموعة الجيوش و إرساله لقيادة أحد الفيالق، و قد قاد هذا الفيلق خلال الحملة في الغرب و تم منحه وسام صليب الفارس.

بعد إنتهاء القتال في فرنسا إنشغل "فون مانشتاين" لبعض الوقت في تدريب فيلقه لغزو بريطانيا.

في مارس ١٩٤١ تم تعيينه قائداً للفيلق ٥٦ بانزر و قاد تقدماً مدرعاً من شرق بروسيا إلى بحيرة "يورنين" عندما هاجمت ألمانيا الإتحاد السوفييتي، و في سبتمبر من ذات العام تمت توليته قيادة الجيش الحادي عشر و الذي قام على رأسه بغزو شبه جزيرة القرم و تحطيم الإنزالات البحرية الروسية في شبه جزيرة "كيرتش"، و بعد سقوط "سفاستبول" تمت ترقيته إلى رتبة فيلد مارشال.

في أغسطس ١٩٤٢ تم تكليف "فون مانشتاين" بمهمة الإستيلاء على "لينينجراد" و لكن لم يتم تنفيذ ذلك قط، و لكنه مسئول على الرغم من ذلك عن تدمير جيش سوفييتي على بحيرة "لادوجا".

في ١٩٤٢ و عقب إختراق الروس جانبي "ستالينجراد" و تطويقهم الجيش السادس تماماً تولى "فون مانشتاين" قيادة مجموعة الجيوش "دون" (الجنوبية لاحقاً)، و بعد محاولة فاشلة لإنقاذ الجيش السادس قام بتوجيه القتال الكثيف لهدف حماية الجناح الجنوبي الألماني و أحرز نصراً مؤزراً في "خاركوف" في مارس ١٩٤٣، و بسبب ذلك تم منحه وسام أوراق البلوط إضافة إلى صليب الفارس الذي حصل عليه مسبقاً.

في صيف ١٩٤٣ شارك "فون مانشتاين" في آخر هجوم ألماني في الشرق و هو العملية "قلعة"، و بعد إلغائها قاد مجموعة الجيوش الجنوبية في خضم عدد من المعارك الدفاعية الصعبة و التي تضمنت الإنسحاب لما وراء نهر "دنيبر"، و في نهاية مارس ١٩٤٤ و عندما كانت الجيوش الألمانية قد تقهقرت حتى حدود بولندا تم إعفاء "فون مانشتاين" من القيادة نتيجة لإختلافه مع "هتلر" حول إدارة العمليات في الشرق، و برغ

تكريمه بمنحه السيوف إضافة إلى صليب الفارس عرفاناً بخدماتها إلا أنه لم يتم توظيفه مجدداً في أي منصب.

في يوم ٢٠ يوليه ١٩٤٤ تمت محاولة فاشلة لإغتيال "هتلر" تمهيداً لإنقلاب عسكري و كان "فون مانشتاين" حينئذٍ في منتجع مطل على بحر البلطيق، و برغم إلتقاؤه مرات عدة بثلاثة من المتآمرين الرئيسيين و هم "كلاوس فون ستافنبرج" و "هينينج فون تريسكو" و "رودولف كريستوف فون جيرسدروف" إلا أنه لم يتورط في تلك المؤامرة وقال حينئذٍ : **"إن الفيلد مارشالات البروسيين لا يتمردون"**، و رغم ذلك وضعت الشرطة السرية (الجستابو) منزل "فون مانشتاين" تحت المراقبة.

في أكتوبر ١٩٤٤ إشترى "فون مانشتاين" عقاراً في بوميرانيا الشرقية و لكنه إضطر للتخلي عنه بعد ذلك بسبب تقدم القوات السوفييتية و إجتياحها لتلك المنطقة، كما إضطر لإخلاء منزله في "ليجنيتز" في ٢٢ يناير ١٩٤٥ و لجأ مع أسرته إلى أصدقائه مؤقتاً في "برلين"، و هناك حاول "فون مانشتاين" مقابلة "هتلر" في قبوه لكن بلا جدوى، و قد إضطر للترحال غرباً مع أسرته حتى إنتهت الحرب في أوربا بهزيمة ألمانيا في مايو ١٩٤٥، و بينما كان يُعالج من مرض أصاب عينه اليمنى في مستشفى بـ"هيليجنهافن" ألقى البريطانيون القبض عليه و تم نقله لمعسكر للأسرى قرب "ليونبرج" في ٢٦ أغسطس ١٩٤٥.

في أكتوبر ١٩٤٥ تم نقل "فون مانشتاين" إلى "نورمبرج" و تم إحتجازه في قصر العدالة المنعقدة فيه محاكمات "نورمبرج" مع كبار القادة النازيين المتهمين بإرتكاب جرائم حرب، و قد أعد "فون مانشتاين" مذكرة من ١٣٢ ورقة للدفاع عنه و عن القيادة العليا للفيرماخت و عن هيئة الأركان العامة أمام المحكمة المنعقدة بتاريخ أغسطس ١٩٤٦، و في سبتمبر ١٩٤٦ تقررت براءتهم جميعاً إلا أن السلطات البريطانية إستمرت في إحتجازه كأسير حرب في "ويلز"، و هناك تم عزله عن بقية السجناء و معاملته جيداً و كان الكاتب البريطاني "بي إتش ليدل هارت" على إتصال به و ساعده في ١٩٥٨ على نشر كتابه "إنتصارات ضائعة" باللغة الإنجليزية، و في ١٩٤٨ قررت الحكومة البريطانية بضغط من الإتحاد السوفييتي محاكمة "فون مانشتاين" على جرائم حرب، و تم نقله مع ثلاثة من كبار الضباط الألمان و هم "جيرد فون رندستيدت" و "والتر فون براوخيتش" و "أدولف ستراوس" إلى معسكر للتدريب في "مونستر" حيث إنتظروا محاكمتهم هناك، و لكن "فون بواخيتش" توفي في أكتوبر من ذات العام و تم

إطلاق سراح الإثنيين الآخرين لدواعي طبية في مارس ١٩٤٩، أما "فون مانشتاين" فقد إنعقدت محاكمته في "هامبورج" بألمانيا من أغسطس و حتى ديسمبر ١٩٤٩.

تم توجيه ١٧ تهمة لـ"فون مانشتاين" تتعلق بجرائم حرب أدين بإرتكاب تسع منها و حوكم بالسجن لمدة ١٨ سنة، فقام "ليديل هارت" بحملة صحفية نعت الحكم فيها بالقرار السياسي مما أدى لتخفيفه إلى ١٢ سنة في فبراير ١٩٥٠.

في السابع من مايو ١٩٥٣ تم إطلاق سراحه لدواعي صحية و تحت ضغط رجال مثل "وينستون تشرشل" و "ليديل هارت"و غيرهما من داعميه.

في ١٩٥٥ تم إستدعاء "فون مانشتاين" بواسطة وزارة الدفاع الألمانية لوضع خطة إعادة بناء الجيش الألماني، و في ذات العام تم نشر مذكراته "إنتصارات ضائعة - Verlorene Siege" في ألمانيا الغربية، و ترجمت للغة الإنجليزية في ١٩٥٨ لتوزيعها عالمياً.

و توفي "فون مانشتاين" في ليلة التاسع من يونيه ١٩٧٣ عن عمر ٨٥ سنة بأزمة قلبية مفاجئة، و لكونه الفيلد مارشال الألماني الوحيد على قيد الحياة فقد تم دفنه بمراسم تشريفية عسكرية و حضر جنازته مئات الجنود من كل الرتب و الطبقات، و قالت مجلة "زا تايمز" البريطانية رثاءً له: **"إن تأثيره ينبع من قوى العقل و عمق المعرفة أكثر من توليد أثر بارق حال وسط القوات أو فرض شخصيته عليها"**، و لكن كانت مجلة "شبيجل" أشد في كلماتها حيث قالت: **"إنه ساهم في المسيرة إلى الكارثة مضللاً بواسطة الإحساس الأعمى بالواجب"**

و قد حصل "فون مانشتاين" طوال حياته على الأوسمة و الأنواط التالية:

١. الصليب الحديدي من الطبقتين الأولى و الثانية في ١٩١٤.

٢. صليب الفارس من فئة البيت الملكي هوهنزولرن بالسيوف.

٣. صليب الفارس من الطبقة الأولى من فئة فريدريك.

٤. صليب الخدمات المخلصة .

٥. صليب هانسياتك .

٦. شارة الجريح في ١٩١٨ باللون الأسود.

٧. وسام طول الخدمة بالفيرماخت من الطبقات الأولى و الثانية و الثالثة والرابعة.

٨. مشبك الصليب الحديدي من الطبقة الثانية في ١٦ سبتمبر ١٩٣٩ و الأولى في ٢١ سبتمبر ١٩٣٩.

٩. درع القرم المصنوع من الذهب.

١٠. وسام ميشيل الشجاع.

١١. صليب الفارس من الصليب الحديدي المحاط بأوراق البلوط مع السيوف.

الصور



الكاتب في ١٩٤٤



الكاتب مع هتلر



مع الكولونيل جنرال ديمتريسكو



الكاتب مع المارشال أنتونيسكو



مع كامف و بوس خلال العملية قلعة



في عربة أمام لينينجراد (من اليسار الجنرال شولز و العقيد بوس و الكاتب و الرائد أيزمان و الملازم سببيشت)



مقر القيادة في فينيستا



في مقر قيادة الفرقة الخمسين في القرم



مع أفراد من الأقلية الألمانية في سيبنبرجن برفقة نجله جيرو (بجانبه) و الملازم سبيشت ظهره (للكاميرا)



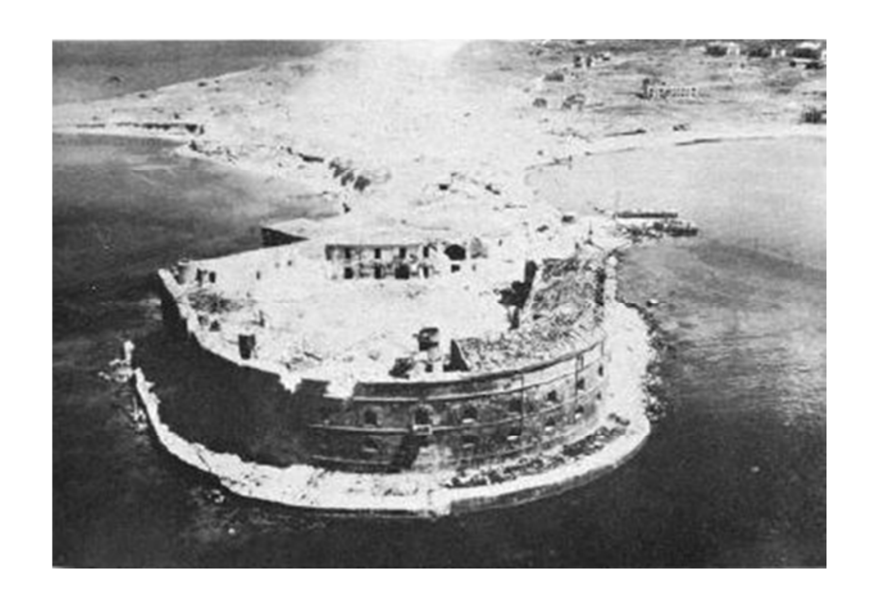
الشاطئ الجنوبي للقرم



صورة جوية لسفاستبول وهي تحت القصف



النقطة الحصينة ماكسيم جوركي ١



حصن روسي على مدخل خليج سفاستبول



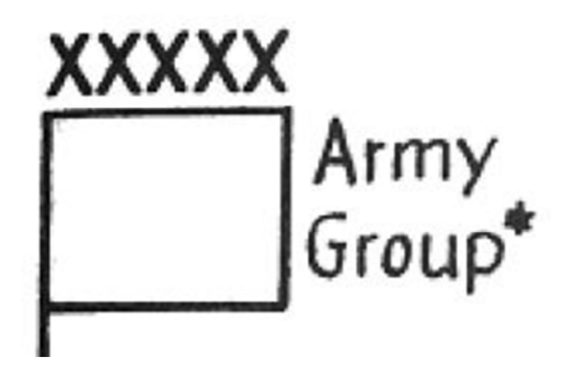
مانشتاين في إستقبال هتلر في إحدى زيارات الأخير لمجموعة الجيوش الجنوبية



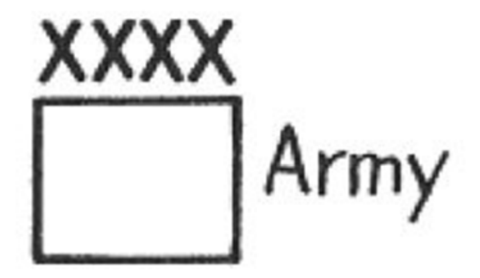
الفيلد مارشال/ إريتش فون مانشتاين

الخرائط

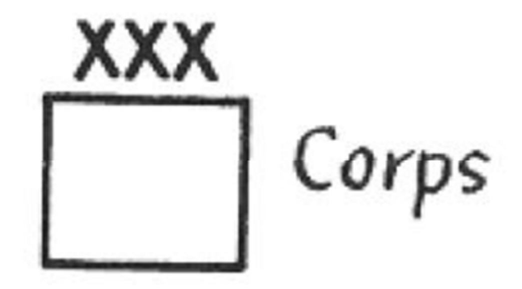
مفاتيح الخريطة:



مجموعة جيوش



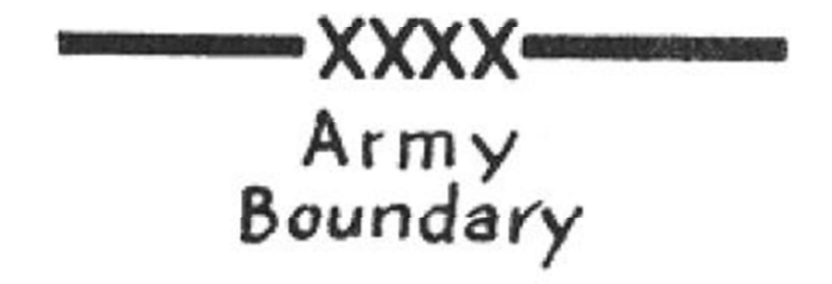
جيش



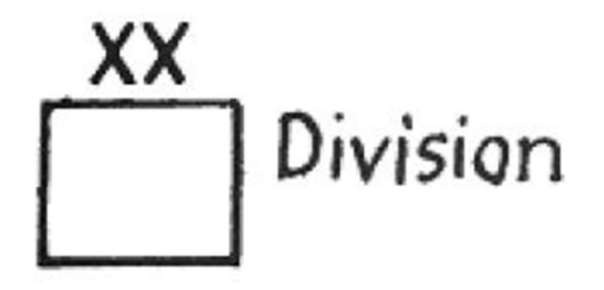
فيلق

XXXXX
Army Group
Boundary

حدود مجموعة الجيوش



حدود جيش



فرقة



لواء (أو مجموعة أفواج قتالية)



مشاة



مشاة جبلي



خيالة



مظليون (المظلات)



مدرعات

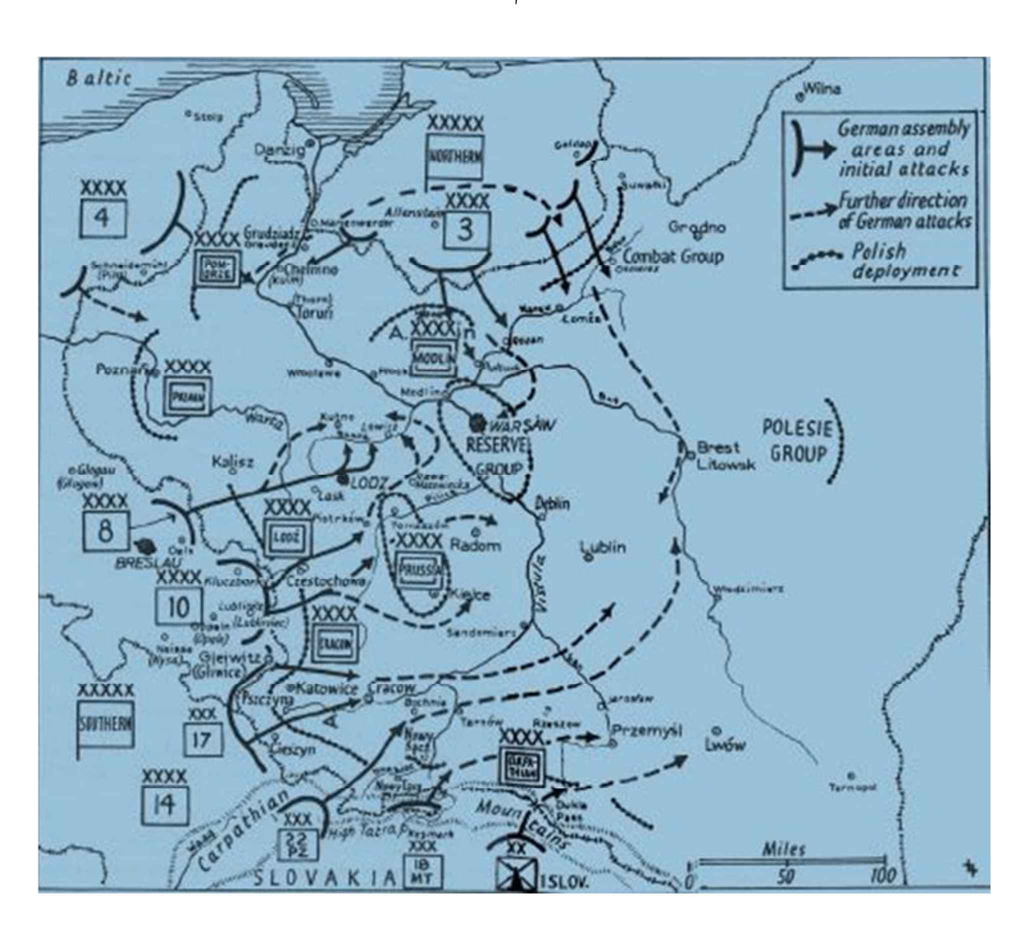


وحدة تابعة للقوات الجوية



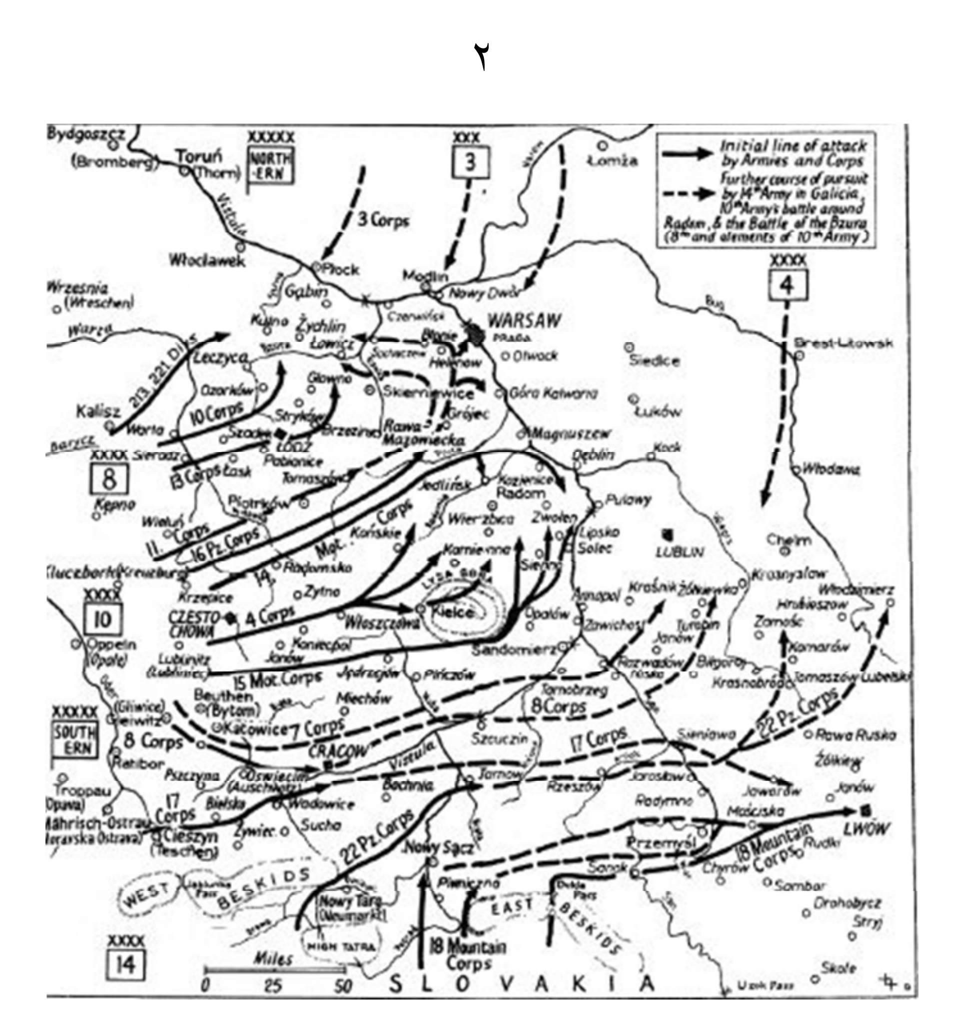
تشكيلات معادية

١



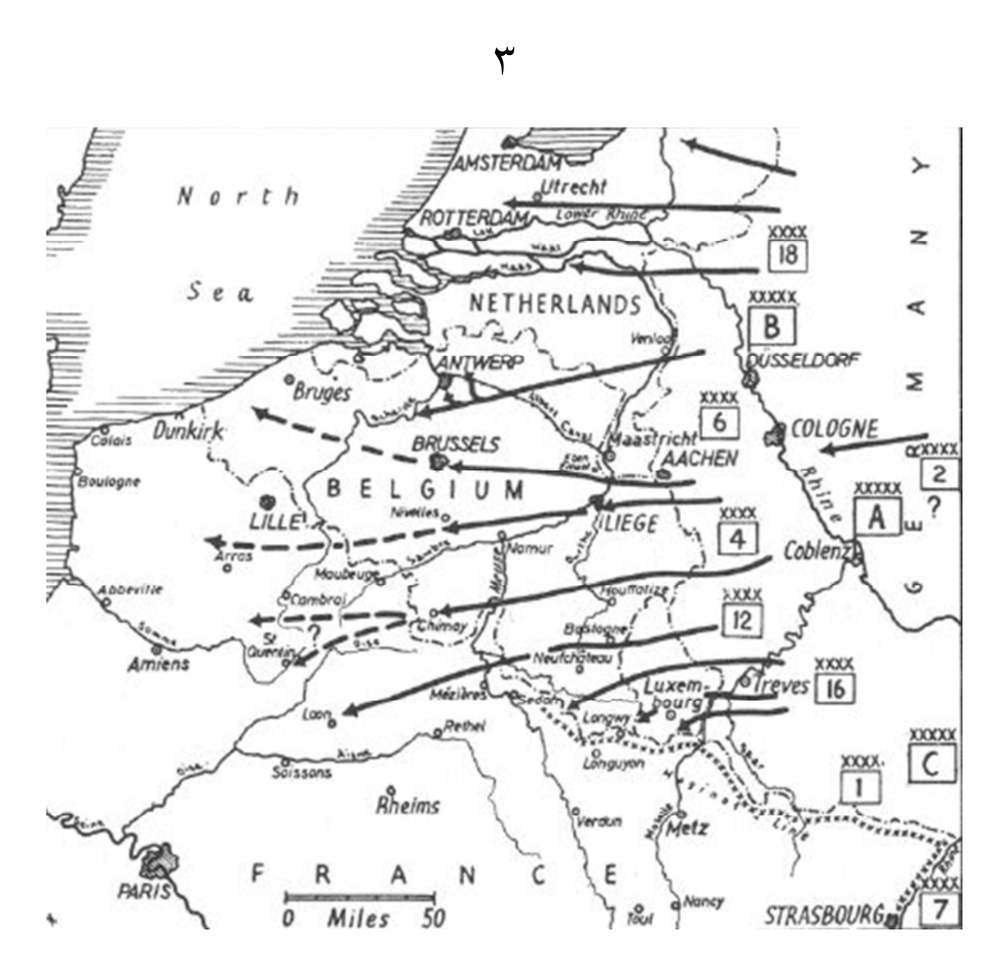
عملية الإنتشار و التموضع التي نفذتها بولندا و ألمانيا، و تنفيذ الهجوم الألماني

٢



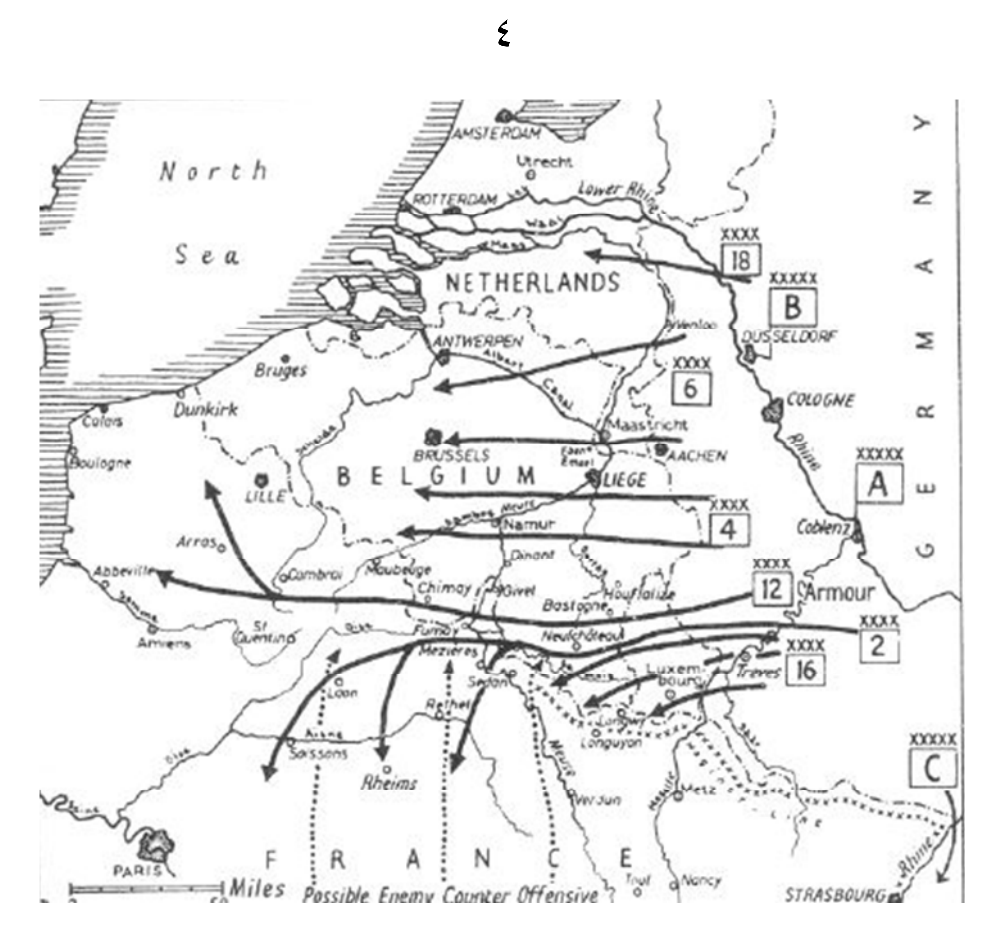
عمليات مجموعة الجيوش الجنوبية إبان الحملة البولندية

٣



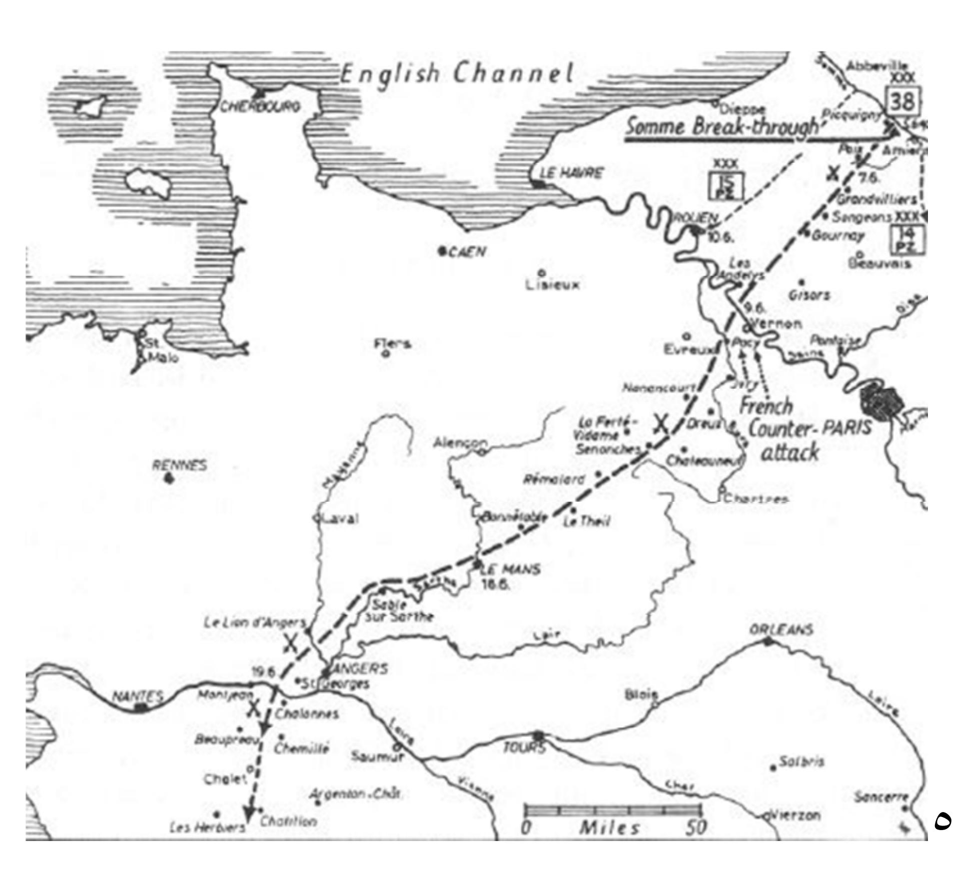
خطة العمليات التي وضعتها القيادة العليا للجيوش الألمانية للهجوم على الغرب

٤



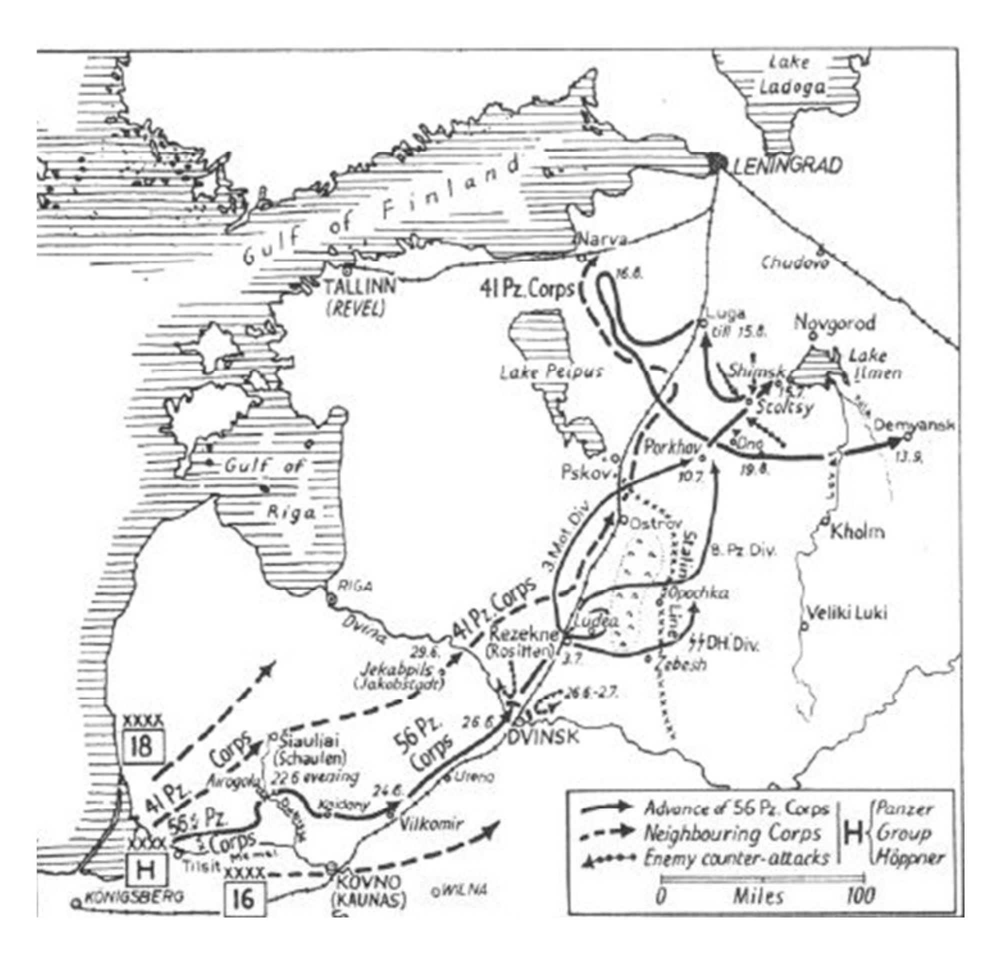
الخطة المقترحة من طرف مجموعة الجيوش أ بشأن العمليات الألمانية في الغرب

٥



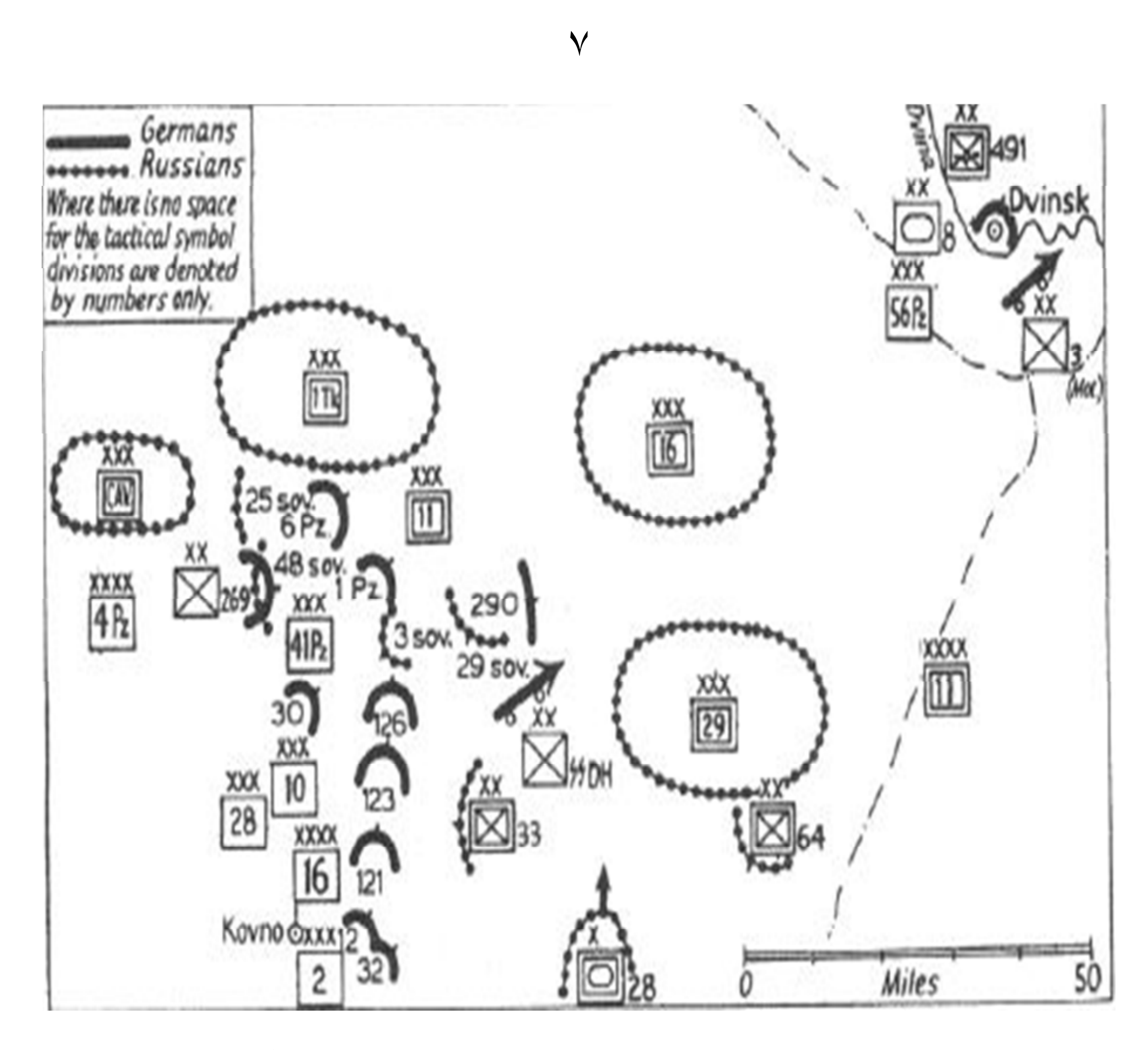
تقدم الفيلق الثامن و الثلاثين من نهر السوم إلى نهر اللوار

٦



تقدم الفيلق السادس و الخمسين داخل الأراضي الروسية

٧



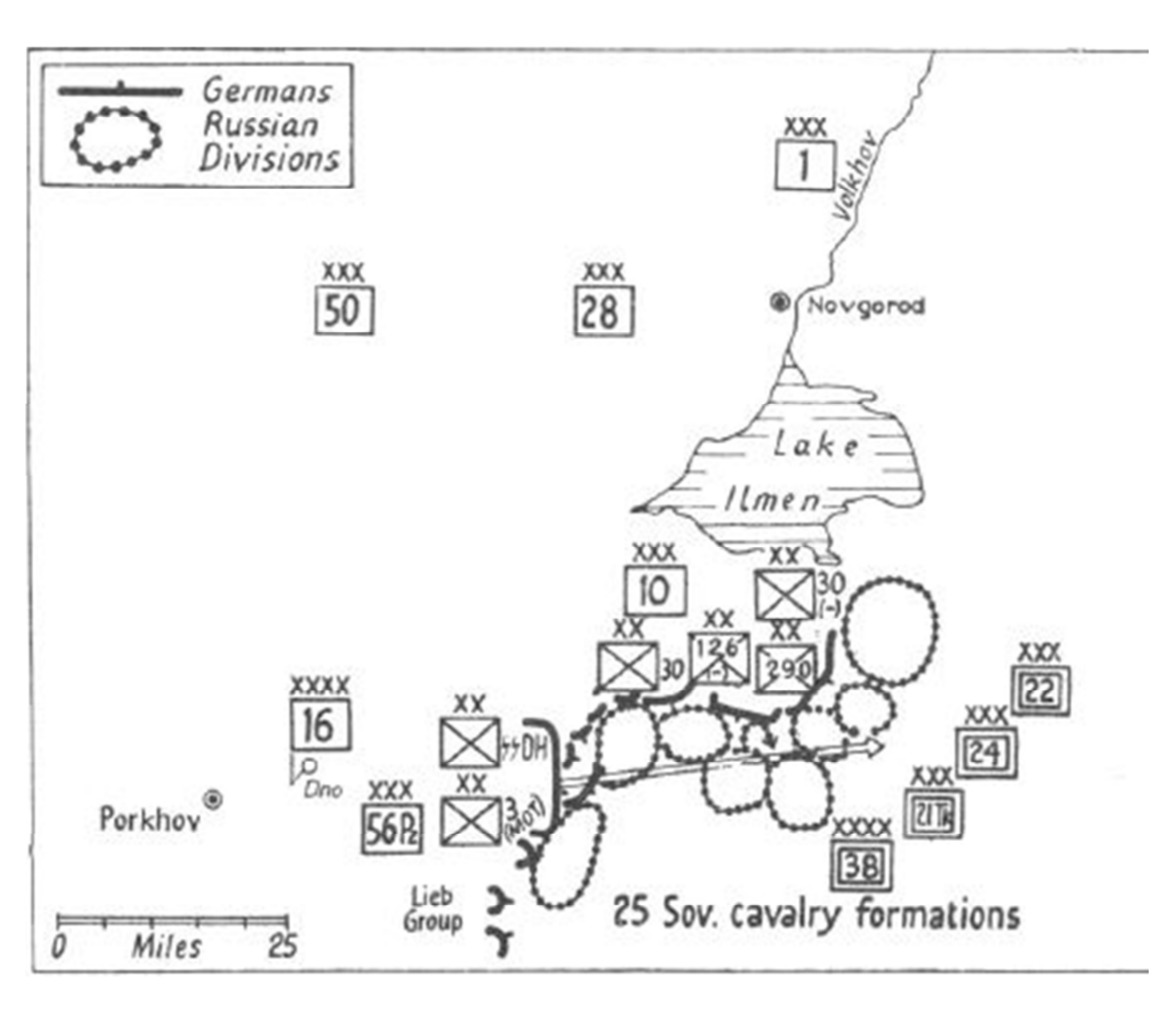
موقف مجموعة الجيوش الشمالية في ٢٦ يونيه ١٩٤١ عقب سيطرة الفيلق السادس و الخمسين على دواغافبيلس

٨

Germans
Russians
Narva
Narva
Lake Peipus
Luga
Novgorod
Lake Ilmen
Zaltsy
Dno
Porkhov
Pskov
38 Corps
Miles 0 25
(Remnants)

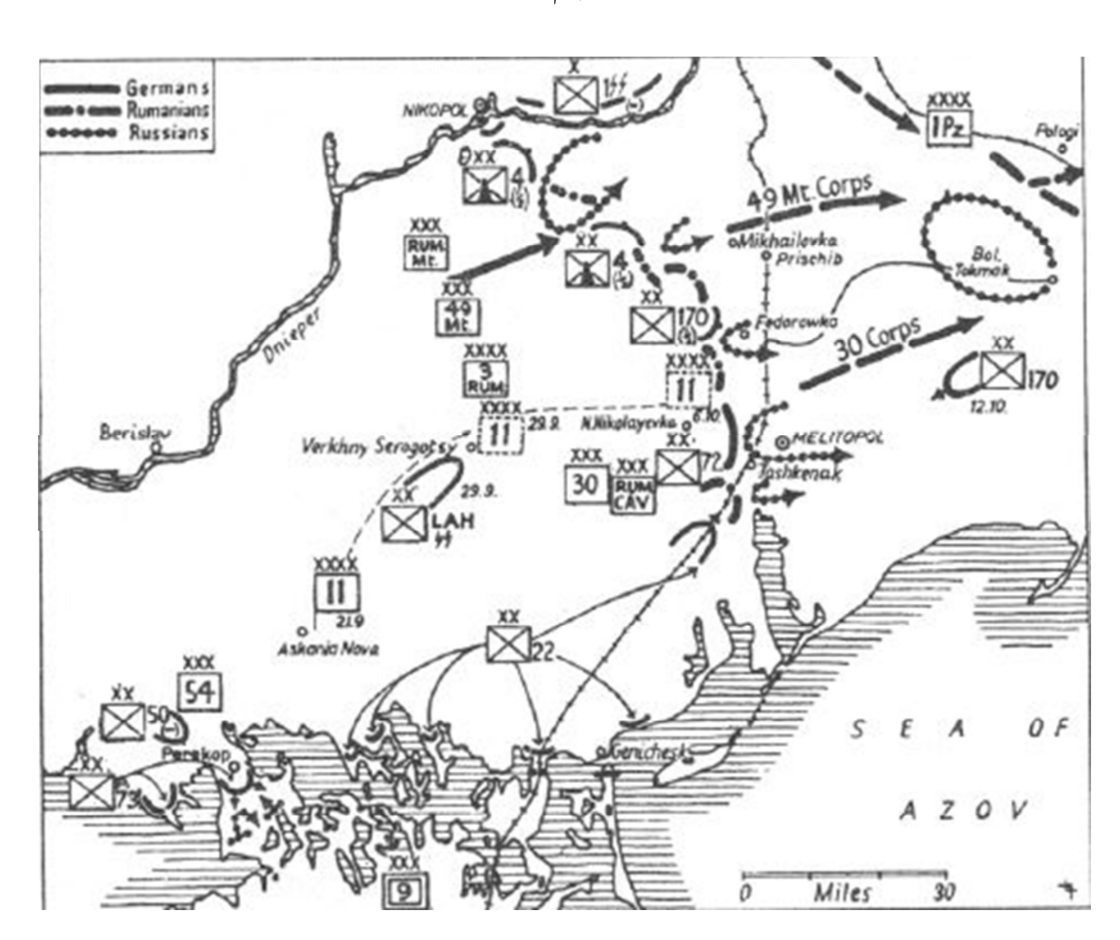
تطويق الفيلق السادس و الخمسين في زولتسي ١٥ -١٨ يوليه ١٩٤١

٩



تقدم الفيلق السادس و الخمسين داخل جناح الجيش الثامن و الثلاثين السوفييتي في ١٩ أغسطس ١٩٤١

١٠



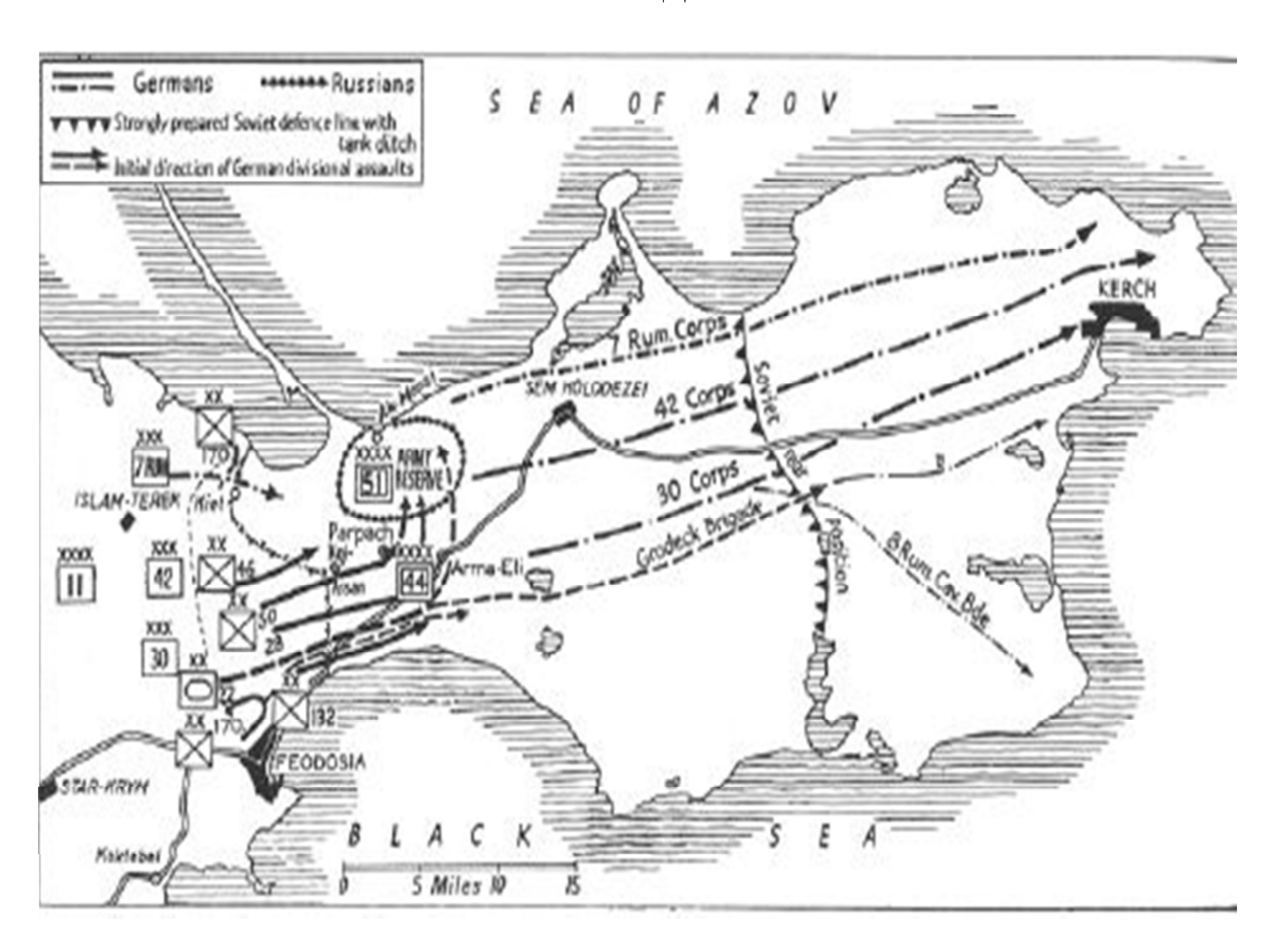
المعركة على بحر آزوف و إختراق برزخ بيريكوب

١١



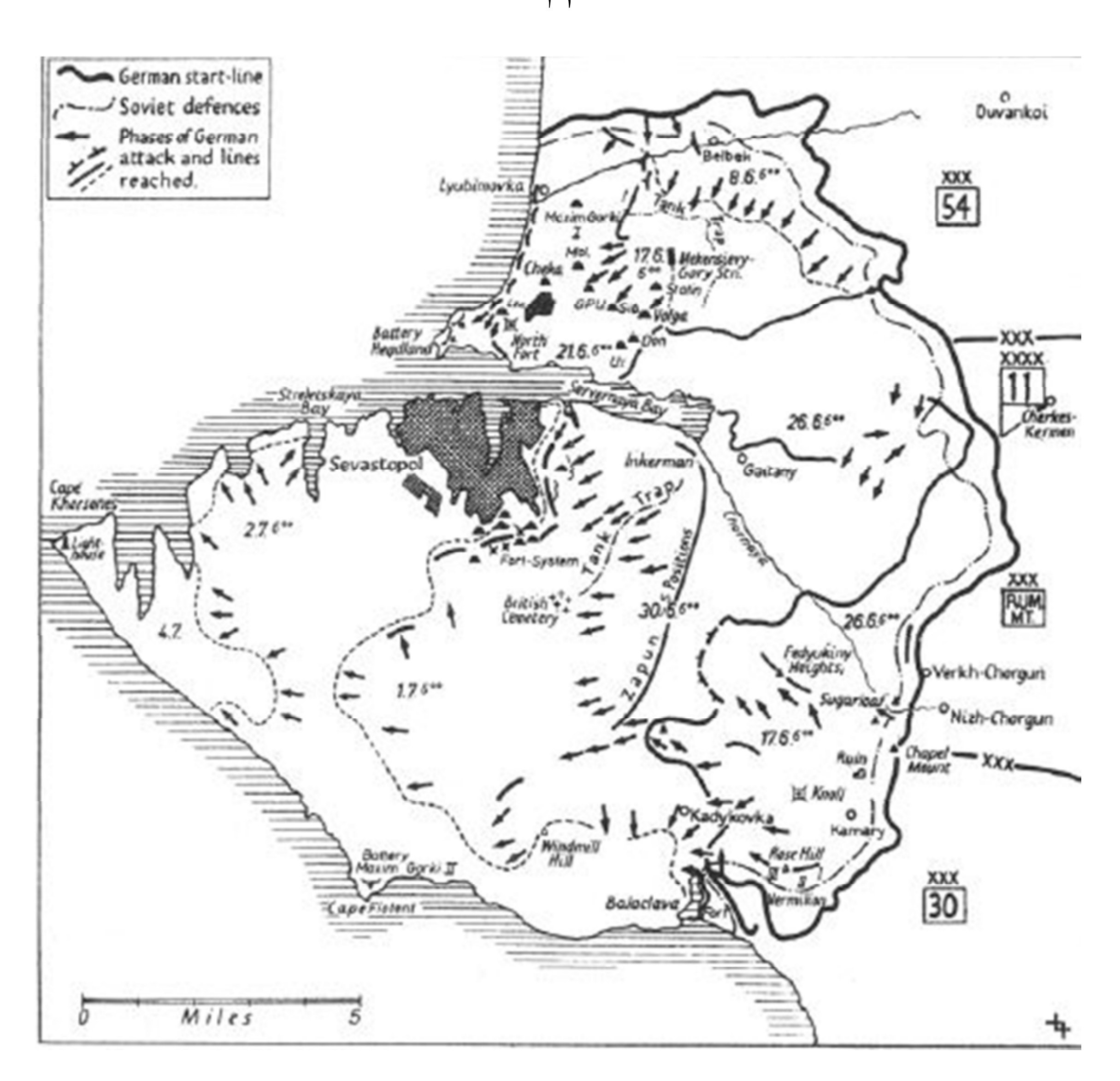
الإختراق في إشون و غزو القرم في خريف ١٩٤١

١٢



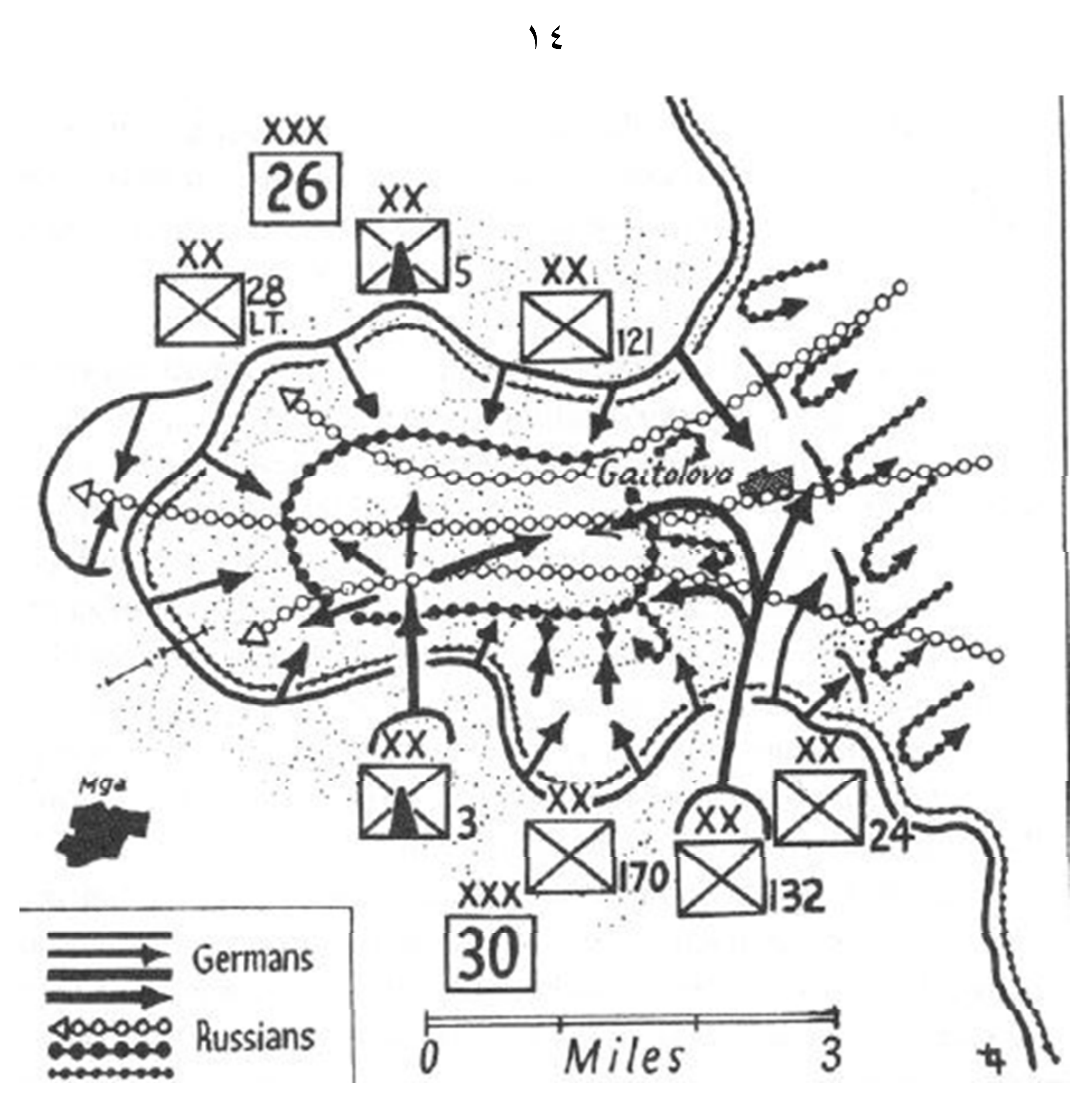
إعادة غزو شبه جزيرة كيرتش في مايو ١٩٤٢

١٣



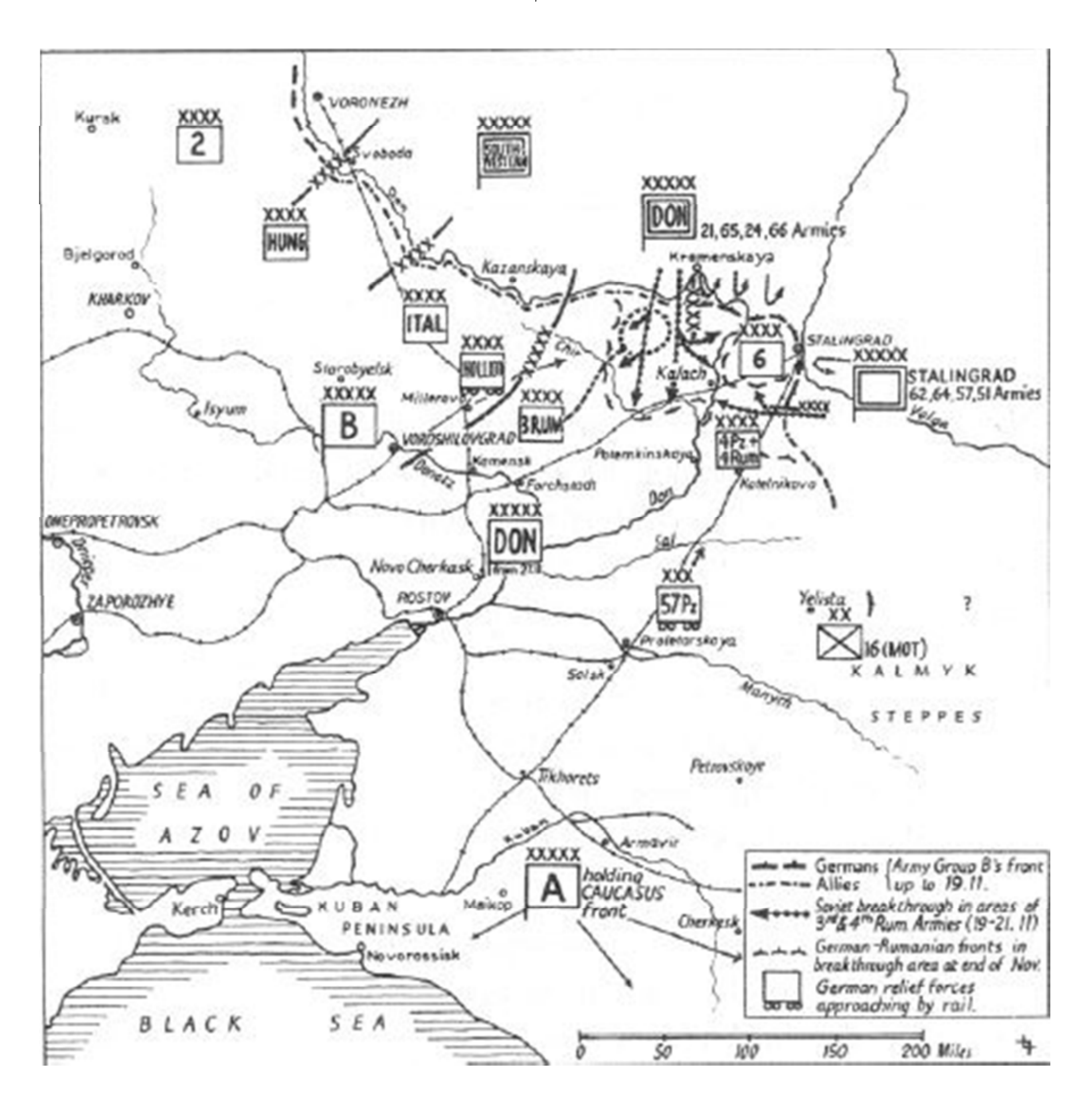
غزو سفاستبول يونيه – يوليه ١٩٤٢

١٤



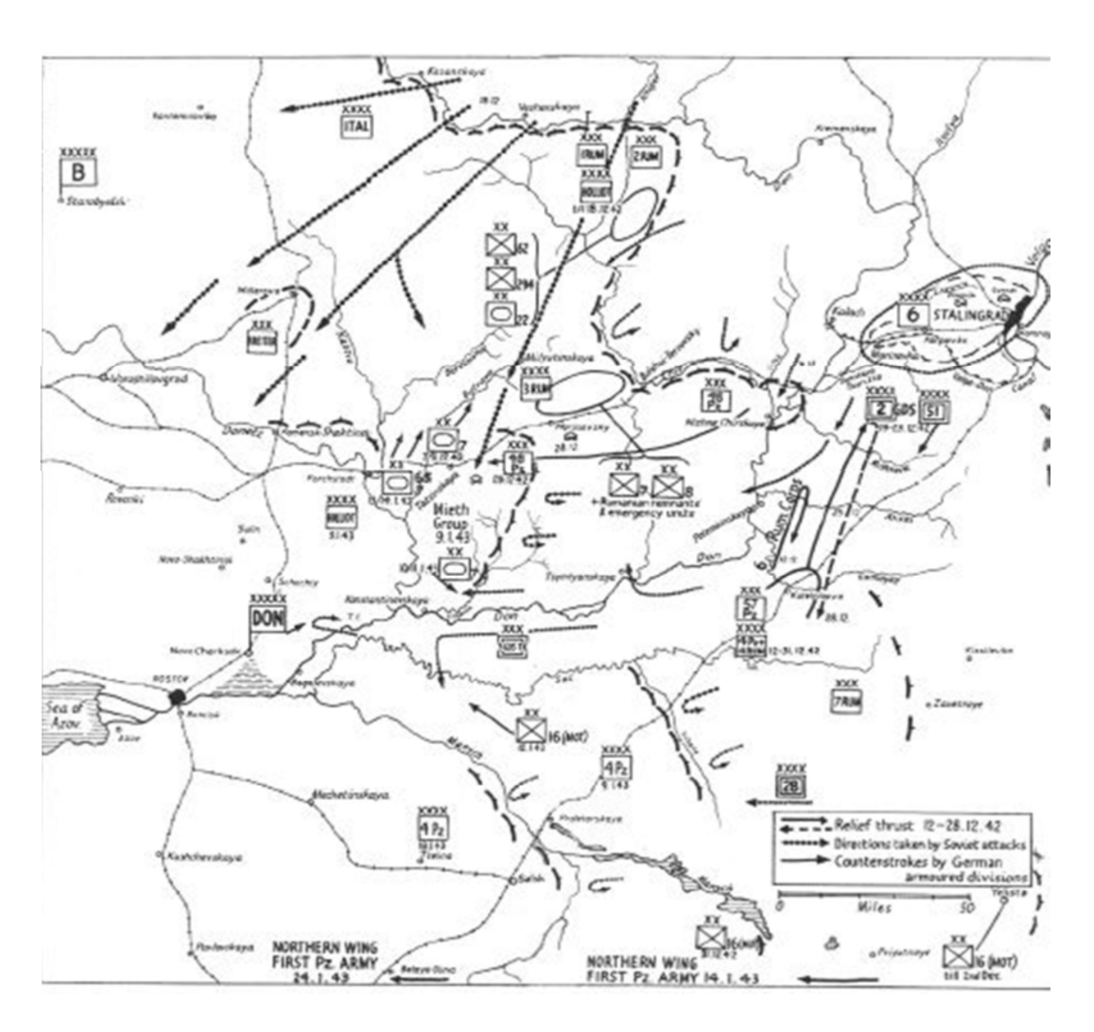
معركة بحيرة لادوجا سبتمبر ١٩٤٢

١٥



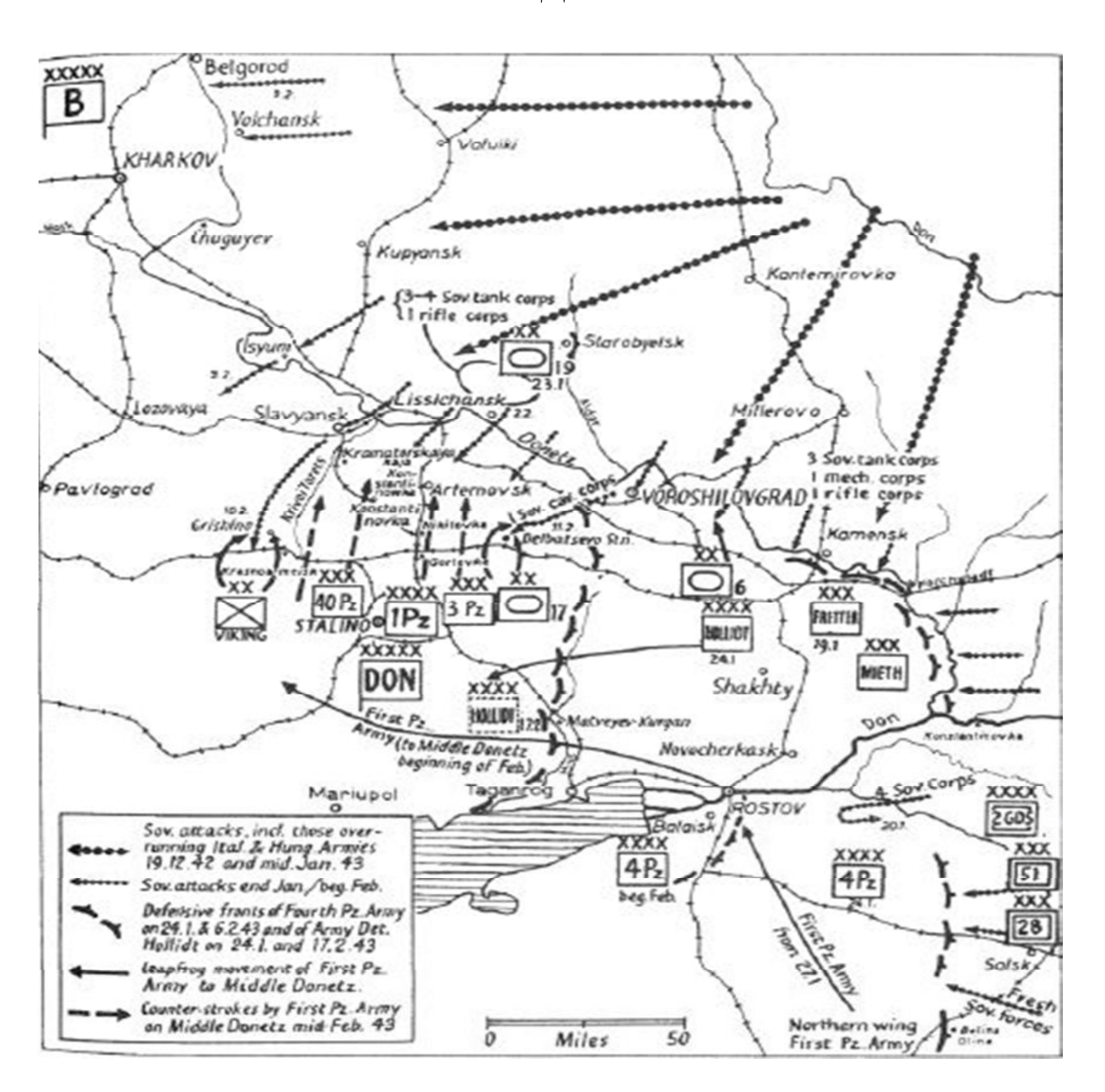
الموقف على الجناح الجنوبي الألماني في نوفمبر ١٩٤٢ و النضال لتحرير الجيش السادس

١٦



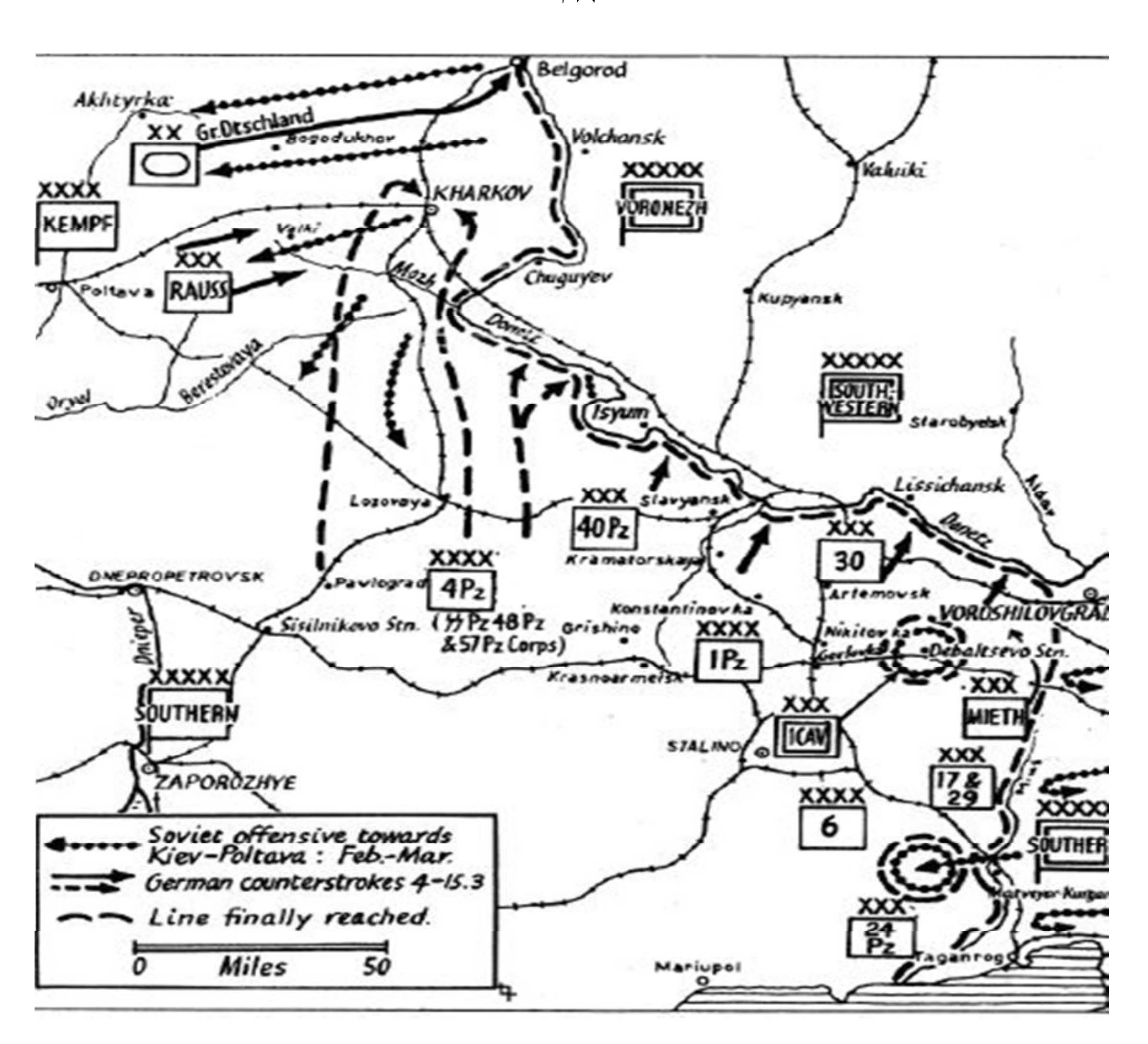
حملة شتاء ٤٣/١٩٤٢: نضال مجموعة الجيوش دون للإبقاء على مؤخرة مجموعة الجيوش أ حرة

١٧



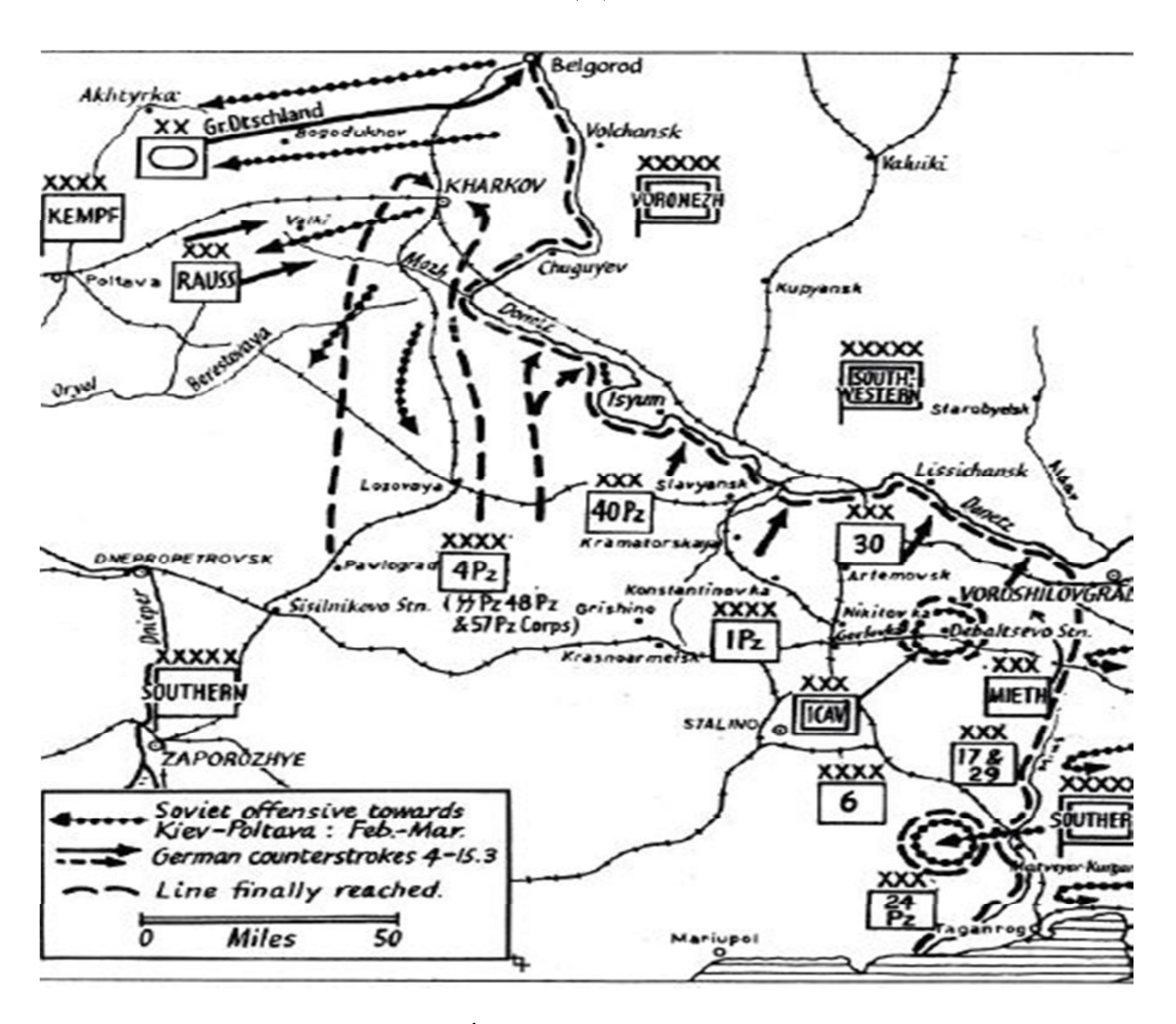
حملة شتاء ٤٣/١٩٤٢ : معارك مجموعة الجيوش دون لإبقاء منطقة الإتصالات مفتوحة

١٨



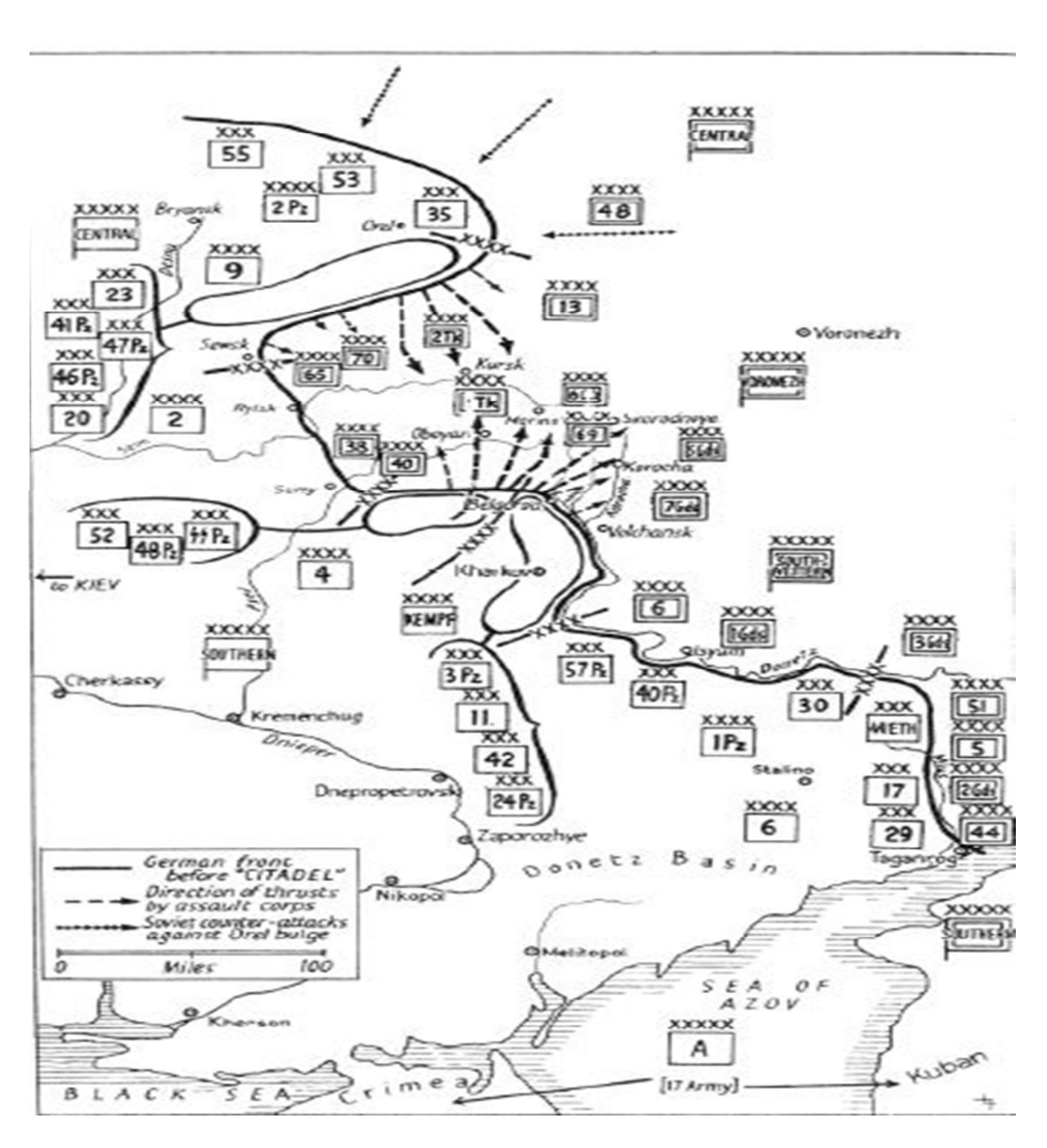
حملة شتاء ٤٣/١٩٤٢: الهجوم المضاد الألماني و المعركة بين نهري دونتز و دنيبر

١٩



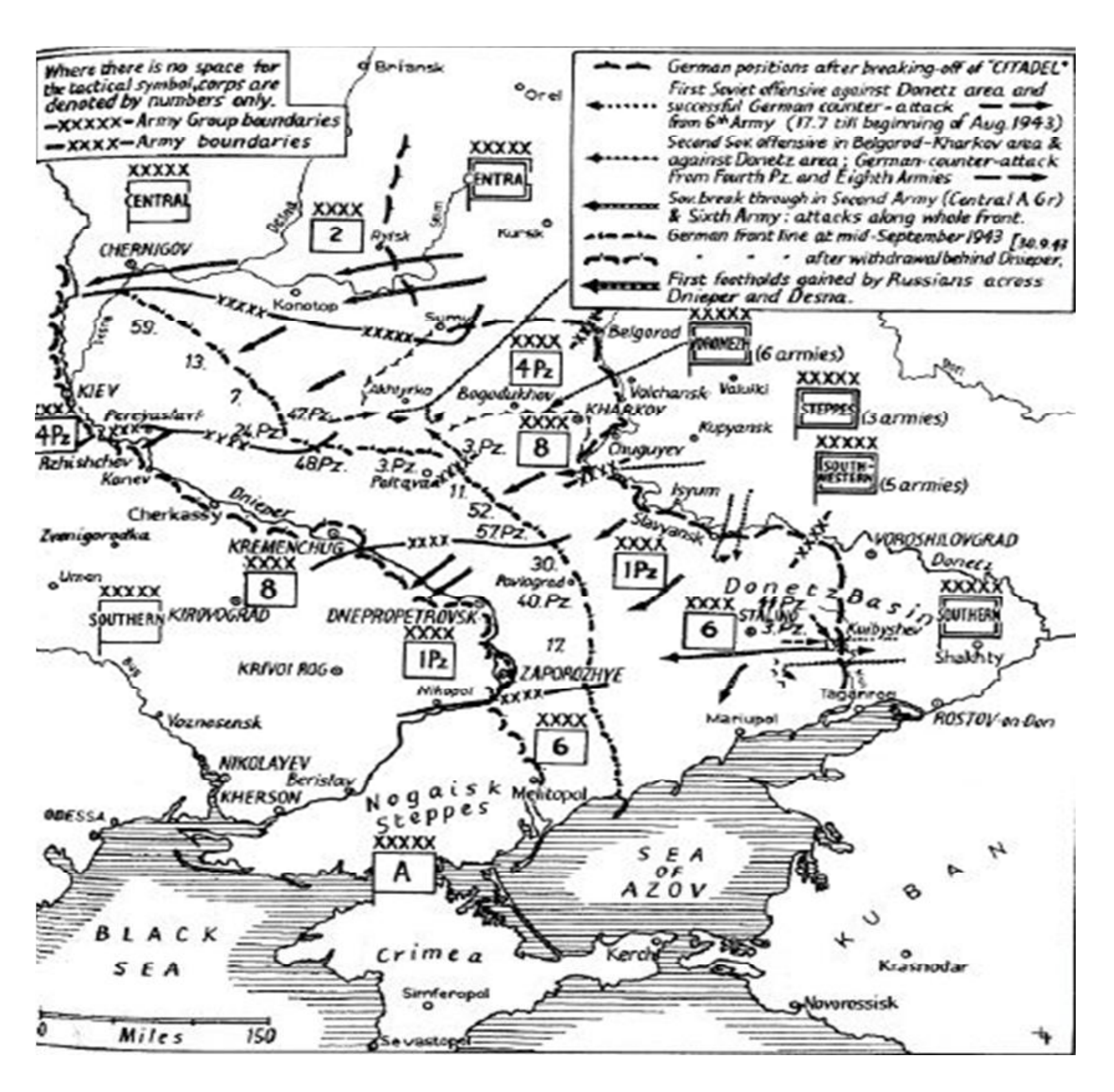
حملة شتاء ٤٣/١٩٤٢: الهجوم المضاد الألماني و معركة خاركوف

٢٠



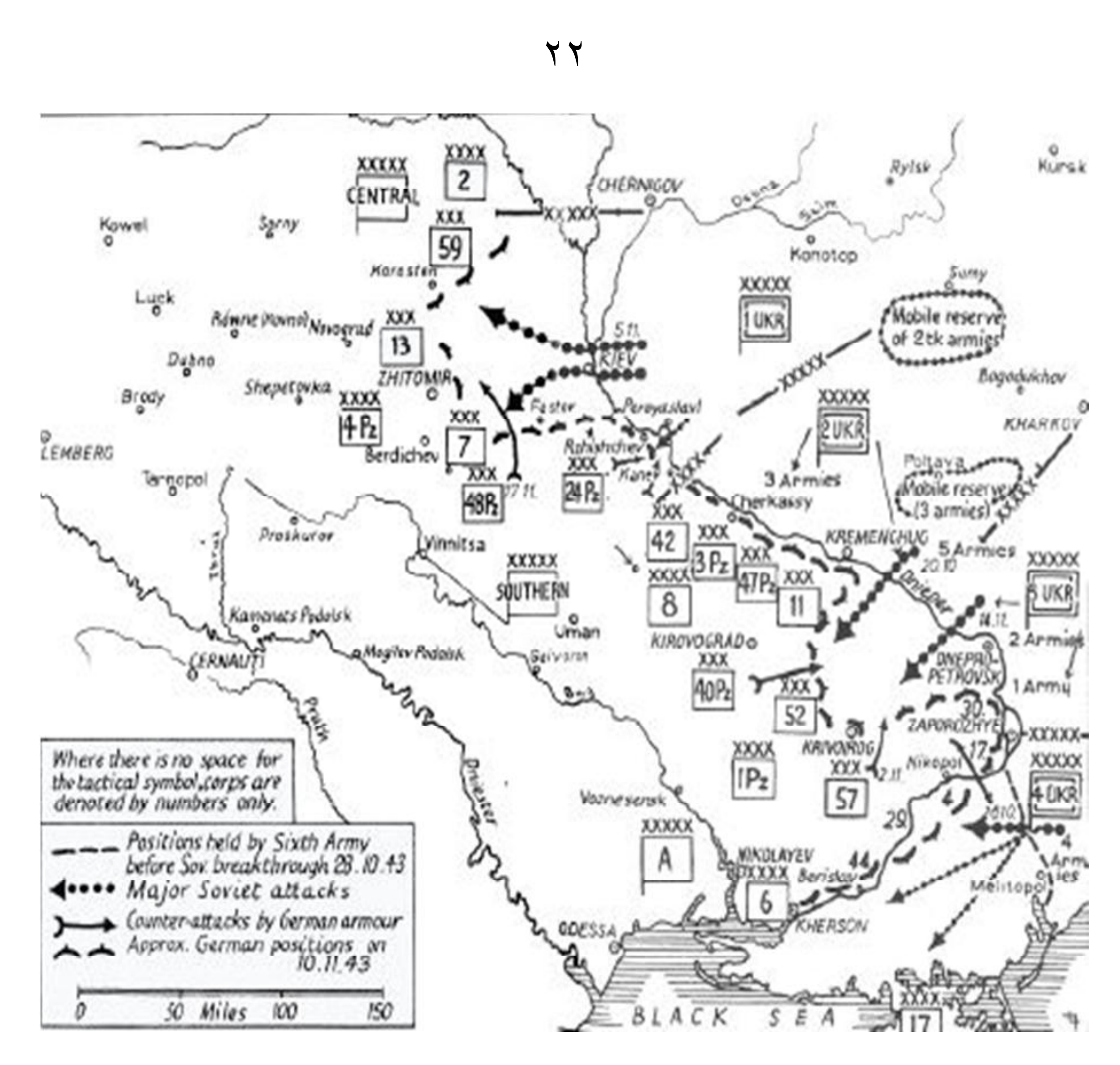
العملية قلعة يوليه ١٩٤٣

٢١



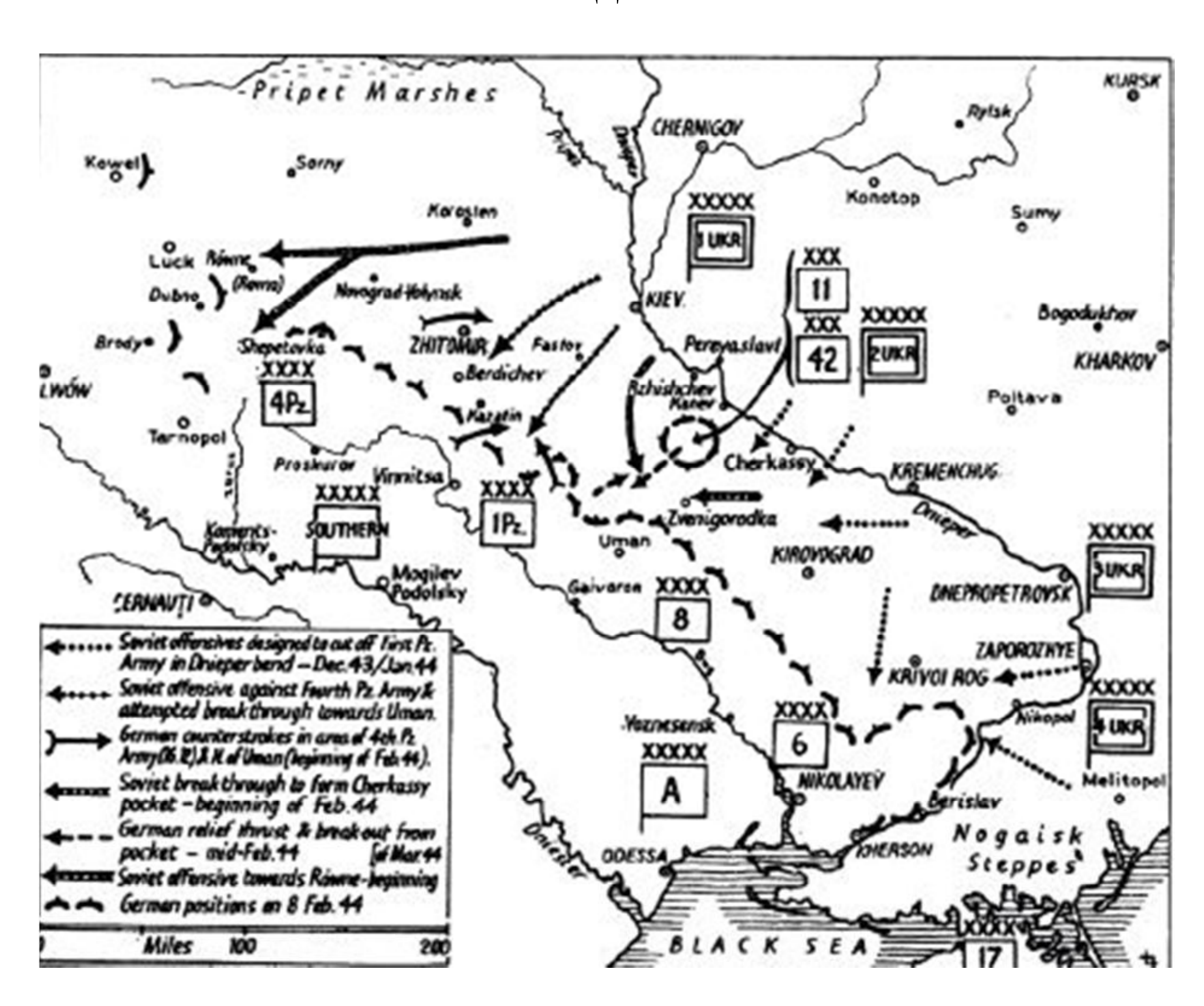
المعارك التي خاضتها مجموعة الجيوش الجنوبية منذ ١٧ يوليه حتى ٣٠ سبتمبر ١٩٤٣

٢٢



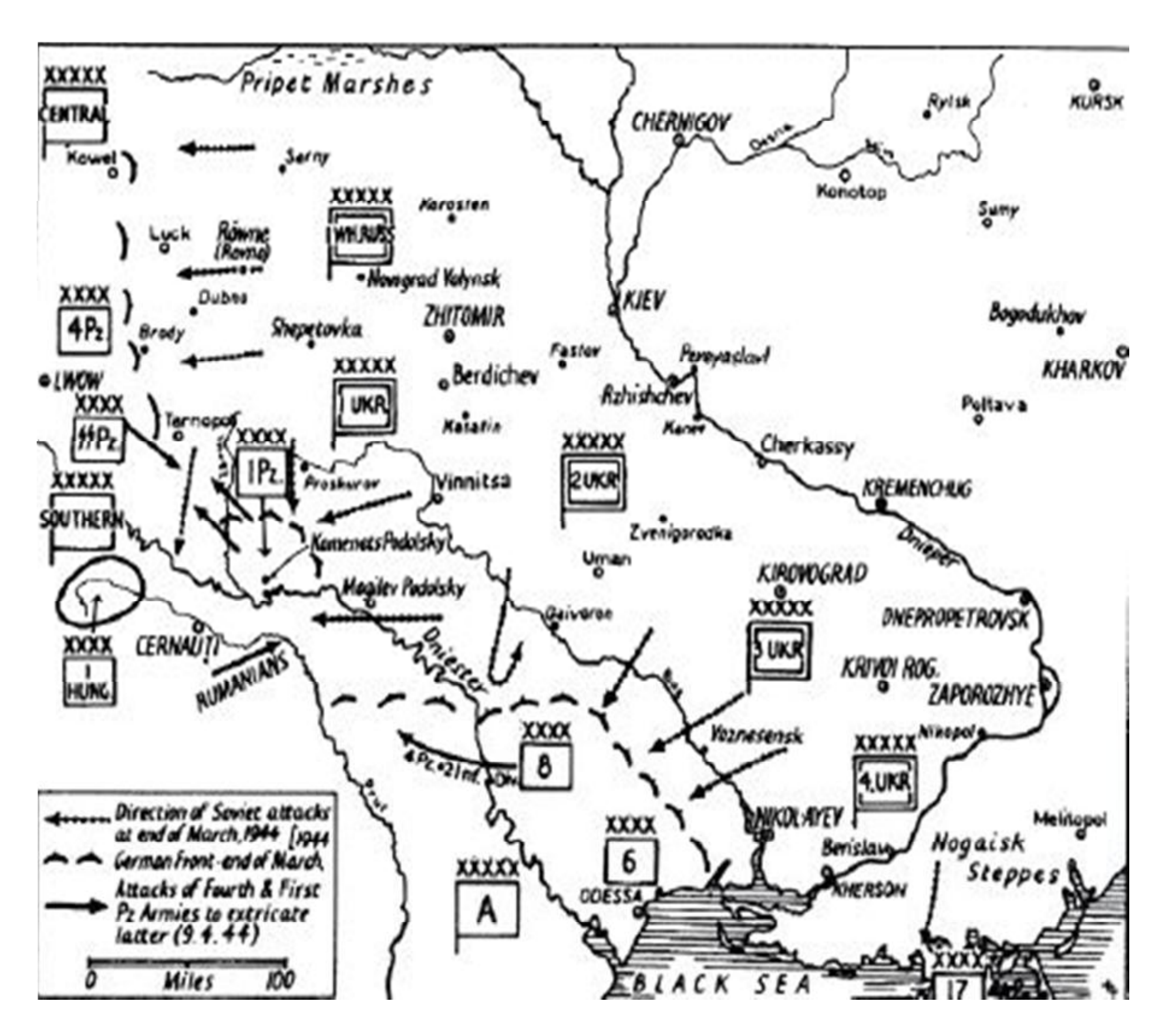
القتال على ثنية نهر دنيبر

٢٣



المعارك التي خاضتها مجموعة الجيوش الجنوبية حتى منتصف فبراير ١٩٤٤

٢٤



التطورات على الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية في مارس ١٩٤٤

تم بحمد الله